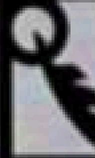
مُحمَّد البَاز

هِيكَل

المُذكِّـرات المَخفيَّـة

الطبعة الثالثة





MOHAMED KHATAB



محاولة للاقتراب

1

الأستاذ يقودنى إلى سيرته الذاتية

كان يومًا من أيام صيف العام 2005.

الفصل الخانق لا يزال فى بدايته، يتوعد القاهرة المزدحمة بمزيد من الضيق والتوتر، ويحبس الأنفاس استعدادًا لانتخابات رئاسية يتنافس فيها عشرة مرشحون، النتيجة كانت محسومة ومحددة سلفًا، لكننا تركنا أنفسنا للعبة سياسية، نتفاعل مع أحداثها ونسجل أهدافًا فى بعضنا البعض من باب التسلية انتظارًا لكلمة المخرج الأخيرة بإيقاف التصوير.

وقفت أمام الأستاذ محمد حسنين هيكل، بعد مقابلة كان مقررًا لها عشرون دقيقة فقط، فطالت لأكثر من سبعين دقيقة.

قال لى: سمعت منك وسمعت منى.. لكنك لم تخبرنى سبب الزيارة؟

لم يكن فى ذهنى شىء محدد، فزيارة الأستاذ الكبير والجلوس إليه والاستماع له سبب كاف جدًا لطلب اللقاء والإلحاح عليه.

وقتها كنت أكتب فى جريدة العربى التى يرأس تحريرها الكاتب الكبير عبدالله السناوى، وعلى المقهى الشعبى الذى يواجه الجريدة ويجمعنى به لدقائق وأنا أسلمه مقالى الأسبوعى، قلت له: ممكن تساعدنى أقابل الأستاذ هيكل؟

تفحصنى السناوى بنظرته التى لم تكن عابرة كعادة نظراته دائمًا.

لم يرد، قاد الحديث إلى الوجهة التى يريدها: كلم مكتبه،

ولو يعرفك سيحدد لك موعدًا.

ثقتى فى حُسن نيته جعلتنى أتعامل مع ما قاله بجدية، كان التحدى واضحًا، حصلت منه على رقم تليفون مكتب هيكل، فوجئت بمديرة مكتبه بعد أن سمعت اسمى ترحب بى محتفية وسائلة عن حملة صحفية كنت قد فجرتها كشفت فيها كيف زلت قدم أحد الدعاة فى فضيحة أخلاقية.

سألتنى عن سبب المقابلة.

قلت لها: مقابلة الأستاذ فى حد ذاتها سبب.. وسبب كاف جدا، أخبريه أننى أريد مقابلته فقط.

بعد عشر دقائق، وجدت رقم مكتب هيكل يظهر على هاتفى المحمول، وقبل أن أتحدث جاءنى صوته: أهلًا يا محمد.. أمورك استقرت ولا لسه؟

الأستاذ لا يعرفنى فقط، ولكن يعرف أيضًا إننى خارج من تجربة صحفية عاصفة، فقبل ما يقرب من شهرين كنت قد ودعت جريدة «الغد» التى تحملت مشقة إصدارها، ورئيس الحزب الذى تصدر عنه فى السجن، ولما خرج لم نتفق وودعت داره غير مأسوف عليها ولا عليه.

لم ينتظر منى ردًا.

كان يمارس معى لعبته المفضلة، فهو مخبر الصحافة المصرية الأول، الذى يبحث عن الأخبار وما ورائها، خمنت أنه فى الدقائق العشر التى فصلت بين حديثى مع مديرة مكتبه وحديثى معه، سأل وعرف وقدر أننى أستحق أن أنال فرصة مقابلته والجلوس إليه.

الثانية عشرة ظهرًا كان يجب أن أكون داخل مكتبه.. تأخرت دقائق قليلة بسبب زحام أمام الأسانسير، وجدت رقم المكتب يظهر على شاشة المحمول، وبلا مقدمات سمعت مَن يقول: تأخرت عن موعد الأستاذ ثلاث دقائق: أين أنت؟

لم يشفع لى إلا أننى كنت أضع يدى على جرس الباب.

مباشرة دخلت عليه مكتبه.. جلست على كرسى أمامه.. قرأت كثيرًا عن هذه الجلسة ممن سبق وقابلوه، يضع لضيفه كرسيًا أمامه، يجلسه فى مواجهته، وكأنه يريد أن يحصل منه على اعترافات تفصيلية.

قال لى: هذه هى المرة الأولى.. سوف أسمع منك.. وفى المرة القادمة يمكننى أن أتحدث.

لم يحدث شىء من هذا، كان الأستاذ هو من تحدث معظم الوقت، ولم أحاول أن أقل شيئًا، فقد كنت أمام فرصة تاريخية، ليس للاستماع المباشر منه ولكن لتأمله وهو يتحدث، لاقتحام عينيه وهو يحاول أن يقنعك بما يريد.

لقد ظل هيكل محتفظًا بحيويته حتى الأيام الأخيرة من حياته التى ختمها وهو يحمل على كتفيه ثلاثة وتسعين عامًا.. فما بالكم بحيويته عندما كان لا يزال فى الثانية والسبعين؟

دون أن أسأله لماذا حدد لى موعدًا بهذه السرعة، فأنا لم أفصح عن سبب طلبى مقابلته.

قال: أنا أعرف جيل الآباء فى المهنة، هؤلاء الذين عملوا إلى جوارى فى الأهرام، وهؤلاء الجميع يعرفونهم (أشار إلى مكرم محمد أحمد وإبراهيم نافع وفهمى هويدى وسلامة أحمد سلامة).

وأعرف كذلك جيل الأبناء بالنسبة لى، وهؤلاء يقودون الصحافة المصرية الآن، ومعظمهم يديرون صحفًا حزبية وخاصة ناجحة (وأشار إلى عادل حمودة ومصطفى بكرى وعبدالله السناوى).

وأضاف: لكننى لا أعرف شيئًا عمن أعتبرهم جيل الأحفاد وأنت منهم.. وأعتقد أننى يمكن أن أسمع منك عن جيلك فى المهنة لتكتمل عندى الصورة.

فكر هيكل، كما قال لى، أن يقابل أعدادًا من الأحفاد عبر ندوات أو لقاءات موسعة- لم يكن دشن مؤسسته الصحفية بعد- لكنه استبعد الفكرة حتى لا يقول أحد- بتعبيره هو- إنه يريد أن يصادر مستقبل المهنة لحسابه، كما قالوا قبل ذلك إنه صادر تاريخها لصالحه وحده.

سألت الأستاذ قبل أن أتحدث عن جيلَىّ الآباء والأبناء ورأيه فى تجربتهم.

ابتسم قليلا، وقال: سأعتبر هذا أول اختبار لك.. سأقول لك كل شىء، وبصراحة، احتفظ بما سأقوله، لا تنشره أبدًا ما دمت موجودًا، وبعده يمكنك أن تتصرف فيه.

سمعتُ من هيكل ما لا يسر كثيرين ممن عملوا فى المهنة وكانوا من حراسها الأمناء، ولم أتحدث به أو عنه.. وأعتقد أننى لن أفعل.

فجأة قفزت فى خاطرى فكرة فلم أقاومها، طرحتها عليه دون مقدمات أيضا.

سألته: ماذا لو أن الأقدار لم تحكم بالصدام الكبير بينك وبين الرئيس السادات فى بدايات العام 1974، وتحملك وقتها، وظللت فى الأهرام رئيسًا لتحريرها حتى اغتياله، وبعدها استراح لك مبارك فأبقاك على عرش الأهرام ولم يفرط فيما تمثله له من سند إعلامى ومستشار سياسى.

هل كان يمكن لك أن تبقى فى منصب رئيس التحرير كل هذا العمر.. ما الذى كان سيتغير فى مسيرة حياتك؟

تعاملت مع سؤالى على أنه مجرد استفسار عادى ينتهى بمجرد وضع علامة استفهام فى نهايته، لم أتوقع أبدًا أن يثير كل هذا الانزعاج الذى بدا على ملامح الأستاذ مستبدا وموترا ومقلقا.

قال: أعوذ بالله.. لماذا خطر على بالك هذا الخاطر الشرير؟.. أى شيطان ألقى فى خاطرك بهذه الفكرة؟ إنه جنون أن تفكر

بهذه الطريقة.

استراحت ملامح وجه الأستاذ قليلًا، بدا لى أنه تخلص من انزعاجه.

عاد ليتحدث، قال: أعتقد أن الأقدار كانت رحيمة بى جدًا، عندما اصطدمت بالرئيس السادات، كان يمكن بالفعل أن يمتد بى العمر فى الأهرام رئيسًا للتحرير أو على الأقل كاتبًا بها، ووقتها كانت الأقدار ستحرمنى من كثير مما قمت به.

نظر الأستاذ إلى يساره، وأشار إلى أحد عشر كتابًا كتبها باللغة الإنجليزية وقال: أنا أعتز بهذه الكتب جدًا.. ولا أدرى لو كان العمر امتد بى فى الأهرام هل كنت سأتمكن من إنجازها أم لا؟

عاد إليه انزعاجه مرة أخرى، كانت الفكرة فيما يبدو مرعبة بالنسبة له.

صمت قليلًا، ثم كرر كلمته: أعوذ بالله.. كيف طاوعك قلبك أن ترسم لى هذه الصورة البشعة؟.. انظر إلى رؤساء التحرير الحاليين، الذين استغنى النظام عن خدماتهم- كان النظام وقتها قد أعفى إبراهيم نافع من الأهرام، وإبراهيم سعدة من أخبار اليوم، وسمير رجب من الجمهورية، ومكرم محمد أحمد من دار الهلال- لم يخرجوا إلا بالدم.

وبحسم وكأنه ينهى هذا الكابوس الذى وجد نفسه فى مواجهته، قال: لا..لا ..لا.. أعتقد أن الأقدار كانت رحيمة بى جدًا فلم تضعنى فى هذا الاختبار.

بعد حديث طال، كان لا بد أن يحصل على ما يريد.

يعرف هو أن سعى الصحفيين إليه غاية فى حد ذاتها.. ما أنجزه جعل اللقاء به إنجازًا فى حد ذاته.

سألنى.. فقلت ما كنت أتمناه: عندى فكرة يا أستاذ.

أنصت دون أن يسأل ما هى، فواصلت حديثى.

قلت له: أريد أن أكتب قصتك الإنسانية مع رؤساء مصر الذين عاصرتهم، لقد كتبت كثيرًا عن سيرتك السياسية معهم، وأشرت على استحياء وربما على عجل لما جمع بينك وبينهم إنسانيًا، أريد الصورة الكاملة.. ما لم تقله أو تكتبه عنهم.

لم يرفض الأستاذ هيكل الفكرة، ولكنه سألنى سؤالًا- توقعته ولكن ليس بنفس الدرجة من الحدة: ولماذا أحكى لك أنت بالذات هذه القصة؟

لم تكن لدىّ إجابة جاهزة.

وجدتنى أقول له: بحكم السن- وقتها كنت قد تجاوزت الثلاثين بقليل- لو ترفقت بى الأقدار، وأمدت فى عمرى، فإننى سأكتب على الأقل لأربعة أو خمسة أجيال، أى أن هذه السيرة ستكون حاضرة من خلالى لأجيال قادمة، وأعتقد أنك مهتم بأن تظل مع الأجيال القادمة.

شعرتُ من تعبيرات وجهه ورد فعله أنه استراح لمنطقى.

قال على الفور: أنا موافق من حيث المبدأ، لدىّ بعض الارتباطات والسفريات، وبعدها يمكن أن نبدأ فى التسجيل مباشرة.

قبل أن أودعه، قال لى: هل قرأت الحوار الذى أجراه معى الأستاذ مفيد فوزى فى مجلة «نصف الدنيا»؟

وقبل أن أجيب أضاف: الحوارات صدرت فى كتاب منذ عامين تقريبًا، لو قرأت ما قلته جيدًا يمكن أن تجد فيه بداية الخيط لما تريده.

لم أكن قرأت حوار الأستاذ هيكل مع الأستاذ مفيد فوزى وقتها، رغم أننى كانت قد تصفحت الحوارات عندما نُشرت، وأقتنيت الكتاب الذى صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب وكان عنوانه «هيكل الآخر.. إبحار فى عقل وقلب محمد حسنين هيكل».. ولم أجد فيما أشار إليه هيكل ما يغرينى،

فقد كنت أنتظره هو دون سواه.

فى العام 2007 وفى واحدة من دورات مؤسسة هيكل للصحافة كنت مدعوًا إلى حفل أقامة للمتدربين فى نادى العاصمة بجاردن سيتى، عندما كنت أصافحه كان يقف بيننا الكاتب الكبير هانى شكرالله، وقتها كنت طرفًا فى معركة صحفية صاخبة، قال له «شكرالله»: محمد قالب الدنيا الأيام دى.

ابتسم وقال: على فكرة إحنا جينا الدنيا عشان نقلبها مش نعدلها.

فى العام 2010 كنت أجلس معه فى بيته الريفى ببرقاش لما يزيد على خمس ساعات.

كانت مؤسسة الأهرام قد أقامت احتفالًا كبيرًا بمناسبة مرور 135 سنة على صدور الأهرام، ولم توجه له دعوة، وهو الذى أعاد الروح للأهرام وكان سببًا مباشرًا من أسباب مجدها المستمر والذى لا ينقطع.

فى اجتماع مجلس التحرير بجريدة الفجر، اقترحت أن أكتب قصة هيكل فى الأهرام، وهى القصة التى بدأت فى العام 1957 وانتهت فى العام 1974، التقط الأستاذ عادل حمودة الخيط، وقال لى: ولماذا لا نسمع القصة من الأستاذ نفسه؟

تواصل عادل حموده مع هيكل، ويبدو أنه كان ينتظر من يخترق جدار الصمت فى قصته مع الأهرام، حدد لنا موعدًا فى اليوم التالى مباشرة.

كان لهيكل شرط واحد، وافق على أن يحكى لنا القصة لكن على أن نكتبها دون أن ننسبها إليه.

يومها سخر هيكل من سؤالى الأول.

قلت له: كيف حدث التحول الكبير على يديك يا أستاذ..

أعرف أنك كنت تحلم بأن تتحول الصحف إلى مؤسسات كبرى، وليس مجرد صحف يملكها أفراد يتصرفون فيها كما يشاءون دون أن يحاسبهم أو يراجعهم أحد.. هل أخذت قرارك بالخروج من أخبار اليوم إلى الأهرام حتى تحقق هذا الحلم؟

نظر لى وابتسامته المميزة تملأ وجهه كله، وقال ما لم أكن أتخيله على الإطلاق: شوف.. التاريخ ده مسكين جدًا.. لأنه فى الغالب أسير رواياتنا.. أنا عارف إنك قرأت الكلام ده.. لكن الحقيقة إن السبب اللى كان وراء خروجى من أخبار اليوم إلى الأهرام لم يكن له علاقة بما قلته.. كان سببًا شخصيًا وخاصًا جدًا.

رجوته أن يحكى، تمنع قليلًا، ثم تحدث لكن بشرط اعتبره هو امتحانًا ثانيًا لى، قال: ما سأقوله لك لا يصلح للنشر لا فى حياتى ولا بعدها.

حكى هيكل السبب الحقيقى لخروجه من أخبار اليوم، وهو سبب قد يعتبره البعض غريبًا فى الحقيقة، لكن للأسف الشديد كانت هذه هى الحقيقة التى بوعدى له لن يكون لها نصيب من التدوين على ورق.

ذكرته بما اتفقنا عليه من خمس سنوات، حاول أن يجمع أطراف الحديث الذى كان، ثم فاجأنى بقوله: لو قرأت حوارى مع الأستاذ مفيد فوزى ستجد بداية الطريق.. يبدو أنك لم تقرأ الحوار حتى الآن.

بعد سنوات من هذه الجلسة، التى لا تزال أسرارها أسيرة أوراقى وذاكرتى- فمن الصعب أن أنشر ما قيل فيها، تحديدًا فى الأوقات التى كان يتركنا فيها الأستاذ عادل حمودة للرد على تليفون ما أو لدخول الحمام- وعندما قررت أن أنسج سيرة الأستاذ الذاتية قررت أن أبدأ بقراءة حواره الكامل مع مفيد فوزى.

كان الأستاذ صادقًا تمامًا فيما قاله.

تأملت كلماته، أعدت قراءتها أكثر من مرة.

إنه يقول لمفيد فوزى: طاف بذهنى خاطر أن أكتب سيرتى الذاتية، ولكن تقديرى أن السيرة الشخصية يجب أن تكون خاتمة مشوار، وما دمت تتحرك فأنت عرضة لأشياء كثيرة قد تضاف وربما تحذف، ومن يكتب سيرته الذاتية يجد نفسه ربما يغير وقائع أو يعيد النظر فيها بحكمة لم تكن موجودة وقت وقوع الحوادث، وأنا أتصور أن كل إنسان- فى سيرته الذاتية- يعيد على نحو أو آخر اختراع نفسه من جديد، ليس على الصورة التى كانت، وإنما على الصورة الملائمة، والأمر يحتاج إلى شجاعة لقول الحقيقة مجردة.

ويعترف الأستاذ هيكل: لم أكتب مذكراتى لأنى لا أريد أن أقع فى محظور وقع فيه غيرى، فإذا به يعيد اختراع نفسه من جديد، ولقد رأيت البعض يخترع أشياء لا علاقة له بها، ولكنه رسم لنفسه صورة بالزيت، وعملية الرسم هى لعبة الخيال، والألوان حرة فوق مساحة الورق.

حتى الآن لم أعثر على السر فيما قاله هيكل، كنت أشعر أنه يريدنى أن أصل إلى نقطة محددة، وقد حدث هذا عندما قابلت هذه الفقرة.

يقول: أنا لست متأكدًا أن أحدًا منّا بقادر على مواجهة الناس بالحقيقة كاملة غير منقوصة، لأننا بشر، ومن هنا تندهش لو قلت لك إننى أترك حياتى للآخرين، لماذا؟ لأن من يعملون فى العمل الصحفى بالتحديد، كل مواقفهم وكل أعمالهم وكل آرائهم وكل مشاكلهم وكل تطورات حياتهم ومراحلها موجودة ومسجلة على ورق، وهذه مهمة آخرين يستطيعون المتابعة والحكم.

أعدت الأحاديث التى دارت بيننا ما بين عامى 2005 و2010، تأكدت أن هيكل كان يضعنى أمام الفكرة، فهو لن يتحدث بشكل مباشر عن حياته، لأنه بالفعل فعل ذلك عبر كتبه والحوارات التى أجريت معه والرسائل التى بعث بها لأصدقاء وربما خصوم أيضًا، وما علىّ إلّا أن أعيش بين

أوراقه وكتبه.. وحتما سأصل إلى ما أريد.

قررت أن أبدأ الرحلة.. وأعتقد أنها أسفرت عن نتائج مهمة، ووجدتنى أشكر الأستاذ لأنه كان يدلنى على نفسه دون أن أنتبه.

2

لماذا لم يكتب هيكل مذكراته؟

السؤال بهذه التركيبة فيه خطأ منهجى، فمن المفروض أن يكون السؤال هو: هل كتب هيكل مذكراته؟

بعد رحلة طويلة أستطيع أن أجزم أن هيكل لم يترك وراءه كتابًا مستقلًا، يمكن أن نقول إنه يحمل مذكراته أو سيرته الذاتية، لكن فى الوقت نفسه يمكننى أن أقول إن هيكل دَوّن سيرته المهنية والسياسية والشخصية داخل مقالاته وكتبه وحواراته، وكأنه أراد بذلك أن يقول للجميع «لقد كتبت حياتى، وليس عليكم إلا أن تعيدوا ترتيبها كما تشاءون».

مرة واحدة فقط لفت هيكل الانتباه إلى أنه يتحدث عن حياته الشخصية.

حدث هذا فى مقاله «علامات على طريق طويل».. وهو المقال الذى نشره فى 11 فبراير 1972، وكان قد مرت على دخوله الصحافة ثلاثون عامًا.

بدأ هيكل مقاله، يقول: لا بد أن أعتذر منذ السطر الأول فى هذا الحديث عن ظلال مشاعر شخصية سوف تعكس نفسها عليه. ذلك أننى فى يوم له بالنسبة لى معنى خاص، فمعه أكون قد أكملت ثلاثين سنة فى خدمة المهنة العظيمة التى أسميتها ذات مرة مهنة «البحث عن المتاعب».

ترك هيكل نفسه بعد هذا الاعتذار مستسلمًا لذكرياته.

يقول: مازلت حتى الآن أذكر شحنة الانفعالات التى دخلت بها إلى مبنى جريدة «الإجيبشيان جازيت»، يوم 8 فبراير 1942، أسأل عن مكتب «سكوت واطسون» سكرتير تحريرها فى ذلك الوقت.

كان سكوت واطسون يُحاضرنا فى مادة جمع الأخبار، وبعد

إحدى محاضراته عرض على مَن يريد مِن طلبته تدريبًا عمليًا فى الصحافة أن يقابله فى «الإجيبشيان جازيت»، وكنت بين الذين ذهبوا إليه، وكان من بين دوافعى إلى الذهاب- إضافة إلى هوى المهنة وسحرها- إعجاب شديد بشخصية سكوت واطسون وأحاديثه التى ألهبت خيالنا عن الحرب الأهلية فى إسبانيا، وكان قد غطى وقائعها لجريدة «المانشستر جارديان» فيما أتذكر قبل قدومه إلى مصر والتحاقه بـ«الإجيبشيان جازيت».

كانت ذكريات الحرب الأهلية فى إسبانيا أريج الشوق فى أحلام كثيرين من شباب تلك الأيام، ولم تكن الحرب العالمية، التى راحت تطحن الدنيا كلها وتضرب القارات ببعضها، قد استطاعت بعد أن تمحو ذلك الحنين العارم إلى تلك الخيالات شبه المقدسة التى انبعثت ثم سحقت فى إسبانيا، قبل الحرب العالمية مباشرة.

كانت تلك الحرب فى أحلامنا صراعًا قاطعًا بين الخير والشر، وبين الديمقراطية والفاشستية، وبين الجماهير والقوى الرجعية، وحين تهاوت الجمهورية فى إسبانيا، مثخنة بالجراح مضرجة بالدم، فقد كان ذلك أمام عيوننا نذير شر مستطير ما لبث أن جاء فعلًا حين بدأت النازية تدوس بأقدامها الغليظة فوق أوروبا بخطى بربرية على دقات طبول وثنية!

كان سكوت واطسون قد عاش التجربة، وكانت نصف محاضراته عن حكاياتها، وذهبت لأعمل معه مشدودًا بالنصفين معًا: الأخبار وهى العصب فى مهنة الصحافة، والحرب الأهلية فى إسبانيا وهى الحلم المضىء الذى اغتالته قوى الظلام فى إسبانيا.

وكانت تلك هى البداية لطريق طويل طويل مشيت عليه ثلاثين عامًا إلى اليوم، من سن الثامنة عشرة إلى سن الثامنة والأربعين.

وربما بأريج الشوق القديم وجدت نفسى مشدودًا إلى

الجرى كصحفى وراء الصراعات العنيفة حيثما تفجر الصراع.

وجدت نفسى فى العلمين أتابع معركة الصحراء بعين مصرية، وكان ذلك اقتراح سكوت واطسون نفسه.

ثم انتقلت من «الإجيبشيان جازيت» إلى «آخر ساعة» بخطاب من رئيس تحريرها «هارولد إيرل» إلى الأستاذ «محمد التابعى»، وكان هارولد إيرل- بفرط حسن ظن لديه- يتصور أن مستقبلى لا بد أن يتحدد فى الصحافة العربية، وعندما انتقلت «آخر ساعة» إلى ملكية دار «أخبار اليوم» وجدتنى أنا الآخر هناك.

كان أريج الشوق القديم ما زال يبعث بندائه الغامض المثير ويشدنى إلى الصراعات حيث تكون، هكذا وجدت نفسى مراسلًا متجولًا فى الشرق الأوسط مع تركيز خاص على فلسطين التى بدأت النار تندلع على أرضها المقدسة غداة انطفاء نار الحرب العالمية الكبرى.

ثم جذبتنى الحرب الأهلية فى اليونان وتفاعلات البلقان المثيرة فى ذلك الوقت، ثم عدت إلى الشرق الأوسط مرة أخرى وراء الانقلابات والاغتيالات.

ثم شدتنى إيران فى بداية أزمة مصدق، ثم تركت الشرق الأوسط إلى الشرق الأقصى لحرب كوريا ولحرب الهند الصينية الأولى.

إلى أن كان يوم تلقيت فيه خطابًا من كامل الشناوى، وكانت خطابات ذلك الصديق والشاعر المرهف خيطًا من الحرير يصل بينى وبين الوطن دائمًا مهما كان البعد، وكان «كامل الشناوى» يقول لى فى خطابه: ماذا تفعل أنت هناك...؟ تتابع أحداث أوطان أخرى ووطنك هنا على شفا أحداث أكبر!.

وعدت مع الأيام التى ألغيت فيها المعاهدة الأبدية بين مصر وبريطانيا، تصورت أن بداية الاحتكاك سوف تكون مع القوة المصرية فى السودان فذهبت إلى الخرطوم.

ثم تركت العاصمة المثلثة إلى منطقة قناة السويس متصورًا أن الصراع الجاد سوف يبدأ ضد القوات البريطانية هناك.

ثم تركت المنطقة إلى القاهرة قبل أيام من حريقها المشهور فشهدت ما جرى فيه، وبقيت فى القاهرة مع أنقاضها ومع أنقاض النظام الملكى الذى كان يتساقط يومًا بعد يوم.

وكنت وسط الحياة السياسية فوق الأرض وتحتها حتى التقيت بجمال عبدالناصر عصر يوم 18 يوليو 1952، ولم نفترق ولم ينقطع الحوار بيننا حتى 28 سبتمبر 1970 حين تلقى هو الدعوة للرحيل.

وهذا الأسبوع، ومع ذكريات البداية على الطريق الطويل الطويل، فقد ألح على كثيرًا سؤال:

أما يكفى لهذا الحد؟.. لقد طفت بالدنيا كلها بحثًا عن المتاعب، والتقيت بقادة العصر من كل الأجناس وفى كل البلدان.. وعاصرت التجربة الكبرى فى مصر ومن بؤرة العاصفة، وكتبت عن كل المشاكل والصراعات تحقيقات فى إثر تحقيقات.. بل إننى فى هذا الحديث الأسبوعى نشرت قرابة الألف مقال بانتظام.

ثم ماذا؟

ألا يجىء وقت على المحارب يغمد فيه سيفه، وعلى الكاتب يضع فيه قلمه؟

ألا يصدأ السيف؟.. وألا يفرغ المداد بعد ثلاثين سنة؟

ألم تجىء أجيال؟.. ألم تتغير أفكار؟.. ومهما قلنا بأن الشباب ليس بعدد السنين وإنما باستيعاب روح العصر.. أفلا يمكن أن تكون هذه ذريعة للتلكؤ، وادعاء ليس وراءه غير التمسك بالبقاء؟

وأعترف أن هذه لم تكن أول مرة يخطر على بالى فيها أن أخلى نفسى من العمل المنظم، وأخلو لنفسى أكتب عما رأيت

وسمعت وتابعت على الطريق الطويل، حتى وإن كان ما أكتبه ثرثرة عما مضى من الوقائع والأيام.

لقد خطر ذلك ببالى ذات مرة سنة 1967 وبعد معارك الأيام الست، وبرغم أننى كتبت محذرًا- وبصراحة، من مهاوى الخطر قبل أن تبدأ المعارك، مما دعا البعض إلى اتهامى بالتشاؤم والانهزامية- فإننى كنت مثل كثيرين غيرى بعد المعركة ممن روعتهم صدمة النكسة فى حجمها.

وحين جاءت الوقفة الرائعة للجماهير العربية بالصمود، وحين جاءت الوقفة البطولية لجمال عبدالناصر وحيدًا وسط الأنقاض يحاول إعادة البناء، فلقد تحاملت على نفسى وقلت: ليكن.. الذهاب الآن فرار.. وكنا نكتب بالأمل، فلنكتب الآن بالألم وحتى تلتئم الجراح!.

لم يكرر الأستاذ هيكل فيما أعتقد الكتابة عن نفسه بهذه الطريقة بعد ذلك، رغم أنه وفى كل ما كتب كان ينطلق من نفسه ويعود إليها، فلم يكن لديه مركز آخر إلا نفسه.. ولم يكن هناك مدار يدور حوله إلا مداره.

كان السؤال عن مذكرات هيكل ملحًا ومبكرًا جدًا.

فى نوفمبر من العام 1987 كان يحاوره الكاتب الراحل رجب البنا، وقد نُشرت هذه الحوارات ضمن دراسة مهمة عن هيكل صدرت عن دار المعارف فى العام 2004، بعنوان «هيكل بين الصحافة والسياسة».

سأله رجب البنا: متى ستنشر مذكراتك؟

أجاب هيكل: إن أوراقى جاهزة، وكتابتها لن تستغرق وقتًا طويلًا، فهى مرتبة ومنظمة، ويمكن لأولادى أن ينشروها كما هى، وإن كنت أفكر فى مشكلة وهى: كيف أتعرض بالحقيقة لأشخاص ما زالوا أحياء؟ والأمانة تقتضى أن أقول الحق ولا شىء غير الحق، وهكذا أفعل دائما وألزم نفسى به.

يمكنك أن تفهم من ذلك أن هيكل حتى العام 1987 كان قد

انتهى من كتابة أوراق حياته، وأنه يمكن نشرها على حالتها، وحتى لو لم يتمكن هو من مهمة النشر، فيمكن لأولاده أن يفعلوها، لكن ما جرى أنه لم ينشر شيئًا فى حياته ولا أولاده نشروا شيئًا بعد وفاته.

فى أواخر التسعينيات كان هيكل ضيفًا على صالون إحسان عبدالقدوس بمؤسسة «روزاليوسف»، ودون أن يسأله أحد، أو يعقب على كلامه، قال إنه سيختم مشواره الصحفى بكتاب عن حصاد العمر.

مضى هذا الإعلان دون ضجيج، وربما دون أن يلتفت إليه أحد.

لكن مذكرات هيكل ظلت هاجسًا لدى كل من يحيطون به أو يتحدثون معه.

فى حوارها الطويل الذى أجرته سناء البيسى مع هيكل ونشر على حلقات فى مجلة «نصف الدنيا»، قادت الكاتبة الكبيرة كاتبها وأستاذها إلى أن يتحدث.

قال لها: من يقول الحقيقة كاملة تقفز أمامه علامات استفهام كثيرة، لقد حاول لويس عوض وتوفيق الحكيم أن يقتربا من الحقيقة بطريقة ما، أو حتى بشكل أجريا عليه بعض التحسين، ومع ذلك لم يقبل الناس هذه الحقيقة.

وضع هيكل يده على الوجع الساكن فى قلب كتابة المذكرات، قال: الناس تترك كل ما قدمه كاتب ومفكر ومبدع مثل الدكتور لويس عوض، وتترك كل مواقفه السياسية ومعاركه الفكرية، ولا يلفت نظرها فى مذكراته سوى متاعبه العائلية مع أبيه أو أخيه، وتوقف الذين قرأوا سيرة الدكتورة لطيفة الزيات طويلًا عند اعترافها بأن سر تأخر طلاقها من الدكتور رشاد رشدى، الذى اختلفت معه سياسيًا وفكريًا، هو حاجتها الخاصة جدًا إليه، إن هذا المشهد الذى لا يحظى بأى قيمة إذا ما قورن بباقى المشاهد قد انتقل من الخلفية إلى الصدارة فى عقل كل من قرأ المذكرات.

حاولت سناء البيسى أن تحصل من هيكل على سبق بلغة الصحافة، لكنه وضع نقطة فى آخر السطر عندما قال لها: بالنسبة لكتابة سيرتى الذاتية ما زال لدىّ بعض الوقت، وإن كنت أدرك أن ما تبقى منه ليس كثيرًا.

وقتها كان رأيه، وهو الرأى الذى ظل ملازمًا له طوال حياته، أن المذكرات لا تملى، بل لا بد أن تكتب كنص يقف فى منتصف المسافة بين أدب الاعتراف والصياغة الأدبية الجميلة، وهى تحتاج إلى تخطيط محكم لأن كتابة الاعتراف أو كتابة السيرة الذاتية تختلف عن أى كتابة أخرى.

بعد سنوات وفى حوار مع عادل حمودة نشر نصه فى كتاب «هيكل.. الحياة الحرب الحب» تحدث هيكل عن أوراقه التى يدون فيها حياته.

قال: أتمنى أن أعطى كل ما أملك من أوراق إلى أى جهة تضيفها إلى تاريخ مصر، إننى أسجل ما بين 10 و100 ورقة يوميًا، وبعض ما سجلته شديد الأهمية، مثل مناقشتى مع وزير الخارجية الأمريكى الأسبق هنرى كيسنجر بعد حرب أكتوبر، وهو فى 61 صفحة.

إن هذه الأوراق تجربة فى تاريخ مصر، فأنا لدىّ الكثير، وأعرف الكثير، وكنت أتمنى أن أعطيها إلى جامعة مصرية لتستفيد من الذى كتبته أو الذى رأيته أو الذى أتيح لى أن أطلع عليه، لكن ذلك لا بد أن يسبقه قانون يحمى مثل هذه الأوراق، ويحترم كلام أصحابها، ويلزم بعدم الكشف عنها إلا فى الوقت المحدد الذى يوصون به.

عن نفسى سأترك هذه الأوراق إلى أبنائى مع تحديد المواعيد المناسبة لكشف ما فيها، خاصة أننى أملك إلى جانب أوراقى، وثائق وشهادات أخرى، وضعها أصحابها أمانة فى عنقى، وحددوا مواعيد لنشرها، يصعب أن أكون موجودًا فيها.

على سبيل المثال حسن باشا يوسف، وكيل الديوان الملكى،

تحدث معى كثيرًا فى بيتى، وسجلت شهادته على 32 ساعة، كانت مجمل أهم ما جرى فى عصر فاروق، لكنه طلب منى عدم إذاعتها إلا بعد وفاته ووفاة زوجته بـ20 سنة، وأنا لن أكون موجودًا ساعتها.

وأيضًا محمود فوزى، نائب رئيس الجمهورية السابق، إنه شخصية لا أحد يعرف عنها بما فيه الكفاية، لكن فى محاولة للاستفادة من تجربته سجلت معه بصراحة 40 ساعة، أنا مؤتمن عليها، ولا بد أن تصل إلى الناس بأمانة.

وهذا ما حدث أيضا مع سفيرنا فى لندن قبل قيام الثورة مباشرة عبدالفتاح عمرو.

يعترف هيكل: إن وثائق هؤلاء وغيرهم ليست ملكى، وإنما جزء من تاريخ مصر، وقد أرسلتها إلى الخارج تخوفًا عليها فى وقت كان فيه الرئيس السادات يتربص بى، إن كل وثائقى وأوراقى فى الخارج، وعندما أحتاج منها شيئًا أصوره وأستعمل الصورة.

أنا لدى من 600 إلى 700 ألف وثيقة أحضرتها إلى الأهرام من وثائق الدولة فى بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا وإسرائيل، وأحضرت لنفسى نسخة منها، وربع ما أملك من وثائق مصرية.

ويضع هيكل ما يعتقد أنه حدود مهمة، يقول: لا بد أن نفرق بين أوراق رئيس الدولة وأوراق الدولة.

أوراق الدولة موجودة عند جهات الدولة المختلفة الخارجية.. المخابرات.. المباحث، ويمكن أن توجد نسخة منها عند رئيس الدولة.

أما أوراق رئيس الدولة فهى التى يكتبها بخط يده، وأنا كنت غاوى أجلس بجانب جمال عبدالناصر حتى فى مؤتمرات القمة، وأجمع الأوراق المتبادلة بينه وبين الملوك والرؤساء، ولم يكن يمانع فى ذلك.

لقد نقلوا إلى بيت أنور السادات فى الجيزة الوثائق المتعلقة بوقائع 14 مايو 1964- الاحتفال بتحويل مجرى نهر النيل- وما سبقها، وهذه هى التى اطلعت عليها عنده وتم تصويرها بكاميرا زميلى فى الأهرام محمد يوسف.

وأما أن الأرشيف الذى كان موجودًا فى بيت عبدالناصر قد نقله، فهذا طبيعى لأن أوراق سلفه كان يجب أن تتبعه إلى حيث يعمل، فإذا أمر بنقلها فهذا حقه، وأنا أعلم يقينا أن هذه الملفات ذهبت إلى قصر عابدين، وأعلم يقينا أن ما أرسل منها إلى بيت الرئيس السادات كان فقط ما اتصل بتصرفات عدد من المسئولين قبل 14 مايو، ولقد حصلت بإذنه على بعضها ونشرته أيامها بالفعل، كما أن بعضه عرض أثناء نظر قضية مراكز القوى.

مرة ثانية يشير هيكل إلى أن هناك ما لديه ويمكن لأولاده أن يباشروا نشره بعد وفاته، ورغم أنه رحل منذ سنوات إلا أن أحدًا من أسرته لم يتحدث عن شىء ولو من طرف خفى.

فى يونيو 1994 كان خالد عبدالهادى يتحدث إلى الأستاذ هيكل.

وقبل أن نسمع ما دار بينهما من المهم أن تعرف أولًا من هو خالد عبدالهادى.

بعد وفاة هيكل فى فبراير 2016 بشهور قليلة وفى مطلع العام 2017 صدر كتاب «هيكل.. لمحات إنسانية» لخالد عبدالهادى، الذى لم يكن معروفًا إلا فى دوائر ضيقة تحيط بهيكل، وكان ينظر هؤلاء إليه على أنه الصندوق الأسود للأستاذ.

فى الكتاب لا تستطيع أن تمسك بمفاتيح العلاقة بينهما، ربما يكون إخلاصه لهيكل وحرصه على سيرته جعلاه يتوارى خلفه، فلا يهتم بنفسه.

فى فبراير 2019 وفى الذكرى الثالثة لوفاة هيكل، صدر عدد خاص من مجلة «الهلال» كتب فيه خالد عبدالهادى مقالًا

مطولًا عن هيكل، وقبل أن يدخل إليه عرّف القراء به.

يقول خالد عبدالهادى: كنت ما زلت شابًا أدرس فى مدينة الكويت، التى عشت فيها فترة من بداية حياتى، عندما وقعت عيناى على كتب ومقالات الأستاذ هيكل، يومها ترسخ فى ذهنى أننى أمام فيلسوف وليس كاتبًا مؤرخًا وليس صحفيًا مفكرًا وليس محللًا، ومنذ أن ترسخ هذ التصور فى عقلى بدأت رحلة البحث عنه حرفيًا وشخصيًا.

وبالفعل جمعت كل كتبه وقرأتها بنهم وعشق لا يوصف، ثم الخطوة التالية أجريت مكالمة لمكتبه بالقاهرة، وأنا ما زلت شابًا وقتها، طالبًا الجلوس إليه، وتعددت محاولاتى حتى حدد مكتبه لى موعدًا بالفعل.

بعد هذا اللقاء الأول، تعددت اللقاءات والاتصالات الهاتفية بيننا، وأصبحت بعدها من عشاق ومحبى هذا الكاتب الفذ الذى تعلمت من حرفته، واستوعبت السياسة من فكره، وأحببت الشعر من حبه للشعراء، وعشقت القصة والرواية من حبه لهما، وامتدت هذه المعرفة سنوات متعددة حتى جاء موعده مع القدر ورحل إلى خالقه.

سأعود بكم إلى العام 1994، يقول خالد عبدالهادى عما جرى.

فى الساعة السابعة مساء، أمام الأستاذ هيكل فى مكتبه، قادنى إلى الشرفة الملحقة فى المكتب بعد بعض الأسئلة، وأنا أريد أن أعرف كل تفاصيل حياته وخارطة أيامه وغيرها من الأمور، سألته عن موعد مذكراته؟

نظر إلىّ فى دهشة والابتسامة ترافقه وقال لى: أنت مستعجل على موتى؟

تلعثمت وهو استمر رقيقًا فى كلامه: آخر ما سوف أكتبه هو مذكراتى.

تساءلت: لكن الجميع يعرف أنك لا تخلد للنوم قبل أن تدون

ما جرى فى نهارك، وعليه فالمادة الأصلية للعمل موجودة، ولا تحتاج إلا لبعض الصياغة، وتوضيح من هنا، وتنويه من هناك.

أكد ما قلته، وتابعت متسائلًا: لا شك أنك اخترات عنوانًا لما تدونه من تفاصيل حياتك اليومية.

لمعت عيناه وشد نفسًا من سيجاره الكوبى الفاخر، وقال: نعم الأوراق موجودة، لكن ليس بالتبسيط الذى طرحته، فهناك جهد وعمل وفكرة، ومن ثم تصورات لما سوف ينشر منها.

توقف لحظة وأشعل من علبة كبريت كبيرة عودًا من الثقاب، بعد أن انطفأ سيجاره: نعم لقد وقع اختيارى على عدة عنوانين لتلك المذكرات- قاطع نفسه- وفى اللحظة الأخيرة قد ألجأ لعنوان آخر، من بين هذه العناوين «فى الخريف يتساقط أوراق الشجر».. أليس زمان كتابة اليوميات والمذكرات هو خريف العمر.

أردف قائلًا: لكنى وجدته عنوانًا أدبيًا، فأنا صحفى ومخبر صحفى وكاتب مقال سياسى، وقد استبعدته، واخترت عنوانًا آخر: «كتابات على الماء»، أليس ذلك ما يقع لغالبية من جرب كتابة تجربته، كتابات على الماء تتسع مع الموج والريح أو تغرقها العاصفة والفيضان.

ثم كان أن التقيته فى مكتبه صباح يوم خريفى من شهر نوفمبر 2001 وكنت برفقة الأديب يوسف القعيد، وقلت له بأن السنة المقبلة ستكون الذكرى الستين لدخوله شارع الصحافة، ولا بد من احتفالية لتلك المناسبة.

قال هو إنها ستكون مناسبة ليعلن اعتزاله، وإن ستين عامًا هى حياة إنسان ولد وتعلم وعمل وتزوج وأنجب ثم تقاعد، وأضاف: أنا أعمل منذ ستين عامًا، أفلا يحق لى أن أتوارى بعيدًا.

وهنا قلت له: إذًا اقترب موعد نشر مذكراتك. وتدخل الأستاذ يوسف القعيد قائلًا بأن المذكرات ستكون تكملة

لكتاب «بين الصحافة والسياسة»، وهى المرة الأولى التى يستعرض فيها الأستاذ هيكل بعضًا من سيرته فى كتاب.

من جانبى ذكرته بمقاله الذى كتبه يوم 11 فبراير 1972 بعنوان «علامات على طريق طويل» وأنها كانت المرة الأولى التى يستذكر شيئًا من سيرته، وربما عنوان المقال يصلح ليكون عنوانًا لمذكراته العتيدة، من تجواله الدؤوب بحثًا عن المتاعب، ومقابلاته مع قادة العصر من سياسيين وعسكريين واقتصاديين ومثقفين، ومعاصرته لأحداث مصر والعالم العربى، ومراقبته عن كثب لما يدور ويجرى من تحولات على مستوى الألم، وهى فعلًا علامات على طريق طويل وممتد.

لم يعلق الأستاذ من جانبه، وإن أكد بأنه يفكر بطريقة ما فى نشر مذكراته، ولكن تأثير ما يجرى من وقائع وتطورات على مستوى الإقليم والعالم دائمًا تشده إلى تيارها الغلاب، ثم تساءل: هل هناك فعلًا مَن سيهتم ويقرأ يوميات رجل ينتمى لعصر بعيد، ولزمن شحب، أقصد الشباب من مصر والعالم العربى؟

وأكدنا له نحن الاثنين أن كتبه حتى هذه اللحظة هى دائمًا فى مقدمة الكتب الأكثر مبيعًا والأكثر طلبًا ومن جميع الفئات العمرية لجمهور القراء.

فى فبراير 2018 كان كاتب سيرة المشاهير، الكاتب الصحفى إبراهيم عبدالعزيز، يتحدث معى عن امتلاكه أسرارًا لم تنشر من قبل عن الأستاذ محمد حسنين هيكل، اتفقنا على أن يكتب لنا تقريرًا بما لديه.

عندما كنت أراجع التقرير اكتشفت أن هناك ما يخص مذكرات الأستاذ هيكل.

فقد دعا هيكل إبراهيم عبدالعزيز- الذى كان يجالسه على هامش إهداء أحد كتبه للكاتب الكبير- ليكتب فى مجلة «وجهات نظر» التى كان يشرف هيكل عليها بنفسه، بل كان يرأس بعض اجتماعاتها.

سأل إبراهيم عبدالعزيز هيكل: لماذا لم تكتب مذكراتك يا أستاذ؟

فأجابه بأنه حينما يفكر فى ذلك فسيفضل أن يكون كاتبها صحفيًا من خارج مؤسسة الأهرام.

تفاءلت خيرًا بأن هذه كانت رغبة هيكل، أن يكتب سيرته صحفى من خارج الأهرام.

يكشف إبراهيم عبدالعزيز جانبًا من جوانب شخصية الأستاذ هيكل، يقول: تنبأت بأن هيكل لن يكتب سيرته الذاتية أبدًا، وهو ما حدث فعلًا، فقد مات دون أن يكتب سيرته، وكان يمنع كل المتصلين به من الحديث عنه فى أى مناسبة من المناسبات.

كانت جريدة «القاهرة» التى تصدرها وزارة الثقافة، أثناء رئاسة تحرير الكاتب الكبير صلاح عيسى لها، قد نشرت تنويهات عن ملف يجرى الإعداد له بمناسبة العيد الثمانين لميلاد هيكل، تواصل سكرتيره منير عساف بإبراهيم عبدالعزيز ليعرف التفاصيل، ومَن هم المتحدثون، وكان من بينهم سائقه الخاص.

يكمل إبراهيم عبدالعزيز روايته: يبدو أن الأستاذ هيكل كان منزعجًا، فقد كان لا يرغب فى أن يتحدث عنه أحد دون أن يراجع ما قيل قبل النشر.

واحد من المقربين بشدة من الأستاذ هيكل، وهو الروائى الكبير يوسف القعيد، كان ولا يزال مصرًا على أن الأستاذ هيكل كتب مذكراته بالفعل.

كان يوسف القعيد يتحدث إلى جريدة «عمان» فى مايو 2014 عبر حوار مطول، ومن بين ما قاله إن: الأستاذ هيكل يتحصن وراء نفى أنه يفكر فى كتابة مذكراته، وإن كنت أعتقد إما أنه كتبها أو يكتبها أو سيكتبها، وهو يتكتم على هذا الأمر تمامًا، وأنا مع تكتمه.

ينتقل بنا القعيد إلى ما يمكن اعتباره مراوغة من هيكل، يقول: كنت كلما سألته عن المذكرات اكتفى بالصمت، لا ينفى ولا يؤكد.

بعد سنوات من هذا الحوار، وفى العام 2015، كتب يوسف القعيد فى الأهرام أن لديه يقينًا أن الأستاذ هيكل دَوّن مذكراته فعلًا، لكنه ركن ظهره على حائط الاحتمالات قائلًا: هذا اليقين لا تسنده معلومات محددة، لكنه إحساس بداخلى أو هاجس فى عقلى، أتصور أنه صحيح، أما ما هو أكثر من هذا، فلا يوجد لدىّ ما يمكن أقوله.

وقبل أن يغادر يوسف القعيد جدار الشك، قال: أتصور أنه كتبها وأودعها فى مكان ما من هذا العالم.

فى العام 2018 صدر كتاب «أحاديث برقاش» لعبدالله السناوى، الذى كان أكثر قربًا من هيكل خلال سنواته الأخيرة، وفى هذا الكتاب نقرأ- كما يصف السناوى مستخدمًا روح هيكل وصياغاته- كانت وديعته فى كتبه، وإرثه فى مدرسته.

أما عن المذكرات فيقول السناوى: لم يكتب سيرة ذاتية، ولا كان واردًا فى تفكيره أن يكتبها، فكل ما أراد أن يتركه أشار إليه فى كتاباته وكتبه، أو أودعه على شرائط مسجلة بثتها قناة الجزيرة فى برنامجه «سيرة حياة»، ونصوصها فرغت على ورق وضبطت لتكون صالحة للنشر وقد راجعها بنفسه.

ويضيف: على عكس ما اعتقد كثيرون أنه سوف يخلف وراءه سيرة مكتوبة بأسلوبه لجمال عبدالناصر، لأنه كان على يقين طوال الوقت أن هناك قضية واحدة تستحق أن تترك وديعة عند أصحاب الحق فى المستقبل، أن يعرفوا ماذا جرى فى مصر وحولها وأين كانت معاركها ولماذا يراد أن تتكرس فيها ثقافة الهزيمة؟

الغالب فيما قاله هيكل، وما قاله الذين اقتربوا منه، أنه لم يترك وراءه مذكرات مرتبة ومنظمة، كتبها بنفسه، أودعها ما يريده، وحجب عنها ما لا يرغب فيه، لكننى ورغم ذلك لا

يمكننى أن أجزم بشىء، ما أعرفه فقط أن كل ما كان يريد أن يقوله هيكل عن حياته، قاله فى كتبه وحواراته.

الكاتب الكبير صنع حياته وكتب روايته بنفسه، وهى رواية من السهل أن تشكك فيها، لكنك فى النهاية لا تملك إلا الاستسلام لها، على الأقل لأنك لا تملك ما تجرح به شهادته على نفسه.

*****

يمكن أن أعقد معك اتفاقًا وأنت تقرأ المذكرات التى دونتها هنا، والتى هى ما قاله هيكل بنفسه على مدار عمره الطويل.

هذا العقد يقوم على الآتى: إذا كنت تريد أن تصدق هيكل فيما قاله فسيكون صادقًا جدًا.. وإذا كنت تشكك فيما يرويه فسيكون معك مراوغًا من البداية إلى النهاية.. وإذا كنت لا تصدقه أبدًا فسيكون عندك كاذبًا جدًا حتى لو صدقك.

3

كل هذه المناطق الرمادية

فى الرواية الطويلة التى كتبها الأستاذ هيكل لحياته يبدو أمامك واضحًا وشفافًا تمامًا، يقول كل شىء، لكن عندما تفتش تحت جلد الأستاذ، ستكتشف أنه لم يقل الكثير، رحل تاركًا خلفه كثيرًا من المناطق الرمادية التى لا يمكن لأحد أن يفصل فيها إلا هو.

يمكن أن تضيف إلى شخصية الأستاذ هيكل ما تشاء من الصفات، لكن تظل الصفة الأهم فى حياته هى «الحرص».. كان حريصًا جدًا، فالرجل الذى لم يكتف ببناء مجده فقط، بل قرر أن يهدم مجد الآخرين فى بلاط صاحبة الجلالة، وضع نفسه فى قالب صارم جدًا.. وهو القالب الذى جعله حتى لو أخطأ لا يستطيع أحد أن يمسك عليه شيئًا حتى لو كان عابرًا.

فى عام 1949 ذهب أحد عشر صحفيًا من ألمع محررى أخبار اليوم إلى على أمين وقالوا له: إما نحن أو هيكل.

فوجئ على أمين بالإنذار، كان يعلم أنهم جادون لأن جريدة «المصرى» كانت تتفاوض معهم للانتقال إليها، وسألهم على أمين: لماذا؟

فقال أولهم: هيكل غامض.

وقال ثان: هيكل خطير.

وقال ثالث: هيكل أُلعبان.

وهكذا إلى أن جاء الدور على عبدالرحمن الشرقاوى فقال إنه ليس عنده شىء يأخذه على هيكل، ولكنه لا يستطيع أن يتجاهل رأى كل هؤلاء فيه.

ضحك على أمين وقال لهم: هذه شتائم وليست اتهامات، وأنا أطلب ذكر واقعة محددة تثبت أنه خطير أو أنه أُلعبان،

فقال أحدهم: إن هيكل حذر أكثر من اللازم ولا يعطى لأحد فرصة ليمسك عليه دليلًا.

هل يمكن أن نعتبر هذا أحد مفاتيح شخصية هيكل؟

إنه قد يكون المفتاح الأكبر «لا يعطى أحدًا فرصة ليمسك عليه دليلًا».

ما قاله هذا الصحفى، الذى طمس التاريخ اسمه، قد يكون صحيحًا إلى درجة كبيرة، لكنه فى الغالب لم يعش، حتى يرى ما الذى فعله هيكل بمنطقه ووثائقه، إنه لم يمنح أحدًا فرصة ليمسك عليه دليلًا، بل صادر الأدلة كلها، وجعل منها دليل إدانة لكل من خالفوه أو أزعجوه أو تطاولوا عليه ولو بكلمة عابرة.

فى حياة هيكل مناطق غامضة، وإذا لم تكن الكلمة دقيقة بالنسبة لك، يمكننا أن نتفق على أنها رمادية، نملك أطرافًا من المعلومات عنها، لكن لا يوجد مصدر واحد يمكن أن يفض غموضها أو رماديتها، لم يتحدث عنها الأستاذ، ولم يسأله أحد من مريديه عنها.. ربما لأنهم كانوا يعرفون أنه لا يريد أن يتحدث.

المنطقة الأكثر رمادية فى حياة هيكل كانت تلك التى باشر خلالها عمله فى مجلة «روزاليوسف».

من تراثنا الصحفى الشفوى أن إحسان عبدالقدوس قال إن هيكل دائمًا كان يبحث عن الرأس الكبير فى أى مكان ليسيطر عليه، حتى يسيطر بعد ذلك على كل شىء، فعلها عندما دخل «روزاليوسف»، فسيطر على رأس أمى، وفعلها بعد ذلك عندما سيطر على رأس عبدالناصر.

«سيطر على رأس أمى».. لا بد أن لدينا هنا قصة، ما الذى فعله هيكل فى «روزاليوسف» على وجه التحديد؟

على كثرة ما قاله هيكل عن عمله فى الصحافة إلا أنه لم يرو شيئًا عن عمله فى «روزاليوسف».

سألت صندوقه الأسود خالد عبدالهادى.

أرسلت له رسالة قصيرة: هل تحدث الأستاذ هيكل عن فترة عمله فى «روزاليوسف» فى أى مصدر متاح لديك؟

رد علىّ متفضلًا، قال: هو عمل لفترة قصيرة فى روزاليوسف، ذكرها بطريقة مبتسرة فى كتابه «بين الصحافة والسياسة» صفحة 28.

فى يوليو 1943 عمل فى «روزاليوسف» سكرتير تحرير، وأول مقال له بالمجلة كان يوم الخميس 19 أغسطس 1943 بعنوان «كنت أتمنى أن أكون معهم».

وتناول أيضا عادل حمودة فترة عمل الأستاذ هيكل بـ«روزاليوسف» فى كتابه «هيكل.. الحياة الحرب الحب» صفحة 123.

كل ما كتبه الأستاذ هيكل فى «روزاليوسف» لم يتجاوز 10 مقالات، آخرها كان عبارة عن حوار مع إسماعيل صدقى باشا، ونشر يوم الخميس 30 نوفمبر 1944، ورغم أنه تعرض فى حلقات فى قناة الجزيرة لبداية عمله فى الصحافة فى «الإجيبشيان جازيت» إلى «آخر ساعة» إلا أنه أغفل سنة «روزاليوسف».

ختم خالد عبدالهادى رسالته إلىّ بعلامتى سؤال.. وتعجب: لعلى أجبت؟!

أجابنى خالد عبدالهادى بالفعل على سؤالى، لكنه لم يتمكن بما قاله أن يبدد غموض إغفال هيكل لسنة «روزاليوسف».

هنا يمكن أن نبقى سويًا لبعض الوقت.

ولنبدأ من بعض ما ذكره خالد عبدالهادى.

ذكر هيكل قصته مع «روزاليوسف» بالفعل فى كتابه «بين الصحافة والسياسة» فى صفحة 26 وليس فى صفحة 28،

وجاء هذا الذكر فى الهامش وليس فى المتن.

يمكننا أن نقرأ معًا ما أثبته هيكل فى هامش الصفحة 26، يقول: لم أكن غريبًا عن أجواء الصحافة العربية، فقد كنا فى تلك الأيام نذهب مع الأستاذ «فيليب حنين» رئيس قسم الشئون المحلية فى الإجيبسيان جازيت للغداء فى مطعم «البريزيانا» القريب من الجريدة، وكانت السيدة روز اليوسف الفنانة والصحفية الكبيرة تتردد على هذا المطعم، وقدمنا إليها الأستاذ فيليب حنين، ثم لقيناها أكثر من مرة، وكانت هذه السيدة ذات الشخصية القوية كريمة فى تشجيعها لصحفيين مبتدئين، ودعتنا إلى مائدتها مرات، ثم دعتنا إلى مجلتها، وهناك كان لقائى الأول مع الصحافة العربية.

ما حاول أن يخفيه هيكل عن عمله فى «روزاليوسف»، فصّله عادل حمودة فى كتابه «هيكل.. الحياة الحرب الحب».

تابعه وهو يبدأ الحكاية من حيث انتهى هامش هيكل.

يقول: استجاب هيكل لدعوة السيدة روز اليوسف، وكان ذلك فى عام 1944، ولكنه على ما يبدو لم يبق فيها طويلًا ولم يكتب فيها كثيرًا، لقد كتب عن بنت الجيران التى لم ينسها، وعرض نتائج بحث ميدانى عن المجلات المصرية اشترك فيها هو وبعض زملائه فى مدرسة التجارة تحت إشراف أستاذه السيد أبوالنجا.

يقول السيد أبوالنجا، فى مذكراته، إن هذا البحث كان أول بحث ميدانى من نوعه فى الشرق الأوسط، وكان أجر المشترك فيه 3 جنيهات عن 6 شهور من العمل المستمر.

عندما أظهر البحث الميدانى تفوق «روزاليوسف» نشر هيكل نتائجه على صفحاتها بعد أن أصبح محررًا فيها.

يستكمل عادل حكايته، يقول: أبرز ما يحتفظ به أرشيف «روزاليوسف» السياسى لهيكل مقالين عن الملك فاروق، الأول فى العدد 818 الصادر يوم الخميس 17 فبراير 1944 بعنوان «إنه الفاروق»، والثانى فى العدد 830 يوم الخميس

11 مايو عام 1944 بعنوان «فى يوم عيدك يا مولاى»، وفى المقالين نجد هيكل حريصًا على الكتابة بأسلوب أدبى مميز، والواضح أن الأسلوب كان يغلب على الحدث والخبر فى المقال الأول، وهو ما تلافاه هيكل فيما بعد.

ويختم عادل حمودة ما أمسك به من تاريخ هيكل الذى حاول أن يخفيه، فيما يبدو عامدًا متعمدًا، بأن هيكل لم يبق طويلًا فى «روزاليوسف»، يقول: إن صدامًا ما خفيًا وقع بينه وبين إحسان عبدالقدوس.

وينقل عادل حمودة ما ذكره موسى صبرى فى كتابه «50 عامًا فى قطار الصحافة» على لسان إحسان عبدالقدوس الذى قال: إن هيكل يستولى على الرأس الكبير فى أى مكان، استولى على عقل والدتى، ثم عقل محمد التابعى، ثم عقل وقلب على أمين، ثم عقل جمال عبدالناصر.

ويعلق عادل على ذلك بقوله: لم يقل إحسان عبدالقدوس كيف كان هذا الاستيلاء، ولا ما الذى أزعجه فيه، خاصة أنه سبق هيكل فى «روزاليوسف» بنحو 7 سنوات، كما أنه كان أشد بريقًا وشهرة.

عدت إلى أرشيف هيكل الكامل فى «روزاليوسف»، ولم أركن إلى المقالين اللذين ركز عليهما عادل حمودة ويتعلقان بالملك فاروق، خاصة أنه علق عليهما بقوله: «وعندما نقرأ المقالين لا يجوز أن نحاسب صاحبهما بأثر رجعى».. وهو تعليق يحمل بعضًا من الإدانة بالطبع.

فعليًا امتد عمل محمد حسنين هيكل فى «روزاليوسف» من 19 أغسطس 1943، وكان أول مقال كتبه هو «كنت أتمنى أن أكون معهم»، حتى 30 نوفمبر 1944 عندما كتب حواره مع إسماعيل صدقى، وكان عنوانه «الموقف الحالى يبرر الشدة الحاسمة.. حديث مع إسماعيل صدقى».

وبينهما نشر ثمانية مقالات هى: رجل الدولار فى 4 نوفمبر 1943، وليس لأنه الملك فى 16 ديسمبر 1943، والمرأة

فى السياسة فى 6 يناير 1944، وإنه الفاروق فى 17 فبراير 1944، وأحاديث تهمك فى 20 أبريل 1944، وفى يوم عيدك يا مولاى فى 11 مايو 1944، والغرام الأول فى 29 يونيو 1944، ومصر والصين... حديث مع الوزير الصينى المفوض فى 5 أكتوبر 1944.

لم يكن هيكل يكتب بشكل منتظم إذن فى «روزاليوسف»، عشرة مقالات فى ستة عشر شهرًا قضاها فى المجلة، وهو معدل إنتاج هزيل جدًا، يوحى من بين ما يوحى به أن هيكل لم يكن مرحبًا به فى المجلة، ولا أحد يدرى ما الذى حدث هناك على وجه التحديد جعل هيكل يمر مرور الكرام على تجربته فى «روزاليوسف»، وهو ما يجعل الأمر من بين ملامح الغموض فى حياته المهنية.

فى العام 1963 فقد هيكل منصبه فى جريدة الأهرام لمدة 13 يومًا.

ظل ملك الأهرام المتوج على عرشها بعيدًا عن كرسيه، لم يدخل المؤسسة ولم يكتب حرفًا واحدًا فيها، وكان هذا فيما يبدو على خلفية الصراع بين عبدالناصر وعبدالحكيم عامر بعد انفصال سوريا.

وقتها استطاع رجال عبدالحكيم عامر السيطرة على المواقع الحساسة بالدولة وإزاحة رجال عبدالناصر منها.

طالت هذه المذبحة محمد حسنين هيكل، وكانت الحجة لأنه ضد الحل الاشتراكى.

التقط رجال عبدالحكيم عامر فى أحد مقالات هيكل هذه العبارة: إن الاشتراكية يجب ألا تكون شماعة تعلق عليها مشاكل النظام، وإن التطبيق الاشتراكى يجب أن يمهد له بجهاز إدارى كفء وفعّال، لأنه إذا خاب أو انهار جعل من مصر أمثولة فى المنطقة بدلًا من أن يجعلها مثلًا أعلى.

استوعب عبدالناصر ما جرى، حتى استطاع أن يعيد هيكل إلى مكتبه مرة أخرى.

لم يقل لنا هيكل شيئًا عن هذه الأزمة، لم يقترب منها، ولم يعلق عليها عندما نشرت، ولم يسأله أحد من محاوريه، رغم أن ما جرى كان حلقة مهمة فى حلقات صراع القوى على أرضية السياسة والصحافة فى مصر.

الأمر نفسه تكرر مع محاولة اغتيال هيكل.

جرت هذه المحاولة فى نهايات العام 1968.

تحدث عنها هيكل بشكل عابر لا يتناسب أبدًا مع استهداف حياته.

قال عنها: قلق عبدالناصر لحادثة إطلاق رصاصتين علىّ وأنا نازل من مبنى الأهرام القديم فى شارع مظلوم، وأنا رفضت إبلاغ النيابة وتقديم شكوى، وبعدما عرف عبدالناصر التفاصيل سألنى إن كنت أتهم أحدًا، واستغرب ردى حيث قلت إننى لا أتهم أحدًا، وأنا أرى أن ما حدث لى ولزملائى فى الأهرام، كان ناتجًا عن اصطدامنا مرات عدة ببعض أجهزة السلطة.

إن معظم الكتاب والصحفيين الذين أُعتقلوا أيام جمال عبدالناصر كانوا فى الأهرام، لطفى الخولى اعتقل، وجمال العطيفى اعتقل، وأحمد نافع ويوسف صباغ وحمدى فؤاد قبض عليهم، وسكرتيرتى نوال المحلاوى قبضوا عليها.

هذه الاعتقالات بالإضافة إلى حادثة إطلاق رصاصاتين علىّ كانت ناتجة عن اصطدامنا مرات عدة بأجهزة السلطة، لكن عبدالناصر كان يأخذ فى الاعتبار الخط الذى نسير عليه فى الأهرام، وكنت أعتبر ان الأهرام يجب أن يكون لها دور طليعى، وكنا نمارسه على أساس أننا ملتزمون بالميثاق من دون أن نفقد الحرية فى الكتابة عن تطبيق الميثاق، وكنت أرى أنه إذا استطاعت الأهرام أن تكون طرفًا فى الحوار فإنها بذلك تؤدى دورًا عظيمًا، وأعتقد أننا نجحنا فى أن نجعل من الأهرام طرفًا أساسيًا فى الحوار رغم أن ذلك تسبب لنا فى مشاكل وإشكالات، ولم نمارس هذا الدور بحماية من جمال

عبدالناصر، إنما اعتقادٌ منّا أن عبدالناصر يثق فى الأهرام ويرى أننا نعمل من داخل التجربة وننتقد من واقع الالتزام.

كما ترون يعبُر هيكل على محاولة اغتياله، ليتحدث عن الأهرام وعن دوره فيها، للدرجة التى تجعلك لا تهتم بمحاولة قتله، رغم أنها الأكثر إثارة واستفزازًا أيضًا.

لم تكن المحاولة التى كان عبدالناصر يعرف مَن يقف وراءها، كما يعرف هيكل أيضًا، بسبب ما قاله كاتبنا، فقد جرت بعد مقال كتبه قال فيه إنه إذا لم يكن النظام قادرًا على أن يغير فلا بد أن يتغير، ويبدو أن هناك من غضب لأنه فهم أنه المقصود.. فحاول تخويف هيكل لا أكثر ولا أقل.

ولأنه كان هناك من كانوا يعرفون ماذا فعلوا، ولماذا كانوا يريدون أن يفعلوا به ما خططوا له، فقد تجاهل ما جرى ورفض فتح تحقيق.. لتدخل الحادثة إلى المنطقة الرمادية الكبيرة التى تشكل مساحة لا يستهان بها فى حياة الكاتب الكبير.

لقد ظل هيكل حتى نهاية حياته يبحث عن أسباب لكراهية قطاع كبير من الصحفيين له، ستجده هو يتحدث عن ذلك، مدونًا أسبابًا ومسجلًا لتبريرات، لكنه فى الغالب لم يكن موضوعيًا مع نفسه ولا معنا، عندما تحدث.

فى سجل هيكل مثلًا أنه وفى يوم 13 مايو 1971 انتشرت شائعة عن استقالته من الأهرام، فسهر كبار محررى الجمهورية جميعًا لإعداد صفحتين كاملتين يشيعونه فيهما بأقلام الشامتين، وفى آخر الليل صدر نفى عاجل من هيكل لخبر الاستقالة بعد مقابلة عاجلة بينه وبين السادات فتأجل النشر.

تخيلوا أن صحفيين يستعدون باحتفال مهيب يودعون به هيكل شامتين فيه لمجرد أن وصلتهم شائعة عن رحيله عن الأهرام، فهل يمكن أن يكون كل هؤلاء مغرضين، مؤكد أن بعضهم كانت لديه أسباب موضوعية للكراهية، لكن هيكل

كعادته طمس الأمر كله، فلم تعد له ملامح تذكر.

لم يكن الأستاذ هيكل يخدم الحقيقة فى أى وقت من الأوقات، كان يخدم مملكته فقط، ولذلك فقد كان يجيب عما يريد من أسئلة توجه إليه، ويصمت عندما يقرر أن يصمت.

سأعود بكم إلى العام 1976، تحديدًا إلى 21 فبراير من هذا العام، جريدة القبس الكويتية تنشر حوارًا مطولًا مع الأستاذ أجراه السيد الشوربجى. لنقرأ معًا مقدمة الحوار، الذى أجراه محرره بعد شائعة انطلقت فى القاهرة ووصلت إلى كل العواصم العربية عن اعتقال هيكل.

قال هيكل: حسنا لقد تأكدت الآن أن الخبر مدسوس ولا أساس له من الصحة.

وقلت له: نعم تأكدت، لكننى لا أريد أن أكتفى بهذا، هناك أسئلة كثيرة حول موقفك وأقاويل عديدة تتردد عنك وحكايات وروايات، لماذا لا ننتهزها فرصة كى تضع النقاط فوق الحروف، ونوضح الحقيقة حول ما يقال ويشاع عنك فى كل مكان، ثم نسمع رأيك فى كثير من أمورنا الحاضرة.

أجاب: حسنا.. سأتحدث معك فى كل شىء، عندما نتقابل سنقول كل شىء.

عندما حان موعد اللقاء الثانى بادرنى هيكل قائلًا: أرنى أسئلتك أولًا، قرأها ثم شطب على واحد منها وهو يقول: هذا السؤال لن أجيب عليه.

كان سؤالى الذى شطبه هو: ما هو رأيك فى عودة الأستاذين على ومصطفى أمين لميدان العمل الصحفى وفى الخط الذى ينتهجانه الآن فى صحف أخبار اليوم؟

وسؤال آخر شطب عليه بقلمه الأسود: قرأنا أن هناك من يتاجر بك ويبيع مقالاتك وكتبك فى دول البترول، وإنك تتقاضى ستمائة دينار عن المقال الواحد، ما هو ردك على هذا الكلام؟

قلت له: معذرة لهذا السؤال، ولكنى أريد وضع كل ما يقال أمامك، فقد كتب ونشر أنك تقاضيت نصف مليون جنيه إسترلينى عن كتابك الأخير «الطريق إلى رمضان».

قال: لو افترضنا أن هذا صحيح، فما هو العيب وما هو الخطأ الجسيم الذى ارتكبته، حسنا سوف أريك شيئًا.

أخذنى الأستاذ هيكل من يدى وقادنى إلى أحد أرفف مكتبته، حيث كانت هناك مجموعة من الكتب بأحجام مختلفة متراصة بنظام، وبدأ يطلعنى عليها واحدًا واحدًا: هذه هى بعض الطبعات التى صدرت عن كتابى المذكور، هذه هى الطبعة الإنجليزية، وهذه هى الطبعة الفرنسية، النرويجية، اليابانية، الألمانية، الهولندية، السويدية، التركية، الإيطالية، الأمريكية، وهذه هى طبعة إنجليزية شعبية، وتلك طبعة فرنسية شعبية.

حوالى سبع عشرة طبعة اطلعنى عليها، وقال: إن الكتاب ترجم إلى 22 لغة عالمية، وطبع وصدر فى كل هذه اللغات، فلو فرضنا أن دار النشر التى اشترته منى دفعت لى نصف مليون جنيه إسترلينى عنه، هل يكون هذا كثيرًا، ومع ذلك فالحقيقة بعيدة كثيرًا عن هذا الرقم.

فى حياة الأستاذ هيكل كذلك واقعة مهمة جدًا، لم يشر إليها أو يتحدث عنها مع أحد.

لقد وجد هيكل نفسه ممنوعًا من الكتابة، أو لنكن أكثر دقة من النشر فى جريدة الوفد، وقد تسأل عن الذى جاء بهيكل إلى الوفد وهى الجريدة التى لا تميل إلى عبدالناصر وكل ما يرتبط به؟

الإجابة وجدتها فى مقال نشره الكاتب عباس الطرابيلى فى مجلة الهلال عدد فبراير 2019، وكان عددًا خاصًا صدر فى ذكرى رحيل هيكل الثالثة.

يقول عباس الطرابيلى: أغلب الظن أن زميلى ودفعتى

بقسم الصحافة الراحل العظيم جمال بدوى، وكان من أصحاب الرأى المستنير، كان يهدف إلى جذب قطاعات تهوى وتعشق مقالات هيكل إلى الوفد، فاقترح عليه أن يكتب مقالًا فى الوفد دون أن يحسب رد فعل الباشا فؤاد سراج الدين رئيس الوفد وزعيمه.

كان جمال بدوى ذكيًا وموفقًا فى خطوته هذه، إذ استطاع أن يقنع فؤاد باشا بالموافقة على هذه الفكرة دون أن يعرضها على قيادات الهيئة العليا للوفد وكبار شخصياته.

لكن حدث أن سافر جمال بدوى مرافقًا للرئيس حسنى مبارك فى زيارته للصين، ضمن رؤساء تحرير الصحف المصرية، وكلفنى بمتابعة الأمر وتسلم المقال من الأستاذ هيكل ونشره فى جريدة الوفد، وتسلمت مقال الأستاذ هيكل وقمت بإعداده للنشر بصفتى مديرًا لتحرير الوفد.

فجأة اتصل بى فؤاد باشا وطلب منى إيقاف نشر المقال والاتصال بالأستاذ هيكل للاعتذار لسيادته عن عدم نشر المقال، وشرح لى الباشا أسباب التراجع عن النشر.

قال لى فؤاد باشا إن كبار الوفديين اعترضوا ورفضوا بشدة أن تصبح جريدة الوفد مكانًا لنشر أفكار ومقالات الأستاذ هيكل.

وتساءل كبار الوفديين: هل نسينا كل هذا العداء من الأستاذ هيكل ضد الوفد ورجالاته وأفكاره للدرجة التى تصبح فيها صفحات جريدة الوفد منبرًا للأستاذ هيكل.

استجاب الباشا سراج الدين لوجهة نظر قيادات الوفد ومفكريه ومنهم أحمد أبوالفتح رئيس تحرير المصرى القديم لسان حال حزب الوفد، وأيضا إحسان عبدالقدوس الذى كان يكتب مقالًا أسبوعيًا على صفحة كاملة فى جريدة الوفد، وأيضًا مصطفى أمين صاحب دار أخبار اليوم.

لم تكن قيادات الوفد وحدها التى اعترضت على أن يكتب هيكل فى الوفد، بل كانت كل قيادات ولجان الوفد فى

المحافظات، وبالذات فى بورسعيد والإسكندرية والغربية وأسوان والبحيرة والجيزة، ومن الذين قادوا هذه المعارضة، على سلامة، القطب الوفدى الكبير وسكرتير عام مساعد الحزب ورئيس اللجنة العامة فى محافظة الجيزة.

واقتنع فؤاد باشا بوجهة نظرهم وتناسى حواراته الطويلة مع الأستاذ هيكل وإبراهيم شكرى وهو فى معتقل الرئيس السادات إلى أن أفرج عنهم الرئيس حسنى مبارك فى بداية حكمه.

كلفنى الباشا سراج الدين بالاعتذار للأستاذ هيكل، ولكن الأستاذ قال لى: تعرف.. كنت أتوقع اعتذار الوفد عن عدم النشر.

وجد عباس الطرابيلى نفسه فى مواجهة سؤال: هل كان رد الأستاذ نابعًا من مصادر معلوماته أم أنه كان يتوقع ذلك لسابق معرفة بالمعارك القديمة بينه وبين الوفد؟

عاد جمال بدوى من رحلته مع الرئيس مبارك، وما أن عرف بالقصة حتى ذهب للقاء الباشا فى قصره بجاردن سيتى، ولما لم يقتنع بوجهة نظره، قدم استقالته من رئاسة تحرير الجريدة.

وضع هيكل هذه القصة فى دفاتر النسيان، لم يتحدث عنها، ولم يسأله عنها أحد، ولا أحد يدرى هل نشر المقال الذى كان قد أعده للنشر فى الوفد.. أم أن المقال دخل هو الآخر ملفات النسيان؟

****

من بين مفاتيح هيكل التى لا بد أن نستسلم لها تمامًا، أنه يكون واضحًا عندما يريد، ويكون غامضًا عندما يشاء.

كان يضع المنهج، ويعرف كيف يخرج عليه، يطوع كل شىء لما يريده هو.

أسمعه وهو يقول: إحدى أزماتنا أن هناك رواة كثيرين، وروايات أكثر، لكن لا أحد يدقق، المشكلة أيضًا أن أحدًا لا يسجل، ويكتفى الجميع بالاعتماد على الذاكرة، والنتيجة أنهم فى كل مرة يتكلمون فيها عن واقعة أو رواية يضيفون جزئية صغيرة يحاولون بها تجميل صورة، أو تشويه صورة، وهذا عمل إنسانى مفهوم، ولكن مع الوقت واستمرار الحذف والإضافة تظهر الروايات عن الوقائع والأحداث فى صورة بعيدة عن الحقيقة، وليس لها علاقة بالواقع، وتصدر الأحكام بناء عليها.

ويضيف هيكل: أنا وقعت فى هذا الخطأ، فقد قمت بكتابة كتابين عن السويس، أحدهما اعتمدت فيه على الذاكرة فكانت الأخطاء فيه فظيعة، والثانى اعتمدت والتزمت فيه بالوثائق.

لقد مارس الأستاذ هيكل نوعًا من المجابهة يمكن أن نطلق عليه «المواجهة بالوثائق».. وهى المواجهة التى مكنته من أن يقول ما يريده دون أن يعترض طريقه أحد، رغم أننا لو حاسبناه بنفس المنهج سنجد تناقضات كثيرة بين رواياته على امتداد عمره.. وهى التناقضات التى وقف أمامها الكثيرون عاجزين تمامًا، اعتقادًا منهم أنهم حتمًا على خطأ... لأن الأستاذ لا تزل قدمه أبدًا.

لقد ازدادت المناطق الرمادية فى حياة هيكل، لأنه كان كثيرًا ما يعطى إشارة يمينًا ثم يتجه إلى اليسار.

فى مناسبات كثيرة تحدث ليرسى مبدأ يمكن أن نلخصه بقوله هو وبكلماته هو: عودت نفسى أن أتجنب الرد على الكثير مما يمكن أن ينشر عنى أو يذاع، ولم يكن ذلك عن بلادة حس أو عن مركبات غرور، وإنما كان دافعى إليه أننى أعرف من واقع الحال وعن طبائع الظروف ما يغنينى وأكاد أقول يرضينى.

ويضيف: إننى تمثلت بنصيحة الفيلسوف القديم «قل كلمتك وامش»، وقد قلت كلمتى ومشيت، ولم أسمح لنفسى

أن أتلكأ على باب أو أن اقف فى انتظار دقة جرس.

ويعترف: لقد هممت فى بعض المرات أن أرد على القائلين وأن أصحح، لكنى فى معظم المرات نجحت فى أن أتغلب على نوازعى- وهى إنسانية- وأن أتنازل عن حق الرد وهو شرعى، أو على الأقل ينبغى أن يكون كذلك.

لم يكن ما قاله هيكل دقيقًا أبدًا، فعلى طول حياته وهو يرد على كل من يتحدثون عنها، لكنه كان يفعله فى معظم الأحيان بترفع، فلا يرفع خصومه إليه، بل يرد عليهم من علٍ، وقد يكون من بين ما فعله هيكل أيضًا أنه كان يستخدم رجال جيشه فى الرد على خصومه، وأعتقد أن كثيرين من الكُتاب الذين التفوا حوله فى سنواته الأخيرة كانوا سلاحه الخفى.

لم يكن هيكل يغوص بقدميه فى وحل المعارك، بل كان يترك ذلك لآخرين، محاولًا إقناعنا أنه لا يتورط فى رد لا يريده.

شىء آخر أعتقد أن أحدًا لا يتوقعه عن الأستاذ هيكل، فقد كان يرد على خصومه فى جلساته الخاصة بما يهينهم ويجهز عليهم تمامًا.. ثم يترك لمن يجالسوه أن ينقلوا عنه ما قاله.. فيظل ما قاله هذا يطارد خصومه دون أن تكون لهم القدرة على الرد عليه أو مواجهته به.

4

لماذا المذكرات.. ولماذا المخفية؟

كان من السهل علىّ أن أكتب قصة حياة الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل، مستندًا إلى مصادر عدة، وساعتها كانت الرواية التى بين يديك ستكون مسئوليتى وحدى، لكننى رأيت أن أفتش تحت جلد الأستاذ، أتتبع كل ما كتبه فى كتبه ومقالاته، وكل ما قاله فى حواراته على مدى سنوات عمره المديدة، ومنها أنسج الرواية التى اختار هيكل أن يرويها عن نفسه بنفسه.. وبذلك يكون هو مسئولًا عنها.

التجربة لم تكن سهلة- لا بد أن أعترف بذلك- ولن أبالغ إذا تعاملت معها على أنها تجربة بحثية خاصة جدًا، اقتطعت من أجلها ساعات طويلة، مدركًا أن ما قاله الأستاذ هيكل عن حياته المهنية والسياسية يستحق أن نسعى خلفه، لأن فيه من الزخم ما يفيد أجيالًا كثيرة قادمة فى مجال الصحافة وما يحيط بها.

كان صعبًا علىّ أن أحصى كل ما كتبه الأستاذ هيكل وكل ما كتب عنه، خاصة أن رحلته طويلة، بدأت فى الصحافة من العام 1942 واستمرت حتى العام 2016، لم ينقطع خلالها عن العمل والكتابة والكلام، لكن لا بد أن أعترف بالجميل للأستاذ خالد عبدالهادى الذى وقع فى عشق الأستاذ هيكل مبكرًا، فنذر نفسه للحفاظ على تراثه، فجمع كل ما يمس هيكل من قريب أو بعيد.

حاول خالد عبدالهادى أن يضع الأستاذ هيكل بين قوسين من خلال كتابه «هيكل.. لمحات إنسانية» الذى صدر عن مؤسسة الأهرام، وهو الكتاب الذى دون فيه عناوين لكل ما كتب هيكل وكل ما كتب عنه فى كل المصادر العربية والأجنبية، وهو ما استفدت منه حيث أخذت من كتابه دليلا، قادنى إلى مصادر كثيرة، وتواصلت معه شخصيًا، ولم يتأخر فى الإجابة عن أى سؤال.

خالد عبدالهادى يمكن أن يكون كلمة السر بعد ذلك فى أى دراسة أو عمل بحثى عن هيكل، وإن كنت أتمنى أن يعيد النظر فى كتابه إذا أقدم على طبعة ثانية منه، فهو يحتاج إلى إعادة ترتيب وإضافات يملكها دون غيره.. أو يدخل بما لديه عن هيكل إلى مساحات جديدة من النشر عبر الوسائط المختلفة.

يمكن أن نستريح لما يعتقده البعض من أن الأستاذ هيكل وزع سيرته الذاتية عبر نوافذ نشر محددة، ويمكن أن نمسك بـ:

أولًا: مقاله الذى نشره فى الأهرام فى 11 فبراير 1972 واختار له عنوان «علامات على الطريق» حيث أشار إلى بداياته الصحفية وتفكيره لأول مرة فى اعتزال العمل الصحفى اليومى والتفرغ لتسجيل ما رآه خلال رحلته الصحفية.

ثانيًا: كتابه «بين الصحافة والسياسة» وهو الكتاب الذى صدر فى العام 1984 عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، وتوصيفه الموجز أنه يتعرض بعلاقة السياسة بالصحافة فى مصر فى الفترة الممتدة من انتهاء الحرب العالمية الثانية وحتى أواسط عقد الثمانينيات فى القرن العشرين.. لكن الحقيقة أن الكتاب الذى سرد فيه هيكل قصة دخوله الصحافة وتطور خطواته بها.. كان هدفه الرئيسى أن يروى قصته مع مصطفى أمين وموقفه من قضية التجسس التى حوكم مصطفى بسببها وسجن لما يقرب من 9 سنوات.

ثالثًا: حوار مطول بين سناء البيسى وهيكل نشر فى مجلة نصف الدنيا على أربع حلقات فى يونيو 1992، وكشف فيه لأول مرة تفاصيل حياته الأولى بين عائلته.. وأشار كذلك إلى والديه وأقاربه وزوجته.

رابعًا: حوار مطول بين مفيد فوزى وهيكل نشر فى نصف الدنيا فى يونيو 2000 وصدرت بعد ذلك فى كتاب عنوانه «هيكل الآخر» عن الهيئة العامة للكتاب فى العام 2003، ثم

صدرت طبعة خاصة منه عن الكتاب الذهبى الذى يصدر عن مؤسسة «روزاليوسف».

خامسًا: كتاب يوسف القعيد «محمد حسنين هيكل يتذكر.. عبدالناصر والمثقفون والثقافة» وهو الكتاب الذى صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب فى العام 2013، وسجل فيه جانبًا من سيرته بين السياسة والثقافة.

الحقيقة أن هيكل بدأ ومبكرًا جدًا فى إيداع سيرته لدى من يحيطون به، ولعل كتاب «بصراحة عن عبدالناصر»، وهو عبارة عن حوار مطول بين هيكل وجميل مطر وصدر فى العام 1975، من أوائل الكتب التى مارس فيها هيكل هوايته فى أن يحكى قصته ويروى حياته.

فعل ذلك أكثر من مرة عبر حواراته المطولة التى ضمتها كتب مهمة بعد ذلك، منها كتاب عادل حمودة الذى صدر الجزء الأول منه بعنوان «هيكل.. الحياة الحرب الحب»، وكان مخصصًا للحديث عن علاقته بعبدالناصر، ونوه عن الجزء الثانى منه، بجملة واضحة «الكتاب الثانى.. هو والسادات ومبارك»... وفى الجزء الأول حكى هيكل لعادل حمودة كثيرًا من حياته، وكان من بين ما جاء فى هذا الكتاب حكايات تنشر لأول مرة عن هيكل.

المفارقة أن الجزء الثانى «هو والسادات ومبارك» لم يصدر، فقد تفرقت السبل بين عادل حمودة وهيكل، وبدلًا من أن يصدر الكتاب، صدر كتاب آخر فى العام 2014 هو «خريف هيكل.. أسطورة شاخت فى موقعها».. وأعتقد أن قصة الخلاف التى قادت عادل إلى إصدار هذا الكتاب تستحق أن تروى.. لكن لا المكان مكانها ولا الزمان أيضًا.

ما وجدته أن هيكل كان يضع نفسه نصب عينيه فى كل ما يكتبه، ولذلك كان سهلًا علىّ أن أعثر على قصته فى كل سطر كتبه، وكان سهلًا أن أعثر على حكاياته بين سطور كتبه وسطور حواراته، لكن الصعوبة كانت فى البحث عن بناء لهذه المذكرات.

لو كتبها هو بنفسه لاختار لها اسمًا يروق له، ولاختار لها ترتيبًا يناسبه، ولاختار بناءً مهنيًا يستريح إليه، ثم إنه كان سيستقر على رواية واحدة لكل حدث، فمن سمات كتابات الأستاذ أنك يمكن أن تجد أكثر من رواية لحدث واحد، وهو ما جعلنى أميل إلى الرواية التى تملك القدر الأكبر من التفاصيل، وأستبعد الروايات التى تبدو لى أنه يستدعيها من الذاكرة دون أن يعتمد على أوراقه ووثائقه.

لقد قابلت روايات كثيرة يحكيها كثيرون عن الأستاذ، ويكون هو طرفًا فيها، يضعون على لسانه كلامًا كثيرًا، يمكننى أن أنسج منه واحدة من حكاياته، لكننى كنت أستبعد هذه الروايات جميعها، فقد قررت أن تكون الرواية الكاملة التى أنسبها إليها هى روايته سواء تلك التى جاءت فى كتبه أو فى حواراته.

لو استسلمت لكل ما قاله هيكل وكان طرفًا فيها، لكان من الأفضل أن أتركه لكم كما ترك نفسه بين الكتب والحوارات، وهو كثير ومتشعب ومتشابك، لكننى انحزت فقط إلى ما يقوله ويدلنا على شخصيته الذاتية والمهنية.

أعترف لكم أننى عانيت كثيرًا وأنا أبحث عن الأستاذ، خاصة عندما يتحدث عن نفسه باعتباره محور الكون.. كنت أترك الأوراق وأبتعد قليلًا، ثم أعود إليه بعد أن أكون قد تخلصت من سطوته علىّ، وهى طريقة أفادتنى كثيرًا.

يمكنك الآن أن تقرأ ما تركه لنا الأستاذ هيكل.

هى وديعته التى كان يعرف أن هناك من سيأتى ليجمعها ويجعل منها كتابًا كاملًا.. ولم يكن يخشى من ذلك، لأنه ترك حياته كما أراد.

عندما تقرأ تذكر فقط أنك أمام ثلاث محطات.

الأولى هى المذكرات.. وأعتقد أن الأستاذ هيكل لو جلس إلى مكتبه وكتب مذكراته ما كان ليخرج عما دونته هنا، كان

يمكنه أن يحذف قليلًا أو يضيف قليلًا، لكن ما لدينا هنا قلب ما حدث له، وأعتقد أنه كاف لنفهم كيف أصبح هيكل على ما هو عليه، وكيف مضى تاركًا وراءه كل هذا التراث.

الثانية هى المخفية.. قد تقول إننا لم نكتشف شيئًا جديدًا عن هيكل، فقد قال كل شىء، وهو ما أقره تمامًا، لكن هذه المذكرات كانت مخبوءة وسط حكاياته عن الآخرين، عن الأحداث التى عاشها، وهو يتحدث فى مقدمات كتبه عن حكاياتها.. وفى حواراته التى كان يعيد فيها تركيب العالم بعد أن يفككه.

لقد صنفت ما قاله هيكل فى ملفات.. وبعد أن استقرت الملفات فى يدى، كنت أن دمجت ملفات فرعية فى ملفات رئيسية أكبر، بعد أن حذفت منها المعاد والمكرر وهو كثير، فقد اعتاد الأستاذ أن يروى حكاياته أكثر من مرة وبأكثر من طريقة، وبعد أن استقرت الملفات الرئيسية أمامى، أعدت تركيبها مرة أخرى لتكون نسيجًا واحدًا لا يشذ منه شيئًا.

لن يكون غريبًا أن تجد حكاية يرويها هيكل فى منتصف السبعينيات، ثم تجده يكملها بعد أكثر من عشرين عامًا، وكان على أن أقوم بعملية طى للمسافات حتى تقترب الحكايات من بعضها.

الثالثة وهى ساحر الصحافة العربية.. هذا التوصيف «الساحر» ينطبق على هيكل تمامًا، بل يكاد يكون هو التوصيف الأدق لتفسير ظاهرته، فلم يكن الأستاذ صحفيًا يخضع للمعايير التقليدية التى نتعامل بها فى حياتنا السياسية أو المهنية، بل كان ابن أقداره وصانعها.. تلك الأقدار التى جعلته يصيغ الأحداث كما يرى هو، ويصنف البشر على طريقته، حتى أصبح هو المرجعية العليا فى حياتنا.

قد تكون سنوات عمره خدمته.. بل لن أكون مبالغًا إذا قلت إن أسطورة هيكل قامت على سنوات عمره المديدة بأكثر من أى شىء آخر.

لقد ولد الأستاذ فى سبتمبر 1923، وتوفى فى فبراير 2016، وتخيل مثلًا لو أن الأستاذ قادت أقداره إلى أن يودع الحياة وهو فى الستين من عمره أو حتى فى السبعين، وقتها كان سيذهب دون أن ينتج كل هذا الإنتاج من الكتب والأحاديث والمشاركة فى الأحداث الكبرى.. وقتها كان سيظل صحفيًا مهمًا لكنه بلا أساطير ولا حكايات عظيمة.

كان موهوبًا ما فى ذلك شك.

كان ذكيًا يشهد له الجميع بذلك.

كان مجتهدًا لا يستطيع أحد أن يتنكر لذلك.

لكنه قبل ذلك وبعده كان ابن الحظ الكبير.. ولولا ما قسمه الله له من عمر لكان واحدًا من كبارنا فى الصحافة دون أن يكون كبيرهم أو أعظمهم أو أهمهم.

قد يكون لدىّ الكثير الذى يمكننى أن أقوله عن الأستاذ.. لكن ليس هنا مكانه ولا وقته ولا سياقه.. نحن الآن فى رحابه، وهو وحده من الآن الذى سيتحدث.

محمد الباز

القاهرة

7 يوليو 2020

في بيتى
جدران من الأحباب
1

أتينا إلى بلدة ديروط الشريف قبيلة من بلاد العرب عبرت وتركت فروعها فى كل مكان حتى استقرت فى صعيد مصر، ثم هاجر جدى لأبى إلى الشمال وجاء والدى بتجارته إلى القاهرة.

تلقيت دروس تحفيظ القرآن، فى مندرة جدى لأمى فى حى الحسين مع أطفال العائلة، من الشيخ قاسم فى بيت جدى بالحسين، كان الشيخ قاسم موظفًا مستديمًا لدى جدى، وكان من يحفظ جزءا كاملا من القرآن يجازى من الجد جزاءً حسنًا، فإذا ختم المصحف فنصيبه جنيه ذهبى، وكان يحضر معنا أحيانًا دروس القرآن بعض أطفال بيوت جيراننا، ومنهم بيت الرافعى وبيت الرزاز.

كان جدى يصطحبنى معه إلى سيدنا الحسين لأجلس إلى جواره فى مقصورة المسجد لأستمع إلى مشاهير العلماء والقرّاء فى ذلك الوقت: الشيخ على محمود والشيخ على حزين والشيخ محمد رفعت والشيخ عبدالفتاح الشعشاعى.

من وقتها والأصوات الجميلة الندية تطربنى، لدرجة أننى كنت أقول لمن حولى مبتسمًا وربما ساخرًا: لو أن صوتًا لا يتقن التلاوة أو به نشاز قرأ القرآن على قبرى فإننى قد أموت فيها.

فى منزل جدى لوالدتى، وهو من عائلة سلام المعروفة، كان هناك تقليد صارم لكل أطفال العائلة، وهو حتمية تعلم وحفظ القرآن، وكان فى بيت جدى مندرة مليئة بالكتب، جمعها جدى وخالى من مكتبة صبيح بالأزهر، وبيت جدى كان موجودًا فى المنطقة التى بها مشيخة الأزهر الجديدة، وهذه المنطقة كانت مقرًا للتجارة الوطنية فى مصر، وتمتد

إلى ميدان الأوبرا والسكة الحديد حتى ميدان عابدين، وهو الخط الفاصل بين قاهرة التجارة الوطنية، وقاهرة التجارة الأجنبية، كما كانت المكتبات ودور النشر تتمركز إلى جوار المنطقة التى بها بيت جدى، وهى المنطقة التى يطلقون عليها الآن السكة الجديدة والأزهر والغورية، فالتجارة الوطنية كانت فى هذه المنطقة، وفى الجهة المقابلة كانت البنوك الأجنبية.

وقد ساهمت هذه المنطقة بكل ما تحمله من زخم دينى فى تشكيل ملامح شخصيتى الأولى، هذا إضافة إلى البيت الذى يحمل استعدادًا ثقافيًا كبيرًا، وهنا أؤكد على أننى ولدت بمنطقة الحسين وليس فى قرية باسوس فى القليوبية كما يكتب الكثيرون.

القرآن الكريم كان الرافد الثقافى الأول فى حياتى، بعد أن تحول إلى واجب عائلى، فقد كان علىّ وعلى كل أطفال العائلة أن نتعلم القرآن، ثم الافتتان بالسير الشعبية، ومنها إلى المجالات الأدبية المختلفة، والفضاءات الثقافية المفتوحة، والثقافة بشكل عام عملية مستمرة تعيش مع الإنسان من ساعة مولده إلى ساعة موته، وتحتاج إلى المعايشة، فليس من المعقول أن أطلب منك أن تتصور معرضًا أو مكتبة أو مرسمًا، لأن عليك أن تتعايش مع هذه الأنشطة الثقافية، حياة بالدرجة الأولى تدفعك إلى امتلاك النظرة الكلية إزاء الزمن والعصور والتطورات والتاريخ.

أول كتاب قرأته كان «أدب الدنيا والدين»، وعانيت كثيرًا فى فهمه، وقرأت بعد ذلك فى دواوين الشعر وفى كتاب الأغانى للأصفهانى، وفى كتاب ألف ليلة وليلة، ثم جذبتنى كثيرًا كتب السير الشعبية مثل ذات الهمة والظاهر بيبرس، وقد التفت إليه طفلًا يهدهده ملاك النوم بينما نبرات صوت أمى تهبط وتعلو بانفعال مواقف دراما السطور وهى تقرأ لوالدى سيرته.

الظاهر بيبرس واحد من الشخصيات التى تأثرت بها كثيرًا، لأنى رأيت فيه صورة البطل، وأحببت فيه أنه بطل

استطاع تغيير أقداره، فرغم أنه بيع كمملوك بعشرة جنيهات من الذهب، فى حين أن أقرانه يباعون بمائة جنيه أو أكثر، وذلك لأنه كان يعانى من نقطة بيضاء فوق عينه، ورغم هذا استطاع تكوين أفضل وأقوى إمبراطورية مملوكية فى ذلك الوقت بعد انهيار عصر الخلفاء، وباختصار كان بيبرس علامة مميزة فى عصره.

2

كان أبى يخطط لمستقبلى، وخطته أن أكون فى خدمة العلم، ونذرنى للأزهر، وانتظمت أولًا فى التعليم حتى حان الوقت للأزهر، وكان لى أخان أكبر منى من زوجة طيبة سابقة لأبى من الريف، وكانا يعملان معه فى تجارته، كان ذلك ما تفعله عادة أسر الطبقة المتوسطة فى مجالات الزراعة والتجارة.

الجيل الأول من الأبناء مع الآباء، والجيل الثانى للعلم والدين، والجيل الثالث لوظائف الحكومة.

تمنت أمى لى مستقبلًا آخر، وما إن سافر أبى فى رحلة لمدة خمسة عشر يومًا، حتى سارعت بالاتصال بأخيها واتفقا على أن ألتحق بالمدرسة الأميرية، وبالفعل، وهنا أتذكر صورة مشوارى صغيرًا معها فى وسط البلد لمحل اسمه «بلاتشى» حيث اشترت لى بدلتين جديدتين مع المناسبة الجديدة، وبعدها بأيام كنت أجلس تلميذًا فى سنة أولى بمدرسة «خليل أغا».

أمى عملت انقلابًا جذريًا فى حياتى.

عرفت إحسان عبدالقدوس لأول مرة فى مدرسة خليل أغا التابعة للخاصة الملكية.

عرفته بمعنى رأيته، فحين وقعت عيناى عليه لأول مرة كنت تلميذًا فى السنة الأولى وكان هو فى السنة الرابعة، وكانت أعداد التلاميذ فى مدارس ذلك الزمان صغيرة، وكان طابور الصباح فى فناء المدرسة المربع ملتقى لتجمع كل

الفصول، وكان ترتيب الوقوف فى طابور الصباح يضع تلاميذ الصف الداخل إلى المدرسة حديثًا بقرب الصف الذى يوشك على تركها، فأحدهما بداية والآخر نهاية، ومع أضلاع المربع المصطفة، فإن طرفى البداية والنهاية كانا على نقطة تماس.

كان طابور الصباح يحتوى على مراسم طويلة، أناشيد وتمارين وتفتيش على مكواة المرايل السوداء فوق ملابس المدرسة، وعلى ترتيب الكتب والكراريس فى الحقائب، وعلى درجة لمعان الأحذية، وعلى نظافة الأظافر، وبالطبع فإن هذا الطابور الذى اعتدنا امتداده إلى قرابة نصف الساعة كل يوم كان يتيح لكل تلميذ أن يلف بالبصر على بقية الصفوف، وأن يعرف من فيها أو يعرف عنهم.

وأعتقد إننى مدين بشدة لمدرسة خليل أغا الابتدائية والتى كانت تابعة للخاصة الملكية، فالتعليم بهذه المدرسة كان شديد الرقى والتميز، ولا زلت أتذكر معامل المدرسة وملاعبها وخلايا تربية النحل والزراعة، ومثل هذا التعليم الراقى هو الذى يستطيع أن يعطيك المفاتيح التى يمكنك أن تصل من خلالها إلى العلم الحقيقى والآفاق الأوسع.

لم أختر هذه النوعية من الدراسة، ولكن الأمر يكمن فى أن جدى ووالدى كانا يعملان بالتجارة.

التجارة كانت مهنة كل العائلة، وشاءت الأقدار أن يصر والدى على أن أعمل معه فى التجارة، حيث كان لى أخان أكبر منى من زوجة أخرى غير والدتى، وقد عملا بالفعل مع أبى فى التجارة، ولكنهما ماتا بسبب المرض، وأصبحت الابن الأكبر، فكان لا بد وأن أعمل مع والدى فى تجارته، ولذلك دخلت مدرسة التجارة المتوسطة، بينما إخوتى الصغار ذهبوا إلى الجامعة، فأخى الأصغر منى مباشرة ذهب إلى هندسة القاهرة، وأصبح بعد ذلك أستاذا فى جامعة جورج واشنطن.

ورغم أن الحرب العالمية كانت ضاغطة على كل شىء، ومن الصعب تغيير المسار، إلا إننى ذهبت إلى الجامعة الأمريكية لكى أغير مسار حياتى، وقد اختلفت كثيرًا مع والدى لكى

أفعل ذلك، ولكن دعم ومساندة والدتى كانا الدافع الأكبر لتكملة هذا المشوار، وقد تجلى دعم والدتى فى أكثر من موقف فى بداية حياتى.

لم أستطع إقناع والدى باختياراتى، لكن شاءت الأقدار أن أحصل على اعترافه ورضاه فى المحكمة، حيث كان طرفًا فى قضية خلاف تجارى، وكان محاميه المحامى الكبير جاك كحيل، وهو أجنبى متمصر، وكان معجبًا ومتابعًا لكتاباتى الأولى، وألح على والدى كثيرًا لكى يرضى ويبارك خطواتى، ولكن والدى كان يرفض دائمًا.

جاءت هذه القضية، وفجأة سأله القاضى: هل لك علاقة بالصحفى محمد حسنين هيكل؟

فقال أبى: إنه ابنى.

كنت وقتها قد نشرت بعض كتاباتى عن فلسطين، فذهب والدى إلى والدتى وقال لها: يبدو أن كلام جاك كحيل صحيح وأن محمد له مستقبل كبير ويظهر إننى كنت غلطان.

3

أنا شاعر فاشل.

ويمكن أن تعتبروننى ِشاعرًا مقموعًا.

كان الشعر جزءًا أصيلًا من قراءاتى الأولى، فقد قرأت شعر «الدنيا والآخرة» وشاء حظى أن يكون أول مدرس لى فى الابتدائى الشاعر الكبير على الجندى، وأذكر عندما جاء ولى عهد إيران، الشاه محمد رضا بهلوى، بعد ذلك ليخطب الأميرة فوزية شقيقة الملك فاروق أن كتب الأستاذ الجندى قصيدة يقول فيها.

سبحان خالقه سبحان باريها ... قل فيه ما شئت لا تحرج وقل فيها

يا من رأى الشمس فى أفق العلى ... اقترنت بالبدر يحدو

جبريل ويحدوها

ثم عرض علينا القصيدة فى المدرسة وطلب من كل تلميذ أن يشرحها ويتحدث عنها، كما طلب أن نقلدها فى كتابة الشعر، وقد حاولنا ولكننا بالطبع فشلنا فى المحاولة.

أما عن كونى شاعرًا فاشلًا، فقد بدأت التجربة مع بنت الجيران، وعلمت أمى وعنفتنى كثيرًا، لأن والدة البنت اشتكت لها من إننى كتبت أشعارًا لابنتها.

كانت بنت الجيران تلبس «فستانًا أسود» وتقف فى البلكونة، وكنا نسكن وقتها فى العباسية، وكنت أقف أمامها فى شرفة منزلنا، ثم دخلت البنت وغيرت الفستان الأسود بفستان أحمر، فأرسلت لها ورقة مع الخادمة عليها بعض الشعر أقول فيه.

ماذا بقلبك يا حسناء من وجد يضطرب ... أحال الفحمة السوداء إلى حمراء تلتهب

ووقعت الورقة فى يد أمها وحدث ما حدث فقررت أن أقلع تمامًا عن الشعر.

لم تكن هذه الورقة أول أشعارى، فقد كتبت قبلها العديد من الأشعار دونتها جميعًا فى كراسة ولا أعلم أين هذه الكراسة وسط كل أوراقى وكتبى.

لكن ورغم ما حدث فإننى لم أنس أبدًا بنت الجيران الأولى، الفتاة التى خفق لها قلبى أول ما خفق، لن أنساها أبدًا، فقد علمتنى أشياء وأشياء وفتحت عينىّ الطفلتين على أشياء وأشياء.

لن أنسى يوم سمعتها تغنى لأول مرة فظللت أتبعها إلى كل مكان تذهب إليه.

ولن أنسى أبدًا أول مرة قبلتها فيها لأننى ظللت اليوم كله أحس بدوران لذيذ كأننى احتسيت مائة زجاجة من الشمبانيا.

ولن أنسى أبدًا كيف كنت أسهر الليالى أكتب لها الخطابات الغرامية الملتهبة بكل ما كان يحمله قلبى الطفل من سذاجة ماسة وحرارة.

ولن أنسى أبدًا اللحظات الهانئة التى قضيتها إلى جوارها فى ركن فى فناء المنزل القديم العزيز آكل معها الشيكولاتة التى كنت أشتريها بكل ما كنت آخذ من «مصروف» ولن أنسى أبدًا يوم هجرتنى إلى ابن الجيران الآخر لأنه كان يستطيع أن يشترى لها شيكولاتة أكثر مما كنت أستطيع.

وأخيرًا لن أنسى يوم قابلتها بعد هذا كله بسنوات طويلة، فإذا هى أصبحت زوجة وأمًا لطفلين، ومن ساعتها قررت أن أنسى ولكنى لم أستطع.

4

مَن تتزوج صحفيًا، شأنها شأن من تتزوج أى شخص له مهنة أخرى.

وأنا أعتقد ويمكن أن أرى أمامى زوجة مهندس ناجح تعانى كما زوجة صحفى وطبيب ناجح، القضية مَن تختار وبأى المعايير، أنا مستعد أن أقول لفتاة: إذا وجدت صحفيًا فيه مواصفات الإنسان الذى تطلبينه، من فضلك تزوجيه، لأنى أعتقد أنه أكثر تفهمًا واستعدادًا لطبيعة تجارب الحياة فيما أتصور.

«هدايت» زوجتى، رفيقة الدرب وسند الحياة، تقابلنا لأول مرة فى عام 1954 وكانت بصحبة والدتها فى بيت عائلة صديقة بمحض المصادفة، الطريف أن بداية معرفتى بوالدتها كانت خناقة عندما هاجمت جمال عبدالناصر أمامى بسبب قانون الإصلاح الزراعى، لكننا فيما بعد أصبحنا صديقين حميمين.

وقتها كانت هدايت مثل كل شابات ذلك الوقت مهتمة بالعمل الخيرى، وكانت نشيطة فى الهلال الأحمر، وأكثر نشاطًا فى جمعية النور والأمل، وقد استطاعت أن تنقل إلىّ

هذا الاهتمام، وساعدت فعلًا فى حملة واسعة لجمع التبرعات لهذه الجمعية استخدمت فى بناء وإعداد منشآتها الكبيرة التى اتسعت لنشاط جمعية أصبحت من النماذج الباهرة للعمل الاجتماعى فى مصر.

هدايت ابنة أسرة ليس لها إطلاقًا أية علاقة بعالم السياسة، رغم أن كثيرين من أصدقاء العائلة كانوا من الساسة، وبينهم الدكتور محمد حسين هيكل باشا وفؤاد سراج الدين باشا وغيرهما، وفجأة بارتباطها بى وجدت نفسها فى خضم المعمعة السياسية، فقررت منذ اللحظة الأولى تحديد مجالها الذى تتحرك داخله كزوجة وأم وعضو مجلس إدارة جمعية خيرية فقط.

عندما شب عود الأولاد قليلًا كانت تسافر معى مرات، وفى رحلة للهند شاهدت معى آثار ملوك المغول فى فاتح بور سكيرى، ثم تصادفت بعد ذلك رحلة إلى الأندلس، وهناك بهرتها الأندلس وحضارتها، ومع مضى الوقت بدأت تظهر عليها عوامل الحنين الكامن فى فروع عائلة تيمور، وهى عشق دراسة العمارة والفن الإسلامى، ورأت أن تأخذ هوايتها جدًا، وأن تدرس موضوعها عالميًا وقررت أن تلتحق بكلية الآثار، كانت قد أنهت تعليمها بالبكالوريا الفرنسية، ولكن لدخول كلية الآثار كان لا بد لها من ثانوية عامة عربية، فبدأت من السنة الأولى، وكان كثيرون من أصدقائنا فى دهشة، وبينهم الرئيس أنور السادات الذى قال لها: غير معقول أن تصبحى من جديد تلميذة فى سنة أولى.

ونجحت هدايت فى مراحل التعليم الثانوى والتحقت بالجامعة ونالت شهادة التخرج بتفوق مما أتاح لها أن تصبح فى سلك التدريس الجامعى، وأشك أن أحدًا قد عرف أن زوجتى هى المعيدة ثم المدرسة الجامعية هدايت تيمور.

استمرت فى منهجها فحصلت على درجة الماجستير وكان موضوع بحثها فى العمارة العثمانية فى مصر، بعدها استعدت لدرجة الدكتوراه، وكان الموضوع الذى اختارته يدور حول تاريخ وخطط بولاق، لكن مشكلتها أن أصدقاءنا الكثيرين

فتحوا أمامها كل الأبواب.

وعلى سبيل المثال فقد كان أحد أصدقائنا، وهو السير دنيس هاملتون، رئيسًا لمجلس أمناء المتحف البريطانى، وهكذا فإن جميع قاعات ومكتبات ووثائق المتحف البريطانى تفتحت أمامها، وشىء من نفس النوع حدث لها فى اللوفر فى باريس، فانكبت على البحث لتجد نفسها غارقة فى مادة تصلح لعشرين دكتوراه، وفى النهاية قررت أنه لا جدوى من تلك الدكتوراه، فهى فى حد ذاتها ليست هدفها، بل لقد ذهبت إلى أبعد من هذا بأن استقالت من الجامعة أيضًا لأنها لم تعد تستطيع الوفاء بواجباتها الجامعية والعائلية والاجتماعية جمعاء إلى اهتماماتها الثقافية، والحقيقة أنها لم تخرج يومًا عن دورها الذى وضعته لنفسها ولا الخط الذى رأت ألا تتعداه، وقد فضلت دائمًا أن تتوارى عن الأضواء العامة.

من أول يوم زواج قلت لها أنت لست مطالبة بأية واجبات اجتماعية تجاه صداقاتى السياسية، وقد أكون ظلمتها، من حيث إنها لم تكن مستعدة لهذا النوع من الحياة لكنها تحملتها وتحملت آرائى المختلفة المتصادمة مع خلفيتها الاجتماعية، وتحملت الدخول فى المناقشة مع الآخرين.

أذكر مرة فى واشنطن أن دعتنا كاترين جراهام، صاحبة صحيفة الواشنطن بوست، دخلت هدايت فى مناقشات محتدمة مع ثلاثة من مستشارى الأمن القومى تعاقبوا على هذا المركز فى البيت الأبيض وكانت حول القضية الفلسطينية، وخرجنا بعد العشاء وركبت إلى جوارى السيارة وفجأة لمحت دموعها وراحت تقول إنها ليست مضطرة بعد الآن لحضور أى مناقشات فى أمريكا حول القضايا العربية، فأعصابها لا تحتمل الشعور بالظلم، ولكن مسيرة الحياة جعلتها تضطر وتحضر وتسمع وتناقش.

كانت فترة سجنى فترة لاختبار مدى صلاحيتها، كنت متوقعًا الاعتقال بعد ما تركت العمل بالأهرام، خاصة فى الأيام التى كان فيها هجوم الرئيس السادات زائدًا تجاهى، قلت لها عندما تحرجت المسائل إنه ليس لى سوى طلب

واحد منها إذا ما اعتقلت- كانت هدايت تعرف كل أحوالى ومواقفى منذ البداية، وأنا مؤمن بأن الزواج مصير واحد لشريكين، ومن ضروب المأساة أن يخبئ البعض عن زوجاتهم أوضاعهم، وقد رأيت بنفسى ما يحدث للزوجة بعد رحيل مثل هؤلاء الأزواج وما تواجهه من مشاكل لا حدود لها لكى تستطيع أن تلم أطراف أشياء لا تعرف عنها شيئًا.

قلت لهدايت ألا تطلب من أى كائن من كان طلبًا يخصنى أو يخصها أو أبناءنا، وألا تحادث سوى شخصين فقط هما الدكتور محمود فوزى كصديق، هذا إذا ما أرادت الاستعانة بنصحه وأخذ رأيه فى تصرف ما إذا واجهتها مشكلة، والشخص الثانى الأستاذ ممتاز نصار المحامى، ومن سوء الحظ أنه حين جرى اعتقالى كان الدكتور محمود فوزى قد رحل عن عالمنا.

أحضر ممتاز نصار إذنًا من المدعى الاشتراكى فزارتنى مع الأولاد بحضور ثلاثة من الضباط أحدهم من السجن واثنين من مباحث أمن الدولة، فى اللحظة التى كت أهبط فيها الزنازين على السلم الحديدى متجهًا إلى البوابة الحديدية التى تفصل بين العنابر وحجرة المأمور، كانت هى والأولاد يدخلون من باب السجن فتلاقت خطانا أمام باب الحجرة لنجلس بداخلها نصف الساعة التى سمح لنا بها.

كان استيعاب الموقف بهدوئه الظاهرى وكأننا اتفقنا عليه مسبقًا، وتماسكت هى لتبدو مسيطرة تمامًا على أعصابها رغم ما أعلمه بما يجيش به تدفق عواطفها، لقد شاهدت إلى جانبى الكثير مما حدا بها يومًا إلى التفكير فى كتابة يوميات.

5

كانت الجدودية فى بدايتها مأساة.

كنت مرعوبًا، خفت بشدة لمعرفتى من الأطباء أن زوجة ابنى «على» الطبيب- وكانت زميلته فى الكلية ويسبقها بعام دراسى- حامل فى توأم، أتذكر عندما كلمتنى زوجتى

لتخبرنى بأن زوجة الابن قد نقلت إلى مستشفى السلام فى حالة وضع ودعتنى أن أذهب إلى هناك.

كانت الولادة قد تمت، وأتى الأحفاد ولدًا وبنتًا، محمد وهدايت، على اسمى واسم زوجتى، توجهت إلى الغرفة لرؤيتهما فمنعتنى الممرضة الأيرلندية بحسم بحجة أنه غير مسموح لأحد بدخول غرفة الحضانة سوى للأب والأم فقط، فعدت بخفى حنين.

نزلت ليلاقينى ابنى «على» ويسألنى عن رأيى فى الأحفاد، فذكرت له ما كان من أمر الممرضة، فأسرع يأتينى بهما، لقد كانت الرهبة وحدها هى ما جعلتنى ألبى على الفور أوامر الممرضة.

أن تكون أبًا إلى هنا الأمر شىء عظيم، لكن ساعة أن يكون لك أحفاد تحس أن نقطة تحول قد حدثت فى حياتك، وساعة أن تسمع أحدًا ينادى عليك كجد تستغربها بشدة، بعدها تكتشف أنك دخلت عالمًا مختلفًا تمامًا.

كنت أتمنى أن تكون لى بنت، أنا أتصور البنت فى حياة أبيها تمنحها طعمًا ومذاقًا، وأنا أعوض هذا بأحفادى، ورغم أن لى أحفادًا ذكورًا لكن البنات حكاية أخرى.

المثل الذى يقول «أعز الولد ولد الولد» ليس صحيحًا.

ولكن كل حكمة شاعت بين الناس لها مبرر، أعتقد أن أولادك هم الأقرب إليك، أحفادى يتحمل مسئولياتهم الآباء والأمهات، ومع حفيدتى أنا لست مسئولًا، ولا أحمل هموم المسئوليات الملقاة على عاتق الأب والأم، ولكن بالطبع هناك مسئولية غير مباشرة، والحفيد نعمة من نعم الله، بل أجمل نعم الحياة، إن جرعة ما تأخذه من متعة أكثر بكثير مما تحمله من مسئولية، لأن المسئولية محالة إلى غيرك، وأنا أقضى مع أحفادى أسعد أوقاتى.

أنا ضعيف جدًا مع أولادى «على وأحمد وحسن»، وضعيف جدًا مع أحفادى، ضعيف أمام أى طفل وبينى وبين الطفولة

علاقة دافئة.

عندما قمت برحلة إلى أمريكا اصطحبت فيها أولادى لاكتشفها معهم من جديد، ربما كان هدفى وقتها سياسيًا إلى حد ما، فقد كنت أشعر بقوة الانبهار بكل ما هو أمريكى فى منتصف السبعينيات، ولهذا رافقنى أولادى لمشاهدة أمريكا على أرض الواقع ليعرفوا أنها ليست بالصورة التى تسكن خيالهم، وليست بلاد المعجزات.

الإنسان يستطيع أن يكتشف العالم للمرة الأولى بتجربته الخاصة، وإذا كانت المقادير كريمة معه يكتشفها للمرة الثانية بتجربة أبنائه، وإذا فاضت المقادير فى كرمها وعطائها يكتشفها للمرة الثالثة بتجربة أحفاده.

أولادى متعة ومسئولية، فأنا مضطر لتحمل هم تربيتهم وتعليمهم ومتابعة تقدمهم، بينما أحفادى متعة دون مسئولية وهنا تكمن الميزة.

من عادتى أن أستيقظ مبكرًا وأتناول إفطارى وأقرأ الصحف وأشرب فنجان قهوتى، وتأتى حفيدتى نادية وتداعبنى بمكرها اللذيذ وتطلب منى وردة، يحدث هذا فى برقاش التى لا تبعد عن القاهرة كثيرًا، ونمشى أنا ونادية على الحشيش لغاية حوض الزهور وأقطف لها وردة.

ماذا ستفعل بها؟.. لا أدرى.

لكنى أجد نفسى أدوب فى عبارة: جدى ادينى وردة.

وحفيدتى الكبيرة هدايت تطلب منى كتابًا من كتبى لأن واحدة صاحبتها أبوها يقرأ لى، أشهد وأنا أقدم لها الكتاب ومعه إهداء بمتعة لا يعرفها إلا من يعيشها، وعندما أجد أحفادى حولى فى نشاطات جميلة نعوم معًا ونصطاد معًا، فهذه متعة وحاجة بديعة.

حزنت بشدة عندما قرأت فى الصحف وتحديدًا فى الأهرام تعبير «ابن هيكل»، هذا التعبير قبيح وعيب، لأنه يلغى

شخصية أولادى وتربيتى لهم على الفضيلة والأخلاق وحسن التصرف والاعتماد على النفس، كما أن هذا التعبير يعطى إشارة إلى أنهم يستفيدون من مكانة والدهم فى المجتمع وهذا غير صحيح بالمرة، ولم أزر عمل أى منهم مرة واحدة أو أتدخل فيه أو أتدخل له فى مسألة تخص عمله، فقد كنت حريصًا على تعليمهم وتأهيلهم لكى يعيشوا العصر بكل أدواته، وكأن هذا هو استثمارى ومساعدتى الوحيدة لهم.

مرة واحدة زرت ابنى «على» لافتتاح عيادة له، لم أزر أيًا منهم فى عمله على الإطلاق، ولا أتدخل فيه، وشعارى معهم «اللى عاوزنى يجيلى» ورغم ذلك يصر البعض على إطلاق صفة «نجل هيكل» للإيحاء بأنهم استفادوا من اسمى أو كان لى دور فيما وصلوا إليه.

6

علاقتى بالمال محددة بشيئين، أولهما اعتبار المال أداة وليس غاية فى حد ذاته.

ثانيهما قاعدة أساسية وهى لا تنفق إلا فى حدود الموارد، وفيما يتعلق بى قد أصل إلى صرف 100% من مواردى لكنى لا أتخطاها.

وكما يقولون المال خادم جيد لكنه سيد سيئ.

زوجتى تقول إننى دائما أرى أن ما عندى هو أحسن حاجة، وهذا صحيح، فكل شىء عندى هو الأحسن بصرف النظر عن عامل المقارنة بغيره فهذا لا يفرق معى، أنا أعتقد أن مكتبى أحسن مكتب، وبيتى أحسن بيت، أنا لا أطلب سوى الدعاء العظيم الذى كانت تدعو لى به والدتى بالصحة والستر.

وإذا سألتنى ما هى متع الحياة؟

أعتقد أنها فى الصحبة مع الصديق ومع الكتاب ومع الموسيقى ومع الطبيعة ومظاهر الخلق فيها، وكثيرًا ما لاحظت زوجتى نظراتنا المتبادلة أنا وكلبى «فارس» فى بيتنا

الريفى.. وحقيقة بعد الصحة والستر يأتى الجمال.

وعندما نشرت مجلة «المصور» تقريرًا عن ثروتى اعتقد البعض أنها تتهمنى بالثراء غير المشروع.

الحقيقة أن «المصور» لم تتهمنى بالثراء غير المشروع، لكنها اتهمتنى بأننى اشتريت قطعة أرض من رجل موضوع تحت الحراسة مستغلًا سلطتى، وأنا رفعت قضية، وبالرغم من المحاولات الكثيرة جدًا لتشويهى والتى حصلت ومستمرة، فأنا لا أتكلم فيها أو عنها إطلاقًا، لكن لأن الموضوع يمس الذمة المالية، فلم أتركه بل ذهبت بسرعة إلى القضاء وقاضيت المصور ووكالة الأنباء الفرنسية، التى نقلت عن المصور هذا الخبر، وفى المحكمة وبعد أن قدمت وثائقى اعتذرت وكالة الأنباء الفرنسية، وسجلت اعتذارها فى المحكمة وأخرجتها من القضية.

تقول المصور إننى اشتريت قطعة أرض من أجنبى تحت الحراسة، أنا اشتريت قطعة أرض على دفعتين، الجزء الأول اشتريته من عضو فى مجلس إدارة الأهرام وهو الذى عرضها على، وحصل إننى أخذت مكافأتى من أخبار اليوم، وذهبت لأشترى أسهمًا فى شركة إيسترن للدخان، وكان هو حينذاك فى هذه الشركة.

قال لى: لماذا الأسهم وليس قطعة أرض؟

أنا عندى قطعة أرض أخذتها بدل أتعاب فى قضية، أبيعها لك، وكان هو أهمل هذه الأرض بعد وفاة زوجته، لما رأيت الأرض تحمست لها، وكان ذلك عام 56، ولم يكن هناك من حراسات إطلاقًا، ثم إننى اشتريت الأرض بسعر أغلى من المعروض لأنه سمح لى بالتقسيط، وكل هذه الأمور اطلعت المحكمة عليها، وأطلعتها على كل الإيصالات المالية، لدرجة أن آخر فاتورة أرسلها لى كانت فاتورة برسم التحصيل، بما فيها ثلاثون قرشًا لصالح شهود أتوا بهم من على باب المحكمة.

الجزء الثانى من الأرض اشتريته من مصريين وليسوا أجانب ولم يكونوا تحت الحراسة، إنهم ورثة عزمى باشا الذى كان جارى وعنده قطعة أرض قرب منزلى من ضمن أرضه، فاشتريت منهم قطعة أرض بسعر أغلى من السعر المطلوب وهؤلاء قدموا شهاداتهم.

قالوا من أين أتيت بالمال؟

فى المحكمة أنا وضعت كل إقرار ذمتى المالية، الأرض الأولى كانت بعشرة آلاف جنيه دفعتها على ثلاث سنوات، وقبلى كان أكثر من واحد يريدون شراءها بينهم جمال العطيفى، وآخر سعر وصلت إليه الأرض كان 8 آلاف جنيه، وبسبب التقسيط دفعت 10 آلاف جنيه.

كانت مكافأتى من أخبار اليوم 7 آلاف جنيه، ولأننى أعرف حساسية المسائل المالية، طلبت أن تكون المكافأة فى شيكين، الشيك الأول بخمسة آلاف جنيه، أخذته وعلى ظهره حولته لصاحب الأرض وقبض المبلغ على شيك صادر باسمى من أخبار اليوم.

القسط الثانى حولت له أسهمًا فى شركة الخزف الصينى، وكانت بثمن ألفى جنيه، وأرسل لى الإيصال من عند رجل البورصة، الجزء الثالث بعت أسهمى فى شركة شاهر وكانت لأقرباء لى، بعتها فى البورصة بألفى جنيه، والألف الأخير كان من السهل أن أدبره.

قطعة الأرض الثانية كان ثمنها 23 ألف جنيه، اشتريتها بعد كتابى «عبدالناصر والعالم» وقبل أن أشتريها كان تحوّل لى من فلوس هذ الكتاب خمسون ألف جنيه إسترلينى.

طوال عمرى كنت مستعدًا أن أسكت عن كل الكلام الذى يقال من ناحية الحياة السياسية، لكن الذمة المالية لا، أذهب إلى المحكمة بسرعة.

وكالة الأنباء الفرنسية أرسلت لى رئيس مجلس إدارة الوكالة فى باريس، للاعتذار بعد أن رأوا الوثائق، قلت لهم:

لكننى أريد اعتذارًا كاملًا يسجل فى المحكمة، وحصل هذا الموضوع.

على هذه الأرض بنينا البيت.

بيت برقاش هو الوحيد الذى أشعر أنه بيتى.. فى الجيزة بيت ومكتب كأنى على موعد عمل.

كل شيء جميل فى هذا المنزل، شكلته هدايت على ذوقها وعلى مهل.

لسنوات عديدة كانت هذه الأرض تزرع بالترمس، وعندما حولت سبع فدادين منها إلى حديقة، غضب والدى وحزن بشدة، فقد كان يرى أن الترمس والسودانى والكتان أهم من الأشجار المعمرة.

عندما حولناها إلى حديقة قال لى: الآن انتهى عصر المحاصيل.

وقد حرصت هدايت أن تجعل كل وحدة منعزلة عن الأخرى فى الحديقة، المكتب فى ناحية، والسكن فى ناحية أخرى والبيسين والمطبخ.

7

مبكرًا جدًا بدأت تنظيم وقتى، كنت دائمًا أبدأ عملى فى الثامنة والنصف تمامًا، فانا أعتقد أن كل إنسان يتحرك فى زمن محدد، يوم مساحته 24 ساعة، وأمامك مهام لا حدود لها عليك أن تقوم بها- لو كنت تريد- وإذا لم تحسن استغلال هذه الرقعة من الزمن من خلال التنظيم الجيد، فإنك لن تستطيع أن تفعل شيئًا.

طوال عمرى أغلب مّن كان لى حظ العمل معهم كانوا يشكون من النظام، أنا أعتقد أن النظام ليس مهمًا فى الصحافة فقط، ولكن فى الفن، وفى الخلق الأدبى، وفى أى شيء آخر، ربما أن الصحافة تعلمك الأهمية القصوى لعنصر

الوقت.

لأنك مرتبط بلحظة معينة لا بد أن تذهب فيها الجريدة إلى المطبعة وتوضع الصفحات على السلندرات وتدور الماكينة، إذن أنت مقيد بلحظة نهاية معينة، كأنه توقيت معركة، وينبغى أن تكون كل عملياتك مرتبة من قبل، بحيث تصبح جريدتك معدة فى لحظة محددة، وبالتالى يتم توقيت عملية التفكير فى الجريدة، التخطيط للجريدة، تكليف الناس بمهام الجريدة، إعداد المواد للجريدة، تقديم هذه المواد للأقسام الفنية سواء فى التحرير أو الطباعة لتؤدى دورها فيها، ويتم كل شىء وتدور الماكينة، وهذا أكثر الأشياء التى تعلمك النظام بشكل طبيعى، فضلًا عن هذا أنا واحد من الناس يعتقد أن التكريم الحقيقى للوقت هو أن تشغله بما هو جد وما هو نافع، وإلا لن يكون ما تفعله تضييعًا وقت، بل تضييع حياة أو تضييع عمر فى النهاية.

قد يكون من بين الأسباب أيضًا أننى تربيت على النظام، فقد ولدت فى عائلة كان النظام فيها شيئًا أساسيًا، أو على الأقل كان النظام موجودًا وقائمًا، وأخذت أنا هذا النظام عنها، وفيما بعد حدث- مهنيًا- أننى عملت فى إطار نظام معين، وهكذا مضت الأمور.

برنامجى هذا كنت أفعله طوال عمرى، بما فيه جزئية الرياضة التى تبدأ مبكرًا.

ولسنوات طويلة بعد خروجى من الأهرام، كنت أصحو باكرًا فى الصباح، أذهب إلى النادى الساعة السابعة ألعب الجولف، فى التاسعة إلا الربع أكون فى المنزل أفطر وأدخل مكتبى، يستمر عملى من التاسعة صباحًا حتى الثالثة بعد الظهر، وفى حوالى الخامسة إما أن أواصل عملى، أو أقابل الناس، وفى يومىّ الخميس والجمعة أذهب إلى بيتى فى الريف مع أولادى نلعب بينج بونج وكرة القدم.

8

أعتبر الله فى قلبى وفى عقلى، وكثيرًا ما تكلمت عن الفكرة المادية والإنسانية والعقلانية، وأن الأفكار الثلاث تترابط مع بعضها لأن الإنسان لديه احتياجات مادية ولكن لديه عقلانية الحياة تفقد كل قيمتها إذ تكلم المرء فقط عن المادة، ولا يعود هناك معنى للحياة، ضرورة الحياة أن يبقى عندك البعد العقلى والبعد الإنسانى والبعد الإيمانى لأن الإنسان فى النهاية كائن واحد.

إن كان هدف المجتمعات هو الاستقرار والترقى والتقدم فإن الدين كفل هذا مباشرة فى عصور معينة، لكن جاءت عصور أخرى فى الاجتهاد الإنسانى أضافت إلى تعاليم الدين الكثير من الثراء، إن ذلك لم يحدث عندنا فقط، وإنما حدث فى الدنيا كلها، ونحن شأننا شأن غيرنا سرنا فى التطور، الدين موجود ركيزة، لكن التجربة الإنسانية أضافت وبنت حوله الكثير.

ليس هناك شىء اسمه أصالة ولا آخر اسمه المعاصرة.

أنا إنسان، إذن أنا حى.. ومن ثم فالموروث فاعل والمكتسب أيضًا فاعل، وكلاهما يتسق فى داخلى.

المشكلة أنك لا تستطيع أن تكون انتقائيًا، إذا أردت أن تسير فى طريق فعليك أن تقطعه حتى النهاية، ولا تستطيع أن تقول إنك هنا علمانى، وهنا إسلامى، المجتمعات لا بد أن تتسق مع نفسها.

أنت اخترت، أنا لا أناقش اختيارك.

ولكن امض فى اختيارك حتى النهاية، لا ترجع من منتصف الطريق، ومن ثم لا يجوز تضييع الوقت فى بلادنا بأن الدين سياسة أم لا؟ فهو سياسة، وقد حدث ذلك باختيارنا، وبكل مواثيقنا التى عملناها.

مراسل حربى
صحفى يبحث عن طريقه
1

قضيت فترة التكوين المهنى الأولى فى عالم الصحافة خلال العامين 1942 و1943، فى جريدة «الإجيبشيان جازيت»، التى كانت وقتها أكبر الصحف الأجنبية التى تصدر فى مصر عن شركة الإعلانات الشرقية التى تملكها أسرة «فينى».

دخلت «الإجيبشيان جازيت» عبر فرصة أتاحها لى ولثلاثة غيرى من الشباب الناشئ واحد من خيرة محرريها، وهو «سكوت واطسون»، عندما كنا بين الجالسين أمامه فى محاضرة وهو أستاذ «مادة الأخبار» عن «عناصر الخبر»، وإذا به يأخذنا من موضوع محاضرته إلى ذكرياته أيام كان مراسلًا فى الحرب الأهلية الإسبانية، كنا نستمع إليه فى انبهار وشبه خشوع، فقد طاف بنا فيما يشبه الملحمة بين تضاريس ومعالم تلك الحرب التى انقسمت أوروبا بسببها بين الفاشية والديمقراطية.

طوال المحاضرة التى كان يتحدث فيها واطسون عن العمل الصحفى فى الميدان، كنت أهتف بكل ما فى نفسى: هذا ما أريد أن أكونه.

كانت الصحافة إلى ذلك الوقت- أواخر الحرب العالمية الثانية- إما أخبارًا يجمعها المندوبون، وإما مقالات يكتبها كتاب، أو تعليقات على الأخبار أو الأحداث يكتبها كبار الصحفيين.

كان الخبر هو الذى ينتقل إلى الصحفى فى جريدته أو مكتبه، أما أن ينتقل الصحفى إلى مكان الخبر أو الحودات ليرى ويدرس ويجمع المعلومات ثم يكتبها فى تحقيق صحفى لجريدته، فنوع من الصحافة لم يكن قد عُرف بعد،

وهكذا حددت هدفى منذ البداية.

ختم واطسون محاضرته، ثم دعا من يريد منا أن يتدرب عمليا فى «الإجيبشيان جازيت» أن يلقوه فى اليوم التالى بمكتبه.

كنت أعرف أن كثيرين من مشاهير الصحافة والأدب فى العالم، عملوا فى الصحافة المصرية الصادرة باللغات الأجنبية، أو عملوا كمراسلين لكبريات الصحف العالمية فى مصر وقت أحداث الحرب العالمية الثانية.

وقد لا تعلم الأجيال المتعاقبة فى الصحافة أن الروائى الإنجليزى جورج أورويل، والروائى الأمريكى إرنست هيمنجواى، والروائى الإنجليزى لورانس داريل كتبوا فى صحيفة «الإجيبشيان جازيت» زمن الحرب العالمية الثانية، بل إن داريل وأورويل عملا فى الصحيفة نفسها، فقد كانت القاهرة فى ذلك الوقت أهم مركز بريطانى لقيادة الحرب العالمية الثانية.

قبل أن يصل واطسون إلى مكتبه فى اليوم التالى كنا أربعة- ميخائيل فلتس وإكرام عبدالمجيد ويوسف صباغ وأنا- قد سبقناه إليه ننتظر.

وجدت نفسى من اللحظة الأولى فى جو الصحافة العملية، أعمل بين رجلين كان لهما تأثير واضح على نشأتى الصحفية الأولى.

«سكوت واطسون» الذى كان إلى جانب كفاءته المهنية مثقفًا يساريًا صاغته الحرب الأهلية فى إسبانيا بكل عناصرها الفكرية والإنسانية العظيمة.

و«هارولد إيرل» الذى كان رئيسًا لتحرير «الجازيت» وكان صحفيًا كلاسيكيًا قديرًا يعمل فى نفس الوقت مراسلًا لجريدة «المانشستر جارديان» فى مصر.

بدأت مساعد مخبر صحفى فى قسم الحوادث وظللت فيه

قرابة سنة.

ذات يوم- خلال هذه السنة- علمت أن هناك مشاجرة تدور بمكان ما فى القاهرة، وأسرعت إلى مكان الحادث الذى يتلخص فى أن جندى بوليس ضبط لصًا ولما حاول أن يقبض عليه أسرع اللص وجرى فأطلق الجندى عليه رصاصة أرهبته فسلم نفسه.

كان هذا هو كل شىء بالنسبة للقصة نفسها، ولكن هل هناك ما يحتم أن يكون هذا هو كل شىء بالنسبة لى، أعملت الفكر أو قل الخيال، فإذا بهذه الحادثة البسيطة تتحول إلى معركة عنيفة بين اللصوص وبين البوليس، تطلق فيها مئات الطلقات ويقع أثناءها عشرات الضحايا، تمامًا كما يحدث فى شيكاغو.

ظهرت الحادثة بهذا الشكل فى الجريدة، وفى اليوم التالى ذهبت إلى مكتبى أتلقى أكاليل الغار، فإذا بى أجد جنديًا ينتظرنى، جنديًا أوفد من المحافظة خصيصًا ليصحب الكاتب الفاضل إلى المحافظة، وهناك تلقانى وكيل الحكمدار ووجه إلىّ تهمة كانت أبعد ما تكون عن خاطرى «تهمة الخيانة العظمى»، أما الأسباب فهى أننى أنشر صورًا بعيدة عن الحقائق تسىء إلى سمعة الأمن وتشكك فى استقرار قواعد الطمأنينة وتعطى العالم الخارجى كله صورًا مشوهة عن مصر.

حاولت أن أثبت أننى أول من يحرص على سمعة الأمن وعلى سمعة الطمأنينة وعلى سمعة الوطن ولكن بلا فائدة.

وأحلت إلى ضابط اتصال إنجليزى اسمه الكابتن مورلى ليحقق معى.

بدأت ساعات طويلة من التحقيق، وبين كل سؤال ووسط كل إجابة يضرب الكابتن مورلى بيده المائدة ويقول بالعربية المكسرة: «لازمتو خمسة سنين خبس».

ولم يخرجنى من هذا المأزق إلا وعد ضمننى فيه ولى أمرى أن أطلق الصحافة طلاقًا بائنًا، فلم أعد إليها إلا بمحلل.

خلال فترة التدريب نفسها وذات يوم جاءنى سكرتير تحرير الجريدة وقال لى إن الحكومة تفكر فى إلغاء البغاء الرسمى، وإن الجرائد كلها تكتب فى هذا الموضوع دون أن تحاول واحدة منها أن تأخذ رأى أصحاب الشأن الأول وهم البغايا أنفسهن.

طلب منى يومها أن أقوم بسؤال مائة بَغىّ عن رأيهن فى الموضوع، قائلا إنه سيكون دليلًا على مقدرتى الصحفية إذا تمكنت من استفتاء مائة بَغىّ، وكانت مهمة شاقة ولكن المسألة كانت مسألة امتحان.

ذهبت إلى ذلك الحى، الحى الذى تستطيع أن تشترى فيه كل شىء، ودخلت أول بيت وأنا أفكر فى الصيغة التى ألقى بها السؤال، ولكن يبدو أننى لم أوفق فى اختيار الصيغة لأننى خرجت من البيت الأول مشيعًا بسباب وصل إلى أجدادى حتى عهد الملك مينا.

حاولت وحاولت، ولكن على غير فائدة، وأخيرًا أدركت عقم المحاولة وبدأت أفكر بهدوء وأحسست أن ثقتى قد بدأت تفارقنى، والتفت فإذا مقهى قريب منى فذهبت إليه أستريح ولأفكر.

أثناء جلوسى لاحظت وجودى سيدة متقدمة فى السن كان جميع مَن فى المقهى ينادونها بـ«المعلمة» باحترام قل أن يكون له مثيلًا، وثبتت فى ذهنى فكرة فتقدمت من السيدة وشرحت لها كل مهمتى وأثبت لها أن مستقبلى كله يتوقف على معاونتها لى، وفكرت السيدة قليلا ثم قالت: اقعد.

قعدت فنادت بعض النساء وعقد الجميع مؤتمرًا لبحث المسألة وجلست أنتظر النتيجة، وفجأة صاحت إحداهن: نادوا عباس.

مرت فترة ثم حضر شاب سمع المسألة ثم تقدم منى قائلًا: معاك «كارنيه».

لم يكن معى كارنيه ولا خلافه.

لم يقتنع عباس.

ولكن المعلمة اقتنعت قائلة: ده باين عليه ابن ناس.

هززت رأسى مؤكدًا أننى ابن ناس جدًا، فبدأت ترسل فى طلب النساء من المنازل المجاورة حتى أتاحت لى الفرصة أن أسأل مائة امرأة وأنا جالس فى مكانى أشرب القهوة على حساب المعلمة.

2

بعد قرابة سنة جاءنا «هارولد إيرل» باقتراح مثير، دعانا إلى مكتبه يومًا- نحن الشبان الأربعة- وقال لنا إن هناك حربًا تجرى على الأرض فى مصر، ومع ذلك فإن أحدًا لم يصفها بعين مصرية ولم يكتبها أحد بقلم مصرى.

سألنا: هل فينا من هو مستعد للمخاطرة فى تجربة جديدة وعلى مسئوليته وحدها؟

تحمست للتجربة، ولعلنى فى ذلك كنت متأثرًا بإعجابى بـ«واطسون» وتجربته فى الحرب الأهلية، وكان ماثلًا أمامى كذلك ما سمعته من مراسل الجارديان فى القاهرة.

كان يرى ضرورة أن يعمل الصحفى فى بداية حياته بقسم الجريمة أو الحوادث ليتعرف على خبايا النفس البشرية، وعليه أيضًا أن يعمل مراسلًا عسكريًا ليكتشف كيف تلجأ الشعوب إلى الحرب عندما لا تجد حلولًا لمشاكلها.

قبل أن أمضى تعلمت الدرس الأول والأهم فى حياتى المهنية من إيرل.

قال: لا ترسل أخبارًا، حاول أن تستقصيها وتكتشف خباياها بقدر ما تستطيع، لا نتوقع منك أن تنافس مراسلى الصحف والوكالات الدولية، الظروف لن تمكنك من أن ترسل ما تحصل عليه فى برقيات، والحل الوحيد أمامك، وهذا ما نطلبه منك

ونكلفك به، أن تدون ملاحظاتك على ما ترى فى ميادين الحرب وسير معاركها، وأن تضبط صياغاتها من دون أن تفقدها حيويتها وطزاجتها التى كانت عليها، فالمادة المكتوبة على صياغتها الأولى فى وقتها أكثر حياة مما يكتب بعدها.

بعد شهر وجدتنى فى العلمين شاهدًا مصريًا على الحرب العظمى الثانية، واعترف أن تجربة العمل كمراسل حربى استهوتنى.

الحرب تُعلّم الصحفى الكتابة اليومية وتسجيل ما يجرى برؤيته الشخصية، إن الأحداث تنقلها وكالات الأنباء وتحدد الرقابة العسكرية ما ينشر منها وما لا ينشر، ومن ثم فالفرق بين صحفى وصحفى فى تغطية الحرب هو الرؤية الشخصية، إن الحرب أحدثت ثورة فى التغطية الصحفية، خلقت ما يمكن وصفه بصحافة المأساة، حيث الإنسان فيها أهم من الحدث أو الخبر، الإنسان هو البداية والنهاية.

لقد حوّلت الحرب بعض الصحفيين إلى أدباء، أصبحت كتاباتهم فيها روح، فيها الإجابة عن السؤال الصعب: كيف تمسك باللحظة؟ وهو ما فرّق بينى وبين جيلى، وفى الوقت نفسه أثرت الصحافة من تجارب بعض الأدباء الذين عاشوا الحرب وكتبوا عنها مثل «أندريه مالرو» الذى كتب عن سقوط باريس، على أن أهم ما خرجت به من التجربة هى أننى أصبحت أدون يوميًا كل ما يمر بى، وأصبحت هذه العادة واحدة من أشهر عاداتى المعروفة.

الأجيال التى سبقت جيلنا لم يكن مفروضًا عليها أن تختار، أو بمعنى أدق وأصح فإن مجالات الاختيار لم تكن واسعة أمامها، إن العالم بالنسبة لمصر قبل الحرب وأثناءها كان مختزلًا فى علاقة سياسية ثنائية مع بريطانيا، وميلًا ثقافيًا نحو فرنسا، وكان النظام السياسى الاقتصادى الاجتماعى الفكرى نظامًا تابعًا بمنطق الأشياء وحقائقها.

لم يكن هناك غير بديلين اثنين: إما الالتحاق بالصف المعادى للاستعمار أو بالصف الموالى له، وحتى هذه الصفوف

لم تكن محددة وإنما كانت ملتبسة، وقد زاد الالتباس بضرورات الحرب ضد المحور، وأصبحت مناصرة القوة المحتلة وهى بريطانيا فى الحرب ضد النازية اضطرارًا لا مهرب منه غير الوقوع فى شرك تأييد النازية تحت توهم مقاومة الاحتلال.

كانت حدود الاهتمامات السياسية والصحفية خارج العلاقة الثنائية مع بريطانيا مقصورة على تغطية الساحات الخلفية للقصر الملكى وللسلطة التى تمثل قمة المجتمع ومعظمها من غير المصريين أو نصف المصريين، وأما بعيدًا عن السياسة فلم تكن غير ثرثرات الطبقة الراقية كما كانوا يسمونها، إلى جانب كواليس المسارح وربما الصالات والكباريهات.

وبالطبع كانت هناك إيماءات هنا وهناك تشير إلى اتجاهات أخرى، لكن هذه الإيماءات ظلت محدودة فى تأثيرها، وربما استطاعت أن تظهر أكثر فى مجال الفكر السياسى البحت، دون أن ينعكس تأثيراتها بقدر كاف على الصحافة المصرية.

والذى حدث أن الحرب العالمية الثانية جاءت معها وفى أعقابها بأفكار كان من أثرها أن سقطت أسباب الثنائية الحاكمة، وأصبحت مصر والحياة فيها مفتوحة لعشرات الاحتمالات، وهنا برزت إمكانية الاختيار وأصبح على جيلنا أن يمارس ضرورة الاختيار، وقد اختار جيلنا بشكل أو بآخر وبدرجات متفاوتة من الحماسة إما هذه الفكرة أو تلك أو الاختلاف مع هذا التصور أو ذاك.

فى هذه المرحلة كانت الحقبة الوطنية والقومية فى العالم العربى بكل أولوياتها، وهى مقاومة الاستعمار، الاستقلال الوطنى، الوحدة العربية، التصدى للمخططات الإمبريالية والصهيونية، عدم الانحياز، إعادة البناء الاقتصادى مع التركيز على التصنيع، إعادة التركيب الاجتماعى مع التركيز على ملكية الأرض، السعى نحو حراك اجتماعى يقوم على أسس متساوية فى التعليم وفى العمل وفى الصحة وفى السلطة.

لا أقول إن ذلك تحقق كله أو معظمه، وإنما أقول إن تلك

كانت رءوس الموضوعات التى تحولت إلى قائمة بدول أعمال المرحلة، وهى مرحلة كان حق الاختيار فيها مفتوحًا لأول مرة داخل بلد تحقق اتصاله بعالمه الأوسع وأصبح جزءًا من حركته بغير عزلة أو حدود مغلقة.

عندما تذهب كمراسل حربى فأنت لن تواجه الحرب فقط.

منحتنى هذه الفترة خبرة بلا حدود وتجارب أفادتنى فى مسيرتى الصحفية كلها.

عندما ذهبت إلى اليونان لتغطية حرب البلقان كان معى المصور محمد يوسف، والذى أبدى دهشته لأنه وجد معى أربعة أو خمسة كتب عن مشكلة البلقان وعن اليونان، وعن الصراع التركى اليونانى والنزاع فى البلقان.

الحرب تحتاج إلى أن تجيد قراءتها، فكيف تقرأها وأنت غريب عنها، وتغيب عنك المعلومات الأساسية عن أطرافها، وعن الأسباب التى أدت إليها، وأذكر أن محمد يوسف كان يتعمد اخفاء هذه الكتب عنى حتى لا أسهر طوال الليل أقرأ فيها وأذاكرها مما يجعله لا ينام هو الآخر.

فى الحروب وقبل أن تتعرض للمخاطر عليك أن ترى ملامح المشهد بشكل كلى، لأنك لو تعاملت مع الحرب على أنها مجرد «عركة» فسوف تخطئ خطأ فادحًا، فالحرب ليست مجرد نيران ومدافع، ولكن الأهم هو ما الذى يحدث خلف هذه النيران.

ونحن نغطى حرب البلقان من اليونان كنا نسير فى ثلاث سيارات جيب بين جبلين.

كنت فى السيارة الأولى مع بعض مراقبى الأمم المتحدة.

وفى السيارة الثانية بعض مراقبى الأمم المتحدة.

وفى السيارة الثالثة المصور محمد يوسف مع بعض المرافقين.

كانت قذائف الهاون تنهال من حولنا، وفجأة انفجرت السيارة الثانية بعد اصطدامها بأحد الألغام، وشاهد محمد يوسف ما حدث لمن فيها، ولو أن الحرب مجرد مغامرة لرفض يوسف تكملة الرحلة المرعبة، ورغم انفعال محمد يوسف الشديد فإنه دخل معنا تحت سيارة لورى لنختبئ من قذائف الهاون.

كانت السيارة محروقة من آثار المعارك، وما حدث لنا رغم صعوبته وما يحمله من رعب فإنه ليس الحرب، ولكن الحرب بمعناها الشامل يجب أن تنظر إليها من خلال الأبعاد السياسية والاستراتيجية التى تكمن خلف هذه الحرب، فالحرب ليست مجرد ضرب نار ولكنها قوى ومصالح تتصارع وتيارات عالمية تتصادم، وهنا تكمن الاستفادة من تجربة الحرب، فأحداث العالم الساخنة والمتفجرة لا تسمح بالالتفات بعيدًا عنها.

كانت هناك أيضًا عناصر كثيرة فى عملى كمراسل حربى ساعدتنى مهنيًا وسياسيًا، فقد قابلت كل رؤساء تحرير الصحف العالمية، وكانوا وقتها شبانًا مخبرين فى مواقع العمل، وكبرنا كلنا معًا، وأصبح لكل واحد منّا موقعه.

بعد سنوات طويلة وعندما طلب منى رئيس تحرير التايمز أن يقابل جمال عبدالناصر كان من الطبيعى أن أساعده، وعندما كنت أسافر إلى لندن وأطلب منه أن يساعدنى فى مقابلة هارولد ماكميلان، رئيس الوزراء، فمن الطبيعى أن يستجيب، فأنت فى هذه الحالة تعيش حوادث وبالتالى تتصل بكل ما يجرى.

اكتملت التجرب بالنسبة لى، فأثناء عملى فى قسم الحوادث بدت لى الجريمة وكأنها ذروة المأساة الإنسانية على مستوى الفرد، فعندما يعجز شخص عن حل تناقضاته مع الآخرين بالفعل فإنه يلجأ إلى العنف، وأثناء عملى مراسلًا حربيًا بدت لى الحرب وكأنها ذروة المأساة الإنسانية على مستوى الشعوب والأمم، فعندما يعجز مجتمع عن إدارة صراعاته بالعقل مع مجتمعات أخرى غيره يلجأ إلى القوة.

3

تعلمت من «هارولد إيرل» الكثير.

ذات يوم كان مقررًا أن ألتقى مصطفى النحاس، زعيم الوفد وزعيم الأمة ورئيس الحكومة، وبدا علىّ الارتباك من فكرة اللقاء فى حد ذاتها، وجدت إيرل ينهرنى ويوجه لى نظرة مخيفة بعين فيها حول، وقال: أنت تمثل جريدة تطبع عشرات الآلاف من النسخ، وتأثيرها نافذ فى مجتمع النخبة المصرية، لا بد أن تدرك منذ الآن أن الصحفى ند لرئيس الحكومة.

وقبل أن أمضى من الجازيت سمعته وهو يقول لى: عليك أن تدرس موضوعك قبل أن تسأل مصادرك، لأنه إذا اكتشفت هذه المصادر أنك لا تعرف موضوعك فلن تقول لك شيئًا جديدًا.

ذات يوم دخلت مكتب رئيس التحرير «هارولد إيرل» لشأن من شئون عملى، وكان عنده زائر قدمنى إليه: الأستاذ محمد التابعى صاحب مجلة آخر ساعة ورئيس تحريرها.

بدا لى أن الأستاذ التابعى قد تابع بعض نشاطى أو أن «هارولد إيرل» قد حدثه عنه، وكان الأستاذ التابعى رقيقًا معى ومجاملًا.

فى اليوم التالى اتصل بى يدعونى إلى لقاء معه.. وذهبت.

سألنى الأستاذ التابعى: كيف ترى مستقبلك؟

كان السؤال مفاجئًا، فلقد كنت أتصور أن عملى فى «الجازيت» يكفينى، ولكن الأستاذ التابعى كان له رأى مختلف.

قال: مهما فعلت فى الجازيت فإن المستقبل محصور وضيق، فهى جريدة تصدر فى مصر بلغة أجنبية، ثم إن توزيعها بعد الحرب سوف يتقلص بالطبيعة، ويعود إلى بضعة

آلاف بدلا من عشرات الآلاف.

وقبل أن أرد عليه أضاف الأستاذ التابعى: صحفى مصرى مجاله فى الصحافة المصرية باللغة العربية وبقرائه فيها.. هذا هو المستقبل.

وهكذا انتقلت من «الجازيت» إلى «آخر ساعة».

لم يكن الأمر سهلًا.

ففى حين أن رئيسى الأول «هارولد إيرل» رأى أن الجريمة والحرب هما مجال التكوين الأصلح والأمثل للصحفى.

فإن رئيسى الثانى محمد التابعى كان يرى أن المسرح والبرلمان هما المجال الأنسب والأوفق.

لم يكن الأستاذ التابعى وحده هو صاحب هذه النظرة فى أن يبدأ الصحفى حياته من المسرح والبرلمان، كان الدكتور محمود عزمى أيضًا يملك تلك النظرة، فقد كان يرى أن الصحفى فى بداية حياته عليه أن يعمل بقسم الفن ليتعرف على تفاصيل الحياة، ولكن بصورة مصغرة، ثم عليه أن يعمل فى قسم البرلمان ليتعرف على أسرار وخبايا الحياة السياسية.

لعدة أسابيع وجدت نفسى فى كواليس مسارح القاهرة بدلًا من ميادين القتال.

ولا يعرف كثيرون أننى ارتبطت بعلاقة صداقة قوية مع الفنان نجيب الريحانى.

كنت أجلس معه فى الكواليس، وبعد نهاية العرض كنت أركب معه الحنطور ونذهب لنجلس على المقهى، وذات ليلة وبعد مناقشات طويلة، قال لى: ماذا تفعل فى هذا الوسط؟... «مكانك مش هنا».

فكرت فيما قاله لى نجيب الريحانى.

أعدت التفكير فيما قاله الدكتور محمود عزمى.

وأعتقد أنه لم يكن يقصد بالفن مجرد المسرح فقط، ولكن الأدب والفكر والثقافة بشكل عام، ومن حسن حظى إننى طبقت النظريتين، فقد عملت مراسلًا حربيًا كما عملت بالفن.

دفعتنى كلمات نجيب الريحانى وما قاله الأستاذ التابعى من ضرورة أن أكون فى شرفة مجلس النواب أن أذهب إلى هناك، وقد أتاح لى مقعد «آخر ساعة» فى شرفة المجلس أن أقترب من أجواء السياسة المصرية.

كانت أول تجربة لى فى البرلمان عندما قمت بتغطية استجواب «الكتاب الأسود» من شرفة الصحافة فى مجلس النواب، جلست بين اثنين من كبار الصحفيين المصريين الأستاذ كامل الشناوى، مندوب الأهرام، والسيدة روز اليوسف التى جاءت تتابع الاستجواب .

يومها تقدم أحد نواب حزب الوفد بسؤال إلى وزير المعارف نجيب الهلالى باشا عن عملية صنع أثاث فى مدرسة الفنون التطبيقية لبيت أحمد حسنين باشا، رئيس الديوان الملكى، لم يسدد ثمن ما طلبه رغم أنه استلمه، وقام الهلالى يرد على السؤال، والحقيقة أنه ثبَّت التهمة وتركها معلقة فوق رأس حسنين.

علق الأستاذ كمال الشناوى بأن التحدى الوفدى للقصر قد خرج سافرًا وأصبح مخاطرة على أرض مجهولة.

بعد ظهر اليوم التالى عدت إلى مقعدى فى شرفة الصحافة، وأمسكت بنسخة من مضبطة اجتماع المجلس بالأمس، ورحت أقرأها، وتعجبت فقد وجدتها خالية من أى ذكر لما رأيته وسمعته بالأمس فقط.

لاحظ الأستاذ الشناوى أننى أقلب فى الصفحات وأعيد تقليبها.

قال لى: لن تجد شيئًا لأنه كله حذف من المضبطة وسوف

ترى وتسمع الآن عجبًا.

عرفت أن المستشار الشرقى للسفارة البريطانية، السير والتر سمارت، جاء إلى مجلس النواب قبل منتصف الليل، وقابل عبدالسلام فهمى جمعة باشا، رئيس المجلس، الذى استدعى من بيته يتلقى منه ما لديه، ومؤداه أن السفارة البريطانية ترى أن ما دار من مناقشات بالأمس يمثل استفزازًا لملك البلاد يستحيل قبوله بالنسبة للسفارة البريطانية وسفيرها، والقرار أنه لا بد من اعتذار علنى عنه.

اتصل رئيس المجلس برئيس الوزراء، يوقظه من نومه، وفهم مصطفى النحاس باشا أن السفارة البريطانية تُلوّح باستعدادها لرفع يدها، تاركة الملك يرد العدوان على رئيس ديوانه بالطريقة التى يراها مناسبة، وبعد اتصالات تدخل فيها أمين عثمان باشا ودخل فيها فؤاد سراج الدين باشا أمكن التوصل إلى حل وسط يكون بمثابة اعتذار صامت من الوفد، حزبًا وحكومة، وهذا الحل الوسط حذف كل ما دار بشأن رئيس الديوان الملكى من مضبطة المجلس، وتم ذلك وطبعت المضبطة وكأن شيئًا لم يكن.

استعرضت كل ما جرى أمامى وما عرفته وقلت يومها: انتهى الموضوع ولم يعترض أحد.. هل هذه هى الديمقراطية؟

4

كانت تجربة العمل مع الأستاذ التابعى ممتعة، وأشهد إننى تعملت منه الكثير، ولقد وجدتنى شديد الإعجاب بأسلوبه الحلو السلس، وكانت تلك الفترة مهنيًا فترة العثور على توازن معقول بين ثلاثة تأثيرات واضحة تجاذبتنى.

عقلانية «هارولد إيرل».

رومانسية «سكوت واطسون».

حلاوة أسلوب «محمد التابعى».

عندما دخلت آخر ساعة كانت المجلة «وفدية» وفى أجوائها وجدت نفسى بحكم طبيعة المصادر المتاحة أقرب إلى الوفد، مع إحساس غالب بأن ذلك مجرد تأثير مناخ.

فى 8 أكتوبر 1944 خرج الوفد من الحكم، وأصبحت «آخر ساعة» فى المعارضة أمام حكومة ائتلاف أحزاب الأقلية التى شكلها الدكتور أحمد ماهر باشا- رئيس حزب السعديين- تحت جناح القصر.

بعد شهر واحد من إقالة النحاس وخروج الوفد من الحكم صدرت مجلة «أخبار اليوم»، وكان صدورها حدثًا صحفيًا ضخمًا، وكذلك كان حدثًا سياسيًا، ولقد كان واضحًا أن النجاح الفورى الذى حققته مجلة أخبار اليوم يرجع إلى عاملين.

أولهما سلسلة المقالات المثيرة التى راح الأستاذ مصطفى أمين لعدة شهور يكتبها تحت عنوان عام هو «لماذا ساءت العلاقات بين القصر والوفد؟» وكانت مقالات حافلة بالأسرار والحكايات والقصص ومشوقة إلى حد كبير.

وثانيهما، والفضل فيه للأستاذ على أمين، أن شكل أخبار اليوم وترتيبها بدا جديدًا أمام القارئ المصرى، ومع أنه كان استيحاء مباشرًا لشكل وترتيب جريدة «الصنداى إكسبريس» البريطانية إلا أن القارئ المصرى رحب به وارتاح له.

فى كل الأحوال فإن أخبار اليوم أصبحت المدفعية الثقيلة الموجهة إلى الوفد تدك مواقعه دكًا عنيفًا صباح كل سبت، وكان الوفد فى موقف لا يحسد عليه، مطرود من الحكم بالإقالة، ومحاصر تحت دك المدفعية الثقيلة لأخبار اليوم.

ويبدو لى أن هذا بعض ما حفز الأستاذ التابعى فى ذلك الوقت إلى محاولة أخيرة لتطوير «آخر ساعة» حتى تستطيع أن تقف مع الوفد فى وجه المدفعية الثقيلة الجديدة، وربما كانت هناك أسباب أخرى منها أن التابعى كان يعتبر نفسه أستاذًا لمصطفى وعلى أمين، وربما شق عليه معنويًا أن

يرى مجلة أسبوعية سياسية جديدة يصدرانها تسبق مجلته وتفوقها بكثير من نواح عدة.

ومع إننى كنت قد أصبحت سكرتير تحرير «آخر ساعة»، فإن عملية التطوير الجديدة تولاها التابعى بنفسه، وظلت معظم بنودها فى رأسه ينفذها واحدًا بعد آخر، ولقد كانت لى آراء وملاحظات، لكن التابعى كان بعواطفه كلها مندفعًا إلى ما يراه، ومن سوء الحظ أن التجربة لم تنجح، وفوق ذلك فإن مصروفات «آخر ساعة» بحكم وجوه الإنفاق على مشروع التطوير، زادت بأكثر من توقعات التابعى، إلى جانب أن الشحنة العاطفية التى دفعت محاولة التطوير كانت قد استنفدت نفسها، وهكذا قرر التابعى- ربما فى نوبة ملل أو نوبة يأس- أن الوقت قد حان ليرفع عن كاهله أعباء ملكية مجلته.

5

فى بداياتى فى «آخر ساعة» وكنت قد بدأت الكتابة باللغة العربية، كتبت مقالة اعتقدت أنها كانت عادية، وقد اتصل الناس بـ«محمد حسين هيكل» باشا وهنأوه على المقالة، فأرسل هيكل باشا مدير مكتبه سيد نوفل، وطلب منى أحد اقتراحين.

إما أن أغير اسمى أو أوقع باسم هيكل الصغير.

ورفضت الاقتراحين، فأنا لا يمكن أن أغير اسمى ولا أحب أن أوقع «زى نجاة الصغيرة»، وتوالت كمية المشاكل التى سببتها لهيكل باشا.

بعد سنوات وفى يوم السبت 8 يونيو 1946 وبعد أن انتقلت إلى أخبار اليوم عقد مؤتمر بلودان، فى فندق بلودان الكبير، وهو فى مصيف بلودان القرية السويسرية الحلوة النائمة على قمة جبل تفترش سفوحه أشجار التفاح.

كان يرأس الوفد المصرى فى المؤتمر الدكتور محمد حسين هيكل باشا، رئيس مجلس الشيوخ.

وكنت مشاركًا كمراسل صحفى أغطى المؤتمر، وقد وصلت قبل الجميع، ونشرت الصحف خبرًا عن وصول هيكل باشا دون التدقيق بين حسين وحسنين، وبدأت السفارة المصرية والرئاسة بالتحرك، وسارع الفندق بتغيير غرفتى ونقلى إلى الجناح الخاص بهيكل باشا، وحضر السفير المصرى برفقة عبدالرازق السنهورى لتحية هيكل باشا الذى وصل فجأة دون أن يخبر أيًا منهما، لكنهما فوجئا بى أنا الذى وفدت إلى بهو الفندق وليس هيكل باشا.

أوضحت لهما اللبس الذى حدث، ثم ذهبنا نحن الثلاثة لاستقبال هيكل باشا فى المطار.

6

دون أن أعرف دارت مفاوضات لبيع آخر ساعة إلى أصحاب أخبار اليوم.

دعانى التابعى ذات يوم فى بداية سنة 1946 ليقول لى الأسرار كلها مرة واحدة، لقد قرر أن يبيع آخر ساعة، وقد اتفق على بيعها فعلًا، والمشترى الجديد هو أخبار اليوم.

حتى هذا الوقت كانت العلاقة بين الأستاذ التابعى وبينى قد أصبحت علاقة حميمة، وكنت فيما أظن أقرب تلاميذه إليه، ولعلى كنت آخرهم، وكان شديد التقدير لعملى، ثم إنه كان يعتبرنى اكتشافًا قام به هو شخصيًا، وكانت هذه العلاقة تسمح لى أن أتحدث إليه بغير حواجز، وأحسب أنه دهش لموقفى صباح ذلك اليوم الذى أفضى فيه إلىّ بكل الأسرار مرة واحدة.

ربما كان يتوقع منى رأيًا مخالفًا لتصرفه أو عتابًا لأنه لم يطلعنى على ما فعل فى حينه، ولم يكن ذلك موقفى، فقد كنت أحس بأزمة الرجل نفسيًا وماديًا، وأدركت فى لحظة أنه لم يكن ليصل إلى هذا القرار إلا وقد ضاقت به السبل، على الأقل فى إطار ما رآه.

قلت له فيما معناه: إننى مع أسفى لانتقال ملكية «آخر ساعة» منه إلى غيره، إلا أننى أستطيع فهم دواعيه، وما دام الاتفاق قد تم وانتهى أمره، فلا فائدة من اجترار الكلام، وإنما المهم أن يتم الانتقال بالطريقة اللائقة.

كانت هناك مفاجآت أخرى، قال لى الأستاذ التابعى: إنهم يريدون أن أعمل معهم.. أكتب مقالًا أسبوعيًا فى أخبار اليوم.

ولم تكن هذه هى نهاية المفاجآت، فقد أضاف: وهم يطلبونك أيضا.. لقد أصروا عليك بالتحديد.

لم أملك نفسى لحظتها من أن أسأله عن نوع الاتفاق الذى عقده، وما إذا كان من نوع عقود الإقطاع الروسى قبل الثورة، حينما كانت الأرض تباع بما عليها ومن عليها؟

ندمت على هذه اللحظة، فقد أحسست أننى أحرجته، ولقد تغلب على الحرج بسرعة، وقال: إنهم لا يريدون من كل طاقم آخر ساعة إلا أربعة بالتحديد، هو وأنا وصاروخان والدكتور سعيد عبده.

قلت له إننى أريد أن أفكر فى المسألة كلها ثم نعود لاستئناف الحديث فيما بعد.

المفارقة أنه فى مساء نفس اليوم اتصل بى الأستاذ إميل زيدان، أحد صاحبى دار الهلال، ودعانى للقائه، وإذ هو يعرض علىّ رئاسة تحرير مجلة «الاثنين»، وكانت مجلة سياسية تصدرها الهلال، وفيما سبق كان رئيس تحريرها هو الأستاذ مصطفى أمين، وفى عهده بلغت أوج انتشارها وبعد خروجه منها- نوفمبر 1944- تولاها غيره وتأثرت أحوالها.

شكرت للأستاذ إميل زيدان عرضه وفضله راجيًا منه أن يترك لى فرصة التفكير أيامًا قليلة أعود إليه بعدها، وفكرت وأطلت التفكير وأحسست أننى أقرب إلى قبول عرض الأستاذ إميل زيدان لأكثر من سبب، بينها أن صورة عقد شراء للأرض وما عليها ومن عليها، كانت تلوح أمامى بين الوقت والآخر، ومن ناحية ثانية فإن مجلة «الاثنين» بدت لى تحديًا

مستقلًا، وأعترف أيضا أن رئاسة تحريرها بدت فى ذلك الوقت إطراء لخيلاء الشاب فى.

فها هى رئاسة تحرير مجلة سياسية من مجلات الدرجة الأولى تعرض علىّ، وأنا لم أتجاوز بعد سن الثالثة والعشرين.

كذلك دارت أفكارى، وعلى هذا النحو كادت تستقر عندما ذهبت إلى «آخر ساعة» مبكرًا كالعادة صباح اليوم التالى، وحينما عرفت أن الأستاذ التابعى قد وصل واستقر فى مكتبه، قصدت إليه ورويت له تفاصيل لقائى مع الأستاذ إميل زيدان، ثم أظهرت له اتجاهى إلى قبول عرضه.

والحق أننى كنت أتصور أن الأستاذ التابعى سوف يوافقنى على رأيى، خصوصًا أننى فى سرى تخوفت للحظة أن يكون هو الذى عرض اسمى على المُلاك الجدد، ولكنى وجدته يقول لى: راجع نفسك إن مجالك سوف يكون أوسع وأرحب فى أخبار اليوم.

ثم أضاف بصوت مشحون بالتأثر والكبرياء معًا «إنه لا يريدنى ألا أتركه وحده» خصوصًا أنهم متمسكون بى.

ولم يتوقف سيل المفاجآت، فإذ باب مكتب الأستاذ التابعى انفتح فجأة ودخل منه أحد المُلاك الجدد: الأستاذ على أمين.

لم أكن قد لقيته من قبل، ولكنه أقبل علىّ فاتحًا ذراعيه يقبلنى على الخدين، ويقول لى إنه لا يهنئنى بانضمامى إلى أخبار اليوم، ولكنه أيضًا يهنئ أخبار اليوم بانضمامى إليها.

ولم أكن أعرف بعد إننى انضممت إلى أى شىء، وربما لاحظ هو آثار الدهشة علىّ فقال على الفور والحماسة ظاهرة فى صوته، إنه كان يتابع عملى وكان يتمنى أن أعمل معه فى أخبار اليوم، ولكنه لم يشأ فيما مضى أن يحرم الأستاذ التابعى من جهودى، وها هى الظروف تتيح لنا كل الفرص مرة واحدة.

وتطوع الأستاذ التابعى ليحدثه عن عرض دار الهلال بأن

أتولى رئاسة تحرير مجلة «الاثنين»، وهز على أمين رأسه بشدة نفيًا ورفضًا، وقال: مكانه الحقيقى فى أخبار اليوم.

وأردت أن أخرج من المكتب لأترك المالك السابق والمالك اللاحق وحدهما يدبران أمورهما، وإذا بالأستاذ التابعى والأستاذ على أمين يلحان أن أبقى معهما لمناقشة تفاصيل الانتقال، ولم أجد أن ذلك يربطنى بشىء فبقيت.. وناقشت.

وذهبت إلى الغداء مع الأستاذ التابعى فى بيته، واستأنفنا الحديث بعد الظهر، ثم فى المساء وحتى لآخر الليل، وأدركه النعاس قبل الفجر، فدعانى إلى أن أستريح حتى الصباح فى غرفة نوم إضافية بجوار غرفته، وفعلت.. ولم أنم.. ولا استرحت.

اعتذرت للأستاذ إميل زيدان، ووجدتنى فى دار أخبار اليوم محررًا فيها وسكرتيرًا لتحرير «آخر ساعة» فى نفس الوقت، وكانت يومها تشغل دورًا على السطح فى عمارة تملكها إحدى شركات التأمين فى شارع قصر النيل.

7

صباح 23 أبريل 1969 وجدت الدكتور طه حسين يتصل بى هاتفيًا.

قال لى: الأستاذ التابعى جاءنى وهو يشكو من آلام صحية كثيرة، وعليه ديون للأخبار، ويرجو أن تعمل له شيئًا.

قلت له: تصور أن الأستاذ التابعى ينفق على ابنه «14 عامًا» 650 جنيهًا فى شهر واحد، ينفقها فى العبث، إنه بهذا يقضى على ابنه، وقد كلمت الرئيس جمال عبدالناصر بخصوص الأستاذ التابعى، فأعطاه الرئيس مرة خمسة آلاف جنيه، ومرة أخرى ألفين، ويأخذ من الأهرام 200 جنيه، ومن رئاسة الجمهورية 200 جنيه، ثم يشكو من الأقساط والديون.

وجدت الدكتور طه حسين يحاول إنهاء المكالمة ويقول: مش معقول.. هذا غلط طبعًا.

لكن الدكتور طه حسين لم ينه اتصاله بى إلا بعد أن طلب منى أن أعمل ما أقدر عليه.

فى العام 2008 فكرت دار الشروق فى إصدار طبعة جديدة من كتاب الأستاذ التابعى «من أسرار الساسة والسياسة» وطلبت منى أن أكتب مقدمة للكتاب، فاعتبرت أن هذه فرصة لرد بعض من جميله، وكتبت له بالفعل ما اعتبرته رسالة اعتذار.

قلت من وراء حجاب السنوات الطويلة التى تفصل بيننا: فى الحقيقة أنا لا أقدم كتابًا للأستاذ التابعى، وإنما أتقدم إليه باعتذار، وذلك بالفعل شعورى إزاء رجل أعتبره من أساتذتى الكبار وأستاذًا لكثيرين غيرى من نفس الجيل الذى خطا إلى عالم الصحافة العربية أعقاب الحرب العالمية الثانية، وبالتحديد مع مطلع الأربعينيات من القرن العشرين.

كان من حسن حظى أننى عملت مع التابعى وهو وقتها صاحب ورئيس تحرير مجلة «آخر ساعة» أيام عزها قادمًا من جريدة «الإجيبشيان جازيت» بتوصية من رئيس تحريرها فى ذلك الوقت «هارولد إيرل»، وأظننى- ولعل ذلك كان رأيه- كنت آخر قائمة طويلة من الشباب وقتها تتلمذوا على يديه.

ويقال عن الرجل إنه صاحب مدرسة فى علمه أو فنه، إذ وصل تأثيره فى مجاله إلى درجة يختلف بها ما بعده عما قبله، بمعنى أنه إذا حذف دوره فى المجرى العام للتطور انقطع الخط على فجوة واسعة، وذلك كان نموذجى فى حالة التابعى فقط، اختلف مجال الكتابة الصحفية بعده عما كان قبله، وفى هذا الاختلاف بين السابق واللاحق يتبدى حجم تأثيره، مثله فى ذلك مثل غيره من مستواه أى علم أو فن.

التابعى أضاف شيئًا آخر، إذ صاغ أسلوبًا مختلفًا فى التناول الصحفى، وهذا الاختلاف الذى أحدثه التابعى هو نعومة الكلمة وانسياب الكلام، أى أن هناك إضافتين تحسبان للتابعى، إحداهما فى اللفظ والثانية فى السياق.

بالنسبة للأولى فإنه يبدو وكأن الألفاظ كانت على نحو ما فى حالة عشق مع قلم التابعى، فما إن يضع سن القلم على صفحة الورق حتى تذوب المعانى والصور لينة سائلة على السطور، وبالنسبة للسياق فإن أى قارئ لكتابات التابعى سوف تكشف له قاعدة سمعته يكررها علينا كثيرًا مؤداها: القصة فى التفاصيل.

كنت أسعد جيلى حظًا ربما لأننى تتلمذت على يديه، والسبب غالبًا أننى وصلت إلى صحبته قرب آخر النهار، وفى مرحلة من الحياة لها خواصها مع الناس وفى الطبيعة، وهى مرحلة ما بين الأصيل والغروب، وعندما حضرت الأصيل فى حياة محمد التابعى فقد لفتنى الوهج المهنى والسياسى والاجتماعى المحيط بجوانبها، وكان ذلك حظى، ثم كان لسوء الحظ أننى حضرت نزول الغروب أيضًا، حين قرر محمد التابعى أن يبيع آخر ساعة إلى دار أخبار اليوم، وكان البيع لنفس الأسباب التى ضاعت بها من قبل حصة التابعى فى جريدة المصرى.

بمقدار ما حاولت وحاول غيرى فى مرحلة الغروب أن نُعبّر للرجل عن عرفاننا بفضله، فإن نور الحياة انطفأ عن محمد التابعى، رجلٌ ثقيلة همومه، كسير قلبه، جريحة كبريائه، برغم أنه ملك فى لحظات الأزمة شجاعة ألا يرمى المسئولية على غيره، بل يلوم نفسه، وأحيانًا بمرارة كما تكشفه أوراقه.

لقد قالوا عن التابعى الكثير حول إسرافه.

وأطلقوا عليه أن نصفه فنان ونصفه صحفى.

وقيلت عنه الروايات فى قصة حبه لأسمهان.

لكن أحدًا لم ينظر إلى ما أدخله من تجديد فى أسلوب الكتابة الصحفية.

إننى أعتقد أنه حقن أسلوب الصحافة بكمية من العذوبة ليس لها مثيل، ووضع كمية من الحلاوة فى الألفاظ وفى التعبير ليس لها نظير، لكنه لم يأخذ حقه.

صراع النجوم
ماذا جرى فى «أخبار اليوم»؟
1

كان علىّ أن أتعرف على الأستاذ مصطفى أمين.

قدمنى إليه تؤامه على أمين.

من اللحظة الأولى بدا لى كل واحد منهما بوضوح شديد.

كان على أمين هو الموتور الذى يجرى فيه الاحتراق الداخلى ليولد الطاقة والحركة فى أخبار اليوم.

كنت أرى فيه روح طفل وطيبته رغم حجمه الكبير، ولم يكن غريبًا أن تعتريه حماقة الطفل واندفاعه التلقائى، لكنه كان سرعان ما يعود بمزاج صافٍ وروح أليفة، وأول انطباع لى عنه أنه رجل مقبل عليك وعلى الحياة للدرجة التى تشعر معه أنك قادر على فعل أى شىء، وربما لهذا اتجهت مشاعرى إليه خالصة من أول لحظة، وكذلك أحسست بإقباله علىّ من أول لحظة.

أما مصطفى أمين فكان هو السائق الجالس على عجلة القيادة، بدا لى شديد الذكاء شديد النشاط، مع بعض المبالغة فى الحركة، لطيف المعشر حين يريد، لكنه ليس مثل توأمه كتابًا مفتوحًا، وهذا شأن مخبر صحفى كبير له اتصالاته الواسعة ومصادره المتشعبة وحساباته المعقدة.

تعرفت بعد ذلك على محررى أخبار اليوم، وجلست إلى مكتب فى واحدة من حجراتها، ورحت أتأقلم مع عالمى الجديد، ولم تكن العملية سهلة، وإن كانت نتائجها سعيدة بالنسبة لى، وبالنسبة إلى كل الأطراف فيما أظن.

بالطبع كانت هناك فترة ملاءمة.. وأكاد أقول فترات احتكاك لكنها مرت.

2

لم يكن الاحتكاك الذى جرى بينى وبين محررى أخبار اليوم فقط، بل حدث بينى وبين الأستاذ مصطفى أمين أيضًا، لكن العمل المشترك والصحبة الدائمة أزاحا كل شىء جانبًا.

اختلفت مع مصطفى أمين فى الطريقة التى كانت أخبار اليوم تعالج بها قضية اغتيال أمين عثمان باشا، فقد كانت تصور حسين توفيق، قاتل أمين عثمان، على نحو مثير، وتغطى محاولة تهريبه من السجن بشكل يضفى على القتل والهرب نوعًا من البطولة تختلط فيه القيم، ولم يكن ذلك رأيى فى الجريمة السياسية.

وجرى بيننا ما يمكننا اعتباره خلافًا مكتومًا على هامش الصورة التى التقطتها للنحاس باشا يوم زفاف السيدة سعاد الوكيل شقيقة صاحبة العصمة حرم النحاس باشا، وكانت الحفلة فى الأريزونا، ولم يكن بين المدعوين أخبار اليوم ولا آخر ساعة، وبينهما وبين النحاس باشا ما صنع كل الحدادين فى العالم منذ اخترعت الحدادة، ومع ذلك كان لا بد لآخر ساعة أن تدخل الحفل وأن تلتقط الصور، وما كان ينبغى أن يفوتها هذا الحفل الذى كان أكبر حفلات الموسم.

تسللنا إلى داخل الحفل مع الشبان الوفديين الذين كانوا يحرسون مداخل الأريزونا ومخارجه، ثم وجدنا أنفسنا أمام النحاس باشا، وأمسكت قلبى بيدى أنتظر ما سوف يفعله، وكانت المفاجأة الكبرى أن ذاكرة النحاس باشا- وهى ذاكرة حادة- خانته.. أو لست أدرى ما الذى حدث؟

أقبل رفعته علىّ مرحبًا يقول: إنت اتعشيت؟

قلت: نعم.

قال: إذن تعال كل بطيخا.

ثم استطرد: أنا أكلت شماما.

وكنت لا أزال فى رهبة الإشفاق من أن يتذكر رفعته أننى أعمل فى آخر ساعة فلا أحس بشهية نحو البطيخ أو الشمام.

كان كل ما أود أن أفعله أن أبتعد عن النحاس باشا بسرعة، وأقبل فؤاد سراج الدين باشا وهمس فى أذنى: ماذا تفعل هنا؟

قلت فى استسلام: ما تراه.

قال: على أى حال سأكتم السر.

وفجأة قال النحاس باشا لفؤاد باشا ولى: تعالوا نسمع أم كلثوم.

وكانت أم كلثوم تغنى أغنية (أهل الهوى يا ليل) أو ستبدأ فى غنائها، وذهبنا إلى الصف الأمامى وجلسنا.

استبد الطرب بالنحاس باشا فصاح وهو يعبر بيديه ورجليه وكيانه كله.. «إيه».

واستطردت أم كلثوم: واتجمعوا يا ليل صحبة وأنا معهم.

وصاح النحاس النحاس باشا... «ليه؟».

وأجاب: لازم حيطلعوا بيان.

وضحكت وابتسم فؤاد باشا وقال: النحاس باشا سعيد الليلة.

لاحظ محمد يوسف الذى كان يصطحبنى أن النحاس باشا يصفق لأم كلثوم بحماسة، ومال على أذنى.

قال لى: ما رأيك فى صورة للنحاس باشا وهو يصفق؟

قلت له: عال.

فرد محمد يوسف: ولكن عليك أن تستأذنه.

قلت له: ماذا أقول له؟

وجلست أقلب المشكلة فى ذهنى كيف أستأذنه؟ وماذا سأقول له، والأغنية تكاد تنتهى ثم ينهض لينصرف إلى بيته لينام وتضيع الصورة العجيبة.

همست بالفكرة لفؤاد باشا لكى نصوره وهو يصفق.

قال: إلى هنا لا... وأنا لا أستطيع أن أقول له شيئًا من هذا.

سمع النحاس باشا حديثنا والتفت إلى فؤاد باشا ولم يكن أمامى مفر من الكلام.

قلت: كنت أطلب من فؤاد باشا أن يستأذن رفعتك فى أن نصورك وأنت تصفق.

قال رفعته بغضب: ليه الزفت ده بقى؟

وقلت بسرعة: كنت أريد أن أكتب تحتها «عندما يصفق الرجل الذى اعتاد أن تصفق له الملايين».

ضحك النحاس باشا بملء شدقيه وقال: جميلة دى.

ثم التفت إلى الوراء بسرعة وقال: فين المصور بتاعك؟

أشرت إلى محمد يوسف، فاقترب وبدأ النحاس باشا يشرح له فكرة الصورة كما لو كانت فكرته.

بدأ النحاس بنفسه يجهز لالتقاط الصورة، قال بلهجته الخاصة: اسمع هى ح هتخلص الحتة دى، وأنا ح أسقف على طول، فاهم، وإنت تروح واخد الصورة حالا.

هز محمد يوسف رأسه موافقًا ونظر إلى النحاس باشا الذى قال له فجأة: لا.. ده إنت باين عليك خيبان.. متنفعش.. ما إنتاش سريع كفاية، لا بلاش، موش عاوزين الصورة.

ثم سكت رفعته وتغيرت ملامحه بسرعة وقال: ولا أنت تنفع طيب حاجربك.. بس بسرعة.

وقبل أن تمضى ثانية عدل النحاس باشا عن رأيه ومط شفتيه فى قنوط وقال ما تنفعش واستمر يقول: ينفع.. ثم يعود للنقيض، ثم يغير رأيه بلا سبب ظاهر، وأنا لا أكاد أتابع كل هذه التغيرات، وأخيرًا استقر رفعته على رأى، وقرر أن محمد يوسف ينفع ثم قال له: أهه خلى بالك.. ما تبقاش خيبان، هى هتخلص الحتة دى وأنا أسقف أهه أهه، إنت مستعد، وفرغت أم كلثوم من مقطع وصاح النحاس باشا: أهه أهه.. ثم رفع يديه يصفق بحماسة والتقط محمد يوسف الصورة بسهولة.

رجعنا أخبار اليوم بالصور تانى يوم، وقلت لعلى أمين أنا اتفقت مع النحاس باشا على أن الصور هتطلع.

رد على: لا يمكن أخبار اليوم التى تعادى النحاس تكتب: الرجل الذى يصفق له الملايين.

اتفقنا على حل وسط، أن نكتب تحت الصورة: عندما يصفق الرجل الذى اعتاد أن يصفق له الناس.

وافق على أمين، وبينما كانت الجريدة فى المطبعة جاء مصطفى أمين ولما قرأ التعليق قال: معقول أكتب فى جورنالى الرجل الذى يصفق له الناس، لا يمكن.

وشطب مصطفى السطر الثانى من التعليق فأصبح هكذا: «عندما يصفق الرجل الذى...».

واختلفت معه مرة أخرى حول التغطية الإخبارية لمفاوضات صدقى- بيفن، كان هو يتمنى نجاحها، ولم يكن ذلك مناى، وبسبب اختلاف مصادر أخبارى عن مصادر أخباره، بدا أن ما أحصل عليه من أخبار يتعارض مع ما يصل إليه هو.

كانت معظم اتصالاتى ومصادرى فى وفد المفاوضات المصرى وقتها من الجبهة المعارضة لصدقى باشا، وبالتحديد على الشمسى باشا، ولم يكن مصطفى يحب الشمسى باشا، وكانت المشاعر متبادلة وذات جذور بعيدة وعميقة.

تعقدت الأمور بعض الشىء فيما أظن حينما كتب الأستاذ مصطفى أمين فى أخبار اليوم مقالًا عن مشروع معاهدة صدقى- بيفن عنوانه «نوقعها ونلعنها»... وإذا بآخر ساعة تصدر بعد ثلاثة أيام بافتتاحية عنوانها «إذا كنا سنلعنها فلماذا نوقعها؟».

عكست هذه الاحتكاكات بينى وبين الأستاذ مصطفى أمين موازين الصراع فى الحياة السياسية المصرية، وهو ما أشاع بيننا ظلًا من القلق لبعض الوقت ثم انقشعت الغيوم، وكان الأستاذ على أمين هو تيار الريح المندفع الذى يحاول دائمًا أن يعيد إلى السماء صفاءها.

3

على هامش هذه الاحتكاكات بدت لى التغطية الإخبارية فى السياسة الداخلية جهدًا عقيمًا وفكرت أن أعود إلى التحقيق الصحفى.

كان وباء الكوليرا قد تفشى فى مصر، وغادرت القاهرة مع الأستاذ محمد يوسف، كبير مصورى أخبار اليوم، وذهبنا لنقيم فى منطقة ظهور الوباء بمحافظة الشرقية، وتقرر عزل المحافظة عن بقية المحافظات ونحن فيها، وكانت رسائلنا تصل كل أسبوع إلى أخبار اليوم تنقل إلى قرائها صورة شاملة إنسانية للحياة فى ظلال الموت.

خلال أيام مواجهة الوباء شعرت أننى عدت مرة أخرى إلى الحياة مع الخطر كما كنت أفعل فى «الجازيت».

كان الخطر هناك هو الحرب.. والخطر الآن هو الوباء.

لفتت مجموعة التحقيقات التى كتبتها عن الكوليرا أنظار كثيرين فى مصر، فقد وجدت نفسى أفوز بجائزة فاروق الأول للصحافة العربية، وكانت جائزة لها شأنها فى ذلك الوقت خصوصًا بين الصحفيين الشبان.

حاولت إقناع الأستاذ على أمين بأن يفتح أمامى باب

التحقيق الصحفى خارج الحدود، وأشهد أنه تحمس، وأعتقد أنه لم تكن هناك دار صحفية أخرى فى مصر وقتها على استعداد للمجازفة بمثل هذه الفرصة لأحد محرريها غير أخبار اليوم.

خرجت أغطى الحوادث الساخنة فى الشرق الأوسط وحوله، من الحرب الأهلية فى اليونان، وقد شملت كل البلقان، إلى حرب فلسطين من أولها لآخرها، إلى سلسلة الانقلابات العسكرية فى سوريا، إلى عمليات الاغتيال الكبرى فى المنطقة من اغتيال الملك عبدالله فى القدس إلى اغتيال رياض الصلح فى عمان إلى قتل حسنى الزعيم فى دمشق، ثم إلى ثورة مصدق فى إيران، ثم اتسعت المسافات، فإذا أنا أغطى المشاكل الملتهبة فى قلب إفريقيا، ثم حرب كوريا وحرب الهند الصينية الأولى.

بعد خمس سنوات من التجوال استقر بى المقام فى القاهرة، كنت قد حصلت على جائزة فاروق الأولى للصحافة ثلاث مرات، قررت بعدها ألا أتقدم للجائزة وأتركها لغيرى.

اكتشفت أن كثيرين أصبحوا يهتمون بما أكتب، ثم إننى أصبحت على معرفة وثيقة بأحوال شعوب المنطقة ومعرفة شخصية بكل ساستها وحكامها، وعلى صلة بجيلى من الصحفيين فى العالم الواسع، فقد جمعتنا معًا ميادين القتال ومواقع الأحداث على طول المسافة الممتدة من شواطئ المحيط الهادئ إلى شواطئ الأطلنطى.

كان هناك ما هو أهم.

فقد تفتحت أبواب السياسة المصرية أمامى على مصراعيها، وكان ساسة مصر وقتها قد تعودوا على مجموعات من الصحفيين يقفون على أبواب دور الرئاسات والوزارات، يسألون الداخلين والخارجين عن الأخبار، وكان من حسن حظى أننى لم أقف على باب أحد ولم أسأل أحدًا فى شىء أثناء مروره فى ردهة أو نزوله على سلم خروج، ولقد سبب لى ذلك حساسيات مع البعض، ومع الأسف لم

أستطع إقناعهم بأن الحياة مع الخطر هى التى فتحت لى الأبواب وأعفتنى من الوقوف على الأعتاب.

4

كان ما جرى فى فلسطين معجزًا، لم أكن صحفيًا يسعى وراء الأخبار فقط، كنت شاهدًا على كل ما جرى.

لقد عشت حرب فلسطين قبل أن تبدأ رسميًا.

عشتها قبل أن تبدأ فعليًا فى مايو 1948، وكنت قد حملت حقائبى وذهبت إليها أبحث عن الحقيقة، وأذكر أن أخبار اليوم كتبت فى مقدمة التحقيق الصحفى الأول من أورشليم- القدس- تقول: إن الحقيقة تتوه فى طوفان البرقيات والشائعات والخطب والإذاعات ولا يعرفها إلا من يحاول البحث عنها، تحت الأنقاض وعلى ألسنة اللهب، وفى السهول التى تتناثر عليها جثث القتلى ويبلل الدم فيها زهور البرتقال.

وأنا أشهد أن ما رأيته تحت الأنقاض وعلى ألسنة اللهب وفى السهول التى تتناثر فوقها جثث الموتى، ويبلل الدم فيها زهور البرتقال لم يكن كل الحقيقة بل لم يكن الجزء الأكبر أو الأهم منها.

ما زالت تطن فى أذنى عبارة قالها موظف الجوازات عند جسر اللنبى، الذى يقوم على نهر الأردن، ويربط ما بين شرقى الأردن وفلسطين.

نظر إلىّ موظف الجوازات وقال بدهشة وعجب: أنت داخل إلى فلسطين؟

قلت: نعم.

هز الرجل رأسه واستطرد: كل الناس اليوم يهربون من فلسطين، وأنت أول واحد من زمن طويل يطلب تصريحًا بالدخول إليها.

لم أفهم المعنى الحقيقى لهذه العبارة التى سمعتها من

موظف الجوازات عند جسر اللنبى، إلا بعد أن قضيت عدة أسابيع فى فلسطين، رأيت فيها كيف ضاع السلام فى أرض السلام.

وأذكر يومًا فى حيفا وقفت بجوار قائد حاميتها العربى، وهو يصرخ فى التليفون طالبًا رقم 4481 حيفا، وكان الرقم لتليفون البريجادير «ستوكويل» قائد منطقة حيفا الإنجليزى، وكان الجيش الإنجليزى ما زال يحتل فلسطين، وكان باقى من الزمن شهر واحد على يوم انتهاء الانتداب، وحين رد البريجادير «ستوكويل» على التليفون، سأله القائد العربى بنبرة محمومة مذعورة: هل صحيح يا سيدى القائد أنكم ستتركون حيفا اليوم، وكيف أن اليهود يعرفون الخبر منذ أربعة أيام وقد استعدوا، أنتم بهذا تسهلون لهم الاستيلاء على حيفا كلها.

ثم تساءل: كيف تقول إنك لا تستطيع أن تفعل شيئًا؟

وانفعل: يا سيدى القائد إننى مسئول عن الأمن هنا حتى يوم 15 مايو المقبل.

انقطعت المكالمة التليفونية، وبدأت أصداء انفجارات بعيدة تهز المبنى الذى كنا فيه، والذى كان هو نفسه مركز انفجارات قوية تذهب أصداؤها إلى بعيد، وحين جاء الليل، كان اليهود يشنون هجومًا عامًا للاستيلاء على حيفا.

استأجرت سيارة عند الفجر غادرت بها حيفا، وكانت المدينة البائسة راكعة على ركبتيها فى ذلة واستسلام.

وقد بقى فى ذاكرتى نماذج كثيرة متكررة للمأساة التى جرت.

رأيت بعينى يافا مقاومتها تنهار أمام عصابات الهاجانا.

رأيت الاستحكامات فى القدس تسقط خطًا بعد خط.

وكانت دموعى تحجب المرئيات عن عينى، وأنا جالس فى

مقعد فى آخر سيارة تتجول بى فى هذه الدقائق القليلة، التى سبقت اكتساح الهاجاناة شوارع المدينة المقدسة.

جلست ليلتها أكتب رسالة عن الموقف لأخبار اليوم نشرت فى أول مايو 1948.

وقلت فيها: «لقد زرعها اليهود حربًا وزرعناها كلامًا، وكان الحصاد دمًا يتدفق أنهارًا على أرض السلام».

ومضيت أشرح المعركة قائلًا: لقد اتبع اليهود فى هذه الحرب أسلوبًا أخرجته الحرب العالمية الأخيرة من أساليبها، وما أشبه ما حدث فى فلسطين بما حدث فى فرنسا، الضربات السريعة القوية، والطابور الخامس وسيول المهاجرين الذين يتدفقون نحو الحدود، ويتدافعون فى الطرقات، كل منهم يعمل فوق طاقته لإنقاذ ما تبقى له فى الحياة، وكل منهم له قصة يرويها، قصة مليئة بالرعب والخوف.

لكن الذى كان يروعنى أن الجبهة العربية كانت فى حالة انهيار كامل، وكانت مسئولية هذه الجبهة مشتتة موزعة، كانت هناك مثلًا جيوش التحرير العربية، وكان أكبرها جيش فوزى القاوقجى، وكانت هناك غيره مجموعات من الجيوش الصغيرة يرأسها ضباط متقاعدون أو فى المعاش.

أحسست بالانهيار الكامل فى الجبهة العربية.

سألت نفسى وقتها: أين فوزى القاوقجى قائد أكبر جيش من جيوش التحرير؟

وكان القاوقجى بعيدًا عن المعركة.

وسألت نفسى: أين صفوت باشا القائد العام لقوات التحرير العربية؟

وكان صفوت باشا لم يطأ بقدمه بعد أرض فلسطين.

وسألت نفسى: أين طه باشا الهاشمى مفتش قوات

التحرير؟

وكان الهاشمى باشا يدير معارك فلسطين من بيروت وعمان والقاهرة ودمشق.

ذهبت بعدها إلى عمان وقابلت الملك عبدالله بن الحسين فى قصر رغدان، وكان ينادى بوجوب التدخل المسلح فى فلسطين، ورويت له شعورى وما رأيت فى ميادين المعارك.

قال لى جلالته: إن طه باشا الهاشمى موجود الآن فى عمان، وأنا أقترح عليك أن تقابله وتقول له كل شىء.

وأذكر أن الملك قال لى وقتها: لقد قرأت بعضًا من مقالاتك التى كتبتها فى أخبار اليوم.

ثم مضى الملك يقول وهو يمسك بلحيته البيضاء: ومن أجل لحيتى هذه انس أنك صحفى، واذكر عروبتك، وحينما ترى شيئًا من هذا القبيل لا تكتبه، وإنما تعال وقله لى حتى لا يكون من وراء ذلك تثبيط لهمة العرب.

مضيت بناء على نصيحة الملك، وقابلت عددًا من القواد المسئولين عن معركة التحرير، ولم تثمر هذه المقابلة بينى وبين قواد معركة التحرير المسئولين إلا أنها زادتنى ثورة على ثورة، وسخطًا فوق سخط.

كان القواد العرب فى ضيافة تاجر دقيق مشهور فى عمان، وكان لقائى معهم فى أحد مخازن الدقيق وكنا جالسين وأكداس من أجولة الدقيق حولنا من اليمين إلى اليسار، وكان كل منهم جالسًا وأمامه نرجيلة، غرس مبسمها فى فمه، ومضى يجذب الدخان فى استمتاع، كأنما ليست هناك أنقاض ولا ألسنة لهب، ولا سهول تتناثر عليها جثث القتلى، ولا دم يبلل زهور البرتقال فى فلسطين، ولم أكن أتصور وقتها أن الجيوش العربية النظامية ومن بينها الجيش المصرى سوف تدخل فلسطين.

أو هكذا خيل لى فى ذلك الوقت.

كانت ثقتى هذه مبنية على عدة عوامل:

أولها إننى كنت أعرف أن النقراشى باشا قد أوضح أن مصر لن تدخل حربًا رسمية فى فلسطين، وأنها ستعطى ما تقدر عليه من مال، وستبذل ما فى طاقتها من جهد وستشجع جموع المقاتلين وتعطيهم السلاح.

وثانيها أننى قابلت النقراشى باشا خلال يومين قضيتهما فى القاهرة إجازة من أحداث فلسطين، ورويت له كل ما رأيته فيها، وأذكر أنه قال لى وكان معنا ثلاثة أو أربعة من الأعزاء عليه: لن ندخل بجيشنا حربًا رسمية فى فلسطين.. إن معركتنا هى أولًا مع الإنجليز.

وقال النقراشى باشا: لقد كنت فى مجلس الأمن، وقلت للإنجليز اخرجوا من بلادنا أيها القراصنة، وقلت للعالم إن الجيش المصرى قادر على ملء الفراغ فى قناة السويس، فكيف أعرض هذا الجيش الذى هو كل حجتى فى نهاية ملء الفراغ فى القناة لأية تجربة، حتى ولو كان احتمال الخطر فيها ضئيلًا.

وكنت قابلت الفريق محمد حيدر، وزير الحربية وقتها، وكنت ما زلت أعتقد أنه رجل طيب نظيف، ورويت له أيضًا ما رأيت فى فلسطين، وقال وهو يخبط بيده على مكتبه: أبدًا لن ندخل حربًا رسمية، هل نحن مجانين، لقد فتحت باب التطوع بين الضباط والجنود، وسأعطى هؤلاء المتطوعين السلاح الذى يريدونه.

ولما عدت إلى فلسطين بعد هذه الأيام التى قضيتها فى القاهرة، كنت كما قلت واثقًا على الأقل من موقف مصر.

سألنى الملك عبدالله بعد عودتى من القاهرة: هل قررت مصر دخول الحرب؟

واقتربت من الملك أهمس فى أذنه بما أعتقد، وبأن مصر على استعداد لكل شىء، إلا التدخل الرسمى المسلح.

سُئلت أيضًا من عدد كبير جدًا من أهل فلسطين فى نفس الموضوع.

كانت إجابتى صريحة مستندة إلى ما كنت أعلمه، وما كنت أتصور فى ذلك الوقت أنه الخط المرسوم.

بل أذكر أيضًا أننى عقدت رهانًا غريبًا فى هذا الموضوع، رهانًا قيمته عشرة جنيهات لم أدفعها، وكنت قد سعيت لكى ألتقى ببعض قادة الوكالة اليهودية، وكانوا وقتها هم النواة لحكومة إسرائيل، وكنت قد قابلت بن جوريون، رئيس وزراء إسرائيل فيما بعد، ثم عاد هؤلاء المراسلون ورتبوا لى موعدًا مع ساسون الذى كان وقتها سكرتيرًا شرفيًا للوكالة اليهودية.

قال لى ساسون: إن الجيش المصرى سوف يدخل حربًا رسمية.

هززت رأسى، وقلت له: لا أعرف.

قال ساسون: سوف يضحك الإنجليز عليكم، وسوف يقدمون لكم كل إغراء لتدخلوا، ثم ينصبون لكم فخًا، إنهم لا يريدون جيشكم هذا الذى تدعون به القدرة على ملء الفراغ فى قناة السويس.

ثم مضى ساسون يقول: هل تراهن بعشرة جنيهات؟

قلت: قبلت الرهان.

التقيت بساسون بعد ذلك فى باريس فى شهر سبتمبر، وكانت الحرب قد بدأت فعلًا والهدنة قد فرضت، وفى مجلس الأمن كانت مناقشات حول الهدنة وظروف الاعتداء عليها، ووجدت ساسون فجأة أمام قاعة اجتماع اللجنة السياسية فى قصر شايو، يقول لى: هل رأيت.. ألا تريد دفع الرهان؟

وبعدها فى شهر فبراير 1949، وفى إسطنبول فى مطعم عبدالله المشهور، وكان ساسون قد عين سفيرًا لإسرائيل فى تركيا، أقبل أحد خدم المطعم يحمل لى ورقة صغيرة كتب

عليها: ألا تريد أن تدفع رهانك؟

وقال لى الخادم: السيد الجالس هناك بعث بهذه الورقة إليك.

ورفعت رأسى فى الاتجاه الذى أشار إليه، ووجدت ساسون بنفسه ينظر إلى.. ويبتسم.

بعد أن عدت نهائيًا من فلسطين عرض علىّ الأستاذان مصطفى وعلى أمين رئاسة تحرير آخر ساعة، وأضافا إليها منصب مساعد رئيس تحرير أخبار اليوم، وقبلت راضيًا وشاكرًا وأظن أن الأستاذ التابعى كان أكثرنا سعادة، فقد دعانا جميعا للعشاء ليلتها فى بيته ومعنا أم كلثوم.

فى خريف 1951 وجدتنى أذهب إلى منطقة القناة حيث اشتدت المقاومة ضد الإنجليز بعد أن ألغى النحاس معاهدة سنة 1936، ثم توقعت أن يحدث انفجار فى السودان إذا أقدم الإنجليز على ترحيل القوة المصرية المرابطة هناك بقيادة اللواء البشارى، فطرت إلى الخرطوم ولم يحدث شىء، وراودنى الإحساس بأننى أخطأت التقدير وبأنه إذا كانت الحوادث سوف تتحرك فإن حركتها سوف تكون فى القاهرة وليس بعيدًا عنها.. فعدت.

وفى صباح يوم 26 يناير 1952 اتصل بى أحمد حسنين زعيم الحزب الاشتراكى يسألنى: ما أفعل فى مكتبى والشارع المصرى يفور ويغلى؟

نزلت فإذا الظروف تتيح لى متابعة حريق القاهرة من اللهب إلى الرماد.

5

كانت أخبار اليوم هى محور حياتى كلها وتحولت العلاقة التى تربطنى بصاحبيها إلى ما يشبه علاقة أخوة، لدرجة أننى كنت أعرف عنهما كل شىء.

وحدث ذات مرة أننى عرفت أخبار مصطفى أمين من آنسة سويسرية تشتغل عاملة تليفون فى برن.

عرفت أن مصطفى أمين ترك مكتبه وترك القاهرة وهرب فى إجازة سريعة إلى الإسكندرية، والقصة نموذج صالح للطريقة التى تنتقل بها الأخبار عبر البحار.

طلبت أن أتحدث إلى أخبار اليوم فى القاهرة، وأنا فى جنيف وسألتنى عاملة التليفون: من الذى تريد أن تكلمه فى هذا الرقم؟

قلت: مصطفى أمين.

وقالت لى عاملة التليفون السويسرية: ضع السماعة مكانها وسأتصل بك بعد قليل.

دق الجرس بعد دقائق، وكانت عاملة التليفون السويسرية تقول: السيد الذى طلبت أن تتحدث إليه فى القاهرة ليس موجودًا فى مكتبه.

قلت لها: غير معقول.. هذا الرجل يصحو وينام فى مكتبه.

قالت: هكذا قالوا لى.

قلت لها: أنا واثق أن خطأ وقع، فلعلك تتصلين بالقاهرة مرة ثانية، وتتحققين من الأمر.

دقت عاملة التليفون الجرس بعد قليل تقول: لقد طلبت من زميلتى عاملة التليفون فى القاهرة أن تتحرى التفاصيل، وقامت هى بدورها بالاتصال بعامل التليفون فى أخبار اليوم، وهذا هو الموقف: مصطفى أمين غير موجود فى مكتبه، يظهر أنه سافر فى إجازة إلى الإسكندرية، سافر يوم السبت وسيعود يوم الأربعاء، وعلى أى حال هو الآن فى الإسكندرية لأنه كان يكلمهم منها بالتليفون من نصف ساعة ولكن فى المكتب الآن على أمين.. قالوا لى إنه شقيقه التوأم.

وتابعت عاملة التليفون السويسرية: هل تريد أن تعرف شيئًا

آخر؟

قلت بسرعة: أبدًا.. لم يبق إلا أن تقولى لى أى نغم كان على أمين يدندن به هذا الصباح فى حمام بيته.

لقد ظللنا أصدقاء لما يقرب من أحد عشر عامًا، وكنت أحمل مع على ومصطفى أمين مسئوليات كبيرة وكثيرة، وأعترف أن أخبار اليوم أعطتنى فرصًا لا حدود لها.

فلم يكن سهلًا لأى جريدة أن صحفيًا يسافر ليتعقب أخبار الحروب وأحداثها فى دول العالم المختلفة.

ولم يكن سهلًا أن يكون مانشيت الجرنان الرئيسى باسمه.

لقد وجدت نفسى أمام عمل أُحسن تقدير دورك فيما تفعله.. وأنك صرت جزءًا مهمًا من هذا العمل.

كنت بالقرب من على ومصطفى أمين وهما يعقدان اتفاقات مهمة لأخبار اليوم، مثل ما حدث عندما اشترينا مذكرات اللواء فؤاد صادق (قائد القوات المصرية فى حرب فلسطين) ودفعنا له ألف جنيه، وكنا ونحن نسلم له المبلغ- وكان على أمين معى- نتصور أنه يمكن أن يكون قائد الثورة المنتظرة فى مصر.

لكن قبل يوليو 1952 بشهور بدأت مناقشات ومحاورات بينى وبين على ومصطفى أمين، بل بدأت تظهر خلافات، كانت بالتحديد حول ثلاثة محاور.

الأول: قرب أخبار اليوم من القصر بأكثر مما هو صحى، وعداؤها الشديد للوفد بأكثر مما هو صحى أيضًا.

الثانى: مطالبتى الدائمة بأن تدار أخبار اليوم على قواعد مؤسسية تضمن سلامة العقل وتكفل الاستمرار.

الثالث: إلحاحى المستمر على تغطية أكثر عمقًا للحوادث والتيارات لأن القارئ المصرى يتغير ويتطور، ولأن حواديت الثلاثينيات والأربعينيات لم تعد تصلح للخمسينيات

والستينيات خصوصًا، وقد أصبحت مصر جزءًا من عالم تهدده مخاطر عظيمة وتراوده آمال أعظم.

هذه المناقشات لم تؤثر على صميم العلاقة بينى وبينهما.

فعندما سافرا إلى الولايات المتحدة الأمريكية معًا فى طائرة واحدة، كتبا إقرارًا ووصية، ومع أن المخاطرة لم تكن قائمة إلى هذا الحد، وبدت المسألة مسحة ميلودرامية لا تقتضيها طباع الأمور، إلا أننى كنت الصديق الذى أؤتمن على الإقرار والوصية وعلى مسئولية تنفيذهما عند الضرورة، واحتفظت بهما فى مكتبى وبقيا فى أوراقى.

حدث هذا فى نهاية ديسمبر 1953.

كان نص الإقرار الذى كتبه الأستاذ مصطفى أمين بخط يده وتوقيعه، ووقع إلى جواره الأستاذ على أمين باسمه كما يلى: فى حالة وفاة على أمين ومصطفى أمين صاحبى دار أخبار اليوم وجميع صحفها وشركة التوزيع الخاصة بها يتألف مجلس إدارة لإدارة الدار من محمد التابعى وأحمد عنان وأم كلثوم إبراهيم وكامل الشناوى ومحمد حسنين هيكل وجلال الدين الحمامصى وزكى عبدالقادر وعبدالعزيز عبدالعليم وحسين فريد وحافظ جلال، ولهم وحدهم حق إدارة الدار ورسم سياساتها وتعيين محرريها وعمالها وتحديد أجورهم ووضع سياسة المستقبل، وأن تخصص جميع أرباح الدار لإنشاءات فى الدار نفسها أو مشروعات صحفية فيها ولرفع مستوى العمال والمحررين فى الدار ولتحسين الصحف.

ويعتبر هذا إقرارًا منّا لمجلس الإدارة المذكور بانتقال الملكية إليه فى حالة الوفاة، ولا حق لأحد من الورثة أو غيرهم فى التدخل أو ادعاء الملكية أو التصرف، وهذا الإقرار هو هبة منا فى حالة وفاتنا، ونشهد الله على هذا الإقرار والله على ما نقول شهيد.

أما الوصية فكان نصها كما يلى: فى حالة وفاة مصطفى أمين وعلى أمين معًا نوصى بثلث ما نملك من مال وعقار

ودور ومطابع وصحف إلى عمال وموظفى الدار الحاليين ممثلين فى مجلس إدارة مكون من محمد التابعى وأحمد عنان وأم كلثوم إبراهيم وكامل الشناوى ومحمد حسنين هيكل وجلال الدين الحمامصى وزكى عبدالقادر وعبدالعزيز عبدالعليم وحافظ جلال وحسين فريد، على أن تخصص جميع الأرباح لإنشاءات فى الدار نفسها ومشروعات صحفية ولرفع مستوى العمال والمحررين فى الدار، وهذا إقرار منا بذلك والله على ما نقول شهيد، وكل ما نريده أن تلتزم صحف الدار الخطة السياسية والتقاليد التى سارت عليها منذ إنشائها.

6

بدا ما حققته له وزنه وقيمته عند على ومصطفى أمين، كانا يعرفان جيدًا ما أحدثته فى الحياة السياسية والصحفية المصرية.

صباح 19 يوليو 1952 توجهت إلى الإسكندرية، كان الدكتور محمود محفوظ قد اتصل بى يقول لى إن الهلالى باشا يريدنى فى الإسكندرية لأن الملك عرض عليه رئاسة الوزارة من جديد، وحين وصلت إلى الإسكندرية وإلى بيت الهلالى باشا فى المندرة لم أجد غير الأستاذ فريد زعلوك والدكتور محمود محفوظ، وقيل لى إن الهلالى باشا فى بيت رئيس الديوان الملكى حافظ عفيفى باشا، ثم أبلغنا أن الاثنين قصدا معًا المنتزه حيث صدر التكليف الرسمى لنجيب الهلالى فعلًا بتشكيل الوزارة.

وحين عاد الهلالى باشا لم أكن سعيدًا بما حدث، وسألته: كيف قبلت؟

قال لى أمام فريد زعلوك ومحمود محفوظ: لقد أخذت من الملك ضمانات كافية.

مد يده إلى جيب صديرى بذلته البيضاء وأخرج ورقة قرأ لى منها ستة شروط بينها عدم تدخل غير المسئولين فى

الحكم، ثم الوعد بعدم اعتراض عملية تطهير جهاز الدولة إلى آخره.

قلت للهلالى باشا: ومَن الذى يضمن هذه الضمانات؟

قال لى ضاحكًا من شبابى وحماستى وقتها: هل تريدنى أن أطلب من الملك أن يحدث هذا الشىء فى مواجهة نجيب الهلالى؟

التقيت ليلتها مع الأستاذين مصطفى وعلى أمين فى فندق سيسل بالإسكندرية وتبادلنا أخبار التشكيل الوزارى الجديد، وكان علىّ أن أملى تفاصيله على سكرتير تحرير أخبار اليوم وقتها الأستاذ حسين فريد لكى ينشر فى جريدة الأخبار، التى كانت قد صدرت يومية قبل ذلك بأكثر من شهر، 15 يونيو.

فى الصباح الباكر على مائدة الإفطار قلت للاثنين إننى عائد إلى القاهرة على الفور، وفى حين راح على أمين يلح علىّ أن أبقى فى الإسكندرية حتى تتم مراسم تشكيل الوزارة لأن صلتى الوثيقة برئيس الوزراء الجديد تعطينا الفرصة لخبطات صحفية مثيرة، فإن الأستاذ مصطفى أمين أحس بغريزة المخبر الصحفى فيه أن هناك شيئًا وراء عودتى المسرعة إلى القاهرة وهكذا راح يسألنى عما أتوقعه.

جرى ما جرى فى الأيام التى سبقت ليلة الثورة، وفجأة إذا بالسلطة الثورية الجديدة فى مصر تعتقل الأخوين مصطفى وعلى أمين ضمن من اعتقلتهم من حاشية القصر ورجال الملك.

وذهبت إلى لقاء جمال عبدالناصر فى مبنى رئاسة أركان حرب الجيش المصرى بكوبرى القبة، وكان قد أصبح مقرًا لمجلس القيادة.

كنت محتجًا، قلت له: إن القبض على صاحبى أخبار اليوم فى هذا الظرف حكم عليهما ما لم يكن هناك دليل لا أعرفه، ثم إن الحرج يمتد منهما إلى الدار نفسها وكل من فيها.

رد علىّ جمال عبدالناصر أنه ليس لى الحق أن أنظر إلى المسائل من زاوية شخصية على هذا النحو.

ثم أضاف: إن الناس كلهم يعلمون بالشكوك والظنون المحيطة بمواقفهما وارتباطاتهما، وعلى أية حال فإن اعتقالهما إجراء وقائى بعد معلومات وصلت تفيد أن الأستاذ مصطفى أمين أجرى اتصالات يوم قيام الثورة مع جهة أجنبية خارج مصر.

وبما أن الظرف لا يحتمل أية مناورات فإنه أصدر أمر الاعتقال حتى تنجلى الحقائق.

عدت فى المساء ومعى الأستاذ التابعى نرجو ونلح.

ثم عدت فى صباح اليوم التالى أشرح الضغوط التى أحسست بها فى دار أخبار اليوم بالأمس.

ثم دخلت أمام جمال عبدالناصر وآخرين من أعضاء مجلس قيادة الثورة فى شرح مفصل لعلاقة الصحافة فى مصر بالسياسة، ومن ثم علاقتها بالسلطة واحتمالات التجاوز فى ظل الظروف الموضوعية السائدة.

وأخيرًا تقرر الإفراج عن الأستاذين مصطفى وعلى أمين وأخذتهما معى، ومعنا الأستاذ محمد التابعى والأستاذ كامل الشناوى، وذهبنا إلى مقر مجلس قيادة الثورة، وهناك قدمتهما لجمال عبدالناصر وآخرين من أعضاء مجلس الثورة، وكان لقاء يستحق المتابعة الدقيقة، فقد استجمع الأستاذ مصطفى أمين كل مواهبه ليدافع عن نفسه أمام السلطة الجديدة ويشرح مواقفه، ثم رحنا جميعًا نلح فى كلمة تصدر فى المجلس تبرئ صاحبا أخبار اليوم أو ترد إليهما شرفهما على حد التعبير الذى استعمله الأستاذ على أمين.

7

كان هذا الموقف معبرًا عما سيأتى بعده تمامًا.

لم تمنعنى العلاقة الأخوية التى ربطت بيننا أن أنتقل من أخبار اليوم إلى الأهرام.

كنت طوال حياتى مؤمنًا بفكرة المؤسسة متجاوزًا الأفراد، وكانت أخبار اليوم عندى مرتبطة بمصطفى وعلى أمين، صحيح نشأت بيننا خلافات بسيطة ربما حول أهمية أن يكون للمنشأة حتى ولو كانت مملوكة للأفراد ميزانية محترمة يتم عرضها على مجلس الإدارة، ولكنى كنت أعرف طبائع الملكية الفردية لأصحاب مشروع.

وعندما جاء على الشمسى باشا واقترح علىّ فكرة الانتقال إلى الأهرام فى العام 1956 بدت الفكرة مغرية لأنى وصلت فى أخبار اليوم إلى آخر ما يمكن أن يصل إليه أى صحفى، والأهرام بالنسبة لى تحدٍ، وفى أول عرض لهم عرضوا علىّ أن أكون واحدًا من رؤساء التحرير، وأنا اعتذرت.

لم يكن أصحاب الأهرام وقتها مستعدين للقبول برئيس تحرير واحد، لكن ولأن خسائر الأهرام كانت تزيد، فقد قبلوا بالفكرة فى النهاية.

عندما ذهبت إلى على ومصطفى أمين أصارحهما بنيتى: «أنا رايح الأهرام»، قام على أمين وأغلق الغرفة التى نجلس فيها، وحبسنا إحنا التلاتة.. وهات يا عياط.

لم أخرج إلا بعد أن كتبت اعتذارًا لبشارة تكلا، وظللنا نعمل فى أخبار اليوم وعندى أمل أن الأمور سوف تنضبط، وأن الوضع المؤسسى سوف ينضبط فى الدار ويسود، وأتصور إننى إذا كنت قد فعلت شيئًا فى الأهرام فهو فكرة المؤسسة لأنها باقية وحية حتى وأنا بعيد عنها.

جرى أن قامت بيننا خلافات حول المدارس الصحفية المختلفة.

طوال الوقت كنت أعتقد أن القارئ المصرى جاد أكثر مما نتصور، والأخوان أمين يتصوران شيئًا آخر، ورغم هذه الخلافات كنا نلتقى كل أسبوع مرة لنتناول الغداء معًا،

حتى لا تكون القطيعة نهائية، فعندما ذهبت إلى الأهرام على مضض وكانت لى دوافعى فى ذلك، جمعت بين الأهرام وآخر ساعة، ووافق مجلس إدارة الأهرام، وعندما جاء قانون تنظيم الصحافة وأسندوا مهمة مجلس إدارة أخبار اليوم إلى أمين شاكر وهو ضابط سابق فى مكتب جمال عبدالناصر، وجاء القرار دون اسمى الأستاذين مصطفى وعلى أمين تدخلت.

رفعت سماعة التليفون أحاول أن أتصل بجمال عبدالناصر، وفجأة انفتح باب مكتبى ودخل الأستاذان مصطفى أمين وعلى أمين، وأعدت سماعة التليفون إلى مكانها ورفعت أصابعى عن القرص، وكان باديًا أنهما فى محنة، وكنت بمشاعرى متعاطفًا معهما، وبدأ الأستاذ مصطفى أمين فقال: إنهما قرآ قوائم التشكيلات ووجداها خلوًا من اسميهما وقررا المجىء إلىّ على الفور.

قلت: أعتقد أن فى الأمر خطأ من نوع ما.

وقد كنت قبل دخولهما على وشك الاتصال بالرئيس أستوضحه وأرجوه تصحيح الخطأ، وراح الأستاذ مصطفى أمين يعرض على موقف الاثنين حتى أنقله إلى الرئيس وكان مؤدى هذا الموقف الذى كان فى الواقع رسالة كما يلى: إن قانون تنظيم الصحافة لن يؤثر فى ولائهما لقيادة جمال عبدالناصر، ونفس الشىء ينطبق على خلو قوائم التشكيل من اسميهما، لكن المشكلة أن هذه المسألة الأخيرة- خلو قوائم التشكيل من اسميهما- قد تعطى لبعض الناس انطباعًا بعدم رضاء الرئيس عنهما، هذا هو الوضع الذى لا يستطيعان تحمله.

اتفقت معهما على أننى سوف أتصل بالرئيس، وفى كل الأحوال فإنى سأنضم إليهما على الغداء فى بيت الأستاذ مصطفى أمين، واتصلت بجمال عبدالناصر ودار بيننا حوار طويل واستطعت بعد عناء إقناعه بإضافة اسميهما إلى قائمة التشكيلات الجديدة لمجالس إدارات الصحف.

ذهبت إليهما بالبشرى فى بيت الأستاذ مصطفى أمين، وانتظرنا إلى ما بعد الظهر حتى أذيع نبأ الإضافة إلى التشكيلات، ثم ركبنا نحن الثلاثة سيارة واحدة وذهبنا إلى دار أخبار اليوم، ودخلت معهما على مرأى ومشهد من مئات المحررين والإداريين والعمال فى الدار، وكان مشهدًا لا تخطئ العين دلالته.

لم تهدأ الأمور، بل استمرت الاشتباكات بين الأستاذين مصطفى أمين وعلى أمين والسيد أمين شاكر حتى سنة 1961، ووصلت إلى أن قام شاكر بتحريض بعض العاملين فى أخبار اليوم فتصدوا لأصحابهما السابقين ومنعوهما من دخولها، وأعفى السيد أمين شاكر من رئاسة مجلس إدارة أخبار اليوم، ومرة ثانية ذهبت مع الاثنين إلى دار أخبار اليوم، ودخلنا نحن الثلاثة معًا فى مشهد لم يخطئ فى دلالته أحد هذه المرة أيضًا.

صدر قرار بتعيين السيد كمال رفعت رئيسًا لمجلس إدارة أخبار اليوم، وكان كمال رفعت أحد البارزين فى حركة الضباط الأحرار، وكان وزيرًا للعمل وعضوا فى اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى العربى وكان بالقطع عودًا صلبًا.

تكررت القصة، ظهرت الخلافات بعد قليل ثم استفحلت، ورد كمال الدين حسين، فإذا بالأستاذ على أمين ينقل إلى دار الهلال، وإذا بالأستاذ جلال الحمامصى يفصل من دار أخبار اليوم، وبقى الأستاذ مصطفى أمين وحده.

بذلت مساعى حثيثة لكى يعود الأستاذ على أمين إلى أخبار اليوم، ويعود التوأمان معًا ليؤنس كل منهما الآخر، ومضت الأيام، ثم ما لبثت العواصف أن ثارت من جديد فى أخبار اليوم، لأن السيد كمال رفعت فى خضم مسئولياته الواسعة ترك أخبار اليوم لأحد مساعديه الذى قرر فى نوبة غضب أن يعطى الأستاذين مصطفى وعلى أمين إجازة مفتوحة.

ذهبت إلى جمال عبدالناصر وكان صدره قد ضاق بالكل بمن

فيهم أنا.

قال لى: كمال رفعت ليس لديه وقت يعطيه لأخبار اليوم، وسكرتيره أخطأ، وسوف أعين رئيسًا جديدًا لمجلس الإدارة، وعلى أصحابك أن يتعاونوا معه، قل لأصحابك أن يعقلوا وأن يعملوا كصحفيين محترفين فقط، لعلمك هم يستندون إلى صلتك بى وهى تشجعهم، وهذا يخلق تعقيدات لا لزوم لها.

حاولت أن أعترض مشيرًا إلى كفاءة الأستاذين مصطفى وعلى أمين وإخلاصهما.

قاطعنى قائلًا: كفاءتهما لا أتكلم عنها، وأما الإخلاص فمسألة أخرى، والحقيقة إننى لا أستطيع أن أثق فى إخلاص من أضيرت مصالحه، فهذا فوق الطبيعة البشرية، وعدا ذلك فإن لى رأيًا من قديم رغم كل ما تقوله.

خرجت من عند جمال عبدالناصر إلى بيت الأستاذ مصطفى أمين، وقلت للاثنين إنهما سيعودان إلى أخبار اليوم، ثم أضفت رجائى بأن يتصرفا بهدوء، لأن الظروف لم تعد تحتمل.

صحبتهما للمرة الثالثة إلى دار أخبار اليوم.

وللمرة الثالثة رآنا مئات المحررين والعمال فيها ننزل نحن الثلاثة من سيارة واحدة ونصعد سلم الدار الخارجى.

وللمرة الثالثة أيضًا كان المشهد لا تخطئ العين دلالته.

8

بعد ذلك جد شىء فاق كل الحدود، وهو القضية التى تورط فيها مصطفى أمين، حيث جرى القبض عليه يوم 21 يوليو 1965، وأنا أعتقد أن مصطفى تورط فيها مهما كانت الأسباب، فقد كانت هناك علاقات طرأت عليه لا أعرفها ولكن يمكن تفسيرها.

قبلها بقليل طلب منى على أمين أن يصبح مراسل الأهرام

فى لندن، لأنه لا يستطيع أن يتعامل مع الشيوعيين الذين أتى بهم خالد محيى الدين إلى أخبار اليوم بعد أن تولى مجلس إدارتها خلفًا لكمال رفعت، وأجبته على الفور إلى ما طلب، وكان راتبه أعلى من راتبى.

كان بينى وبين الاثنين صداقة حتى آخر لحظة، وحتى فى وقت السجن كنت أزور مصطفى أمين، وقلت للرئيس عبدالناصر: أنا شايف اللى عمله مصطفى أمين لكن بتربطنى به علاقة صداقة، خصوصًا وهو فى محنة لا أستطيع أن أنساها.

كنت أمام قضية تم فيها تجاوز الخطوط الحمراء، وحدثت علاقة مع دولة أجنبية وقد اطلعت على ما يؤكد ذلك، وكثير مما قاله مصطفى أمين لرجل المخابرات فى السفارة الأمريكية يوم الأربعاء، كان كلامى له الذى يسمعه منى يوم الثلاثاء حيث كنت أتناول معه غدائى الأسبوعى فى شقته، ورغم ذلك كان كل ما يقوله لرجل المخابرات الأمريكية منسوبًا إلى الرئيس، بعد أن يقوم بتلوينه وإعادة تركيبه.

عندما قرأت المحاضر والتسجيلات، كنت أكثر إنسان يشعر بهول ما يقرأه.

كنت أمام مأساة إنسانية.

البعض لم يستطع أن يدرك إحساسى بالضعف فى صداقتى بالأخوين أمين، حتى إن عبدالحكيم عامر قال لى: همه ماسكين عليك ذلة.. بتدافع عنهم طول الوقت ليه.

كنت أمام كارثة بكل المعايير أراها جيدًا، وفيما بعد عندما خرج مصطفى من السجن بدأت المسألة تأخذ تبريرات غريبة.

قال مصطفى إننى تخليت عن الصداقة وتنكرت لها.

ثم زاد عندما قال إننى لفقت له الاتهام.

ولست أعرف كيف كان يمكن أن ألفق له اتهامًا فى جلسات

بينه وبين مندوب المخابرات الأمريكية فى مصر، وكلها سجلت فى بيته وتفريغات شرائطها هو الذى يتكلم فيها طوال الوقت يحكى ويروى، والسفارة الأمريكية نفسها لم تستطع أن تقول كلمة فى الموضوع نفسه، وإنما قامت بترحيل مندوب المخابرات الأمريكية بحماية حصانته الدبلوماسية.

وكتب السفير الأمريكى خطابًا إلى وزير الخارجية المصرى محمود رياض يعتذر فيه، وتقريبًا ينفى التهمة عن وزارة الخارجية، والخطاب موجود ومنشور.

وجدت نفسى مضطرًا أمام شباب الصحفيين، فوضعت جميع الوثائق أمام الناس، كنت حريصًا على شباب المهنة لأن يتصوروا أن شيوخ المهنة أو الجيل السابق لهم دخلوا فى صراعات الديناصورات أو التماسيح، قلت كلمتى وأغلقت الباب.

أخذت موقفى من قضية مصطفى أمين لأن الخلاف كان على وطن وليس على شخص، والقضية كانت تتصل بحقيقة وليس بشعور، كنت أدرك أن كل واحد منا يسير وهو يحمل معه جراحه، فى النهاية الجراح تطيب، لكنها تترك وراءها ندوبًا وآثارًا.

طوال الوقت كانت لدى ظنون أن على أمين كان بريئًا ولم يعرف شيئًا، لكن مصطفى أمين كان يعرف ماذا يفعل، فبعد الحرب العالمية الثانية دعم رغبة الأمريكان فى دخول منطقة الشرق الأوسط، كانوا قد شجعوا إنشاء صحف جديدة أقرب إليهم فى توجهها، وقد جرى ذلك فى القاهرة وبيروت وطهران، ولكن بدا ذلك فى وقته نوعًا من نشاط دولة عظمى تريد أن تنشر طريقتها فى الحياة وتؤثر على الناس، لكن الأمور تجاوزت هذا الحد كما ثبت فيما بعد.

ثم جاءت مرحلة ترك مصطفى فيها نوازعه تجره، وتقوده إلى أبعد مما هو مسموح به وطنيًا، وهنا أخطأ.

وعندما رأيت مصطفى كان بعد السجن وذهبت لأزوره، وكان فى سجن المخابرات العامة، وكان طعامه يصله من جروبى الذى كان أفضل مطعم وقتئذ، وكنت أحمل له أدوية أرسلها له سعيد فريحة.

وأذكر أننى عندما قابلت مصطفى فى مكتب مأمور سجن الاستئناف، كان أول سؤال: ليه كده يا مصطفى؟

فقال: الشيوعيون حيودوا البلد فى داهية، وأنا حاولت أساعد الرئيس.

قلت له: ما دخل الشيوعيين بالموضوع ده؟

ادعى مصطفى أنه عمل علاقات مع الأمريكان ليصحح صورة أشياء ممكن يتصوروها عن النظام، ولكن عندما تسمع التسجيلات تجد أن ما كان يرويه غير طبيعى وغير معقول.

9

فى بدايات العام 1976 بدأت إحدى الصحف السعودية فى لندن تنشر سلسلة مقالات لأحد الصحفيين المقربين من الأستاذين مصطفى وعلى أمين، تتهمنى أنا بالعمل مع المخابرات الأمريكية، وفى ذلك الوقت كان الأستاذ مصطفى أمين، فى غمرة الحملة على جمال عبدالناصر، قد رفع قضية على صلاح نصر يتهمه فيها بتعذيبه أثناء سجنه، وقال الأستاذ مصطفى أمين فى عريضة دعواه إنه ذكر لى فى حينه كما ذكر لمحاميه الأستاذ محمد عبدالله أنه عذب فى السجن.

وقفت يوم السبت 10 إبريل 1976 فى المحكمة لأدلى بشهادتى فى القضية، كنت قد امتنعت عن الحضور حتى قررت المحكمة إعادة إعلانى مع تغريمى مبلغ 30 جنيهًا لتخلفى عن الحضور للشهادة.

فى قاعة المحكمة رويت الحكاية من جديد، قلت نصًا كما أنقل من محضر المحكمة:

«علاقتى بالأستاذ مصطفى أمين بدأت من سنة 1946، وكنت باشتغل فى آخر ساعة، وانتقلت اشتغلت معه فى الأخبار، وبقت تلك الصداقة حتى تركت أخبار اليوم سنة 1957، وبقيت حتى وقت القضية وأنا الوحيد اللى كنت بازوره داخل سجن الاستئناف أول مرة، وبعد كده فى طرة عدة مرات بين وقت وآخر، وفى هذه الفترة كنت سبت أخبار اليوم.

عندما صدر قانون ينظم الصحافة سنة 1960، لم يرد اسميهما فى الكشوف كعضوين فى مجلس الإدارة، وجاءنى مصطفى أمين وعلى أمين منزعجين، فالقانون كما قالا لا يؤثر على ولائهما لجمال عبدالناصر، كما أن عدم تعيينهما لا يؤثر أيضًا على هذا الولاء، لكن ما يؤلمهما أن ذلك قد يفسره البعض بعدم رضاء الرئيس عنهما.

كان رأى مصطفى أمين أنه إذا كانت هناك ملاحظات للرئيس على نشاطه فإنه يرجو أن يصارحه فهو يخدم النظام بمقالاته المنشورة، وبما يحصل عليه من معلومات يقدمها فى تقارير إلى صلاح نصر وسامى شرف وعبدالقادر حاتم.

استطعت إقناع الرئيس بأن يضيف اسميهما إلى مجلس الإدارة، ثم ذهبت معهما إلى دار أخبار اليوم، وأذكر أن أمين شاكر لم يكن مرحبًا، لقد أحس أن صاحبى الدار قد فرضا عليه، وبدأت المشاكل وقد وقفت إلى جنبهما تمامًا من منطلق مهنى، وهو نفس الموقف الذى اتخذته إلى جنبهما عندما وقعت مشاكل بينهما وبين كمال رفعت.

فى شهر أبريل 1965 جاءنى على أمين وطلب منى أن ينتقل للعمل فى الأهرام، لأن جو أخبار اليوم لم يعد يعجبه، وطلب منى أن أمنحه هذه الفرصة، فيعمل فى الأهرام وبالذات يكون مراسل جريدة الأهرام فى لندن، ولم أتردد فى الموافقة على طلبه، بل إنه قبل سفره لممارسة عمله طلب مقابلة الرئيس، وقبل أن يسافر أقنعت الرئيس بأن يقابله وهو فى طريقه إلى المطار، وقد رفض الرئيس أن يقابل

مصطفى أمين.

فى يوليو كنت فى لندن بصحبة ابنى للكشف على عينيه، ولم يفارقنى على أمين، وطلب جمال عبدالناصر أن أعود قبل 21 يوليو لكى أشترك فى إعداد خطابه السنوى بمناسبة عيد الثورة، وعدت مساء 20 يوليو، وكان هناك موعد ينتظرنى لأقابل جمال عبدالناصر ظهر اليوم التالى يوم الأربعاء 31 يوليو، وقال هناك خبر حيزعلك، وأنا كنت باتخذ باستمرار صف الدفاع عن مصطفى وعلى أمين وكان يعرف، ولما سألت الرئيس عما حدث أبلغنى أنه قبض على مصطفى أمين.

الحقيقة أنه كان فيه شك فى مصطفى أمين، وإحنا كنا بنعمل اجتماع دائم كل يوم ثلاثاء أنا وعلى ومصطفى، ولفت نظرى الرئيس جمال عبدالناصر، ألا أتحدث كثيرًا، وقال إنه لا يمنعنى ولكن على أن أكون حذرًا، لما رجعت وقال لى قبضنا على مصطفى أمين متلبس اندهشت.

قال لى قبل ما تتكلم اطلع عند سامى شرف واسمع شرائط، وفعلًا طلعت ورجعت وأنا متضايق وسمعت تسجيلات وأحسست بغثيان وقلت كفاية.

كتبت مذكرة أن أخبار اليوم تتحمل الصرف على مصطفى، وتتحمل مرتبه لحد ما تخلص القضية، وبعدين رحت زرته فى سجن الاستئناف، ودخلت شفته وسابنى مأمور السجن معاه نصف ساعة، وبعدين جيت المحاكمة وشفته كذا مرة، وكان يبقى معايا عادة فى زيارته فى الليمان سعيد فريحة، وفضلت أشوفه لحد سنة 68، وبدأ وقتها يحكى وأخذنا بعضنا ودخلنا أوضته فى مستشفى السجن، والأشغال الشاقة التى حكم عليه بها أن يعمل فى المكتبة، والرئيس قال لى تانى يوم: إنت كنت عند مصطفى أمين، وبعد كده شاركت فى التماس الإفراج عنه، فقلت للرئيس إن مصطفى أمين سياسى وما دام حكم عليه خلاص.

أنا اشتغلت فى الأخبار مع على أمين، وكان صديقى جدًا، وأنا حين طلبت أن أعمل صحفى متجول بالخارج على أمين

الوحيد اللى وقف معايا فى إعطائى هذه الفرصة، وعملت مراسلًا فى حرب فلسطين، وفكرة وجود مراسل حربى لم تكن موجودة، وبعد الثورة بثلاثة أيام قبض على مصطفى وعلى أمين ضمن من اعتقل من حاشية القصر ورجال الملك، وذهبت محتجًا، وكان رد فعل جمال عبدالناصر أن الناس كلهم يعلمون بالشكوك التى تحيط بمواقفهما وارتباطاتهما، وعرفت أن اعتقالهما إجراء وقائى بعد أن وصلت معلومات تفيد أن مصطفى أمين أجرى اتصالات يوم قيام الثورة بجهة أجنبية خارج مصر.

لقد حزنت هذه المرة عندما علمت أن مصطفى أمين قبض عليه فى حالة تلبس، وأنا أعرفه وأعرف أخوه ما أقدرش أمنع نفسى من الحزن، وأنا واخد جانب دفاع عنهما، وكلمة متلبس فيها من التهم الثابتة.

الرئيس عبدالناصر نفسه كان يعتقد أن هناك علاقة بين مصطفى أمين والأمريكان، وأعتقد أنه كان غير راض عنها، ولما ضبط كان فيه فلوس على الترابيزة، وكان بيدى الأمريكان معلومات.

قال لى عبدالناصر روح لسامى شرف شوف اللى عنده وبعدين نتكلم.

رحت لسامى شرف ومسمعتش كل حاجة، وكان فيه تسجيلات موجودة.

وفى مساء 8 أغسطس كنت مدعوًا على العشاء مع جمال عبدالناصر فى استراحة المعمورة بالإسكندرية، وقال لى بعد العشاء ونحن نتمشى على الشاطئ أنه سيعطينى نسخة من خطاب بعث به مصطفى أمين إليه، وفى اعتراف كامل سوف أذهل له.

قال لى إنك لا تستطيع أن تقول إنه كتبه تحت ضغط لأنه يستحيل أن يكتب أحد تحت ضغط ستين صفحة كاملة، تكاد تكون كتابًا كاملًا، وكان رأى الرئيس أنه يعتقد أن مصطفى

أمين فوجئ بالتسجيلات وما تحتويه وأنهم طمأنوه حتى يعترف، وأنه أيضًا كان يتصور أن خبر القبض عليه لم ينشر وأنه إذا اعترف اعترافًا كاملًا يمكن أن يخرج.

عندما رأيت مصطفى أمين فى سجن الاستئناف كانت حالته طبيعية، كان منفعلا لأنه عارف إن فيه أسئلة معلقة كثيرة يومها، تركنى مأمور السجن معه وحدنا، وكنت أحمل له كمية من الأدوية أخذت إلى طبيب السجن لفحصها.

سألته ونحن وحدنا: لماذا يا مصطفى؟.. أنا مش متصور إنك جاسوس.

قال إنه يحمى الرئيس لأنه خايف على البلد من الشيوعيين والرئيس لازم يعرف.

كنت قد قرأت خطابه إلى جمال عبدالناصر، وسألته: إيه اللى حصل؟

وقلت له: هل كان فيه ضغط عليك.

فأجابنى: لا.

كل ما شكا منه فى المقابلة الأولى التى تمت فى سجن الاستئناف ونحن وحدنا أنه أمضى فى المخابرات 41 يومًا فيما أذكر.

لم أقرأ كتاب مصطفى أمين (سنة أولى سجن)، عرفت بعضًا مما جاء فيه.

لكننى لم أرفع اسمه هو وعلى من على أخبار اليوم كما قال.

ولم أقل له إن الرئيس وعد بالإفراج عنه، وفى السجن لما شفته كان بيعامل معاملة خاصة جدًا، إنما فى المخابرات أنا ما شفتش حاجة، وهو قال لى إنه متعذبش.

بعد القبض على مصطفى أمين، كانت القضية محل مناقشات بين الصحفيين فى مصر وفى بيروت، وهذا تقدير

شخصى، والمخابرات رأت أن تعرض على الصحفيين بعض وقائع القضية فى صورة التسجيلات، وهو ماحدث فى جريدة الأهرام ثم فى نقابة الصحفيين، وفيه واحد جه مش فاكر اسمه من المخابرات معاه الماكينة والأشرطة وحصل الاجتماع فى أوضة مجلس الإدارة، وحضرت شوية ومشيت.

فى قاعة المحكمة كانت هناك محاولة لإدانتى.

ويومها قلت: إننى لا أدافع عن نفسى بالنسبة لما نشرته مجلة الحوادث اللبنانية بالإشارة إلى ثقة جمال عبدالناصر فى، فى ذروة صراعه مع الولايات المتحدة الأمريكية لم يكتف بأن يتركنى فى الأهرام رئيسًا للتحرير ولمجلس الإدارة، وإنما أضاف إلىّ وزارة الإرشاد وعضوية مجلس الأمن القومى والقيام بأعمال وزير الخارجية فى نفس الوقت.

لن أدفع بذلك، سوف أناقش ما قيل من أن خروشوف تحدث معى عن أموال أخذتها من المخابرات الأمريكية تحت غطاء أجر مقالات كتبتها فى صحيفة واشنطن بوست.

أولًا: أنا لم أكتب فى حياتى كلها مقالًا لصحيفة واشنطن بوست، وبالتالى لم أتقاض منها سنتًا واحدًا.

ثانيًا: فيما يتعلق بخروشوف فقد دعانى سنة 1964 إلى بيته فى يالتا لكى أرافقه طوال رحلته من يالتا إلى الإسكندرية- خمسة أيام فى البحر- حتى يستطيع أن يسألنى فيما يريد أن يتعرف عليه منى عن العالم العربى والإسلامى والإفريقى الذى يزوره لأول مرة بزيارته لمصر لحضور الاحتفال بإتمام المرحلة الأولى من السد العالى.

أما ما ذكر من كتابات (مايلز كوبلاند) فإنه ليس بالرجل الذى تعتمد شهادته، فقد كان موظفًا فى المخابرات الأمريكية ثم طرد منها، وحاول استغلال صلاته بالعالم العربى ليفتح مكتب استشارات فى بيروت، وفى هذه الفترة كتب إلى جمال عبدالناصر أكثر من ثلاثين خطابًا وتقريرًا يحاول إقناعه باستعمال خدماته وخبراته ويطلب فى مقابل ذلك

مكافأة، ولم يرد جمال عبدالناصر على واحد منها.

لم أقل للمحكمة كلامًا عابرًا، بل قدمت لها ملفًا كاملًا فيه خطابات مايلز كوبلاند إلى عبدالناصر.

وقلت للمحكمة أيضًا: إن هذه الكتب التى أخرجها مايلز كوبلاند حتى الآن كتابان أولهما عنوانه (لعبة الأمم) والثانى عنوانه (بلا خنجر ولا عباءة)، فى الكتاب الأول ذكر اسمى فى معرض صداقتى لعبدالناصر مرة واحدة فى كل الكتاب، وفى الكتاب الثانى لم يأت ذكر لى على الإطلاق».

وتركت لهيئة المحكمة الكتابين.

10

خلال السنوات التى أعقبت هذه الشهادة كان هناك من تعمد أن يزيف الحقائق ويزور الأحداث ويستحل لنفسه التاريخ يرويه كما يشاء، فكان أن قررت أن أرد بما لدى من وثائق، ليس من أجلى فقط، فالأمر يهون، ولكن من أجل أجيال لم تكن معنا ومن حقها أن تعرف ما جرى.

فى العام 1984 صدر كتابى «بين الصحافة والسياسة.. قصة ووثائق معركة غريبة فى الحرب الخفية» جعلت إهداءه إلى «أولادى الثلاثة على وأحمد وحسن.. وإلى عشرات الملايين غيرهم من شباب مصر وأمتها العربية، حتى لا يضيع منهم الغد لسبب لا ذنب لهم فيه وهو أنهم لم يكونوا معنا بالأمس».

كان الكتاب صفحات حاولت تأجيل كتابتها ونشرها على الرغم من دواع كثيرة، سياسية وفكرية وإنسانية أيضًا، كانت تقتضى التعجيل بالكتابة والنشر، ولقد صبرت طويلًا، لكن السنين غلبتنى على أمرى، فهى تجرى سراعا، وكان لا بد إذا كانت لهذه الصفحات قيمة أن تصدر، بينما جميع الأطراف فى الموضوع على قيد الحياة يملكون فرصة الرد إذا شاءوا وبأى وسيلة يختارون.

تعرضت فى الكتاب لواحدة من أغرب القصص فى علاقة السياسة بالصحافة فى مصر، وهى قصة أرادوا لها أن تنسى وأن ينزل عليها ستار حتى لا تظهر مقاصد أو تبين أغراضًا، ما زالت تسعى بين الناس، وما زال أثرها محسوسًا فى نبض كل حياة.

لم يكن كتاب «بين السياسة والصحافة» ضمن خطتى للعام 1984، فى البداية حاولت أن أكتب لمجموعة الناشرين التى تملك حق نشر كتبى فى العالم كتابًا عن «ظهور وتراجع القوة العربية» وبدأت المحاولة فعلًا، ثم كنت أنا الذى تراجعت مؤقتًا عما اعتزمت، فقد وجدتنى أصف عالمًا عربيًا كل أحواله تدعو للرثاء، ولم أشأ أن يكون ما أكتبه سهمًا جديدًا تتكسر به النصال على النصال.

وهكذ انتقلت إلى مشروعى الكبير، وهو تاريخ المنطقة من أعقاب الحرب العالمية الثانية- منتصف الأربعينيات- إلى أعقاب حرب أكتوبر- منتصف السبعينيات- وشخصية جمال عبدالناصر أمام هذه الخلفية الواسعة الهائلة، ولم أكن أحلم بموسوعة علمية، وإنما كنت أريد أن أحاول ما حاوله غيرى من الصحفيين ممن أتاحت لهم الظروف فرصة أن يروا حقبًا لها معنى ورجالًا لهم أدوار، فراحوا يروون شهاداتهم كما عاشوا الحوادث ورأوها تتوالى وتتعاقب.

لكن وأنا أجرب هذه المحاولة لاحظت كثافة النيران الموجهة إلى جمال عبدالناصر وخطر لى أن أستكشف مصادر هذه النيران، ووجدتنى أمام سبب إضافى يحفزنى على تناول موضوع هذا الكتاب.

ولا بد أن أعترف أن تجربة هذا الكتاب كانت مرهقة، فلقد آثرت أن أروى القصة كما عشتها، ومع ذلك فالكتاب فى جزء منه يمكن أن يبدو وكأنه تجربة ذاتية، وليس فى هذا بأس ما دام الموضوع عامًا، ووقائعه جزء من التاريخ، ثم إن الدخول إليه هو من باب الشهود وليس من باب القضاة.

لكن البأس يجىء من عدة جوانب أخرى.

جانب منها مثلًا أن العودة لكتابة القصة كانت على نحو أو آخر استعادة لمناخها وأجوائها بكل ما فى ذلك من عبء نفسى وعاطفى.

ولم يكن من ذلك مهرب.

وجانب منها ألا يتحول الكتاب إلى مرافعة أدافع فيها عن نفسى ضد حملات شعواء اتهمت فيها بأننى أردت أن أكون الصحفى الأوحد فى مصر، وأننى هدمت أهرام الجيزة لأنقل حجارتها وأقيم فوقها مبنى الأهرام.

لو كان حافز الدفاع عن النفس ضمن حوافزى كان عليه أن يحركنى منذ سنوات، على الأقل منذ عشر سنوات قبل صدور هذا الكتاب.

وجانب آخر منها مثلًا وخصوصًا أن أسلوب الكتابة هو أسلوب التجربة ومعايشة الموضوع يومًا إثر يوم مع مراعاة أن الانزلاق يمكن أن يتجنى لا شعوريًا، فإذا حديث الموضوع يتحول إلى حديث عن الذات.

لا بد من الحذر، ومع ذلك فليكن عذرى مقدمًا إزاء أى خطأ: بأن البشر بشر.

وجانب أخير منها- مثلًا- هو محذور التبرير للنفس وادعاء الصواب فى كل موقف.

أدرت اهتمامى عن هذا الجانب سريعًا لأن سياق الكتاب كله يكشف، مع أشياء أخرى، أننى كنت على خطأ فى جوانب متعددة من هذه القضية، وأن جمال عبدالناصر كان هو الأصوب تقديرًا والأدق حسًا.

وفى بعض اللحظات فكرت أن أعطى ما عندى لغيرى ليكتب هو وأعفى أنا نفسى من الحرج، ومن العناء ومن المحذور، ولقد كان ما فعله آخرون، تواروا خلف واجهات، وحرضوا غيرهم وابتعدوا هم، وألفوا الكتب ووضعوا عليها أسماء مستعارة.

ولم أجد أن ذلك منهجًا مقبولًا بالنسبة لى، رغم أن كثيرين تطوعوا بكرم للتصدى، كان رأيى أننى إذا قررت الكلام يومًا فلا بد أن يكون صوتى هو المسموع وقلمى هو الذى يكتب.

مملكتى
أيامى فى الأهرام
1

عندما اقترح على باشا الشمسى على عائلة تقلا أن أصبح رئيسًا لتحرير الأهرام فى العام 1956 لإقالتها من عثرتها، بدا الترشيح غريبًا بالنسبة لهم، لأنهم لم يتصوروا أن يأخذوا رئيس تحرير عمره 32 سنة فقط، وقد ساعدنى امتلاكى لاتجاه مختلف عن اتجاهات أصحاب أخبار اليوم فى حسم الأمر.

وعندما تعودون إلى ما كنت أكتب فى ذلك الوقت ستجدونه مختلفًا.

والحقيقة أننى لم أكن وحدى، فنحن جيل الحرب الذى تأثر بالحرب العالمية الثانية ومناخها، وأظن أن هذه الحرب قد أتت بالعالم إلى مصر، وأخرجت مصر إلى العالم.

وعندما ذهبت إلى الأهرام قدمت شيئًا جديدًا انطلاقًا مما كنت أمثله كجيل ما بعد الحرب العالمية الثانية، وانطلاقًا من تجاربى فى تغطية الحروب والأحداث الساخنة فى العالم.

أذكر عندما ذهبت إلى حرب البلقان لم يكن أحد فى الأخبار متحمسًا لذهابى بمن فيهم أستاذى محمد التابعى، الذى كان يقول: وماذا ستفعلون فى هذا الأمر؟

لم يساندنى إلا على أمين، وقد تغيرت الدنيا بعد الحرب العالمية الثانية، خاصة بعد استخدام السلاح النووى، والجيل الذى سبقنا فى الصحافة المصرية كان مشغولًا بقضايا الداخل، خاصة الحركة الوطنية المهتمة بالاستقلال، أما جيلنا فانطلق خارج الحدود وانشغل بقضايا العالم المختلفة.

الأستاذ محمد التابعى كان مدرسة مختلفة، وعندما ننظر

إلى مراحل تطور الصحافة، فأول مرحلة كانت مع رفاعة الطهطاوى الذى اهتم بالترجمة، والتى كانت وسيلة ربطنا بالعالم الخارجى، ثم جاءت مرحلة محمد عبده ولطفى السيد وهى المرحلة التى اهتمت بتجديد الفكر الإسلامى.

الشيخ محمد عبده كان يعبر عن روح العصر، ولطفى السيد يبحث عن منابع الثقافة الغربية فى الفلسفة، «الفلسفة الإغريقية بالتحديد»، ثم جاءت بعد ذلك مرحلة صحافة الخطابة بداية من مصطفى كامل وحتى سعد زغلول، وهى مرحلة العمل السياسى والفكر السياسى، وأتذكر آخر خطبة ألقاها سعد زغلول وكانت فى شبرا والتى قال فيها «يعز علىّ أن أرى منبر الخطابة منصوبًا ولا أستطيع له رقيًا، وأن أجد مجال القول واسعًا ولا أجد له لسانًا فتيًا».

ولأننا كنا فى مرحلة طلب الاستقلال فكان من الطبيعى أن تلجأ الصحافة إلى الحجج القانونية والخطابية والبلاغية لتعبئة الرأى العام، ثم جاءت بعد ذلك تجربة البرجوازية الصغيرة، وهى صحافة تهتم بما قاله فلان وبما عملته فلانة، وهى بشكل عام تهتم بالطبقة الوسطى.

بعد دستور 1923 والذى انحاز إلى طبقة ملاك الأراضى، اتجهت الصحافة إلى الثرثرة، حتى دخلت الجيوش فى الحرب العالمية الثانية إلى مصر، وبشكل عام ظلت الصحافة متأثرة بالخطابة والترجمة، وعندما نقرأ المكتوب فى ذلك الوقت، نجد العبارة الجزلة والتعبيرات الرصينة والسجع والجناس والطباق وكل المحسنات البديعية، حتى جاء الأستاذ التابعى بأسلوبه الساحر الذى وضع أسلوب السرد والحكاية، وهى المدرسة التى تأثر بها بعد ذلك مصطفى أمين ويظهر ذلك جليا فى مقالاته «ماذا جرى بين الوفد والقصر».

المقالات كانت مليئة بالحكايات الفرعية المهمة والتى تكوّن فى النهاية صورة متكاملة للأحداث.

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بدأت مدرسة ما بعد الحرب وبدأت الأفكار اليسارية والاشتراكية فى الظهور، وبدأ

العالم يموج بأشياء كثيرة مما حتم تغير لغة الصحافة، وهذا ما استطاع الأستاذ التابعى استثماره ليضع بصمته الخاصة على لغة الصحافة، وقد تأثرت بالأستاذ التابعى ولكنى احتفظت بأسلوبى الخاص.

عندما رشحنى الأستاذ على الشمسى لرئاسة تحرير الأهرام طلبت نسبة 2.5% من الأرباح فرفض أصحاب الجريدة، وقالوا إن الأهرام قد خسر كثيرًا خلال السنوات العشر السابقة، فقلت إن الأمر لن يكلفكم شيئًا، فإذا حققت أرباحًا أحصل على 2.5% منها فوافقوا على مضض، وكتب العقد المحامى الأستاذ مصطفى مرعى، وألغيت هذه الميزة عند صدور قانون تنظيم الحد الأعلى للأجور.

لقد كنت خامس رئيس تحرير للأهرم بعد بشارة تقلا الكبير، وداوود بركات ومطران خليل مطران وأنطوان الجميل، وكانت الدعاوى الوطنية قد تزايدت وقت دخولى الأهرام، وقبل ذلك كانت قد صدرت جريدة المصرى، ثم أخبار اليوم وكان ذلك يفرض تحديات على الأهرام، ولم يكن أصحاب الأهرام يعرفون ماذا يفعلون؟

وما زلت أذكر الجلسة الأولى التى جمعتنى بهم عند ذهابى للأهرام، وطلبت منهم أن آخذ معى أوراق الأهرام وأذهب إلى الإسكندرية، لكى أرى الصورة واضحة، وعندما فعلت ذلك استهولت ما رأيت، لكن ذلك لم يقلقنى.

الذى أقلقنى عند دخولى اجتماع مجلس الإدارة لتقديم تقريرى الأول، كان على الشمسى باشا الذى أحضرنى إلى الأهرام، وقد انتهت مدة عضويته فى مجلس الإدارة، وكان هو عضو مجلس الإدارة الوحيد الذى يعرف اللغة العربية.

كانت أمامى مدام رينيه تقلا، وكانت سيدة مدهشة أعتقد أنها من الذين حافظوا على الأهرام، لأن الصحف تمر بمرحلة لا يكون المهم فيها أن تتقدم، بل أن تنجح فى المحافظة عليها، وأنا أعتقد أن مدام تقلا، وريمون شميل قاما بدور كبير جدًا فى الحفاظ على الأهرام، بينما كان بشارة تقلا الذى ورث

الأهرام عن أبيه لا يزال صغيرًا.

فى هذا الاجتماع طلب منى أعضاء مجلس الإدارة أن أقدم تقريرى بالإنجليزية، بينما طلبت مدام رينيه أن يكون التقرير باللغة الفرنسية.

قلت لهم: إن إجادتى للإنجليزية أفضل من إجادتى للفرنسية، لكن لا بأس سأقدم تقريرى بالفرنسية، وفى هذا الوقت ظهر لى أن المأزق الحقيقى للأهرام هو أن أصحاب أقدم جريدة عربية تغيروا طبقيًا، وأصبحوا لا يعرفون اللغة التى تصدر بها الأهرام، ومع ذلك ظلوا محافظين عليها كمؤسسة.

وفى أول تقرير لى قلت: إننا لا نستطيع أن نصنع تاريخًا بدون جغرافيا ملائمة، فقد كنا فى عام 1957 بينما مطبعة الأهرام مصنوعة فى عام 1928، وماكينة الزنكات مصنوعة فى عام 1904، والمبنى كان بيتًا للقنصل الإيطالى بنى فى عام 1901، لكن مدام رينيه قالت إنها لم تفهم ما هى العلاقة بين التاريخ والجغرافيا.

كانت هذه مشكلتى الثانية: كيف يمكن تحديث الأهرام فى هذه الظروف؟

كنت أتحرك وأنا أعرف أن حال الصحافة مثل حال المدن، وعلينا أن نفرق بين المدن وعشوائياتها، ولا بد أن نقبل الواقع وهو أن قلب المدينة شىء، والعشوائيات التى تنشأ على أطرافها شىء آخر، وقد دخل المهنة من لا يدرك رسالة الصحافة، ولا بد أن نفهم ذلك، ولا نحكم على المهنة بما يحدث فى عشوائياتها، لأن مهنة الصحافة مثل أى مهنة، ومجتمع الصحافة والصحفيين مثل أى مجتمع يجب أن يكون الحكم عليه بالأغلبية وليس بالأقلية، وبالأكثر تقدمًا وليس بالأكثر تخلفًا.

عندما سألنى مدير التحرير كيف أريد الأهرام غدًا؟

قلت له: أريدها كما كانت بالأمس، لأن ما يهمنى الآن ليس

أن أكسب قارئًا جديدًا، ما يهمنى هو أن أحتفظ بقارئ ظل وفيًا للأهرام طوال السنوات التى تحولت فيها الأهرام إلى موقف دفاعى، وقبل أن أكسب قارئًا جديدًا أريد أن يطمئن القارئ القديم، سنظل مؤقتًا كما نحن.

2

طلبت موعدًا مع الرئيس جمال عبدالناصر، وفى اليوم التالى قابلته.

قلت له: لقد وقعت أمس عقدًا مع الأهرام.

نظر إلىّ بدهشة، ولكنه كان كريمًا فى فهمه كعادته.

كان تعليقه الأول: أليس غريبًا أن تقبل العمل فى الأهرام وأصحابه أسرة تقلا، بينما اعتذرت عن العمل فى الجمهورية وأنا صاحبها؟

كان امتياز جريدة الجمهورية حين صدورها باسم جمال عبدالناصر.

قلت له: إن الأهرام لها صاحب أستطيع أن أتعامل معه مهنيًا، وأما الجمهورية فلا يمكن أن يكون لديك الوقت لممارسة مسئوليات صاحبها، وبالتالى فهى بلا صاحب، وهذا يجعلها مهنيًا معضلة شبه مستحيلة.

وانتقل إلى نقطة أخرى، قال: سوف تتعب مع هؤلاء الناس، ما أسمعه عنهم غير مشجع، ولا أظنهم يتركون لك الفرصة لتفعل ما تريد.

قلت: الحكم بينى وبينهم هو العمل نفسه، هم يريدون نجاحًا لجريدتهم وهو ما أريده أيضًا، الموقف كله يختلف إذا لاحت علامات نجاح.

وراح يفكر قليلًا ثم سألنى: هل هناك مشاكل فى أخبار اليوم؟

قلت على الفور: مطلقًا كل شىء هناك فى مجراه العادى، لكنى أشعر أننى وصلت مهنيًا إلى آخر السلم فيما يمكن تحقيقه فى أخبار اليوم، وفى الأهرام شىء مختلف، سلم جديد من بدايته والطريق طويل، وهو فى كل الأحوال امتحان أشعر أننى متحمس لدخوله.

كان جمال عبدالناصر كريمًا ومشجعًا وقال: الأمر لك كما تراه، فهو عملك ومستقبلك، وإن كنت لا أخفى إننى مشفق عليك من عناء تجربة جديدة مع اعتقادى أنك قادر على النجاح.

3

قبل أن أذهب إلى الأهرام كنت أعرف ما يدور هناك.

كان مكتب أنطون الجميل باشا رئيس التحرير يتحول كل ليلة إلى بوفيه، وكل الناس يجلسون حوله يتكلمون ويأكلون، كان مكتبه يجتمع فيه كل ليلة السياسيون والصحفيون.

مصطفى وعلى أمين «يفوتوا وتحلو السهرة».

كامل الشناوى كأنه فاتح مطعم من الساعة الخامسة حتى السابعة، يفرش مكتبه بالورق وتنزل صوانى الفتة و السجق والجبن والبسطرمة.

سيارة الركيب تقف أمام الأهرام بصوانى الممبار والكوارع.

وعندما توليت رئاسة الأهرام بدأت بوقف هذه السلوكيات، وغضب منى كامل الشناوى رغم صداقتنا، فأصريت وقلت لهم: مفيش عربية الركيب كل يوم تنزل كرشة.

بل كان أحد الشعراء عنده تجارة خاصة اسمها «واحدة ونص» يلتف حوله الصحفيون لأنها كانت مرتبطة بالمزاج، ويطلبون من مطعم بولس بيض مقلى وسجق.

كنت أعرف أيضًا أن أصحاب الأهرام حرصوا من البداية على تطوير صناعة الصحافة، فأدخلوا الصورة للمرة الأولى،

وأحضر تقلا باشا ماكينات الجمع السطرية والطباعة بالألوان، وقد كان هذا التطوير مرتبطًا بحرص شديد فى اختيار معاونيهم، فقد كان أنطون الجميل باشا ليس فقط من نفس الملة بل كان سكرتير اللجنة الاقتصادية فى مجلس الشيوخ، وهى مؤسسة شرعية معترف بها، كانت اختياراته موفقة، كان اختيار المالكين من العائلة لكن الأعضاء المصريين على درجة عالية من الكفاءة والاستكانة، وكانت معايير الاختيار دقيقة حتى يحافظ على حياد الأهرام.

كانت الحياة السياسية المصرية خلطة غريبة تركت الساحة لبروز صحافة أخرى بالتميز والظهور مثل صحيفة الجهاد وصحفيين مثل أبوالفتوح والرافعى والتابعى وتوفيق دياب.

وكانت هناك مدارس جديدة فى الصحافة مسمعة ومكتسحة السوق مثل مدرسة مصطفى وعلى أمين القائمة على الإثارة والخبر الشعبى، ومدرسة التابعى القائمة على جمال أسلوب الصحفى والحكايات وبعض النميمة والإبهار فى مجلة الحمامصى، وكانت المقارنة باستمرار لصالح الصحف المصرية، وكان أصحابها رأسمالية صغيرة، ولكن كانت تعرف قواعد السوق وتتعامل بجرأة.

كانت مدرسة التابعى مدرسة أسلوب وليست مدرسة حركة، لم يهتم كثيرًا بـ«الريبورت» أو التقرير الخبرى، لكنه كان يركز على الروايات والحكايات والدخائل، وهى المدرسة التى طورها الأستاذ مصطفى أمين بعد ذلك وأ ضاف لها النميمة التى تنتشر وتروج وسط الطبقة المتوسطة، وكانت موجودة فى دخائل السلطة حكايات عن النحاس باشا وماذا فعل محمد محمود فى أوروبا.

وقتها كانت أولوياتى أن يخرج الأهرام من دائرة الحذر والإحساس بالاغتراب والحساسية.

فكان على أن أمصر الأهرام وأزيل شبهة الطائفية باختيار مسلمين فى الوظائف الإدارية العليا، وإلى جانب التمصير والأسلمة كنا حريصين على اختيار ناس مسالمين أو على

الأقل لا يعملون مشكلات باستثناء مسلم واحد وهو أحمد الصاوى محمد، وهو أول رئيس تحرير مصرى للأهرام، لم يكن فى جرأة أحمد أبوالفتح مثلا، بل كان إما مسافرًا أو هادئًا وساكنًا وغير مثير للجدل والقلق.

كان لا بد أن أدخل مدرسة الحركة بدلًا من مدرسة التسكين والاستسلام إلى شعارات، منها شعار «إن من لم ينشر نعيه فى الأهرام فكأنه لم يمت».

تساءلت: كيف والملايين التى لا تستطيع الإعلان.. ألم تمت؟

وعلى الوزن نفسه، إن الخبر الذى لم ينشر فى الأهرام كأنه لم يحدث، بأن هذا كلام فارغ.

أسست مدرسة الحركة فى الأهرام، وكانت نواتها مجموعة من أوائل قسم الصحافة منهم مكرم محمد أحمد وآمال بكير ومحمد باشا وفهمى هويدى وسامى متولى وماهر الدهبى وسمير صبحى وحسنى جندى، أو من الشباب الواعد فى صحف وأماكن أخرى مثل سناء البيسى وتوفيق بحرى وسلامة أحمد سلامة وإبراهيم نافع ومحمد حقى وأحمد بهجت.

استطاعت الأهرام خلال شهور أن تحتكر صناعة الخبر الحقيقى، أن تنفرد وتفرض أسلوبها فى الوصول إلى عمق الحدث وصناعته أحيانا، وتحديد نوعية الخبر الذى يستحق النشر البعيد عن الإثارة والتهويل والنميمة، وانطلاقًا من قاعدة «لا رأى إلا على قاعدة خبر» امتازت مدرسة الأهرام بالمقال التحليلى والتفسيرى الذى يتناول بالشرح والتحليل والتفسير أخبار القضايا القومية الكبرى.

4

استطعنا بعد عام ونصف فقط إنهاء الخسائر وتحقيق أرباح لا بأس بها، خاصة بعد أن نجحنا فى إصدار قانون تنظيم الصحافة وليس تأميم الصحافة، الذى يمنح العمال بشكل مباشر نصف أرباح المؤسسة، أما النصف الآخر فيتم

تخصيصه لعملية الإحلال والتجديد فى المطابع وغيرها من مستلزمات الإنتاج، وقد استطاع هذا القانون أن يحدد علاقة المؤسسات الصحفية بمؤسسات الدولة المختلفة والتى يفصل بيننا وبينها الدستور، وكانت مؤسسة الأخبار معنا فى هذا الإطار، وقد خرج هذا القانون بالأساس من جريدة الأهرام.

بعد أن توليت مسئولية رئاسة التحرير بالأهرام استقامت ظرروفها المالية وأصبحت حريصة على أداء دور فاعل فى المنظومة المصرية كلها، وقد حرصنا طوال الوقت أنا ومن معى على أن نكون جريدة من طراز مختلف، وقد حرصت على التأكيد بأننا جريدة مهمتنا الأساسية هى نشر الأخبار وتحليلها والتعليق عليها.

استطعنا تحقيق سمعة إخبارية جيدة للأهرام، مما أدى إلى وجود استقلالية مالية وربحية قابلة للاتساع، وطوال الوقت لم تغفل الأهرام البعد الثقافى، ولذلك كنت حريصًا على انضمام توفيق الحكيم إلى أسرة الأهرام، على أن يتقاضى راتبًا مثل راتبى تمامًا مقابل الجلوس مع الشباب كل يوم، وكل ما يكتبه بعد ذلك يتقاضى عليه أجرًا جديدًا، ولذلك فقد كان الحكيم يحصل على ضعف أو ضعفىّ قيمة راتبى كل سنة.

كنت أبحث عن ثقافة شعب، وعليه فلا بد أن تكون جميع تياراته موجودة.

البعد الإسلامى كانت تمثله الدكتورة عائشة عبدالرحمن بنت الشاطئ.

وتوفيق الحكيم كان يمثل فكرًا آخر هو الوسطية.

ويوسف إدريس متأثر جدًا بالأدب الإسبانى.

وعبدالرحمن الشرقاوى يمثل اليسار.

وهكذا فإن هذه المجموعة من كبار المفكرين والأدباء تمثل

تكامل الثقافة المصرية، وتمثل الانفتاح والاحتكاك بكل ثقافات العالم الأخرى، من خلال التواصل مع كل المدارس الأدبية والفكرية، وهذا التواصل مع الآخر هو ما كنا فى أشد الاحتياج إليه.

5

فى اجتماعى الأول مع أسرة تحرير الأهرام، قلت لهم بوضوح إننى أعلم أن بعض الجالسين معنا إما على اتصال بالاتحاد القومى أو بالمباحث أو بالمخابرات، وأنا أرى مندوبين للأهرام فى هذه الجهات وليس العكس، ولذلك فأمام هؤلاء مهلة لمدة شهر لقطع صلاتهم بهذه الجهات، وإلا فعليهم قطع صلتهم بالأهرام.

وأذكر أن محافظ القاهرة القوى سعد زايد أهان محرر الأهرام فؤاد سعد فى اجتماع عام، فقررت مقاطعة أخبار المحافظ حتى يعتذر للمحرر فى نفس الاجتماع.

ورغم شكوى سعد زايد للجهات العليا فإننى صممت على موقفى، وفى النهاية اعتذر محافظ القاهرة لمحرر الأهرام.

6

من أكثر الأشياء التى أعتز بإنجازها خلال فترة رئاستى لتحرير الأهرام، تلك المجموعة المتميزة من اللوحات الفنية، ولم يقتصر دورنا على مجرد الاقتناء، ولكن كنا نشجع وندعم الفنانين المبدعين.

فمثلا الخزاف الشهير محيى الدين حسين عينته فى الأهرام وأعطيته تفرغًا، ليس من أجل تحرير الأهرام أو تقديم ورق مكتوب، ولكن من أجل أن يخرج «شعاع ضوء» فى سماء الفن والإبداع، فيجب أن ينطلق ضوء كاف خلف كل كلمة، فالكلمات ليست مجرد حبر على ورق، فالكلمة بشكل أو بآخر يجب أن تكون شعاعًا ينير الطريق أمام الناس، فأنت عندما تدخل الأهرام وتصافح عيناك تلك اللوحات الجميلة، فهذا شىء يسعدك بكل تأكيد.

قلب الاتحاد الاشتراكى الدنيا بسبب هذه اللوحات وما يدفعه الأهرام من أجل شرائها، فذهبت إليهم وهاجمتهم وقلت لهم عليكم أن تغضبوا إذا كنتم تدفعون ثمن هذه اللوحات، ولكن الأهرام جورنال يستطيع أن يغطى مصاريفه وحتى شطحاته، فإذا طلبنا منكم المساعدة فمن حقكم الاعتراض.

وقلت لهم: لقد صنعنا جريدة ناجحة ومعبرة عن الناس، وهذا ما نستطيع أن نؤديه تجاه بلدنا، ولا توجد لكم سلطة علينا، خاصة وأنكم لا تقومون بتمويلنا، وليس فى مقدور الدولة أو الاتحاد الاشتراكى الادعاء بتمويل هذه اللوحات، والتى اشتريناها من أموال الأهرام، وهذه اللوحات الموجودة فى الأهرام تمثل واحدًا من أصوله حيث تساوى عشرات الملايين من الجنيهات.

7

بعد أن قامت الثورة كان جمال عبدالناصر على علاقة بعدد كبير من الصحفيين، وفى النهاية وبالاختيار الحر وعن طريق الممارسة ازددت قربًا منه، وهذا أمر أعتز به، إذن عبدالناصر لم يخصنى بوضع استثنائى إنما ألقى علىّ مسئولية استثنائية، ولقد فعل ذلك إحساسًا منه بأننى أؤدى دورًا فى نظامه.

وأنا تبعًا لذلك لم أحصل على امتيازات على الصعيد المادى.

كنت مقيدًا أيام عبدالناصر وإلى حين تركت الأهرام بالحد الأعلى للمرتبات فى مصر وهو خمسة آلاف جنيه سنويًا من دون أى زيادة.

وعندما بنينا الأهرام لم نلجأ إطلاقًا إلى الدولة لكى نعامل معاملة خاصة أو نستثنى من قانون البناء، وبنينا الأهرام فى ظل قانون الشركات المساهمة المصرى، وكان رأيى أننا بهذه الطريقة نقدم نموذجًا جديدًا فى إدارة المال العام، والأهرام لم تكن ملكى لكننى كنت أنظر إليها على أنها مسئوليتى فى

العمل العام وأعطيها كل جهدى، وكان قصدى من ذلك معالجة الخلل الناشئ فى مفهوم الملكية الاجتماعية.

كنت أعتبر أن الأهرام يجب أن تكون نموذجًا فى كل شىء بما فى ذلك الإدارة العلمية، وقد أعجب عبدالناصر بذلك متمنيًا لو كانت مؤسسات الدولة كلها تدار بالطريقة التى تدار بها الأهرام، وبعدما زار عبدالناصر المبنى كان يتحدث فى كل مكان عن الأهرام، فى مجلس الوزراء تحدث مرات كثيرة، وكان يقول إنه سعيد جدًا لأن مشروعًا نجح فى مصر وأنه يتمنى أن تنجح كل المؤسسات كما نجحت الأهرام.

عبدالناصر زار الأهرام مرة واحدة فقط، جاء ليشاهد هذه التجربة بعدما لاحظ أن معظم صحف العالم كتبت عنها باهتمام، طلب أن يزور الأهرام وأنا مع كل فرد من أسرة الدار كنا فى غاية السعادة والاعتزاز بهذه الزيارة.

8

قصدت ألا يفتتح جمال عبدالناصر مبنى الأهرام الجديد، لأنه فى البداية والنهاية ليس مشروعًا من مشروعات الدولة، والدولة لم تدخل فيه ولم تدفع له مليمًا واحدًا، ولهذا جاء جمال إلى الأهرام زائرًا، وكانت هذه الزيارة بناء على طلبه، وكان سبب طلبه أنه سمع كثيرًا عن الأهرام، وكنا قد أصدرنا ملحق الأهرام الجديد، وأصبحت عنده رغبة فى الحضور لرؤية الأشياء التى سمع عنها عن قرب.

كان الرئيس عبدالناصر يعرف ويدرك أننى لم أطلب منه أى امتياز للأهرام، كان يعرف أن موارد الأهرام من النقد الأجنبى هى التى تستعمل فى سد مطالبه من النقد الأجنبى، لم نطلب أية مبالغ مالية من وزارة الاقتصاد، ولم نطلب من أى جهة أخرى فى مصر.

قال لى الرئيس: مش حاتعزمنى أشوف الأهرام؟

جاء جمال عبدالناصر إلى الأهرام، رتبنا أن يمر على كل الناس حيث هم، بمعنى أن يدخل صالة التحرير والمحررون

يعملون فيها لحظة دخوله، يعملون بصورة طبيعية، وكنا حريصين على أن يرى الكفاءة وطريقة سير العمل.

فى هذا اليوم طلبت من الأستاذ أحمد بهجت، وهو كاتب لديه حس قوى بالتاريخ، أن يمشى معنا، ويغطى الزيارة بالقلم، وكان هناك مصورون أيضًا طوال الوقت.

عبدالناصر جاء إلينا فى حوالى الساعة السابعة مساء، وخرج فى حوالى الساعة الحادية عشرة، وعندما خرج فى الحادية عشرة كانت معه الطبعة الأولى من الأهرام وصورة الزيارة فى الصفحة الأولى، وكان سعيدًا بهذا جدًا.

لم تكن هناك إجراءات أمنية خاصة، الأهرام كان هو المسئول عن الأمن فى هذا اليوم، ومن الذى يحضر ومن الذى لا يحضر، ومن الذى يتكلم مع الرئيس، لأننا لو سمحنا بدخول الأمن كانت الزيارة فقدت الكثير من تلقائيتها ودلالاتها ورمزيتها، ثم إنه لم يكن فى «مصر عبدالناصر» أمن بالطريقة التى اتبعت بعد ذلك.

كنت فى انتظاره أمام باب الأهرام، ودخل عبدالناصر ومعه أنور السادات ومحمد أحمد ومحمود فهيم وهؤلاء لم يكملوا الجولة حتى النهاية.

طلعنا مكتبى أولًا، شرحت له تفاصيل ووقائع الزيارة.

ما كان يهمنى فى هذه الزيارة هو رغبتى فى أن يرى الأهرام فى حالة عمل، ومعنى هذا أن تكون كل الناس فى الأهرام فى مواقعها، لم يكن فى الأمر أى استعراض، ولكن عملية تحقيق لصورة الأهرام الذهنية عند الرئيس، وبالتالى كل الناس كانت فى أماكنها، لم يكن هناك عامل يتحرك فى غير مكانه، كل واحد فى مكان عمله لأنه يؤدى هذا العمل، كأن الأهرام لا يوجد به الرئيس فى ذلك اليوم، وينصرف عن عمله فى حالة واحدة فقط، أن يخاطبه الرئيس بصورة مباشرة.

كنا نمشى هكذا، كان هو يمشى ومعه أنور السادات، وكنت معهما ومحمد يوسف وحسن دياب فى الأمام، ومعنا أحمد

بهجت، وأعتقد أن محمد أحمد كان يمشى خلفنا، كان عبدالناصر مهتمًا بالسؤال والمعرفة المباشرة التى يحصل عليها بنفسه من الآخرين، أعتقد أنه قضى وقتًا جيدًا وجميلًا فى الأهرام.

فى هذا اليوم كان للرئيس أكثر من لقاء فى الأهرام.

التقى مع هيئة التحرير ومع الباحثين والمحررين والكتاب فى مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، ومع المسئولين عن نقابة العاملين فى الأهرام، وأعضاء نقابة الصحفيين بالأهرام أو ربما البعض منهم ووحدة الاتحاد الاشتراكى العربى.

كانت اللقاءات موزعة أثناء خروجه من الأهرام، ولكن من المؤكد أن هيئة تحرير الأهرام ومركز الدراسات السياسية والاستراتيجية والكتاب والأدباء والمثقفين، كانت هذه اللقاءات الثلاثة هى أطول اللقاءات التى استغرق فيها أطول وقت قضاه فى الأهرام.

فى صالة التحرير وقف واهتم ونظر ورأى.

وفى المطبعة توقف وسأل.

لكن المناطق الثلاث التى توقف عندها بالأهرام كانت هيئة تحرير الأهرام، ومركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، والقسم الأدبى بالدور السادس.

عندما دخلنا معه إلى القسم الأدبى كانوا كلهم موجودين، وكانوا وقوفًا، توفيق الحكيم، حسين فوزى، نجيب محفوظ، لويس عوض، عائشة عبدالرحمن.

قلت لعبدالناصر: فى هذه القاعة ستجد كل المدارس الفكرية وكافة الاتجاهات، ستجد حسين فوزى الذى يقول بحضارة الشمال الأوروبى، ويناشد المصريين الإبحار والاتجاه شمالًا، وستجد توفيق الحكيم الذى يقول بحضارة البحر الأبيض المتوسط، وستجد عائشة عبدالرحمن التى تقول

بالتوجه الإسلامى، وستجد من يقولون بالماركسية، ومن يقول مصر المملوكية مثل نجيب محفوظ، لويس عوض يقول الغرب، غرب عصر النهضة، وتوفيق الحكيم يقول أوروبا.

كنت أعرف أن توفيق الحكيم يرتبك عند الكلام فى حضور جمع من الناس، فما بالك إن كان الكلام فى حضور الرئيس جمال عبدالناصر، أعطيت الكلمة لحسين فوزى حتى يكون أول المتكلمين فى حضور عبدالناصر، وحسين فوزى اختار أن يعقب على كلامى.

قال: سيادة الرئيس، الأستاذ هيكل قال إننى أقول أوروبا، وهذا صحيح، واتجاه مصر كان دائمًا إلى الشمال، وعلى القيادة السياسية أن تحدد هل هو شمال غرب أم شمال شرق؟

قلت لعبدالناصر: الدكتور حسين فوزى يحاول أن يكون دبلوماسيًا.

وقلت لحسين فوزى: قل بوضوح إنك تتكلم عن غرب أوروبا.

لكن حسين فوزى قال لى: وشرقها، وضرب مثلًا ببطرس الأكبر، قال إنه ذهب إلى الغرب، أى أن شرق أوروبا اتجه إلى غربها، وكان حسين فوزى يقصد الكلام بالتلميح دون التصريح- أى من غير أن يسمى الأشياء بأسمائها- عن علاقات مصر بالاتحاد السوفيتى، كما كانت فى ذلك الوقت.

ثم بدأ توفيق الحكيم يتكلم، قال كلامًا عامًا عن حياة الناس فى مصر وعن المعركة واحتمالاتها، وبيان 30 مارس الذى كان قد خرج قبل ذلك بقليل، وجاء كلام توفيق الحكيم عامًا فى هذا الإطار.

9

كثيرون كانوا يتصورون أن الأفكار التى تتضمنها مقالاتى أو

الأخبار والتحليلات التى كانت تنشر فى الأهرام كنت أحصل عليها من عبدالناصر، وهذا لم يحدث أبدًا.

وكان كثيرون يتصورون أن التقارير التى تصل إلى عبدالناصر أطلع عليها، ومنها أنتقى الأفكار والمعلومات لأضمنها مقالاتى.

وأنا اطلعت بالفعل على مئات التقارير التى كانت تصل إلى عبدالناصر، ومنها تقارير سفرائنا فى الخارج ولم أجد فيها سوى أن الأداء البيروقراطى الموجود على السطح هو الأداء البيروقراطى الموجود فى الداخل.

كنت أرى عبدالناصر باستمرار وأتناقش معه باستمرار، وكنت أعيش فى وسط الأحداث، ولا أنتظر من يعطينى الخبر أو المعلومة، لقد عايشت أحداث التجربة المصرية ساعة بساعة كطرف فى الحوار الدائر فيها، ولم أكن أمد يدى إلى جيب عبدالناصر لآخذ منه الخبر أو أنتظر منه أن يتصل بى هاتفيًا ليقول لى أنه سيخص الأهرام بخبر كبير.

كنت دائمًا إلى جانب عبدالناصر، نتعامل من دون وساوس، ولا أنتظر نبأ يتعلق بقضية ما لأننى كنت طرف حوار فى هذه القضية، وإذا كان يحدث أن عبدالناصر يطرح فكرة أكون ضمنتها مقالة لى أو شعارًا أطلقته فيها فهذا معناه أن عبدالناصر اقتنع بضرورة طرح الفكرة أو إطلاق الشعار.

وكان كثيرون يتضايقون، وكان بعضهم يقول ما معناه لماذا لم يعطنا عبدالناصر الفكرة الفلانية وخص هيكل لتظهر فى مقالته؟

إننى كنت صادقًا معه، وكان واثقًا بى متقبلًا ما أكتب وأنشر.

وكانت حالات التوتر بيننا مظهر عافية لهذه العلاقة بين قائد تاريخى وكاتب شاءت له الظروف أن يكون قريبًا منه.

لنكن أكثر دقة وصراحة، فأنا لم أكن أفصل، بمعنى أننى

كنت أكتب عما أتكلم حوله مع عبدالناصر، وحدث كثيرًا أننا تناقشنا ساعات فى قضايا وآراء كان بيننا فيها اتفاق على ألّا أتناولها فى مقالاتى أبدًا، ومع ذلك كان هناك كثيرون يفترضون أننى أذهب إلى عبدالناصر يوم الخميس لآخذ منه أفكار مقالى ليوم الجمعة، وهذا التصور سبب لى إحراجًا فى مرات كثيرة، لكننى أجزم بأن الاتفاق الذى كان بيننا أن يكون نقاشنا وتبادل الآراء بيننا بمعزل عن المقالات، وكان هذا الاتفاق ينفذ بدقة، والمرات التى تحدثنا فيها عن مقالاتى كانت قليلة جدًا.

فى العادة لم يكن يجرى اتصال بيننا يوم الجمعة، وأقضى هذا اليوم مع عائلتى فى برقاش، ولكنه عندما يتصل بى يوم الجمعة يكون معنى ذلك أن هناك أزمة.

مثلًا فوجئت يومًا فى السابعة مساء يوم جمعة بالرئيس عبدالناصر يتصل بى، وفى ذلك الوقت كانت مقالاتى حول التغيير، وفيها كتبت بشىء من الدقة ما معناه إذا لم يستطع النظام أن يغير فلا بد أن يتغير، ومن نبرة صوته شعرت أنه يريد أن يقول لى أمرًا ما.

قال: هل تريد رأيى فى مقالتك حول التغيير؟

أجبته: بالطبع.

قال: المقالة مكتوبة بأسلوب غسان توينى فى مواجهة شارل حلو، لكننى لست شارل حلو وآمل ألا تكون غسان توينى.

وفى غير ذلك لم أشعر أن عبدالناصر يضيق بما نكتب أنا وغيرى فى الأهرام، لأننا نكتب من موقع الحرص على الثورة.

10

كنت أعرف دورى جيدًا فى الأهرام .

لقد حاولت أن أجعل من الأهرام مرآة لعصرها وزمانها

وعالمها، وملتقى لأفكار كثيرة مهما كانت متعارضة، كان هدفى أن أخلق مناخًا، كنت أفكر فيما يحدث فى الخارج، فإن ما يميز صحيفة عن صحيفة هو الروح، الفارق بين التايمز والديلى تليجراف فى الصحف البريطانية أو الفارق بين واشنطن بوست ونيويورك تايمز فى الصحف الأمريكية هو الروح.

وعندما تسأل عن مهمة رئيس التحرير فهو المايسترو الذى يضبط الإيقاع، ويترجم الحياة والأخبار والحوادث بتصوره وكيفية تفسيره.

مهمة رئيس التحرير أن يكون المايسترو، وليس بالضرورة أن يكون عازفًا على آلة، مؤلفو الموسيقى الكبار من أمثال بيتهوفن، وهايدن، وشوبان وغيرهم، كل مايسترو يقود فرقته لعزف مقطوعات لهم يختلف عن الآخر فى رؤيته للعمل، مايسترو يختلف عن مايسترو، وبالتالى النص واحد، واللحن واحد، لكن الروح التى يعكسها المايسترو على اللحن تعطيه مذاقًا مختلفًا، ولذلك فإن الفرق بين عصرين فى نفس الجريدة الواحدة، والفرق بين جريديتن فى عصر واحد، هو شخصية رئيس التحرير وطريقته فى العمل التى تنعكس على الجريدة كلها، وفهمه للعصر وللأحداث، والروح التى يعكسها على الجريدة.

والذى كان يحدث عندما كنت أكتب مقالى الأسبوعى «بصراحة» كانت لحظات عزف منفرد على البيانو، ثم أعود إلى مكانى فى الأوركسترا، مع بقية صفحات الجورنال، مع باقى المحررين، وهذه هى النظرة الشمولية، لأنه من غير الصحيح أننى كنت الكاتب الأوحد الذى يكتب الجورنال بمفرده، ويرمق وينظر إليه على أنه الكاتب الأوحد، الذى كان يحدث أننى أكتب مقالًا يوم الجمعة، وكاننى أعزف منفردًا ومع تقليب بقية الصفحات تتداخل كل آلات الأوركسترا ويعود الجورنال كما كان.

كنت فى الأهرام مشغولا بترجمة عصرى وعالمى، وما يجرى فيه وأتوجه إلى قارئ مهتم بمعرفة ما يجرى فى

العالم، وأنا أعتقد أن الخبر هو الأساس فى عمل الصحف فى العصر الحديث، لأن الصحافة فى بدايتها كانت تشمل الأدب والفلسفة، ثم أصبحت مهمة الصحافة الأولى هى الخبر وما يتصل بالخبر، وترجمة الخبر وإيضاح معناه، بشرط أن يكون الخبر صحيحًا، وأن يترجم بتفاصيله وحواشيه وما ينطوى عليه، ثم على الصحيفة أن تقوم بمهمة التفسير والتعليق على الخبر، وهذا ما كنت أفعله فى الأهرام.

11

بعد خروجى من الأهرام طاردنى سؤال عن الجريدة التى صارت باهتة ومهذبة جدًا.

كنت أقول لهم ربما يكون هذا هو السؤال الوحيد الذى لن أجيب عليه، فبينى وبين الأهرام رباط قوى جدًا شئت أم أبيت.

عندما خرجت من الأهرام كنت قد قضيت فيها ما يقرب من 18 سنة، وقتها كانت هذه السنوات تمثل سدس عمر الأهرام، وفى هذه الفترة قمنا فى الأهرام صحافيًا وإعلاميًا ووطنيًا وعربيًا بدور أنا شخصيًا راض عنه وسعيد به، واعتقد أن خروجى من الأهرام أضاف لهذا الدور ولم يأخذ منه، لأنه أثبت أمام كل الناس أنه ليس موضوع تكنولوجيا أو صلات بالسلطة أو موضوع تأثير، لكنه فى النهاية موضوع قناعات.

لذلك أنا أحزن جدًا وأتضايق، إذا تكلم أحد عن الأهرام بما لا يليق، وأتمنى إذا كان هناك من أوجه تقصير أن تتجاوزها الأهرام.

فما يقال عن الأهرام لا يمسنى فقط، إنه أنا.

أرى نفسى فى حجارته كلها.

كل لوحة على جدرانها أنا الذى وضعتها فى مكانها.

كل ماكينة فى كل مكتب مررت بجوارها.

لقد سكنت الأهرام الروح ولم تغادرها أبدًا.

أيامى بعد الأهرام
العبور إلى السماء السابعة
1

كانت لى طوال حياتى فلسفة بسيطة للغاية، وهى أن كل إنسان ميسر لما يقوم به من دور.

أنا أعتقد أنه كان مرسومًا لى أن أؤدى دور الجورنالجى، وأنا أصر على كلمة «جورنالجى» لأنى أشعر برائحة حبر المطبعة فيه وأراه مناسبا لأحلامى، كنت دائمًا أريد أن أكون مجرد مخبر صحفى بالدرجة الأولى.

سعيت إلى تحقيق هذه الفلسفة خلال عملى الصحفى المنتظم عبر مؤسسات صحفية، وخلال عملى الحر من خلال مكتبى الذى حررنى من جدران المؤسسات وأطلقنى محلقًا حتى وصلت إلى السماء السابعة.

صدر قرار إبعادى عن الأهرام وتعيينى مستشارًا لرئيس الجمهورية يوم الجمعة الأول من فبراير سنة 1974، ونشر الخبر صباح يوم السبت 2 فبراير.

فى نفس اليوم قررت أن أذهب إلى الأهرام وأسلم بنفسى كل أمورها إلى الدكتور عبدالقادر حاتم الذى عين رئيسًا لها خلفا لى، وكان ذلك مثار دهشة ولعلها كانت ظاهرة غير مسبوقة وغير ملحوقة أن يذهب مسئول عن عمل أبعد عنه إلى المسئول الذى تلاه، ليقضى معه ساعات طويلة يسلمه فيها كل خيوط المسئولية ويضع تحت تصرفه حقائقها وأدواتها.

تصور كثيرون أننى أتصرف بهذا الانضباط من باب الحرص على إبقاء الصلات وثيقة والأبواب مفتوحة، وهكذا توقعوا أننى سوف أخرج من الأهرام حيث مكتبى القديم لأذهب إلى قصر عابدين حيث أعد لى مكتب جديد، وربما من هنا

أيضًا اتصل بى وزير شئون رئاسة الجمهورية وقتها يخطرنى بعدد حجرات الجناح الذى أعد لى فى عابدين، ويسألنى إذا كنت أرغب فى انتداب أحد من سكرتاريتى الخاصة معى من الأهرام.

فوجئ الرجل الكريم السيد عبدالفتاح عبدالله حينما قلت له إننى لا أنوى الذهاب إلى قصر عابدين وإنما أنا خارج من الأهرام إلى بيتى حتى أعثر على مكتب أعمل منه كصحفى وكاتب مستقل.

ثم تأكد موقفى حين أدليت بتصريح لكل وكالات الأنباء ومندوبى الصحافة العالمية الذين أحاطوا بى يسألوننى تعليقًا على ما حدث، وكان ردى وهو مسجل على أجهزة عشرات الوكالات ومنشور بنصه فى الصفحة الأولى من جريدة التايمز وفيه قلت: إننى استعملت حقى فى التعبير عن آرائى بصراحة، ثم إن الرئيس السادات استعمل سلطته فى إخراجى من الأهرام، وهذا هو كل شىء، وفى كل الأحوال فلقد تركت منصبًا ولم أترك مهنة.

بعد ظهر هذا اليوم جاء إلى بيتى عدد من الأصدقاء المتصلين وقتها بالرئيس السادات وبى، وضمنهم المهندس سيد مرعى والسيد إسماعيل فهمى والسيد أشرف مروان، وكان رأيهم جميعًا أنه من الضرورى أن أنفذ قرار الرئيس وأن أتسلم العمل مستشارًا له فى قصر عابدين، ولم يكن هذا رأيى.

لم تمض غير أسابيع حتى بدأت محاولات إقناعى بالود أن أبتعد عن مصر ولو شهور قليلة، وكان من بين ما طرحوه علىّ فى تلك الأيام منصب السفير المصرى فى لندن، وقال لى الشخص الذى حاول إقناعى بالقبول حرصًا فى ذلك الوقت- كما أظن- وكرمًا إن العلاقات بينى وبين الرئيس السادات عائدة إلى مجاريها فى يوم من الأيام، والمشكلة هى عنادى وأننى أضع رأسى برأسه.

حاولت أن أشرح بصدق أن اقتناعى برأيى فى قضايا مصير

مثل فك الارتباط مع إسرائيل والتحرك نحو صلح منفرد معها لا يمكن أن يكون عنادًا وإنما قُصَارُه أن يكون موقفًا تؤكد الحوادث صحته أو خطأه.

فإذا ثبتت صحته فقد قلت كلمتى وإذا كان خاطئًا فالتبعة على وحدى، وفى كل الأحوال فإننى أفضل أن أقول رأيى حتى ولو ثبت خطأه، على أن أساير كل قرار يصدر عن السلطة بصرف النظر عن اقتناعى أو عدم اقتناعى به.

وأما أننى أضع رأسى برأس الرئيس، فهذا تجن على الحقيقة، فأنا رجل طوَّف بالدنيا وبالحياة طولًا وعرضًا، وهذا وحده كاف ليظهر أمام كل ذى عينين أن هناك حدودًا لا بد من احترامها، وإن كان لا بد أن أقول إن رؤية الحدود واحترامها ليس معناه الوقوف أمامها بالعجز أو الخضوع لها بالتسليم.

وقيل لى والقائل لطيف ورقيق إن الرئيس يعتقد أننى أريد أن أفرض عليه آرائى.

وقلت إننى لا أعرف كيف يستطيع صحفى لا يملك غير قلمه وما يستطيع هذا القلم أن يقنع به أن يفرض رأيًا على رئيس الدولة، إن القلم ليس جيشًا ولا بوليسًا ولا حزبًا ولا تنظيمًا حتى يستطيع أن يزعم رئيس دولة على أن يقبل كرها بما لم يكن مستعدًا للقبول به طوعا.

تمسك القائل بفكرة سفارة لندن موجهًا كلامه لى: لك فى العاصمة البريطانية أصدقاء كثيرون، والناشرون الدوليون لكتبك هناك، ثم إن لندن عاصمة حافلة وحية وتستطيع أن تختار معك وزيرًا مفوضًا يحمل عنك عبء الأعمال الرسمية والاستقبالات والذهاب إلى المطارات.

وأتذكر أننى قلت: إننى مضطر للدفاع عن تمثيلنا فى لندن، سفارتنا لدى بلاط سان جيمس، لقد أصبحنا نعامل هذا البلاط بطريقة لا تليق، أصبحنا نرسل إليه سفراء من رجال وضعناهم فى منطقة الظلال بين الرضا والغضب، أعنى هؤلاء الذين انقلب الأمير عليهم لكنه لا يريدهم أن ينقلبوا عليه.

كانت المحاولة لإبعادى عن مصر فى ذلك الوقت ودية، بل وأظن أن الباعث إليها كان حرصًا وتعاطفًا، لكن كان هناك آخرون فى ذلك الوقت وجدوها فرصة، وكان بينهم من حاول بوسائل متعددة، منها التخويف، أن يقنعنى بالخروج، ولم تجد الوسائل كلها، ولعلى أقول إننى لم أخرج ليس عن شجاعة بقدر ما كان عن تمسك بالحياة لأننى كنت أعتقد ولا أزال أن حياتى هنا.

2

كان الموقف واضحًا بالنسبة لى.

لقد اختلفت مع السياسة الرسمية للحكومة المصرية بعد حرب أكتوبر، وكان اختلافى بالتحديد فى موضوع فك الارتباط الأول الذى وجدته من وجهة نظرى مؤديًا بالحركة الذاتية للمواقف إلى صلح منفرد مع إسرائيل.

كذلك كان اختلافى مع مجمل توجهات سياسة مصر العربية والخارجية، بما فيها الاعتماد الكامل على الولايات المتحدة الأمريكية.

وإلى جانب ذلك فقد كنت واثقًا أن هذه التوجهات جميعًا سوف تكون لها على نحو أو آخر تأثيراتها على السياسة الداخلية فى مصر.

وأبديت آرائى وأسباب خلافى بصراحة فيما كتبته فى الأهرام وقتها وجمعته بعد ذلك فى كتاب تحت عنوان «عند مفترق الطرق».

كان مفترق الطرق فعلًا.

فقد تركت مكانى فى رئاسة تحرير الأهرام ولم أقبل منصبًا آخر مما عرض على وقتها، مؤمنًا بأننى لا أستطيع أن ألتزم بمسئولية خارج قناعاتى، ولم أغير موقفى من يومها وإلى الآن.

وفى الوقت الذى اتخذت فيه هذا الموقف فقد كنت أعى مقدمًا ومسبقًا أن المشاكل تنتظر على أول ناصية على الطريق، ذلك أننى بحكم الواقع العملى والإنسانى لست موظفًا استغنى بنفسه أو استغنوا هم عنه فإذا ابتعد أو أبعد فظلال التقاعد مكانه والصمت نفسه صوته، وإنما أنا صحفى وجوده فى الكلمة ودوره فى الحرف مكتوبًا أو مسموعًا.

ولقد قلت ذلك بالضبط فى لقاء مع الرئيس الراحل أنور السادات فى شهر نوفمبر 1974 بعد عشرة شهور، قلت له بالحرف الواحد: إننى أطلب سعة صدرك فأنا لن أتقاعد عن الكتابة والكلام، خصوصًا وأن هناك فى الموضوع قضية.

وقلت: إننى لزمت الصمت منذ تركت الأهرام لأنى كنت مشغولا بالانتهاء من كتابى «الطريق إلى رمضان» ولكنى بعده سوف أعود إلى التعرض للشئون الجارية، وسوف أبدى رأيى فيها فى صحف خارج مصر تريد أن تنشر ما أكتب، ومناى ألا يتسبب ذلك فى صدام لا سمح الله أو صراع، مع العلم بأننى فيما سوف أكتبه سأظل ملتزمًا بالموضوعية وبما أراه من منظورى الخاص محققًا للصالح العام للأمة.

وأشهد على أن رده علىّ فى ذلك اللقاء كان وديًا فقد قال لى: هذا حقك وأنا لا أعترض حق أحد.

لكن الأمور تطورت لسوء الحظ بعد ذلك على غير ما أبدى وعلى غير ما قصدت.

رحت بعد لقائنا أكتب وأتحدث من مصر.

كنت أعتبر أن هذه شهادة للنظام.

من ناحية فهذا هو معارض لسياساته يبدى رأيه من داخل سلطته، وكنت فخورًا بذلك معيدًا ومزيدًا فى ذلك الوقت بأن هذه الظاهرة الحضارية لا يمكن أن تحدث فى العالم العربى إلا فى مصر.

ومن ناحية أخرى فقد ظللت على اعتقادى بأن بقائى فى

مصر وتحت سلطة نظامها يعطى مصداقية لما أقول كتابة وكلامًا- فالقول لا بد أن يكون مسئولًا لأنه ليس فقط فى ظل القانون وإنما أيضًا فى مطال السلطة.

وربما من ناحية ثالثة فقد تصورت أن قولًا يصدر من مصر ومن منطلق قومى وخلافا مع سياسة ضيقت على نفسها، ولا أقول الآن أكثر، يمكن أن يصلح كرسالة موجهة إلى العالم العربى بأن مصر كلها لم تتغير ولم تنقلب بين يوم وليلة من النقيض إلى النقيض، وظننت وليس كل الظن إثما أن ذلك قد يكون نافعًا.

وحين توالت الشواهد على الغضب مما أكتب وأقول ولاحت بوادر فى حملات تشهير منظمة واسعة النطاق، فإن فكرة الخروج من مصر ظلت بعيدة عن خواطرى كما كانت منذ أول لحظة، فأنا لا أحب وضع اللاجئ السياسى وبالذات الصحفى لأنه إذا ابتعد عن جذوره وعن مناخه الطبيعى انتقل من عالم الحقائق إلى عالم الأوهام، ومن دنيا الناس إلى دنيا الأشباح، وذبلت الأفكار فى رأسه كما تذبل الزهور حتى وإن وضعت فى أوان من الذهب.

وهكذا فإنه عندما منعنى المدعى الاشتراكى من السفر- 1978- وجدنى فى مصر.

وحينما أراد سحب جواز سفرى وجده فى درج مكتبى.

وحتى حين أرادوا اعتقالى بعد ذلك فى سبتمبر 1981 لم يذهبوا إلى أبعد من الإسكندرية لكى يجدونى على شواطئها، ومن هناك نقلت إلى السجن.

خلال هذا كله- الحملات وتحقيق المدعى الاشتراكى والسجن- فلقد كان الاتهام الموجه إلى وبدون تفاصيل أو أسانيد هو أننى بما كتبت وقلت خارج مصر أسأت إليها ولهذا وجب الحساب والعقاب، ولقد تم الثانى ولم يسبقه الأول، أى حل العقاب ولم يقع الحساب.

شاءت المقادير أن يختصر العقاب قبل أن يأخذ مداه

ويستوفى ما كان مكلفًا به، وانقضى عصر واختلف جو وتغيرت آفاق، وطوال الوقت فقد كان مناى أن ينشر فى مصر شىء مما قيل إننى أسأت به إلى سمعتها لكى يحكم الناس، ومع ذلك فلم يخطر ببالى على الفور وقتها أن أبادر بتصحيح أو توضيح، فقد ظننت أن الأيام كفيلة بأن تضع كل أمر فى نصابه وترد كل حق إلى موضعه.

3

الرد على كل ما وجهوه لى كان وراء فكرة كتاب «أحاديث فى العاصفة» الذى صدر بعد ذلك فى العام 1987.

استمعت لفكرة وفكرت ورحبت أملًا أن تملأ ثغرة وأن تستكمل السجل كما قلت، وكان ما كتبته أو نشرته فى فترة الحظر علىّ من مصر يندرج تحت عدة بنود:

الأول: بند الكتب الكاملة التى نشرتها باللغة الإنجليزية وترجمت عنها إلى عشرات اللغات بينها العربية، ومن نماذجها مثلًا «وثائق القاهرة، الطريق إلى رمضان، القوميسار وأبوالهول، عودة آية الله، خريف الغضب، ملفات السويس»، وهذه موجودة مطبوعة ومنشورة.

الثانى: بند المقالات المكتوبة بلغات أجنبية والتى نشرت فى صحف مثل التايمز والصنداى تايمز والنيويورك تايمز وغيرها، وهذه تحتاج إلى ترجمة للغة العربية قد تسنح لها فرصة ذات يوم.

الثالث: بند المحاضرات فى جامعات عالمية مثل جامعة أكسفورد أو محافل دولية مثل اليونسكو، وهذه أيضًا تحتاج إلى ترجمة للغة العربية عليها أن تنتظر دورها.

الرابع: كانت هناك الأحاديث الصحفية التى أدليت بها خارج مصر، وبالذات صحف العالم العربى على أراضيه نفسها وفى مهاجره البعيدة.

4

كانت الروح التى تحكمنى أننى لست مجرد صحفى يجرى وراء الأخبار، بل أنا أشارك فى صناعة الأخبار، ولذلك فبعد خروجى من الأهرام قررت ألا يبتلعنى الصمت.

فتحت دكانًا صغيرًا وأخرجت للعالم الخارجى بعشرات اللغات مجموعة كتب.

نقلت نفسى من السوق المحلية إلى السوق الدولية.

استطعت أن أثبت أنه من الممكن لكاتب مصرى أن يكتب فى التايمز والنيويورك تايمز والصنداى تايمز.

وأدعى أننى كنت مخلصًا لمهنتى قدر استطاعتى.

5

كان ما قدمته خلال حياتى المهنية واضحًا أمامى.. وكانت الأوضاع الجديدة تستدعى أن أعرف ما قدمت وما أنا مقدم عليه.

عندما بدأت التدريب العملى- مع الدراسة النظرية- فى جريدة الإجيبشيان جازيت قررت إدارة التحرير أن تصرف لكل منا بدل انتقال جنيه واحد كل أسبوع، أى أربعة جنيهات فى الشهر.

وعندما عدت إلى الجازيت بعد الاشتراك فى تغطية معارك العلمين تحول بدل الانتقال الأسبوعى إلى مرتب شهرى مقداره اثنا عشر جنيهًا فى الشهر، ثم زاد إلى ثمانية عشر جنيهًا فى الشهر أوائل 1945.

وعندما التحقت بالعمل فى آخر ساعة مع الأستاذ محمد التابعى كان المرتب الذى تحدد لى خمسة وثلاثين جنيهًا فى الشهر.

وعندما انتقلت من آخر ساعة إلى أخبار اليوم 1946 وقد أصبحت سكرتيرًا لتحريرها تحدد مرتبى بخمسة وأربعين

جنيهًا فى الشهر.

وعندما عملت مراسلا متجولا لأخبار اليوم مسئولا عن تغطية الشرق الأوسط وتقلباته وفيها قضية فلسطين والحروب الأهلية فى إيران والبلقان والانقلابات السورية وعمليات العنف التى غطت وجه المنطقة بالدم عدت لأجد مرتبى مائة جنيه فى الشهر.

وعندما أصبحت رئيسًا لتحرير آخر ساعة أواخر سنة 1951 جرى تعديل مرتبى ليصبح مائتى جنيه فى الشهر مع نسبة فى أرباح المجلة توازى 4% مما يتحقق لها بعملى فيها، وفى مايو 1952 أضيفت إلى عهدتى مهمة إدارة تحرير جريدة أخبار اليوم وأعلن رسميًا عن رئاستى لتحرير آخر ساعة، ووصل مرتبى إلى 360 جنيهًا فى الشهر.

فى نهاية 11 سنة من العمل فى أخبار اليوم استحقت لى مكافأة نهاية خدمة 7442 جنيهًا مصريًا، وعندما عرض على أول عقد لرئاسة تحرير الأهرام سنة 1956- سرى تنفيذه بعد عام- كان العقد بمرتب قدره ستة آلاف جنيه فى السنة تضاف إليها حصة فى أرباحه مقدارها 2.25% إذا استطاع جهدى تعويض خسائر عشر سنوات سابقة.

عندما أعلنت القوانين الاشتراكية وضمنها ربط الحد الأعلى للمرتبات بخمسة آلاف جنيه سنويًا نقص مرتبى ألف جنيه فى السنة، وذابت تلك النسبة المقررة لى فى أرباح الأهرام، وكانت قد بدأت تعطى ما دعانى إلى توظيف حصتى منها فى شراء مجموعة أسهم فى الشركة المالكة للأهرام، لكن قانون تنظيم الصحافة جعل من هذه الأسهم صكوكًا تذكارية- أتاملها بعض المرات وأبتسم.

لمدة خدمة طالت فى الأهرام سبع عشرة سنة كنت أتقاضى خمسة آلاف جنيه مصرى فى السنة تحول إلى حسابى كل شهر فى البنك الأهلى الفرع الرئيسى، بما صافيه 286 جنيهًا و450 مليمًا بعد الاستقطاعات القانونية وضريبة كسب العمل.

كان ذلك المبلغ أجر خمس مسئوليات أقوم بها فى نفس الوقت: رئيس مجلس إدارة، رئيس تحرير، مخبر سياسى موثوق المصادر، كاتب مقال أسبوعى «بصراحة»، وأخيرًا مسئول عن مشروع تجديد الأهرام.

ومن باب استيفاء كشف الحساب الذى وضعته أمامى وقتها، فإن مقالى الأسبوعى «بصراحة» ترتبت على نشره فى الخارج حقوق أضافت إلى دخلى، وكنت قد عهدت إلى وكالة أنباء الشرق الأوسط بعقوده تاركًا لها متابعة التوزيع والتحصيل مقابل نسبة قدرها 20%، ولولا مدخول هذه الحقوق لما تيسر لى التوفيق بين المطالب والضرورات.

لقد ظل مرتبى يقيد لحسابى فى البنك الأهلى لأكثر من سنة بعد أن تركت خدمة الأهرام، ثم توقف التحويل حتى أحلت إلى التقاعد يونيو 1975، بقرار من الرئيس السادات الذى نفد صبره، وكانت تلك نهاية أى حساب لى فى خدمة الأهرام، وقد اعتبرت أن مرتب تلك السنة التى وصلنى أجرها دون عمل مكافأة نهاية الخدمة، وأغلقت دفاتر تلك المرحلة مستريحًا وراضيًا.

6

لم تكن هناك مشكلة مالية أبدًا.

فمن دواعى الحمد والشكر أن خلافى مع الرئيس السادات وما أعقبه تصادف بالتوافق وبالضبط مع مناخ أصبح الشرق الأوسط فيه مناط اهتمام العالم وبؤرة النار فى قلبه، وكذلك التفتت الدنيا ناحية المنطقة تريد أن تعرف وتتابع وتتقصى وتستوعب، وراحت دور النشر فى العواصم الكبرى «لندن وباريس ونيويورك وطوكيو وبرلين وغيرها» تتصل بصحفى ظنت أنه يقدر على عرض الشرق الأوسط أمام قراء سمعوا عنه واطلعوا على أعماله، وينتظرون منه أن يكتب لهم من الداخل وليس من الخارج، وبالعمق وليس بالوصف.

حين اقتربت من مجال النشر الدولى- مبكرًا- لم تكن لدىّ

مشكلة مع الصحافة- يومية أو أسبوعية فذلك ميدان جربت نفسى فيه واخترته وأعرف إلى حد ما دخائله، وأما عالم الكتب فغريب على فى معظمه، ولم يقصر أحد فى تبصيرى، وكان من الناصحين اللورد «مايكل هارتويل» صاحب دار التلجراف، والسير «دنيس هاملتون» رئيس مجلس إدارة التايمز، وكلاهما صديق قديم من دنيا الصحافة، وكلاهما لديه اهتمام بمشروع كتابى الأول عن «ساسة وثوار صنعوا روح الخمسينيات والستينيات»، وكلاهما يعرف أن مشروع كتابى فيه فصول عن السويس وهى وقتها قضية حية نابضة.

لكن كلاهما «هارتويل» و«هاملتون» كان مهتمًا بحقوق النشر الصحفى وحدها، وأما الكتاب فمسألة أخرى فى اختصاص دور نشر لديها خبرة السوق، وبالفعل وصل النص إلى السير «ويليام كولينز» صاحب دار «كولينز»، وبدوره فإن السيد ويليام طلب إلى مدير النشر فى مؤسسته «روبرت كنيتل» أن يقرأه وأن ينسخ من أصله صورًا لثلاثة قراء غيره.

أستاذ متخصص فى الشرق الأوسط من جامعة أكسفورد يراجع التأصيل المعرفى فى النص مع اعتبار اختلاف المرجعيات.

وسفير بريطانى سابق خدم فى المنطقة يراجع السرد ويستوثق من الوقائع مع اعتبار اختلاف المواقف.

وقارئ عادى تقاس عليه ما يسمونه جاذبية القراءة، لأن الكتاب فى النهاية عرض وطلب.

وكان داعى التدقيق أن مشروع كتابى حالة سابقة من نوعها فى الكتب السياسية المنشورة والمعروضة تحت نظر القارئ فى الغرب.

لم أكن على علم بتفاصيل ما جرى للنص، وربما تحرج بعضهم بظن أننى مع تجربة معروفة ورائى لن أقبل بشبه دخول امتحان من أول وجديد، ولم يكن ذلك منطقى ما دمت أقترب من ميدان لم أتعرف إلى قواعده، إلا إذا كنت أريد

أن أعتمد على صداقات ووساطات، وذلك لا ينفع، ومجرد التفكير فيه أذى للنفس قبل الآخرين.

ثم حدث أن مدير النشر فى دار «كولينز»، روبرت كنتيل، اتصل يبلغنى أنهم جاهزون للانطلاق وأنهم واثقون فى الكتاب وشبه متأكدين، وأن الميزانية التقديرية الأولى لنشره وقع رصدها فى إطار خمسة ملايين جنيه إسترلينى، وضمنها حملة إعلانية تتكلف نصف مليون جنيه إسترلينى تسبق النشر وتواكبه.

سألنى كنتيل فجأة إذا كنت مستعدًا لحضور معرض فرانكفورت بعد شهر، لأن دور النشر فى العالم قاطبة تلتقى هناك، وهناك أيضًا تطرح مشروعات الكتب المستعدة لموسم النشر القادم، وهناك فى نهاية المطاف يقبل الناشرون على طلب حقوق كتب يتوقعون رواجها أو يمتنعون.

وأضاف كنتيل ما مؤداه: إذا استطعت أن تعرض كتابك أمام ثلاثة آلاف ناشر وفهموا عنك تكون تلك مسألة أخرى- لنا ولك- ومع إننى عرفت أن ما يهمك هو النشر بالدرجة الأولى، فإن علينا جميعًا أن نسلم أن النشر بيع بصرف النظر عن أى شىء يقوله أى كاتب.

وحضرت معرض فرانكفورت وتحدثت أمام مئات من الناشرين وشاركت فى مناقشات واسعة، وبعد يومين مر على روبرت كنتيل يقول لى أن أكبر دور النشر فى العالم تسابقت على حقوق الكتاب «فلاماريون فى فرنسا- مولدن فى ألمانيا- أساهى فى اليابان- إلى جانب كولينز فى لندن ونيويورك»، وسئلت قبل أن أغادر فرانكفورت إلى أين أريد تحويل نصيبى من مقدم العقود التى جرى الاتفاق عليها فى اليوم الأخير من المعرض، وأجبت- دون تلعثم- إلى الفرع الرئيسى للبنك الأهلى بالقاهرة، وعندما عدت وجدت فى انتظارى جائزة وغرامة.

الجائزة تحويل بمقدار مائة ألف جنيه إسترلينى تمت إضافته إلى حسابى كدفعة مسبقة من حساب مقدم العقود.

والغرامة أن وزير الاقتصاد وقتها الصديق الدكتور حسن عباس زكى طبق علىّ قواعد التعامل بالنقد الأجنبى، وكان ذلك بالطبع قبل أن تهل بركات الانفتاح ويتسع فردوسه الموعود، فقام بتحويل الإسترلينى إلى الجنيه المصرى بسعر سبعة وتسعين قرشًا ونصف قرش مصرى لكل جنيه إسترلينى.

ولم أفتح فمى بكلمة، فقد وجدت عندى فى النهاية أكثر مما توقعت وأوسع مما احتجت.

وهكذا فإنه فى اللحظة التى وقع فيها الحظر على ما أكتب هنا سقطت الحواجز أمامى هناك، وبقيت فى وطنى لم أغادره، لكن كتبى ومقالاتى راحت تنشر بإيقاع متسارع فى عشرات العواصم، أحد عشر كتابا لكبريات دور النشر الدولى، وأكثر من أربعمائة مقال وتحقيق وتقرير إخبارى احتل بعضها الصفحة الأولى فى جرائد بوزن وحجم «الصنداى تايمز" و«التايمز» و«الصنداى تلجراف»،وكانت تلك حقبة حافلة غطت بقية السبعينيات ومطالع الثمانينيات ومعظم التسعينيات.

7

لقد وجدت نفسى مع أوائل السبعينيات وعند منتصف العمر أمام ضرورة الاختيار من جديد، وكأنها نقطة الصفر أعود إليها فى قرار عملى ومستقبلى، ولم يخطر على بالى من قبل أن ذلك الذى واجهته سنوات الصبا الباكر سوف يعود ليفرض نفسه علىّ بعد ثلاثين سنة.

وكان جليًا فى أعماقى أن حقى فى الاختيار محدد، ولا أقول محدودًا، ومجاله بالتأكيد تلك المهنة التى تعلمتها ومارستها ووجدت لنفسى فيها موضعًا وموقعًا، ولم يكن فى أحلامى جناح النسر فى فضائه ولا كان فى حسابه قفص الببغاء وأسلاكه.

كان مستحيلًا بعد ما جرى أن أجد عملًا أو مستقبلًا فى

مؤسسات الصحافة المصرية ولا كنت أريد.

وكان صعبا علىّ- لاعتبارات متداخلة- أن أقبل عرضًا خارج مصر يجىء من العالم العربى، وقد تلقيت بالفعل عروضًا محددة:

أولها: من دولة خليجية كريمة سألتنى إذا كنت مستعدًا لقبول منصب مستشارًا فوق العادة للأمير، وشكرت عارفًا بالجميل.

وثانيها: عرضًا من مجلس قيادة الثورة الليبى حمله إلىّ أحد أعضائه البارزين، الرائد عبدالسلام جلود، «نائب رئيسه وقتها»، والاقتراح أن أقوم على إنشاء مشروع صحفى كبير فى بيروت يتوافر له كل ما أطلبه من موارد وأديره بأقصى قدر أتمناه من الحرية، ومرة أخرى شكرت عارفًا بالجميل، ولم يكن فى موقفى شىء من البطر أو التكبر.

كان فى حسابى اعتباران:

الأول: أننى بعد علاقة من نوع خاص مع جمال عبدالناصر ودور بلغ درجة معينة فى الأهرام، لا أملك غير أن أكون صارمًا مع نفسى مهما يكن (دون أن يكون ذلك جناح نسر).

الثانى: أننى لا أستطيع نفسيًا أو فكريًا أن أؤقلم نفسى مع حياة أو عمل أو قبر خارج وطنى الصغير، كما أن دور اللاجئ السياسى لا يستهوينى.

لأنه مهما تصلح النية ويستقيم القصد- اعتماد طرف على طرف آخر- فى وضع غير متكافئ مستشار فى خدمة أمير، أو صحفى فى خدمة دولة (ذلك قفص الببغاء أردت أو لم أرد).

وفى الحقيقة فقد كانت تصوراتى تحوم هناك عبر البحر فى اتجاه الشمال حيث الصحافة الأوروبية، وبالذات الإنجليزية، فقد كان هناك قارئ سبق له الاطلاع على كثير مما نقلته وكالات الأنباء مما كتبت، أو تحقيقات عديدة عن دور أقوم به فى السياسة العربية، أو حوارات أجريتها مع كثيرين فى زمن

كان يوصف بأنه عصر العمالقة.

ومرة أخرى تدخلت المقادير، احتك حجر بحجر ولمعت شرارة.

8

لقد ومض هاجس الانصراف- حتى بدون استئذان- لأول مرة فى خاطرى مساء يوم 28 سبتمبر 1970 فى غرفة نوم جمال عبدالناصر نفسه، وكان ذلك الصديق الكبير أمامى على فراش نومه، وقد تحول فى دقائق إلى فراش موته.

كنا فى غرفة النوم أو الموت سبعة رجال بالعدد من حول جثمان الراحل الكبير الذى تقدم نحوه كبير أطبائه، وسحب الملاءة على وجهه فى حركة بدت وكأنها فعل رمزى يقطع بالنهاية مهما كان العجز عن تصديقها.

وتردد الكلام همسًا فى الغرفة عن الإجراءات والترتيبات لهذه الليلة الحزينة وما بعدها، ولمحت فى عيون البعض تعبيرات أو إشارات توحى- ربما- بنذر غير محددة فى أجواء هذه اللحظة، لكنها بعد مفاجأة الأحزان قد تصبح خطيرة.

ومن الإنصاف أن ما لمحته فى العيون والإيحاءات لم يكن ظاهرًا بوسواس طمع فى إرث سلطة، أو علو موقع، بل لعل العام- أو ما يبدو عامًا- بدا طاغيًا على الخاص- أو ما يبدو خاصا- لأن المنطق الظاهر كان شدة الحرص على الرجل الكبير الراحل، والعزم على تكملة مسيرته كهدف مقدس يتسابق الجميع عليه، ووفاء بأحقية يستشعرها كل منهم، ويرى نفسه أهلًا لها بمسئولية وظيفة أو قرب اتصال، لكن البشر هم البشر، وفى أعماق أنفسهم فإن شدة الحرص والتفكير بأفعال التفضيل تحرض أصحابها وتدفعهم إلى سباق يعتقد كل منهم- فيه- أنه الأجدر والأولى، وهنا موضع الالتباس وربما الاشتباك.

والواقع أن طرفات العيون وإيحاءاتها مما خيل إلىّ أننى لمحته راحت تفصح عن نفسها أكثر، حين نزلنا إلى صالون

بيت جمال عبدالناصر نستكمل كلامنا تاركين الراحل الكبير لأسرته تحيط فراشه، فى وداع أخير.

وفى صالون الدور الأول من البيت انضم إلينا- نحن السبعة الذين وقفنا حوله لحظة النهاية- تسعة أو عشرة رجال على الأكثر، فى يدهم مفاتيح السلطة والقرار فى البلد، واستؤنف الكلام عن الإجراءات والترتيبات وعن غد وبعد غد وما يجرى ويكون، وراحت وساوسى تتنبه، مهمومًا بأن ما أرى وأسمع قد يكون نذير احتكاك قادم حتى وإن حاول البعض تفاديه، أو كبته حتى لا يأخذ وزر الفتنة على نفسه، أو على الأقل كى لا يكون بادئًا بها فى ظرف لا يتحمل المجازفة.

وخطر ببالى أن صداقتى الحميمة لجمال عبدالناصر وحماستى لمبادئ مشروعه مرتبطة على نحو ما بثقة مباشرة فيه، والآن وقد غاب فإن علىّ أن أراجع وبحزم، وبدا لى دون ظل من شك أننى لا أريد أن أكون طرفًا فى صراع، فالسلطة من البداية ليست حلمى ولا من بين مطالبى، ومع احترامى لبعض من أرى حولى وعلاقة ود بينى وبين معظمهم، فإن النقطة الحرجة فى الموقف أن درجة قربى من جمال عبدالناصر لا تسمح بحياد، فضلًا عن أن الحياد قرب مصائر الأوطان هرب أو تهرب.

ومن ناحية أخرى فلم يكن سرًا أيامها أن علاقاتى ببعض أطراف السلطة مشدودة، وخلافاتى مع الاتحاد الاشتراكى وتنظيمه الطليعى متوترة، وحساسيتى من تصرفات أجهزة الأمن والتأمين كما هى فى كل العصور، جزء من التكوين المهنى والنفسى لصحفى يتمنى الحرص على تخوم مهنته، وتلك أمور تترتب عليها نتائج فى أجواء صراع على السلطة، لأن الاستقطاب عندها يكون حادًا وعنيفًا يفرض إما انحيازًا غير مقنع إلى طرف، أو عداء لا مبرر له من طرف آخر، وعليه فأمامى أحد موقفين، إما الانصراف فور تشييع الراحل الكبير إلى مرقده الأخير، وإما الانسياق إلى صراع لا أريده، بوسائل لا أملكها ولا أريد امتلاكها.. ولم أنصرف.

بعد خروجى من المعتقل أواخر نوفمبر 1981 عاودنى

هاجس الاستئذان فى الانصراف مرة أخرى، فتلك نهاية مرحلة تواجدت فيها بالضرورة المهنية والاختيار السياسى، وهى فى الوقت نفسه بداية مرحلة أخرى مختلفة، ثم إننى بالعمر اقتربت من سن الستين وذلك هو التوقيت الطبيعى والقانونى لخروج الناس من الخدمة العاملة.

ثم تذكرت- ولعله هواى- أن اختراقات الطب الحديث فى مجال المضادات الحيوية بالذات، نجحت وأزاحت التوقيت المقرر لنهاية الخدمة إلى الوراء ما بين خمسة أعوام إلى عشرة أعوام، أى أنها مدت أجل الصلاحية للعمل وأفسحت وأضافت.

وربما جاز القول إن تجربتى الطويلة تلك- دراسة لم تنقطع وممارسة لم تتوقف- انقسمت إلى نصفين شبه متساويين كل منهما ثلاثون سنة:

النصف الأول: مرحلة العمل داخل مؤسسات الصحافة المصرية والانتشار منها إلى الإقليم والوصول منه إلى أبعد من حدوده، والداعى أن ما كان يحدث عندنا ملأ صراعات الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين وفاض، وعليه فقد كان الكل يأخذ عنا ويسمع مباشرة منا.

وأما النصف الثانى: فهو فى مرحلة الكتابة والنشر من مكتب مستقل محدود مفتوح فى الوقت نفسه بلا حدود على الدنيا الأوسع باللغة العالمية الممتدة «الإنجليزية» ولجماهيرها عبر القارات، وقد انهمكت فيما أؤديه وظننت- ولعلى لم أخطئ- أن دخول كاتب عربى إلى مجال النشر الدولى صالح شخصى ولعله أيضا إضافة عامة.

وهكذا فإن المرحلتين معًا داخل المؤسسات الصحفية المصرية وخارجها من مكتبى صنعتا دورة كاملة، لأن تلك التجربة- الدراسة والممارسة- لأكثر من ستين سنة مقسومة على نصفين تحولت بشكل ما إلى طريق فى اتجاهين عبر جسر وفوق ضفاف وشطآن.

وفى الحالتين فإن مجمل الظروف أتاح لى، ذهابًا وإيابًا عبر الجسر وحول الضفاف والشطآن، فرصًا نادرة تواصلت من أواخر الحرب العالمية الثانية حتى بلغت نهاية الحرب الباردة، أى أنها غطت النصف الثانى من القرن العشرين، والحاصل أنها منحتنى إمكانية التعرف مباشرة على صناع العالم الحديث، وواضعى الاستراتيجيات العليا من رجال الدولة العظام، وصناع السياسة وقادة الحرب، أعلام الفكر والأدب، وأساطين الصناعة والتكنولوجيا والمال.

9

فى معظم الحوارات التى أجريتها بعد خروجى من السجن كان هناك سؤال واحد يتردد، الكل كان يريد أن يعرف ما الذى سأفعله.

سألتنى مجلة المصور: هل لديك مشروع لإنشاء صحيفة يومية وأين ستكون؟

وأجبت: أنا خارج لعبة الصحافة المصرية فى هذه المرحلة تمامًا، أنا مواطن آثر دائما أن يعيش فى وطنه، لم أبتعد أبدا عن مصر أكثر من شهر واحد فى أى وقت، فقد أصبحت مثل أى فلاح عندما يخرج من أرضه يشعر أنه سيموت ولابد أن يعود إلى الأرض مرة ثانية.

وسألنى مفيد فوزى: هل ستكتب فى الأهرام.. الناس تريد أن ترضى فضولها؟

وأجبته: أهم من فضول الناس، قناعتى بالكتابة، ومرة أخرى لأسباب شخصية وذاتية وعن عفة وليس عن خوف، لا أحب الحديث عن الصحافة المصرية، فما زلت حتى هذه اللحظة- كنت فى العام 1982- خارج حلبتها، وإذا كنت فقدت منصبى الصحفى فأنا لم أفقد بعد هويتى الصحفية.

وأعترف أننى عندما خرجت من الأهرام كنت أتحرق شوقًا لأن أعود للقارئ المصرى، وأرجع للناس ليتفقوا أو يختلفوا معى، يضعوننى على صليب ليلًا وينزلونى منه صباحًا.

عندما تغيرت الظروف فى مصر- أوائل الثمانينات- تلقيت دعوات كريمة إلى الظهور فى الصحافة المصرية وترددت، وإحساسى أن الأزمنة تغيرت كما أننى تغيرت.

وتبدى لى كذلك أن العودة إلى الصحافة المصرية، أو نوعًا منها، محاولة للتكرار لا أتمناها، فالتاريخ- كما تذكر مقولة شهيرة- لا يكرر نفسه، وإذا فعل فهو فى المرة الأولى مشهد محترم أو يمكن أن يكون محترمًا، وأما فى المرة الثانية فهو استعادة هزلية أو يمكن أن تكون هزلية لشىء كان.

وتبدى لى من قبل ومن بعد أننى رجل يحمل على كتفيه بعضًا من حمولات مراحل سبقت وكلها مؤثرة علىّ أردت أو لم أرد.

ومن باب الحق لأصحابه فقد كان الأستاذ مكرم محمد أحمد أول من بادر إلى محاولة لفتح باب نوع من العودة أمامى، وبالفعل كتبت لمجلة المصور مجموعة من ست مقالات عرضت فيها تصورى للممكن والمطلوب فى مرحلة مستجدة، وطلبت من الأستاذ مكرم- عارفًا طبيعته ودقته مقدرًا لالتزامه المهنى وتمسكه- ألا ينفرد فى هذه المقالات الستة بقرار، ورجوته ملحا ومخلصا أن يراجع قبل أن ينشر، وحدث بعد أسبوعين أن مجموعة المقالات الستة التى كتبتها للمصور عادت إلىّ يحملها الدكتور أسامة الباز مصحوبة برسالة شفوية رقيقة تقبلتها برضا واحترام، وملخص الرسالة أن ما كتبته فى المقالات الستة يسبب إحراجًا فى الوقت الحاضر، ثم إن الأمر متروك لى.

كان ردى دون تحفظ أننى آخر من يخطر له إحراج نظام لا يزال يحاول- أوائل سنة 1983- تثبيت أوضاعه واستجماع خطوطه للقيام على مسئولية الوطن فى ظرف دام ومحتقن.

ومرت سنوات ثم زارنى الصديق الأستاذ إبراهيم سعدة بتحفزه الدائم وجسارته الشهيرة طالبًا أن أكتب فى أخبار اليوم، وضعفت أمامه وكتبت مقالين لمست بنفسى ما جرى

بعدهما، وخفت على رئيس تحرير أخبار اليوم وأعفيته من نشر المقال الثالث راجيًا مصرًا من باب القلق عليه.

وأخير توصل الأخ والصديق إبراهيم نافع بهدوء وصبر إلى الصيغة الموفقة، فقد تفاوض مباشرة مع دور النشر التى تصدر عنها كتبى فى لندن وحصل على حقوق الطبعة العربية الأولى لستة كتب توالى ظهورها عن الأهرام، وكان ذلك تلاقيا حتى على الورق بالكلمات، مع أسرة عشت معها أكثر من سبعة عشر عاما ولا تزال عبر السنين عزيزة على وغالية.

ومشت عقارب الساعة حتى وصلت إلى دار الشروق وتتحمل مسئولية ما أكتب وتضعه بانتظام بين أغلفة كتب تصل إلى قارئها كما يصح أن يصل الكتاب.

ولم أكن أتمنى أكثر من ذلك، فقد كان قصارى ما أبتغيه فى مصر نافذة، لا ساحة ولا شرفة، وإنما طاقة فى جدار أطل منها على ما يجرى وأتابع مهتمًا ومعنيًا، متحدثًا بين الحين والآخر برأى فى جريدة مما راح يصدر سواء عن الأحزاب معتمدًا على رخصتها، أو مستقلًا يصدره زملاء وأصدقاء لديهم الموهبة والطموح يكافحون فى ظروف اقتصادية لاجتذاب قارئ يتزايد إحساسه بالملل، إلى جانب محاضرة سنوية واحدة فى منتدى مثل معرض الكتاب السنوى أو جامعة القاهرة أو الجامعة الأمريكية، وكان هذا يكفينى وبالقدر الذى حسبته متوازنًا.

10

خلال هذه السنوات لم أدع إلى أجهزة الإعلام المصرية مطلقًا، ولم يحدث إطلاقًا أن وجهت لى دعوة لأن أتحدث فى أى وسيلة عامة بما فيها معرض الكتاب ورفضت.

وأذكر أن شابًا جاء إلىّ ومعه خطاب من رئيس اتحاد الإذاعة والتليفزيون وقال: نريد أن نجرى معك حوارًا عن معركة السد العالى وهذا خطاب من رئيس الاتحاد.

وافقت وصورت ثلاث حلقات متطوعًا بوقتى، لأنى كنت

أشعر أنه على واجب، والناس لها حق أن تعرف ماذا حدث، وتحدثت لمدة ثلاث ساعات ونصف الساعة، وطلبت منه ألا يشوه كلامى وإذا أرادوا الحذف فعليهم أن يحذفوا السؤال وجوابه، ولم تذع الحلقات.

سألت إذا كان من الممكن أن يعطونى نسخة من الذى تم تصويره فرفضوا، وفى إحدى المرات سمحوا لرمسيس، فنان الكاريكاتير، بأن يسجل معى أنا والأستاذ إبراهيم نافع فى رمضان، وأخذوا ما هو قابل للسؤال والجواب، وفى الوقت نفسه جاء إلىّ ممدوح الليثى، رئيس قطاع الإنتاج، وقال لى: نريد أن نعمل من هذا البرنامج حلقة كبيرة لتذاع فى العيد، فقلت حاضر، وجلست مرة أخرى وسجلت البرنامج ولم يذع، وقلت لممدوح: أنتم سجلتم معى ثلاث ساعات، فهل من الممكن أن تعطينى نسخة، وبعد أربعة أو خمسة أيام قال لى: لم أجد الشريط.

ودائمًا كان يأتى البعض لتسجيل برنامج معى وأرحب بذلك، ولكنى كنت أطلب منهم أن يسألوا أولًا إذا كان ذلك جائزًا أم لا، فيذهبوا ولا يعودوا.

وعندما بدأ حمدى قنديل برنامجه «رئيس التحرير» على التليفزيون المصرى، جاء إلىّ وقلت له: سجل حلقتك الأولى بدونى، وإذا لم تجد اعتراضات علىّ ومرت حلقتك الأولى دون مشاكل تعال لنسجل حلقة، لكنه لم يأت.

11

فى العام 1999 كنت على وشك الاستئذان فى الانصراف، وكانت هذه هى المرة الثالثة.

فى سبتمبر من هذا العام دق جرس له رنين، فقد وقع أثناء مراجعة طبية دورية أن «على هيكل»، أكبر أبنائى وأقرب أطبائى وهو أستاذ فى كلية الطب بجامعة القاهرة، اكتشف وجودًا ملحوظًا لخلايا مريبة «سرطانية بطبيعتها»، ومع أن نشاطها كان ضعيفًا ومحصورًا فإن أحدًا لا يستطيع ضمان ألا

تشتد ضراوتها وتزيد سرعتها وتنفلت منتشرة.

قرر «على» أن يتوسع فى الفحص، وإذا ببؤرة خطيرة أخرى تظهر على صور الأشعة، والتقى لفيف من الأطباء بينهم الصديق والعميد الدكتور محمد عبدالوهاب والجراح الكبير الدكتور إسماعيل شكرى، والمنظم الطبى البارع الدكتور حاتم الجبلى والدكتور عمرو مسعود، وجلست أمامهم وإذا الإجماع أن الموضع الأول للخطر يحتاج إلى علاج بالإشعاع فى حين سيحتاج الموضع الثانى إلى مبضع جراح.

كان هناك اتفاق على أن الجراحة أولى بالسبق، والإشعاع عليه الدور بعد أسابيع، والولايات المتحدة الأمريكية يتحتم أن تكون مقصدى وبسرعة، وسألت إذا كانت هناك بدائل أخرى فى مصر أو قريبا منها، ولم يقبل محمد عبدالوهاب ورد بأنه: إذا كان الأكثر تقدمًا فى إطار ما أقدر عليه، فلماذا القبول بغيره فى شأن يتعلق بالصحة.

وأضاف: إن الجراحة الشائعة عمومًا فى مثل هذه الحالات تختصر الطريق باستئصال الكلية، لكن هناك أستاذًا أمريكيًا استطاع تحقيق اختراق مهم يركز على الكشط والتطهير، ومع أنها جراحة متناهية فى الدقة إلا أنها تساوى المخاطرة فهى- فى حال نجاحها- تحتفظ بالكلية شبه سليمة قادرة على أداء وظائفها.

فى دقائق تلاقت الأراء على الدكتور «أندرو نوفيك» الجراح المشهود له عالميا فى هذا التخصص، ثم تلت ذلك إشارات إلى الدكتور «باتريك كوبليان» أستاذ الإشعاع الذى لفت الأنظار فى الولايات المتحدة، ليتولى الجزء الثانى من العلاج، ولحسن الحظ كان الرجلان- وقتها- يعملان فى مركز طبى واحد هو مؤسسة «كليفلاند» ذائعة الصيت فى ولاية أوهايو.

وصلت إلى كليفلاند فى نوفمبر 1999 وجدت فى انتظارى على مدخل مطارها الدكتور فوزى إسطفانوس، وهو أحد أساطين تلك المؤسسة الكبرى، وكان الدكتور فوزى يحمل معه جدولًا لمواعيدى.

وحين التقيت الدكتور نوفيك ومعه مساعده المصرى المتميز الدكتور عمرو فرجانى لفحص يسبق الجراحة فاجأنى الدكتور نوفيك بأسماء كثيرين اتصلوا به أو بمكتبه يسألون ويوصون، وكان بينهم رئيس دولة سبق للدكتور نوفيك أن عالجه، وتفضل ذلك لرئيس واتصل يقول للطبيب: إن مريضه الجديد رجل يحب أن يفهم كل شىء بالعقل قبل أن تتصرف بالفعل.

تصور الدكتور نوفيك أن عليه تقديم شرح واف عن الأحوال والاحتمالات، واستمعت إليه صامتًا لدقائق، ثم رجوته ألا يحير نفسه فى كل ما بلغه من قبل.

قلت له بعفوية: أنت تتعامل مع رجل لم يعد فى الأربعين أو الخمسين، وإنما رجل تجاوز الخامسة والسبعين، وأى عاقل يبلغ هذه السن بأمان، لا يحق له نسيان أن المجهول المحيط به، عليه غوائل تنتظر والسؤال فى شأنها لا يكون بـ«هل؟» ولكن بـ«متى؟»، ثم أى الغوائل الكائنة فى المجهول تسبق إلى غيرها إلى المعلوم؟

استفسر الدكتور «نوفيك» متحيرًا: أهى روح الشرق؟

قلت له: بل حقيقة الحياة.

وأضفت: إننى رجل محب لهذه الحياة ومغرم بها، وفى الوقت نفسه متصالح ومتفاهم مع ما بعدها، فهذه الحياة أعطتنى أحلى وأغلى ما عندها ومن الحق أن أدرك أن ما بعدها موصول بها اتصال الليل بالنهار.

خرجت من هذه التجربة سنة 1999 شاكرًا وحامدًا، فقد كان الخطر سخيًا معى بزيارتين فى الوقت نفسه، لكن الطب الحديث كان رفيقًا بى، فخرجت سليما فى الحالتين، وتحفظى لأنى أتذكر تعبيرا فرنسيا شائعا بأنه لا مرتين بغير ثالثة، وقد ظل يقينى فى الأول والآخر أنها عناية الله فوق الخطر وفوق العلم.

عقب تلك التجربة عاودنى مرة أخرى هاجس الاستئذان فى الانصراف، لكنى اعتبرته على نحو ما فى تلك الظروف تنكرًا وربما جحودًا.

12

انقضت مفاجأة أحداث 11 سبتمبر 2001 فى الولايات المتحدة وما ترتب عليها- بل وما سبقها، من أحداث منذ استولت المجموعة الإمبراطورية الجديدة على سلطة القرار من البيت الأبيض- وأخذتنى عن كل هم آخر، فقد بدا المشهد الدولى للجميع وكأنه تساقط كتل ضخمة من جبل مهول مسه جنون وزلزال، ثم راح الأعتى من هذه الكتل يتدحرج متدافعًا منقضًا على العالم العربى، وأحسست أن الحاجة إلى الاستئذان فى البقاء أشد إلحاحًا من خاطر الاستئذان فى الانصراف، وتبدى لى أن المشاركة فى البحث عن رؤية مشتركة للمستقبل القادم أولى وأحق بصرف النظر عن اختفاء أوراق وملفات وكتب تخص زمانها الذى يضيع- وإن لم يضع.

وحاولت شيئًا من تلك المشاركة خلال مجلة «وجهات نظر» التى طرحت نفسها منبرًا رصينًا يحاول أن يستكشف ويستطلع، وشجعنى أن مقالاتى فيها تنشر فى الوقت نفسه بعدد من صحف العالم العربى.

لم أكن رئيس مجلس إدارة مجلة «الكتب وجهات نظر» ولا عضوًا فيها ولا مساهمًا فى المشروع، وإنما كنت صديقًا للفكرة لا أكثر ولا أقل، والأصل نفسه موجود فى نيويورك وفى لندن، وربما فى غيرهما من العواصم الكبرى، هناك مجلات تختص بالكتب، وكنت أتمنى أن تكون للقارئ العربى مجلة من نفس النوع، وفى وقت من الأوقات فكرت أن الأهرام قد تهتم بصحافة من هذا النوع، وتكلمت مع نوال المحلاوى بوصفها مسئولة عن مركز الأهرام للترجمة والنشر، ولكن كان الظن أن مستوى المجلة سوف يجعل سعرها غاليًا، وأن القارئ فى مصر يريد قراءة أسهل ومطبوعات أرخص، وكان عندى تصور أن هناك القارئ العادى أفضل من الكاتب

العادى، وأن مستواه أصبح أحسن.

ثم جاءت دار الشروق وقال إبراهيم المعلم نحن يمكن أن نحقق هذا الحلم.

قلت له: ادرسوه جيدًا، وطلبوا منى أن أساهم.

فقلت: أنا مشجع جدًا للفكرة، وقد فات الوقت لأدخل طرفًا فى أى مشروع.

وقلت لهم إننى على استعداد لأن أساعد فقط.

رشحت بالفعل هيئة لرئاسة التحرير كان فيها الأستاذان جميل مطر وسلامة أحمد سلامة، وكلاهما فيما أظن أفضل اختيار، لكن نشأت مشكلة فيما يتعلق بجميل مطر، وهى أنه ليس عضوًا فى نقابة الصحفيين.

قالوا لى: ممكن تساهم بالكتابة، قلت أستطيع أن أساهم بين الوقت والآخر بتقديم كتاب، وأن إضافتى هى المقال المستطرد، وله سماته وطبيعته.

ظلت مجلة «وجهات نظر» عزيزة علىّ لأسباب متعددة تتعلق بالفكرة وتنفيذها، دون أن تتصل بهوى أو مصلحة، كنت صديقًا متحمسًا يعتقد أن النظر فى أحوال العالم العربى يستوجب ارتحالًا مرة أخرى إلى الكتاب، سواء كان الكتاب حروفًا مطبوعة فى صفحة أو ومضات تلمع على شاشة، وقد تأكد لدىّ ظن بأن ظروفًا وعصورًا طارئة جرتنا جميعًا وراءها لاهثين بحيث انفكت السفن عن مراسيها، وأخذتها الرياح إلى بعيد دون أن تتحكم فى سيرها دفة أو يهديها نجم أو تساعدها خريطة.

كان الاسم الأصلى لـ«وجهات نظر» هو «الكتب» تعبيرًا عن ضرورة عودة «من نوع ما» إلى الأصول والمنابع وإلى المرجعيات القادرة على التصويب والتصحيح والتدقيق، فالتقديم ليس تناولًا على عجل لأدوات العصر بتصور أن الحصول عليها كاف، فمثل ذلك وهم، لأن أدوات العصر قريبة

الشبه من السلاح، لا بد لمالكه أن يحسن استعماله ويتدرب عليه، وإلا فإنه لو تصرف دون استعداد أضاع نفسه منتحرًا قبل أن يعمل إرادته مقاتلًا.

كانت الفكرة الرئيسية من المجلة أن تكون رجوعاً إلى الكتاب، تقترب منه وتحوم حوله وتمد يدها إليه، وفى نفس الوقت لا يكون تناولها للكتب عن طريق مجرد عرضها وهو ما تفعله معظم المجلات من هذا النوع فى العالم، ولكن يكون الكتاب إلى جانب عرضه مدخلًا فسيحًا إلى موضوعه يبرز أهميته إذا استطاع ويضيف إلى وعائه إذا تمكن.

ثم كان أن العنوان الفرعى «وجهات نظر» غلب على العنوان الأصلى «الكتب»، وكان ذلك معقولًا ومقبولًا، والسبب المحسوس ربما دون أن يكون مقصودًا ألا تتبدى العودة إلى الأصول والمنابع والمرجعيات- عودة مدرسية توحى بالرسوب وبضرورة إعادة المنهج من أول الأبجدية، لأن مثل ذلك إهدار لجهد ولزمن فى تجربة الأمة لا تقتضيه الظروف حتى وإن استوجبت هذه الظروف إعادة النظر والفكر، أى أن نوعًا من العودة يمكن أن يحدث دون أن يكون معناه الحكم بالضياع على عمر وعلى حياة.

والحقيقة أن الزملاء والأصدقاء الذين قاموا على مشروع «الكتب وجهات نظر» استطاعوا فى فترة قصيرة- لم تزد على عام واحد- أن يضعوا علامة تشير إلى الطريق الذى قرروا السير عليه، وأن يرسموا خطًا بعد هذه العلامة مشت عليه المجلة عددًا وراء عدد نحو غاية بدت جديرة بالاهتمام، وجديرة بالاحترام.

لقد حاولت مع هؤلاء الزملاء والأصدقاء، من موقع المناصر المتحمس، وقدرت أن يكون أول إسهامى فى جهدهم فصول عن القضايا والرجال، سايرت وقائع كاملة (فبراير 1999- فبراير 2000) وشواغل أيامها، وشخوص بعض أبطالها، وكانت النتيجة أسفارًا فى اتجاهات عديدة وأزمنة قريبة وبعيدة.

كان طموحى فيما حاولت أن أجرب كتابة المقال المستطرد، وهو نوع جديد على الصحافة العربية، ويذهب كاتبه مع موضوعه على الخطوط الرئيسية وعلى الخطوط الفرعية، وينتقل من كليات المسائل إلى تفاصيلها، ويربط ما بين الحوادث الكبرى الموجهة للتاريخ وما بين النزعات الإنسانية للبشر، وهم مادة التاريخ كما هم صناعه فى نفس الوقت.

والفكرة الأساسية فى المقال المستطرد المسترسل أنه مكان وسط بين المقال المألوف وبين الكتاب، فهو أطول من المقال وأقصر من الكتاب، وهدفه أن يمسك بموضوع ويستوفيه قدر ما هو ممكن، واضعًا فيه إذا استطاع سرعة إيقاع المقال وسعة إحاطة الكتاب.

ولقد جربت.. وربما أضفت أن التجربة هى الحق الطبيعى لكل هؤلاء الذين وصل بهم الزمن إلى حيث أصبح فى مقدورهم أن يقولوه لأنفسهم وللناس أن مستقبلهم وراءهم، وبالتالى فهم على استعداد أكثر من غيرهم لأن يتحملوا ما لا يستطيع أن يتحمله أولئك المضطرين إلى رؤية أن مستقبلهم أمامهم وما يقتضيه من تكاليف وضرائب.

وعلى سبيل المثال فإن عددًا لا بأس به من أكبر الصحفيين والكتاب فى العالم وصلوا إلى مراحل تركوا فيها زحام الجرائد الكبيرة وطوابير المتسابقين إلى صفحاتها، وذهبوا إلى مواقع للنشر مختلفة تمتلك حق اختيار قارئها دون أن تلح عليه بالإثارة أو غيرها من لوافت الانتباه الصاخبة الصارخة.

13

ثم طرأ أننى من الرغبة فى توسيع نطاق البحث عن رؤية مشتركة قبلت الظهور- بعد تردد- على شاشة قناة تليفزيونية مصرية «دريم»، وتقديرى بغير تزيد أن يكون ذلك مرة واحدة كل ثلاثة أشهر والرجاء استثارة حوار يتصل فى مصر ويتواصل عبر أوطان الأمة، ومنتهى القصد أن يساعد مثل هذا الحوار على تخفيف الشعور بالإحباط والركود والعجز

ويشد إلى مشاركة واسعة فى البحث، والكشف بحيث تتمكن رؤى حرة ومفتوحة من تجاوز مناطق الشك والخلط والعصبية، وكان اعتقادى دوما أن الخطوة الأولى فى أى حوار هى إعادة بناء موضوع الحقيقة بأقصى دقة مستطاعة، لأن أى اختلاف فى الرأى مضيعة للجهد، إذا لم يكن الموضوع عند المنبع واضحًا محددًا ومتفقًا عليه، وموصولًا بالوقائع والدخائل وليس بالحكايات والحواديت.

وبدا لوهلة أن بعض ما آمل فيه ويأمل فيه غيرى قابل للتحقيق، فقد سرى صوت الحوار مسموعًا، ثم إن هذا الصوت أخذ يعلو طبقة فوق طبقة.

وكان ظنى أن رجلًا فى مثل سنى يقر ويعترف أن مستقبله وراءه، وإقراره مصدق عليه بختم السنين وعددها، لم يتبق له غير أداء الحق العام بل ولربما كان عليه أن يوجه إلى نفسه، وبحزم، ذلك السؤال الذى أجراه شكسبير على لسان أحد شخوصه: إذا لم أتكلم أنا فمن؟ وإذا لم أتكلم الآن.. فمتى؟

وكانت تلك مبالغة فى التفاؤل ربما.

أى أنه بحقائق الأشياء فإن الاعتراض على الحوار كان واردًا فى المناخ السائد، وبالتالى فإنه عندما وقع لم يكن صاعقة منقضة، لكن الأسلوب الذى تم به الاعتراض بدا داعيًا للاستغراب فيما يعنيه ويدل عليه، وكان أسفى أننى لم أدفع ضريبة ما قلت بما يحتمله من صواب أو خطأ، وإنما دفع غيرى وجاء الدفع فى موضع الوجع ومرة أخرى لا أزيد.

سمعت دعوات مخلصة لنقل الحوار الذى توقف إلى خارج مصر لأنه موقف وقضية، والمنطق أننى قادر على الوصول إلى العالم العربى والعالم الخارجى حتى أقاصيه، ثم إن لى سابق تجربة وخبرة فى ذلك من قبل أيام الخلاف مع الرئيس السادات بعد حرب أكتوبر 1973 حول قضية السلاح والسياسة.

لم أكن نسيت تلك الموقعة، لكنى ذكرت نفسى بأن المسألة

هذه المرة لها تكييف آخر، ففى المرة السابقة كان نقل الخلاف بمواصلة الكتابة خارج مصر مقبولًا لأن موضوعه يهم محيطًا أوسع: أوله العالم العربى فى صراعه مع إسرائيل، ويليه العالم الخارجى فى عموم اهتمامه بسلام الشرق الأوسط.

وأما هذه المرة فإن موضوع الخلاف أحوال مصر وأوضاعها ورؤاها ومواقفها وخياراتها وسياساتها فى الداخل والخارج، وإذا جرى اعتراض الحوار- بالخلاف- فوق أرضها فإن نقله خارجها ثقيل، على الأقل بالنسبة لى، وإذا عصيت مشاعرى- فإن الأبواب المفتوحة على مصراعيها فى العالم العربى والعالم الخارجى، تدعونى إلى قول ما أريد وتحتفى به- ربما تتبدى أمامى حواجز معنوية أتردد قبل القفز عليها اعتبارًا لكبرياء وطن وولاء مواطن.

وكذلك راحت الأسباب تتراكم وتتداخل ويمتزج بعضها ببعض حاضرة طول الوقت ومؤثرة.

وبقى فى النهاية سؤال: إذا كان الصمت حاضرًا والكلام غائبًا ومجمل الظروف ما سبق وما لحق والأحوال المصرية والعربية ما أرى ويرى الناس، إذن فإلى متى وإلى أين؟

ومع أننى لا أكف عن تذكير نفسى بحكمة عربية شهيرة تقول «لعل لهم عذرًا وأنت تلوم»، كما اعترف أيضا بأن «حبال الصبر تقصر مع طول العمر»، فإنى متمسك بحدود لا أتجاوزها- لا أملك أن أقتنع إلا بما أراه مقتنعا- ولا أقدر على مغالطة نفسى فيما أقرأ وأسمع وأعرف، أو أصل إلى موقف لا يعود فيه عندى غير العجز والإيحاء بالإشارة إلى أنه فى فمى ماء و«هل ينطق من فى فيه ماء».

ويقتضى الواجب مرة أخرى تكرار أنه ليس سببًا واحدًا، وإنما جملة أسباب تداخل فيها الخاص والعام، والسابق واللاحق والمأمول والواقع والكبير والصغير والمعقول وكذلك اللا معقول.

فى 2003 وبعد مرور ثمانين عامًا من سنوات عمرى، وما يقرب من ستين عامًا من عملى فى الصحافة، لاح لى وميض الاستئذان مرة أخرى فعزمت.

تحدثت فى الأمر مع الأقربين وتفهم بعضهم كما أن بعضهم كانت له تحفظات.

كان رأى حبيبة القلب والعقل ونور الطريق والضمير فى حياتى أن الاستئذان فى الانصراف مفهوم ومعقول، لكنه قرار مرة واحدة، وذلك يدعو إلى إطالة التفكير، وكان القول صدقًا.

وكان هناك رأى عزيز وغالٍ يسأل عن داعى الاستئذان فى مطلب هو فى النهاية ملكى حين أشاء، وكان جوابى أن أى شخص يعطيه الناس مساحة من وقتهم مدين لهم بقيمتها، وليس بمجرد حجمها وبالتالى فإن عليه واجب الاستئذان.

وأخيرًا كان هناك رأى حنون وحريص يخشى أن التوقف عن العمل هو فى العادة بداية عزوف عن الحياة، وحاولت أن أشرح أن الانصراف نيتى وليس الاختفاء، بمعنى أنه الابتعاد وليس الغياب، فما زال لدى ما أريد أداءه ضمن جدول أعمال يكفينى حتى وإن ظهر على شكل ملفات خام أصلية، أو قد أفكر فيما هو معروض علىّ كحلقات تليفزيونية مصورة موثقة- تذاع عبر قناة الجزيرة- أتحدث فيها، وفى الإطار وثائق أصلية تعزز ما أقول.

كان أملى أن بعض ما عندى- إذا استطعت- قد يضيف ويغطى ثغرات كانت مثل ثقوب الفضاء مجهولة فى حياة الوطن والأمة، ومعظمها متصل بمرحلة كان للعرب خلالها دور فاعل فى العالم والتاريخ، وكان ظنى أنه ربما يكون من شىء أقدمه فائدة لزمن قادم ولجيل لم يولد بعد، لعل هذا الجيل يتجاسر ويستدعى كامل همته، ويقبل على المراجعة والفرز دون رهبة من أباطرة السيطرة وقهرهم، وغارات أمراء الانتقام وحرابهم، وطالبى الثأر، يطاردون الماضى دون أن يخطر لهم أنهم شردوا خارج التاريخ إلى التيه فى قفار

موحشة.

يزيد على ذلك أن الانصراف ليس سقوطا فى بئر الغيبوبة، ولا سجنا فى قبو قلعة نائية وحول الرأس والرقبة قناع من حديد وحول الأيدى أغلال من صلب وفى الأقدام أساور تمسكها سلاسل محبوكة تحرج وتدمى إذا تحرك الأسير.

رتبت أمورى على هامش ما قررت.

اتصلت بناشرى فى لندن ونيويورك واعتذرت عن كتاب ثالث اتفقت مبدئيًا عليه، فقد كان اتفاقى الأصلى مع «هاربر كولينز» شاملًا لثلاثة كتب، ظهر منها اثنان «أوهام القوة والنصر» و«المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل»، وكان الثالث الباقى عندى عن «الإسلام السياسى» وقد اختار له «أندى بيل» رئيس مجلس إدارة «هاربر كولينز» وقتها عبارة «السيف والهلال» رمزًا مؤقتًا أعمل تحته حتى أستقر عليه أو على عنوان غيره فى اللحظة الأخيرة قبل موعد النشر.

وفى نفس الوقت اتصلت بعدد من الصحف الأوروبية بينها الجارديان البريطانية بأنه الشكر والعرفان وكفى.

وكذلك أبلغت رئيس تحرير مجموعة «يميمورى شيمبون» اليابانية، وكنت أكتب فيها مقالًا منتظمًا، بلغ عدد الصحف المشتركة فيه أكثر من ثلاثة آلاف صحيفة منتشرة فى بلدان شرق آسيا وغرب أمريكا، أن يقبل اعتذارى عن عقد متجدد تفضل وأرسله.

واعتذرت عن محاضرتين كنت قبلت الدعوة إليهما مبدئيًا، واحدة فى الجامعة الأمريكية، مرة أخرى، لافتتاح الموسم الثقافى الجديد، والثانية فى مركز الدراسات الفلسطينية فى بيروت، لتكريم مفكر عربى بارز رحل قبل سنوات تاركًا تراثًا فكريًا متميزًا وهو الدكتور «قسطنطين زريق» أستاذ التاريخ العتيد فى الجامعة الأمريكية فى بيروت.

عرفت عبدالناصر
الرفيق الذى سافر وحده
1

كانت مقابلتى الأولى مع عبدالناصر تعيسة جدًا.

كنت مع حسين فهمى عبدالمجيد، الذى أصبح فيما بعد سفيرنا بالمغرب، وكان فى ذلك الوقت ضابط أركان حرب مع البطل أحمد عبدالعزيز، وكان حيدر باشا، وزير الحربية فى ذلك الوقت، قد رفض منحى تصاريح الذهاب إلى فلسطين لتغطية أحداث الحرب.

ذهبت إلى الأردن، ومن عمان إلى القدس إلى بيت لحم، ولم تكن هناك وسائل للمواصلات فمشينا على الأقدام 32 كيلومترًا، وكانت فى الطريق مستعمرتان لليهود، مستعمرة الزراعة ومستعمرة تل بيوت، وسرنا فى اتجاه المستعمرات وكان معنا دليل فلسطينى اسمه أبوإبراهيم لديه خبرة طويلة فى المسالك والدروب الأمنية.

ورغم ذلك شعر بنا سكان أحد المستعمرتين وضربوا علينا النار وقد أصبت إصابة خفيفة فى ساقى.

الطريف أن أبوإبراهيم كان السبب فى اكتشاف أمرنا، فقد استرحنا بعض الوقت إلى جوار صخرة كبيرة، وفجأة أخرج مسدسه وأطلق رصاصة بحجة أنه رأى ثعبانًا، أو كما قال هو «حنش».

كشفت هذه الرصاصة أمرنا.. فأطلق علينا سكان المستعمرة النار.

وصلنا إلى أحمد عبدالعزيز وكانت القوات المصرية الأساسية بجناحيها موجودة فى المجدل، فقد دخل الجيش المصرى بجناحين.

جناح إلى بئر سبع وبيت لحم وهو الجناح الشرقى الذى كان فيه أحمد عبدالعزيز.

أما القوات الرئيسية للجيش المصرى فقد سارت على الطريق الساحلى إلى المجدل وأشدود «غزة- مجدل- أشدود»، وكانت منطقة الفالوجة فى الخط الواصل بين المنطقتين «بيت لحم- المجدل» والذى يسمى الطريق الأوسط.

طلبت من أحمد عبدالعزيز أن أذهب إلى الغرب فأعطانى سيارة جيب وأرسل معى الضابط حسن فهمى عبدالمجيد، ونزلنا إلى الفالوجة وعلمت بوجود ضابط مهم بالمنطقة، وكنا قد توقفنا لوجود معركة كبيرة ومهمة على الطريق، وطلبت رؤية هذا الضابط المهم الذى سمعت عنه واسمه جمال عبدالناصر.

أخذونى إليه، وكان عائدًا لتوه من المعركة، مجهدًا ومتعبًا ولم ينم منذ عدة أيام، ووجدته فى قسم شرطة «عراق المنشية» يستعد للنوم، ومعه بطانيتان طوى إحداهما ليجعل منها مخدة، وفرش الأخرى لينام عليها.

استمرت جلستنا ما يقرب من ثلث ساعة ولم أخرج بنتيجة، رفض الصاغ أن يتحدث، صحيح أنه كان مرهقًا جدًا، فهو لم ينم منذ خمسة أيام، لكن رفضه كان ناجمًا عن غضبه مما تنشره الصحافة المصرية ومن طريقة علاج الصحف الحزبية لحرب فلسطين.

من اللحظة الأولى اكتشفت أن عبدالناصر كان ساخطًا جدًا على الصحافة المصرية، لأنها كانت تنشر أخبارًا غير صحيحة عن المعارك فى فلسطين، وجلس على البطانية وقال: «انتوا مش عايزين تسمعوا حاجة، انتوا فى مصر عايزين تكتبوا اللى انتوا عايزينه».

قلت له: هل قرأت لى شيئًا؟

فأجاب: أيوه قرأت لك وفيه حاجات عجبتنى.

كان شديد العصبية، ثم تركته وأكملت طريقى إلى المجدل، لأكمل مهمتى المتعلقة بالحرب، وشاءت الصدف أن أراه ثانية عند عودتى إلى المنطقة من جديد.

ثم اجتمعنا بعد الهدنة الأولى، وفى هذا الاجتماع لاحظت أنه مهتم بتحقيقات كتبتها من باريس عن الدورة الخاصة التى عقدها مجلس الأمن فى قصر «شايو» لمناقشة القضية الفلسطينية ووقف إطلاق النار.

2

انتهت لقاءاتنا التى فرضتها ظروف الحرب، وبعد حصار الفالوجة لم نعد نجتمع، إلى أن التقينا أواخر عام 1949، وهذا اللقاء جاء فى أيام الانقلابات فى سوريا.

فى تلك الفترة كنت فى تركيا لتغطية أخبار الانتخابات، وبعدها انتقلت إلى اليونان لتغطية ذيول الحرب الأهلية، ومن اليونان انتقلت إلى دمشق لأكتب عن الانقلابات التى شهدتها سوريا من انقلاب حسنى الزعيم الذى قام به أديب الشيشكلى مرورًا بانقلاب سامى الحناوى.

بعد أيام من نشر التحقيقات المتعلقة بالانقلابات السورية فوجئت ذات يوم بصلاح سالم يزورنى فى أخبار اليوم ومعه جمال عبدالناصر، وكنت اجتمعت فى السابق مرتين بصلاح سالم.

كان الغرض من الزيارة هو الحديث معى فى مسألة بسلاح الحدود، بدأ صلاح سالم الحديث حول هذه المسألة، ثم تبدل مجرى الحديث وبدأ جمال عبدالناصر يسأل عما جرى فى سوريا، وكان مركزًا على نقاط معينة.

سألنى عن كل الذين قاموا بالانقلابات وعن أهدافهم، وكيف يتصرفون وكيف استقبلت الجماهير السورية هذه الانقلابات، وهل حدثت اضطرابات ومدى حجمها؟

خلال الحديث تناولنا بشكل عابر الاجتماعين اللذين تعارفنا خلالهما على أرض فلسطين، وغادر جمال عبدالناصر وصلاح سالم مكتبى.

مرت فترة طويلة لم نجتمع إلى أن زارنى عبدالناصر يومًا بشكل مفاجئ فى أخبار اليوم، كان ذلك بعد عودتى من تغطية أزمة إيران التى بدأت عام 1951، بقتل رئيس الوزراء، وانتهت بظهور الدكتور محمد مصدق ثم سقوطه، وقال لى إنه جاء ليحصل على نسخة من كتاب كنت قد ألفته وهو بعنوان «إيران فوق بركان».

قال إنه لم يعثر على نسخة ليشتريها فجاء يطلبها منى.

وفى خلال نصف ساعة استغرقتها الزيارة تحدثنا عن إيران وعن أمور كثيرة.

3

لم أقابله بعدها إلا يوم 18 يوليو 1952 أى قبل الثورة بأيام قليلة، وكان ذلك فى بيت اللواء محمد نجيب الذى كنت أزوره، عندما دخل شخصان.

الأول كان جمال ومعه شاب يرتدى قميصًا أبيض وبنطلونًا رماديًا عرفت فى حينه أنه عبدالحكيم عامر الذى لم أكن قد تعرفت إليه.

تردد عبدالناصر فى الدخول، ولما كان لا يريد التحدث مع محمد نجيب أمام أحد، فإنه أشار إلى نجيب وغادرا المكان معًا يرافقهما عبدالحكيم عامر، وبعد نحو ربع ساعة عادوا.

جرت مناقشة بينى وبين جمال عبدالناصر.

قلت مستفزًا: إذا كان الجيش لم يتمكن من الدفاع بالقدر الكافى عن البلد فعليه على الأقل أن يدافع عن نفسه وعن كرامته.

ورد عبدالناصر: ما الذى يمكن أن يفعله الجيش؟

أجبته: لا أدرى.. إنما من المهم بعد الذى فعله الملك أن يدافع الضباط عن أنفسهم وكرامتهم.

وقال عبدالناصر: هل يعنى أن يقوم الضباط بانقلابات كتلك التى حدثت فى سوريا؟

قلت: لا.. أنا لست مع فكرة القيام بانقلاب.

رد عبدالناصر: ما الذى نفعله إذن؟

عرضت عليه فكرة ساذجة.

قلت له: ما الذى يمنع أن يتوجه ألف ضابط إلى السرايا، ويكتبوا فى سجل الزيارات أن الموقف تردى وأنه لا بد من معالجة هذا الموقف.

رد جمال عبدالناصر على هذه الفكرة بقوله: هذا سيعتبر عصيانًا، وكأننا بهذه الفكرة نقول علانية أننا نحن ضباط الجيش سنقوم بانقلاب.

وعدت أقول لعبدالناصر: أنا شخصيًا ضد الانقلاب، ولكن لا بد من حدوث شىء.

وأجابنى: أنت تكتب فى السياسة، هل لك أن تحدد لى ما الذى يمكن أن يفعله الجيش.

كان عبدالحكيم عامر يسمع المناقشة من دون أن يشارك فيها، أما محمد نجيب فقال إنه بصدد إعداد مذكرة تمهيدًا لرفعها كدعوى لدى مجلس الدولة، وأن رفع الدعوى سيكلف ثمانية جنيهات.

تحدثنا عشر دقائق بعد ذلك وغادرت منزل نجيب لأركب سيارتى «أوبل كابيتان» لونها أسود، وأعود إلى مكتبى، وعلى زاوية الشارع لمحت جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر واقفين كما لو أنهما فى انتظار أحد، أو فى انتظار سيارة تاكسى.

قلت لهما: هل تريدان أن أوصلكما؟

وسألنى عبدالناصر: إلى أين أنت ذاهب؟

قلت: إلى وسط البلد.

وركب الاثنان سيارتى، عبدالناصر إلى جانبى، وعبدالحكيم عامر فى المقعد الخلفى.

فى الطريق قال لى عبدالناصر: إنكم تتكلمون، كل واحد منكم يتكلم، إنما لم يقدم أحدكم حلًا، إن الانقلاب غير ممكن، من الذى سيقوم بالانقلاب؟

بعد نصف ساعة من الكلام قال عبدالحكيم عامر لجمال عبدالناصر: سننزل هنا فى محطة باب الحديد.

لم ينزل عبدالناصر، فوجئت به يقول لى إنه ضحك كثيرًا لمنظرى وأنا أحيى الإمام آية الله الكاشانى وهى صور ضمنتها كتابى «إيران فوق بركان»، لكنه انتقل إلى الحديث عن الانقلاب وكيف أنه سيؤدى بالبلد إلى كارثة.

وفجأة سألنى: هل تظن أن الإنجليز سيتدخلون لو حدث انقلاب فى مصر؟

لاحظت أنه يصغى باهتمام كلى إلى الجواب.

أجبته: الإنجليز لن يتدخلوا.

وعندما سمع الجواب المقتضب أراد المزيد من التفاصيل.

قلت له: إن الإنجليز لا يمكن أن يتدخلوا لأسباب عدة منها أنه ليست لديهم قوات كافية للسيطرة على كل المدن المصرية، بالإضافة إلى ذلك أن السفير البريطانى فى إجازة والملحق العسكرى فى إجازة، حتى أننى عرفت من أحد الأصدقاء أن قائد القوات البريطانية فى الإسماعيلية موجود خارج مصر فى إجازة، إن الموسم هو موسم إجازات، والتدخل يحتاج إلى وقت.

قبل أن ينزل عبدالناصر من سيارتى فى محطة باب الحديد قال لى: من الضرورى أن نكمل الحديث.

فطلبت أن نذهب إلى مكتبى فى الأخبار فرفض عبدالحكيم عامر بحدة.

سألتهما هل تذهبان إلى بيتى، فوافقا على الفور.

كنت أسكن فى 14 شارع شجرة الدر بالزمالك فى عمارة دار الهناء.

سألنى عبدالناصر: هل عندك تليفون فى منزلك؟

وأعطيته رقم الهاتف.

4

فى اليوم التالى اتصل بى هاتفيًا وقال: أنا الذى التقاك أمس هل تذكر؟

وتقابلنا يوم 19 يوليو، جاءنى عبدالناصر، ووقتها لم أكن قد تزوجت بعد، ورغم ذلك كان بيتى مرتبًا، وكان يعمل معى سفرجى هايل، وكان البيت مليئًا بالكتب التى كنت آتى بها من سفرياتى المختلفة لرغبتى الشديدة فى القراءة والإطلاع.

عندما دخل عبدالناصر إلى البيت تفحص كل أركانه.

أرسلت مساعدى عبدالرسول لشراء عشاء خفيف للضيفين، وجاءنا بعلب من «السيمون فيميه».

سألنى عبدالناصر: أنت ارستقراطى؟

فقلت له: أبدًا.. أنا من أسرة بسيطة، وما صنعته من مستوى حياة بعملى وحده.

بدأ الحديث فى قضايا عادية جدا، حدثنى عن الصحافة وعن المجلة التى كانوا يصدرونها فى الفالوجة، وعن

فلسطين وعما جرى هناك، تحدث لمدة نصف ساعة تقريبًا، ثم وجه لى سؤالًا شعرت أنه الغرض الأساسى من زيارته لى.

قال: كنا نتحدث أمس عن الإنجليز وإمكان تدخلهم، هل يمكن أن تحدد لى بطريقة مرتبة الأسباب التى أوردتها أمس وانتهيت منها إلى أن الإنجليز لا يمكن أن يتدخلوا لو حدث انقلاب أو شىء من هذا القبيل فى البلد؟

عرضت له ما طلبه، كان ذلك فى وقت مبكر من يوم 19 يوليو، وشعرت أن الصلة بيننا بدأت منذ انتهى هذا اللقاء الذى سافرت بعدما أنهيناه إلى الإسكندرية.

5

مساء 22 يوليو كنت فى أخبار اليوم حتى التاسعة والنصف، وفى العاشرة والنصف كنت فى منزلى، عندما اتصل بى فريد زعلوك من الإسكندرية، وفريد صديقى ومقرب من نجيب الهلالى رئيس الوزراء، وهو وزير دولة فى حكومته.

فوجئت به يقول لى: يبدو أن هناك أمرًا ما داخل الجيش، ولقد بلغت نجيب الهلالى عن طريق السرايا أخبار عن أمر ما داخل الجيش، وهو يسأل عما إذا كانت لديك معلومات فى هذا الشأن.

قلت: ليست لدى معلومات، ما هى بالضبط المعلومات المتوافرة لديك؟

أجاب فريد زعلوك: يبدو أن بعض الضباط تركوا الثكنات.

كان نجيب الهلالى قد طلب من فريد زعلوك الاستفسار منى لأنه كان يعرف أن لى صلة ببعض الضباط، ومنهم محمد نجيب الذى كنت رشحته ليكون وزيرًا للحربية فى حكومة الهلالى الأولى، لأن الهلالى كان يبحث عن ضابط محبوب فى الجيش ليشركه فى الحكومة وزيرًا للحربية.

بعدما انتهت مكالمة فريد زعلوك قررت مغادرة المنزل من

دون أن أعرف إلى أين أذهب؟

وفجأة رن جرس الهاتف، وكان المتحدث سعد توفيق، قلت له: ما الأخبار؟

أجاب: يظهر فيه هيصة، هناك أمور كثيرة، وإذا كنت تريد كتابة شيء عما يحدث فهذه حكاية كبيرة، واتفقنا على أن نلتقى فى العباسية، ثم توجهت إلى منزل محمد نجيب، وكان سهرانًا ويرتدى قميصًا وبنطلونًا وينتعل شبشبًا.

اتصل أحدهم بمحمد نجيب هاتفيًا وفهمت أنه مرتضى المراغى.

اتصل المراغى مرة أخرى وقال ما معناه إن بعض الضباط تركوا الثكنات، وإن ذلك سيحدث فوضى فى البلد، وتبعًا لذلك سيتدخل الإنجليز، ولذلك فإن الملك يفوض إلى نجيب الاتصال بالعيال المجانين دول وينهى المسألة بالتى هى أحسن.

رد عليه محمد نجيب بما معناه أن لا معلومات لديه حوله الأمر، وأعتقد أن محمد نجيب لم تكن لديه بالفعل معلومات، وأن كل ما عرفه من جمال عبدالناصر هو أن هناك حركة داخل الجيش، وكان عبدالناصر عندما تحدث معه عن تلك الحركة بشكل مقتضب سأله إذا كان يريد الانضمام إليها، وأبدى نجيب حماسة، وانتهت الاتصالات بينهما عند هذا الحد يوم 18 يوليو 1952.

كرر محمد نجيب لمرتضى المراغى أنه لا يعرف شيئًا عن مسألة ترك الضباط للثكنات، وفوجئت به يقول أيضًا: حتى أنا عندى الآن الأستاذ هيكل بتاع أخبار اليوم.

وبعد ما سألته عن سبب قوله ذلك للمراغى تركت منزل محمد نجيب للقاء سعد توفيق فى المكان الذى اتفقنا على اللقاء به، وأخذنى سعد توفيق إلى القيادة.

كانت الساعة نحو الثالثة فجر 23 يوليو 1952، الشخص

الأول الذى شاهدته كان عبدالحكيم عامر، وجدته واقفًا على الباب، وعندما رآنى قال لى: خلاص القاهرة كلها.

وقلت: إيه يعنى القاهرة كلها؟

أجاب: أخذناها.. القوات مسيطرة على كل القاهرة.

قلت له: هل هذا انقلاب؟

بعد ذلك تطلعت إلى حوش القيادة فوجدت بعض الضباط والجنود يفترشون الأرض ويأكلون، وهؤلاء كانوا أفراد الكتيبة 13 التى قبضت خطأ على عبدالناصر وعبدالحكيم عامر ثم تعرف عليهما يوسف صديق وأفرج عنهما.

سألت نفسى.. هل أبقى حيث أنا أم أنزل إلى الضباط والجنود الذين كانوا يغمسون أرغفة الخبز بالفول وأتحدث إليهم لأعرف ما الذى جرى؟

إن سعد توفيق اختفى، وعبدالحكيم عامر اختفى، وخلال ثوان من هذه الحيرة عاد عبدالحكيم يقول لى: إيه رأيك هل يتدخل الإنجليز؟

وأشار لى قائلًا: صاحبك ينتظرك فوق؟

وصعدت لأجد جمال عبدالناصر ومعه كمال الدين حسين الذى كان ما يزال عاتبا على مقال كتبته فى «آخر ساعة» عام 1949.

قلت له: ما الذى حصل؟

أجاب: خلاص.

قلت له: خلاص إيه؟

أجاب: كنت تقول إن الجيش عجز عن رد شرف البلد عام 1948، هل الذى فعله الجيش الآن كويس؟

قلت له: ما الذى حدث، ما الذى تقول إن الجيش فعله؟

أجاب وكانت برقيات التأييد بدأت تصل من المناطق: يعنى لسه مش فاهم؟

وأضاف: لا يهم ما الذى سيحدث، المهم أننا صممنا ونفذنا وأكدنا أن فى مصر شبانًا رفضوا المهانة وتحركوا.

فكرت فى أن أتصل بصحيفة الأخبار لأعرف الجو داخل الصحيفة والمعلومات التى وصلتها، رد على سكرتير التحرير، حسين فريد، سألته عن أحواله فأجابنى: يظهر إن فيه دوشة.

قلت له: ما الذى ستكتبه؟

أجاب: لا أعرف.. اتصل بى مصطفى بيه وقال إنه يبحث عنك.

قلت له: ما الذى سنفعله؟

أجاب: لا أعرف.. ما الذى حدث بالضبط؟

قلت: الذى حدث هو أن الجيش ترك الثكنات وقام بحركة، هل أنجزت الطبعة الأولى؟

فى هذا الوقت دخل موظف الهاتف، وقال لى: أستاذ هيكل.. مصطفى بيه بيتكلم من إسكندرية ويسأل عنك يريد التحدث إليك هل أصلك به؟

وأجبته: أيوه.

وسألنى مصطفى أمين عن الذى حدث، وسألنى أين أنا الآن.

وقال: يبدو أن فى الجيش حركة عصيان.. هل عندك معلومات؟

قلت: لا ليس عندى معلومات.

قال: إزاى ما عندكش معلومات.. أنت فين دى الوقت؟

أجبته: أنا فى رحاب العصيان.

قال: الخط وحش ممكن تدينى نمرة التليفون وأنا حاطلبك؟

قلت: لا.. لا أستطيع أن أعطيك رقم الهاتف حيث أنا الآن.

وأصر مصطفى أمين على أن أعطيه رقم هاتف القيادة فطلبت منه أن ينتظر قليلاً.

كان فى الغرفة سعد توفيق وعبدالحكيم عامر، وكان جمال عبدالناصر فى الخارج، لا أعرف أين، وشعرت أننى لا يمكن أن أعطيه من دون أن أستأذن.

قلت لسعد توفيق أن مصطفى أمين يتحدث من الإسكندرية ويريد أن أعطيه رقم الهاتف، وسمع عبدالحكيم عامر كلامى، فقال مستهجنًا: إيه؟

وكان عبدالناصر فى طريقه عندئذ إلينا وسمع عبدالحكيم عامر يعبر عن استغرابه بعبارات قاسية، وضحك عبدالناصر.

قال لى: اعطه الرقم.

وقال لسعد توفيق: شوف النمرة كام؟

وأعطانى سعد الرقم فأعطيته لمصطفى أمين.

وأغلقت سماعة الهاتف بينما كان عبدالحكيم عامر يقول لعبدالناصر: إزاى ده يحصل.. السرايا هتعرف.

ورد عبدالناصر: مش مهم يا حكيم، يجب أن نعرف كيف يفكرون، المهم أن يتصل وهيكل يعرف منه، مش هو يعرف من هيكل.

منذ اليوم الأول وجدت نفسى وسط القيادة، أشرح كيف أن الإنجليز لن يتدخلوا، أعطى رقم هاتف القيادة لمصطفى أمين، أسمع كل الأحاديث من كل المشاركين فى الثورة.

بعد قليل من إعطائى رقم الهاتف اتصل بى فريد زعلوك، ثم اتصل مصطفى أمين يسأل عن التفاصيل وعن مكان وجودى، قلت له لا تفاصيل حتى الآن وإننى موجود فى مبنى من مبانى الهيصة اللى إحنا فيها.

قلت له: حنكتب حاجة؟

أجابنى: لا.. لا.. مش مسألة كتابة، استنى لما نشوف حيحصل إيه.. إيه اللى هيحصل؟

قلت له: أرى دبابات كثيرة تخرج وعربات عسكرية تدخل.

قال: هل اللواء محمد نجيب عندكم، هل هو مشترك فى الحركة؟

أجبته: رأيته منذ قليل ولا أعرف أين ذهب.

قال: هل يمكن أن تستقصى لنا الأمر وتلم بالصورة كاملة وتخبرنا؟

كانوا يريدون أن يعرفوا الموقف منى، وهم سألوا عن محمد نجيب لأنه كان مكلفًا من الملك أن يتصل بقيادة الحركة ويهدئ الوضع.

بعد ذلك اتصل فريد زعلوك ثانية وكان قد حصل على رقم الهاتف من مصطفى أمين.

وقال فريد: إن الهلالى باشا عاوز يكلمك.

وسألنى نجيب الهلالى عن الحالة والأخبار وما إذا كنت أعرف أحدًا من أركان الحركة، وقلت له إننى أعرف بعضهم، وسأل عن محمد نجيب وطالب أن يتحدث إليه، وبعد ذلك طلب منى أن اتصل بالذين أعرفهم من أركان الحركة وأسألهم ماذا يريدون، وأن أوضح لهم أن المسألة فى منتهى الخطورة لأن الإنجليز سيتدخلون.

كرر الهلالى الطلب: أنت يا محمد لازم تكون على معرفة

بالناس دول، أنا عاوز تقول لهم هم عاوزين إيه؟

فى هذه اللحظة دخل أنور السادات فكلفه عبدالناصر بالتوجه إلى محطة الإذاعة لقراءة البيان الأول للثورة.

قال لى عبدالناصر: قل لهم أن يسمعوا بيانًا من الإذاعة سيذاع فى الساعة السابعة صباحًا.

كان الوقت عندئذ نحو السادسة إلا الربع، أى قبل الموعد المحدد لإذاعة البيان بساعة وربع الساعة، وعدت إلى سماعة الهاتف أقول عبرها للهلالى ما قاله عبدالناصر بخصوص البيان من دون أن أذكر اسم عبدالناصر.

قال الهلالى: لا يا محمد، مفيش داعى للفرقعة، هل عرضت الفكرة التى قلتها لك على أحد من الأركان فيهم؟

قلت: أظن أن الذى تحدثت إليه هو من المسئولين فى الحركة.

ورد الهلالى: اذهب وقل لهم إنه لا داعى للتسبب فى حدوث فرقعة، وإن الملك مستعد لإجراء أى تعديلات يريدونها إذا كانوا يريدون تعديلات داخل الجيش، هل هم يريدون إجراء تعديلات فى الجيش، وأين هو محمد نجيب؟

قلت: موجود معهم.. أظن أنه منضم إليهم.

قال: هل اتصل نجيب بأحد فيهم؟ أين هو نجيب؟.. أريد أن أتحدث إليه.

وقلت للهلالى أن يتصل بى مرة ثانية، وبدأت أفكر برد عليه، إنه يسأل عن محمد نجيب، وأنا قلت له إن محمد نجيب مع الحركة لأنى اطلعت على البيان الذى طلب جمال عبدالناصر إذاعته فى الساعة السابعة صباحا والبيان بتوقيع محمد نجيب.

واتصل الهلالى مرة ثانية، وكنت محرجًا بالفعل، سأل أيضًا عن محمد نجيب.

قال: هل يمكن أن تبلغ جماعة الحركة أن الحكومة مستعدة لاستصدار مرسوم من الملك بتعيين محمد نجيب قائدًا عامًا للقوات المسلحة على أن يجرى هو التعديلات التى يريدونها داخل الجيش، إننا لا نريد فرقعة.

ومرة أخرى قلت للهلالى أن ينتظر.

ذهبت لأتحدث مع جمال عبدالناصر فى العرض.

قلت له وكان إلى جانبه محمد نجيب وزكريا محيى الدين: إن الهلالى على الخط ويعرض عليكم استعداد حكومته لاستصدار مرسوم من الملك بتعيين محمد نجيب قائدًا عامًا للقوات المسلحة على أن يجرى وفق الأصول الدستورية التعديلات التى تريدونها داخل الجيش.

ولمجرد أن سمع محمد نجيب العرض رحب به وقال لعبدالناصر: إيه رأيك يا جمال بيه؟ فكرة معقولة نوافق عليها وبلاش فرقعة.

أما جمال عبدالناصر فقال: لا.

ثم نظر إلى محمد نجيب وقال يخاطبنى: لا.

وأضاف: الفرقعة مطلوبة بحد ذاتها لإعلان التغيير وإشعار الناس بما حدث.

كرر محمد نجيب ترحيبه بالعرض المقدم من الهلالى.

فكرر عبدالناصر تمسكه بضرورة أن تحدث الفرقعة، وعدت إلى سماعة الهاتف أروى للهلالى ما حدث، فقال لى: إننى لا أستطيع تحمل الموقف ما دام ليس عندى حل، وأنا على أى حال سأتحدث مع الملك فى الأمر.

وأغلق الهلالى سماعة الهاتف، وذهبت إلى جمال عبدالناصر أقول له إن الهلالى رجل نظيف وأنه فى موقف لا يحسد عليه.

ورد عبدالناصر: لا يهمنى أنه نظيف، الذى يهمنى هو أن تستقيل الحكومة لأنه عندما تستقيل الحكومة منذ اليوم الأول للثورة يكون ذلك إثباتًا عمليًا بأننا مسيطرون على الموقف، وأن هنالك قوة جديدة فى البلد.

6

بعد الثورة كان أحمد أبوالفتح وإحسان عبدالقدوس وحلمى سلام أقرب إلى عبدالناصر منى، ولكن سرعان ما تقاربنا، وذلك لأنه اكتشف أننى أملك الكثير عن خلفية الصراع بعد قراءاتى عن حرب فلسطين وبعدها، كما أنه كان يمتلك رؤية فى كيفية الدفاع عن مصر، وأن هذا الدفاع لا بد وأن يبدأ شرقًا، ولذلك كان الوطن العربى شديد الأهمية بالنسبة له.

اكتشف عبدالناصر أثناء النقاشات التى كانت تدور بيننا أننى أعرف الوطن العربى جيدًا، فقد أتاح عملى كمراسل أن أمر على الوطن العربى ركنًا ركنًا وبلدًا بلدًا، فقد ذهبت إلى فلسطين وبيروت والشام، ولذلك تلاقت اهتماماتنا ووجدنا أن بيننا الكثير من المشتركات، وتحديدًا المعرفة المشتركة وهذه المعرفة فى جوهرها ثقافة.

تكلم عبدالناصر مع كثيرين غيرى، وحتى كتاب «فلسفة الثورة» كان من المفترض أن يكتبه الأستاذ فتحى رضوان، والذى تقدم بمشروع أولى للكتاب، ولكنه كان بشكل أو بآخر مختلفًا عما يريده عبدالناصر، وعندما جاءنى كتاب فلسفة الثورة، جاءنى لأن عبدالناصر اكتشف أن بيننا الكثير من المشتركات والاهتمامات وظن أننى قد أستطيع التعبير بدقة عن أفكاره.

على مر السنوات كثيرًا ما كنت أسأل نفسى هل أثرت فى عبدالناصر، أم تأثرت أنا به؟

والحقيقة أن الأمور لا تقاس بمثل هذا المقياس، لأن الأساس فيما ربط بينى وبينه هو العلاقة الإنسانية، ولذلك لا يستطيع أحد أن يحدد فى هذه العلاقة من ساهم بماذا

وكيف كانت هذه المساهمة، فالعلاقة الإنسانية التى تنطلق من الصداقة تقوم على الحوار المستمر الذى لا ينقطع، وبذلك فطرفا العلاقة بينهما علاقات تأثير وتأثر بشكل دائم.

وعندما يقول أحد إن عبدالناصر اختارنى أو اصطفانى لكى أصيغ أفكاره فى كتاب فلسفة الثورة، فهذا ربما يكون غير صحيح، لأن ما حدث أننى كنت قريبًا من أفكاره، وهى المسألة التى لا تأتى بالاحتراف، ولكن تأتى بالقرب والتقارب فى الفكر، فمن قبل فلسفة الثورة كنت أحتك بعبدالناصر.

كنت أنا وعبدالناصر نتحدث كثيرًا فى التاريخ وفى الأدب والشعر، وقد قرأ عبدالناصر كثيرًا فى التاريخ، خاصة فى التاريخ العسكرى، فعندما كان يعد رسالته «أركان حرب» وهى تعادل رسالة الماجستير، كان موضوعه الدفاع عن مصر، وكان متأثرًا بنظرية اللورد اللنبى، وبشكل عام فقد كان قارئًا جيدًا للتاريخ، وللاستراتيجيات والتكتيكات العسكرية بشكل خاص.

والأهم من المناقشات والحوارات التى كانت تجمعنى بجمال عبدالناصر، أن علاقتنا تطورت إلى صداقة حقيقية، لها خلفية ولها منطقة تتحرك فيها، ولها الموضوعات التى نتناقش حولها، وفى الصداقات الحقيقية يجب ألا تعجزك الموضوعات، ولا يرهقك الصمت، بمعنى أن الصديقين إذا جلسا معًا من دون أن يتكلما فإن هذا الوضع لا يمثل أية أزمة، لأن التواصل الروحى بين الأصدقاء أكبر وأقوى من أى تواصل، والصداقة الحقيقية لا تعرف التكلف، ذلك التكلف الذى يدفع كل طرف إلى إعطاء صورة مزيفة عن نفسه، وإذا وجد هذا التكلف فسد كل شىء، لأن الصداقة تعنى أن يكون كل صديق على طبيعته تمامًا مع صديقه- يتحدثان وقتما يريدان ويصمتان وقتما يريدان- لا تعجزهما الموضوعات ولا يرهقهما الصمت، على شرط ألا يؤدى الصمت إلى الوحشة أو الملل.

ورغم أننى عرفت أصدقاء كثيرين فى مصر وخارجها، وكان توفيق الحكيم من أقرب أصدقائى لكنى طوال الوقت

وبعد أن رحل عبدالناصر كنت أشعر إنه «بيوحشنى» كصديق وليس كزعيم.

7

بعد قيام الثورة بشهر، فى الأسبوع الأخير من شهر أغسطس سنة 1952، على باشا ماهر عمل عزومة لتعريف الوزارة المدنية بمجلس قيادة الثورة، وكان هدف هذه العزومة خلق علاقات اجتماعية إلى حد ما بين الطرفين.

لم أذهب إلى الاحتفال مع جمال عبدالناصر، لكنى انصرفت معه، عندما وصلت إلى الحفل كان الشباب من الضباط قد وصلوا كلهم، سواء الصف الأول، أو الصف الثانى منهم.

كانت الدعوة موجهة إلى أعضاء مجلس قيادة الثورة فقط، ولكن ذهب معهم أيضًا ضباط من الذين يعملون فى المكاتب، وعندما يذهب كمال الدين حسين مثلًا كان لا بد أن يذهب سكرتيره عبدالمجيد شديد، أو مساعده لأنه فى ذلك الوقت لم تكن تذكر كلمة سكرتير، وكانوا يفضلون عليها كلمة مساعد، حيث إن السكرتير ومدير المكتب من تعابير ورموز وموروثات العهد البائد، الذى قامت الثورة من أجل تغييره.

فى هذا اليوم رأيت بنفسى، ولمست بإحساسى، الفجيعة الكبرى لجمال عبدالناصر فى رموز الطبقة القديمة كلها، فجيعته الشخصية والإنسانية حتى أكون أكثر دقة فى هذا الكلام مع رموز هذه الطبقة نفسها.

كان طعام العشاء عبارة عن ديوك رومى وخراف ولحوم، الباشوات الكبار أعضاء مجلس الوزراء كل منهم يبحث لنفسه وبنفسه عن ضابط من الضباط، ويجرى لكى يغرف له طبقًا ويحضر به إلى ضابط من الضباط يقدمه له، مناديًا إياه برتبته أو الرتبة التالية لها كنوع من التعظيم أو التفخيم أو التقرب أو الزلفى، أشار أحدهم إلى جمال عبدالناصر، وقال هذا هو الضابط المهم وسطهم فيجرون حوله.

عندما خرجنا من الاحتفال أول ملاحظة قالها جمال

عبدالناصر لعبدالحكيم عامر الذى كان يجلس بجواره، وقالها له بطريقة تلقائية جدًا: إيه يا حكيم.. هو باشوات البلد اشتغلوا سفرجية؟

8

أستطيع القول إن الصلة بينى وبين عبدالناصر توثقت فى سنة 1953.

ورغم أننا اتفقنا كأصدقاء إلا أننا اختلفنا، نعم اختلفنا، لكننى كنت أرى أنه من العيب بعد وفاته أن أذكر ما اختلفنا فيه حتى لا أدعى البطولة على حساب رجل لم يعد على ظهر الحياة.

ومن يقرأ ما كتبته وهو على قيد الحياة ويتابع ما حصل، يكتشف أننا اختلفنا فى مواضيع كثيرة جدًا، مثل قانون تنظيم الصحافة.

أنا فى مؤتمر صحفى قلت: إننى ضد القانون، ومن يقرأ التاريخ سيجد أن معظم الصحفيين الذين اعتقلوا تقريبًا لأسباب متعلقة بالمهنة كانوا من الأهرام، لطفى الخولى وأحمد نافع وحمدى فؤاد وجمال العطيفى مثلًا.

أنا لم أر شخصًا انقلب عليه جمال عبدالناصر، بالعكس الرجل كإنسان من صفاته البارزة أنه صديق حقيقى، كان رجلًا يدرك أهمية التحكم فى أعصابه.

كان يقول دائمًا «أنا ما اقدرش اتنرفز».

وإذا شعر بذلك لا يقابل أحدًا، لأسباب كثيرة منها الكاريزما التى كانت تنبع منه، وما يستتبع ذلك من سلطة معنوية تجعله قادرًا على أن يفعل ما يريد، وكان يحس بسلطته، لذلك لا يصدر قرارًا وهو عصبى.

ثم إنه لم يخن طبقته، وظل ينام على سرير فى غرفة نوم عهدة لإدارة الأشغال العسكرية، وبعد أن توفى، طالبت

الأشغال العسكرية بالعهدة، هل أحد يصدق ذلك، رجل غير قابل للفساد، احتفظ بولائه لطبقته، هل أحد يتصور حاكمًا فى العالم الثالث بكل هذه السلطة ولا يفسد.

9

أستطيع أن أقول أيضًا إن العلاقة بينى وبين عبدالناصر كانت من نوع متميز بين شخص يقود وشخص إلى جانبه يتكلم أو يفكر، ويحرص فى استمرار على أن يبتعد عن المناصب والأوضاع الرسمية، ولقد كنت دائمًا متمسكًا بالصحافة والكتابة وأفضلها على أى منصب.

ذكرت ذلك لجمال عبدالناصر مرات عدة، قلت له «إنى أفضل الاحتفاظ بصفة الصديق الذى يتحدث إليك فى استمرار من دون وساوس ومن دون إحراج»، وأعتقد إننى مارست ذلك مع جمال عبدالناصر.

وكانت العلاقة بيننا من قبل الثورة حتى 29 سبتمبر 1970 علاقة حوار مستمر.

وأعتقد أن ثقته الكاملة بى هى التى شجعت ذلك، وأحيانًا كان يضيق بهذا الجدل لكنه كان يسمع فى استمرار ويناقش فى استمرار، وعندما كان يشعر بالضيق أحيانًا كان يفعل ذلك لأن كلامى كان فى اعتقاده يسبب نوعًا من الإحراج لأطراف أخرى.

على سبيل المثال كان يشعر بهذا الضيق وأنا أكتب عن البيروقراطية المصرية أو أناقش فيها، وسر شعوره بالضيق أن الكلام الذى أكتبه يشكل إحراجًا لوزراء يعملون معه، وعندما كنت أنتقد الاتحاد الاشتراكى لم يكن يتضايق إلا أنه كان يشعر أن بعض معاونيه يمكن أن يضيقوا بهذا النقد، وكان يأخذ فى الاعتبار مشاعر الذين يعملون معه.

كتبت الكثير حول قضايا يمكن لولا الثقة التى بيننا أن يتضايق لأننى أثيرها.

كتبت عن ضرورة إدماج المثقفين بالثورة والنظام لينتهى دور أهل الثقة، ويصبح أهل الخبرة هم أهل الثقة، خصوصًا بعدما وضع التخطيط موضع التنفيذ وأصبح يحتاج إلى أهل خبرة، وكتبت أنه لا بد أن يقوم أهل الخبرة وأهل الثقة فى الوقت نفسه بتوسيع دائرة معارف عبدالناصر ونظامه.

وناديت بالمجتمع المفتوح وبالديمقراطية، وكتبت ضد الدور المتجاوز لبعض أجهزة السلطة.

وكتبت فى موضوع الحراسات وضرورة أن يظل الهدف هو تصفية امتيازات الطبقة وليس أفراد الطبقة.

ودعوت إلى ضرورة أن يلعب التقنيون فى البيروقراطية الجديدة دورهم فى التطوير.

وكنت قلقًا وأنا أكتب عن هذا الصراع من أن يطوى أهل البيروقراطية القديمة أهل البيروقراطية الجديدة بدل أن يطور الجدد القدامى، وهذا ما حدث بالفعل حيث إن القدامى بلعوا الجدد.

كانت هذه الكتابات فى وقتها، ولم تجر بأثر رجعى، وقد تسببت لى فى بعض المشاكل لكن جمال عبدالناصر لم يضق بها.

10

على مدى 18 عامًا- وهى الفترة التى عاشها فى السلطة- اختلفنا اختلافات كثيرة أنا وجمال عبدالناصر.

كنت أجلس معه كصديق، محاورًا له طوال هذه الفترة، وكان هناك شيئان كنت حريصًا عليهما جعلانى أحافظ على التوازن فى علاقتى معه، وأن أقول رأيى بلا تردد.

الأول: إننى لم أكن طرفًا فى صراعات السلطة، بمعنى أن جمال عبدالناصر لا يستطيع أن يمنحنى أى منصب.

والثانى: إننى لم أطلب أى ميزة شخصية لى أو لأحد من

أقاربى.

لا أحد يستطيع أن يقول إن هيكل أخذ شقة أو علاوة لأحد الموظفين.

خرجت من الأهرام وراتبى كان خمسة آلاف جنيه فى السنة، وكانت مقالتى تباع فى الخارج بـ2000 جنيه إسترلينى، وكنت أعطى خزينة الأهرام ألف جنيه معتبرًا أن الأهرام له الحق الأدبى، وعندما كنت وزيرًا لم أتقاض راتب الوزير.

هناك شيئان ضمنا لى استمرارى فى موقعى، وهما إحساسى بالحرية وأنا أؤدى دورى وما تفرضه الخدمة العامة، وأنى لم أطلب منصبًا.

11

كان بينى وبين الرئيس جمال عبدالناصر خط تليفونى خاص، إذا رفع الرئيس السماعة يرن عندى، وعندما كان الرئيس السادات يزورنى فى الأهرام قبل الرئاسة كان يعرف بموضوع الخط التليفونى الساخن، وأحيانًا أثناء وجود أنور السادات يرن جرس التليفون، ووجدته يقول لى بعد أن سمعه يرن مرة: آه لو قصوا سلك التليفون يا محمد 5 دقائق يقصوا رقبتك بعدها.

وكان من الطبيعى أن تحدث توترات بينى وبين الرئيس جمال عبدالناصر، ما دام الحوار بين طرف مسئوليته شاملة وطرف لا يملك إلا الفكر والكتابة.

أهم حالة توتر حدثت يوم أصدر قرارًا بتعيينى وزيرًا للإرشاد.

فى يوم صدور القرار كنت فى مزرعتى الريفية فى برقاش، وأصدر الرئيس القرار دون أن يفاتحنى فى الأمر، وعدت إلى الأهرام بمجرد علمى بصدور القرار فوجدت حالة توتر، وبعثت إليه برسالة اعتذار، وهذه الرسالة هى الورقة الوحيدة

المكتوبة التى رفعتها إليه، وعدا ذلك لم أرفع إليه أوراقًا لأنى كنت أفضل التعامل معه كصديق.

كنت فى حالة صعبة من الضيق، خاصة أن عبدالناصر كان قد فاتحنى فى أمر تعيينى وزيرًا أربع مرات، وفى كل مرة كنت أعتذر.

المرة الأولى سنة 1956 فى أول حكومة تألفت برئاسته.

والمرة الثانية بعد الوحدة مع سوريا سنة 1958.

والمرة الثالثة بعد الانفصال.

والمرة الرابعة بعد النكسة.

وكان يتفهم رغبتى فى أن أستمر فى عملى الصحفى.

وفى اليوم التالى جاءنى أنور السادات فى برقاش، وكان يوم شم النسيم فى سنة 1970، فى محاولة لإقناعى بقبول المنصب الوزارى، وبقى معى من التاسعة صباحًا إلى الواحدة ظهرًا، وكانت لفتة كريمة منه خصوصًا أنه كان مرتبطًا مع ضيوف سيتناولون الغداء معه فى بيته، وأبلغنى السادات أن عبدالناصر قال له: لا مجال لقبول الاعتذار، وإن المسألة ليست مفاتحة وإنما قرار صدر وانتهى الأمر.

نتيجة لحديثى مع السادات ومع آخرين زارونى قبلت وعدت إلى القاهرة، ثم حدث أن قبضوا على لطفى الخولى ونوال المحلاوى، ووجدت أن الموقف يتأزم، وأننى فى محنة حقيقية فى بداية عملى فى الوزارة، وكنت بالفعل ممزقا بين قبولى المنصب الوزارى اضطرارًا ومحنة أصابت زملائى فى الأهرام، وبين علاقتى بجمال عبدالناصر وأنا حريص على مشاعره.

بعد ذلك أوضح لى دوافع قراره بأننا كنا فى حرب استنزاف، وكانت الظروف دقيقة جدًا، قتال فى الجبهة، وغارات فى العمق ووجود سوفيتى فى مصر وتحرك سياسى، ودلائل

على قبول مبادرة روجرز ودلائل أخرى على إعلان وقف إطلاق النار، ودلائل على استعداد الجيش للعبور بعد انتهاء مهلة وقف إطلاق النار التى كانت محددة بثلاثة شهور.

شعر عبدالناصر بأن تلك المرحلة التى تتسم بمزج العمل السياسى بالعمل العسكرى تحتاج إلى إعلام دقيق ومركز يتولاه شخص محيط بالموقف الرسمى وبأسلوب تحركه، ويستطيع أن يعبر عنه دون العودة إليه فى كل صغيرة وكبيرة.

عرف عبدالناصر كيف يقنعنى، كان يعرف تعلقى بالأوراق والوثائق وما خلف الأحداث من قصص صحفية، خاطب ما يعرفه فى تكوينى، عارفًا أن نقطة ضعفى الأساسية الصحافة وإغواءات أخبارها.

قال لى عبدالناصر: عندك فرصة الآن أن ترى بنفسك ما يجرى فى الاجتماعات الوزارية من حوارات، وأن تكون طرفًا فى حوارات رسمية توفر لك خلفيات إضافية لما تعرف.

وقال: نحن مقبلون على مرحلة فيها قتال وسياسة، أنت لست فى حاجة إلى تعليمات يومية منى، عليك أن تتصرف حتى تغطى موضوع نقل حائط الصواريخ إعلاميًا ودبلوماسيًا إلى الجبهة الأمامية، وسوف يرسل إليك الفريق أول محمد فوزى القائد العام والفريق محمد على فهمى قائد الدفاع الجوى كل ما له صلة بالملف.

قبل هذه المحنة حدثت حالة توتر بيننا بسبب اعتقال جمال العطيفى، وأمضينا نحو أسبوع فى شبه قطيعة.

هو لم يتصل.. وأنا لم أتصل.

فى هذه المرة أيضًا كان السادات هو الذى تدخل، وكان مع عبدالناصر فى استراحة القناطر، ومن هناك اتصل بى.

قال: لماذا لا تطلب الرئيس وتصفى الموضوع معه لأنه متضايق.

وبعد ذلك اجتمعت مع عبدالناصر وصفينا موضوع جمال العطيفى وتم الإفراج عنه.

كان هناك كثيرون يتضايقون من الثقة التى وضعها عبدالناصر فى شخصى، ولولا سلك التليفون الذى بينى وبينه كانوا أتعبونى كثيرًا، عبر هذا التليفون جرت مناقشات واستفسارات كثيرة، وكان هذا التليفون معيارًا لحالات التوتر بيننا، أحيانًا لا يرن، فيكون معنى ذلك أن عبدالناصر متضايق معى، وأحيانًا لا أتصل به بسبب حالات الضيق التى كانت تنشأ نتيجة حوادث معينة حصلت.

كان عبدالناصر نموذجًا للرقة فى معالجته لحالات التوتر التى تحدث، وباستمرار لم يكن ضيقه يخرج عن حدود معينة، وأتذكر مرة أنه كان متضايقًا جدًا من أمور كتبتها، وخلال مناقشته بالتليفون سألته إذا كان يريد أن أحضر.

أجابنى: لا.. لا أريد أن أراك وأنا متنرفز، نلتقى بعد أن تهدأ الأمور ونتفاهم.

كنت فى مناقشتى معه أمينًا جدًا، لأن إعجابى به إعجاب مفتح العينين وليس إعجاب الأعمى.

كنت معجبًا بحركته.. معجب به وبقدرته وبطاقاته.

وكنت معجبًا به كرمز وكقضية وكحركة.

وهذا الإعجاب والتقدير فرض علىّ واجبًا وإخلاصًا أن أكون صادقًا معه.. وأن أناقشه بأمانة.

12

على طوال السنوات التى جمعت بيننا، كنت أراقبه.

وعلى مدار الأيام التى جمعت بيننا أحداث، نعرفها سويًا، لم يشعر بى أحد عندما رأيته فى مايو 1955 فى برج العرب، واقفًا أمام برج حديدى كبير مما يقام فوق آبار البترول.

كان البرج فوق أول بئر حفرت فى الصحراء الغربية، وكان جمال عبدالناصر واقفًا أمامها يتأمل فى صمت، أظنه كان يفكر فيما كنت أفكر فيه.

ليت الأحلام تتحقق، وليت البترول يتفجر، لعل الصحراء العابسة تبتسم، لعل رمالها الصفراء تتحول إلى ذهب أحمر.

ومن سنة 1955 كتبت له كل نص سياسى قاله.. هذه حقيقة.

فى مرات كثيرة كان الجدل والنقاش بينى وبينه فى أضيق الحدود، لسبب بسيط هو أننى كنت أرى ما يراه، ونختلف ونتفق فى حدود هذه الرؤى المشتركة، عادة ما تنشأ بين البشر فى مواقع العمل صلات حميمة تنبت فيها حساسيات كثيرة، لو أننا كنا نعمل فى نفس المجال لكانت هناك حساسيات أو توهم بعض الحساسيات.

ومن بين ما كان يطربنى أن أكون كاتب الميثاق.

أنا فى النهاية عملت الصياغة.

وهنا لا بد أن نفرق بين أنك كاتب الميثاق، فانت تعبر عن فكرك، أو أنت صائغ الميثاق، أى أنك تعبر عن فكر آخر، وهذا موضوع آخر.

الميثاق كان نتيجة حوارات مطولة بينى وبين عبدالناصر، وأنا فى النهاية عملت ما هو أقرب إلى تنفيذ فكره الذى لا يتناقض مع فكرى، ولكن ليس بالضرورة ملتصق معه، أو كان متناقضًا مع فكرى.

فى بعض الأحيان قلت له: والله مقدرش أكتبها.

كنا مرة فى الإسكندرية وكتب فكرى أباظة مقالًا عن الصلح مع إسرائيل وكان عبدالناصر زعلان من المقالة ومتضايق، لأنه اعتبرها بتشرخ موقف، ولم يكن المطلوب منى مقالًا، بل بيان واعتذرت عن عدم كتابته، وكان سبب الاعتذار هو

اعتبار مهنى، لأن فكرى أباظة بالنسبة لى واحد من الأساتذة الذين تعلمنا منهم، ولهذا اعتذرت عن عدم كتابة البيان.

وأذكر أنه طلب منى الذهاب معه إلى المنصورة، وكان ذلك فى 1965 وكانت هناك هيصة كبيرة جدًا، ذهبنا فى القطار وكنا نتكلم حتى وصلنا إلى المنصورة، لكن الناس هجمت، وهو أصبح فى مكان وأنا فى مكان آخر.

وعندما خرجت إلى المحطة كانت السيارات توشك أن تتحرك، وجدت السيارة فى انتظارى، وفيها مرافق من المنصورة، ركبت السيارة وقلت للسائق: اطلع على القاهرة.

لف السائق وطار على القاهرة، وهناك فى المنصورة وعلى الغداء كانت الساعة قد وصلت إلى الرابعة بعد الظهر.

سأل جمال عبدالناصر: فين هيكل؟

قالوا له سافر إلى القاهرة، اتصل بى بعد عودته.. كان زعلان جدًا.

قلت له: أنتم طلعتم والناس تجمعت حولك، وأنا فى الآخر ظللت فى المحطة.

وفى الأهرام كنت قد دعوت اثنين من كبار القادة العسكريين فى العالم، القائد الإنجليزى مونتجمرى وجنرال بوفر قائد القوات الفرنسية فى العدوان الثلاثى على مصر 1956.

وقد استثمرت وجود مونتجمرى لحضور احتفاليات مرور 25 عامًا على أحداث العلمين ودعوته إلى الأهرام وكنت أسعى لأن أسمع منه، وأن يذهب إلى كلية أركان حرب ليجيب على أسئلة الضباط والقادة.

كان مونتجمرى قائدًا بارزًا فى استراتيجية الحرب وإدارة ميدان القتال، بينما كان جنرال بوفر قائدًا بارزًا فى فلسفة الحرب وفكر القتال.

كانت لدىّ أهداف أخرى لا تقل أهمية عن الاستماع ومحاورة هؤلاء القادة الكبار، ومن أهم الأهداف أن عبدالناصر لم يسافر إلى الغرب أبدًا، فعلاقته كانت بشرق أوروبا وأقواها كانت مع يوغسلافيا، وأردت بدعوة هؤلاء القادة والمفكرين أن يأتى الغرب إلى عبدالناصر.

واقترحت على الرئيس عبدالناصر أن يدعو عشر شخصيات عامة، حتى من وزرائه، فى بيته ويتكلم معهم بدون قيود الرسميات.

وبالفعل نفذ الاقتراح مرتين، على مدى شهرين ولكن مع الأسف الشديد لم يتكلم أحد.

لقد كنت قريبًا من دائرة عبدالناصر، وكنت صديقًا إلى أقرب الناس إليه، ولكن هذا لا يجعلنى الرجل الثانى فى النظام كما كان يقول البعض أو يروج، لأن الرجل الثانى فى النظام لا بد أن يكون مهيأً ليحل محل الرجل الأول، وهذا لم يكن موجودًا فى حالتى على الإطلاق، هذا على فرض إننى نسيت يومًا أن الصحافة هى حياتى وليست فقط مهنتى.

لقد كنت قريبًا من عبدالناصر، لكن حكاية الرجل الثانى لم تكن مطروحة لا من ناحية السلطة ولا من ناحية التنفيذ.

13

كان قد مضى علىّ فى رئاسة تحرير الأهرام عدة سنوات، وكان التيار فيها قد تحول، فالأهرام بدأ يربح بدلًا من الخسارة، ثم إن توزيعه بدأ يصعد بدلًا من الهبوط، وكنت قد اتفقت مع مجلس الإدارة وأنا أعرض أمام أعضائه تقريرى الأول عن خطة العمل التى اقترحتها، أنه إذا حقق الأهرام أرباحًا فإنه يكون مسموحًا لى أن أبدأ بتطوير منشآت الأهرام المبنى والمطابع.

أثناء الحديث عن قانون تنظيم الصحافة تخوفت أن مشروع تطوير الأهرام قد يتوقف بعد أن بدأ خطواته الأولى، فالقانون الجديد يضعنا أمام احتمالات مجهولة لا أعرف هل

أستطيع فى ظلها أن أواصل أو أنه سيفرض علىّ أن أطوى ملفات الخطط والبرامج والرسوم مودعًا حلمى إلى الأبد.

صباح اليوم الذى أذيعت فيه نصوص القانون دعوت أسرة تحرير الأهرام إلى اجتماع عام كى أتشاور معهم فى الأوضاع الجديدة، وشرحت لهم فى البداية موقفى.

قلت إننى لم أكن متحمسًا للقانون من ناحية المبدأ.

وفوجئت بالزميلة جاكلين خورى تقاطعنى قائلة: هل نستطيع أن نسألك: لماذا؟

أليس الوضع فى ظل القانون الجديد أحسن مائة مرة للمهنة وللصحفيين من الملكية الخاصة للصحف؟

وبدا أن تيارًا قويًا يؤيدها ودهشت واستطردت أشرح مجمل الأسباب التى تدعونى من ناحية المبدأ للتخوف، وكان أولها قلقى من احتمالات تدخل التنظيم السياسى «الاتحاد القومى وقتها ثم الاتحاد الاشتراكى فيما بعد» الذى انتقلت إليه سياسات الصحف وتوجيه تحريرها بدعوى القانون.

ثم كان هناك تخوفى من احتمال تأثير الظروف الجديدة على مشروعنا لتطوير الأهرام، وقد قلت للجميع إننا أمام معركة جديدة ويجب أن نقاتل فيها.

عند الظهر اتصل بى جمال عبدالناصر تليفونيًا معاتبًا إن تقريرًا وصل إليه عما قلته فى اجتماع محررى الأهرام ومع تقديره لكل الظروف فهو يرى إننى أضعف موقفى بهذه المسافة التى أريد أن أضعها بينى وبين القانون الجديد، وأنه سمع تحفظاتى من ناحية المبدأ، وحاول بكل جهده أن يريحنى فى التفاصيل، وبذلك فإنه لم يعد هناك داعٍ لأن أعود فأتخذ موقفًا سلبيًا من القانون، خصوصًا أن هناك من قد ينتهزون هذه الفرصة ضدى.

وقال لى: إنهم حاولوا أن يصوروا لى قولك، بأننا يجب أن نقاتل على أساس أنها معركة ضد القانون، وقد قلت لهم إن

هذا التعبير يجرى على لسانك كثيرًا فى صدد مواجهة أى عقبة، وإن ذلك لا يعنى أنك فى معركة ضد القانون، وإنما أنكم فى معركة لإثبات أنفسكم فى الأهرام فى ظل القانون.

وحين انتهت المكالمة كنت أشعر بعرفان شديد لصبره وأظننى أيضًا كنت أراجع نفسى وأسائلها ما إذا كانت وساوسى وهواجسى قد تجاوزت بى الحد المعقول.

14

كان عبدالناصر يحب الحديث عن ذكريات زمان ويتكلم عن شخصيات عرفها، ويتكلم عن الجانب المرح والإنسانى عندهم.

ولا أحد يعرف أن عبدالناصر كان يقلد الشخصيات التى يعرفها، وكان يموت من الضحك، وحقيقى كان لذيذًا لما يقلد إمام اليمن، وكيف أنه حين اجتمع به وراح يتكلم فى أمور جادة، كان السؤال الأول لإمام اليمن عن عمر الشريف وهل تزوج فاتن حمامة.

كان عبدالناصر يقلده تمامًا وأظن أن التقليد كان من هواياته.

كان عبدالناصر مدخنًا شرهًا.

وقد رأيته عندما حرم منه، وجدته يومها حاسس بقهر أنه اضطر ألا يدخن.

وسمعت من الرئيس جمال عبدالناصر مرة رأيًا فى العدل والظلم.

فى رأيه أن العدل يجب أن يشيع من القمة ويسرى منها إلى القاعدة، وفى رأيه كذلك أن الظلم يسير فى نفس الطريق.

كان يرى أن كل مظلوم يتحول بدوره إلى ظالم، وكل من يقع ضحية الاستبداد يعوض نفسه بأن يصبح هو بدوره مستبد.

وقال لى: لقد كان الملك يستعلى على وزرائه، ويستعلى رئيس الوزراء بدوره على الوزراء، ويستعلى الوزراء على وكلاء الوزراء، ويستعلى وكلاء الوزارات على المديرين، ويستعلى المديرون على المآمير، ويستعلى المآمير على الضباط، ويستعلى الضباط على جنود البوليس، ويتحول جندى البوليس فى الشارع إلى ديكتاتور مخيف، يستعلى على المارة ويتحكم فى كل عابر سبيل.

كان يسمى هذه النظرية نظرية الاستعواض.

كل مظلوم يستعوض ظلم الأكبر منه، بأن يظلم هو بدوره من هم أصغر منه.

15

بدأت طلائع مرض السكر تهاجم جمال عبدالناصر فى الساعات الأولى لحركة الانفصال السورى، ثم جاءت أزمة اليمن، وما حدث فى اليمن جعل نسبة مرض السكر تتزايد، وفوق ذلك حدث التهاب فى شرايين عبدالناصر، وهذا الالتهاب أتعبه وتسبب له فى آلام حادة فى رجليه.

وفى أواخر 1966 أصبح عبدالناصر يشكو كثيرًا من الألم الناتج عن التهاب الشرايين، ثم حدثت هزيمة 5 يونيو 1967، ومن قبلها هموم الانحرافات وأصبح الألم لا يطاق.

ويوم 13 يوليو 1967 أجرى له الأطباء كشفًا عامًا، وشعر هؤلاء بالخطر، ولم يتجاوب مع وصفاتهم وتنبيهاتهم، وبسبب عناده كان الألم يزداد، العلاج فى ذلك الوقت كان ممكنًا إلا أنه فضل أن يتألم على أن يعالجه أطباء من الولايات المتحدة أو بريطانيا، وفضل أيضًا ألا يعرف الأصدقاء السوفيت بمرضه.

استمرت الحال على ما هى عليه إلى أن وقع حادث فظيع، فقد أصيب بالأزمة القلبية الأولى.

يوم 10 سبتمبر كان جمال عبدالناصر يشهد تدريبًا عمليًا

على طريق السويس، وبينما يشهد هذا التدريب بلغه أن الإسرائيليين قاموا بعملية إنزال فى منطقة الزعفرانة الواقعة فى خليج السويس، وبدأت الأنباء الصادرة من تل أبيب وبعض العواصم الدولية تصور العملية على أنها محاولة لغزو مصر، حتى أن بعض وكالات الأنباء كانت تبعث برسائل صحفية تقول فيها إنها من مصر المحتلة، ولم يكن معروفًا لأحد أن الرئيس عبدالناصر خارج القاهرة يشهد التدريب العملى.

عندما عرف عبدالناصر بالعملية الإسرائيلية تضايق جدًا، خصوصًا أنه لم يعرف حجمها الحقيقى، وعندما بلغ عبدالناصر العملية أمر كبار قادة الجيش الذين كانوا حوله بإلغاء التدريب ورفع حالة الاستعداد لدى القوات، هنا معناه أن تصبح هذه القوات جاهزة للقيام بعملية دفاعية أو هجومية.

كانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحًا عندما بلغه نبأ العملية الإسرائيلية فى منطقة الزعفرانة، ونحو الحادية عشرة أى بعد ساعتين عاد إلى القاهرة، وأذكر أنه بعد وصوله إلى القاهرة اتصل بى هاتفيًا وطلب أن أقرأ له كل ما تقوله وكالات الأنباء عن العملية، وقرأت له كل ما كانت هذه الوكالات تنقله من تل أبيب وبعض العواصم الغربية.

شعرت أنه فى غاية الضيق، لمست ذلك من صوته، كان ذلك نحو الخامسة بعد الظهر.

وفى اليوم التالى شعر بإرهاق شديد مصحوبًا بنوع من الدوار، ودعا طبيبه الخاص الدكتور الصاوى حبيب ليكشف عليه.

كان الصاوى فى الأصل سيجرى كشفًا عامًا ليعد تقريرًا قبل السفر، لأن عبدالناصر كان حدد سفره إلى مصحة «تسخالطوبو» الروسية بعد أيام، واكتشف الصاوى أن عبدالناصر أصيب بجلطة لكنه حاول إخفاء الحقيقة وتظاهر بأنها حالة إنفلونزا، وطلب عقد كونسلتو أطباء، وجرى رسم

ثان للقلب يؤكد أنه حدث انسداد فى فرع الشريان الأمامى للقلب.

انتهت مناقشة الأطباء إلى أنه من الضرورى أن يعرف الرئيس أنه أصيب بأزمة قلبية، لأنه إذا عرف سيتصرف بما يساعد العلاج، وقيل له ذلك بالتدريج وتقبل الأمر بإرادة حديدية.

اتصل بى أنور السادات فى ذلك اليوم نحو السابعة والنصف مساء، وطلب أن ألاقيه للاجتماع به فى منزل الرئيس عبدالناصر.

توجهت على الفور، هناك وجدت السادات جالسًا فى مكتب سامى شرف الذى يقع فى المبنى المقابل لمنزل الرئيس، وكان هناك أيضًا بالإضافة إلى السادات وسامى شرف الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية وشعراوى جمعة وزير الداخلية وأمين هويدى المشرف على المخابرات.

قال لنا السادات إن الرئيس عبدالناصر مصاب بإنفلونزا ومن الضرورى أن يأخذ إجازة طويلة.

قلت للسادات: أنا مش فاهم حكاية الإجازة والإنفلونزا، ثم إن اجتماعنا علشان إيه؟

أوضح السادات أن الرئيس عبدالناصر قرر حيال اضطراره إلى الأخذ بفكرة الإجازة بأن يؤلف هذه اللجنة التى تضم أنور السادات وسامى شرف وشعراوى جمعة والفريق أول فوزى وأمين هويدى وأنا، لكى تعقد اجتماعات وتبحث فى مسائل الدولة والقضايا التى تستجد.

وقال السادات أيضًا إن الرئيس عبدالناصر كلفه أن يكون صلة الوصل بينه وبين أعضاء اللجنة التى طلب الرئيس أن تستمر تعقد اجتماعات إلى أن يصبح قادرًا على مزاولة العمل.

عدت أقول للسادات: أنا مش فاهم، هل تأذن لى أشوف الريس، ثم أين هو الرئيس عبدالناصر، وفوق ذلك ما الذى

أعمله أنا فى هذه اللجنة، أنتم من الرسميين وأنا ليس لى صفة رسمية.

قال لى السادات: انتظر.

وغادر الغرفة، ثم عاد إلينا، وقال إنه توجه إلى الرئيس عبدالناصر فى منزله، وأضاف: تعالوا.. تعالوا كلكم لمقابلة الرئيس.

توجهنا إلى الرئيس عبدالناصر، وجدناه فى غرفة نومه جالسًا على كنبة، وكان عند دخولنا يأكل لبن زبادى.

قلت له: هل هناك أمر ما؟

أجاب: أبدًا.. كل ما فى الأمر أن الأطباء نصحوا بأن أستريح شهرًا فى السرير، ووجدت حيال ذلك أن تجتمعوا وتبحثوا المسائل المتعلقة بالدولة بدل أن أشغل نفسى بها، وذلك إلى أن تنتهى فترة الإجازة وأصبح قادرًا على مزاولة العمل كما كانت الحال فى السابق.

وقلت للرئيس عبدالناصر فى معرض اعتراضى على اشتراكى فى اللجنة لأنه ليست لى صفة رسمية: هل يمكن أن أعرف حكاية الإنفلونزا؟

كان الآخرون قد خرجوا بعدما سلموا على الرئيس وبقيت أنا، وبدأت ألح على الرئيس لكى يوضح لى حكاية الإنفلونزا، وهو يعرف أننى عنيد، وأحيانًا كان يتهمنى بالعناد.

صعقت وأنا أسمعه يقول: يظهر إننى أصبت بذبحة قلبية.

واستطرد: لكن الأطباء يقولون إن المسألة بسيطة وإنه يجب أن ألازم السرير وأرتاح، والمهم ألا يعرف أحد كى لا تقلق البلد، ولكن قل لى كيف يمكن أن نغطى غيابى هذه المدة التى يقترحها الأطباء؟

قلت: قد نقول إنفلونزا.. لا يهم ما نقوله ولكن المهم أن تستريح.

قبل أن أغادر غرفة الرئيس أثرت من جديد مسألة إشراكى فى اللجنة التى تألفت برئاسة السادات.

قال لى: أنت تعرف الطريقة التى أفكر بها، أنت تحضر اجتماعات اللجنة وهم يتناقشون وأنت تبدى رأيك.

وقلت له: حاضر.. هل ده كويس؟

أجابنى: أيوه كويس.

غادرت غرفة الرئيس وانضممت إلى الآخرين الذين كانوا فى غرفة الاستقبال يتحادثون، وكنا جميعًا الأشخاص الذين فى حوزتهم رقم هاتف الرئيس عبدالناصر مباشرة، والذين يستطيعون التحدث هاتفيًا مع الرئيس على هذا الرقم فى أى وقت، حتى إذا كان فى غرفة نومه.

اتفقنا على ألا يعرف أحد ما حدث للرئيس، وعلى ألا تعرف عائلته أيضًا الأمر، وإن كانت العائلة ساورتها الشكوك بعدما بدأ العمال والمهندسون فى تركيب مصعد فى المنزل المؤلف من طابقين، اتفقنا كذلك على ألا نتحدث إلى الرئيس هاتفيًا، وأن نتقابل من حين إلى آخر تبعًا للضرورة التى يراها الذى اختاره الرئيس عبدالناصر رئيسًا لهذه اللجنة.

وفى اليوم التالى اتصلت هاتفيا بالسيد أنور السادات، تحدثنا قليلًا فى الأزمة الصحية التى يجتازها الرئيس عبدالناصر، وبعد يومين فوجئت بالرئيس يطلبنى هاتفيًا.

قلت له: الله.. مفروض يا فندم ما تتكلمش.. والله أنا فى غاية الاستغراب.

ورد على استغرابى قائلًا: المسألة مش خطيرة للدرجة دى.

بعدما انتهت المكالمة اتصلت بالسيد أنور السادات طالبًا عقد لقاء معه.

فى هذا اللقاء قلت له إن الدولة عندما تعالج أحدًا على

نفقتها فإنها تستقدم إليه أكبر الأطباء، أو توفده إلى الخارج لكى يعالجه أكبر الأطباء، ويجب إيجاد طريقة ما لاستقدام أحد كبار أطباء القلب، وليس بالضرورة استشارة الرئيس فى الأمر.

فى الفترة التى أصيب فيها عبدالناصر بالأزمة القلبية الأولى كانت حرب الاستنزاف تصل إلى ذروتها، وكان محتمًا بالإضافة إلى وقف الاتصالات الهاتفية مع الرئيس أن تتوقف المكالمة اليومية الأخيرة التى يجريها قبل أن يطفئ النور لكى يخلد إلى النوم.

وهذه المكالمة كانت من النوع الذى يقلق ويرهق، ولكن رغم ذلك كان جمال عبدالناصر يحرص على أن يجريها كل ليلة قبل أن ينام، والمكالمة كانت مع الفريق أول محمد فوزى، كان الرئيس عبدالناصر قبل أن ينام يتصل بوزير الحربية ليسأله عن الوضع على الجبهة، يسأل عن عدد الذين استشهدوا وعدد الذين جرحوا ويسأل عن الخسائر فى المعدات.

ومثل هذه المكالمة كانت بالفعل مرهقة حتى قبل أن يصاب الرئيس بالذبحة القلبية، ومن الطبيعى أنها صارت أكثر إرهاقًا بعدما أصيب، ولذلك كان من الضرورى إيقافها فى فترة العلاج، وأتذكر كيف أن عبدالناصر كان يتألم عندما يتبلغ أن بعض الضباط استشهدوا، خصوصًا أن اتصالاته المستمرة فى ذلك الوقت بالضباط والاجتماعات المتواصلة التى كان يعقدها معهم أوجدت نوعًا من الصداقة بينه وبين أكثر الذين يراهم ويجتمع بهم.

تحدثنا فى الأمر مع الفريق أول محمد فوزى.

قال له أنور السادات إن مسألة هاتف آخر الليل يجب أن تتوقف عند حد، حرصًا على حياة الرئيس.

وأنا أيضا تحدثت فى الأمر مع الفريق أول فوزى.

وتجاوب وزير الحربية وأصبح لا يذكر حقيقة الخسائر.

16

بعد انتهاء قمة الهيلتون يوم 27 سبتمبر 1970 شاهدت عبدالناصر يستعد لمغادرة الفندق إلى منزله، وكان ذلك فى نحو العاشرة ليلًا.

كان قد بلغ عبدالناصر أن العقيد معمر القذافى توجه إلى المطار ليركب طائرته عائدًا إلى ليبيا، وأنه تعمد ألا يعرف عبدالناصر بذلك لأنه لا يريد أن يحمله مشقة التوديع، فقد شعر القذافى والآخرون أن عبدالناصر بذل مجهودًا شاقًا فى المؤتمر، ووجد القذافى أن ذهاب عبدالناصر إلى المطار ليودعه من شأنه أن يتعبه، أما الآخرون فكانوا سيسافرون فى اليوم التالى.

حاول الرئيس أن يلحق بالقذافى، لكنه كان قد ركب طائرته وسافر، وعندها توجه إلى منزله فى منشية البكرى.

قبل أن يغادر عبدالناصر الفندق ليلحق بالقذافى ويودعه طلب منى أن أوافيه بما قررته لجنة سميت «اللجنة العليا لمتابعة تنفيذ الاتفاق بين الأردن والمقاومة»، وتألفت منى بصفتى وزير الإعلام ومن الفريق محمد أحمد صادق الذى كان رئيسًا للأركان والباهى الأدغم رئيس اللجنة، وقد عقدنا فى حينه اجتماعًا فى غرفة الباهى للبحث فى المهمة التى سيتولاها.

اتصلت بعبدالناصر وأبلغته ما بحثناه.

فى هذا الوقت كان السفير البريطانى قد طلب أن يقابلنى على وجه السرعة لتسليمى رسالة عاجلة من إدوارد هيث متعلقة بحوادث خطف الطائرات، وكانت حدثت فى ذلك الحين عمليات خطف الطائرات، وكان هناك رعايا بريطانيون ضمن هذه الطائرات، وطلبت من السفير أن يلاقينى فى منزلى، وهناك سلمنى الرسالة.

اتصلت بمنزل الرئيس، سألت إذا كان لم ينم بعد، قيل لى إنه لم ينم، وعندها طلبت إيصالى به، شعرت من صوته أنه

مرهق جدًا، قلت له عن الرسالة التى سلمنى إياها السير ريتشارد بومونت سفير بريطانيا فى القاهرة، فطلب أن أقرأها، وقلت له ردى على الرسالة وسألته إذا كان الرد معقولًا، ووافقنى على أن الرد معقول.

سألنى عن ردود الأفعال حول اتفاق القاهرة فأجبته بأنه لم تصدر بعد ردود أفعال.

قلت له: هل إذا جاءت ردود أفعال أتصل بك؟

وأجاب: لا سأنام.. نتكلم فى الصباح.

صباح 28 سبتمبر توجهت إلى مكتبى، وكنت أمارس العمل الوزارى من مكتبى فى الأهرام، وأمر على الوزارة ساعة أو أكثر يوميًا عند الظهر، ونحو التاسعة صباحًا اتصل بى الرئيس عبدالناصر هاتفيًا على مكتبى فى الأهرام يسأل عن ردود الأفعال حيال اتفاق القاهرة، وكان مهتمًا جدًا بمعرفة رد فعل إسرائيل، وأنا سلفًا كنت جمعت ردود الأفعال ومن ضمنها رد فعل إسرائيل، وأحطته علما بردود الأفعال وتناقشنا فى الأمر، وكان محور المناقشة: ما الذى يمكن أن تفعله إسرائيل حيال هذا الاتفاق؟

قبل أن يتصل بى كان عبدالناصر اتصل بالفريق صادق يسأل عن الموقف فى عمان وعما إذا كان القتال توقف بين المقاومة والجيش الأردنى؟

بعد ذلك توجه إلى المطار ليودع الملك فيصل وبعض الملوك والرؤساء الذين شاركوا فى القمة، ونحو الثانية عشرة والنصف ظهرًا اتصل بى ثانية هاتفيًا وقال إنه عائد من المطار فى غاية التعب، وقال أيضًا عبارة تشاءمت منها: فاضل الوداع الأخير مع أمير الكويت.

قلت له: ما دمت متعبًا إلى هذا الحد، فلماذا لا يقوم أحد بالنيابة عنك بتوديع أمير الكويت؟

أجاب: صحيح إن ألم قدمى شديد، لكننى سأضعهما فى

الماء والملح، وهى وصفة قديمة يلجأ إليها الفلاح المصرى فى مثل هذه الحالات.

وردًا على تحفظ منى تجاه هذه الوصفة أجابنى بما معناه أنه يعرف أننى بتاع تكنولوجيا وأنه متأكد من أن الوصفات البلدية تفيد.

وقال لى إنه سيتوجه إلى المطار ليودع أمير الكويت وعندما يعود لن يتصل بى لأنه يريد أن ينام نومًا طويلًا، وذكر لى أنه قال لطبيبه الدكتور أحمد ثروت أن يستعد لإعطائه حبة تمكنه من النوم الطويل.

وقلت له: إذن نتكلم فى اليوم التالى- أى يوم 29 سبتمبر- وعندما تستيقظ من النوم أرجو أن تتصل بى لأننى لا أريد أن أقطع عليك نومك.

قبل ثوانٍ من انفجار الشريان الذى جاء بعد الذبحة القلبية الثانية، وكان قاتلًا، استدار وفتح الراديو الذى إلى جانب سريره، سمع دقات الساعة الخامسة ثم سمع موسيقى العلامة المميزة لنشرة الأخبار ثم الموجز، وكان صوته خافتًا عندما قال: مفيش حاجة.

قال له طبيبه الدكتور منصور فايز: سيادة الرئيس مفيش داعى للمجهود.

أجابه عبدالناصر: لا أنا كويس الحمد لله.

ألقى رأسه على المخدة.

وفى خلال ثوانٍ أرخى يده.

كانت الساعة الخامسة والربع تمامًا.

حاول الأطباء الذين كانوا حوله إسعافه، لكن حركة اليد كانت مؤشرًا على أنه فارق الحياة.

نظرت إليه أودعه، ووجدتنى أقول له: كيف رحلت ولم

أرحل معك؟

17

لم يفكر عبدالناصر أبدًا فى كتابة مذكراته.

كان قد ترك لى القيام بهذه المهمة نيابة عنه، لكنه كان يريد متابعة الشئون الجارية، وعندما كان يتصل بى صباحًا ولا يجدنى قد وصلت إلى المكتب، كان يكلم نوال المحلاوى ويسألها عن الأخبار، يكون القسم الخارجى فى الأهرام فى الساعة السابعة صباحًا قد أحضر إلى مكتبى قائمة بأهم الأخبار التى حصلت من ساعة تركى الأهرام، إذا لم تكن قد وقعت من الأمور ما يقتضى إيقاظى من النوم.

كانت نوال المحلاوى ترد على التليفون الخاص الموصل بيننا.

يقول لها عبدالناصر: نوال، قولى لى إيه قائمة الأخبار التى أعددتيها للأستاذ هيكل.

كان يقول عنى الأستاذ عند كلامه مع مديرة مكتبى، لأن تلك فى شعوره هى الأصول، فتقرأ له القائمة المعدة لى كلها.

18

بعد وفاة عبدالناصر سمعت عمن يرشحنى لرئاسة الجمهورية، وشىء طريف أن يقال عن الواحد أنه رشح نفسه لرئاسة الجمهورية وأيضًا شىء لطيف أن يرشحه الآخرون، لكن لنتكلم عن الترشيح، كيف يمكن أن يكون هناك مرشح لا تسنده قوى حقيقية من القوى الفاعلة فى الحركة السياسية فى بلد من البلاد.

المؤسسات التى كانت موجودة يوم وفاة عبدالناصر فى 22 سبتمبر هى:

الاتحاد الاشتراكى، وفيه بعض الناس الذين أختلف معهم، لأننى أعتقد انهم أفرغوا الاتحاد الاشتراكى من مضمونه.

القوات المسلحة التى كانت فى ذلك الحين وبظروفها مشغولة بمعركة، وعلى أى حال أنا لست من القوات المسلحة ولا من التنظيم السياسى.

كل الذى كان أننى صحفى أكتب، وآرائى بشكل ما كانت تلقى الصدى.

ثم إننى كنت صديقًا وقريبًا من جمال عبدالناصر.

فقال البعض: يلا نرشحه، ثم إننى لم أكن موجودًا فى الإدارة الحكومية، ولم أكن نائب الرئيس، وفى الواقع كان هناك دستور مصرى، وكنت أنا مع احترام التقاليد الدستورية، لأن أى خروج عليها فى ذلك الوقت كان من الممكن أن يؤدى إلى حرب أهلية، لذلك بعد الوفاة عندما نزلنا من غرفة عبدالناصر، سألنى الرئيس السادات يومها: رأيك إيه؟

وكان رأيى أنه لا بد من العمل بالدستور، وكان الحل الوحيد أن يتقدم الرئيس السادات- وكان يومها نائب الرئيس- ليملأ الفراغ ويجرى استفتاء بعد ستين يومًا، ولم يعترض أحد على هذا، لأننا أتينا بقاعدة وضعت فعلًا لمثل هذا الظرف كى يحتكم إليها.

19

بعد أربعين يومًا فقط من وفاة عبدالناصر، كتبت «عبدالناصر ليس أسطورة».

خشيت فى أعقاب رحيله والحزن عميق عليه من إضفاء طابع كهنوتى على تجربته السياسية والتاريخية، وأن يقف على أبوابها كهان وحراس، فالتجارب الكبرى بنت زمانها، ولدت على مسارحه، وتفاعلت مع تحدياته، نجحت وأخفقت، صعدت وتراجعت، لكنها حدثت فى سياق تاريخ يجرى لا أسطورة تنشدها قرائح شعراء ورواة.

قيمته تؤكدها معاركه وقضاياه والأحلام التى حملها

والمشروع الذى دعا إليه، وهذه وقائع تاريخ لا أساطير منسوبة.

هذا كله صحيح، غير أن تلك التجارب قد تلخصها صور ورموز تتحول فى المخيلة العامة إلى أساطير من لحم ودم تستند إلى وثائق مثبتة ومعان ملهمة.

الكل فى مدارى
وقائع 9 يونيو 1967
1

المكان.. بيت جمال عبدالناصر.

الزمان 9 يونيو 1967.

ذهبت إلى الرئيس فى الساعة السابعة إلا خمس دقائق صباحًا، أحمل معى مشروع خطاب التنحى الشهير، وكنا قد اتفقنا على توجهه العام خلال اتصالين تليفونيين أجراهما معى من مقر قيادة القوات المسلحة فى مدينة نصر مساء يوم 8 يونيو.

قبل أن ألتقيه حاصرتنى لحظات صعبة لا أعرف كيف مرت على.

فى الليلة السابقة كنت أجلس فى غرفتى وفى خاطرى أن أحلامنا الكبرى انهارت، فكرت فى عبدالناصر وآلامه التى كانت فوق طاقة البشر، كان وكأنه كبر عشر سنوات، كان صادقًا فى مشاعره وتصرفاته، معتقدًا أنه خذل أمة أولته ثقتها كما لم تفعل مع أحد آخر، قرر أن يتنحى، وطلب منى أن أكتب ما اتفقنا عليه من خطوط عريضة.

وجدت جمال عبدالناصر واقفًا أمام مكتبه يتكلم فى التليفون، أومأ أن أنتظر ثم أشار إلى مقعد أمام المكتب كى أجلس، لم أفعل، ابتعدت حتى يتكلم على حريته، وقفت أمام دولاب المكتبة المواجه للمكتب أحاول قراءة عناوين الكتب المرصوصة، لم أستطع التركيز على أى منها.

التفت إلى ناحية الرئيس وهو منهمك فى حديثه التليفونى.

أدهشنى كيف بدا.

إننى لم أره منذ ثلاثة أيام.

تحدث معى تليفونيًا عدة مرات، لكنه الآن اختلف كثيرًا عما رأيته آخر مرة.

عشر سنوات على الأقل زادت على عمره خلال ثمانى وأربعين ساعة لم أره فيها، بدا أن هم الدنيا كلها نزل فجأة على كتفيه، أشعر بأزمته وأراها بعينى.

مع من يتكلم فى هذه الساعة من الصباح فى هذا اليوم الكئيب؟

لا ينبغى أن أركز على الإصغاء، أصغيت، فهمت بعد عبارتين أنه يتحدث مع عبدالحكيم عامر، نظر إلى، أدرك أننى أخذت أتابع، وضع يده على بوق سماعة التليفون، وجه إلىّ الكلام: عبدالحكيم.

ثم استطرد: عبدالحكيم وصلته معلومات بأن قوات إسرائيلية تعبر القناة الآن من الشرق إلى الغرب.

قلت على الفور: مستحيل.

أشار مستفهمًا، فكررت ما قلته، رفع يده عن بوق التليفون.

قال لعبدالحكيم: انتظر.. هيكل دخل عندى الآن ويظهر أن له رأيًا.

التفت إلى جمال عبدالناصر وسماعة التليفون ما تزال فى يده، وإن أبعدها ونزل بها إلى قرب سطح المكتب.

سألنى: لماذا مستحيل؟

كان ردى أن ذلك لا يمكن أن يكون معقولًا.

إسرائيل بوصولها إلى الضفة الشرقية لقناة السويس حققت أكثر مما كانت تخطط له أو تحلم به، أكثر مما تحتمله الموازين الإقليمية والدولية، وأكثر مما تحتمله حقائق الواقع

على الأرض، وصول القوات الإسرائيلية إلى قناة السويس بعد زحف طويل وسريع ومنهك يفرض عليها أن تنتظر ولو لإعادة تجميع الصفوف، قبل أى حركة جديدة.

وأضفت: أى تقدم فى الغرب معناه الآن أن الجيش الإسرائيلى سوف يبدأ نوعًا جديدًا من المعارك لا يريده كما أنه ليس مستعدًا له، لأن أى معارك فى الغرب سوف تكون معارك مدن أو قرب مدن، وسط تجمعات سكانية، نظرية الحرب الإسرائيلية لا تقبل هذا النوع من الحروب الذى يكلف أرواحًا بشرية عالية.

لخص جمال عبدالناصر لعبدالحكيم عامر ما سمع منى، ثم ناولنى سماعة التليفون أشرح بنفسى وجهة نظرى لعبدالحكيم.

أعدت عليه ما قلت.

قال: هذا كلام نظرى فات وقته.

قلت: هذا جائز ولكنى ما زلت أعتقد بصحته، وأخشى أن المعلومات التى وصلت إليك أملتها الظروف التى أثرت على أعصاب بعض الضباط والجنود على الجبهة.

لم يرد جمال عبدالناصر أن يطول الجدل، أخذ سماعة التليفون وطلب من عبدالحكيم أن يتأكد بنفسه من قيادة القوات.

سأله: أين مرتجى «اللواء عبدالمحسن مرتجى قائد القوات البرية» على الجبهة؟

لم أسمع رد عبدالحكيم، ختم جمال عبدالناصر بقوله: حاول.

لم أعرف ما هو المطلوب من عبدالحكيم محاولته.. ربما الاتصال بمرتجى.

تحرك جمال عبدالناصر من وراء المكتب وجلس على أحد المقعدين الكبيرين «فوتيل» أمام المكتب، جلست أمامه، هز رأسه بأسى لم أر مثله منه فى تعبيره عن نفسه، رغم أننى رأيته من قبل فى أزمات كبرى.

أحسست لأول مرة أن الرجل الذى يجلس أمامى جريح، وهو ينزف دمه فى هدوء مأخوذ كأنه ما زال تحت نوع من الصدمة.

قلت فى محاولة للتخفيف عنه: إن المقادير تصيب الناس أحيانًا بما لم يتحسبوا له، ولكن المهم كيف يتصرف الناس بعد أن تضربهم المقادير؟

قال وهو يهز رأسه فى أسى عميق مرة أخرى: ما يؤلمنى أن المقادير لم تكن هى التى ضربتنا، نحن ضربنا أنفسنا.

التفت ناحية التليفون كأن الرجل الذى كان يحدثه فيه قبل دقيقتين تجسد فى مكانه وما زال هناك.

قال: عبدالحكيم ضيع أعصابه تمامًا.. وضيع جيشه.. ولا أستطيع أن ألوم أحدًا لأننى المسئول..عبدالحكيم كان يجب أن يمشى بعد الانفصال.

استطرد جمال: بعد الانفصال كان عبدالحكيم يشعر فى أعماقه أنه قائد مهزوم، أى قائد عسكرى مهزوم- مهما تظاهر- يفقد الثقة فى قراره، يتردد، التردد معناه معاودة التفكير والتقدير، القائد العسكرى الذى يفقد الثقة فى قراره يتظاهر بالقوة أكثر مما يحس بها داخل نفسه، ظننت أن تجربة الانفصال سوف تفيده، أعرف الآن أننى أسأت التقدير.

تصورت قبل أن أجىء أن جمال عبدالناصر لا يريد أن يتكلم فيما جرى الآن، وكنت عزمت ألا أثقل عليه بسؤال، بدا لى أنه يريد أن يتكلم، ربما يشعر أن الكلام يريحه، الرجل فعلا فى حاجة إلى أن ينفس عن نفسه وأن يفضفض.

ترددت قبل أن أوجه إليه سؤالًا.

لا أريده أن يظن لحظة حتى فى مثل هذا اليوم أن طبيعة الصحفى لدى تطغى على ما عداها.

لم أكن أريده أن يتخيل فى هذه الظروف أنه مع الصحفى.

أردت لنفسى وأردت له أن يثق أنه مع الصديق وليس مع الصحفى.

شعرت أن الفارق خيط رفيع: ما هو الفارق العملى بين أن يفضى إلى صديق وبين أن يتحدث إلى صحفى هو نفسه الصديق؟

أحس جمال عبدالناصر بترددى، أشعل السيجارة الثالثة التى رأيته يشعلها فى أقل من ثلث ساعة قضيتها معه حتى الآن، كان يشد الأنفاس من السيجارة وكأنه يملأ بها صدره إلى الآخر، ثم ينفث الدخان وكأنه يطرده، طلب فنجانين من القهوة.. وراح يتكلم.

بدأ جمال عبدالناصر قائلًا: الكارثة أن عبدالحكيم تصرف سنة 1967 وكأننا ما زلنا فى سنة 1956، كأننا فى السويس مرة أخرى.

هذه المرة كنا نتحرك لمساندة سوريا أمام التهديدات التى تتعرض لها من إسرائيل، وقد وصلت إلى حد تهديد ليفى أشكول يوم 8 ابريل بأن القوات الإسرائيلية مستعدة لاحتلال دمشق نفسها لضرب النظام فى سوريا وفى عقر داره.

وكانت هناك بالفعل حشود قوات إسرائيلية على الخطوط مع سوريا.

ذهب فوزى «الفريق محمد فوزى رئيس أركان حرب القوات المسلحة» إلى ما أبلغه لنا السوفيت والسوريون، وأكدته الأخبار العلنية والتصريحات والتهديدات، عندما جاء فوزى كانت العجلة دارت.

واصل جمال كلامه: فى السويس 1956 كان لا بد أن نسحب القوات من سيناء فور أن وصلنا الإنذار البريطانى الفرنسى بالتدخل، معنى بقاء القوات فى ذلك الوقت، وبعد قرار إنجلترا وفرنسا أن تتدخلا فى الحرب بالتآمر مع إسرائيل، أن القوات فى سيناء سوف تصبح مقطوعة عن قواعدها فى الوادى ومعزولة عن قيادتها فيه، ستكون القوات فى مواجهة إسرائيل فى سيناء، وينزل الإنجليز والفرنسيون وراءها.

واجهنى مباشرة: وقتها تذكر أن عبدالحكيم كان لا يريد الانسحاب من سيناء، وقد طلب إلى القوات أن تقاتل إلى آخر رجل وآخر طلقة، ذهبت إلى القيادة وقلت له إن هذا جنون مطبق لأن عليك أن تأمر بسحب القوات من سيناء وتأمر بضمها إلى قوات الجيش الرئيسى.

وقلت له: بدل أن تترك مصر كلها مكشوفة للقوات البريطانية الفرنسية، حدد أولوياتك، الإنجليز والفرنسيون أولًا دفاعًا عن الدلتا والقاهرة، فإذا نجحت فأمر إسرائيل فى سيناء بعد ذلك مقدور عليه.

كان معظم أركانات حربه على ذلك الرأى، ذلك أبسط ما يقول به العلم العسكرى، لكن عبدالحكيم غلب عنصر الكرامة والكبرياء، والحرب ليست كذلك، الحرب بالدرجة الأولى نفس طويل، كل معركة جزء من حرب وليست كل الحرب.

هذه المرة 1967 بدأ عبدالحكيم عامر من حيث انتهينا سنة 1956، والظروف مختلفة، مختلفة جدًا لأننا هذه المرة كنا أمام جبهة واحدة فى سيناء، وحينما أصدر عبدالحكيم أمر الانسحاب من سيناء «تكرارًا لما جرى فى السويس» كان معناه دون أن يفهم أنه بذلك يعطى للقوات الإسرائيلية ما تريده بالضبط.

فى المرة الماضية كنا نريد سحب الجيش من سيناء حتى وإن لم يقاتل لأننا كنا نريده لمواجهة الإنزال البريطانى الفرنسى عندما ينفذ الإنجليز والفرنسيون إنذارهم باحتلال

القناة، هذه المرة كان الأمر يختلف، لماذا ينسحب الجيش من سيناء ولا يقاتل طبقًا لخططه؟

عبدالحكيم أصدر قراره بالانسحاب من سيناء بعد أن عرف بحجم الخسائر فى ضربة الطيران صباح يوم 5 يونيو، أحس بالانكشاف بعدها وظن أن عليه سحب القوات وهذا تصرف غريب.

المرة الماضية كان الهدف غزو قناة السويس، هذه المرة الهدف سيناء، الظروف تغيرت، ولا بد للقائد أن يتصرف بمطالب الوضع الجديد، ويحارب المعركة الدائرة أمامه اليوم، ولا يحارب المعركة التى كانت بالأمس، معركة الماضى، كذلك تقول مبادئ العلم العسكرى.

عبدالحكيم فوجئ بضربة الطيران الإسرائيلى، بقوة الضربة.. بخسائرها، وفقد أعصابه وراح يتصرف فى معركة سنة 1967 بالمنطق الذى اقتضته معركة 1956، وهذا أسوأ ما يتصرف به قائد عسكرى.

لم يخطرنى عبدالحكيم بقرار الانسحاب قبل إصداره لأنه فى الغالب كان مكسوفا من نفسه بعد ضربة الطيران، وكان يريد أن يثبت للجميع ولى أنه قادر على القرار، وهو لم يكن قادرًا بعد المفاجأة، حاول أن يخفى عنى حجم خسائر الضربة، وظل يراوغ ثلاث ساعات، حتى بعد ضربة الطيران الإسرائيلى كان اعتقادى واعتقاد كثيرين غيرى فى القيادة أن القوات فى سيناء تستطيع أن تحارب معركة دفاعية كبيرة من مواقع ثابتة، وفيها كانت تستطيع تعطيل التقدم الإسرائيلى وتعطينا وقتًا لعمل سياسى واسع، لكن قرار الانسحاب زاد فى انكشاف القوات المصرية، لأن الإسرائيليين لاحقوها وهى تتحرك تحت سماء مكشوفة لهم فيها السيطرة الكاملة على الجو ووضعوها نفسيًا بالدرجة الأولى فى موقف شديد الصعوبة.

سنة 1956 تركنا فى سيناء كتائب وطلبنا منها أن تتمسك بمواقعها ثمانى وأربعين ساعة حتى نغطى انسحاب مجموعة

الجيش الرئيسية وراء قناة السويس، وذلك تحقق، رغم أن الجيش الإسرائيلى كله بفرقه المدرعة وطيرانه كان يوجه كل قوته على هذه الكتائب الستة.

عندما عرفت صباح 6 يونيو بقرار الانسحاب ذهبت إلى القيادة على عكس ما كنت أنتويه، يحكى لك سعد متولى «اللواء سعد متولى قائد القوات التى قاومت فى سيناء سنة 1956 حتى المدى الذى طلب منها وقد أصبح فيما بعد قائدًا للحرس الجمهورى».

فى الأصل لم أكن أريد أن أظل طويلًا فى القيادة حتى لا أضغط على أعصاب المسئولين فيها.

أردت أن أترك لهم حرية التصرف، خصوصًا أننى كنت كلما أذهب يجىء كل إخواننا «أعضاء مجلس قيادة الثورة الباقين» إلى هناك، ونصبح بوجودنا زحامًا حول القرار العسكرى.

بعد قرار عبدالحكيم بالانسحاب كان لا بد أن أذهب إلى القيادة، حاولت أن أعيد بعض القوات، خصوصًا الفرقة المدرعة الرابعة، كان الوقت قد تأخر، أمر الانسحاب مبكرًا فى المعركة دعا الوحدات إلى أن تتصرف كل منها وفق مطالب سلامتها، وذلك صنع فوضى استعصت على أى محاولة للسيطرة والقيادة.

لم أكن أريد أن أقاطع جمال عبدالناصر وهو يفيض ويستفيض، لكنى عند هذه النقطة من كلامه وجدت نفسى حتى بالرغم منى أتدخل بسؤال: كيف فوجئ عبدالحكيم وقد كانت الحقيقة أمام كل الناس، وحتى على صفحات الجرائد؟

كررت سؤالى مرة ثانية: كيف فوجئ عبدالحكيم؟

واصل جمال حديثه بادئًا من حيث قاطعته بسؤالى: السبب الوحيد المعقول الذى أجده لتفسير موقف عبدالحكيم هو أنه اعتمد أكثر مما يجب على رسالة «يو ثانت» السكرتير العام للأمم المتحدة.

كانت الرسالة قد وصلت إلى مصر فى 29 مايو 1967 وبه إشارة إلى اتفاق دولى على مهلة انتظار تلتزم بها كل الأطراف لفترة أسبوعين، أى أنها كانت سارية حتى 12 أو 13 يونيو.

وجه عبدالناصر كلامه لى: أنت قرأت هذه الرسالة، وكتبت ردًا بموافقتنا عليها أرسلناه لـ«يو ثانت».

وأضاف: عبدالحكيم أعطى لهذه الرسالة اهتمامًا كبيرًا، خصوصًا عندما قابله السفير السوفيتى يوم الجمعة 2 يونيو، وسلمه نص رسالة بهذا المعنى بعث بها الرئيس الأمريكى «ليندون جونسون» إلى كوسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى.

كان عبدالناصر متدفقًا: تتذكر يوم الجمعة الماضى «زى النهارده» أنك كنت هنا، عندما تحدثت مع أنتونى ناتنج، وسمعت قولى له أننى أتوقع الحرب فى أيام، وربما ساعات، بعدها كما تذكر كنت ذاهبًا إلى اجتماع فى القيادة، وأثناءه قلت لعبدالحكيم أمام الجميع إننى أتوقع اندلاع القتال فى يومين أو ثلاثة على أقصى تقدير، أظننى حددت يوم الإثنين بالذات.

بدأ يروى لى تفاصيل أكثر.

قال: عبدالحكيم خرج معى يوصلنى إلى باب القيادة.

أخذنى على جنب وسألنى: إذا كنت اطلعت على رسالة يو ثانت.

قلت له: إننى اطلعت عليها.

قال لى: إن السفير السوفيتى جاءه قبل ظهر اليوم الجمعة 2 يونيو وأبلغه بنص رسالة جونسون إلى كوسيجين، وهى متفقة بالكامل مع رسالة يو ثانت، الذى قال إنه حصل على تعهد كل الأطراف بتجميد المواقف أسبوعين على الأقل، وجونسون يؤكد لكوسيجين نفس الشىء، وأنت كما سمعنا

منك تقول برأى آخر، وقلت لعبدالحكيم: لا أثق كثيرًا فيما يقدم لنا من تعهدات، ولا يضيرنا أن نكون مستعدين لكل الأوقات.

واصل عبدالناصر: اعتقادى أن عبدالحكيم صدق هذا كله، وهذا وحده ما يفسر أمامى حقيقة أنه قرر القيام بزيارة للقوات فى المواقع المتقدمة فى سيناء صباح الإثنين 5 يونيو، وفاجأته الضربة الجوية الإسرائيلية وهو فى طائرته فى سماء سيناء ومع معظم هيئة أركان حرب وقادة الأفرع الرئيسية، هذا هو التفسير الوحيد الذى أجده مبررًا لتصرفه، هذا تصرف رجل لم يكن يتوقع الضربة فى ذلك اليوم.

انتبه عبدالناصر أكثر.

قال: عبدالحكيم عاد إلى القاهرة كما تعرف، وعندما بدأ يتخذ قراراته كان قرار الانسحاب أولها، كان الشبح الذى يتصرف داخله هو ظل القائد المهزم، يتظاهر بالقوة لكنه فى داخله متردد يفتقد الثقة فى نفسه، حاولت والكل فى القيادة حاولوا حصر الموقف وتقليل الخسائر والمحافظة على كل ما يمكن المحافظة عليه من القوات، خصوصًا الرجال- السلاح يعوض- الرجال لا يعوضون، وبرغم كل شىء فإن المصيبة كبيرة، وليس فى مقدورى أن ألقى المسئولية على غيرى، وهذا ما يجب أن نقوله للناس.

3

بدا وكأن عبدالناصر قد تذكر الهدف الذى جمعنا هذا الصباح، وكانت الساعة قد وصلت إلى الثامنة وعشر دقائق.

سألنى: ماذا كتبت؟.. لا بد أنك وجدت صعوبة كبيرة فى كتابته؟

قلت: إن معى الآن مشروعًا لا ينقصه إلا اسم من تراه قادرًا على تحمل مسئولية الرئاسة بعدك؟

واستطردت: قلت لى أمس أنك مع عبدالحكيم اتفقتما على

أن يكون شمس بدران هو الرئيس الجديد، ولا بد أن أعترف لك أن ذلك اتفاق لم أستطع فهمه، إننى حتى لم أستطع فى المشروع الذى أعددته أن أكتب اسم شمس بدران فى موقعه من نص الخطاب.. لماذا شمس بدران؟

ثم أضفت: أى رصيد لشمس بدران عند الناس وفى مثل هذه الظروف؟

رد جمال عبدالناصر: شمس مناسب من أجل الجيش، الجيش بعد ما جرى فى سيناء مجروح ووحداته عائدة من الجبهة غاضبة، ولها الحق، والشعب هو الآخر سوف يصل إلى أقصى درجات الغضب عندما يعرف الحقيقة، والخشية أن يحدث احتكاك يعبر فيه الناس عن غضبهم، ويتصرف الجيش بجرحه، وتحدث مواجهة، مصيبة تزيد مصيبة.

قلت إننى بصراحة لم أستوعب ما يقول.

وأضفت: شمس بدران واحد من المسئولين عما جرى بوصفه وزيرًا للحربية، ثم هو من جماعة لا رصيد لها عند الناس، وإذا أصبح رئيسًا للجمهورية فخشيتى أن غضب الناس سوف يزيد، وسوف يكون الصدام الذى تتحسب له بين الجيش وبين الناس حقيقة مؤكدة وليس مجرد احتمال متوقع.

قال ردًا علىّ: إننى اتفقت بالأمس مع عبدالحكيم على اختيار شمس للأسباب التى قلتها لك.

كان يراودنى وقتها إحساس مبهم بأنى فى هذه اللحظة أعبر عما هو أكثر من صديق وأكثر من صحفى، وقد استغربت من نفسى هذا الشعور المبهم، وظللت أستغربه طوال حياتى.

وجدتنى أقول لجمال عبدالناصر: على عينى ورأسى أنت وعبدالحكيم فكرتما أمس داخل غرفة مغلقة وتحت ضغوط مخيفة تحيط بهذه الغرفة المغلقة، الأمور أكبر من ذلك بكثير، هذا هو الآن مصير بلد بجيشه وشعبه.

ومضيت أقول: أنت قررت الاستقالة وهذا قرار سليم، وذلك قرار لا بديل له، والحل بعده وهو منطق الأشياء، أن تعود الأمور بالكامل للناس، فيكون هناك رئيس مؤقت يلم أجزاء الموقف وشظاياه، ثم يقرر الناس بعد ذلك ما يريدون فى استفتاء عام على أساس جديد ودستور جديد.

قال جمال عبدالناصر: هل تتصور أن تداعى الحوادث سوف يترك لأحد فرصة لذلك، لاستفتاء ودستور؟ ما تريد أن تقوله فى الواقع أن شرعية الثورة انتهت ولا بد من بداية جديدة.

قلت: الحقيقة أن ذلك ما أردت قوله. تذكرت وأنا أكتب مشروع الخطاب مقولة «ديجول» إن «أى نظام يعجز عن حماية التراب الوطنى لبلده يفقد شرعيته».

قال: هذا صحيح لا نختلف عليه.

قاطع جمال عبدالناصر نفسه سائلًا: كيف تظن وقع الحقيقة على الناس عندما يعرفون، عندما يسمعون ما سوف أقوله؟

أشار إلى ملف وضعته أمامنا على المائدة يحتوى على مشروع خطاب التنحى.

قلت له: إذا لم أكن مخطئًا فإن الناس لديهم الآن فكرة عن الحقيقة، الناس يدركون بالمشاعر أكثر مما يعرفونه بالمعلومات، خصوصًا أوقات الأزمات.

قال جمال عبدالناصر: الصدمة سوف تكون قاسية، وهنا أهمية استيعاب الموقف بعد أن أمشى أنا.

أحسست أن صوته اختلج بالتأثر، لقد نطق بلفظ «أمشى» عدة مرات من قبل، لكنه وهو يعيد اللفظ أمامى فى معرض مواجهة الناس بالحقيقة وتمثل صدمة المسئولية يزيد تأثره.

وقلت: بالضبط.. وهنا عدم اقتناعى باختيار شمس بدران.

وأحسست أنه يريد أن يسمع عن بديل مقنع.

قلت: لماذا لا يكون بعدك زكريا محيى الدين؟

وقال مستغربا: زكريا محيى الدين.. اشمعنى؟

قلت: خطر لى أنه الأقدم بين الأعضاء الباقين من مجلس الثورة، وهذا نوع من استمرار الشرعية.. هو أيضًا رجل عاقل.

قال: صحيح.. لكنك لم تأخذ فى حسابك موقف الجيش ولا موقف الاتحاد الإشتراكى.

قلت: الجيش يريد رجلًا يعطيه إحساسًا بالاطمئنان بعد كل ما جرى.

قال: والاتحاد الاشتراكى؟

قلت: تعرف رأيى فيه.. وما زلت مقتنعًا به.

قال وكأنه يتحدث مع نفسه: زكريا بالفعل رجل عاقل وموزون.

أضاف وصوته يبدو قادمًا من بعيد: زكريا أيضًا يمكن أن يكون مقبولًا عالميًا، خصوصًا فى الغرب، هو يعرفهم من زمن طويل، وقد تعامل مع كثيرين هناك عن قرب بعد الثورة، ومع الأمريكان بالذات، وخصوصا عندما كان فى المخابرات، زكريا يختلف عن غيره من القادرين على الاتصال مع الأمريكان إذا اقتضت الضرورات، هو سوف يباشرها من موقف وطنى، ذلك الاتصال فيما أظن سوف يكون لازمًا، لكن هناك مشكلة السوفيت.

قلت: إن السوفيت سوف يفهمون معنى مجىء زكريا محيى الدين أكثر مما يفهمون معنى مجىء شمس بدران.

قال: لاحظ إن موقف السوفيت سوف يكون مهمًا لأى رئيس جديد، فى هذه الأزمة حيرنى موقف السوفيت، إنهم هم الذين بدأوا بتحذيرنا من الحشود الإسرائيلية ضد سوريا، لكنهم توقفوا فى منتصف الأزمة ليتحولوا إلى وسطاء، أستطيع أن أتصور بعض أسبابهم، نحن لم نتعامل معهم كما

تتعامل إسرائيل مع الأمريكان، نحن لم نكن نستطيع حتى إذا أردنا، إسرائيل فاعل رئيسى فى خطط السياسة الأمريكية، نحن لسنا كذلك بالنسبة للسوفيت، نحن نريد أن نكون مستقلين، تركبنا الحساسية إذا قال لنا السوفيت «بم».

قلت: فى كل الأحوال فإن شمس بدران لا يمكن أن يكون رجل هذه الظروف.

قال: اترك لى الفرصة أفكر، لا بد أن تأخذ فى حسابك أنه لن يكون لدينا مصدر لتعويض الخسائر فى السلاح غير السوفيت، لو أراد زكريا أو غيره أن يتفاوض مع الأمريكان أو ليكسب وقتًا فسوف يكون فى حاجة إلى سلاح، لا يستطيع أحد أن يتصرف على أى نحو بادئا من الموقف العسكرى كما هو الآن، ذلك موقف لا بد من تصحيحه.

أضاف: اترك الآن اسم الرئيس المقترح، ودعنا نقرأ مشروع الخطاب الذى أعددته، وحين نصل فيه إلى الموضع المناسب نعود إلى المناقشة بمنطق سياق الخطاب.

4

أحسست أن ذلك مطمئن، على الأقل لم يصمم على شمس بدران، وإن أمامنا وقت قبل الوصول إلى يقين.

طلب إلىّ جمال عبدالناصر أن أقرأ نص المشروع الذى كتبته، وكنت أتحسب لذلك عارفًا من البداية أن ذلك سيحدث لداع عملى يسبق غيره، فهو لا يستطيع قراءة خطى، يراه صغيرًا منمنمًا، ويراه كذلك ربما بحكم السرعة متآكلًا، لا تكتمل حروف كلماته.

لم أكد أقرأ ثلاثة سطور أو أربعة حتى استوقفنى عند الجملة التى ورد فيها تعبير «النكسة» لأول مرة، ونصها: «إننا لا نستطيع أن نخفى على أنفسنا أننا واجهنا نكسة خطيرة خلال الأيام الأخيرة».

سألنى جمال عبدالناصر: لماذا اخترت تعبير «نكسة».. أنا

مستريح مع الكلمة لكننى أريدك أن تكون واثقًا من سلامة اختيارها.

قلت: إننى توقفت كثيرًا قبل أن أستقر عليها، كان أمامى أن اختار بينها وبين ثلاثة أوصاف أخرى طرحت نفسها علىّ أثناء كتابة مشروع الخطاب.

كلمة «صدمة» وقد وجدتها أقل من اللازم.

وكلمة «هزيمة» وقد وجدتها أسوأ من اللازم.

ثم كلمة «نكسة» وقد أحسست مثلك أننى مستريح لها.

استطردت قائلا: إننا لو استعملنا كلمة هزيمة فذلك سوف يكون خطرًا لعدة أسباب.

كلمة هزيمة معناها أنك أو من يجىء بعدك قرر الاستسلام كما فعلت ألمانيا وإيطاليا واليابان فى الحرب العالمية الثانية.

كلمة هزيمة أيضًا تؤثر على معنويات قوات ما تزال تشكيلاتها- أو بعض تشكيلاتها- تقاتل فى سيناء وعلى ضفتى قناة السويس، ولا أعرف كيف يتأتى أن نقول لهم إنها «الهزيمة» ثم نطلب منهم أن يقفوا ويعطوا أرواحهم فداء وهم يعلمون أنه الوقت الضائع.

وإذا كنا لا نريد الاستسلام فقد ترى أن تترك تقدير الموقف: نكسة أو هزيمة أو كارثة للرجل الذى سوف يأتى بعدك، لا بد أن تعطيه مجالًا يتحرك فيه.

قاطعنى جمال عبدالناصر قائلًا: الاستسلام غير مطروح، خسائرنا لا تستدعى الاستسلام، تستدعى جهودًا سياسية جديدة مكثفة يقوم بها رجل آخر ليكسب وقتًا يقاتل فيه بجد أو يبحث فيه عن حل بالسياسة، يستعد للمواجهة فى يوم آخر.

واصل كلامه: أظن أنه لا بد من مواصلة جهود مع الأمريكان، أى جهد أقوم به أنا لن يصل إلى نتيجة، وصلت

معهم إلى طريق مسدود، ثم إننى أرى رأى العين مشاركتهم الكاملة لإسرائيل على اللعب بوسائل المناورة السياسية، مع أن الأمر تعدى ذلك، هذه الخديعة عن فترة تجميد لأسبوعين، رسالة جونسون التى عرض علىّ فيها أن يبعث بنائبه همفرى ليبحث معى الأمور فى القاهرة، ترحيبه بردى عليه مقترحًا إرسال زكريا محيى الدين إلى واشنطن ليشرح له مواقفنا كلها، هذه الإمدادات من السلاح تحملها الطائرات من هناك ومن هنا إلى جوارنا من قاعدة هويلس فى ليبيا.

طلب أن أكمل قراءة الخطاب.

لم يعترض على شىء فيه، أظنه فى بعض الفقرات شرد منى إلى أفكار ربما استدعتها حول تعبير النكسة، وحول اسم شمس بدران، حتى وصلنا إلى جملة يقول نصها «إننى على استعداد لتحمل نصيبى من المسئولية»، استوقفنى، لم يعجبه تعبير نصيبى، ورأيه أنه يتحمل المسئولية كلها، لم أناقشه لأن المسئولية كل مسئولية فى إدارة أى صراع مسئولية سياسية، ولم نختلف.

عندما وصلت فى القراءة إلى الفقرة الخاصة بقراره أن يتنحى «عن أى منصب رسمى وعن أى دور سياسى» توقفت ونظرت إليه، كنت أريد فرصة للتوقف لأننى أحسست أن نبرات صوتى، وقد حاولت أن أضعها كلها فى خدمة ما أقرأ على وشك أن تتحشرج تأثرًا.

كان اعتقادى من أول لحظة أن ذلك لا يصح أن يحدث، الرجل يحتاج الآن إلى أصدقاء يشجعونه على قراره الصعب، أما أن يضعف أصدقاؤه أمامه فقد يؤثر ذلك عليه، تذكرت أنه لسوء الحظ ليس معنا الآن أصدقاء كثيرون يستطيعون المساعدة على التماسك.

كان هناك هو وأنا وليس معنا إلا الله.

من حسن الحظ أنه كان قد انتقل إلى نقطة أخرى مترتبة على تحمله وحده للمسئولية.

قال إنه لا يعرف ماذا سيفعل به الناس؟

قال إنه سوف يرضى بأى شىء ولن يلتمس لنفسه عذرًا، ولن يقدم دفاعًا وسوف يقبل كل شىء، قابلًا ممتثلًا حتى للمحاكمة والشنق فى «ميدان العتبة» ولم أعرف لماذا ميدان العتبة بالذات.

انتقل جمال عبدالناصر إلى الرجل الذى سوف يخلفه.

قال: لك حق، إن مسئولية المستقبل تقتضى رجلًا آخر غير شمس، زكريا اختيار معقول، وعندما كنت أنت تواصل القراءة كنت أفكر، وجدته على رأيك أنسب حل، هو عضو مؤسس فى مجلس قيادة الثورة، وهو أقدم الأعضاء الباقين إلى الآن، وطنى، عقله منظم، يستطيع أن يلم الناس، يستطيع أن يحوز ثقة الجيش، سمعته طيبة بين القوات.

5

اقترح جمال عبدالناصر أن أذهب بنص المشروع- عبر الشارع- إلى سكرتارية المعلومات، قال لى: اعط النص لسامى شرف حتى يكتبوه على الماكينة، وقل له أن يستعملوا بنطًا أكبر من العادة هذه المرة لأنى متعب، كل شىء فى متعب بما فى ذلك عيناى.

طلب أن أترك المساحة التى تركتها لاسم من يخلفه بياضًا حتى يفكر أكثر فى الأمر.

قضيت فى مكتب سامى نصف ساعة ريثما قرأ النص بدوره، وقد انفعل بشدة وصرخ قائلًا: لا يمكن.

قلت له: إن ذلك ليس وقته، وإن هذا هو الممكن الوحيد وأى شىء غيره لا يليق بالبلد ولا يليق بالرجل.

نادى سامى على عبدالرحمن سالم من موظفى الرئاسة ومختص بالآلة الكاتبة وكان خبيرًا فى فك رموز خطى، وانتظرت أن يقرأ نص الخطاب حتى أتأكد أنه تعرف على كل كلمة، وفوجئت بسامى يهجم على عبدالرحمن وينهال عليه

ضربًا عندما تهيأ للجلوس أمام آلة كاتبة جىء بها من مكتبه إلى مكتب سامى زيادة فى السرية.

كان سامى يضرب عبدالرحمن ويسبه، ويقول له: كيف تستطيع أن تكتب مثل هذا الكلام.

ثم عاد سامى يصرخ: حرام والله حرام.

فى هذه اللحظة دق جرس التليفون الداخلى بين مكتب الرئيس وبين سكرتارية المعلومات، رفعت السماعة بنفسى، كان جمال عبدالناصر يستعجل عودتى إلى مكتبه، سمع ضجيج ما يجرى حولى.

قال لى: قل لسامى لا أريد الآن فلتان أعصاب.

نقلت الرسالة إلى سامى وتحركت نحو الباب أخرج عائدًا عبر الشارع إلى مكتب الرئيس، فوجئت بعبدالرحمن يجهش بالبكاء قائلاً إن أصابع يده لن تطاوعه أن يدق ما كتبت على الآلة الكاتبة.

لم أكن على استعداد لما هو أكثر، استدرت إلى سامى وقلت له: سامى.. الرجل فى محنة وليس أمامه حل آخر، إما أن نسهل عليه القرار ونساعده على اجتياز المحنة، وإما أن نضغط عليه حتى ينهار، وذلك شىء لا يليق بتاريخه ولا بالمكانة التى رفعته إليها الأمة.

عدت إلى جمال عبدالناصر، كان ما حدث فى مكتب سامى ما زال يضايقه.

وجدته يقول لى: تحتاج الأمة إلى من يضمد جراحها حتى تتمالك نفسها بعد صدمة ما جرى، لا يفهمون إننى لا بد أن أتحمل مسئوليتى، وبعدها فإن وجودى عبء على الأمة حتى فى محاولة تضميد الجراح، حقيقة لا أستطيع أن أتعامل مثلا مع الأمريكان، وهناك ضرورة لاستمرار التعامل معهم، قلبى ملىء بالمرارة منهم، وهذا شعور خطر فى السياسة، لا نستطيع فى السياسة أن نحب ونكره، المبادئ والمصالح

وحدها يجب أن تحكم وليس الحب والكراهية.

واستطرد جمال عبدالناصر: جونسون يكرهنى وقد استطاع اصطيادى، وهذا شغله، لا بأس، يستطيع أن يصيدنى، لكن يظل وقوعى فى الفخ مسئوليتى، أما الأمة فتستطيع أن تجد مخرجًا من الفخ، وزكريا يقدر، جونسون لا يدرك أنه داخل بأمريكا فى عداء مع العرب لا يعرف له نهاية، ومع ذلك فهذا شغله.

كنت أنظر إليه والقرار بأن يخلفه زكريا محيى الدين يصدر عنه فى زحام الكلام، وكانت نظرتى إليه بما معناه سؤالى عما إذا كانت تلك كلمته النهائية.

قال: نعم.

وأضاف: وأزداد اقتناعًا كل دقيقة.

لم أر جمال عبدالناصر يدخن بكل هذا الإصرار على سحب أكبر كمية من الدخان إلى صدره، على أننى لاحظت أن السيجارة فى يده ثابتة، وقد تراجعت نظرة حزن ملأت عينيه عندما دخلت، فى عينيه الآن نظرة حزم، خطر لى أنه فى حاجة الآن إلى كل أعصابه.

سألنى: متى نقول لعبدالحكيم؟...أقدر أنه سوف يجن جنونه عندما يسمع أننى اخترت زكريا محيى الدين، سوف يظن أننى خدعته، وأنت تعرف أننى لم أخدعه.

كان رأيى أن يترك عبدالحكيم ليسمع قراره مع إذاعة الخطاب، أى إخطار له قبل هذا الوقت قد يدفعه إلى عمل طائش.

قال بصوت بدا قاطعًا: لا يستطيع أن يفعل شيئًا، الأمور تجاوزته، تجاوزتنا جميعا.

عاد جمال عبدالناصر يسألنى: لا بد أن أقول لزكريا مبكرًا حتى يستعد، أعرف أنه سوف يستهول ما ألقيه عليه، لكنه

منضبط ولا يستطيع أن يهرب من واجب.

سألنى، أو لعله سأل نفسه: متى أقول له؟

كان ردى: بعد أن يسمعها فى الخطاب، لو عرف قبلها قد يحاول الضغط لتغيير قرارك.

وافقنى ثم سألنى: ماذا أنوى أن أفعل؟

قلت: أنا الذى يجب أن أسألك ما الذى تنوى عمله؟

قال: خطر لى أنه لمرحلة سوف أستأذن من يجىء بعدى أن يسمح لى باستعمال بيت المعمورة، هو بعيد ومنعزل هناك على شاطئ البحر، حتى تتضح الأمور.

واستطرد: أنت كنت تقول لى دائمًا إنك تتمنى أن تعيش فى الإسكندرية عندما تصل إلى المعاش، سوف أسبقك أنا الآن إلى الإسكندرية.

توقف لحظة واستكمل كلامه قائلًا: حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولا.

سألنى: وأنت؟

ثم واصل السؤال: هل يكون كثيرًا عليك لو طلبت منك أن تواصل مع زكريا محيى الدين ما كنت تقوم به معى؟

قلت بابتسامة أظنها كانت متكلفة: أنت الآن تتدخل فى عمل رجل آخر.

قال: إننى سوف أقابله غدًا لجلسة طويلة أسلمه فيها ما عندى، وأقترح عليه تشكيل حكومة طوارئ حتى يجرى حساباته للموقف، لكنه سوف يحتاج إلى من يطلعه على خلفيات ودخائل الصورة ولو لفترة.

قلت: إننى فى هذه اللحظة لا أستطيع أن أفكر فى شىء، كل ما أستطيع التفكير فيه هو كيف يعبر البلد ساعات عصيبة

حتى الغد، أبعد من ذلك لا أرى.

قال لى كلمات مؤثرة عن الصداقة الحميمة بيننا، لكنه أراد أن أعرف مشاعره قبل أن نفترق غير عارفين إذا كان مقدرًا لنا أن نتقابل مرة أخرى أو أن هذه هى المقابلة الأخيرة.

زادت فى كلماته نبرة الحزم القاطع، قال: قبل أن أذهب إلى القبة وقبل إذاعة الخطاب سوف أصدر ثلاثة قرارات.

أن يكون فوزى «الفريق محمد فوزى رئيس أركان حرب القوات المسلحة» مسئولًا عن الجيش حتى يؤدى الرئيس الجديد قسمه الدستورى أمام مجلس الأمة.

ويكون شعراوى جمعة مسئولًا عن الأمن الداخلى حتى يتسلم الرئيس الجديد مسئوليته.

واستطرد: سوف أترك لك أنت مسئولية ثالثة، سوف يحدث فلتان أو محاولة فلتان بعد إذاعة الخطاب، وسوف أقول لفوزى وشعراوى وسامى أن يعودوا إليك فى شأن أى موضوع سياسى أو إعلامى، وسوف تتعرض لضغوط كبيرة، لكنى أرجوك من أجل البلد ومن أجلى أن تقف وتتمسك.

ثم عاد يقول لى: حاول أن تتصل بزكريا بعد إلقاء الخطاب، واشرح له ما يساعده على فهم الضرورات، وإذا وجدت رد فعله رافضًا فأقنعه بتأخير إعلانه حتى ألقاه صباح غد.

لم يكن هناك ما أقوله، وعادت العبارات عاطفية حزينة، لكن كلينا كان يتصرف عن فهم لمسئوليات اللحظة، بما فى ذلك خطورتها ورهبتها، ورأيته آخر مرة يتجه إلى السلم الداخلى لبيته، يصعد درجاته لكى يعد نفسه لخطابه الأخير إلى الأمة، كذلك كان تقديره وشعوره.

6

حينما عدت إلى سيارتى وجدتنى أتوجه تلقائيًا إلى بيتى، مع أن نيتى كانت أن أشاهد خطابه على التليفزيون فى

الأهرام، وفى منتصف الطريق كان رأيى قد استقر على أننى فى حاجة لأن أكون وحدى أثناء متابعتى لخطابه، وفى الساعة السابعة إلا خمس دقائق كنت جالسا أمام جهاز تليفزيون، وكانت الإذاعة على وشك أن تنتقل إلى قصر القبة والمواد المذاعة كلها فى التمهيد للخطاب، مارشات حماسية كنت أول من يعلم أنها متناقضة تمامًا مع الرسالة التى يحملها الخطاب.

ظهرت صورته على الشاشة وراح يقرأ، وكنت أكثر من غيرى أشعر بمدى الجهد الذى يبذله لكى يظل مسيطرًا على الموقف، وكادت سيطرته أن تفلت منه للحظة عندما وصل إلى الفقرة التى يعلن فيها تنحيه، ثم فرغ من الخطاب واختفت صورته من الشاشة.

ولأول مرة بدأت تصوراتى تذهب إلى ما لا يحتمل أن يحدث بعد انفجار النبأ، ولم تمض غير دقائق حتى جاءت الإجابة عما كنت أتساءل عنه، فإذا أنا أسمع أصواتًا فى الشارع لا أتبين مصدرها، ثم اقترب من نافذة تطل على كوبرى الجلاء فأجد ألوفًا من الناس يجرون عليه ولا يعرفون إلى أين، ولكنهم ذاهبون بأقصى سرعة وصراخهم متصاعد ينادى بما لم أستطع تمييزه من مكانى، ورحت أدير جهاز الراديو على بعض محطات الإذاعة أحاول التقاط ما عساه أن يكون للنبأ من صدى فى العالم الخارجى، وكانت بعض المحطات تقطع إرسالها وتذيع البيان.

اتصلت بالأهرام أسأل عن برقيات وكالات الأنباء وما حملته أو جاءت به مما أعلنه جمال عبدالناصر، قبل دقائق فى قصر القبة، وأحسست بالمفاجأة الضخمة التى وقعت على كل الرءوس من هؤلاء الذين تحدثت إليهم فى الأهرام، ثم قيل لى إن جماهير كبيرة من الناس تتدفق على مبنى الأهرام، وأن هتافهم الملح هو كلمة واحدة «ناصر».

فى بيتى راحت التداعيات تقتحم علىّ عزلة ساعات تمنيت أن أجلس فيها إلى نفسى، لكن طرق الوقائع بدا وكأنه يدق فوق رأسى.

زكريا محيى الدين يطلبنى على تليفون رئاسة الجمهورية يسألنى مرتاعًا: ما هذا الذى فعلتموه بى؟

قلت: أجىء لأشرح لك.

قال: الناس تشتمنى فى الشوارع، يهتفون ضدى ويشتمونى، وأنا ذاهب إلى جمال عبدالناصر فى منشية البكرى، الحق بى هناك إذا استطعت لأن الناس بحر متدفق فى الشوارع.

وقال لى أيضًا إن سامى شرف أبلغه بأن الرئيس ترك فى يدى مسئولية ما يمكن أن يقال أو يذاع، وهو يطلب منى على الفور إذاعة بيان بأنه اعتذر عما كلف به، وأنه مستعد لمواصلة دوره فى الخدمة العامة تحت قيادة جمال عبدالناصر، وهو ما يطالب به الناس جميعًا.

قلت له إننى أتفهم منطقه وأقدر حرج موقفه، ولكن قرار جمال عبدالناصر كان واضحًا، ولا أظن أن بإمكان أحد أن يفعل شيئًا قبل الصباح.

خرج عن هدوئه الطبيعى: بهذا الشكل لن يطلع صباح.

شعراوى جمعة يطلبنى على نفس التليفون، يريدنى أن أتصل بالرئيس فى غرفة نومه، لأنه لم يستطع الوصول إليه، فهو لم يعد قادرًا على ضمان الأمن فى البلد، ويخشى أن تحترق القاهرة، وقال إنه ليس بمقدوره ولا مقدور غيره أن يمسك بزمام الأمن فى البلد، لأن كل المعلومات التى وصلت إليه فى نصف الساعة التى مضت منذ ألقى الرئيس خطابه تقول بأن طوفانًا من البشر يتدفق إلى الشوارع مناديًا باسم «عبدالناصر» ومطالبًا ببقائه.

سألنى عما يمكن عمله، وكان رأيى أن عليه أن يبقى فى مكتبه وأن يحاول قدر ما يستطيع، فهى ساعات اختبار لنا جميعًا، ولم يكن على استعداد لأن يسمع شيئاً، وإنما قال لى بسرعة إنه فى طريقه إلى بيت الرئيس ليستطلع رأيه فيما

يجرى.

عاد الأهرام يتصل بى لإبلاغى أن ما يحدث فى القاهرة متكرر فى كل عاصمة عربية، وأن وكالات الأنباء تنقل صورًا رهيبة عن بحور من البشر تتدفق إلى الشوارع مطالبة ببقاء جمال عبدالناصر، كما أن صوت الرصاص بدأ يلعلع فى بيروت.

عبدالحكيم عامر وكنت قد سمعت من شعراوى جمعة أنه طلب من محمد فائق، وزير الإعلام، إذاعة بيان يعلن فيه هو الآخر تنحيه، وعندما أبلغه فائق أن الرئيس أمر ألا تذاع كلمة قبل الرجوع إلى هيكل، احتد عليه عبدالحكيم، ثم قرر أن يتصل بى.

أدهشنى أن جاءنى صوته هادئًا، بدأ من البداية وأبلغنى برأيه فى صدور بيان يعلن للناس تنحيه، رجوته أن يترك المسألة، علق بقوله: ولكن هذا قرارى ولا شأن لأحد به.. ولا حتى للرئيس.

قلت: إننى أفهم ذلك، لكن هناك عوامل كثيرة لا بد أن تؤخذ فى الاعتبار.

قال: اعتبار من؟

قلت: اعتبارات البلد والناس.

قال: واعتباراتى أنا.. اعتبارات دورى وتاريخى.

رجوته أن يعطى فرصة حتى تستقر الأمور.

قاطعنى ولهجته تحتد لأول مرة: تستقر مع زكريا؟

ثم قال: قل لجمال إنه لا يستطيع أن يفرض زكريا على الجيش.

ثم استطرد: إذن فقد كان زكريا فى باله وهو يتفق معى على شمس.

قلت: إننى أشهد أنه كان صادقًا فيما اتفق عليه معك، لكن الضرورات تغيرت.

رد بعصبية: شى الله من شيخ الضرورات.

عاد إلى طلبه إذاعة بيان عن تنحيه، وتلقيت منه صيغة يقترحها لبيانه رغبة فى تهدئته.

اتصل بى السيد أنور السادات رئيس مجلس الأمة الذى حاصره أعضاء المجلس فى مظاهرة امتزج فيها الأسى بالغضب، طالبين منه أن يفعل شيئًا لتدارك الأوضاع الخطيرة فى كل مكان، وقد حاول عدد منهم أن يذهبوا إلى بيت الرئيس أيضًا ولم يتمكنوا من الوصول إليه، وعاد أنور السادات إلى المجلس مصرًا على ضرورة أن يصدر بيان يقول للناس على الأقل بأن الرئيس سوف يعاود التفكير فى الأمر.

وقلت له: إنه ليس فى استطاعتى كتابة هذا البيان أو طلب إذاعته.

كانت تلك بالضبط الصيحة العامة من المحيط إلى الخليج وورائهما، طبقًا لما تنقله وكالات الأنباء، خط طويل ممتد من أقاصى آسيا حتى المغرب الأقصى.

كان الليل على وشك أن ينتصف، ودق جرس التليفون وكان جمال عبدالناصر هو المتكلم، وكان سؤاله بصوت مثقل: ما الذى حدث؟

رويت له صورة مصر والعالم العربى كما كانت بادية لى لحظتها، وكان سؤاله المتكرر: ليه؟

وراح يرددها مستغربًا.

بدأت الحقيقة تصل إليه ومغزاها أن الناس لا يعرفون أحدًا غيره، وأن عليه حتى بمسئوليته عما جرى أن يجد للأزمة مخرجًا، وأن يكون المخرج مشرقًا.

سألنى عن رأيى، قلت له: إن الرأى فى هذه الساعة له.

وكان تقديره أنه لا يستطيع أن يعود عن قراره، فإن هناك ظروفًا موضوعية لا بد من مراعاتها قبل هذه المشاعر التى ربما خلقتها المفاجأة.

كان رأيى أنه فى كل الأحوال لا بد أن تصدر عنه كلمة تهدئ خواطر الناس دون أن تقيده بشىء.

وكان من بين ما قاله إنه على استعداد أن يذهب إلى مجلس الأمة، وأن يقدم إلى الأمة تقريرًا بما حدث، ويكون ذلك محققًا لهدفين:

هدف إقناعها بقراره.

وهدف وضع الحقيقة أمامها كما كان يتمنى أثناء حديثنا أمس.

رجوته أن يعطينى عشر دقائق أعد فيها بيانًا يذاع على الناس يرفع عنهم ضغط المفاجأة وفى نفس الوقت يستبقى كل الخيارات مفتوحة حتى الصباح، ووافق.

بعد دقائق اتصلت به تليفونيًا، مقترحا نص بيان منه يقول: إن المشاعر التى أبدتها جماهير الشعب منذ أذعت عليها هذا المساء بيانى عن تطورات الموقف قد هزتنى من الأعماق، وسوف أذهب غدًا بمشيئة الله وإذنه إلى مجلس الأمة أناقش معه وأمام جماهير شعبنا قرارى الذى أعلنته فى البيان، وإذا كان لى أن أطلب شيئا فى هذه اللحظات من جماهير شعبنا الصابر المناضل فهو أن أناشدهم الانتظار حتى الصباح، إن كل واحد منكم الآن يجب أن يكون فى موقعه، فهناك مهام كثيرة تتصل بواجبات أكبر وأقدس من أى شىء آخر، ولها الأولوية على ما عداها من الاعتبارات، إننى أناشدكم جميعًا من أجل الوطن ومن أجلى أن يكون كل منكم الآن حيث ينبغى له أن يكون.

أقر نص البيان دون تعديل، وطلب إلىّ إملاءه على السيد

محمد فائق، وزير الإرشاد القومى «الإعلام»، لكى يذاع بسرعة على الناس وفعلت.

اتصل بى جمال عبدالناصر فى الساعة الثانية عشرة والنصف يقول إنه يشعر بتعب لم يشعر به من قبل، وإنه يحس بحاجة شديدة إلى أن يغمض عينيه وينام، وإنه بالفعل سوف يبلع قرصًا منومًا ويحاول، ولم تنجح محاولته فيما يبدو لأنه عاد للاتصال بى فى الساعة الخامسة والربع قائلًا إن القرص المنوم أضر به كثيرًا مما نفعه، فقد أصابه بعوارض النوم وفى نفس الوقت فإن فكره كله يقظان.

سألنى متى أستطيع أن أذهب للقائه؟

قلت: على الفور إن أردت.

7

نزلت بالفعل من بيتى، وكانت كل الطرق فى تلك الساعة من الصباح مسدودة خاصة فى ميدان التحرير، وتمكنت من الوصول إلى الأهرام بصعوبة بالغة، واتصلت به أقول إننى سوف أتأخر رغم إرادتى لأن الطرق كلها مغلقة، ولم يكن قادرًا حتى هذه اللحظة أن يستفيق من دهشته.

كان تعليقه بصوت تشيع فيه حيرة كاملة: إن هذا الشعب غريب، تصورت أنه سينصب لى مشنقة فى ميدان التحرير، فإذا تصرفه على عكس ذلك تمامًا.

قال لى إنه قد يكون من الأفضل أن أظل فى مكتبى حيث يستطيع الاتصال بى فى أى وقت يشاء بدلًا من أن أتوه وسط الزحام، فلا أصل إلى بيته ولا أبقى حيث يستطيع أن يتصل بى، ثم أضاف أنه سوف ينزل الآن إلى المكتب حيث تنتظره رسائل وأوراق تراكمت فى الساعات الأخيرة.

بعد أن قرأ الرسائل التى وصلته اتصل بى فى الساعة الثامنة وخمس دقائق، وكان أول ما قاله إنه ولأول مرة فى حياته يشعر بالعجز عن اتخاذ قرار، وهو يستعد الآن للذهاب

إلى مجلس الأمة وليس فى ذهنه شىء محدد عما يمكن أن يقوله هناك.

طلب منى أن أفكر فى نصف ساعة فى إطار ما يمكن أن يقوله للمجلس، وكان تقديره أن إعداد خطاب مكتوب فى هذا الوقت القصير عملية شبه مستحيلة، لكنه يريد على الأقل إطارًا يحدد خطوط ما يقول وإلا وجد الموقف يشده إلى بعيد، وقلت له إنه فى تحدى أى إطار لا بد من اتفاق على مضمون، وفيما قلته فإننى لا أجد قرارًا محددًا يمكن أن يلتف حوله إطار.

كان رده بالنص: والله ما أنا عارف.

وكان يواجه محنة نفسية أمسكت بكل أعصابه.

لم يستطع أن يصل إلى المجلس، اتصلت به ومرة أخرى اقترحت عليه أن يعطينى ربع ساعة أجرى فيها صياغة شىء قريب مما كنا نتحاور فيه، وعدت إلى الاتصال به أقترح عليه النص التالى لمشروع رسالة موجهة منه إلى رئيس مجلس الأمة.

(السيد رئيس مجلس الأمة.. لقد كنت أتمنى لو ساعدتنى الأمة على تنفيذ القرار الذى اتخذته بأن أتنحى، ويعلم الله أننى لم أصدر فى اتخاذ هذا القرار عن أى سبب غير تقديرى للمسئولية وتجاوبا مع ضميرى، وما أتصور أنه واجبى، وإنى لأعطى هذا الوطن راضيًا وفخورًا كل ما لدى حتى الحياة إلى آخر نفس فيها.

إن أحدًا لا يستطيع ولا يقدر أن يتصور مشاعرى فى هذه الظروف إزاء الموقف المذهل الذى اتخذته جماهير شعبنا وشعوب الأمة العربية العظيمة كلها بإصرارها على رفض قرارى بالتنحى منذ أعلنته وحتى الآن، ولا أعرف كيف أفى بهذا الحق، ولا كيف أعبر عن عرفانى تجاهه.

إن الكلمات تضيع منى وسط زحام من المشاعر يملك علىّ كل جوارحى، وأقول لكم بأمانة، وأرجوكم تبليغ مجلس الأمة

الموقر أننى مقتنع بالأسباب التى بنيت عليها قرارى، وفى نفس الوقت فإن صوت جماهير شعبنا بالنسبة لى أمر لا يرد، ولذلك فقد استقر رأيى على أن أبقى فى مكانى وفى الموضع الذى يريد الشعب منى أن أبقى فيه حتى تنتهى الفترة التى نتمكن فيها جميعًا من أن نزيل آثار العدوان، على أن الأمر كله بعد هذه الفترة يجب الرجوع فيه إلى الشعب فى استفتاء عام.

وإنى لأشعر أن النكسة لا بد أن تضيف إلى تجربتنا عمقًا جديدًا، ولا بد أن تدفعنا إلى نظرة شاملة فاحصة وأمينة على عملنا، على كثير من جوانب عملنا، وأول ما ينبغى أن نؤكده بفهم واعتزاز، وهو واضح من الآن أمام عيوننا، أن الشعب وحده هو القائد وهو المعلم وهو الخالد إلى الأبد.

والآن أيها الأخوة المواطنون فى كل مكان، أيديكم معى ولنبدأ مهمتنا العادلة وليمنحنا الله جميعا تأييده وهداه).

دار بيننا على التليفون حوار حول بعض العبارات المقترحة فى مشروع الرسالة، وكان أكثر توقفه أمام النص القائل ببقائه حتى إزالة آثار العدوان، فهذه فترة قد تطول، وأفصح عن خاطر ورد على باله وهو أن يتمكن من ترتيب بعض الأمور بسرعة، ثم يكون خطابه فى عيد الثورة القادم يوليو 1967 أى بعد شهر تقريبا هو المناسبة التى يختارها للوداع.

كان رأيى ان المهام التى يتحتم عليه أن يقوم بها طالما أن الظروف فرضت عليه أن يعدل عن قراره بالتنحى الفورى، سوف تقتضى ما هو أطول من فسحة شهر، ومن الإنصاف للمسئولية التى لم يعد أمامه مفر من العودة لحملها أن يعطى لنفسه فرصة مفتوحة، وارتضى وجهة نظرى ثم طلب إلى أن أقوم بإملاء الرسالة على السيد أنور السادات رئيس مجلس الأمة لكى يقوم بإبلاغها إلى المجلس.

كان رد الفعل فى المجلس حماسيًا، ومن سوء الحظ أن بعضًا من الذين كتبوا رد فعل المجلس بأثر رجعى وبعد الحدث بسنوات، أخطأوا فى تقدير سبب حماسة المجلس،

فقد صوروها كما لو أن المجلس قام بمظاهرة فرح بالهزيمة، وكان ذلك التصوير ظالمًا، لأن حماسة المجلس كانت موجهة فى واقع الأمر إلى استجابة جمال عبدالناصر لطلبه ولطلب جموع الشعب والأمة، وعودته لقيادة معركة المواجهة على أساس جديد، والحقيقة أن أى مشهد من المشاهد المتصلة فى سير الحوادث لا يتضح معناه إذا حذفت منه صورة واحدة لأن سياقه المنطقى فى هذه الحالة يضيع.

8

حين رأيته صباح يوم 11 يونيو كان منهمكًا فى إجراء تغييرات وجدها ضرورية فى قيادة القوات المسلحة.

كان جمال الذى رأيته صباح 11 يونيو أسدًا جريحًا، لكنه أسد متحفز، تنبهت كل ملكاته وخصائصه وعضلاته، وبدت جميعها أكبر من جراحه، وبدا ماشيًا على طريق واضح أمامه، إعادة بناء القوات المسلحة- حرب الاستنزاف- خطة جرانيت (1) غرضها العبور برءوس كبارى من غرب القناة إلى شرقها.

لم يكن 9 يونيو نهاية التاريخ لأن جماهير الأمة قررت أن تحمل المسئولية وتقف وتتقاتل على الجسور عبورًا متجاوزًا بالسلاح إلى أوضاع جديدة.

الشريك المخالف
كيف أعاد السادات صياغتى؟

1

رأيت السادات أول مرة فى المحكمة، متهمًا باغتيال أمين عثمان، كان ذلك فى يناير 1948، ثم رأيته وجهًا لوجه بعد عامين فى بيت يوسف رشاد المطل على النيل بالجيزة، كنت ضيفًا على العشاء مع آخرين، وذهبت مبكرًا بعض الشىء حتى أسمع من يوسف رشاد بعض ما يجرى، وعندما دخلت وجدته جالسًا مع شخص عرفت ملامحه على الفور من متابعة وقائع محاكمة قتلة أمين عثمان، ومع ذلك فإن يوسف رشاد قدمه لى باسمه وتبادلنا حديثًا عابرًا، ثم استأذن هو وانصرف.

ثم قابلت السادات فى مقر الفرقة الأولى مشاة فى رفح، وقضيت يومًا كاملا معه.

أصر على دعوتى للغداء، ويومها عرض على كتاباته لأرى ما إذا كان يمكن نشرها فى مجلة «آخر ساعة» التى كنت أرأس تحريرها فى ذلك الوقت.

كانت الكتابات التى قدمها إلى فى ذلك اليوم مجموعة من القصص القصيرة تملأ دفترًا كبيرًا مكتوبة كلها بخطه، ثم قدم لى رواية طويلة عنوانها «أمير الجزيرة» ظللت محتفظًا بها ولم تنشر أبدًا.

2

يوم وفاة عبدالناصر كنت وزيرًا للإعلام، طلب منى أنور السادات أن أذيع البيان على الناس.

قلت: لا.. لا بد أن يشعر الناس بأن هناك تغييرًا قد تم بالفعل بوفاة الزعيم، وبالتالى الأمر يقتضى أن تذيع أنت البيان

بصوتك.

كلمت عبدالملك عودة أن يطلب من الإذاعة وقف البرامج العادية، ويذيعوا القرآن الكريم، وأخذت الرئيس السادات فى سيارة نصر 128 ملك الأهرام كما هى عادتى، فحين كنت وزيرًا لم أستعمل سيارات الوزارة، وجلسنا فى المقعد خلف سائقى «ساتى»، فى الطريق إلى التليفزيون.

فجأة صاح الرئيس السادات: إيه السيارة الخردة اللى انت راكبها دى يا محمد، أنت لازم تغير السيارة دى بقى.

لم أتكلم، فوجه الرئيس السادات حديثه إلى ساتى: أنت يا أخينا.. بكره يا أسطى تيجى تاخد منى السيارة اللى تعجبك، كاديلاك أو شيفروليه، اختار اللى تعجبك.

لم يرد ساتى فقد كنت أشاهد دموعه على خده وهو يسير بنا إلى الإذاعة، وكرر الرئيس مرة أخرى: يا أسطى سامعنى.

انفجر فيه ساتى باكيًا: يا أستاذ الراجل كبير البلد مات.. إحنا فى إيه ولا فى إيه.

بعد أن نزل الرئيس السادات وفى طريق عودتنا إلى الأهرام، قلت لساتى: إنت عملت كده ليه، الراجل بيضحك معاك، أنت عارف الراجل ده مين؟

قال لى: واحد بيهزر.. هو ده وقت هزار.

قلت: ده رئيس مصر الآن.. ده الرئيس محمد أنور السادات.

3

قبل أن يستقر السادات رئيسًا لمصر، قررت أن أتخلص من عبء العمل السياسى، قررت أن أخلص للصحافة وحدها من جديد، قررت أن أستقيل، وكتبت له.

(سيادة رئيس الجمهورية بالنيابة

الأخ والصديق أنور السادات

الآن وقد استقر جثمانه الطاهر فى ثرى مصر الخالدة، فإنى أتقدم إليك راجيًا أن تأذن بإعفائى من العمل فى وزارة الإرشاد القومى.

إن وصولى إلى القرار الذى يدفعنى إلى التقدم بهذا الرجاء إليك، لم يصدر عن إحساس بلوعة عاطفية، مع أنه لدى منها أكثر مما يتصور أحد، ولكنه يصدر أيضًا عن اعتبارات عديدة إنسانية وفكرية وعملية أجملها فيما يلى:

أولًا: إن الكل يعلم أننى حاولت طوال عمرى أن أبتعد عن المناصب الرسمية تمسكًا بمهنة اعتقدت وما زلت أعتقد أن حياتى فيها.

ثانيًا: إننى خرجت عن هذه القاعدة نزولا على أمر كريم منه، عندما شاء أن يكلفنى بالتعبيير الرسمى عنه، فى فترة النضال بالغة الحساسية، وكان هذا من جانبه اختيارًا شخصيًا، ومن بعده، فإننى لا أملك هذا الحق بالنسبة لغيره، كما أننى لا أستطيع أن أبقى على رأس وزارة الإرشاد القومى تعبيرًا عن نفسى، فمكان ذلك الصحيح هو الأهرام وحده، وليس أى مكان آخر غيره.

ثالثًا: إن جزءًا كبيرًا من مهمة إعادة تنظيم وزارة الإرشاد القومى قد تم بإنشاء اتحاد الإذاعة والتليفزيون العربى، وبالدراسات المعدة للبث فى شأن الهيئة العامة للاستعلامات وغيرها من مؤسسات الوزارة، ومع أن عملية إعادة التنظيم لم تظهر آثارها بعد أمام الناس، فإنى أتوقع- مع بداية سنة 1971 بمشيئة الله- أن تكون هذه الآثار أمام الجميع مرئية ومسموعة.

رابعًا: إننى لم أعد أستطيع بكل ما أحس به الآن التوفيق بين وزارة الإرشاد وبين الأهرام، وكنت قد استطعت ذلك بجهد جهيد لبضعة شهور، لكننى الآن أجد أن ذلك سوف يكون مستحيلًا بالنسبة لى، وإذا كان لى أن أختار- والخيرة

لله- فإننى أؤثر أن أبقى فى المكان الذى أسهمت مع آلاف من أبنائه فى تحويله إلى إطلالة مصرية على العصر الحديث، وكان ذلك، ولكى أكون منصفًا للتاريخ، بتشجيع معنوى كبير منه، وبإلهام مضىء.

خامسًا: إننى أعتقد إلى جانب ذلك، أن على مسئولية أتحملها أمام الأجيال، فلقد اقتربت من فكره وعمله ولا بد أن أعيد ترتيب أوراقى وذكرياتى عنه، لأننا نحن الذين عرفناه عن قرب وشرفنا بالوقوف بجانبه، حيث تمكنا من رؤيته وهو يحلم ويناضل ويحقق، لا نملك وحدنا قصة حياته، فهذه القصة ملك لشعبنا ولأمتنا العربية وللإنسانية.

ولعلك تذكر مرة أيها الصديق الكريم، وكنا معًا أخيرًا فى فندق هيلتون- أثناء أزمة الأردن التى كانت آخر معاركه المنتصرة- أننا تحدثنا عن التاريخ وكيف سيروى حكاية هذا العصر، وتذكر أنه أمامك، وأمام السيدين حسين الشافعى وعلى صبرى، أشار إلىّ وقال «إنه هو المسئول عن ذلك، لقد كان يعرف كل شىء، وهو يتحدث دائمًا عن الإحساس بالتاريخ، والكتابة صناعته».

ومن جانبى أيها الأخ الكريم، فإننى أعتبر تلك وصية يسألنى عنها ضميرى، وسوف يسألنى عنها الضمير العام لأمتى.

وليس معنى ذلك أننى أفكر فى النشر العاجل، فأنا أول من يقدر أن هناك أشياء لم يحن بعد أوانها، ولكنى بأمانة المسئولية أمام ذكراه الغالية لا أستطيع أن أترك شيئًا للضياع أو النسيان.

إننى أرجوك ملحًا ومن كل قلبى ألا تعتبر هذا تخليًا منى فى وقت عصيب.

إنك تعلم أن ذلك لا يمكن أن يخطر لى ببال، فأنت الرجل الذى اختاره هو بنفسه له فى وقت علم فيه أنه معرض لمخاطر ومؤامرات خطط لها الذين تصدى طوال عمره

لمطامعهم وسيطرتهم على مقدرات أمته.

وذلك الاختيار يكفى، ليس بالنسبة لى وحدى، وإنما بالنسبة لكل الذين تراودهم اليوم أعظم الآمال بأن يستمر الخط الذى رسمه لأمتنا سواء لمرحلة النصر أو لما بعد النصر بإذن الله.

إننى أناشدك أن تغفر لى ما أستأذنك فيه الآن إذا كان رأيك فيه مخالفًا لرأيى، وأتمنى على الله وعليك أن يكون غفرانك من فهمك لموقفى وظروفى ومشاعرى.

وأريدك أن تعرف فى النهاية أن قلبى معك، وأن عقلى معك بكل ما أستطيع دفاعًا عن مبادئه، وعن سياسات أجراها نابعة من تلك المبادئ، ولك الدعاء خالصًا وصادقًا أن يعينك الله على ما تحملت أمانته، ولك التحية والمحبة).

جاءنى رده سريعًا ومكثفًا.

(عزيزى الأستاذ محمد حسنين هيكل وزير الإرشاد القومى.

تحية الإسلام مباركة طيبة وبعد..

تلقيت كتابك وقرأته بكل عناية وتقدير، فليس أحب إلىّ فى هذه الحياة من معنى مثل معنى الوفاء فى كل صوره وألوانه، من أجل ذلك فإنه لا يسعنى إلا أن أجيبك إلى طلبك أيها الصديق، واثقًا أن جهدك وقلمك سوف يظلان كما عودت زعيمنا الراحل أن يكون فى مكانهما، من معركتنا المقدسة، شاكرًا لك ما بذلته من جهد خلال توليك الوزارة، داعيًا لك المولى عز وجل أن يوفقك فى مكانك الذى اخترته بإرادتك، وأن يمنحك الصحة وموفور السعادة، والله أسأل أن يسددنا جميعًا بتوفيقه.

والسلام عليكم ورحمة الله.

أنور السادات).

عندما تقابلنا فى المساء «من السابعة إلى الثالثة بعد منتصف الليل»، فتح لى أنور السادات قلبه بغير تحفظات،

صريحًا مع نفسه ومع الحقيقة ومع الظروف والملابسات، وخرجت من قصر العروبة أستقبل نسمات فجر 3 أكتوبر 1970 شبه مقتنع بأنه ليس وقت الانصراف من الساحة، مستأذنًا أو بغير استئذان، فقد وافق الرئيس المرشح أنور السادات على ما طلبت بشأن الوزارة، وكان يعرف قبل غيره أنها تكليف مؤقت لمهمة معينة ولأجل محدد- سنة لا تزيد- فى ظرف رآه جمال عبدالناصر مهيأ لاختراق سياسى يتوازى مع الذروة فى حرب الاستنزاف.

وافق أنور السادات على نصف استقالتى، لكنه اشترط بقائى فى مجلس وزرائه إلى ما بعد الاستفتاء على رئاسته حتى لا يقول الناس «إن أقرب أصدقاء جمال عبدالناصر لم يطق الصبر يومًا عليه»، وكان الرجل فى ذلك سمحًا محبًا ومقبلًا.

4

ما حدث فى 13 و14 مايو من العام 1971 لم يكن انقلابًا.

كان صراعًا على السلطة بين فريقين، وأنا لا أتنصل من موقفى، بالعكس أنا راضٍ عنه، حقيقة أنا لا أريد أن أسىء إلى أحد، وتربطنى صداقات وزمالات بحكم العمل ببعضهم، ولكن من نسميهم بعناصر 13 مايو، جميعهم وبدون استثناء تقريبًا من الضباط السابقين، وليس لى موقف ضدهم، فدورهم الوطنى عظيم فى مجال تخصصهم، ولكن لا أتصور أنهم فجأة وفى خلال عشر سنوات وبدون أن يسبق لأحدهم ممارسة العمل السياسى فجأة ينتقلون إلى العمل برئاسة الجمهورية والحزب «الاتحاد الاشتراكى العربى».

لم يكن هؤلاء جميعًا فى معسكر واحد، بل كانوا 3 مجموعات مختلفة، وقد قبلوا بالسادات رئيسًا للجمهورية، متصورين أنهم جاءوا بالأضعف وكل مجموعة تأمل فى استغلاله لمصلحتها.

أنا لم أكن أبدًا جزءًا من مجموعة أو تنظيم أو حزب، للأسف الشديد كنت ولا زلت فردًا وحيدًا، وقد قلت لبعضهم عندما

اتفقوا جميعًا على اختيار السادات، أنتم ترتكبون خطأ له سابقة فى تاريخ مصر، فبعد وفاة سعد باشا اختير مصطفى النحاس بدلا من فتح الله بركات، متصورين أن النحاس هو الأضعف، ولكن النحاس عصف بهم جميعًا.

الكل كان يناور على رقعة الشطرنج.

الكل يريد أن يأكل الملك.

الفارق بينهم وبين السادات، أنه كان رجلًا مسيسًا يمكن أن تتفاهم معه، وقبلَ أن يضع فى برنامجه قضية الديمقراطية، بينما الآخرون ضباط سابقون يمكن أن يتورطوا فى إجراءات تحسب على الناصرية، ولا علاقة لها بالناصرية.

توافرت أمامى دلائل على أن هذه المجموعات التى دخلت مع السادات فى صراع سلطة خطرت لها فكرة ونية استخدام القوات المسلحة فى هذا الصدام وهذا شىء خطير.

اعتبرت نفسى مسئولًا عن المشاركة مع السادات فى مواجهة مراكز القوى، ولكنى لم أكن مسئولًا عما حدث بعد ذلك فى محاكمتهم.

كان رأيى أن خروجهم من السلطة كافٍ بعد ذلك، وأما المحاكمة وتوجيه تهمة الخيانة العظمى إليهم، فلم أكن متحمسًا لها، بل إننى رفضت دعوة للشهادة وجهها إلىّ المدعى الاشتراكى الذى أشرف على التحقيق وقتها، وهو الأستاذ مصطفى أبوزيد فهمى، وأبلغت رأيى للرئيس السادات الذى اتصل بالمدعى الاشتراكى وطلب إليه صرف النظر عن استدعائى للشهادة.

5

ظهر يوم 10 نوفمبر 1972 اتصل بى الرئيس السادات هائجًا.

قال لى إنه لم يعد يطيق صبرًا على شنودة، فهو فى رأيه

يتصرف وكأن الدولة غير موجودة، أو كأنه يريد أن يصبح دولة فوق الدولة، وهو بذلك سوف يقود البلد إلى فتنة طائفية، وقد قرر هو أن يتحمل مسئوليته وأن يضع شنودة فى حجمه الطبيعى، ولذلك فسوف يذهب أول الأسبوع القادم إلى مجلس الشعب ويفجر الموضوع الطائفى، ويطلب إلى المجلس أن يتحمل مسئوليته وأن يتخذ من الإجراءات ما يكفل وضع الأمور فى نصابها، والبلد مقبل على معركة، ثم طلب الرئيس السادات منى أن أكتب له الخطاب الذى يعرض به الموضوع على مجلس الشعب وأن أضمنه ما اقترح أن يتخذه المجلس من إجراءات أشار إلى بعضها.

رجوته أن يتمهل فذلك موضوع لا يعالج بالحدة، ثم إنه لا يعالج بالإجراءات.

احتد الرئيس قائلًا إنه لا يستطيع أن يجلس على كرسيه وتحته لغم موقوت كما كان يفعل جمال.

واستطرد: جمال كان له بال طويل فى الصبر، أما أنا فلا أستطيع، ولا بد لمجلس الشعب أن يجد حلًا حاسمًا للموضوع، وهو على أى حال ذاهب إلى المجلس سواء كان فى يده خطاب مكتوب، أو لم يكن عنده إلا ما يخطر على باله لحظة بدء حديثه أمام المجلس. مضيف: إننى سوف أفجر المشكلة برمتها، وليكن ما يكون.

رجوته أن يأذن لى بالمرور عليه فى بيته فى الجيزة.

وعندما دخلت عليه أحسست منذ اللحظة الأولى أنه معبأ على الآخر بحتمية التفجير، سواء كان محرك التعبئة أمنيًا، أو كان محركها من أصدقائه المقربين.

لساعتين حاولت أن أطرح عليه وجهة نظر أخرى ملخصها «مسئولية رئاسة الدولة مباشرة» عن جوار دينين على أرض وطن، وبمثل تعلق شعب بمجرى نهر واحد.

وأخيرًا وبعد عناء توصلنا إلى حل وسط، بدلًا من أن يتكلم هو فى مجلس الشعب يبعث إلى المجلس بخطاب عن

الموضوع، وبدلًا من أن يقوم هو بعملية تفجير أمام المجلس يطلب من هذا المجلس أن يقوم بتقصى الحقيقة فيه والعودة إليه بتقرير عنه، وكتبت له ونحن بعد جلوس فى بيته مشروع الخطاب الذى يبعث به إلى المجلس ووافق عليه.

صباح اليوم التالى دعوت إلى مكتبى الدكتور جمال العطيفى، وهو المستشار القانونى للأهرام، وفى نفس الوقت وكيل مجلس الشعب، وحكيت له ما انتهى إليه لقائى فى اليوم السابق مع الرئيس السادات، وأحطته علمًا بأن المجلس سوف يتلقى اليوم أو غدًا خطابًا من رئيس الجمهورية، يطلب تشكيل لجنة تحقيق برلمانية لتقصى الحقائق وتقديم تقرير عنها.

كان تعليق جمال العطيفى على الفور أنه لا يستطيع أن يرى ماذا يستطيع المجلس أن يفعل فى هذا الموضوع وفى هذه الظروف؟

قلت له: ذلك رأيى أنا أيضًا.. لكن ما يمكن توقعه من المجلس هو فسحة وقت أسبوع أو أسبوعين على أكثر تقدير تخدم هدفين.

من ناحية تنفيس البخار المكبوت فى البلد نتيجة لحوادث لم يتداركها فى الوقت المناسب أحد، وإنما تركت لتتراكم ولتتحول إلى قنبلة موقوتة على حد تعبير الرئيس السادات.

ومن ناحية ثانية إتاحة فرصة لمناقشة مسئولة فى إطار دستورى واضح، قد يستفيد منها الرئيس ويشعر معها أن هناك من يشاركه المسئولية فى مواجهتها، وذلك فى نفس الوقت يساعده على أن يستجمع أفكاره ويعيد تركيزها، ويتصرف بسلطته وهى وحدها القادرة على المواجهة السليمة لهذا الموضوع، سواء بالاستباق المستنير لوقائعها أو بالتدارك اليقظ لتداعياتها.

لم أكن أحتاج إلى شروحات تطول مع جمال العطيفى، لأن علاقة صداقة وعمل فى الأهرام نشأت واستمرت سنوات

قبلها وجعلتنا معًا فى مواجهة هذا النوع من القضايا العملية المباشرة على موجة واحدة.

سألنى العطيفى دون تردد لا تسمح به ظروف هذا النوع من المشاكل ما إذا كنت أرى أن يكون هو المسئول عن هذه اللجنة البرلمانية باعتباره وكيل مجلس الشعب.

كان ذلك فى ظنى ترتيبًا مثاليًا لو أمكن تدبيره، وطلب جمال العطيفى أن أساعد فى الترتيب باتصال مع السيد حافظ بدوى، رئيس مجلس الشعب، بعد أن يكون هو قد تولى شرح التفاصيل له فور أن يتلقى مكتبه رسالة الرئيس السادات وكذلك كان.

صباح يوم 14 نوفمبر 1972 صدر الأهرام وعلى صدر صفحته الأولى خبر كتبته بنفسى ونصه كما يلى: علم مندوب الأهرام أن الرئيس أنور السادات قد طلب إلى مجلس الشعب تشكيل لجنة برلمانية خاصة للتحقيق فى بعض المحاولات التى جرت أخيرًا لافتعال فتنة طائفية، لا يمكن أن يستفيد منها الوطن أو المواطنون فى أى وقت فضلًا عن هذا الوقت بالذات.

جاءنى الدكتور جمال العطيفى بعد أسبوع يقول إن اللجنة عقدت عدة اجتماعات للاستماع ولتقصى الحقائق، وهو يرى أن الاستماع والتقصى لا يمكن أن يزيد عن أيام قليلة، وإلا فإن المسائل قد تفك، وذلك لا يجب السماح به.

كان جمال العظيفى حائرًا فى كيفية كتابة تقرير اللجنة ردًا على إحالة الرئيس، ولم يكن هناك حل إلا إعادة الأمر إلى رئاسة الدولة، باعتبار أن الدستور أناط بالرئيس أن يسهر على حماية الوحدة الوطنية، وكانت تلك بالفعل هى العبارة المفتاح فى تقرير اللجنة.

لم أفاجأ حين اتصل بى الرئيس السادات تليفونيًا صباح العشرين من نوفمبر يقول لى ضاحكًا هذه المرة وليس مستفزًا: إن المجلس أعاد لى الكرة مرة أخرى.

وكان ردى أن تلك طبائع الأمور، فليس فى هذه الساحة ولا ينبغى أن يكون هناك لاعب آخر، بمعنى أن الكل يستطيع أن يتفهم وأن يقترح وأن يساعد وأن يفيد، لكن جوار الدينين على أرض الوطن الواحد- هو ومياه النيل- مسئولية رئاسة الدولة قبل كل الأطراف.

استأذنت الرئيس السادات مرة أخرى أن أمر عليه فى بيته.

جلسنا ساعات طويلة نناقش ماذا بعد؟ وماذا يصنع بتقرير اللجنة؟

توصلنا إلى أهمية أن تكون خطوته الأولى بزيارتين، أولاهما للجامع الأزهر يلتقى مع شيخه ومع هيئة كبار العلماء، والثانى لدار البطريركية يلتقى مع بابا الكرازة المرقسية ومع المجمع المقدس بأكمله، وفى الاجتماعين يستطيع أن يوجه ويدعو إلى تلطيف الأجواء وتخفيف درجة الاحتقان، من باب الحقيقة الوطنية والتاريخية، وليس من باب الكلام الشائع والساذج عن التسامح وعن السماحة إلى آخره.

فى نفس الجلسة وافق الرئيس السادات بعد تردد على إعادة العمل بالترتيب القديم بين جمال عبدالناصر والبابا كيرلس السادس، وبحيث يكون فى سلطة البابا ودون عراقيل- بسبب الخط الهمايونى- أن يصرح ببناء خمس وعشرين كنيسة كل عام.

بعد أسبوعين فى شهر ديسمبر قام الرئيس السادات بالفعل بالزيارتين، وقد طلب إلىّ أن أكون فى انتظاره ليقص علىّ النتائج.

دخل السادات من باب بيته إلى البهو وإلى الصالون الكبير وكنت فى انتظاره أجلس مع قرينته السيدة جيهان، وكانت هى الأخرى قلقة تريد أن تعرف كيف سارت الأمور.

كان الرئيس السادات فى أحسن أحواله وهو يحكى، بطريقته المسرحية أحيانًا، ويقول: فى هيئة كبار العلماء مشى كل شيء كما هو منتظر، فى البطريركية أثبت شنودة

أنه ناصح أكثر مما قدرت.

وأضاف الرئيس السادات: حاولت استفزازه متعمدًا، نظرت إلى ساعتى أثناء اجتماعنا وأعضاء المجمع المقدس كله حولنا وقلت موجهًا كلامى له: لقد حان موعد صلاة الظهر وأريد سجادة صلاة.

وهرع شنودة بنفسه إلى غرفة مجاورة وجاء لى بسجادة صغيرة فرشها بنفسه وسط مكتبه وخرج الكل من القاعة، ولكن شنودة لم يخرج وإنما وقف بعيدًا وقد شبك يديه أمام صدره فى خشوع وانتظرنى حتى أتم صلاتى، ورأيته بركن عينى وحاولت تقدير رد فعله.

كانت السيدة جيهان هى التى سبقت بأول ملاحظة فى التعقيب على ما قاله زوجها، وسألته بحيرة: غريبة يا أنور.. وليه تستفزه؟

وقال لها أنور السادات بطريقته: يا جيهان لن تفهمى فى السياسة طول عمرك.. أردت استفزازه لكى تظهر خفايا مشاعره.

ثم أضاف: لكنه ناصح وغويط.

وسألته إذا كان قد أبلغه بالعودة إلى اتفاق الرئيس عبدالناصر والبابا كيرلس، ولم ينتظر الرئيس السادات حتى أكمل سؤالى، وقال: وافقت له على ضعف عدد الكنائس التى اتفق عليها جمال مع كيرلس.

وعندما لاحظ دهشتى استطرد يقول: شنودة ظل طوال الوقت يقول لى أنت رئيسنا وأنت زعيمنا وأنت رب العائلة.

6

فى 4 نوفمبر 1972 زرت الرئيس السادات فى منزله بالجيرة.

دخلت عليه وفى يدى النسخة الإنجليزية من كتاب

«عبدالناصر والعالم» وقلت له: لم أجد هدية أحضرها لك من لندن سوى هذه.

تناول النسخة من يدى ووضعها على مكتبه دون أن ينظر إليها، وقال: متشكر.

ثم قال فجأة: إنت بتتهمنى إنه معنديش عقل يا محمد؟

قلت له: لست أفهم سبب فتح هذا الموضوع مباشرة هكذا.. أنا لم أقل هذا على أى حال.

قال أنور السادات: إنت بتعرَّض بى يا محمد؟

قلت: أود أن أحدد لك بدقة موقفى، أنا أختلف معك سياسيًا ولكننى لا أعرّض بك.

قال: أنا لا أسمح لك.. أنا المسئول.. وأنا الذى انتخبنى الشعب.

قلت له: وأنا صحفى مسئول وحر.

قال: الأهرام ده بتاع مين؟

رددت عليه: الأهرام ده أنا اللى عملته، وهو مملوك للاتحاد الاشتراكى حسب وثائقه الأساسية، وعلى أى حال دعنى أرفع عنك الحرج أنا مستعد فى أى لحظة أن أمشى.

قال السادات: ده قرار تاخده بمحض إرادتك.

قلت: إذن اتفقنا.

قال السادات: كيف تكلمنى بهذه الطريقة؟

قلت له: أود أن اقول لك شيئًا لأكون واضحًا، أنا أضع حدودًا واضحة بين رئيس الدولة وبين رئيس التحرير، ولكن هناك جانبًا فى العلاقة هو ذلك القدر الموجود من الصداقة بيننا، إلا إذا كنت قد ألغيته خلال الأسبوع الذى كنت فيه فى لندن.

قال: الصداقة أعتز بها، وأنت تعلم منى هذا، ولكن كيف تشتمنى؟

قلت: أنا لم أشتمك، وعلى أى حال دعنى أعفيك من الحرج أنا مستعد فى أى لحظة أمشى.

قال: هذا قرارك تأخذه بمحض إرادتك.

قلت للمرة الثانية: إذن اتفقنا وانتهى الأمر.

تحدثنا لما يقرب من ساعة عن تفاصيل زيارة لندن، ثم وجدته يقول لى: حين تقول إن السياسة الآن تعمل بغير عقل أليس معناه أننى بلا عقل؟ ثم إنك تتهمنى أننى لا أعمل لحل أزمة الشرق الأوسط؟

أجبته: هذا غير صحيح، لقد كنت أنتقد أشياء كثيرة أيام جمال عبدالناصر ولكنه لم يعتبر ذلك موجهًا له شخصيًا، أنت تعلم حين اكتشف عبدالناصر تزوير انتخابات مجلس الأمة فقد ثار بشدة، وظل شهرًا كاملًا لا يتحدث ولا يتصل بسامى وشعراوى، وكان سيتخذ إجراءات حاسمة ثم أجلها لأنه كان من ضرورات المرحلة أن يدفع بعناصر التغيير ويزيد منها دون أن يهز الواقع الذى كان مهتزًا بشدة بعد الهزيمة، ثم إنك تعرف علاقتى بسامى وشعراوى، وكيف عانيت منهما وما وصلا إليه من تدبير لى عند الرئيس، فليس كل ما ينتقد فى عهد عبدالناصر كان يأخذه على أنه كلام عليه، بل إنه كان ضد كثير جدًا مما يحدث وكان يحاول تغييره.

وأضفت: مع عبدالناصر كانت علاقتنا واضحة، وكنت أقول له رأيى وكنت أعرف رأيه، وكان عبدالناصر يناقشنى ويقنعنى فكانت نقاط الاختلاف فى الرأى بيننا واضحة لى، وكانت دوافعها معروفة له ومفهومة.

رد الرئيس: إن اختلافاتك فى الرأى أدت إلى غضب السعودية، لقد غضبوا جدًا من مقالك حول استراتيجية عربية فى البحر الأحمر، وقالوا لى فى مذكرتهم إننا إذا أجبنا عليهم بأن هيكل لا يمثل الرأى الرسمى فهم لن يقبلوا هذا

الرأى.

قلت له: لقد أرحتهم بقرارى أن أترك الأهرام، تأكد أن العيد سيحل على الملك فيصل عيدين، وسيجد أن مصر قد ذبحت له خروفًا فى العيد.

قال: إنت يعنى بتتكلم وكأنك لا يهمك شىء.. لماذا تدفعنى...؟

لم أجعله يكمل كلمته.

قلت له: لأننى لا أريد شيئًا، ولأننى أستطيع أن أعيش فيما أظن، ولأننى أعرف كيف أقرأ وأعرف كيف أكتب، الفريق صادق كان رجلًا فى دبابة فلما أقلته لم يعد يعمل، والمسئول فى الاتحاد الاشتراكى لو أقلته أيضًا فسيجلس بدون عمل، أما أنا فأعرف أن أقرأ وأعرف أن أكتب ويوم أخرج سأستمر صحفيًا، وسأنشر رأيى فى السعودية بمنتهى الصراحة فى صحيفتهم النهار اللبنانية.

سألنى: وعملك فى الأهرام ألست مهتمًا به؟

قلت له: لن تستطيع أن تقدر أبدًا إلى أى مدى هو عزيز علىّ وعزيزة على تلك الروابط الإنسانية التى تربطنى بمن يعملون معى، ولكن الأهرام منذ فترة يكاد أن يختنق لا رأى جديد، ولا فكرة جديدة، ولا شىء يساوى لأننا لا نستطيع أن ننشر.

7

فى العام 1973 وقبل شهور من الحرب حاولت السلطة أن تضع مقالات لى تحت الرقابة.

كانت تلك القصة بداية الخلافات بين الرئيس السادات وبينى، ومناسبتها مقال نشرته بعنوان «كيسنجر وأنا.. مجموعة أوراق» وكان فى تقدير الرئيس السادات أن المقال يعطل خططا سياسية، طلب منى المشاركة فيها واعتذرت، وضايقه اعتذارى، وضايقه أكثر أننى كتبت فى الموضوع دون

إشارة إليه كأنه كان داعى خلاف بيننا.

فوجئت بنائب رئيس الوزراء للإعلام الدكتور محمد عبدالقادر حاتم يتصل بى ويبلغنى بالنيابة- على خلاف المعهود فى علاقتى مع الرئيس- أن مقالاتى من الآن فصاعدًا لا بد أن تخضع للرقابة.

كتبت إليه خطابًا رسميًا على ورق الأهرام أبلغه أن هذا القرار بوضع ما أكتب تحت الرقابة مخالف لعهد متفق عليه منذ أيام الرئيس جمال عبدالناصر- وحتى من قبله- وقد استمر سنتين حتى الآن من رئاسة أنور السادات، وبمقتضى هذا العهد المتفق عليه، فإن مقالاتى لا تخضع للرقابة، فأنا لا أستطيع أن أكتب شاعرًا أن مسئولًا فى الدولة مهما كان قدره يمكن أن يمد قلمًا أحمر إلى ما أكتبه ويحذف منه على هواه، وإذا كان غيرى لم يتمسك بهذا الحق الجوهرى للصحفى فذلك شأنه.

أبلغت الدكتور حاتم فى نفس الخطاب أننى سوف أمتنع عن الكتابة إلى حين إعادة النظر فى القرار، ولم أشأ أن أراجع الرئيس السادات، وكان ذلك ممكنًا فى أى لحظة، لكنه خطر على بالى أن المراجعة فى هذه الحالة يمكن تصويرها على أنها رجاء، وذلك غير لائق، وكنت حتى هذه اللحظة أعتبره نوعًا من المساومة على حرية الكاتب.

فى نفس الوقت لم أكن أريد أن أصطدم علنًا مع الرئيس السادات، وأنا أعرف أن هناك معركة مسلحة قادمة على الطريق ذلك العام، وأن من يستطيع أداء دور فى الخدمة العامة فى ظروفها، عليه أن يكون متواجدًا حيث يكون نافعًا، فقد فكرت فى طريقة أستطيع أن أغطى بها انقطاعى عن الكتابة.

نظمت على عجل رحلة إلى آسيا، اصطحبت معى فيها عددًا من الزملاء فى الأهرام وقتها، بينهم الأساتذة جميل مطر ومحمد سيد أحمد وسميح صادق وحمدى فؤاد، وجاء معنا مسئول إدارى عن الرحلة هو الأستاذ عبدالله عبدالبارى،

وكان معنا بالطبع رفيق السنوات المبكرة من العمل الصحفى الأستاذ محمد يوسف الذى كان رئيسًا لقسم التصوير بالأهرام.

قضينا معًا شهرًا كاملًا فى آسيا، قابلنا فيه كل قادتها السياسيين والعسكريين، وعندما عدنا من ذلك الموعد مع الشمس، بدأت أكتب فى الأهرام سلسلة أحاديث فى آسيا، وبأمانة الشهادة فإن الرئيس أنور السادات فهم مغزى الرسالة من الانقطاع عن الكتابة، ومغادرة مصر لشهر كامل، وكذلك فقد كان أول من اتصل بى بعد العودة.

التقينا لمدة ست ساعات فى بيته فى الجيزة لتصفية العوالق فى خلافنا، خصوصًا أنه أثناء غيابى حدثت واقعة بيان الأدباء الشهير، ومن نتائجها أن الرئيس السادات أمر بنقل عشرات الصحفيين إلى وظائف إدارية فى مؤسسات اقتصادية تابعة للدولة، وفيهم من محررى الأهرام الأساتذة أحمد بهاء الدين ويوسف إدريس ولويس عوض ومكرم محمد أحمد، وبدت هذه أزمة أضيفت إلى الأزمة القديمة.

كان الرئيس السادات يريد تعليق صفحة ما جرى قبل شهر على حساب ما جرى فى غيابى- أى مقايضة أزمة بأزمة- وكذلك فإن الحديث الذى بدأ رقيقًا لم يلبث أن علت فيه الأصوات، مما لفت نظر قرينة الرئيس، السيدة جيهان السادات، فجاءت بنفسها إلينا تمارس دبلوماسيتها التوفيقية الرقيقة، والواقع أن حرصها كان شديدًا على أن تعود العلاقات بين قرينها وبينى إلى ما كانت عليه- صداقة وتعاونًا- وعلى أى حال فقد عدت للكتابة دون رقابة.

توصلنا إلى نصف حل فى موضوع الزملاء الذين نقلوا من المؤسسات الصحفية، ثم إلى حل كامل بعد أسابيع، وخفت حدة الأزمة أو لعلها تأخرت من بداية عام 1973 إلى نهايته، حيث تجدد الخلاف بيننا مرة أخرى دون إمكانية لحل وسط بسبب هنرى كيسنجر وقبول الرئيس السادات بسياسة فك الارتباط خطوة خطوة- جبهة جبهة، ومن جانبى فقد رأيتها مقدمة لصلح مصرى- إسرائيلى منفرد يؤدى إلى انفراط فى العالم العربى يصعب التنبؤ بتداعياته وعواقبه، وذلك جرى

لسوء الحظ.

8

لم تكن لدىّ أى أسباب للحقد على السادات، لقد لعبت دورًا فى توليه السلطة بعد وفاة عبدالناصر، وأنا أعرف أسباب قصوره وتصورت أنه سوف يتطور مع المسئولية لأن مشكلته هى عدم إحساسه بالأمان الداخلى، وتصورت أنه حصل عليه بعد أن أصبح رئيسًا للجمهورية.

كان اختياره هو الأمر الطبيعى بعد وفاة عبدالناصر، وهذا ما استقر عليه رأى كل الذين كانوا مسئولين آنذاك، وقد ظللت بجواره وساعدت فى الإعداد السياسى والإعلامى لحرب أكتوبر وأنا الذى كتبت قرار الحرب، وكنت موجودًا معه طوال أيام الحرب سواء فى بيته أو فى غرفة العمليات.

وقد اخترت أن أترك العمل معه، وتركته واخترت موقعى وموقفى، لأننى ببساطة لم أكن أستطيع أن أتواطأ ضد أعظم انتصار حققه الجيش المصرى فى عصره الحديث، ولكننى لم أكف عن أن أكون صحفيًا حين تركت الأهرام وخرجت إلى الدنيا الواسعة وكتبت إلى العالم كله.

المفارقة أنهم كانوا يعيروننى بأن كتبى تعطينى إيرادًا عاليًا، وأنا أقول إن الغنى غنى النفس، وقد ظللت أعيش فى وطنى وتمسكت بأنه لا بيت ولا عمل ولا قبر خارج مصر وظللت أعيش من دخل ما أكتب، وبذلك حققت لنفسى قدرًا من الاستقلال ككاتب لا أرضى أن أتنازل عنه تحت أى ظرف من الظروف، وبالتالى فلم تكن لى دوافع للحقد.

السادات لم يخرجنى من الأهرام، نقلنى مستشارًا لرئيس الجمهورية واعتذرت، ثم عرض علىّ أن أكون نائبًا لرئيس الوزراء، ثم مستشارًا للأمن القومى واعتذرت، وعرض علىّ أن أعود إلى الصحافة شرط أن ألتزم واعتذرت.

قبل اعتقالات سبتمبر قال السادات عنى أننى عشت كفاية، بل وصل الأمر إلى القول بأننى ملحد، وزعم أننى اعترفت له

بذلك وأنا أسير سجنه، لا أملك فرصة الرد على تكفيره لى.

علاقتى بالسادات كانت تختلف عن علاقتى بعبدالناصر.

لقد كنت طرفًا فى حوار مع عبدالناصر، ولكن السادات الذى بدأ مرحبًا بالحوار، قد انتهى بأنه لم يعد طرفًا فى حوار مع أحد، لا معى ولا مع غيرى، وربما كان يشعر بالفارق بين علاقتى به وعلاقتى بعبدالناصر، وربما كان إحساسه بأننى لعبت دورًا فى توليه السلطة لم يكن يعطيه سعادة، فالإنسان عادة لا يسعد بأن يكون مدينًا لأحد، والواقع أنه أخطأ فهم كثير من الأشياء.

أذكر أننى اختلفت معه أول مرة حين اتصل بى بعد توليه بقليل، ليطلب منى أن أخصص مقالى الأسبوعى بصراحة عن «جعفر نميرى»، وقال لى إن «نميرى» يقول إن هيكل لم يكتب عن ثورة السودان، وإنه وعده بأن أكتب هذا الأسبوع عنها.

أبديت دهشتى، وقلت إنه ليس فى ذهنى موضوع للكتابة فيه عن السودان.

وأضفت: أخشى أن تفهم أن عبدالناصر كان يحدد لى ما أكتب فيه، وهذا غير صحيح وأنا أعترض على أن تحدد لى ما أكتب فيه. فقال إنه أراد أن يصلح علاقتى بجعفر نميرى، وانتهى الموضوع عند هذا الحد، ولم أكتب مقالى هذا الأسبوع.

تصور السادات حين نقلنى من الأهرام أنه حكم على بألا أصبح صحفيًا إلى الأبد، ولهذا كان يغضب لأننى ما زلت صحفيًا، رغم تركى الأهرام.

وقد حدث عندما قابلنى الخمينى عام 1978 فى باريس ونشر النبأ، أن سأل صديقًا مشتركًا: هو محمد قابل الخمينى ليه؟

وعندما قال له الصديق إن المقابلة تمت باعتبارى صحفيًا،

قال دهشًا: لكن أنا عزلته!

ليس هذا فقط بل إن الشاه عندما وصل إلى أسوان سأل السادات عن هذه المقابلة، وهل لديه أنباء عن نوايا الخمينى القادمة فى ضوء مقابلتى له؟ فقال السادات إن فى مصر تقليدًا بأن يكتب كل صحفى يسافر إلى الخارج تقريرًا عن لقاءاته، واتصل بى أحد كبار المسئولين من أسوان، وطلب منى كتابة تقرير، ولكنى رفضت، وقلت إننى أكتب مقالات أنشرها، ولم أكتب تقارير لأحد طول عمرى، وإن ما جرى فى مقابلتى للخمينى منشور.

9

لم يكن هناك فى البداية خلاف بين الرئيس السادات وبينى لأكثر من ثلاث سنوات، كان بيننا حوار متصل، اختلفنا واتفقنا، ولكن القرار كان دائمًا قراره بالطبع، لأنه وحده المنتخب من الشعب، وهو دستوريًا رأس سلطة القرار فى الدولة.

لم أتوقف عن الحوار رغم أنه غضب أحيانًا، ولكنى لم أفزع وإنما قلت له بمودة: إننى معك كما كنت مع جمال عبدالناصر، لا أخاف منك لأننى أحبك، والذى يحب لا يخاف، والذى يخاف لا يحب.

طوال أيام الحرب من 6 وحتى 20 أكتوبر كنت مع الرئيس السادات كل مساء وحتى قرب منتصف الليل فى قصر الطاهرة، وكان يقيم فيه أيامها ومعه مكتب اتصال يحتل بدروم الدور الغاطس تحت الأرض.

وكتبت له خطابه الذى ألقاه فى مجلس الشعب يوم 16 أكتوبر 1973، وعندما عاد بعد إلقائه اتصلت به من الأهرام أبلغه بما أعلنته رئيسة وزراء إسرائيل من أن جيش الدفاع الإسرائيلى يواصل عملياته ويتقدم غرب القناة، وكانت تلك أول أنباء عن الثغرة وطلب أن أنتظره على التليفون دقيقة يتصل فيها بالمشير أحمد إسماعيل، وعاد إلىّ ومعه طمأنينة

لم أحسبها كافية، وطلب أن أتصل بنفسى بأحمد إسماعيل وأسمع منه، وفعلت ومرة أخرى عاودنى الشعور نفسه.

وفى يوم 7 أكتوبر حضرت معه لقاءً واحدًا ضمن ثلاثة لقاءات أجراها مع رئيس الوزراء السوفيتى «أليكس كوسيجين» وكان قد جاء فى زيارة سرية للقاهرة ولم يكن ما سمعته مشجعًا.

ومساء 20 أكتوبر ظهر الخلاف بيننا فى موضوع قبول قرار مجلس الأمن رقم 338، فقد أبديت تحفظات عليه فى حضور المهندس سيد مرعى والسيد حافظ إسماعيل والدكتور أشرف مروان.

طرحت أهمية التشاور مع سوريا قبل موافقة مصر عليه، وكان رأيه أن السوفيت سوف يقومون بإخطارهم، وعلقت بأنهم كانوا شركاء لنا فى الحرب ولم يكونوا شركاء السوفيت ولم يقتنع.

ورجوته أن ينتظر حتى يجىء المراقبون الدوليون لضبط خطوط وقف إطلاق النار، خصوصًا أن فريقًا منهم جاهز فى قبرص ووصوله إلى هنا مسألة ساعات، مع تذكيره بتجربة أن الإسرائيليين لن يحترموا قرارًا من مجلس الأمن بوقف إطلاق النار، بل سوف يستغلونه إلى أبعد مدى يستطيعون الوصول إليه.

ورد على أمام الجميع بان لديه تعهدًا أمريكيًا مكتوبًا بتوقيع نيكسون، وهذا بمستواه أنفع وأجدى ألف مرة من أمم متحدة لا تحل ولا تربط.

وقلت ما مؤداه إننى مشارك لسنوات طويلة فى اتصالات ومحادثات مع إدارات أمريكية متعاقبة منذ سبتمبر 1952، وبالتالى فقد خبرت مراوغات السياسة الأمريكية وتعلمت أن أسمع ثم أبحث ثم أشك، ثم أكتشف أن الكلام فى الخطاب الأمريكى شىء والفعل نقيضه إذا لم يحاذر من يعنيه الأمر.

ورد بما ملخصه: إن الاتصالات هذه المرة على مستوى آخر

غير مسبوق، فهى بينه وبين الرئيس نيكسون، وهى تحتوى على تعهدات مكتوبة موقعة بإمضاء رئيس أكبر وأقوى دولة فى العالم، وأضاف مؤكدًا: إن الاتصالات هذه المرة تختلف فى كل شىء عن كل ما سبقها.

ولم أكن أعرف شيئًا عن هذه الاتصالات حتى عثرت على نصوصها فى واشنطن بعد خمس عشرة سنة.

قلتها له عشرات المرات من أول يوم فى ولايته، إلى آخر لقاء لى معه حين اعتذرت سنة 1975 عن تأييد فك الارتباط الثانى وملحقاته السرية.

يوم 13 مايو 1971 وكان الرئيس السادات يستعد لتسجيل خطابه إلى الأمة يشرح فيه قصته مع من سموا فى ذلك الوقت بمراكز القوى، كنت معه فى مكتبه فى قصر القبة ومعنا السيد حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية فى ذلك الوقت.

كان المقرر أن يكون الحديث مرتجلًا، وشرح الرئيس أمامنا ما ينوى أن يقوله عند بدء التسجيل، ولاحظت أنه يركز تركيزًا شديدًا على أن خلافه مع الآخرين كان سببه أنهم منعوه من التفاوض مع ويليام روجرز وزير الخارجية الأمريكى الذى كان يطوف بالمنطقة وقتها.

وأتذكر أننى قلت له بالحرف: سيادة الرئيس الناس لا يهمهم إذا منعوك أو لم يمنعوك من المفاوضة مع روجرز، إذ هناك قضية أخرى تسبق غيرها من القضايا الآن فى ضمير الناس، كل الناس، وهى قضية الديمقراطية، هذه هى النقطة التى أتصور أن تركز عليها.

ورحت أجادل الرئيس حتى اقتنع فى النهاية بألا يشير على الإطلاق إلى حكاية منعه من التفاوض مع روجرز، ويركز بالكامل على قضية الديمقراطية.

جرت مياه كثيرة تحت جسور النيل وفى قناة السويس حتى بدأ الإعداد لحرب أكتوبر، وكنت إلى جانب الرئيس

الراحل فى الإعداد السياسى والإعلامى للمعركة، حتى إنه تفضل وعهد إلى بكتابة التوجيه السرى الصادر منه إلى القائد العام للقوات المسلحة، بتحديد أهداف المعركة والغرض المطلوب تنفيذه بالقوة المسلحة لصالح الاستراتيجية السياسية العامة لمصر والأمة العربية.

حين كتبت ذلك التوجيه بخط يدى أخذه الرئيس إلى أحد سكرتيرى مكتبه وطلب دقّه على الآلة الكاتبة لكى يوقعه ويسلمه بيده إلى الفريق أحمد إسماعيل على، وبلغ من حرص الرئيس على السرية أنه بنفسه أغلق غرفة فى بيته على سكرتير الآلة الكاتبة وتركه فيها حتى بدأت المعركة بعدها بأيام، ثم بنفسه أطلق سراحه وأمر بمنحه علاوة استثنائية.

إلى هذه الدرجة كانت العلاقة وكانت الثقة، لم تكن علاقة سهلة، ولا كانت ثقة على بياض.

10

كان الرئيس السادات يراهن فى الضغط على بأوراق ثلاث ظنها رابحة.

الورقة الأولى: أننى لا أطيق البعاد عن لعبة السياسة العليا فى مصر، وقد كانت أصابعى فيها لأكثر من من عشرين عامًا، والقرب من لعبة السياسة العليا فى أى بلد فى العالم حالة يمكن أن تكون لها قوة الإدمان.

الورقة الثانية: أننى لن أقدر على الفراق عن الأهرام بعد أن وضعت فيها من سنوات عمرى ما وضعت، أكثر من سبعة عشر عاما هى الشباب كله، وما بعد الشباب.

الورقة الثالثة: هى أننى لن أجد ما أعمله إذا ابتعدت، فالمهنة التى اخترتها لنفسى- الصحافة- أصبحت فى مصر ملكًا خاصًا لسلطة الدولة، فإذا خرجت من أحد الأبواب فقد خرجت من كل الأبواب.

وأشهد لأنور السادت أنه حاول أن يترك الباب نصف مفتوح

بعد الخروج.

فكان قراره الأول المنشور فى كل الصحف صباح يوم 2 فبراير 1974 أن أنتقل من الأهرام إلى قصر عابدين مستشارًا لرئيس الجمهورية، ولم أضع قدمى فى قصر عابدين، ولخصت موقفى فى تصريح نشرته صحيفة الصنداى تايمز البريطانية فى عددها الصادر يوم 9 فبراير 1974.

قلت: إننى استعملت حقى فى التعبير عن رأيى والرئيس السادات استعمل سلطته، وسلطة الرئيس قد تخول له أن يقول لى: اترك الأهرام، ولكن هذه السلطة لا تخول له أن يحدد لى أين أذهب بعد ذلك، القرار الأول يملكه وحده، والقرار الثانى أملكه وحدى.

وخرجت ولم أعد بعدها، ولا أظننى أريد أن أعود.

لم أعد- ولا أظننى أريد أن أعود- إلى لعبة السياسة العليا.

ولم أعد- ولا أظننى أريد أن أعود- إلى الصحافة، بما فيها الأهرام، رغم أن الرئيس بعد عروض أخرى بمناصب أكبر فى الدولة، بينها منصب مستشاره للأمن القومى، «كسينجر بتاعى»- على حد تعبيره بالنص، أو منصب نائب رئيس الوزراء، عاد فقال لى فى ربيع سنة 1975 إننى أستطيع أن أعود إلى الصحافة إذا أحببت وفى أى مكان أريده على شرط واحد وهو أن ألتزم.

وكان ردى يومها: سيادة الرئيس إننى لا أعرف بالضبط ما تطلب منى أن ألتزم به، ولا أتصور أنه فى مقدور أحد أن يلتزم خارج قناعاته، ولقد كتبت ما كنت مقتنعًا به، وما اعتبرته جوهر التزامى، ولكنك غضبت، ثم إننى لا أظنك ترضى لى وأنا بالقطع لا أرضى لنفسى أن أخرج بقرار ثم أعود بقرار.

قد أخرج بقرار ولكنى أظل صحفيًا بالمعنى الذى أفهمه، ولكنى إذا عدت بقرار فلن أعود صحفيًا بالمعنى الذى أفهمه، إننى لست من الذين يستشهدون بكارل ماركس ويعتبرون

أقواله إنجيلًا مصدقًا، ومع ذلك فإننى من المعجبين بقول مأثور له مؤداه: إن التاريخ لا يكرر نفسه، وإذا فعل فالمرة الأولى تكون دراما مؤثرة، وأما المرة الثانية فإنها تصبح ملهاة مضحكة، وأنا لا أريد أن أعود إلى الصحافة ظلًا باهتًا وما كنت ذلك يومًا.

ذات يوم كنت فى الأهرام، وكنت أفكر وأكتب وأقرر وأتحرك دون أن ألتفت خلفى، سوف أجدنى مترددًا فيما أفكر وأكتب، وسوف أجدنى مهمومًا بما وراء ظهرى أتلفت إليه محاولًا تأمين نفسى مما عساه يصل إليك عما أقول أو أفعل، وذلك شىء لا أريده كما إننى لست فى حاجة إليه.

إن أسبابًا للخلاف وقعت بين الرئيس وبينى قبل حرب أكتوبر.

اختلفنا سنة 1971 فيما كان يقوله عن سنة الحسم وكتبت ونشرت آرائى دون إلحاح.

واختلفنا سنة 1972 فى الطريقة التى أخرج بها السوفيت من مصر، وفى الطريقة التى عالج بها مشكلة ما سماه «الفتنة الطائفية» وحاولت معه بقدر ما استطعت.

واختلفنا سنة 1973 فى مواجهات اندفع إليها دون مبرر من وجهة نظرى مع شباب الجامعات، وألقى بهم فى السجون، وقدمهم للمحاكمات، ومع جماعات من المثقفين والصحفيين نقلهم بجرة قلم إلى مصلحة الاستعلامات.

التزمت بموقفى، وإن حاولت جاهدًا أن أتفادى ما يقترب من حد الاستفزاز، وقد غضب عدة مرات وثار واتهمنى بأننى أريد أن أفرض عليه آرائى، وأننى أتجاوز الخط الفاصل بين دور الصحفى ومسئولية الحاكم، وردد بعض ذلك فى خطب علنية.

حاولت مخلصًا أن أشرح له موقفى، وكان رأيى أن حرية الصحافة بالمعنى الحقيقى هى حرية مناقشة صنع القرار، والعوامل المؤثرة عليه، والمناخ المحيط به، والنتائج التى

يمكن أن تترتب بعدها، ولم يكن ذلك رأيه فى حرية الصحافة.

كان القرار فى رأيه مسئولية الحاكم وحده، وكنت مستعدًا أن أوافقه على ذلك عن معرفة بظروف العالم الثالث، ولكن مسئولية إصدار القرار شىء، وحق مناقشة هذا القرار وتقييمه، وما يتصل به من مقدمات ونتائج شىء آخر، ولم يكن على استعداد لأن يقتنع ومن جانبى كنت حريصًا على ألا تصل الأمور إلى صدام.

11

لم يكن لدى أى سبب لكراهيتى الرئيس السادات.

كان الرجل للإنصاف يحاول جهده معى، ولكن على شروطه هو بالطبع، ولم تكن لى شروط إلا أن أكون متسقًا مع نفسى ومع تاريخى ومع ما أؤمن به.

لقد جلس معى الرئيس السادات أطول جلسة قضاها مع أى إنسان فى حياته كلها.

كان ذلك يوم 22 فبراير 1975، وكانت علاقاتنا قد تحسنت بعد اعتذارى عن قبول منصب المستشار السياسى للرئيس، وما أعقب ذلك من قطيعة دامت ستة أشهر تقريبًا.

ذهبت إليه ذلك اليوم ومعى الصحفى الأمريكى سيروس سالزبرجر وقضينا معه نحن الاثنين ساعة، ثم تهيأنا للانصراف وكان «سالزبرجر» مدعوًا على الغداء بعدها فى بيتى.

استوقفنى الرئيس السادات وسألنى: إلى أين أنت ذاهب؟

قلت: معه.. فهو ضيف غداء عندى اليوم.

ورد الرئيس: سوف أرتب من يدعوه بدلًا منك على الغداء لأنى أريدك معى هنا لحديث مهم.

ولم ينتظر الرئيس، بل استدعى الدكتور أشرف مروان مدير

مكتبه للمعلومات وقتئذ، وطلب منه أن يأخذ سالزبرجر إلى الغداء فى أى مكان.

وصعدت مع الرئيس إلى الطابق الثانى من استراحة القناطر، وجلسنا نحن الاثنين فى غرفة نومه، كانت الساعة الثانية ظهرًا.

انتهى لقاؤنا فى الساعة الحادية عشرة والنصف مساء، أى أن حوارنا استمر تسع ساعات ونصف الساعة.

تواصلت أسرتى مع سيد مرعى ورجته بعد أن نزل الظلام أن يتأكد من وجودى فى استراحة القناطر مع الرئيس، لأن طريق القناطر فى الليل خطر لزحمة المرور عليه، وكان هناك قلق لغيابى إلى هذا الحد عن غداء كان معنا فيه ضيف، وسأل سيد مرعى ثم كرر السؤال وعاد إليه حتى قرب منتصف الليل.

تسع ساعات ونصف الساعة فى حوار مستمر، لا يطول إلى هذا الحد غير حوار حقيقى حافل ومتدفق.

على العكس تماما أنا مدين للرئيس السادات، فخروجى من الأهرام منحنى الفرصة لكى أثبت لنفسى وللآخرين أن الصحيفة العربية قد تصبح مملوكة للسلطة، ولكن الصحفى العربى ليس محكومًا عليه بالضرورة أن يكون مملوكًا للسلطة، إذا كان لديه ما يقوله، وإذا كان لما يقوله قيمة، فالعالم الواسع مفتوح له.

عندما خرجت من الأهرام آخر مرة ظهر يوم 2 فبراير 1974 كنت واثقًا أننى لن أعود إليه، وقررت أننى لن أقبل العودة إليه مهما كان أو يكون، لسبب أساسى ومبدئى، هو أن عودتى سوف تكون بقرار، ولقد قلت دائمًا إن الصحفى يستطيع أن يخرج بقرار من سلطة دون أن يفقد صفته الصحفية، ولكنه إذا عاد بقرار فقد الكثير مما كان لديه، إن لم يكن قد فقده كله.

بلغ خلافى مع الرئيس السادات حد القطيعة الكاملة، ومع ذلك كنت فى دهشة من تناوله لى فى كل خطاب تقريبًا مع أنه كان يعلم أننى لا أملك حق الرد، ومع أنه كان يعرف أننى وأنا أعيش حياتى كلها فى مصر أقع تحت سلطانه المطلق وغير المحدود، كان خلافى مع الرئيس السادات فى كل شىء تقريبًا، أقولها مع الأسف.

لقد اختلفنا أنا والسادات فى فبراير 1974، لكنه لم يعتقلنى إلا فى سبتمبر 1981، وقد تحمل أن أعبر عن رأيى وأنا فى بلدى، وقد هاجمنى وأنا مواطن عادى، وبذلك رفعنى من ناحية الأهمية العامة إلى مستوى رئيس الدولة.

اعتذرت عن تنفيذ قراره، ولم أتسلم العمل مستشارًا له فى قصر عابدين، رغم إلحاح عدد من الأصدقاء المتصلين وقتها بالسادات وبى، وضمنهم سيد مرعى وإسماعيل فهمى وأشرف مروان، ولم تمض غير أسابيع حتى بدأت محاولات إقناعى بالود أن أبتعد عن مصر ولو شهور قليلة، وكان بين ما طرحوه على فى تلك الأيام منصب السفير المصرى فى لندن.

بعد قطيعة شهور، وفى نوفمبر 1974 اتصل بى تليفونيًا وطلب أن ألقاه فى استراحة الهرم، وكأن شيئًا لم يحدث.

كنت مشغولا بكتابى «الطريق إلى رمضان» وكان السادات يشعر بضيق وضغوط من كيسنجر، وعلى وشك الذهاب لقمة الرباط التى أعلن فيها أن منظمة التحرير هى الممثل الوحيد للفلسطينيين، وقد تناقشنا كثيرًا فى هذه الأمور فى أيام متتالية، وقد وجدت أن خلافاتنا لا تزال كما هى، وكان على الانتهاء من الكتاب، لذلك، فقد طلبت منه أن نظل أصدقاء لنرى فيما بعد ما يمكن عمله معًا.

ثم فوجئت بعرضه أن أكون نائب رئيس وزراء مع ممدوح سالم، وأتذكر أننا كنا فى استراحة القناطر، والسادات مسنود على «شلتة»، وأنا أحاول أن أقنعه بوجود علاقة بين طبيعة المرحلة، وطبيعة الشخص الذى يتولى الحكومة، وذكرته بما

جرى فى قصر الطاهرة 1973، عندما قلت له إن مرحلة ما بعد الحرب هى مرحلة تعمير وبناء، ومن ثم كان اختيار د. عبدالعزيز حجازى لرئاسة الحكومة، لكنك الآن لا تريده، وتريد ممدوح سالم، وقد سبق أن تركت رئاسة الوزراء للدكتور محمود فوزى، لكن ثقتك ظلت فى ممدوح سالم، وأتيت بـ«د. عزيز صدقى»، ثم د. عبدالعزيز حجازى، لكن ثقتك ظلت أيضًا فى ممدوح سالم، واختيارك لممدوح سالم الآن ينهى هذه الازدواجية.

فقال لى السادات: يا سلام عليك يا محمد، أنت شفت الكومبيوتر اللى فى دماغى.

قلت له: ثقتك فى ممدوح سالم لا يمكن تفسيرها إلا بأن الأمن هو هاجسك الأول، وأنا لا اعتراض لى على ممدوح سالم، لكن ما أخشاه هو «تبوليس» الحكومة، أى أن تصبح بوليسية.

إن الحاكم عليه أن يحدد تصوراته الاجتماعية ويقرر هو فى خدمة من؟

وأضفت قائلًا: أنت موجود رئيس جمهورية ليه؟

لو بقيت فى الجيش لكنت اليوم اللواء متقاعد أنور السادات، وساكن فى الحلمية، لكن لماذا أنت اليوم أنور السادات رئيس الجمورية؟

لأن هناك معنى اجتماعيًا حدث فى يوم 23 يوليو 1952، معنى تعبر عنه مجموعة من السلطة، منتمية لأغلبية الشعب فى مصر، ومعبرة عن مصالحها، وهذه المجموعة تستمد شرعيتها من انحيازها الاجتماعى والاقتصادى للأغلبية، وليس لها سند آخر للشرعية مثل الميراث كما فى النظام الملكى، أو مثل الانتخابات بمعناها الذى لا خلاف عليه.

وأضفت: فى 23 يوليو 52 تغيرت السلطة فى مصر، وبعدها غيرت الثورة التركيب الاقتصادى والاجتماعى فى مصر، بعد رحيل جمال عبدالناصر أصبحت رئيسًا للجمهورية،

سلطتك قائمة على ما سميناه تحالف قوى الشعب العامل، هذه هى القاعدة الاجتماعية لثورة يوليو، بسياسة الانفتاح التى بدأت فى العام الماضى 1974 تغيرت القواعد، وعليك أن تسأل نفسك، هل ما زلت تمثل التحالف القديم، رأيى أن الأمر لم يعد كذلك، ولا بد من إعادة توصيفه من جديد، لا بد من تحديد هويته ومرتكزاته الطبقية.

نظر إلىّ الرئيس السادات وقال: أنت تتكلم عن الصراع الطبقى يا محمد.

وبدأ يكتب فى الهواء:

أنور السادات

قرار من رئيس الجمهورية.

مادة أولى: يلغى الحقد الطبقى.

مادة ثانية: على وزرائنا كل فيما يخصه تنفيذ هذا القرار.

إمضاء أنور السادات كبير العائلة المصرية.

ثم التفت لى قائلًا: فهمت يا محمد؟

قلت: الحقيقة إننى لم أفهم.

13

يعتقد البعض أن قرار خروجى من منصبى فى جريدة الأهرام كان مفاجئًا بالنسبة لى، على العكس تمامًا، كان بينى وبين الرئيس لقاء اصطحبت له فيه الرئيس ميتران الذى كان ضيفنا لمدة عشرة أيام وقتها فى الأهرام، جلسنا نتناقش لأكثر من ساعتين.

ونحن ننزل درجات السلم سألنى الرئيس السادات: محمد قرارك إيه.. الرئاسة ولا الوزارة؟

كان الرئيس السادات قد قال لى قبلها إن بقائى فى الأهرام

مع المقالات التى أكتبها أصبح مسألة صعبة جدًا، لأن الناس بدأت تشعر أن هناك خلافًا فيما بيننا.

وكنا تقابلنا قبل ذلك فى نادى الرماية، وحاولت أن نتكلم، وقلت له: لا أريد إلا أن أكون صحفيًا.. وإذا لم يكن فى الأهرام فأعتقد أنه فى وسعى العمل فى أية صحيفة خارج مصر.

سألنى الرئيس بشكل مباشر بعد لقاء ميتران: ما هو قرارك؟

قلت له: لا مستشار فى الرئاسة ولا عضو فى الوزارة.

قال لى: هل هذا قرارك الأخير؟

قلت له: ليس مسألة قرار أخير، هذا خارج طاقتى تمامًا.

نظر إلىّ وقد سبقنى على السلم، وقال: خلاص يا محمد مفيش فايدة.

يوم الجمعة أبلغونى بتعيين الدكتور عبدالقادر حاتم رئيسًا لمجلس إدارة الأهرام، وتعيينى مستشارًا لرئيس الجمهورية.

قلت لهم فى الأهرام انشروا الخبر بطريقة طبيعية.

ذهبت صباح اليوم التالى وعقدت اجتماعًا لمجلس الإدارة واللجنة النقابية والاتحاد الاشتراكى، ودعوت الدكتور عبدالقادر حاتم ليتسلم الأهرام، لأننى لم أعتبر نفسى مرفودًا، وإنما أعتبر نفسى رجلًا اختلف وقبل تحمل مسئولية الخلاف.

لستة شهور متواصلة لم نتقابل، وبعدها وجدت فوزى عبدالحافظ سكرتير الرئيس يتصل بى تليفونيًا: سيادة الرئيس عاوز يكلمك.

أعطى سماعة الهاتف للرئيس الذى وجدته يقول لى: بتعمل إيه يا محمد؟

قلت له: أكتب كتاب.

قال لى: سيب الكتاب وتعالى قابلنى فى استراحة الهرم.

ذهبت إليه فى استراحة الهرم، جلسنا وتحدثنا، ووقتها كان لطيفًا جدًا وسمع كلامى.

سألنى: حتعمل إيه؟

قلت: باشتغل فى كتاب، وعندى عقود كتب أخرى، وكويس كده أنا مبسوط.

قال: أنا مسألتكش حتعمل إيه فى نفسك، أنا باسألك حتعمل إيه معايا؟.. أنا قررت تعيينك مستشار بعد استقالة حافظ إسماعيل.

قلت له: أنا بعيد عن الصورة من ستة شهور، وأنا أريد مكان ومكانة الصديق.

ضرب الرئيس على الترابيزة التى أمامه، وقال لى: لا لا لا.. دى بلبلة.

لا ينتبه كثيرون إلى أننى كنت إلى جوار الرئيس السادات خلال هذه الفترة، وكتبت له خطاب البرلمان الذى أعلن فيه فشل مفاوضات فك الاشتباك الثانى، وقدمت فيه الاقتراح بفتح قناة السويس، رغم أن رأيه كان الإغلاق، وكان هذا رأى مستشاريه أيضًا.

ناقشنى فى هذا الاقتراح ثلاثة أيام متواصلة، ثم قبل فى النهاية ما اقترحته.

كتبت له أيضًا خطاب التغيير الوزارى، وتناقشنا فيه، وطلبت منه أن نضيف حديثًا عن الأسعار، وكيف لمواطن أن يعيش بمرتبه، وناقشنا ما كان يتردد وقتها عن الفساد.

وعندما قررت أن أعمل على كتاب عن العالم العربى ومواطن القوة فيه، وكنت فى طريقى إلى عدة دول عربية، أخذت منه رسائل لبعض الناس.

ويعرف كثيرون أننى حاولت أن أزيل الجفوة بينه وبين

الرئيس الأسد، وهى الجفوة التى اتسعت بعد حرب أكتوبر، ناقشت الرئيس الأسد بطريقة لم تحدث بيننا من قبل.

قلت له: يا سيادة الرئيس إحنا عرفنا عنك من الرئيس السادات، وأنا لا أخفى عليك إننى كنت باستمرار متشكك فى البعث فى سوريا والرئيس السادات كان يؤكد أنك شخص من نوع آخر، لدرجة إن أنا قلت للرئيس يا سيادة الرئيس أنت عمال تقول حافظ الأسد.. حافظ الأسد، يعنى حافظ الأسد حيطلع إيه ما هو برضه بعثى وضابط وعلوى.

ورد الأسد قال: العمى هيك قلت له.

قلت له: الحقيقة حصل.

بعد أن عدت من جولتى العربية التى زرت خلالها إيران، وجدت حملة شعواء على فى الأهرام بسبب كتاب «الطريق إلى رمضان» بحجة أننى تجاهلت دور الرئيس السادات، ولم يكن هذا صحيحًا على الإطلاق.

كل الناس قرأوا الكتاب، وكل النقاد أجمعوا على أن الرئيس السادات كان بطل الكتاب، ولا يستطيع أحد أن ينكر على الرجل دوره فى حرب أكتوبر، لكننى وجدت نفسى متهمًا بتزييف التاريخ، وبعدها اتهمونى أننى سافرت إلى أمريكا حتى أفسد على الرئيس رحلته إلى هناك.. ولم يحدث شىء من هذا على الإطلاق أيضًا.

لقد سافرت إلى أمريكا وقتها بدعوة من مؤتمر الخريجين العرب من الجامعة الأمريكية، وكانت الدعوة قد وصلتنى شهر مارس، وقد استأذنت من الرئيس السادات فى السفر.

قلت له: جاءتنى دعوة من أمريكا.

فرد: لازم تروح.

قلت له: لقد قبلت الدعوة ووعدت أصحابها أننى سأكون هناك.

ذهبت إلى شيكاغو، وكان طبيعيًا أن أعود منها إلى نيويورك، وأمر على واشنطن، وبعد أن عدت وجدت من يتهمنى إننى ذهبت لأفسد على الرئيس زيارته.

وكان سؤالى: كيف لصحفى أن يفسد رحلة لرئيس الجمهورية؟

14

آخر مرة رأيت السادات وجهًا لوجه كان فى شتاء 1975.

تكلمنا فى التليفون معًا كثيرًا، بعد اتفاقية فك الارتباط الثانى، جاءنى إسماعيل فهمى وكنا فى الصيف، فى كابينتى بالإسكندرية.

قال لى: فيه هجوم شديد جدًا على الاتفاقية، والسادات طلب إنك تتولى الرد.

قلت: كيف؟

قال: هو طلب أن أعطيك صورة لما جرى.

وسألته: هل فى الاتفاقية تعهدات سرية؟

قال: لا.

وقبل أن ينصرف رن التليفون، وكان فوزى عبدالحافظ سكرتير السادات.

وقال: الرئيس عاوزك. وجاء صوته طبيعيًا، وكأن شيئا لم يكن.

قال: أيوه يا محمد.. إسماعيل جالك؟

قلت: ما زال عندى.

قال: أنا مش عايز حد يدافع عنى أنا أقدر أدافع عن نفسى، لكن مصر بتتهاجم يا محمد، وعايزك تدافع عنها.

قلت له: بالأمس كنت فى فندق فلسطين، وقابلت بالصدفة جوزيف سيسكو، وتناقشت معه فيما قرأته فى هيرالد تريبيون عن البنود السرية، وسيسكو أكد أنها موجودة، وإسماعيل فهمى نفاها.

قال السادات: مفيش حاجات سرية.

قلت: لكنى قرأت عنها فى التريبيون.

قال: محمد هل ستصدقنى أم ستصدق التريبيون؟

قلت: أصدقك أنت لكن الحقيقة أنا محتار.

قال: بلاش بلبلة حتكتب ولا مش حتكتب؟ أنا باسأل سؤال واضح ومش عايز بلبلة، حتكتب ولا مش حتكتب؟

قلت: لأ مش حاكتب.

قال: إن شالله ما كتبت.

ووضع السماعة.

تكلمنا بعد ذلك بعد حوادث 18 و19 يناير 1977، كنت فى بيتى الريفى فى برقاش، وكانت التليفونات معطلة، وفوجئت برئيس الحرس المرافق لسيد مرعى، العقيد شريف أمامى، وقال إن رئيس مجلس الشعب سيد مرعى يريد أن يراك.

فقلت له: البلد فيها حظر تجول.

قال: أنا مع سيادتك.

قلت: وأسرتى؟

قال: نأخذها معنا.

قلت: لا أريد لأحد أن يعرضها لسوء، غدًا صباحًا سأكون عندكم.

فى الصباح وجدت مصطفى خليل وسيد مرعى يبحثان الموقف، وقد اعتراهما القلق، وراحا يتحدثان عن تضافر القوى فى مثل هذه الظروف، ومن جانبى شرحت وجهة نظرى، وبعد قليل جاء حسن مرعى يطلب من سيد مرعى الذهاب لحجرة المكتب لأن الرئيس السادات على التليفون، ثم طلب منى أن ألحق بسيد مرعى، وكان يشرح وجهة نظرى التى كنت أقولها قبل قليل، وأعطانى سيد مرعى السماعة وجرى بينى وبين السادات الحوار التالى:

قلت له: أهلًا يا فندم.. أتمنى ألا تكون متضايقًا.

قل: هو ده ما كنت أقوله لك دائمًا يا محمد؟

قلت: إيه هو؟

قال: مراكز القوى أهم اتحركوا.

قلت: اعمل معروف لا داعى لاستدعاء أشباح نسيناها.

قال: لا.. لا.. يا محمد.

وبدأت أشرح وجهة نظرى الاجتماعية فى تفسير المظاهرات، وبعد أن انتهيت قال: ما فهمتش حاجة.. أنت جرالك إيه.. صدّيت؟

لم أعلق، ووجدته يقول لى: عايزك تفكر وحنتكلم.

مساء نفس اليوم ولكن فى بيتى وجدت منه مكالمة أخرى، قال فيها: أنا قلت لسيد مرعى يعدى عليك ويعرف أفكارك.

قلت له: الحكاية ليس حكاية أفكار، القضية تشخيص ما حصل حتى توصل لعلاج مناسب، وأنا شايف ما حصل هو ظاهرة اجتماعية.

قال: لا.. لا.

قلت: نحن بصدد اتجاهين للتفسير، اتجاه اجتماعى واتجاه

أمنى.

رحت حوالى الساعة أشرح ما أعنيه، وكاد السادات أن يقتنع بأن الأزمة اجتماعية، ثم قال:

ـ أنا غدًا سأجتمع بمجلس الأمن القومى وسأتصل بك قبل الاجتماع.

فى اليوم التالى عندما كلمنى قبل الاجتماع بدًا قريبا من وجهة نظرى، وكان ذلك فى الساعة العاشرة صباحًا، ولكن بعد الاجتماع وفى الساعة السادسة مساء، مر علىّ سيد مرعى ليقول لى: لا تضايق الرئيس ولا تلح عليه بما عندك، ثم كلمنى السادات وقال:

- محمد أنت عايزنى أصدقك وأكذب اللى انا شايفه قدام عينى؟

قلت: اللى هو إيه؟

قال: مؤامرة مفيش شك، فيها شيوعيين والروس وكله وأنا مش واخد بالى، أنا حاضرب.. فكرت يا محمد؟

قلت: لقد قلت إن القضية قضية تشخيص، والتشخيص هو الذى سيحدد العلاج، أما وقد وصلت لتشخيص أنا غير مقتنع به إذن الحل ليس بيدى وإنما بيد صاحب التشخيص.

قال: أنت عايز تفرض علىّ رأيك؟

قلت: لا طبعًا لكن أنا بأقول إن أحسن من يخدم سياسة ما هو من يقتنع بدواعيها، أنا غير مقتنع بأنها مؤامرة، أنا مقتنع أنها انفجار اجتماعى، وإذا كان رأيى سليمًا يبقى العلاج اجتماعى، وإذا كان التشخيص أنها مؤامرة يبقى العلاج بالضرب، وأنا لا أدخل فى الضرب، فهو ليس من اختصاصى.

قال: أنا كنت متصور أنك ستكتب الكلام الذى سأقوله.

قلت: إذا كنا مختلفين فكيف سأكتب؟

قال وقد استبد به غضب مفاجئ: طيب.. شكرًا يا محمد.. كتر خيرك.

15

كان السؤال الذى يطاردنى هو: كيف يتركك السادات تكتب معارضًا سياساته؟

وكنت أقول إن العلاقة بين الرئيس السادات وبينى هى العلاقة بين صحفى مهتم وملتزم وبين رئيس دولة.

الصحفى فى ظروف العالم الثالث، وبالذات فى ظروف بلد كمصر، حيث نواجه قضايا مصيرية، لا يستطيع أن يكون فقط مسجلًا لما يجرى، إنما يكون التزامه أكبر وأوسع، ويكون اهتمامه بما يجرى أكثر من اهتمام زملائنا فى أوروبا وأمريكا، لأننا هنا لا نتكلم فقط فى تفاصيل الأشياء، إنما نتكلم فى أساسيات الأشياء، وهذا هو شاغلنا فى هذ المرحلة من التطور.

أما عن أننى أكتب معارضًا السادات، أنا لست معارضًا، فقد أتانى بعض الناس، قالوا لى: إنك ترتب نفسك كى تبقى زعيم معارضة، أو تتصرف كأنك معارض، وهذا غير صحيح، أنا لست زعيم معارضة، ولا معارضًا، لماذا؟

هناك ثلاثة شروط للمعارضة، وكلاسيكيًا هذه الشروط معروفة: كى تعارض يجب أن تتوفر لديك ثلاثة أمور.

أولًا: أن يكون عندك تنظيم.

ثانيًا: أن تكون عندك سياسة بديلة تطرحها.

ثالثًا: أن يكون لديك هدف الوصول إلى السلطة.

أنا رجل لا تنظيم عندى ولا سياسة بديلة، عندى تصورات وليس هدفى الوصول إلى الحكم، أنا متمسك تمامًا بدورى كصحفى، واعتذرت عن كل العروض التى عرضت على كى

أعمل فى السياسة التنفيذية أو فى الحكم، اعتذرت عنها وأنا شاكرًا لكل الناس الذين قدموها وكنت عند حسن ظنهم.

لم أعارض سياسة الرئيس السادات، كنت أوسع دائرة الاختيار أمامه، لا يعنى هذا أننى أقول رأيًا معارضًا له، إننى أقول رأيًا آخر، وليس فى كل قضية، الهدف فى الدرجة الأولى أن أوسع دائرة الاختيار أمام صانع القرار المصرى أو صانع القرار العربى.

16

السادات على المستوى الشخصى كان شخصية مثيرة وفيها جوانب تستحق الإعجاب.

جاء فى مرحلة كان البلد يلهث فيه، وهو قد أعطى فرصة للأنفاس كى تهدأ.

ولا أنكر أنه اتخذ قرارًا فى منتهى الشجاعة، وفى منتهى الأهمية، قرار حرب أكتوبر، وإن كان بعد الحرب قد قفز إلى مواقع أخرى مؤكدًا بذلك مشكلتيه: معاداة التراكم والهروب المستمر.

شجاعة السادات فى أكتوبر شجاعة غير طبيعية.

أما فى مايو فكانت شجاعة إجبارية لأنه كان يدافع عن نفسه، رقبته كانت مهددة، وقد واجه ظروفًا داخلية فى منتهى الصعوبة، واجه مجموعات تريد أن تفرض تصورات معينة عليه، وكان يعتمد فى المواجهة على قوى كبيرة جدًا تؤيده، وكنت واحدًا من مؤيديه، وكان لى دور رئيسى فيما جرى، وهو قد وصفنى بأننى مهندس العملية وأنا سعيد بذلك.

فى أكتوبر كان على السادات أن يتخذ القرار بمفرده فى جو يمتلئ بالإحباط، ولم يتصور أحد أنه سيتخذه، وأنا أعتقد أن أحسن ما تجلى فيه هو هذا القرار.

وكان فى أفضل أحواله فى الفترة من 5 سبتمبر حتى 7

أكتوبر 1973، كان يفعل كل ما فى وسعه.

لكن مشكلة السادات الكبرى أنه جاء بعد شخصية تاريخية فى حجم جمال عبدالناصر، والصدمة الأساسية كانت بعد مقالة كتبتها بعنوان «عبدالناصر ليس أسطورة»، قلت فيها إن غيابه جعل من الصعب على غيره أن يتحمل مسئولياته، ومن ثم فالبديل هو إعادة تنظيم الخطوط وتدعيمها.

كان هناك صراع سلطة، نعم.

المشكلة أن البعض أراد استعمال ميراث جمال عبدالناصر ليكون قيدًا على السادات يمنعه من الحركة، وللإنصاف فإن ذلك كان من أسباب هروب السادات مما يمكن أن يفرض عليه باسم مرحلة معينة، لكن كان عليه أن يفعل ذلك لفترة ما حتى يتأكد أن الأمور استقامت، و«مايسوقش» فيها كما فعل.

اقترحت عليه دراسة متغيرات العصر وقدمنا ورقة المتغيرات.

كان على الناس أن تعلم أن أشياء كثيرة تغيرت، وأنه حتى لو كان عبدالناصر موجودًا لاستجاب لهذه التغيرات، والتى كان بعضها مؤجلًا إلى ما بعد حرب التحرير.

كان لا بد من إعادة النظر فى أمور كثيرة بعضها مؤجل إلى ما بعد حرب التحرير.

كان لا بد من إعادة النظر فى أمور كثيرة، وهذا ليس عيبًا، لكن بشرط ألا يضر التغيير بميراثك، ولا يبدد تراكم خبراتك.

17

لم يكن ما بينى وبين السادات أمرًا عابرًا، لكن المواقف فرقت بيننا.

أثناء تقبل العزاء بشقيق سيد مرعى، وقف السادات يتقبل التعازى باعتباره واحدًا من أفراد العائلة، انسحبت أنا ولم أقدم تعزيتى، لأننى لا أريد أن أصافح اليد التى صافحت

بيجين.

لكن هذا لم يمنع أن يكون بينى وبينه ما اعتبره مخزون ذكريات لا ينفد.

مرة كنا فى برقاش وكان السادات وسيد مرعى وعائلاتنا، وقدم السادات منشورًا موقعًا باسم «ناصريون هيكليون» وكان ذلك بعد سنة من أحداث مايو، وقدم السادات الذى كان جالسًا تحت شجرة أكاسيا- المنشور لى قائلًا: شفت الكلام ده يا محمد.

قلت: إيه الكلام ده؟

قال: دول ناس بيقولوا إن أكتر واحد يقدر يكمل بعد عبدالناصر هو هيكل.

قلت له: ده شغل مباحث.

ومرة سألنى عندما كانت ابنته نهى تستعد للزواج من حسن مرعى: يروحوا فين يا محمد؟

اقترحت بحيرة «خوش» فى النمسا، وهى قلعة حولها فندق والبحيرة جميلة، وكنت قد زرتها وأعرفها فعلا.

ذهب العروسان وعادا وقالا: إن المكان جميل جدًا، لكن المشكلة أنه «مفيهوش حياة».. طبعًا شباب يريد الانطلاق.

وأتذكر أن السادات ذهب للبحيرة فى النمسا وصار يتردد عليها صيفًا، وأظن أنه أعاد إليها جزءًا من مجدها الغابر بذهابه إليها.

18

تأثرت وبكيت عندما تلقيت خبر اغتيال السادات، كان عندى ضعف إنسانى شديد تجاهه.

لقد خضنا معا أحداث مايو وأكتوبر، واختلفنا فى قضية

سياسية، وقد اقترح أن أكون مستشارًا ونائب رئيس وزراء ورئيس ديوانه، لكننى اعتذرت ولم أجد فى أى من ذلك دورى أو نفسى.

سالت الدموع فى عينى وشاهدى على ذلك مأمور سجن طرة العقيد محمود الغنام وضابط المباحث العقيد صلاح شلبى، لقد أبلغانى نبا اغتيال السادات بقصد معرفة رد الفعل.

قلت لهما: كيف تم ذلك؟

قالا: كان هذا فى العرض العسكرى.

فى هذه اللحظة لم أستطع أن أذكر إلا أنه كان صديقًا.

لقد كان صديقًا لى منذ فترة طويلة وإذا بالدموع فى عينى.

لقد عشت معه عشرين عامًا كأصدقاء، وابنى حسن، أصغر أبنائى، أنا أعرف كيف كان ضعف أنور السادات تجاهه، كنا نتبادل الزيارات، أولاده كلهم يقولون لى: يا عمى.

نهى زوجة حسن ابن المهندس سيد مرعى أنا الذى قمت بخطبتها عندما طلب منى سيد مرعى ذلك قلت لحرم الرئيس إن سيد يريد نهى لابنه، وقالت لى كلم الرئيس فى هذه الخطبة.

بعد أن أفرج عنى من السجن ضمن من أفرج عنهم فى الدفعة الأولى من المحتجزين، التقيت السيدة الكريمة أرملة الرئيس الراحل أنور السادات معزيًا ومواسيًا.

لقد اختلفت معه سياسيًا، لكننى حاولت بكل جهدى أن أعزل ما هو سياسى عما هو إنسانى، هكذا ظلت عاطفتى تجاه أسرته بمنأى عن أى خلاف.

ظلت هناك مزايا كثيرة فى قرينته بينها الذكاء اللامع، أقدرها بدون تحفظ، وظلت بينى وبين بناته الثلاث وابنه الوحيد منها، وهم كل من عرفت عن قرب من أسرته، علاقة ود لم أنكره فى يوم من الأيام.

حين التقيت السيدة الكريمة أرملة الرئيس الراحل أنور السادات تفضلت فطلبت منى فى نهاية لقاء طال أكثر من ساعتين طلبًا واحدًا، ظلت فى أذنى نبرته الرقيقة والواعية: محمد.. إنك لن تهاجم أنور؟

وقلت لها بصدق وصراحة: إننى لم أهاجمه على الإطلاق، إننى اختلفت مع سياسات ولم أختلف مع شخص، ولك أن تثقى أننى لن أقول عن هذه السياسات فى غياب صاحبها غير ما كنت أقوله عنها فى حضوره.

وأضفت: أخشى أن الهجوم سوف يأتى، ولن يكون من جانبى ولكن من جانب آخرين.

ولم أزد حرفًا، وكانت الصحف وقتها ملأى تلميحًا وتصريحًا بغمزات وصلت إلى حد التشكيك فى السلامة النفسية والعقلية للرئيس الراحل.

19

أكبر فشل صحفى فى حياتى هو عدم معرفة سر ضيق الرئيس السادات بى إلى هذا الحد.

أنا أعتبر نفسى صحفى «مش بطال»، وأعتقد أننى مخبر صحفى قبل أى شىء آخر، لكن هذه القصة لم أستطع استجلاء غوامضها، أتصور أننى لعبت دورًا مهمًا فى انتقال سهل للسلطة إلى السادات فى العام 1971، وأدعى أنه استجاب لكامل اقتراحاتى ربما لأنه لم يكن أمامه غيرها، ولكنى قلت له ما قلته وأنا متجرد من كل الأطراف الذين كانوا حوله.

ما الذى أغضبه إلى هذه الدرجة؟

كان هذا فعليًا هو الشىء الوحيد الذى فشلت فى الوصول إليه.

السجين
90 يومًا فى الزنزانة

1

كانت تجربة السجن بالنسبة لى من أغنى التجارب التى مررت بها، فأنا كصحفى أشتغل بقضايا الرأى احتمال السجن موجود فى الأفق طوال الوقت، ولكنه كان بالنسبة لى مجهولًا، وكان أسوأ شىء بالنسبة لى هو الحبس الانفرادى.

عندما دخلت التجربة وجدتها غاية فى الغنى، مصر كلها كانت موجودة، كنت طرفًا فى تجربة أخوضها مرتين.

مرة كصحفى يتابع ما يجرى فى حدث ضخم.

ومرة كمعايش لرموز كل ما له قيمة فى مصر.

وأعتقد أنه ليس هناك كتجربة السجن، فهناك تسقط حواجز كثيرة بينك وبين الآخرين، المرحوم عبدالعظيم أبوالعطا مثلًا لم أكن أعرفه جيدًا، كنت أعرفه كشخص عام، بعد 3 أسابيع قضيناها معًا فى زنزانة واحدة قامت بيننا صداقة قوية، فى السجن تظهر معادن الناس، الجيد فى الإنسان يظهر بقوة، والسيئ أيضًا، هناك نعرف الآخرين بدون براقع.

2

تقتحمنى ذكريات السجن.. أطيافها كانت تزورنى كثيرًا، تأتينى فى مشاهدة مختلفة.

كل مشهد يحمل جانبًا مما جرى.

المشهد الأكثر اتساعًا كانت أحداثه تتابع أمامى دائمًا.

فى حوالى الثانية من صباح 3 سبتمبر 1981 كانت هناك طرقات على باب شقتى بالإسكندرية، حيث كنت هناك بعد عودتى من باريس، كان معى فى الشقة ليلتها اثنان من أبنائى

وسمع أحدهما طرقات الباب فذهب ليجد اثنين من ضباط مباحث أمن الدولة يطلبان منه فتح الباب، فجاء لإيقاظى من النوم فذهبت وفتحت باب الشقة لهما ودعوتهما إلى الدخول، وقالا لى على الفور إننى مطلوب لمباحث أمن الدولة.

نظرت فى ساعتى، وكانت الساعة الثانية صباحًا.

ذكرتهما بأننى أنا الذى صنعت عبارة «زوار الفجر» فى مقالاتى بالأهرام فى وقت الرئيس عبدالناصر، فكيف يحدث ذلك فى عصر الديمقراطية؟

كان الضابطان، والحق يقال، مهذبين فى تصرفاتهما، قالا إنهما فى أشد الأسف، ولكنهما مكلفان بأمر يتحتم تنفيذه.

سألتهما أن آخذ حقيبة بما أحتاج إليه من ملابس وأدوية.

وكان ردهما بأن لدى عشر دقائق أحزم فيها حقيبتى.

سألت ما إذا كان على أن أحزم حقيبة كبيرة لغياب طويل؟

وكان ردهما: ليس أكثر من يوم أو يومين.

سألتهما ما إذا كنا سنذهب إلى القاهرة، وإذا كان ذلك فهل نذهب فى سيارتى؟

وكان ردهما بالنفى، ثم أضافا أن هناك ترتيبات لكل شىء، وحزمت حقائبى وشددت على يد ابنى، ولم أشأ إيقاظ أصغر أبنائى حتى لا يتأثر بما يراه يحدث أمامه، وخرجت من باب الشقة، راعنى ما رأيت، فعلى الردهة خارج البيت كانت هناك ثلة من الجنود المسلحين بالمدافع الرشاشة، وكان هناك أحد الضباط يمسك بجهاز لاسلكى يبلغ فيه أولًا بأول تفاصيل عملية الاعتقال.

التفت فوجدت المصعد جاهزًا فى الدور السابع حيث شقتى، وفى داخله ضابط مسلح بمدفع أوتوماتيكى، ثم اكتشفت أثناء هبوط المصعد أن كل أدوار العمارة التى أسكن فيها محتلة بالجنود، وكانت أصداء أجهزة اللاسلكى

التى يحملها بعضهم تصدر أصواتًا موحشة فى ظلام الليل وسكونه، وعندما نزلنا إلى مدخل العمارة راعنى مرة أخرى ما رأيت، فقد كان المدخل محتلًا بقوة مسلحة كبيرة، وسمعت أحد الضباط يهمس بجهازه اللاسلكى بأن العملية رقم 9 قد نفذت، وتساءلت باسمًا: إذن فأنا العملية رقم 9؟

لم أتلق جوابًا، لكنه كان واضحًا أن ذلك بالفعل هو رقم عملية القبض على.

كان المشهد الذى وجدته فى ردهة مدخل العمارة أشد غرابة من كل ما سبق، المدخل نفسه محتل كموقع عسكرى من باب المصعد إلى مدخل العمارة، وخرجت إلى الشارع ومن العجيب أن المنظر الذى وجدته كان كئيبًا أكثر منه مخيفًا، بل لعله كان فى جزء منه سخيفًا كذلك، فعندما يزيد حجم القوة أو العنف عن الهدف أو الغرض المطلوب منها تحقيقه فإن الخلل فى التوازن بين الوسائل والغايات يكشف إحساس القوة بعجزها ويفضح إحساس العنف بضعفه.

كان الشارع الذى تقع فيه العمارة التى أسكن فى الصيف إحدى شققها بالإسكندرية شارعًا صغيرًا يمتد متعامدًا على طريق الكورنيش ويؤدى إليه، والآن فقد وجدت إن إحدى سيارات اللورى المحملة بجنود الأمن المركزى تقفل جانب الطريق المؤدى إلى الكورنيش، وكان منظر اللوارى المسلحة وغيرها من سيارات الحملة البوليسية المكلفة باعتقالى صاخبًا- أو هكذا بدا لى فى ظلام الليل- خصوصًا بالأضواء الملونة فوق السيارات حمراء وزرقاء، وكانت بعض الأضواء ثابتة وبعضها الآخر لا يكف عن الدوران، وكانت المحركات كلها تهدر، وأجهزة اللاسكى مفتوحة، والإشارات حول تنفيذ العملية وتقدم مراحلها تروح وتجىء بين القيادة فى مكان ما وبين القوة المتقدمة والمحيطة بى الآن.

كان المشهد كله يكتسب مسحة من لون أصفر كئيب تبعث به مصابيح الشارع المدلاة من الأعمدة، وتضفى على الموقف كله جوًا يكاد يكون سينمائيًا، والتفت إلى الضابط الذى كان بجانبى وقلت له: كأننا فى مشهد من فيلم «زد».

لم يُظهر لى أن إشارتى إلى مشاهد ذلك الفيلم الشهير قد وجدت صدى عنده، وهكذا مشيت صامتًا إلى سيارة صغيرة دعانى الضابط إلى الركوب فيها معه كبادرة من جانبه.

بدأ الموكب المسلح كله يسرى فى ظلام الليل إلى طريق الكورنيش، والأضواء الحمراء والزرقاء تلمع أمامه ووراءه.

سألت الضابط عن الداعى لهذه القوة كلها لتنفيذ اعتقالى؟

لم يقل شيئًا.

استطردت: فى حالتى كانت تكفى إشارة تليفونية تطلب إلىّ الحضور إلى مباحث أمن الدولة، وكنت بالتأكيد سوف ألبى حتى ولو جاءتنى الإشارة وأنا فى سفر عمل خارج مصر.

مرة أخرى لم يقل شيئًا.

ساد الصمت لبضع دقائق، والموكب يواصل اندفاعه وسألته: إلى أين نحن ذاهبون؟

وحينئذ كان لديه ما يقوله لأول مرة، وقد قاله برقة شديدة: انتظر وسوف ترى بنفسك كل شىء حينما تصل إلى مركز قيادة العملية فى الإسكندرية.

حاول الضابط أن يفتح بابًا للحديث، فراح يتذكر كم كان يقرأ مقالاتى فى الأهرام باهتمام.

سألنى عما إذا كانت هذه أول مرة أعتقل فيها؟

كان ردى بالإيجاب.

وكان تعليقه: إن الظروف تتغير.

وصل موكبنا أخيرًا إلى مبنى ضخم عرفت فيما بعد أنه مقر مديرية الأمن فى الإسكندرية، وكان المشهد الذى ينتظرنا هناك حافلًا، كان هناك مئات من جنود البوليس يحيطون بعشرات من السيارات تحمل غيرى من المعتقلين.

وبدا لى أن مواكب بعد مواكب من سيارات المعتقلين تقوم من هناك محاطة بالحراسة اللازمة متجهة بأقصى سرعة إلى القاهرة، وكانت الصافرات والأضواء الملونة تفتح الطريق لكل موكب من هذه المواكب، ونزلت من السيارة محاطًا بالحراسة، والتفت حولى فإذا خليط هائل من المعتقلين شباب وشيوخ، مشايخ وقسس، كلهم الآن فى نفس المصير، وحملقت فى سيارة الأسرى التى كانت على وشك أن تتحرك محاطة بحراستها ولمحت وجهًا مألوفًا داخلها هو وجه الدكتور محمود القاضى، ولوحت له مشجعًا، وقال الدكتور القاضى: سوف نتقابل فيما بعد بالتأكيد.

انطلق موكبه مع من كانوا معه من الأسرى، وسألنى الضابط الذى كان لا يزال بجانبى: أظنك الآن عرفت ما هو الموضوع وأين نحن الآن؟

ثم سألنى عما إذا كان يستطيع أن يقدم لى أى خدمة، ورجوته، إذا كان ذلك فى استطاعته أن يتصل بابنى تليفونيًا ليبلغه أننى ذاهب إلى القاهرة، وقال إنه سيفعل بكل سرور، وسألنى عن رقم تليفونى وأعطيته له قائلًا: أظن أن مباحث أمن الدولة لا بد تعرف رقم تليفونى.

قال إنه سيتصل، ويبدو أنه لم يتمكن من ذلك، وبدأ إعداد القافلة التى تقرر أن أكون ضمنها فى الرحيل إلى القاهرة.

كان مركزها سيارة بيجو من سيارات البوليس المصفحة والعتيقة، ووجدت معى رفاقًا بينهم الأستاذ إبراهيم طلعت وهو نائب وفدى سابق وأديب وشاعر ومحدث ممتاز، ثم الأستاذ عادل عيد وهو قاض سابق وكان أحد النواب المستقلين البارزين، ووجدت أيضًا أحد قادة الحركة العمالية المقتدرين، وكان أيضًا نائبًا سابقًا وهو الأستاذ أبوالعز الحريرى، وبدأ موكبنا يتقدم على الطريق الزراعى فى اتجاه القاهرة.

بعد اعتقالى اتصل أحمد ابنى بوالدته وأبلغها بتفاصيل ما حدث، وبعد ذلك أرسل لها الرئيس السادات صديقنا سيد مرعى ليسألها إذا كانت تريد شيئًا فأجابت بأنها لا تبغى سوى التأكد من أننى أعامل معاملة طيبة، ولم يقل لها أحد أين مكانى، وبعض الأصدقاء فى الخارج سألوها أن تأذن لهم بالقيام بحملة من أجلى لكن رأيها كان أن مثل هذا التصرف تجاهى قد يفسر على سبيل الخطأ.

4

كانت الرحلة إلى القاهرة هى الشىء المخيف فعلًا فى العملية كلها، فقد كان جندى البوليس المكلف بقيادة السيارة نصف نائم، ويبدو أن أقداح الشاى التى تناولها قبل بدء الجلسة لم تستطع أن تتغلب على تعب وسهر يوم طويل ومرهق.

كانت السيارة تتأرجح تحت قيادته وتوشك فى بعض الأحيان أن تصطدم بسيارة الحراسة أمامنا وبالموتوسيكلات المحيطة بها من كل جانب، وسألت عما إذا كان يمكن أن يقود السيارة غيره، ولم يلتفت أحد لاقتراحى، وراح الموكب يندفع بأقصى سرعة على الطريق إلى القاهرة، كانت السيارة محملة بأكثر من طاقتها العادية بالأسرى، وبالضباط وبالجنود وبالمخبرين، ولم يكن هناك مفر من الاستسلام للأمر الواقع، ورحنا نتحدث فيما يجرى غير عابئين بأن كل كلمة نقولها مسموعة من هؤلاء المحيطين بنا.

سألنى الأستاذ إبراهيم طلعت عن تقديرى للموقف، وكان ردى أن العملية كلها كما أراها من حولى تكشف حالة «انفلات أعصاب» ورحنا نخمن فيما بيننا عن الجهة التى يمكن أن يذهبوا بنا إليها.

لم نستطع أن نصل إلى ظن أكيد.

طلبنا فتح جهاز الراديو علنا نسمع شيئًا يلقى ضوءًا على مصيرنا، وفتحوا لنا جهاز الراديو فعلًا، ولكن على محطة

القرآن الكريم التى كانت على وشك أن تفرغ من إذاعة صلاة الفجر.

لم تخل رحلتنا من مواقف طريفة، فقد صاح الأستاذ إبراهيم طلعت فجأة أنه لا بد من إيقاف الموكب لأنه يريد أن ينزل لحظة من السيارة لحاجة يقضيها، وحين بدا له أن الاستجابة لطلبه ليست كافية، صاح مرة أخرى يقول: إننى أعانى من مشكلة بروستاتا، وإذا لم أنزل من السيارة لحظة لما أريد النزول من أجله فإنى قد أموت، وعليكم أن تتحملوا مسئولية موتى.

توقف الموكب قرب أحد الحقول على الطريق الزراعى، ونزل الأستاذ إبراهيم طلعت لما يريد، ثم استأنف الموكب تقدمه، وكان الصبح على وشك أن يطلع.

وصلنا القاهرة حوالى الساعة السابعة، وسألنا ما إذا كان فى استطاعتنا أن نشترى بعض الصحف، ورفض طلبنا.

تنبأ الأستاذ إبراهيم طلعت أننا ذاهبون إلى نيابة أمن الدولة، لكن موكبنا تجاوز الطريق المؤدى إليها.

ومرة أخرى تنبأ الأستاذ إبراهيم طلعت بأننا قد نكون فى الطريق إلى سجن القلعة، لكننا مرة أخرى تجاوزنا الطريق المؤدى إليه.

وحين دخلنا إلى كورنيش المعادى، أصبح واضحًا أننا فى الطريق إلى سجون طره، واستقر بنا المطاف أخيرًا أمام سجن من سجون طره، كان سجنًا جديدًا، ويبدو أنه- رغم سوء أحواله- بنى بمعونة أمريكية، وكان البحث لا يزال جاريًا عن اسم له، ومن المفارقات أن الاسم المقترح له فى ذلك الوقت كان اسم «سجن السلام».

كنت قد تصورت أننا سوف نسجن كمعتقلين سياسيين، وكان هؤلاء عادة يلقون فى السجون معاملة خاصة، من حيث أنه كان يسمح لهم بالكتب والورق والأقلام، وهكذ فإنى جئت فى حقيبتى ببعض الكتب ودفاتر المذكرات والأقلام،

واكتشفت فور وصولنا إلى السجن أننى كنت غارقًا فى الأوهام، ففى صالة استقبال السجن صودر كل ما كان معى ومع غيرى من الكتب والأوراق والأقلام، بل ومن الأدوية والمحافظ والنقود وحتى الملابس، سمح لكل منا بغيار داخلى واحد وبمنشفة وبفرشة أسنان بدون معجون، لأن معجون الأسنان كان يجب أن يوافق على دخوله معنا أطباء السجن باعتباره نوعًا من الأدوية فى تقديرهم.

وقيل لنا على أى حال إن أطباء السجن سوف يقررون فى اليوم التالى ما يلزم أى واحد منا من الأدوية، بما فيها معجون الأسنان، والتفت حولى ونحن ما زلنا بعد فى صالة استقبال السجن المحاطة من كل ناحية بالقضبان الحديدية، فإذا مصر كلها تقريبًا هنا.

شخصيات بارزة فى الحياة العامة المصرية، ساسة مشاهير، واقتصاديون وكتاب ومثقفون كبار، قيادات ورموز لكل التيارات السياسية والفكرية فى الحياة المصرية كلها وفى شتى مناهجها، وكان هناك أيضًا رجال دين إسلامى، أما رجال الدين المسيحى الذين رأيتهم فى مديرية أمن الإسكندرية، فلم يكونوا معنا، واقتادنى بعض الحراس إلى الزنزانة رقم (14)، وكنت وحدى فيها، وتلفت حولى أستكشف أحوالها: زنزانة صغيرة عليها باب من الحديد فى أعلاه قضبان تصل منها أصوات الضجة الجارية فى السجن، صليل قضبان حديدية وصيحات مساجين ووقع أقدام حراس وقعقعة سلاح.

كانت هناك عشر مراتب من المطاط ملقاة داخلها وعشر بطاطين تفوح منها رائحة الـ«د. د. ت»، وكانت هناك حفرة فى ركن من الزنزانة تمثل دور الحمام فيها، وفى ركن آخر كانت هناك مجموعة من الأوانى المصنوعة من الصاج، وتمددت على إحدى المراتب أفكر فى كل ما جرى وأحاول تمثل معانيه وأبعاده، ومضت ساعة أو أكثر قليلًا، وسمعت صليل الباب الحديدى ومفتاحًا يدور فيه، ثم انفتح الباب عن جاويش يتبعه اثنان من الجنود، أحدهما يحمل صفيحة علاها الصدأ،

وآخر يحمل صفيحة أخرى ملأى بأرغفة الخبز، وتغطى الاثنتان سحابة من الذباب.

سألنى الجاويش بحزم: أين قروانتك؟

قلت له: ليس عندى قروانة.

أشار بيده إلى كومة من الأوانى المصنوعة من الصاج، وقال لى: هذه هى القروانات، ولك واحدة فيها.

سألته عما يريد بالضبط؟

وكان رده: أريد أن أعطيك طعام اليوم.

كان واضحًا أنه يريد أن يعطينى بعضًا من العسل الأسود فى القروانة ورغيفين من الخبز، واعتذرت له شاكرًا، ومع إننى قد بدأت أشعر بالجوع، فقد كان منظر المعروض على من الطعام كافيًا لصد أية شهية.

قال الجاويش إذا رفضت استلام طعامه فسوف يخطر ضابط السجن بامتناعى، وقلت له إنه حر فى إخطار من يشاء، وبعد دقائق جاء أحد ضباط السجن يسألنى: لما لم تتسلم طعامك وليس هناك غيره طول اليوم، وأضاف متلطفًا: إننى أعلم أن هذه أول مرة لك فى السجن، ولكنك سوف تتعود.

قفزت إلى موضوع آخر.

سألته ما إذا كان سيكون حبسى انفراديًا لأنى ما زلت وحدى فى الزنزانة، وكان رده بالنفى، وزاد تلطفه معى حين قال: الحقيقة أننا كنا نريد أن نجد لك رفاقًا يناسبونك.

سألته: أين الذين جاءوا معى من الإسكندرية؟

قال إن معظمهم فى الزنزانة رقم 13، ولكنها امتلأت عن آخرها، وأضاف أنه سوف يحاول أن يجد لى رفاقًا يناسبونى.

غاب نصف ساعة ثم عاد ومعه الأستاذ إبراهيم طلعت والأستاذ كمال أحمد وهو من قيادات الحركة الناصرية الشابة، وقال لى إن الاثنين تطوعا لكى يسكنا معك فى نفس زنزانتك، ثم قال: إن هناك بعض الشباب من المتدينين عرفوا أننى معهم فى نفس السجن وطلبوا الإقامة معى لكى يناقشونى فى بعض آرائى، ولكنه أمهلهم لحين استئذانى فى أمرهم، وشكرته ورجوته أن يأتى بمن يريد، وجاءوا.

كان بينهم أحد زعماء الطلبة المتدينين فى كلية الهندسة بجامعة القاهرة واسمه أكمل، وبدأ نوع من الحياة الجديدة المشتركة يسرى فى الزنزانة بعد ساعات الوحدة، ومضت ساعات ثم فتح باب الزنزانة بعد الظهر، ودخل أحد الضباط يطلب منى الخروج.

وتفاءل الأستاذ إبراهيم طلعت بأسرع مما ينبغى، وقال: هو الإفراج بالتأكيد، لا بد أنهم أحسوا بضغوط دولية بشأنك فقرروا الإفراج عنك فورًا.

قلت له فى محاولة لتهدئة تفاؤله: لا تسرف فى حسن الظن، إن من قرروا اعتقالى لا بد أنهم حسبوا مسبقًا ما يمكن أن يثيره القبض على من ردود أفعال فى الداخل والخارج، وما داموا قد أقدموا على هذه الخطوة فليس من السهل عليهم أن يعودوا عنها بهذه البساطة.

حملت أمتعتى- الغيار الداخلى والمنشفة وفرشاة الأسنان- وتبعت الضابط الذى جاء لاستدعائى، وعند غرفة مدير السجن وجدت فى انتظارى ضابطًا برتبة لواء ومعه ثلاثة من العمداء كانوا فى انتظارى وظهر أن الموضوع يتصل بطلب تفتيش شقتى ومكتبى وبيتى فى الريف.

بدأت مسيرتنا فى موكب مسلح جديد فى اتجاه بيتى ومكتبى فى الجيزة، وبعد أن تم التفتيش وصادروا بعض ما عثروا عليه من أوراق، سألتهم مشيرًا إلى بعد المسافة ومشقة الطريق إلى بيتى فى الريف، وتساءلت ما إذا كان ممكنًا تأجيل ذلك إلى الغد لأنى متعب، لكن الأوامر كانت صارمة،

كما أن الإشارات المتبادلة بين السيارة التى كنت فيها وبين قيادتها فى مكان ما كانت تصر على إتمام العملية رقم (5).

كان اللواء المسئول عن هذه العملية غير قادر على أن يجد لنفسه حيلة فى هذه الأوامر الصارمة، ومرة أخرى أبديت نوعًا من الاحتجاج: لم يكن هناك داع لهذه الحملات المسلحة كلها، لقد كان جندى واحد يكفى لتفتيش شقتى ومكتبى بدلا من وضعهما كما حدث تحت احتلال عسكرى كامل، وبدلًا من الذهاب إليهما بموكب مسلح على هذا النحو.

سألت الضابط المكلف بالعملية: ما الذى تبحثون عنه بالضبط.

وكان رده: أوراقك السياسية.

قلت له: إن الكل بمن فيهم الرئيس السادات يعرفون أننى منذ زمن طويل نقلت أوراقى السياسية التى أخشى عليها خارج مصر، وأضفت: إذا كنتم تريدون أوراقى السياسية فلماذا لا تعيدوا إلى جواز سفرى الذى صادرتموه من أحد أدراج مكتبى أثناء التفتيش، ثم نسافر معًا إلى الخارج لنعود بهذه الأوراق؟

لم يعلق بشىء، كان قد صادر أيضًا بعض المراجع الإسلامية التى كنت أستعين بها أثناء عملى فى كتابى عن الثورة الإيرانية، والآن أضفت: أرجو ألا يكون من بين التهم الموجهة إلى تهمة انتمائى إلى الجماعات الإسلامية؟

كان من بين الأوراق التى صادروها أيضًا من شقتى مذكرة برأى حزب الوفد الجديد فى اتفاقيات كامب ديفيد، وكان مرفقًا بها بطاقة باسم الأستاذ محمد فؤاد سراج الدين أضاف إليها صاحبها بخطه عبارة «مع تحياتى».

كنت قد التقيت بالأستاذ فؤاد سراج الدين فى جنازة إحدى قريباته وسألنى أثناء موكب الجنازة ما إذا كنت قرأت بيان حزب الوفد الجديد عن اتفاقيات كامب ديفيد، وأجبته بالنفى، فأرسلها إلى فى اليوم التالى ببطاقة منه، والآن كان

الضابط المكلف بالتفتيش يريد مصادرة المذكرة.

بالطبع ما كان أمامى ما أفعله إلا أن أتركه يصادرها، لكنى حاولت أن أرفع بطاقة فؤاد سراج الدين المرفقة بها، ومنعنى من ذلك قائلًا: إن البطاقة أهم من المذكرة نفسها.

وكان بيتى الريفى- حينما وصلنا إليه- تحت احتلال عسكرى كبير آخر، فقد سبقتنا إليه لوارى محافظة الجيزة التى تتبعها الناحية التى يقع فيها، وكان أكثر ما أسفت له حين وصلنا ساحة البيت أن لوارى البوليس داست بعض أحواض الزهور المحيطة به، وبدا اهتمامى بالزهور فى تلك الظروف مدعاة للاستغراب، وشغل أحد الضباط المرافقين نفسه بإصدار الأوامر إلى جنوده الذين انتشروا تحت أشجار المانجو يأكلون ثمارها، بأن يكفوا عما يفعلون ورجوته بأن يتركهم كما شاءوا شريطة أن يبتعدوا عن أحواض الزهور.

وفى بيتى فى الريف وبينما كان الضباط من القوة منهكمين فى عملية التفتيش عاد إلى الإحساس طاغيًا بالجوع، واستأذنت ضباط الحملة ما إذا كان فى استطاعتى أن أطلب طبقًا من البيض المقلى، وجاءنى الطبق عائمًا فى السمن، وهكذا اضطررت إلى أن أستأذن مرة أخرى فيما إذا كان يمكن استبدال البيض المقلى ببيض مسلوق، لأن كثرة السمن فى البيض المقلى يمكن أن تحرك كل مشاكل المرارة والكلى التى أعانى منها، وجاءنى الإذن بالموافقة، لكن التفتيش كان قد تم وصادر الذين قاموا به ما أرادوا مصادرته، وبينه بعض كتب كارل ماركس وقلت للمرة الثانية ضاحكًا: يبدو أننى هناك فى شقتى كنت متهمًا بالتطرف الدينى، والآن فإننى على وشك أن أتهم بالشيوعية.

لم أسمع ردًا، واستأذنت ما إذا كنت أستطيع أن أحمل البيض المسلوق وبعض أرغفة الخبز التى جاءنى بها غفير البيت معى لكى آكلها فى السجن ما دام التفتيش قد انتهى.

بدأنا رحلة العودة إلى طره، ووصلنا هناك قبل منتصف الليل بقليل، وكنت منهكًا من التعب، ولكنى كنت مصممًا على عدم

التبرم أو الشكوى مهما كانت الأسباب.

أحسست أن خيطًا رفيعًا يفصل ما بين إبداء الشكوى وإبداء الضعف، وهكذا فإننى فى الأيام الخمسة الأولى للسجن لم أتناول طعامًا غير خمس بيضات مسلوقة وخمسة أرغفة عدت بها من بيتى الريفى، والغريب أنها اتسعت لاستضافة رفاقى فى الزنزانة أيضًا.

5

ما ساعدنى فى التجربة الجديدة علىّ فى كل شىء شعور أحسست به منذ اللحظة الأولى للقبض على، وهو شعور الصحفى أولًا وأخيرًا، لقد وجدت هذا الشعور يعطينى نوعًا من الانسلاخ عن الواقع، أحسست أننى مراقب يتابع الأحداث أكثر مما هو ضحية من ضحاياها، وكنت شديد الثقة- حتى فى تلك اللحظات الأولى- إننى سأكتب فى يوم من الأيام قصة ما جرى، وهكذا فإن السير فى العملية كلها تراجع ليفسح المجال للصحفى كى يتابع ويراقب ويتأمل ويربط أطراف الدراما التاريخية التى تتحرك حوله بصرف النظر عن أنه هو نفسه جزء منها.

كان بعض رفاقى يندهشون من برود أعصابى فى مواجهة أقل ما يقال فيها إنها كانت مزعجة، ولم ينتبه أحد بالقدر الكافى إلى عملية الانسلاخ التى جرت بين الأسير وبين الصحفى، وهكذا رحت ساعة بعد ساعة أتأمل الحياة من حولى وأتابع حركتها دقيقة بدقيقة منذ تلك اللحظات الموحشة بعد منتصف ليلة 3 سبتمبر.

بقينا داخل الزنزانات لا نبارحها لمدة أحد عشر يومًا، ولم تكن لدى أىّ منا معلومات من أى نوع عما يجرى فى الخارج، ولم يكن هناك مجال وسط تكدسنا البشرى داخل الزنزانات للقيام بأى حركة طبيعية، وقد حاولت أن أعوض نقص الحركة عن طريق القيام بتمارين رياضية واقفًا فى مكانى من الزنزانة، ولم يكن مسموحًا بالقهوة أو الشاى، وكانت المياه المتاحة لنا محدودة.

حاول أحد شبان الجماعة الإسلامية معنا أن يعلمنى كيف أستطيع أن أستحم بكوب ماء لا أكثر، وكنا ننام على الأرض كل واحد منا فوق مرتبته المصنوعة من المطاط، وكانت المراتب متلاصقة تغطى أرضية الزنزانة تمامًا، وكانت قضبان الزنزانة على الجزء العلوى من بابها الحديدى مفتوحة للغارات من الذباب بالنهار والناموس ليلًا، وكنت أقول لرفاقى ضاحكًا: أسراب القاذفات تغير علينا نهارًا وأسراب المقاتلات تغير علينا ليلًا.

بعد أربعة أيام جاءت مجموعة من الأطباء، وصرحت لنا ببعض ما كنا نحتاجه من أدوية شريطة أن نثبت أن حاجتنا ماسة إليها.

كان ما آراه أمامى مؤلمًا.

عند الساعة العاشرة من صباح كل يوم، كان الشاويش يفتح طاقة الزنزانة ويلقى لكل واحد برغيف خبز والقليل من العسل الأسود، ويحضر ثانية عند الساعة الثانية بعد الظهر فيلقى برغيفى خبز وقطعة جبنة بيضاء لكل سجين، لكنها كانت فى جردل والشاويش عبدالتواب يفتح الباب الحديدى بيده- ويداه تفتقدان لأسس النظافة- ثم يدب يده فى الجردل لإعطاء قطعة الجبنة مع سرب من الذباب يرافق الشاويش وما يحمله.

كان البعض يقوم بشراء معلبات لحمة ودجاج «لانشون وبولوبيف» وأنا لم أتناولها فى حياتى، لكن للحصول على البروتين كنت أتناول وجبة الفطور، التى أصبحت فول مدمس وكانت وجبة هائلة، وكنت أتناولها برغبة، ولكنى قبلها أقوم بفرزه من السوس، لست وحدى ولكن كل رؤساء وزراء مصر السابقين ورجالها الأقوياء تجدهم صباحًا بعد وضع نظاراتهم يقومون بفرز الفول من السوس، خصوصًا بعد أن اتفقنا مع الشاويش عبدالتواب أن يقوم بتغطية أرغفة الخبز من أسراب الذباب وقد كان خبزهم مقبولًا.

فى إحدى المناسبات قدموا لنا لحمة مسلوقة، قدمها لى

أيضًا الشاويش من جردل بيده، وعرض علىّ زميل الزنزانة الشيوعى المتمرس صابر بسيونى أن يقوم بتقشير اللحمة بإزالة جوانبها الأربعة، لكنى رفضت ونفرت من اللحمة المسلوقة فلم آكلها بعدها أبدا.

بعد اغتيال الرئيس السادات سمحوا لنا أن نشترى من كانتين السجن ما قيمته جنيه واحد فقط، وكان من ضمن المسجونين الدكتور كمال الإبراشى طبيب الأسنان الذى كنت أتردد عليه، ونصحنى بشراء الطماطم لأنها تحتوى على مجموعة من الفيتامينات والحديد.

بعد 55 يومًا انقطاعًا كاملًا عن العالم سمح لنا أن نتلقى سلال غذاء، كان يصل عندنا فى ملحق طرة 33 سلة، وسلة غذائى كانت تزينها وردة حمراء من زوجتى تذكرنى بورد مكتبى الذى هو أول ما أطالعه كل صباح وكان لها معنى عطرى عندى.

6

أنا شخصيًا كنت متماسكًا غاية التماسك ومتحفظًا جدًا، ولم يؤثر فىّ مثل هذه الإجراءات، حتى داخل الزنزانة، وكنت أمارس حياتى بشكل يكاد يكون عاديًا.

مثلًا كنت أخرج من الزنزانة بملابس كاملة، البدلة والكرافت على الرغم من أنها البدلة التى كنت قد خرجت بها من منزلى فى أوائل سبتمبر.

وكنت أمارس الرياضة، وأقتصد فى الأحاسيس والانفعالات، لأننى اكتشفت أن حركاتى داخل السجن مراقبة، وأن هذه المضايقات كانت تتم بأوامر من الرئيس السادات شخصيًا حتى أضعف.

لقد كانوا يكتبون تقريرًا كل ساعة عن حالتى النفسية، ويعرض على الرئيس السادات، وكنت ضمن أربع شخصيات مصرية يعاملون بنفس المعاملة وأذكر منهم فؤاد سراج الدين والدكتور حلمى مراد.

وكان غريبًا أن يطلبوا منّا أن نتوجه بالرجاء إلى الرئيس السادات حتى يفرج عنا، ونصدر بيانًا لتأييده، فلم يقبل أحد منا ذلك، وكان رأيى أن رأى واحد فينا وهو وراء القضبان هو رأى مشبوه وقد يبدو دليلًا على الضعف، أو دليلًا على الإكراه، ولم يكن هناك إكراه لكى نصدر بيانًا بالتأييد.

7

فى أول أسبوع لم يسمح لنا بالخروج من الزنزانة.

أول يومين كنا فى سجن الاستقبال.

وأنا فى سجن الاستقبال وجدت نفسى أقيم إلى جوار عناصر من جماعات دينية مختلفة، قلت لنفسى لا بد أن أعمل صحفيًا على الفور، بدأت بالفعل مع شاب منهم، كان مثيرًا جدًا بالنسبة لى، جلست معه ثلاثة أيام فى حوار متصل انتقل بنا من زنزانة إلى أخرى.

حاولت أن أصل إلى ما يفكر فيه أبناء الجماعات الدينية، تتبعت ما قاله، درسته، وعلى الفور أدركت أن الشاب الذى يجلس معى ليس إلا جزءًا من عملية كبيرة.

دفعنى ما سمعت إلى أن أقول لمدير السجن ومندوب الأمن القومى ومندوب المباحث العامة أننى لست متحمسًا للطريقة التى تواجه بها الدولة هذه الجماعات، لكنهم ردوا علىّ بأن ما أقوله خارج حدودى كمسجون.

قلت لهم: أنا على أى حال أخاف الإرهاب الفردى فالخطر ليس من هذه الرءوس وحدها.

انتقلنا بعد ذلك إلى سجن ملحق مزرعة طره.

لأسبوع كامل لم نخرج من الزنزانات، بعدها سمحوا لنا بربع ساعة صباح كل يوم على دفعتين، وربع ساعة بعد الظهر، وبعد شهر امتدت الربع ساعة إلى ساعة كاملة، وفى الشهر الأخير بدأت الأمور تتغير، فقد تحول السجن إلى مناقشات

بين كل التيارات السياسية.

8

لم تزرنى زوجتى فى السجن سوى مرة واحدة بعد شهرين من الاعتقال، أحضر لها ممتاز نصار إذنًا من المدعى الاشتراكى فجاءت لزيارتى مع أبنائى بحضور ثلاثة من الضباط أحدهم من السجن واثنان من المباحث.

فى اللحظة التى كنت أهبط فيها من الزنازين على السلم الحديد متجهًا إلى البوابة الحديدية التى تفصل بين العنابر وحجرة المأمور كانت هى والأولاد يدخلون من باب السجن.

كان استيعاب الموقف بهدوئه الظاهرى وكأننا اتفقنا عليه مسبقًا، وتماسكت هى لتبدو مسيطرة على أعصابها، رغم ما أعلمه بما يجيش به تدفق عواطفها.

9

فى السجن لم نكن نر التليفزيون أبدًا، ولم نكن نسمع الراديو على الإطلاق، ولا نقرأ الجرائد، وعندما سمعنا أن الرئيس السادات تعرض للاغتيال فى المنصة، سألنا إذا كان من الممكن أن نسمع راديو، فالأمر لا يتعلق بنا ولكنه يتعلق بالبلد كله، لكنهم قالوا لنا إن ذلك ليس ممكنًا.

بعد أيام ذهبت إلى ضابط من ضباط السجن وكان لطيفًا وظريفًا، قلت له: أريدك أن تجيبنى على سؤال واحد.. أنت شاهدت جنازة الرئيس السادات فى التليفزيون، قل لى ما الذى كان يرتديه النائب حسنى مبارك فيها؟

دهش الضابط لسؤالى، قلت له: لا تندهش.. إجابة هذا السؤال تعنى لى الكثير؟

قال لى: كان يرتدى بدلة كحلى وكرافتة سوداء؟

عدت إلى زملائى فى السجن، وقلت لهم: أنا متفائل فالنائب الذى سيصبح الرئيس ظهر فى الجنازة ببدلة كحلى وكرافتة

سوداء، وهو ما يعنى أننا أمام رجل لا يريد أن يتظاهر بشىء، كنت أخشى أن يلبس بدلة التشريفة العسكرية المشهورة.

10

عندما دخلت إلى السجن كان نصيبى الزنزانة 14، جلست 4 ساعات أو خمس ساعات بمفردى، وبعدين جاءنى ضابط ظريف.

قال لى: يا أستاذ هيكل ربنا معاك.

قلت له: ربنا يحفظك لكن ما هى الحكاية؟ هل سأظل فى الزنزانة بمفردى؟

قال: لا طبعًا.. فيه زنزانة إذا كنت تريد أن تراها؟

ذهبت معه فوجدت عمر التلمسانى وكمال أحمد وإبراهيم طلعت، وكانت الزنزانة ملآنة إلى آخرها، فقلت له سأعود إلى زنزانتى الأولى، لكن إذا كان يمكن أن يتطوع أحد ليجلس معى، وبالفعل تطوع إبراهيم طلعت وكمال أحمد وأقاما معى.

فى هذه الزنزانة بدأت مناقشاتى مع الشاب أكمل أحد أعضاء الجماعات الدينية التى كانت هناك، وجدته «قافل» تمامًا.

سألته: يا ابنى بتعمل إيه؟ إيه دورك فى الحياة؟

قال: باعبد ربنا.

قلت: طيب يا ابنى بتعبد ربنا إزاى؟

قال: بالصلاة.

قلت: طيب يا ابنى ما تقدر تعبد ربنا بالصلاة والعمل والاتصال مع المجتمع.

قال: وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون.

قلت: طيب يا راجل أنا باعتقد إن ربنا خلق الإنسان فى الأرض ليعمل مهمة أكبر من كده، مهمة إنه يعمر الأرض ويطور الحياة، لأن فى الإنسان جزء من نور الله.

لم يفهم ما أردته منه، فتح إبراهيم طلعت مناقشة سياسية معى، حاولت أن أجذب الشاب إليها، لكنه رفض، وقال: هذه أمور دنيا لا أناقشها ولا أهتم بها.

كان يقول ذلك رغم أنه كان يدرس فى كلية الهندسة، ولم يكن أمامى إلا أن أنظر إليه كشاب سدت الطرق أمامه فآثر أن ينسحب.

11

فى السجن صباح 28 سبتمبر 1981.

كنت منذ بداية اليوم أشعر أن هناك دمعة حائرة تطرق أبواب العين، لكنى لم أذرفها ربما لأننا قررنا أن نُحيى ذكرى عبدالناصر كنوع من التحدى لا من التوجع، ولم يكن يشغلنى بالدرجة الأولى ما حدث لى، ذلك أننى كنت قد اخترت موقفى وحددت موقعى.

فى لحظة من لحظات هذا اليوم تذكرت تفاصيل اليوم الأخير من حياة عبدالناصر، وتذكرت آخر مكالمة تليفونية سمعت فيها صوته، وأخر نظرة ألقيتها على جسده المسجى، هى كلها تفاصيل لا تغادر الذاكرة ولا القلب لا فى أيام السرور ولا فى أيام الحزن.

لكن الذى توقفت عنده ليلتها هو ذلك الحماس الذى دفع الجميع للإصرار على أن يتحدوا كل ما كان يمر بالوطن من ظروف بالاحتفال بذكرى عبدالناصر، فقد كان السجن يضم رموزًا وطنية عديدة ينتمى بعضها لما قبل ثورة يوليو، وينتمى الآخرون للثورة نفسها، وكان يضم كثيرين ممن اختلفوا مع عبدالناصر، أو اختلف معهم أو شابت علاقته بهم وعلاقتهم به شكوك وريب وربما صدامات.

استمعت لكلماتهم فى تأبين عبدالناصر باهتمام، وكان المشترك بين ما تقوله كل هذه المدارس الفكرية المختلفة هو الإحساس، بأن الأمة فقدت كثيرًا بفقد عبدالناصر.

12

ما بين لحظة الاعتقال ولحظة الإفراج وقعت مفارقة مثيرة.

لحظة الاعتقال أخذونى من بيتى فى الساعة الثانية عشرة والربع.

جاء رئيس القوة الذى كان رجلًا لطيفًا.

سألته عن الساعة، فأخبرنى.

قلت له إننى صاحب تعبير «زوار الفجر» لم يتجاوب، طلبت منه أن يمنحنى عشر دقائق لأجهز ما يمكن أن أحتاجه فى الرحلة المجهولة، سمح لى، وبعدها وجدت نفسى أسيرًا وسط قوات خرافية.

لحظة الإفراج.. جاء من أخرجنا لأجد نفسى أمام رئيس الجمهورية الجديد، بعد أن انتهى اللقاء سألت واحدًا من الياوران: ماذا سنفعل بعد ذلك؟

رد على دون اهتمام: ولا حاجة.. خلاص روح بيتك.

كان سؤالنا هو كيف سنعود إلى بيوتنا، لقد جئنا فى سيارات البوليس، والآن يقولون لنا عودوا إلى بيوتكم.

فتحى رضوان قال: سأذهب إلى منزلى سيرًا على الأقدام.

طلبنا أن تحملنا سيارة البوليس وتعود بنا لنأخذ حاجاتنا، فؤاد سراج الدين لم يكن متعجلًا العودة إلى منزله، قال إنه سيعود إلى قصر العينى يتناول الغداء وينام قليلًا ثم يعود إلى بيته الساعة الخامسة، أما أنا فقلت له: أنا سأذهب إلى بيتى فورًا، لا أريد أى شىء آخر.

بعد خروجى من السجن كنت أستقبل زوارى فى الجناح رقم 827 بفندق المريديان، لأن بيتنا كأى بيت مصرى كان فى حالة بياض، زوجتى اقترحت أن نجدد شيئًا بعد عشر سنوات، كان المقاولون يعملون بهمة ونشاط حتى قبض علىّ ذات ليلة، وكانت زوجتى خلال عملية البياض فى بيت ابنى على، فلما أفرج عنى قالت إن بيت على مثل علبة السردين، لا يسع أكثر من خمسة أشخاص واقترحت هى الإقامة فى فندق ريثما ننتهى من البيت.

13

بعد 90 يومًا فى السجن كنت أخشى أن أكون قد فقدت عادة الحوار مع الناس المتحضرين.

كان أمامى ناس طيبون لطفاء ظرفاء.

لكن لم يكن أحد منهم يتحدث فى الثقافة أو السياسة من أول الشاويش عبدالتواب إلى الشاويش عبدالجبار.

المطارد
لماذا كتبت خريف الغضب؟
1

لم يكن «خريف الغضب» غضبى أنا شخصيًا.

أنا لم أكن غاضبًا، لكن مصر كلها هى التى كانت غاضبة بما فيها هو، ربما كان هذا سببًا فى أننى لم أشعر بالندم إطلاقًا على أية كلمة قلتها فى خريف الغضب، لأن الكتاب شأنه شأن الشهادة محكوم بزمن ورؤية، وفى وقته، أعتقد أننى كنت منصفًا.

بدأت أفكر فى كتابة «خريف الغضب» منذ اللحظة الأولى لاعتقالى فى 3 سبتمبر 1981، حين التفت ورأيت حولى فى السجن كل هؤلاء الذين يمثلون الرموز الحية لأهم التيارات السياسية والفكرية المؤثرة فى مصر.

تحققت ساعتها أن المقامر الكبير قد قام بآخر لعبة كبرى، وجازف بأوراقه كلها مرة واحدة، ولقد كنت مقتنعًا- بشكل شبه وجدانى- أننى أعيش فى دراما سوف تصل إلى نهايتها فى يوم من الأيام وبشكل من الأشكال، وأننى كصحفى قد أكون مطالبًا بأن أروى قصتها قبل غيرى.

أثناء شهور السجن تحدثت مطولًا إلى آخرين عما يحدث (وعلى أى حال فلم يكن هناك ما يمكن عمله غير الحديث) أولًا مع هؤلاء الذين كانوا فى زنزانتى، ثم بعد ذلك مع غيرهم حينما سمح لنا بالتجول بعض الوقت فى فناء السجن.

تحدثت مع كثيرين بغير عدد: وزراء سابقين (كان فى ملحق مزرعة طرة عدد من الشخصيات تكفى لتشكيل مجلسين أو ثلاثة مجالس من الوزراء) ومع اقتصاديين بارزين، ومع زعماء نقابيين من الطراز الأول، ومع أساتذة جامعات لهم إسهامهم المشهود فى جميع المجالات، وتحدثت أيضًا مع

مشايخ وشباب من الأصوليين الإسلاميين (وفيما بعد مع عدد من رجال الدين المسيحى)، وأعتقد أننى مدين لكل هؤلاء ليس فقط بصداقتهم، ولكن أيض للخصب الذى أضفوه على مناقشاتنا.

بعد أن خرجت من السجن تلقيت برقية من إحدى الدور العالمية التى تنشر كتبى، وكان نصها «ما هو رأيك فى كتاب عنوانه (السادات بقلم هيكل)؟».

رددت على الفور بالاعتذار قائلًا إن الوقت ليس سانحًا بعد لمثل هذا الكتاب بمثل هذه الدرجة من الصراحة، ولا أتصور أن أقدم على مثل هذا المشروع قبل أن تمضى سنوات بحيث يتسع الوقت للدرس والتأمل والتقييم، ومن ثم تصبح الكتابة أكثر من مجرد سرد وقائع ومشاهدات وتجارب.

وعندما التقيت بالرئيس مبارك فى ديسمبر 1981، ذكرت له ما جرى.

سألنى: كتاب عن الرئيس أنور؟!

قلت: ليس عنه، ولكن عن عملية الاغتيال بالتحديد، وقد عثرت على عنوانه وأنا فى السجن، فقد كنت لا أفكر فى شىء من هذا القبيل حتى قبل أن يتصل بى أحد من لندن، وعثرت أثناء تفكيرى فيه على عنوان «خريف الغضب».

كرر الرئيس عنوان الكتاب المقترح كما سمعه منى، وبدا حائرًا فى فهم مقصدى به، لكنه تجاوز حيرته، وعلق بقوله: ولكن هذا سوف يسبب لك مشاكل كثيرة، لأن الرئيس أنور له جماعات كبيرة.

وقلت: أما عن المشاكل فقد تعودت عليها، ثم إننى أرجوك أن تعرف أن الرئيس السادات كان صديقًا، وليس مشكلة أن تختلف آراؤنا، وأن تتباعد الطرق بيننا، لكن ذلك لم يترك لدى أثرًا.

زدت على ذلك أنه عندما وقع اغتيال الرئيس السادات

وعرفت به فى السجن، فإنى بكيت عليه بصدق، وساعتها زال كل أثر للخلاف وما ترتب عليه، لأن الدم والدموع غسلت كل شىء.

2

لم تكن كتابة هذا الكتاب مسألة سهلة.

كان هدفى فى المقام الأول رواية قصة سياسية كبرى يجب أن تروى، بل كان ضروريًا أن تروى إذ أريد لنتائجها المأساوية ألا تتكرر فى المستقبل.

كان أول الأسباب فى أن كتابتها لم تكن سهلة، هو أن وقائعها سوف تكون صدمة لكثيرين فى الغرب، تولدت لديهم انطباعات معينة عن شخصيات وسياسات، وكانت هذه الانطباعات غير متسقة مع الوقائع، بحيث إن ظهور هذه الوقائع كان خليقًا بأن يكون مفاجأة مستغربة.

والسبب الثانى فى أن كتابتها لم تكن سهلة، هو العنصر الشخصى فى الموضوع.

ففى الحقيقة فإن هذا الكتاب لم يكن حكمًا على السادات انطلاقًا من ضغينة شخصية ضد الرئيس الذى اختلفت معه، وانتهى خلافنا إلى قراره بوضعى فى السجن شأنى شأن آلاف غيرى فى حملة اعتقالات سبتمبر 1981.

لم يكن هذا التصور صحيحًا، بل ولم يكن قائمًا.

إننى لم أحمل ضغينة شخصية على الإطلاق ضد السادات، فاختلافنا كان اختلاف فى وجهات النظر، واختلاف رؤى، ولم يكن فيه عامل شخصى على أى وجه من الوجوه.

الحقيقة أننى كنت شديد التعاطف مع السادات كإنسان.

فى السنوات الأربع الأولى من رئاسته كنت- كما اعترف هو فى حديث صحفى أدلى به إلى مجلة «الأسبوع العربى» اللبنانية- أقرب إليه من أى شخص آخر، وكان الرئيس

السادات فيما أظن صادقًا فيما قاله.

وأعتقد أننى لعبت دورًا مؤثرًا سواء كوزير للإرشاد أو كعضو فى مجلس الأمن القومى وقتها، أو كرئيس لتحرير الأهرام، فى المداولات والمشاورات السياسية التى أدت إلى اختيار السادات رئيسًا للجمهورية بعد رحيل جمال عبدالناصر.

لم أكن غافلًا عن بعض أسباب القصور فى شخصيته، لكنى تصورت أن أعباء المنصب و المسئولية سوف تقوى كل العناصر الإيجابية فى شخصيته، وسوف تساعده فى التغلب على جوانب الضعف فيها، ولذلك لم أتردد فى إدارة حملته للرئاسة كوزير للإرشاد القومى، رغم أننى كنت قد قدمت استقالتى فعلًا من الوزارة عقب الفراغ من تشييع جنازة عبدالناصر.

ظللت بعد ذلك على اتصال يومى بالسادات، وأعتقد أننى أديت دورى بأقصى ما أستطيع من جهد وإخلاص حتى جاءت حرب أكتوبر 1973 التى شاركت فى وضع الخطة السياسية والإعلامية التى مهدت ورافقت المعركة العسكرية فيها.

3

لم يكن صحيحًا أيضًا أن الرئيس السادات أقصانى من منصب رئيس تحرير الأهرام، وأن القطيعة بسبب ذلك استحكمت بيننا، لقد كانت هناك خلافات فى الرأى بيننا، واستحكمت هذه الخلافات أثناء فك الارتباط الأول وبعده مباشرة إلى درجة لم أعد أستطيع معها أن أشارك فى التعبير عن السياسة المصرية.

كان قرار الخروج من الأهرام قرارى.

كنت أعلم حين عارضته علنًا فى أسلوب مفاوضاته مع الولايات المتحدة وإسرائيل، وفى الأهداف المرحلية والبعيدة المدى لهذه المفاوضات، أن الأمور سوف تصل بيننا إلى صدام، ولم نتحول بهذا الصدام إلى أعداء، ثم عرض

علىّ أكثر من منصب فى الدولة، ومرة أخرى اعتذرت لأننى أحسست أنه ليس بمقدورى أن أخدم سياسات تتعارض مع ما أؤمن به.

كانت هناك فترة فى علاقتى بالرئيس السادات توحدت فيها مقاصدنا.

كلانا كان يطلب سلامًا قائمًا على العدل فى الشرق الأوسط.

وكلانا كان يريد أن يرى مصر حرة ومزدهرة، والعالم العربى موحدًا وقويًا.

ولكن تطورات الأمور جاءت بتباين فى رؤانا بدأت باختلاف حول الوسائل وانتهت بتباين أو حتى بتناقض بين الغايات.

لم أكن أعتبر نفسى معارضًا للرئيس السادات، ولكنى كنت أحاول أن أحتفظ بصوت مستقل، وحينما بدأ الرئيس السادات يهاجمنى بانتظام وعلنًا، وبالاسم فى كل مرة يتحدث فيها- وحتى عندما زج بى فى السجن- فإنى أشهد أمام الله وأمام كثيرين يعرفون الحقيقة، إننى لم أشعر فى أية لحظة بكراهية له، ولم يكن هناك ما يدعونى إلى ذلك حتى من الناحية العملية، فإنه حين يجعل رئيس الدولة من أحد مواطنيه هدفًا دائمًا لهجماته فهو بذلك يرفع قدره ولا ينتقص منه، وهو ما يجعلنى أقول إننى على نحو ما مدين للرئيس السادات بما أضافه دون أن يقصد إلى قيمتى فى الساحة الوطنية والساحة الدولية على السواء.

4

لم يكن «خريف الغضب» أبدًا هجومًا على السادات.

ومع ذلك فإننى كنت أعرف أنه سيغضب بعض الناس فى مصر، وسوف يثيرهم ويدفعهم إلى حملات متجددة علىّ، وكنت أفهم أسبابهم، فأنا أعرف أن طبقة معينة، أو لعلها جماعات أكثر منها طبقة، وربما أفراد أكثر منها جماعات، استفادت من حكم السادات وحصلت فيه على مزايا وثروات

لم تكن تخطر بخيالها، ومن الطبيعى أن يحس هؤلاء أن أقدارهم ارتبطت بقدره، لكن مصر وكذلك الأمة العربية والعالم كانوا يحتاجون إلى نظرة طويلة ودقيقة على كل ما حدث.

كان السياسى المصرى المخضرم الدكتور محمود فوزى قد قال لى فى وصف دقيق لحكم السادات عندما كان فى أوج سلطته: «إننا نشهد فنًا جديدًا لأول مرة فى التاريخ، وهو فن المسرحية دون مسرحية، فنحن أمام مشاهد مرسومة فى خلفية المسرح وأصوات وأضواء وألوان وموسيقى تدق وستار يرفع وينزل كل هذا بدون نص».

عرفت فيما بعد أن هذا الحديث مع الدكتور فوزى، الذى ورد فيه هذا التشبيه، سجل بواسطة أجهزة الأمن ووصل إلى الرئيس السادات، وهو الأمر الذى استوجب غضبه عليه حتى توفى الدكتور فوزى، ولم يحظ بتكريم من الدولة كذلك التكريم الذى حصل عليه آخرون غيره أقل منه منزلة وإسهامًا فى حياة مصر.

كان توصيف الدكتور فوزى حاضرًا معى وأنا أفكر فى «خريف الغضب»، فقد انتهت المسرحية وانطفأت الأنوار، وانقضى زمن النجوم الكبيرة، وأصبح محتمًا على البشر العاديين أن يتعلموا كيف يعيشون معًا.

قبل خريف الغضب، كنت أحجم عن ترجمة كتبى بنفسى إلى لغتى الأصلية، وإلى لغة قرائى الأصليين- اللغة العربية- وكنت أظن أن قيامى بهذه الترجمة يحملنى ما لا طاقة لى به، إذ أنه يفرض علىّ كتابة كل كتاب مرتين، مرة بالإنجليزية التى أقدمه بها إلى القارئ فى العالم، ومرة ثانية إلى القارئ العربى.

لكن مع «خريف الغضب» آثرت أن أتصرف على نحو آخر، فلقد وجدت من العدل إعفاء أصدقاء وزملاء لى من مشقة ترجمة كتاب هو بالطبيعة صعب ودقيق، وتحملت بنفسى هذه المسئولية، فقمت بالترجمة عن الإنجليزية إملاءً باللغة

العربية، والترجمة بالإملاء لها محاذيرها، ومع ذلك فلم يكن أمامى سبيل آخر.

5

ما نشر من هجوم على «خريف الغضب» فى مصر وحدها يوازى ثلاثة أمثال حجمه، وتنبأت أن الحملة ستستمر وتتصاعد إلى أن تصل إلى عشرين مثل حجم الكتاب.

لم تكن هناك زوابع من حولى، كانت موجودة فقط فى رءوس الغاضبين والمحرضين والصاخبين، وأعتقد أن منظرهم غريب أمام الناس، إننا فى الحقيقة أمام مسرحية عبثية من الطراز الأول، فأمامك قوم غاضبون متشنجون يحرضون الناس ضدى وضد الكتاب ويستفزونهم، ويبتزونهم ويحرجونهم ويزورون أقوالهم، ويسوقونهم سوقًا للهجوم على كتاب لم يقرأه كاملًا أحد من الذين يهاجمون، ولا يكاد أحد من الذين يقرأون الهجوم قد اطلع على شىء منه.

الهجوم على «خريف الغضب» كان هجومًا على شبح.

فعلى أى شىء يعلق المعلقون؟ وأى كتاب يهاجمون؟ أليس هذا عبثًا؟

هل أنا الذى خنت أمانة القلم، أم أنا الذين طالبوا بمصادرة حقى فى أن أكتب- مصادرة تمتد من داخل الوطن إلى كل حدود الدنيا- هم الذين خانوا تلك الأمانة؟

هل أنا الذى خرجت عن ميثاق الشرف الصحفى، أم أن الذين فعلوا ذلك ويفعلونه، هم الذين يهاجمون ما لم يقرأوه، ويحرضون على مصادرة الكتب والأفكار؟ أليس هذا عبثًا مرة أخرى؟

فى الطبعة الدولية من «خريف الغضب» كنت أتوقع أن يثير الكتاب حملات من الهجوم الضارى، وفى مقدمة الطبعة العربية إشارات متعددة ومؤكدة إلى الريح القادمة، ولم يكن الأمر فى حاجة إلى بعد نظر، ولكن إلى نظر فى الأمور فقط.

فى الواقع لم أتضايق من الحملة المركزة التى شنت ضدى، ولكن أكثر ما ضايقنى كان محاولة حسنة النية للوقوف بجانبى، اختارت لها عنوانا «هيكل يدافع عن نفسه»، ومع الأسف فإن ذلك لم يحدث على النحو الذى قيل إنه حدث مع تقدير لسلامة القضية وهو «خريف الغضب»، وقد صودر الكتاب ولهذا فلا قضية هناك.

عندما نشرت جريدة الأهالى فصولًا من الكتاب قبل صدور الطبعة العربية، لم أكن على علم مسبق بنية «الأهالى» محاولة نشر الكتاب، عرفت قبلها بيومين فقط، وأن النشر سيتم بالترتيب مع جريدة الوطن الكويتية، وقد قدرت ذلك وشكرت القائمين على النشر، لأنهم قاموا بمخاطرة، فقد كنت واثقًا أن تدخلًا سوف يحدث بشكل ما فى لحظة ما، ولم أتصور على الإطلاق أن يكتمل نشر الكتاب، وهو ما جرى، فلا أستطيع حين أتحدث عن حقوق الحرية أن أنسى أحكام الأمر الواقع، وإلا كنت أترك نفسى للسراب.

قررت ألا أرد على هذه الحملة، لأننى لا أرد على حملات، إذا كان هناك حوار موضوعى فإننى على استعداد له، وأما حين يصبح الأمر شتائم وسباب فإن المسألة تختلف، بعض ما كتبوه عنى يشكل قذفًا صريحًا، وقد طالبنى بعض أصدقائى من المحامين أن أرفع قضية قذف، وناقشتهم طويلًا، كان من رأيى أننى لا أستطيع أن أكون طرفًا فى أى شىء، ولا حتى فى خصومة مع بعض الناس، هذه ليست فقط قضية كبرياء، ولكنها أيضًا قضية كرامة، فأنا لا أعتبر أن ما قيل عنى- خصوصًا من قائليه- يمكن أن يسبب لى ضررًا بل العكس.

كانت الحملة علىّ وعلى الكتاب بدعوى الوفاء والحرص على ذكرى ما فات بما فيه حرمة الأموات، وهو ادعاء حق يراد به باطل، الحقيقة أن هناك مصالح وأقدار ومقادير تريد أن تحافظ على نفسها وليس على أنور السادات.

وقتها رآنى مواطن مصرى بسيط وأقبل علىّ مشجعًا يقول لى: لا تخف من أحد، الحقيقة كلها ظاهرة أمام الناس،

الحقيقة فى القفص، وكلنا نراها فى عصمت السادات، ولا نحتاج إلى غير ذلك من شىء.

ما قاله هذا المواطن البسيط لى، هو الحق مقطرًا وصافيًا، فحيثيات الحكم التى أصدرها قاض نزيه صنع بها تاريخًا جديدًا فى القضاء، وحوّل قانونًا أريد به أصلًا أن يكون أداة بطش فجعل منه باب عدل، أوضح وأصرح من أى شىء يمكن أن يقوله كتاب أكتبه أنا أو يكتبه غيرى من الناس.

إن حيثيات الحكم حسمت فى منطق عصر بأكمله، لكن بقايا القوى والجماعات المستفيدة من ذلك العهد كانت تحارب معركة بقائها، وأظن أن ما قلته فى «خريف الغضب» كان يمس كثيرًا من النقاط الحساسة بالنسبة لهذه القوى والجماعات، وحين علمت بقرار مصادرة الكتاب لأسباب أمنية، فإنى كنت على استعداد لأن أفهم بل وألتمس الأعذار للقارئ مع أسفى له، وأعترف أننى ابتسمت عندما أخبرنى أحدهم بقرار المنع، وهو يضيف أن هناك قصة عنوانها «الشمس لا تشرق مرة واحدة».

6

هناك أيضًا الذين انتهزوا الفرصة من الكتاب المحترفين لتصفية ما يعتبرونه حسابات معى، وهؤلاء يقولون إننى كنت الكاتب الأوحد فى عهد «عبدالناصر» وإننى غاضب لأننى فقدت هذه المكانة، وأنا لم أكن كاتبًا أوحدًا، فقد كانوا جميعا يكتبون وينشرون، وليس من بينهم من لم أقف معه فى أحلك الظروف ولم أفعل كل ما فى وسعى لمساعدته، ولولا أننى لا أريد أن أمن على أحد، لذكرتهم واحدًا واحدًا وبالاسم ورويت ما قدمته لهم.

لقد تفهمت هجوم الغرب على «خريف الغضب»، فهذا رجل بدا لهم صديقًا على استعداد لأن يعطيهم كل ما يطلبونه وأكثر، فى منطقة كانت بالنسبة لهم مصدر خطر وقلاقل، وعندما سلمت مخطوطة كتاب «خريف الغضب» لمجموعة الناشرين الدوليين التى تملك حقوق نشر كتبى، قلت لهم: إن

هذا الكتاب سوف يكون صدمة للقراء فى الغرب، وإننى أتوقع أن تكون التعليقات عليه شديدة. ونبهتهم إلى أن الناشرين الأمريكيين قد يجدون صعوبة فى نشره، لأنه يحمل الولايات المتحدة الأمريكية ووسائل الإعلام فيها بالذات جزءًا كبيرًا من الظروف التى أدت بالسادات إلى النهاية المأساوية التى انتهى إليها، وقد ظللت أتابع باهتمام لم أشعر به من قبل حركة التعاقدات على هذا الكتاب الجديد فى اللغات المختلفة فى الغرب.

وحين عرفت أن إحدى كبريات دور النشر الأمريكية وهى «راندوم هاوس» قد سارعت إلى الحصول على حقوق الكتاب أحسست أن الاعتبارات المهنية غلبت على الانطباعات الغريزية.

والواقع أنه كان هناك فارق بين تناول الصحف الأمريكية للكتاب، وتناول الصحف الرسمية المصرية له، فالقارئ الأمريكى يقرأ الكتاب فى الوقت الذى يقرأ النقد له، والذين نقدوا الكتاب فى الصحف الأمريكية وافقونى على بعض ما فيه واختلفوا معى على بعضه الآخر.

إن مجلة «نيوزويك» الأمريكية مثلًا، خصصت للكتاب كل المساحة المخصصة لباب الكتب، وهذا دليل على تقديرها لأهميته، وفى مناقشته قالت إنها لا تختلف معى فى أن السادات كان كسولًا، وأن حكمه كان فاسدًا، ولكنها ترى أنه رجل عظيم لأنه كان رجل سلام.

الغريب أن الصحف المصرية التى تنقل ردود أفعال الصحف الأمريكية، نقلت ما اختلفت فيه مع النيوزيوك، ولم تنقل لقرائها طبعًا ما اتفقت فيه معى من آرائى فى السادات.

الغريب أن بعض الذين هاجمونى يزعمون أننى قلت إن السادات كان بهلوانًا، لكنى لست قائل هذا الوصف، ولكنه «هنرى كيسنجر».

لماذا نذهب بعيدًا، هذه فقرة من مذكرات «ريجنيو

برجنيسكى» النجم الآخر فى ثالوث كامب ديفيد.

يقول برجنيسكى بالحرف فى هذه الفقرة: بين كل الساسة الأجانب الذين تعامل معهم كارتر، فإن السادات كان أقربهم إليه، كان حبًا من أول لحظة بين الطرفين، وليس هناك أدنى شك فى أن كارتر كان مهتمًا بهذا المصرى الطائش والمندفع، الذى كان يمثل خصالًا أبعد ما تكون عن خصال كارتر الذى كان قوى السيطرة على نفسه، وذا عقل أدق من جهاز الكمبيوتر، وكثيرًا ما جلسنا معًا، كارتر وأنا، نضحك سويًا على التناقضات التى تكشف عدم صحة أقوال السادات، وكذلك على تصوراته الجامحة، ولكننا مع ذلك كنا نعجب بجرأته ورؤيته التاريخية المبالغة فى تصورات العظمة، وفى لقاء بينى وبين السادات، صفق الرئيس المصرى فجاءوه بنموذج للكرة الأرضية وضعه فى وسط غرفة بيته وكنا نجلس فيها، وأمسك بمؤشر وراح يعطينى درسًا فيما ينبغى أن تكون عليه الاستراتيجية الأمريكية، وكانت وصفاته جديرة بأن تجعل «تيودور روزفلت» أشهر الرؤساء الاستعماريين يبدو وكأنه حمل وديع.

7

اندهشت من رد الفعل العربى الذى بدأ ببيان نشرته جريدة الشرق الأوسط، قالت فيه إنها مضطرة لأن تتوقف عن نشر حلقات «خريف الغضب».

سبب اندهاشى أننى لم أكن طرفًا فى أى تعاقد مع جريدة «الشرق الأوسط» ولا مع أى جريدة أخرى عربية أو أجنبية، فأنا أتعاقد مع مجموعة الناشرين الدوليين الذين ينشرون كتبى وأعطيهم كل حقوق الطبع والنشر، بما فى ذلك النشر فى الصحف والإعداد الإذاعى والتليفزيونى وبكل اللغات، وأنا أفعل ذلك لأننى لا أستطيع من حيث الجهد أو الوقت أن أتابع عملية طبع ونشر وتوزيع حسابات كتبى فى بلاد بعيدة فى أنحاء العالم، وأنا أشترط فقط ألا تباع لى حقوق نشر فى إسرائيل، وألا تباع لى حقوق فى أى دولة عربية بينها وبين مصر نزاع، وبالتالى فإن العقد كان يمنع الناشر من أن

يبيع لى حقوق نشر فى ليبيا مثلًا أو غيرها (فى وقت ما)، درءًا لحسابات أعرفها، وأعترف أننى أشترط ذلك وأنا خجل، وبالنسبة لخريف الغضب فإن حقوق نشر الطبعة العربية منه فى كتاب وفى الصحف قد اشتراها ناشر لبنانى من الناشرين الدوليين، والشرق الوسط اشترت الحقوق منه.

وقد دهشت حين علمت من الناشر أن الشرق الأوسط قد طاردته لتحصل على حقوق النشر، لأن الكتاب يضم نقدًا كثيرًا للسياسة السعودية، ومع أن هناك ما أتفق معه فى السياسة السعودية، إلا أن الكتاب يتعرض بالنقد لبعض هذه السياسات، وأنا أعلم أن الشرق الأوسط صحيفة مملوكة لشخصيات سعودية رسمية.

لم أناقش أحدًا من ناشرى الشرق الأوسط عن خريف الغضب، وحين زارنى أحدهم فى فبراير 1982 بفندق فى لندن، وطلب منى أن أكتب لهم مقالات أسبوعية، اعتذرت وقلت له إذا كتبت فسوف أفقد حريتى فى الكتابة عن سياسات السعودية، وكنت أعلم من السيد كمال أدهم نفسه وهو رجل ذكى، أنه كان المالك الأكبر لأسهم شركة الشرق الأوسط، قبل أن يبيع نصيبه للأمير سلمان، ومع اعترافى باستنارة الأمير سلمان، إلا أن الجريدة تظل فى النهاية جريدة سعودية رسمية، وأنا لا أخدع نفسى.

قلت له: أنا على أى حال لا أتعاقد الآن على كتابة مقالات فى أى جريدة، وقد توقفت عن كتابة مقالات فى العالم العربى منذ يناير 1980، وإذا كتبت فسوف أكتب فى الوطن الكويتية، لأن الرئيس السادات مارس ضغطًا رسميًا قويًا كى يمنعهم من نشر كتاباتى، ولكنهم رفضوا كل الضغوط، وهو ما يجعلنى أشعر بأن هناك ارتباطا أدبيًا بينى وبينهم.

أى لعبة إذن لعبتها مع الشرق الأوسط؟

لقد كنت أستطيع أن أفهم توقفهم عن النشر فهذا حقهم، أما ما يدعو للاستغراب فهى الأسباب غير الحقيقية التى أذاعوها تبريرًا للتوقف، إنهم يقولون أنهم توقفوا عن النشر

لأن فى الكتاب تطاولًا على أموات وخروجًا على أخلاق، ومما أدهشنى فى الشرق الأوسط أنها نشرت الفصول الأولى عن حياة السادات وهى التى يتهمها البعض بالتطاول على الأموات، ثم توقفت عن النشر حين بدأت أتحدث عن دور السعودية فى حياة السادات.

حاولت الشرق الأوسط أن توحى لقرائها أنها تروج لى، وأنا أتصور أننى الذى استخدمت للترويج للشرق الأوسط، حتى فى منع النشر، ومقالاتى تنشر فى «الصنداى تايمز» فى ذات المدينة التى تصدر فيها الشرق الأوسط وتوزع على 2 مليون قارئ فلست فى حاجة إذن إلى من يروج لى.

8

لقد عابوا علىّ التطرق إلى الجوانب الخاصة من حياة الرئيس السادات، والذين قالوا ذلك أما إنهم لم يقرأوا كتب المؤرخين العرب والمسلمين، وإما أنهم يحتقرون عقلية القارئ المصرى، ولو قرأوا كتب السلف الصالح من المؤرخين مثل المقريزى وابن إياس وابن تغرى بردى والسخاوى، لوجدوهم جميعًا يربطون ظروف نشأة الحاكم وصفاته النفسية الخاصة بطريقته فى الحكم.

ولو راجعنا أبواب التراجم فى تلك الكتب، لوجدنا حديثًا كثيرًا عن أحوال السلاطين الأسرية وزوجاتهم، وأهوائهم وكل ما له تأثير على قراراتهم، صحيح أننى لست مؤرخًا ولا أزعم لنفسى مكانة هؤلاء المؤرخين العظماء، ولكنى مجرد صحفى يكتب عما شاهده ويحلل ما عرفه، إلا أن ما قاله هؤلاء، ليس صحيحًا بل إن المصريين العاديين فى كل العهود لم يكفوا أبدًا عن الاهتمام بسلوك حكامهم الشخصى، وهم حساسون جدًا من هذه الناحية، وهم أذكياء فى التقاط ما هو مؤثر من الصفات الشخصية فى أسلوب الحكم وفى طريقة إدارته.

ليس صحيحًا إذن أن القارئ العربى لم يتعود أن يقرأ عن حكامه بالطريقة التى كتبت بها «خريف الغضب» والذين

يقولون ذلك فى الواقع يقرون بتميز القارئ الأوروبى على القارئ العربى، وإنه يستطيع أن يتناول حكامه بما لا يجسر عليه المصرى حتى بعد أن يصبح هؤلاء الحكام تاريخًا.

عاب علىّ البعض أننى تعمدت أن أحقر الفقر والفقراء، وأننى بما رويته عن والدة السادات كنت أتعمد الازدراء به، وهذا فهم مغرض لما كتبت، فأنا لم أعير السادات بفقره، لكننى لمته لأنه وهو الذى ظلم فى طفولته قد انحاز حين حكم إلى الظالمين، وأخذت عليه أنه لم يحب أمه ولم يحترم تعاستها، ولم يفهم تضحيتها، وهذا عيب فيه لا فيها، إن الفقر ليس عارًا، هذا صحيح، ولكننى لم أكن بصدد إصدار حكم على الفقر، ولكن بصدد تحليل تأثير طفولة قاسية على رجل حكم مصر 11 عامًا، وأصدر قرارات غيرت مسار سياسة المنطقة، وأنا مع الذين يقولون إن الحرمان قد يلد عبقريًا، ولكنه أيضًا قد يلد شيئًا آخر، والفيصل هو الطريقة التى يتفاعل بها الإنسان مع ما يتعرض له من حرمان أو قهر اجتماعى.

أنا لم أعير أنور السادات بفقره ولا بلون والدته، ولكننى فقط فسرت الطريقة التى تفاعل بها مع تلك الظروف التى لم يكن الوحيد الذى تعرض لها، وليس بالضرورة أن يتفاعل كل الذين تعرضوا للظروف ذاتها معها بنفس التأثير، إن نشأة السادات المتواضعة لم تكن موضع انتقادى لا صراحة ولا ضمنا، ولا يمكن أن يكون الفقر محل انتقادى ولكننى ربطت بينها وبين انتقاله حين حكم إلى مصادقة «آل روكفلر» و«آل أوناسيس» و«آل بهلوى» والتأثر بأسلوب حياتهم، وذلك الأمر لا يخص السادات ولكنه يخص كل مواطن فى هذه الأمة.

فات هؤلاء الذين قالوا إننى تناولت لون أنور السادات أننى لست «أبيض»، أنا من الصعيد، وعندى أصدقاء من إفريقيا، ولست عنصريًا، ولا أتصور أن اللون نقيصة، لكننى حاولت أن أجد فى اللون مفتاحًا للنفاذ لأنور السادات، كذلك حاولت استعمال مفاتيح النشأة والبيئة، وهى مشروعة وعلمية، كل واحد فينا هو ذلك الطفل الذى كان.

وفات أيضًا الذين قالوا إننى أعيره بفقره أننى لم أولد فى

عائلة مليونيرات.

أنا من الطبقة المتوسطة التى قدمت من الريف إلى المدينة.

لقد تصور البعض أننى أعايره، وهو ما لم يخطر ببالى، أنا حاولت أنا أفهم مكوناته بقدر ما أستطيع.

9

«خريف الغضب» لم يكن قصة حياة أنور السادات كشخص، ولم يتعرض من حياته إلا للعوامل التى جعلته يتصرف تلك التصرفات التى انتهت إلى المواجهة الدموية التى حدثت فى 6 أكتوبر 1981.

موضوع «خريف الغضب» هو على وجه التحديد ما حدث وأدى إلى حادثة المنصة؟

وشخصية السادات هى موضوع الجزء الأول منه، وقد أخذت من مفاتيح شخصيته تلك التى انتهت به إلى حادث المنصة، وقدمت وثائق بنيت عليها تحليلى، ومن حق أى إنسان أن يقول إن تحليلى خطأ وأن يحلل هو الآخر كما يشاء، وعلى الذى يقول إن وقائعى خطأ أن يقدم الصواب.

أنا لم أعتمد فيما ذكرته عن السادات إلا على ما هو مكتوب بقلمه، ومنشور أيضًا فى الصحف ونقلته عنه بالحروف، والفصل الخاص بعوالم الوهم التى هرب إليها بدءًا من هوايته للتمثيل ونشره رسالة فى الصحف يرشح فيها نفسه لبطولة فيلم مع الممثلة القديرة «أمينة محمد»، ثم إعجابه بالعسكرية الألمانية وسعيه لتقمص مظاهرها، إلى تورطه فى مغامرة التجسس مع الألمان، ثم انضمامه بعد ذلك إلى الحرس الحديدى الذى كان يقوم باغتيالات لحساب الملك فاروق وتحويله اتجاه مجموعة حسين توفيق من اغتيال الجنود الإنجليز إلى اغتيال خصوم السراى الملكية، ثم اشتراكه فى محاولة اغتيال النحاس الثانية- كل هذه الوقائع لم أستند فيها إلا لكلام أنور السادات نفسه حرفيًا.

10

كتب توفيق الحكيم رسالة إلىّ تعليقًا على «خريف الغضب» والهجوم الذى تعرض له، وقدمها لتنشر فى الأهرام، ولكن الأهرام رفضت نشرها، فأرسلها الأستاذ توفيق الحكيم إلى جريدة الأهالى لتنشر على صفحاتها.

قال الحكيم فى رسالته:

(أنا معتقد أنك متأكد من عدم موافقتى على كتابتك السياسية، لأنك تتذكر ما كان يقوم بيننا من خلاف عندما كنا نجتمع فى جلسات مجلس الإدارة بالأهرام، حيث كنت أوجه إليك الهجوم العنيف، ثم تنتهى الجلسة فإذا بذراعى فى ذراعك ونذهب نتناول الطعام معًا ونحن نبتسم ونضحك، ذلك أن علاقتنا تقوم على أمرين.. الثوابت والمتغيرات.

أما الثوابت فهى المحبة والمودة، وأما المتغيرات فهى الآراء من سياسية وغيرها، لا نخلط أحدهما بالآخر، وإنى أكتب إليك اليوم كى أهدئ من أعصابك بدافع هذه المودة والمحبة، وأنا بالذات لسبب واحد هو: إن حالتى تشبه حالتك.

فأنت كتبت كتابًا هو «خريف الغضب» أُعتبر هجومًا ضد السادات بعد موته.

وأنا كتبت كتابًا هو «عودة الوعى» أُعتبر هجومًا على عبدالناصر بعد موته.

وقد يفسر الغضب عندك بأنه وضعك فى السجن، أما أنا فلم يضعنى عبدالناصر فى سجن، فلم يبق أمام العالم العربى إلا التفسير الواحد «عدم الوفاء»، وربما النفاق لعهد آخر.

واليوم أيضًا تقوم ضدى القيامة لكتابة أخرى قيل إنها ضد الله تعالى.

فأنا الآن فى وحدتى التى تعرفها، لا زوجة ولا ولد، أعيش مع الله وأناجيه، فقالوا إن هذه المناجاة ضلال وإخلال،

وطردونى من جنة الله، وانهالت على خطابات الغوغاء وحتى بعض العقلاء تترحم على عقلى الذى ذهب، والتخريف الذى جاء مع الشيخوخة.

كل الذى يهمنى بالنسبة لك ولى هو عدم احترام الرأى الحر، فاكتب رأيك ولأكتب رأيى، وليس من الضرورى أن يعجبنى رأيك أو يعجبك رأيى، المهم أن يوجد الرأيان، والأهم أن يكون المجتمع خاليًا من السلطة الواحدة المسيطرة برأى واحد فى إمكانه إسكات كل صوت غيره.

كان يُحكى لنا فى الحكايات والأساطير القديمة أن للملك وزيرين، وزير عن يمينه هو وزير الميمنة، ووزير عن يساره أو شماله، هو وزير المشملة كما كنا نسميه ضاحكين، ولم نكن نسأل عن اختصاص كل وزير، اليوم وارد أن يكون وزير الميمنة هو الوزير المؤيد للحاكم، ووزير المشملة هو الوزير المعارض، والحاكم يستمع لكل وزير بعين الاهتمام، ويستخلص رأيه بعد فحص الرأيين بكل دقة ونزاهة.

ولقد قلت للمشايخ الأفاضل الذين زارونى فى مكتبى بالأهرام ليسألوا عن حقيقة موقفى من الدين والله والحساب، قلت لهم: ما دام يوجد حساب فى الآخرة فأنا مطمئن لأن معنى الحساب أنه محكمة يسمح فيها بإبداء دفاعى، لأن كل اتهام لا بد له من دفاع، وفى الدار الآخرة لا بد أن الحساب سيكون فى جو من الهدوء والصفاء يجعل الدفاع مسموعًا، أما فى الدنيا فإن أصوات الغوغائية مقترنة أحيانًا بأصوات جديدة للمفرقعات تجعل صوت الدفاع يخرج مخنوقًا يثير الضحك والاستهزاء أكثر مما يثير الرحمة والرثاء، فلنا الصبر، ولك منى الثابت فى حياتنا المودة والمحبة).

11

كان مهمًا أن أوضح للأستاذ الحكيم ما جرى، فكتبت له ردًا على رسالته، وجهت كلامى إليه مباشرة بما بيننا من ود قديم ومحبة دائمة.

قلت له: (جاءتنى كلمتك التى بعثت بها إلىّ عن طريق الأهالى، ذكرتنى بأيامنا الخوالى، أيام كان الحوار بيننا دائرًا لا ينقطع، أديب وصحفى كلاهما له رأيه المختلف ورؤيته للناس والظروف والتاريخ، وأحسبك لم تتغير كثيرًا، وأتمنى ألا أكون أنا الآخر تغيرت إلا بمقدار ما أخذت منى وأعطتنى التجارب والأحداث والأيام.

هل تذكر حكايات «زمان» حتى من قبل أن تجمعنا معًا تجربة الأهرام؟

تذكر أيام كنت أنا صحفيًا شابًا، وكنت أنت أديبًا كبيرًا يشار له بالبنان، وكان بيننا ما سميته أنت بالثوابت: «المحبة والمودة»، كان كلانا مشدودًا إلى الآخر ربما بحكم اختلاف الطبائع والتوجهات، كنت أنت باحثًا عن الحقيقة بإلهام الفن، وكنت أنا باحثًا عنها فى خضم الحوادث، وقتها كنا نتغدى معًا كل يوم، تدعونى مرة وأدعوك مرة ليتوازن الحساب، وأنت دائما دقيق فى الحساب وكانت لك فيه قواعد أثارت وما زالت تثير عجبى، أو هل أقول إعجابى؟

كنت قد وضعت قانونًا للحساب بيننا، إذا كانت الدعوة يومًا عليك فقد كان شرطك حازمًا: لو أردت أنا اختيار المطعم الذى نتغدى فيه فأنت الذى تختار الطبق الذى أطلبه، لو كان لى أن أختار الطبق فأنت الذى تختار المطعم، وهكذا تضمن فى كل الظروف أن تتحكم فى الميزان.

ما زلت كما أنت فى حساباتك وقوانينك، ظننت أنك فى كلمتك تريد أن تدعونى معك إلى غداء، فإذا أنت بفرط ذكائك تدعونى إلى أن أدعوك، وتختار أنت المطعم والأطباق، وتنسى كل فواتير الحساب.

على أية حال أهلًا بك، أقولها راضيًا وسعيدًا، فأنت تعرف أن بى ضعفًا إزاءك لا أستطيع أن أغالبه وربما لا أريد.

ومع ذلك فلعلك تأذن لى ببعض ملاحظات على كلمتك، مع العلم أننى كنت قد قررت ألا أشترك فى جدل أعرف مقدمًا أنه

عقيم.

هل تصدق أننى لا أقرأ الكثير مما ينشر عنى هذه الأيام؟

أعرف أهدافه وأعرف أصحابه وألقى نظرة سريعة على الصفحات الصاخبة، وأستذكر مرة أخرى قولة «جورج برنارد شو»: إنهم يقولون.. ماذا يقولون؟.. دعهم يقولون!

وأثق أنك تصدق لأنى أثق أنك تعرفنى.

دعنى أضع خطًا فاصلًا بين «عودة الوعى» الذى كتبته أنت عن جمال عبدالناصر، وبين كتابى «خريف الغضب» الذى لم يكن عن أنور السادات.

اعتذرت عن عرض لكتاب يكون موضوعه أنور السادات، لأننى أعتقد أن قصته ما زالت قريبة وليس من السهل تناولها بتجرد، هكذا فعلت مع قصة جمال عبدالناصر، لو أنك اطلعت على مقدمة الطبعة العربية من كتابى لوجدت واقعة هذا العرض مفصلة وكاملة.

إنك بالطبع لم تقرأ «خريف الغضب» ولا الآخرون حتى الآن قرأوه، حتى هذه اللحظة نشر منه فى صحف العالم كله أقل من نصفه، والطبعة الانجليزية من الكتاب ظهرت قبل أيام، ولم تصل من نسخ إلى مصر إلا عشر أهديتها كلها لجماعة من الأصدقاء حتى يكونوا فى الصورة- كما يقال أحيانا- ولا أظن أن الفرصة أتيحت لأحد منهم أن يقرأ الكتاب كاملًا حتى الآن.

ويبدو لى من كلمتك أنك فهمت «خريف الغضب» على أنه كان غضبى أنا لأنهم أخذونى إلى زنزانة سجن أغلقوا على بابها.

دعنى بإذنك وسماحك أصحح لك.

إن ذلك خريف لم يكن غاضبًا لأنى غضبت، الطبيعة ببساطة ليست على مزاج فرد أو هواه، لقد كان خريف الغضب فى كتابى هو وقائع ما جرى فى مصر بين سبتمبر وأكتوبر من

سنة 1981، حين كان الغضب عاصفة تهب على الوطن من أقصاه إلى أقصاه.

دعنى أشرح لك فكرة كتابى حتى يتضح لك اختلافه عن كتابك.

لقد بدأت برئيس غاضب، نتذكر كيف كان رحمه الله ضيق الصدر ومنفعلًا، آلاف فى المعتقل بقرار، مئات يفصلون من الجامعات والصحف، بيوت الله- مساجد وكنائس- تنقض عليها الصواعق، قرارات وخطابات ومؤتمرات كلها ساخنة إلى درجة الغليان، هجوم متصل على من لا يملكون حق الرد والدفاع.

فؤاد سراج الدين هو لويس السادس عشر الجديد.

فتحى رضوان شيخ جليل أضاع وقاره بعد السبعين.

أنا ملحد هكذا اعترفت أمامه غفر الله له.

والشيخ المحلاوى مرمى فى السجن زى الكلب.

كان الرئيس غاضبًا، ولكى أشرح أسباب غضبه فقد حاولت أن أقترب من مفاتيح شخصيته، لم أتخذ من التحليل النفسى معيارًا واحدًا لفهم التاريخ، ولكنى اعتمدته، كما يفعلون فى الدنيا كلها، أداة ضمن أدوات، وكان هذا هو الجزء الأول من كتابى خمسة فصول.

كانت جماهير الشعب المصرى غاضبة، وفى الحقيقة فإنها كانت غاضبة منذ يناير 1977، حين اكتشفت بالواقع العملى أن تضحياتها على جسور العبور تحولت إلى أرصدة بنوك للذين لم يكونوا هناك على الجسور.

كانت غاضبة على مجموعة من الأزمات تشابكت وتعقدت: غلاء.. إسكان.. مواصلات.. إعلام يحكى بما لا يدرى.. إلى آخره، وكان الانفتاح وما أدى إليه استفزازًا مستمرًا، ثم إن الخيارات السياسية والاجتماعية الجديدة فى مصر ترتبت

عليها انقلابات استراتيجية على مستوى المنطقة وعلى مستوى الصراع العالمى، كلها قضايا تناولتها تحليلًا وتفصيلًا.

كان ذلك هو الجزء الثانى من كتابى.. خمسة فصول أيضًا.

وكان الإسلام دين الحرية والعدل والمساواة، وهذا هو الجزء الثالث من كتابى شاهدًا على ساحة الغضب.

تركت نفسى لبحث طويل عن الأصولية الإسلامية، من منابعها الأولى إلى العصر الحديث، من ابن حنبل وابن تيمية إلى حسن البنا وأبى الأعلى المودودى.

وكانت الكنيسة القبطية غاضبة، فلقد تعرضت لما لم يكن هناك داع له، خصوصًا عندما لم يرض البابا شنودة أن يجعل كرسى الكرازة المرقسية أداة سياسية فى يد سلطة تحكم.

تناولت قصة الكنيسة الوطنية لمصر، ورويت طرفًا من أسباب الصدام الحاد بين الرئيس الغاضب والبابا الذى غضب.

لم أكن أتحدث عن تجربة غضب ذاتى، وإنما كنت أتحدث عن تجربة غضب موضوعى، ليس غضب فرد، وإنما غضب قوى اجتماعية وسياسية، دينية وفكرية، صدام عنيف له دواعيه الحقيقية، أطرافه قوى وتيارات وليس مجرد فرد حبس نفسه فى زنزانة ذاته بالأنانية أو السجن.

عندما جاء ذلك الخريف- سبتمبر وأكتوبر 1981- كان الغضب فى كل نفس وفى كل مكان، كان الرئيس غاضبًا، وكان الشعب غاضبًا، وكان المسجد غاضبًا، وكانت الكنيسة غاضبة، وتجمعت العواصف المشحونة بالكهرباء، ثم تصادمت فى ذلك الخريف، وكان ذلك الصدام موضوع الجزء الخامس من الكتاب.

وأما الجزء السادس والأخير من الكتاب فقد كان صاعقة البرق الخاطف من تصادم العواصف المشحونة على المنصة، ماذا حدث؟ وكيف حدث؟ وماذا؟ ومن؟ ومتى؟ ثم إلى أين من هنا؟

إذن فإن خريف الغضب كان شيئًا آخر غير ما بدا لك، وهو إذن يختلف عن كتابك.

كان كتابك تقييمًا من وجهة نظرك لعصر.

وأما كتابى فكان استقصاء من واقع دراستى لحادث.

إنك أصدرت أحكامًا على رجل وعلى سياسات، ولم أفعل أنا ذلك، وإنما أخذت من الرجل والسياسات ما كان ضروريًا فقط للوصول إلى نقطة معينة فى الزمان والمكان، الساعة الثانية عشرة وعشر دقائق من بعد ظهر يوم الثلاثاء 6 أكتوبر 1981.

هذه ملاحظات طالت، لكنها كانت ضرورية.

هناك ملاحظات ثانية، وهى أيضا تجعل «خريف الغضب» مختلفًا عن «عودة الوعى» لقد كنا معًا، وأنت تعرف التفاصيل.

منذ سنة 1971 أى بعد سنة واحدة من حكم الرئيس السادات، بدأت خلافاتى معه، لكنها جميعًا فى ذلك الوقت كانت خلافات اجتهاد، أو هكذا بدت لى، وكان لا بد أن يكون الرأى الأخير له باعتباره المسئول عن سلطة القرار.

ومع ذلك فلعلك تتذكر مواقف حادة بينه رحمه الله وبينى.

تذكر بالطبع أزمة بيان الأدباء فى بداية 1973، ونقل الصحفيون بالجملة إلى مصلحة الاستعلامات، وتذكر أننى اعتذرت عن تنفيذ هذا القرار فى حدود الأهرام، وهو ما كنت مسئولًا عنه وقتها، وتذكر أننى بعد مناقشة علت فيها الأصوات قلت له: إن الحل بيننا أن نجىء بورقة بيضاء يكتب عليها قرار إعفائى من الأهرام، أو أكتب أنا عليها خطاب استقالتى، تذكر أنت ذلك، ولا أريد أن أثقل على الناس بتفاصيله تشدقًا بما لا يدع هناك داعيًا له.

تذكر أيضًا أن الخلاف معه وصل إلى مفترق الطرق بفك الارتباط الأول.

وتذكر بلا شك أنك حدثتنى أكثر من مرة فى النتائج والعواقب، وأشهد أنك أخلصت النصيحة، لكن القضية كانت أكبر من أى شىء آخر، فلقد كنت أعتقد أن مصر والأمة العربية دفعت جهدًا هائلًا لتحقيق انتصار ليس هناك شك فيه، وأن تعجز السياسة عن الاستفادة بمعجزة السلاح، فإن النتائج تكون مروعة ومخيفة.

هكذا خرجت من الأهرام فى أول فبراير 1974، ولم أعد إليها ولا إلى أى مكان غيرها فى الصحافة أو فى الدولة.

ولم أخرج وأسكت لكنى حملت قضيتى معى وتكلمت، وكان كلامى المستمر من فبراير 1974 هو الذى قادنى فيما بعد- سبتمبر 1981- إلى السجن ضمن عواصف خريف الغضب.

هنا يختلف «عودة الوعى» الذى صدر بعد ثلاث سنوات من رحيل جمال عبدالناصر، عن كتابى «خريف الغضب»، وتختلف بالتالى الدوافع ولا تتشابه الأحوال.

لم أكتب بعد موت أحد، كتبت فى حياته رأيى، وكتبت بعد موته نتائج دراستى لما حدث.

إنه رحمه الله لم يمت على فراشه بمرض ولا فى حادثة تصادم على طريق، وإنما عاد إلى ربه فى إطار مشهد مأساوى دموى عنيف رأته الدنيا كلها رأى العين باللون والصورة والصوت، وكان لا بد من محاولة للفهم تذهب إلى ما وراء المشهد المأساوى الدامى على المنصة، وتتقصى الأسباب التى أدت إليه.

تتصل بذلك هنا ملاحظة ثالثة أراها دقيقة ولكنها أساسية.

لقد صدر كتابك «عودة الوعى» فى مناخ محاولة عامة فى العالم العربى لإعادة تقييم جمال عبدالناصر والنظر إليه من جديد، وليس يهمنى هنا من الذى كان يحاول أو ما هو القصد، كل ذلك خارج الموضوع، ولكن المهم أنه كانت هناك محاولة.

لم يكن كتابى «خريف الغضب» موجهًا إلى العالم العربى، وإلا لكتبته باللغة العربية، وهى لغتى الأصلية بالطبع، لقد قلت من قبل وكررت القول إننى منذ اللحظة الأولى لتجربة اعتقالى أحسست أننى متفرج على ما يجرى قبل أن أكون ضحية من ضحاياه، وكنت أشعر أننى سوف أكتب يومًا عن تجربة الاعتقال والسجن، ولم يكن ذلك خريف الغضب.

عندما تقرأ هذا الكتاب- ولعل ذلك أن يحدث يومًا ما- سوف تكتشف أن كل تجربة السجن لم تستغرق فيه أكثر من صفحتين اثنتين بالعدد، بينما الكتاب نفسه أكثر من ستمائة صفحة.

إن فكرة خريف الغضب جاءتنى فى السجن حقيقة، ولكنها جاءت وكانت عواصف الخريف قد هبت ومضت، ولقد أدركت، كما أدرك غيرى، أن طبائع الأمور سوف تفتح بوابات الحديد، ورحت أفكر فى عملى كصحفى، وخطرت لى فكرة «خريف الغضب» وتحدثت فيها مع بعض رفاق تلك التجربة المشهودة.

كنت أقدر مسبقًا- وهذه حاسة الصحفى- إننى حين أخرج فإن مجموعة الناشرين الدوليين التى تحصل على حقوق كتبى سوف تطلب منى كتابًا عما جرى، لقد بدا لهم اغتيال أنور السادات على شاشات التليفزيون لغزًا غير مفهوم، فكيف يحدث هذا الذى حدث لنجم عملية السلام التى شدت اهتمامهم؟

ما قدرته مسبقًا وقع فعلًا.

وهكذا كانت محاولة كتابة «خريف الغضب» للعالم الخارجى، وليس للعالم العربى، محاولة لتفسير ما جرى، أريد أن أضع خطًا تحت كلمة «تفسير ما جرى»، أقول «تفسير» ما جرى وليس «تبرير» ما جرى، حتى لو نظرنا إلى القضية كلها كجريمة قتل، فإن الجريمة ليست مجرد إطلاق رصاصة، ولكنها ملابسات ومقدمات ودوافع وتحريض وتخطيط وتدبير، وحكايات طويلة عريضة.

كان الكتاب إذن موجهًا إلى العالم الخارجى وليس إلى العالم العربى، ولم يكن جزءًا من محاولة لإعادة تقييم رجل أو إعادة النظر فى دوره.

أظنك تعلم أننى منذ شهر أكتوبر سنة 1979 لم أكتب مقالًا واحدًا لجريدة عربية، وبالتالى لم أتقاض حقوقًا من أى ناشر عربى، وقد يدهشك أن تعلم أننى فعلت ذلك استجابة لطلب من الرئيس السادات، ولم يكن الطلب إلىّ ولكنه كان موجهًا إلى جميع الذين يكتبون فى العالم العربى، ومع أننى لم أكن المعنى بالأمر فقد آثرت أن ألتزم به دفعًا لحساسيات وتأويلات وجدتنى فى غنى عنها مع كل صداقاتى الحميمة لكثيرين من الناشرين العرب، لكن رجوتهم جميعًا تقدير موقفى وقد فعلوا.

كان واردًا على بالى بالطبع أن بعضًا منهم سوف يحاول الحصول على حقوق النشر باللغة العربية لكتاب «خريف الغضب»، لكنى لم أتوقف طويلًا أمام هذا الاحتمال إلى درجة أن الناشر اللبنانى الذى حصل على حقوق اللغة العربية كان ناشرًا آخر غير الذى تصورت أنه سوف يسبق إلى الحصول على هذه الحقوق.

ترى إذن أن «خريف الغضب» كان فى إطار.

وأما «عودة الوعى» فكان فى إطار آخر.

الأول كان بالدرجة الأولى للعالم الخارجى، وكان دخوله إلى العالم العربى مجرد أثر جانبى، وأما الثانى فقد كان إطاره عربيًا بالظروف والمناخ وإعادة تقييم الناس وإعادة النظر فى أدوارهم.

وهكذا فإننى حين قرأتك تقول لى فى كلمتك إن «حالتى تشبه حالتك» تذكرت قوانينك فى الحساب، وتذكرتها بإعجاب.

ملاحظة رابعة وأخيرة تتعلق بحديثى عن «خريف الغضب»

و«حديثك مع الله» أو «حديثك إلى الله» أو«حديثك مع نفسك» طبقًا للعناوين المتعددة التى ظهرت متغيرة فوقه.

أنت تملك بخيال فنان ملهم ومبدع أن تضع نفسك على أجنحة النسور وتحلق فى السماوات العلى، أما أنا فلم أقترب من هذا الملكوت الواسع، أنا أعرف حدودى.

الفنان شىء والصحفى شىء آخر.

أولهما يملك آفاق النجوم تحمله إليها أجنحة النسور، وأما الثانى فمكانه على الأرض وسط تضاريسها وتخومها ودروبها يبحث ويتقصى وينقب ويحلل ويقارن ويستخلص، وهكذا فإن قضيته كلها هنا وليست هناك فى آفاق النجوم، وعلى الذين يناقشونه أو يحاورونه أو حتى يحاكمونه أن يضعوا كل القضية أمام كل الناس.

على ذكر القضايا سمعت عن مسرحية اسمها «شاهد ما شفش حاجة»، من سوء حظى أننى لم أستمتع برؤيتها، أظننا أول مرة نسمع فيها عن مسرحية اسمها «قاض ما شفش حاجة» ولا اطلع ولا قرأ، نراها أمامنا الآن، رأينا بعض فصولها، ولا زالت بعض الفصول تجرى.

أقول هذا لأطمئنك على أعصابى، تقول لى إنك تكتب إلىّ لكى تهدئها، لك أن تطمئن أيها الصديق الكبير والغالى، أعصابى بخير، فكيف أعصابك أنت؟

أنت تعلم- والله فوقنا أعلم- أنه كان يومًا من أسعد أيامى حين استطعت أن أقنعك بأن تنضم إلينا فى تجربة الأهرام، كان العصفور خائفًا من القفص، وأظنك تشهد أنه لم يكن قفصًا، دعنى أذكرك أيها الصديق أنك فى ذلك الوقت كتبت بعضًا من أعظم روائعك.

هل تذكر يوم أعطيتنى مخطوطة روايتك «بنك القلق»، كانت نقدًا مباشرًا وعنيفًا لتجاوزات السلطة فى عصر عبدالناصر، لم يكن وعيك غائبًا.

تذكر يومها أنك أعطيتنى المخطوطة وقلت لى إنك لم تكتبها للنشر وإنما كتبتها كتجربة، تذكر أنت ماذا كان موقفى، قلت لك إن الأهرام سوف تنشرها بغير تردد، فهذا واجبها.

فى ذلك الوقت أيضًا كتب صديقنا المشترك الأصيل نجيب محفوظ قصصه النقدية الشهيرة «السمان والخريف» و«اللص والكلاب» ونشرتها الأهرام جميعًا كما نشرت غير ذلك كثيرًا بدون قصص وإنما بالمواجهة مع المشاكل والقضايا والحقوق.

دعنى أسألك وأنت تعلم محبتى لك، أليس غريبًا أن عملك الفنى الكبير «بنك القلق» جاء فى الوقت الذى غاب وعيك فيه، كما قلت أنت، وعندما عاد إليك الوعى ظللت صامتًا لم نقرأ لك شيئًا حتى جاء حديثك مع الله أو إليه أو مع نفسك.

لقد فهمتك أكثر مما فهمك غيرى، لقد أحسست أنه بالدرجة الأولى نداء وتضرع ودعاء ليس أكثر، وكان على الذين ضاقوا بالأسلوب أن يتعمقوا فى الجوهر، لقد كانت صرخة فنان عظيم يريد مرة أخرى أن يركب أجنحة النسور.

لا تقلق على أعصابى، طمئننى على أعصابك أنت، وكذلك صحتك.

تعلم كم أنت عزيز على وغال، وتعلم كم كانت رفقة العمر بيننا سنوات ممتدة تجربة ممتعة بالنسبة لى وكانت خصبة خضراء.

سلمت لى ولكل الذين يعرفون حقك وفضلك على فكر هذه الأمة وثقافتها، ودمت بخير، ودامت بيننا على حد تعبيرك ثوابت المودة والمحبة، ودامت بيننا على حد تعبيرك أيضًا متغيرات اختلافنا فى الرأى على أن يكون دائمًا بالحوار، وهو الأداة الوحيدة للتنوير فى محاولة الإنسان الأبدية والأزلية، طالبًا للمعرفة وباحثًا عن الحقيقة حرًا بسلطان العقل والضمير وسيدًا).

أنا ومبارك
قليل من الثقة.. كثير من الريبة

1

كانت علاقتى بالرئيس حسنى مبارك محدودة وفاترة، وفى كثير من الأحيان مشدودة ومتوترة، وربما كان أكثر ما فيها- طولًا وعرضًا- لقاء واحد تواصل لست ساعات كاملة، ما بين الثامنة صباحًا إلى الثانية بعد الظهر يوم السبت 5 ديسمبر 1981، أى بعد شهرين من بداية رئاسته، وأما الباقى فكان لقاءات عابرة وأحاديث معظمها على التليفون، وكلها دون استثناء بمبادرة طيبة منه.

ورغم ذلك فإن الحوار بيننا لم ينقطع، وكان صعبًا أن ينقطع بطبائع الأمور طالما ظل الرجل مسيطرًا على مصر، وظللت من جانبى مهتمًا بالشأن الجارى فيها.

وعليه فقد كتبت وتحدثت عن سياساته وتصرفاته، كما أنه من جانبه رد بالتصريح أو بالتلميح وبلسانه أو بلسان من اختار للتعبير عنه أو تطوع دون وكالة.

2

بدأت متابعتى للرئيس حسنى مبارك- من بعيد بالمسافة، من قريب بالاهتمام- عندما ظهر على الساحة العامة لأول مرة قائدًا لسلاح الطيران فى الظروف الصعبة التى تعاقبت بعد أحداث سنة 1967، ولم يخطر ببالى وقتها لحظة واحدة أن هذا الرجل سوف يحكم مصر ثلاثين سنة، ويفكر فى توريث حكمها من بعده لابنه.

وعندما أصبح مبارك رئيسا بعد اغتيال الرئيس أنور السادات فى أكتوبر 1981، رحت ونحن لا نزال فى سجن طرة، أذكر نفسى وغيرى بالمثل الفرنسى الشائع الذى استخدمه الكاتب الفرنسى الشهير أندريه مولر عنوانًا لإحدى

رواياته، وهو أن (غير المتوقع يحدث دائما).

كنت أعرف أن جمال عبدالناصر هو الذى نقل اللواء محمد حسنى مبارك من موقعه فى كلية الطيران إلى رئاسة أركان حرب الطيران، وأنا حضرت جلسة كان جمال عبدالناصر يريد لموقع ما قيادة ووصف مبارك أنه وطنى.

وللأمانة فقد سمعت الفريق محمد فوزى وزير الدفاع يقدم مبارك عند جمال عبدالناصر عندما رشحه له رئيسا للأركان فى سلاح الطيران أثناء حرب الاستنزاف، وكانت شهادة الفريق محمد فوزى تزكية لما رشح له.

ثم كان أن أصبح الرجل، بعد أن اختاره الرئيس السادات قائدًا للسلاح، موضع اهتمام عام وواسع، لأن سلاح الطيران وقتها كان يجتاز عملية إعادة تنظيم مرهقة، وكانت هذه العملية تجرى بالتوافق مع قيام السلاح بدوره فى حرب الاستنزاف.

أول ما التقيت بمبارك كان لقاء مصادفات عابرة، فقد كنت على موعد مع وزير الحربية، وهو وقتها الفريق محمد أحمد صادق، وعندما دخلت مكتبه مارا بغرفة ياوره كان بعض القادة فى انتظار لقاء الوزير وكان بينهم مبارك، وأتذكره جالسًا وفى يده حقيبة أوراق لم يتركها من يده، حين قام وسلم وقدم نفسه، وبالطبع فإننى صافحته باحترام، قائلا له فى عبارة مجاملة مما يرد على أول لقاء: إن دوره من أهم الأدوار فى المرحلة المقبلة، والبلد كله ينتظر أداءه.

رد: إن شاء الله نكون عند حسن ظن الجميع.

سألت الفريق صادق عن مبارك وهل يقدر؟

قال لى: إنه الضابط الأكثر استعدادًا فى سلاح الطيران الآن بعد كل ما توالى على قيادة السلاح من تقلبات.

وقال أيضًا: أولى مزايا مبارك أنه مطيع لرؤسائه، ينفذ ما يطلبون، ولا يعترض على أمر لهم.

3

المرة الثانية التى قابلت فيها مبارك كانت أثناء معارك حرب أكتوبر 1973، وكانت هى الأخرى لقاء مصادفات عابر، فقد ذهبت إلى المركز رقم 10 وهو مركز القيادة العامة للمعركة، وكنت هناك على موعد مع القائد العام الفريق أحمد إسماعيل، وكنا فى اليوم الخامس للحرب (12) أكتوبر، وكان اللواء مبارك قائد سلاح الطيرن هناك.

أقبل نحوى بخطى حثيثة، وعلى ملامحه اهتمام ملفت يسألنى: كيف عرفت الأهرام بتفاصيل المعركة التى جرت فوق قاعدة المنصورة، وكان هو موجودًا فى القاعدة، وقابل طيارًا إسرائيليًا أسقطت طائرته، وجىء بالطيار الأسير لمقابلة قائد الطيران المصرى، ودار بينهما حوار، قال فيه مبارك للطيار الأسير إنه تابع سربه أثناء الاشتباك، ولاحظ أخطاء وقع فيها، وسأله: ماذ جرى لكم؟ كنا نتصور الطيارين الإسرائيليين أكفأ.. فهل تغيرتم؟

ورد الطيار الإسرائيلى قائلًا: لم نتغير يا سيدى ولكن أنتم تغيرتم.

سألنى مبارك وهو يمشى معى فى الممر المؤدى إلى مكتب الفريق أحمد إسماعيل بإلحاح: كيف عرفنا بهذه الحكاية؟ مع أن المعركة جرت فى المساء، أول أمس، وهو نقل تفاصيلها على التليفون للرئيس السادات أمس، ثم قرأها كاملة فى الأهرام، وهو لم يحك إلا للريس وحده، فكيف عرفنا إذن؟

قلت: سيادة اللواء أليست المسألة واضحة؟ عرفنا من الرئيس نفسه.

رد ودرجة الدهشة عنده تزيد: من الرئيس نفسه؟ كما نقلتها له بالحرف؟.. ياه ده أنتم ناس جامدين أوى.

فى أحد أيام شهر مارس من العام 1975 قضيت مع الرئيس السادات الصباح بأكمله فى استراحة القناطر، ومن

الساعة العاشرة إلى الساعة الثالثة بعد الظهر، وكان مبارك موجودًا على مجرى الحوار، وليس فقط على شاشة الرادار.

قال لى الرئيس السادات فجأة أنه يجد نفسه حائرًا بشأن منصب نائب الرئيس فى العهد الجديد بعد أكتوبر، وإن الحاج حسين (يقصد حسين الشافعى والذى يشغل بالفعل منصب نائب الرئيس) لم يعد ينفعه.

أضاف السادات: بصراحة جيل يوليو لم يعد يصلح، والدور الآن على جيل أكتوبر، ولا بد أن يكون منه ومن قادته اختيارى لنائب الرئيس الجديد.

وقال أيضًا: جيل أكتوبر فيه خمسة من القيادات، أولهم وهو أحمد اسماعيل منوفى، والآن أمامى الجمسى وكان مديرًا للعمليات أثناء الحرب، وأصبح وزيرًا للدفاع بعد أحمد إسماعيل، ثم محمد على فهمى قائد الدفاع الجوى، ثم حسنى مبارك قائد الطيران، ثم قائد البحرية (أشار إليه دون اسم) وهو يقصد الفريق فؤاد ذكرى.

وأضاف: لا بد أن يكون اختيارى ضمن واحد منهم.

رددت عليه بعفوية متسائلًا ولماذا يحشر نفسه فى هذه الدائرة الصغيرة؟

رد بطريقته حين يريد إظهار الحسم: أنت تعرف أن الرئيس فى هذا البلد لخمسين سنة قادمة لا بد أن يكون عسكريًا وإذا كان كذلك، فقادة الحرب لهم أسبقية على غيرهم.

وقلت والحوار تتسع دائرته: إن أكتوبر حرب كل الشعب، ثم إنك قلت لى الآن اعتزامك تكليف وزير الداخلية اللواء ممدوح سالم برئاسة الوزارة، وأخشى أنك تكون قد بولست «من البوليس» الوزارة، ثم إنك بمبارك نائبا لك تكون قد (عسكرت) الرئاسة، وربما يصعب على الناس قبول الأمرين معًا فى نفس الوقت.

رد قائلًا: أنا مندهش لترددك فى إدراك أهمية أن يكون

رئيس مصر القادم عسكريًا.

وسألنى: ألست تعرف أن ذلك كان رأى المعلم- يقصد جمال عبدالناصر- أيضًا؟

قلت: إن الظروف ربما تغيرت، وليس لدى تحيز ضد رئيس عسكرى، لكنه مع ضابط بوليس فى رئاسة الوزارة، وضابط طيار فى رئاسة الجمهورية، فإن صورة ما بعد الحرب سوف تبدو تركيزًا على الضبط والربط لا تبرره الأحوال، وأما فيما يتعلق برأى جمال عبدالناصر، فإن مسئوليات الحرب وبالتالى منجزاتها تغيرت كثيرًا عندما التحق شباب المؤهلات بجيش المليون على الجبهة.

شعرت أنه متمسك برأيه، واقترحت عليه بمنطق حجته: ليكن.. لماذا لا تفكر فى الجمسى مثلًا؟

رد بسرعة: لا.. الجمسى لا يصلح للرئاسة.. فلاح، وهو ليس من نحتاجه فى منصب نائب الرئيس الآن.

أدركت أن لديه مرشحًا، وسألت فيمن يفكر، ورد على الفور على السؤال بسؤال كما كان يفعل أحيانًا: ما رأيك فى حسنى مبارك؟

قلت: إن اسمه لم يخطر ببالى، إنما خطر ببالى مع إصراره على عسكرى من جيل أكتوبر، أن يكون نائبه الجديد إما الجمسى أو محمد على فهمى، فإذا أراد غير هؤلاء، فقد يفكر فى واحد من قادة الجيوش.

ورد: لا.. لا أحد من هؤلاء يصلح، مبارك أحسن منهم خصوصًا فى هذه الظروف.

سألته بالتسلسل المنطقى للحوار: أى ظروف بالتحديد؟

راح يشرح ويستطرد ويقاطع نفسه، ثم يعود إلى سياق ما يتكلم فيه، ثم يبتعد عنه، وكنت أشعر به كما لو أنه متردد فى الإفصاح الكامل عن فكره، وإن كانت بعض العبارات قد لفتت

نظرى.

قوله مثلا: إن هناك قيادات فى الجيش لم تفهم بعد سياسته فى عملية السلام ومقتضياتها.

وقوله: إن هناك عناصر فى الجيش لا تزال مشايعة لمراكز القوى أو متعاطفة مع سعد الشاذلى.

وقوله وهو يستدعى تجربة شاه إيران محمد رضا بهلوى الذى وصفه بأنه سياسى عقر، وهو فى رأيه أوعى سياسى فى المنطقة، بحكم تجربة طويلة وراءه استفاد منها كثيرًا.

سألنى الرئيس السادات: ألا يلفت نظرك أن الشاه عين زوج شقيقته فاطمى (الجنرال محمد فاطمى) قائدًا للطيران؟.. عنده حكمة فى هذا الاختيار، لأن الطيران يستطيع أن يتدخل بسرعة وبقوة نيران كثيفة لمواجهة أى تمرد أو عصيان أو حتى محاولة انقلاب.

سألته: هل هذه نصيحة من شاه إيران؟

ارتفع صوته محتجًا يسأل: هل أنا فى حاجة إلى نصيحة يقولها لى الشاه، أليس يكفينا أن نرى ما نرى، ونفهم منه ما نفهم، ثم سألنى كمن يريد إفحام محاوره: جرى لك إيه يا محمد؟

لفت نظرى قول الرئيس السادات: إن مبارك منوفى مثلى وله فى الطيران مجموعات من الضباط مسيطرة على السلاح، والتأمين قضية مهمة فى المرحلة القادمة، بكل ما فيها من تحولات قد لا يستوعبها كل الناس بالسرعة الواجبة.

قلت له: لكن الشاه عين زوج شقيقته قائدًا للطيران، وليس نائبًا لرئيس الدولة، ومبارك فيما أتصوره لا خبرة له بشئون الحكم فى سياسة كل يوم، خصوصًا ما يتعلق منها بمطالب الناس ومشاكلهم.

وسألته: لماذا لا تتيح له فرصة التجربة وزيرًا لإحدى

وزارات الإنتاج حتى يتفهم الرجل أحوال الإدارة المدنية، وحتى يحتك ولو من باب الإنصاف له بمطالب الناس وحاجاتهم.

رد على: لا.. لو فعلت ما تقترحه فسوف أحرقه، الإنجاز السريع فى الوزارات التنفيذية مسألة فى منتهى الصعوبة.

عدت بالذاكرة إلى تقرير كتبه سامى شرف مدير مكتب الرئيس عبدالناصر للمعلومات بخط يده عن مبارك وما أثير حوله فى مهمة بعينها فى السودان.

قلت للرئيس السادات: لكن مبارك دارت حوله إشاعات فى قضية اغتيال الإمام الهادى المهدى وسوف تعود القضية كلها إلى التداول فى الخرطوم فور إعلان تعيينه نائبًا للرئيس.

ورد السادات بطريقته: مشكلتك يا محمد إنك مصدق الإشاعات، ويظهر إن فترة الشهور التى انقطعت فيها عنى قد أبعدتك عن مصادر الأخبار الصحيحة.

قلت بأدب: إن الأخبار الصحيحة متاحة فى كل مكان لمن يبحث عنها.

تصور الرئيس أنه بملاحظته ضايقنى، وإذا بابتسامة عريضة تملأ شفتيه مرة واحدة كما يفعل حين يريد إظهار سماحته، وأضاف بنبرته الودود المشهورة عنه: المسألة أنك بغريزة الصحفى يشدك أى خبر مثير.

قلت: أى خبر مثير؟.. أنت بنفسك رويت قصة مبارك كلها على التليفون، وسامى شرف سجلها بخطه لعرضها على جمال عبدالناصر، وما كتبه سامى شرف عندى فى أوراقى التى تفضلت وأعطيتها بنفسك لى.

بدأ أنه فوجئ وأول ما قاله فى التعبير عن مفاجآته: آه.. وعندك الورقة التى كتبها سامى.. أريدها.. أريد أن أراها.

قلت إن الورقة موجودة ولكنها ليست هنا، وذكرته بأننى

أستأذنته فى إخراج بعض أوراقى الخاصة بعيدًا عن مصر، خوفًا عليها من تربص صراعات السلطة التى لاحت نذرها بعد رحيل جمال عبدالناصر.

وقلت: إننى سوف أجىء له بها فى أول سفرية إلى أوروبا، لكنى ذكرته بضرورة أن يتصور أن الأمريكان سجلوا مكالمته الأصلية مع سامى وكذلك السوفيت، وربما أيضًا إسرائيل، وإذن فهناك من يعرفون القصة، وربما يحتفظون بتسجيل كامل لحديثه مع سامى بصرف النظر عن أى ورقة مكتوبة.

أخذتنا بعد ذلك تطورات الأحداث، فلا الرئيس السادات عاد إلى طلب الورقة، ولا أنا عدت بها معى من سفر.

لكن المسألة الأهم بعد هذا الحديث أننى خرجت من استراحة القناطر يومها مدركًا أن اختيار مبارك لمنصب نائب الرئيس لم يكن اختيارًا بسيطًا بل مركب، حكمته اعتبارات أخرى، فهو لم يكن اختيارًا من بين الرجال الذين ظهروا فى حرب أكتوبر، على أساس دور متفوق على غيره فيها، وإنما كان اختيار مبارك شيئًا آخر إلى جانب أكتوبر يقدمه ويزكيه.

إن الرئيس السادات اختار رجلًا يعرفه من قبل، وقد اختبر قدرته على الفعل واستوثق منه.

إن اختياره للرجل وقع فى ذهنه قضية حيوية بالنسبة له ولسياساته وهى قضية تأمين النظام فى ظروف تحولات حساسة.

إن الرجل من قبل اختياره أظهر استعدادًا يجعله مهيأً للمضى وراء حدود الواجب على حد التعبير المشهور فى العسكرية البريطانية، أى المضى بتنفيذ الواجب حتى بالزيادة عليه بما ليس منه إذا قضت الأسباب.

4

وأنا فى السجن جاءنا أحد مشاهير المحامين، وطلب لقاء ثلاثة من المعتقلين، كل منهم على انفراد: فؤاد سراج الدين،

وفتحى رضوان، وكنت أنا الثالث.

في غرفة المأمور العقيد محمود الغنام التقى المحامى بكل منا على انفراد، وكان طلبه أن يسلمه المعتقلون السياسيون فى طرة بيانًا بتأييدهم لانتخاب مبارك رئيسًا، والإيحاء فيما يطلب أن ذلك يسهل خروجهم من السجن دفعة مقدمة لحسن المقصد.

والمدهش أن الثلاثة- وكل منهم مع الرسول على انفراد- أبدوا نفس الرأى بما معناه: أنه لا يليق بسجين الرأى أن يؤيد مرشحًا فى انتخابات الرئاسة، خصوصًا إذا كان المرشح هو نفسه نائب الرئيس الآن، فذلك ليس مشرفًا للسجين، وليس مشرفًا للمرشح، لأن حرية الاختيار لا تمارس من خلف القضبان، كما أن ممارسة الحرية من داخل زنزانة سجن لا تنفع صاحبها، ولا تنفع المقصود بها، لأنها معرضة للظنون والشبهات.

وتم الاستفتاء وجرى انتخاب مبارك وتلقيت بعدها بأيام رسالة عنه نقلها إلى على تليفون مكتب مأمور السجن الدكتور أسامة الباز، وهو المستشار الأول للرئيس الجديد، مؤداها: أنه تقرر الإفراج عن المعتقلين السياسيين على دفعات، وأن ذلك سوف يبدأ تنفيذه بعد مرور الأربعين يومًا من وفاة الرئيس السادات، والرئيس الجديد يرجو أن نتحمل البقاء حيث نحن فى طرة حتى تنقضى الأربعون.

سألنى زملائى عن رأيى فى خطابيه الأول والثانى.

قلت: هذا الرجل يريد أن يعطى نفسه بداية جديدة، وواضح فى كلامه أنه رجل رأى الحقيقة بنفسه، فقد أعيدت ولادته مرتين خلال عاصفتين من الدم والنار.

مرة فى دراما حرب أكتوبر.

والمرة الثانية فى المأساة الإغريقية التى وقعت على المنصة يوم 6 أكتوبر.

غضب منى بعض إخواننا فى المعتقل، كان الرئيس مبارك قد قال فى خطابه الأول: البرىء حيطلع.

كانوا يعتقدون أنه لا يصح أن نبقى تحت التحفظ حتى تثبت براءتنا.

وكنت أقول لهم: لاحظوا أن قرارات التحفظ كانت قبل توليه المسئولية، ونحن الآن نمثل إحدى المهام المعلقة فى جدول أعماله، خصوصًا وأن الواقع السياسى له أحكامه.

وعندما تحدث فى خطابه الثانى فى افتتاح الدورة البرلمانية، لمحت إيماءات اجتماعية واضحة، وأنا واحد من الناس ممن يعتقدون أن مشكلة مصر بالدرجة الأولى اقتصادية اجتماعية.

حين انقضت الأربعون يومًا بدأ الإفراج عنا، وارتأى مبارك أن يكون إطلاق سراحنا بعد لقاء معه فى قصر العروبة، وفى الطريق إلى هذا اللقاء عرضت على أصدقاء المجموعة الأولى من المفرج عنهم أن يتولى أحدنا الحديث نيابة عنا، حتى نحافظ خلال اللقاء على إطار الاحترام اللازم للمناسبة ولأنفسنا، واقترحت أن يكون المتحدث باسمنا فؤاد سراج الدين باشا، لأنه أكبرنا سنًا، وأقدمنا عهدًا بممارسة السياسة، ووافق الجميع.

كان عددنا (الدفعة الأولى من السياسيين المفرج عنهم) حوالى الخمسة والعشرين، وحملتنا سيارة نقل كبيرة من سجن طرة إلى قصر العروبة، مارة على عنبر المستشفى المخصص للمعتقلين بقصر العينى، حيث كان بعض من تقرر الإفراج عنهم تحت العلاج فيه.

صافحنا الرئيس الجديد واحدًا واحدًا، بينما وقف إلى جواره رئيس وزرائه الدكتور فؤاد محيى الدين، وعندما جلسنا حوله للحوار لاحظت أن الرئيس الجديد يبدى اهتمامًا بمعرفة رأيى، وقد وجه إلى الخطاب بوصفى محمد بيه، مضيفًا: تفضل. وأشرت إلى فؤاد سراج الدين الذى فوضناه

بالحديث عنا، وكان ذلك السياسى المخضرم ممتازًا فى عرضه وفى شرحه، وأظنه كان موفقًا فيما تقتضيه المناسبة.

لكن مبارك التفت نحوى يسألنى إذا كنت أريد أن أضيف شيئًا، وشكرته معتبرًا أن فؤاد باشا قال كل ما يريد أينا قوله، مع أن ذلك لم يمنع رغبة الكلام لدى آخرين، وبالفعل تكلم بعضهم وحدث شىء مما تمنيت تجنبه، ومما يفعله الساسة أحيانًا عند لقاء الحكام، خصوصًا إذا خطر لهم أن يقدموا أنفسهم تعريفًا وربما تمهيدًا ولزمت الصمت مؤثرًا الاستماع.

عندما خرجت تكون لدى شعور أن الرئيس مبارك يتحدث بطريقة مباشرة وصريحة وواقعية، ولا بد أنه يمتلك قدرًا كبيرًا من الشجاعة الأدبية ومن القدرة على الإدراك الشامل.

على باب القصر سألنى مراسل الجارديان: ألا ترى أن ذهابكم إلى القصر الجمهورى بهذا الشكل فيه عنصر مسرحى؟

قلت: لا أتصور ذلك لسبب واحد، وهو أننى أعتقد أنه فوق ما فيه من صدق النوايا ذكاء سياسى، لأن الرئيس السادات حاول إبعادنا أو إبعاد بعضنا بالقوة، لكن الرئيس مبارك نزع سلاحنا جميعًا باللطف والحوار وإقدامه على فتح صفحة بيضاء.

سألت مراسل الجارديان: هل تعرف ماذا يعنى هذا اللقاء فى قصر العروبة بالنسبة لى؟

وقلت: لقد أغلقت صفحة الماضى ولن أتحدث عما حدث فى تجربة 90 يومًا فى السجن، ولكننى أسأل نفسى هل كان فى وسعى أن أكتم تجربتى لو لم يكن قد قابلنى؟ وهل علينا جميعًا أن نطوى صفحة لنبدأ صفحة أخرى.

كان ما سمعته من الرئيس مبارك يدعو للثقة، وقد قلت للصحفيين الذين كانوا ينتظرون أمام باب الخروج: سأؤيد الرئيس مبارك بكل قواى.

سألنى أحد الصحفيين: إلى أين ستذهب؟

قلت له: أعتقد أننى أستطيع أن أذهب إلى حيث أريد.. أنا حر اليوم.

سألنى صحفى آخر: هل صحيح أنك ستتولى منصبًا رسميًا؟

قلت له: لا لا.. أنا صحفى وسأبقى صحفيًا.

سألنى صحفى ثالث: هل عوملت معاملة حسنة فى السجن؟

قلت: لن أتحدث عن ذلك.

ثم قلت للصحفيين: نحن اليوم نواجه رجلًا جديدًا، فعندما يقوم رئيس دولة بمواجهة المتحفظ عليهم سياسيًا، فإن ذلك يقتضى شجاعة أدبية كبيرة، هذه حالة نادرة فى العالم الثالث وحتى فى العالم الأول، خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار الصورة التى نقلت عنا سواء كانت خطأ أم صوابًا.

5

مضت خمسة أيام ثم تلقيت مكالمة من مكتب الرئيس يقول فيها سكرتيره الخاص، السيد جمال عبدالعزيز، أن سيادة الرئيس يدعوك إلى الإفطار معه فى الساعة الثامنة صباح بعد غد، وقد اختار موعدًا مبكرًا لأن معلوماته أنك تستيقظ مبكرًا، وهو فى ذلك مثلك يحب أن يبدأ النهار من أوله.

أضاف محدثى أن سيادة الرئيس أمر بإبلاغى أننى المدعو على الإفطار وحدى.

وزاد محدثى بسؤال إذا كان يستطيع الاتصال بمكتبى ليحصل على رقم سيارتى حتى يسمح لها الأمن بالدخول إلى حرم البيت.

عندما تلقيت دعوة الإفطار مع الرئيس الجديد، كان فى زيارتى بمصادفة صديقان قديمان، وهما الدكتور أسامة الباز

والأستاذ منصور حسن، وكلاهما يعرف مبارك معرفة دقيقة.

فأسامة الباز أقرب المستشارين إليه.

ومنصور حسن زامله وزير دولة لشئون الرئاسة فى السنة الأخيرة لحكم السادات، وكان مبارك نائبًا للرئيس، وبين الاثنين نائب الرئيس ووزير الدولة لشئون الرئاسة علاقات ملتبسة كثرت حولها الأقوال والروايات.

وقلت للاثنين: يظهر أننى سوف أقابل الجديد بعد غد، وهذا رجل لم أره إلا فى مصادفات على عكس كليكما، فكل منكما عمل معه عن قرب، وتعرف على جوانب شخصيته.

وأضفت: إننى لا أريد علاقة وثيقة مع رئيس دولة آخر فى مصر، فقد أخذت نصيبى من هذه العلاقات مع جمال عبدالناصر من أول يوم إلى آخر يوم من دوره السياسى، ونفس الشىء طوال السنوات الأربع الأولى من رئاسة أنور السادات حتى اختلفنا فى إدارته السياسية لحرب أكتوبر، وأنا لم أعد أريد لا صداقات ولا عداوات مع رئيس دولة جديد فى مصر، وما أريده هو أن أحتفظ بحقى فى إبداء رأيى، ومن موقع الصحفى والكاتب وليس أقل ولا أكثر.

وقلت لهما هذه فرصة أسألكما: كيف أتعامل مع صاحبكما فى هذه الحدود، خصوصًا وأننى كما قلت أعرف دواعى التزامه بسياسات لا أعتقد فى صحتها، ومن ناحية ثانية فإننى أراه أمامى شخصية أعقد بكثير من انطباع عام لدى الناس أشاع عنه نكتة (البقرة التى تضحك) بينما هو فى ظنى شخصية أكثر تعقيدًا.

رد أسامة الباز على الفور بأننى على صواب فى طرح حكاية البقرة التى تضحك جانبًا، لأنها بالفعل تبسيط لشخصية مركبة.

واستطرد أسامة قائلًا إنه يعرفنى جيدًا، وقد كان فى هيئة مكتبى عندما كنت وزيرًا للإعلام ووزيرًا للخارجية، ثم اختار أن ينتقل معى إلى الأهرام بعد انتهاء مهمة وزارية محددة

المدة والهدف، ثم ظل معى فى الأهرام حتى تركته بعد الخلاف مع الرئيس السادات، فعاد إلى الخارجية مستشارًا فى مكتب وزيرها إسماعيل فهمى.

وقال أيضًا: إننى عملت معك وعملت مع الرئيس مبارك أيضًا، منذ كلفنى الوزير إسماعيل فهمى لأكون مستشارًا منتدبًا من وزارة الخارجية معه كنائب للرئيس، خصوصًا أن السادات راح يكلفه بمهام فى الإقليم وفى اتصالاتنا الخارجية، هكذا فإن لى معه الآن أكثر من اثنى عشر عاما.. وإذن فأنا أعرفك.. وأعرفه.

ومضى أسامة: أكرر أنه من الصواب أنك استبعدت تماما حكاية (البقرة الضاحكة).. وإذا طلبت رأيى بعد ذلك فلدى أولًا ملاحظتين فى المنهج.

أولهما: لا تتطرق فى الحديث معه إلى أى قضية فكرية أو نظرية، فهو ببساطة يجد صعوبة فى متابعة ذلك، لأنه أقرب إلى ما هو عملى منه إلى ما هو فكرى أو نظرى، وإذا جرت معه محاولة للتبسيط بالشرح، فإنه سوف يشرد من محدثه، ويتوقف عن المتابعة.

والثانية: أننى أعرف أسلوبك فى الحديث، تستطرد فيه أحيانًا، ثم تذهب إلى خاطر يلوح أمامك، ثم تعود إلى سياقك الأصلى بعده، لكن مبارك لن يتابعك فى ذلك، كلمه فى موضوع واحد فى المرة الواحدة، ولا تدع الموضوعات تتشعب وإلا فسوف تجد نفسك تتكلم بعيدًا وهو ليس معك.

وأضاف: تذكر أنه سمع كثيرا- أكثر مما تتصور- عنك من الرئيس السادات، وكثيرًا ما سألنى كيف كانت صداقتك مع الرئيس السادات بهذا القرب، ثم كان خلافكما إلى هذا الحد؟ وذلك موضوع أثار فضوله، خصوصًا وأنه كان يعرف عمق صداقتك مع الرئيس عبدالناصر، وكانت درجة هذه الصداقة تبهره، وقد حكى لى أنه تابعك أثناء عملية تحريك حائط الصواريخ إلى الجبهة، عندما كنت وزيرًا، وأنه أحس من كل ما تابعه أنك تتصرف دون أن تنظر وراءك، وهذا يعنى أنك

تقف على أرضية جامدة جدًا.

ثم وصل أسامة ثانيًا إلى ملاحظتين فى الأسلوب إضافيتين: هو رجل يعرف قوة السلطة حيث تكون، وهذا مفتاح ثالث لشخصيته، ومفتاح آخر قدرته على الاحتفاظ لنفسه بنواياه، ولذلك أرجوك ألا تحاول استكشاف فكره، لأنك سوف تستثير حذره، والحذر غريزة عنده مرتبطة بفهمه لقوة السلطة.

التفت ناحية منصور حسن وكان يتابع الحديث باهتمام وبابتسامة زاد اتساعها عندما جاء الدور عليه أسأله، وكان رده: كل ما سوف تسمعه لن يهيئك لما سوف تراه، والأفضل أن ترى بنفسك.

6

صباح يوم موعدنا السبت 5 من ديسمبر 1981، وصلت إلى بيته فى الموعد المحدد، وعبرت باب البيت من ردهة إلى صالون فى صحبة ضابط برتبة عميد، ولم أنتظر أكثر من دقيقة فى الصالون، حتى دخل مبارك مادا يده ومرحبًا بابتسامة طيبة وملامح تعكس حيوية شباب وطاقة.

قال على الفور وهو ما زال واقفًا: لا بد أنك جائع، فأنا أعرف أنك تستيقظ مبكرًا.

وقلت: بصراحة سيادة الرئيس إننى أفطرت فعلًا، ولكنى سوف أجلس معك وأنت تتناول إفطارك.

ضحك قائلًا: الحقيقة أننى أكلت شيئًا خفيفًا.

قلت له: إذن فلا داعى لإضاعة وقت على مائدة الإفطار، فلدى الكثير أريد أن أسمعه منك.

أبدى موافقته بعد تكرار سؤاله عما إذا كنت لا أريد أن آكل أى شىء مما جهزوه لنا، وكررت الشكر.

قال: إذن نطلب فنجانين من القهوة ونجلس.

قلت للرئيس مبارك فور أن جلسنا إننى فكرت بالأمس أن أطلب مكتبه راجيًا تغيير موعدنا، لأنى قرأت فى الصحف عن مشاورات يجريها لتعديل وزارى أعلن عنه، وقد خطر لى أن موعدى معه اليوم قد يحدث التباسًا وخلطًا لا ضرورة له بين لقاءاته فى إطار التعديل الوزارى، وبين لقاءاته العادية الأخرى وضمنها موعدى معه، وأول الضحايا فى هذا الخلط والالتباس سوف يكون فريق الصحفيين الذين يغطون أخبار رئاسة الجمهورية.

رد مبارك وهو يبتسم بومضة شقاوة فى عينيه: وماذا يضايقك فى ذلك.. اتركهم يغلطوا.

لم يتضح لى قصده، سألته، فجاء رده بما لم أفهمه فى البداية حين قال مشيرًا إلى الصحفيين: دول عالم لبط.

أبديت أننى لم أفهم المعنى واستنكر بطء فهمى فقال: لا تعرف معنى لبط؟.. هل أنت خواجة؟

أكدت له أننى أبعد ما أكون، وراح يشرح معنى لبط، ثم واصل شرحه: اتركهم يغلطوا حتى يتأكد الناس أنهم لا يعرفون شيئًا.

مرة ثانية لم يتضح لى قصده، ومرة ثانية سألته، ورد وعلى شفتيه ما بدا لى ابتسامة من نوع ما: إن الصحفيين يدعون أنهم يعرفون كل شىء، وأنهم فالحين قوى، والأفضل أن ينكشفوا أمام الناس على حقيقتهم وأنهم هجاصين ولا يعرفون شيئًا.

قلت: ولكن سيادة الرئيس هذه صحافتك، أقصد صحافة البلد، ومن المفيد أن تحتفظ لها بمصداقيتها، ولا بأس هنا من جهد لإبقاء الصحفيين على صلة بالأخبار ومصادرها.

رد بقوله: الدكتور فؤاد (يقصد رئيس وزرائه وقتها فؤاد محيى الدين) يقابل الصحفيين باستمرار، ويطلعهم على الحقائق، لكن بلا فائدة، هم يخبطوا على مزاجهم ولا يسألون

أحدًا.

قلت: ليس هناك صحفى يحترم نفسه تصل إليه أخبار حقيقية ويتردد فى نشرها.

ظل على رأيه: المسألة أنهم لا ينشرون، إما أن لهم مصالح خاصة وإما أنهم لا يفهمون.

تفضل بعد ذلك بما أظنه مجاملة، قال: محمد بيه أنت تقيس الصحفيين الحاليين بتجربة زمن مضى، ليس هناك صحفى الآن له علاقة خاصة بالرئيس.

كانت الإشارة واضحة.

قلت: إن جمال عبدالناصر كان متصلًا بكثير من الصحفيين، ثم إن هذا لا يمنع قيام صداقة مع أحدهم بالذات، ولكن المهم أن يكون إصبع رئيس الدولة على نبض الرأى العام طول الوقت.

انتقل والدهشة عندى تزيد قائلا: على فكرة نحن كنا نتصور أنك تجلس على حجر الرئيس جمال، لكن ظهر أن الرئيس جمال كان هو الذى يجلس على حجرك.

واستطرد: لم أكن أعرف أن العلاقة بينكما إلى هذا الحد حتى شرحها لى أنيس منصور.

استهولت ما سمعت وبان ذلك على ملامحى، وربما فى نبرة صوتى، حين قلت له: سيادة الرئيس أرجوك لا تكرر مثل ها الكلام أمام أحد، ولا حتى أمام نفسك.

أولا: لأنه غير صحيح.

وثانيًا: لأنه يسىء إلى رجل كان وسوف يظل فى اعتقادى واعتقاد كثيرين فى مصر وفى الإقليم وفى العالم قائدًا ورمزًا لمرحلة مهمة فى التاريخ العربى.

وأضفت: فيما يتعلق بى فقد كان يمكن أن يرضى أوهامى

أننى كنت كل شىء وقت جمال عبدالناصر، ولكن ذلك غير صحيح، لأن جمال عبدالناصر كان هو جمال عبدالناصر، وقد أسعدنى- ولا يزال- أننى كنت صديقًا له وقريبًا منه ومتابعًا لدوره وهو يصنع للأمة كلها تاريخا يمثل على الأقل لحظة عزة وقوة لها فى عالمها وعصرها، وأنا أقول ذلك بعيون مفتوحة، مدركًا أن تجربة عبدالناصر كانت إنسانية قابلة للخطأ أحيانا كما للصواب، كما أنها ليست أسطورية معصومة بالقداسة، لأن ذلك غير إنسانى، وهذه هى الحقيقة.

قاطعنى: أنا أعرف كم كان الرئيس جمال شخصية عظيمة، وما قلته لك كلام أنيس منصور، وهو لم يقله لى فقط، وإنما نشره أيضًا، أما أنا فلم أقل من عندى إلا ما قلته أنت فى وصف علاقتك به، من أنك كنت صديقًا له وقريبًا منه، هذا ما قصدته، وقصدت أنك تعرف كل شىء، بينما الصحفيون الآن لا يعرفون.

وقلت: إن علاقتك بالصحفيين فى عهدك اختيارك، ولك أن توصفها كما ترى، لكنى أتمنى لو استطعت أن تسهل على الصحافة أن تعرف أكثر، لأن تلك مصلحة الجميع وأولهم سيادتك شخصيًا.

وظل على رأيه لم يغيره وأكثر من ذلك فإن رده علىّ كان بقوله إنه إذا عرف الصحفيون أكثر فسوف يتلاعبون به.

قلت فى شبه احتجاج: سيادة الرئيس أنت تسىء الظن بإعلامك، وأنا أعرف بعضًا من شيوخ المهنة وشبابها، وأثق أنهم لن يتلاعبوا فى أخبار، فضلًا عن أسرار.

7

انتقل مبارك إلى خلافى شخصيًا مع الرئيس السادات.

قال: كثيرًا ما استغربت، فانا أعرف أنك وقفت معه جامد فى أول ولايته، ثم وقفت معه أجمد فى معركة مراكز القوى، وكنا جميعًا نعرف أنك موضع ثقته، وقد رأيت ذلك بنفسى فى القيادة أثناء الحرب.

وأضاف أنه عرف أننى كاتب التوجيه الاستراتيجى الذى صدر للمشير أحمد إسماعيل بتحديد أهداف حرب أكتوبر، وهذا فى رأيه قمة الثقة، ولهذا فاجأه خلافى مع الرئيس حول فك الارتباط، لكنه لم يقرأ ما كتبت عنه، هو يعرف أن الخلاف وقع، لكنه لا يعرف لماذا؟

استدرك ضاحكًا: لا تزعل يا محمد بيه إذا قلت لك إننى لم أكن أقرأ مقالاتك رغم أننى أسمع أن كثيرين يقرأونها، ولا أخفى عليك أننى كنت أمنع ضباط الطيران من قراءتها.

قلت بعفوية: ياه.. لعل السبب خير.

قال: ما كان يحدث أن مقالك بصراحة ينشر فى الأهرام يوم الجمعة، ثم يجىء الضباط يوم السبت وقد قرأوه، وكلهم متحفزين لمناقشته، وكثيرًا ما كانوا يتخانقون وأنا لا أريد فى السلاح خناقات ولا سياسة.

وأضاف: أما عنى أنا، فقد كنت لا أقرأ مقالاتك لأنى عندما حاولت لم أفهم ماذا تريد أن تقول فى نهاية المقال، وبصراحة (على رأيك).. مقالك دائما ينتهى دون أن نرسى على بر ولا نعرف بعده نتيجة.

قلت: سيادة الرئيس هناك مدرسة فى الكتابة لا ترى أن النتيجة واجب الكاتب، وإنما واجبه معلومات صحيحة واجتهادات فى التحليل واسعة، واختيارات فى المسالك المتاحة للحل مفتوحة، ثم يكون للقارئ أن يختار ما يقنعه، بمعنى أننى لا أريد أن يكون ما أكتبه مقفولا على نتائج معلبة، وإنما أفضل أن أترك للقارئ حريته بمعنى أن تبدأ علاقته بالمقال بعد أن ينتهى من قراءته، وليس حين يهم بقراءته، لأن هدفى تحريضه على التفكير وهو يقرأ، ورجائى أن يصل بتفكيره إلى حيث يقتنع.

قال: يا عم ما الفائدة إذن أن يقرأ الناس لكاتب كبير؟ لابد أن يرسيهم على بر.

قلت: أنا أريد للقارئ أن يرسو على بره هو وليس على برى أنا.

علق بابتسامة مرة أخرى قائلًا: يعنى عاوز تدوخ الناس يا أخى، قل لهم وريحهم.

اختصرت قائلًا: على أى حال هناك مدارس متعددة فى الكتابة.

عاد مبارك إلى سؤاله عن العلاقات بين الرئيس السادات وبينى، فقال: الغريب جدًا أننى أحسست أن علاقته بك كانت (عقدة محبة وكراهية فى نفس الوقت).. هو بالحق كان يتحدث عنك بالتقدير، لكنه يأخذ عليك أنك تريد أن تفرض عليه رأيك.

قلت مستغربًا: سيادة الرئيس كيف لصحفى أن يفرض رأيه على رئيس الدولة، رئيس الدولة عنده السلطة كلها، وأدواتها تحت يده، فكيف أستطيع أنا أو غيرى من الكتاب والصحفيين أن نفرض شيئًا عليه، ربما يفرض عليه قائد جيش لديه سلاح، أو رئيس حزب لديه تنظيم، أو وزير داخلية عنده بوليس، أما الصحفى فلا يملك غير عرض وجهة نظر ولا أكثر، وهو يضعها أمام الرأى العام إما أن يأخذ بها أحد أو يعرض عنها، فتلك مسألة أخرى خارج قدرة أى صحفى.

ثم قلت: العكس هو الصحيح فيما أظن، فرئيس الدولة هو فى العادة من يريد فرض رأيه على الصحفى وهنا المشكلة.

8

على مقربة من نهاية اللقاء قال الرئيس مبارك: هناك موضوع كنت أريد أن أكلمك فيه، ثم استطرد قائلًا برقة بادئًا بكلام كريم، لكن نبرة العتاب تشيع فيه: الرئيس أنور تعب معك حتى تتعاون معه.

وسألته: كيف يستطيع أحد أن يتعاون فى سياسة لا يؤمن بها؟

قال: تستطيع أن تساعد دون أن تتعامل مع إسرائيل.

وقلت: إن منصب الوزارة عرض علىّ من سنة 1956، وكنت ما أزال شابًا قد تغريه المناصب، وقد تكررت بعد ذلك عروض الرئيس عبدالناصر، وتكرر اعتذارى حتى اضطررت أوائل عام 1970 إلى القبول لمدة محددة ومهمة معينة، ثم إن الرئيس السادات عاد بعد ذلك فعرض على منصب نائب رئيس الوزراء، أو رئيس الديوان السياسى.

وقال: أعرف ذلك.. ولم أقصد أن أحدثك عن منصب.

أسألك سؤالًا صريحًا ومحددًا- قالها وهو يتطلع إلىّ مركزًا: ما رأيك أن تدخل الحزب الوطنى؟

وبدا أننى أصبت برعب، وقلت له: إننى لم أدخل الاتحاد الاشتراكى مع جمال عبدالناصر رغم عمق صداقتنا ورغم إلحاحه مرات، لأننى لا أعتقد فى هذا النوع من التنظيمات السياسية التى تقوم فى حضن السلطة، وفضلًا عن ذلك فلست من أنصار أن ينتمى الصحفى حزبيًا.

سكت قليلًا ثم سألنى: إذا لم تكن تفكر فى دخول الحزب، فماذا تنوى أن تفعل؟

أضاف: لا يعقل أنك سوف تجلس فى بيتك ساكتًا.

وقلت ضاحكًا إنه ليس له أن يقلق، فأنا لا أنوى الانضمام إلى قائمة المتعطلين الذين يبحثون عن عمل.

وأضفت: لدىّ عقود لكتب جديدة مع الناشرين فى لندن ونيويورك بعد ستة كتب سبقت، ترجمت جميعًا من الإنجليزية إلى لغات كثيرة، وآخرها كان كتاب (عودة آية الله) عن الثورة الإيرانية، وقد صدر لى فى أوروبا وأمريكا أثناء وجودى فى السجن، وقد ترجم حتى الآن إلى سبع عشرة لغة، ثم إنه فور خروجى من السجن اتصل بى أندريه دويتش وهو أكبر الناشرين فى لندن، وسألنى إن كان فى استطاعتى أن أقدم لهم بسرعة كتابًا عن السبب الذى دعا

إلى اغتيال السادات، وهو فى رأيهم بطل السلام، وقد قبلت عرضه وذلك ضمن ما سوف أناقشه فى سفرية قريبة إلى لندن؟

جاءنى تعليقه مفاجئًا: لم أكن أعرف أن الكتب شغلانة كويسة.

قلت: إننى لا أعرف تصوره لـ(الشغلانة الكويسة) لكن الكتابة بالنسبة لى حياتى كلها.

وعاد يسألنى: ولكن ألا تفكر فى العودة للصحافة المصرية؟

قلت: إن ذلك بعيد عن تفكيرى تمامًا، فقد اعتبرت أن دورى فى الصحافة المصرية انتهى بخروجى من الأهرام، وأؤثر أن أترك المجال لآخرين، وكذلك لأجيال أخرى.

وجدها فرصة يعود بها إلى اقتراحه، فقال: خسارة ألا يستفيد منك البلد.

سألته ألا يرى فى وجود صحفى وكاتب مصرى فى مجال النشر الدولى فائدة للبلد؟

شرحت له بعض التفاصيل عن حجم النشر الدولى، سواء فى الكتب أو فى الصحف، وبالتحديد عندما يقع الجمع بين الاثنين، فيصدر كتاب، ثم تنشر فصول منه فى آلاف الصحف على اتساع العالم.

رد بأنه ما زال يرى أن أنضم إلى الحزب الوطنى، والمجال فيه بلا حدود.

قلت: أنت تريد أن تضمنى إلى الحزب الوطنى، أنا وغيرى نريدك أن تخرج منه.

سألنى عن السبب، وهل الأحزاب بعبع أو أنها وسيلة العمل السياسى؟

قلت: الصحفى بصفة عامة يتعامل مع الأخبار، والأخبار

لها استقلالها، وتلوينها بظلال التحزب، مخالف لقيمتها ومصداقيتها.

واصلت الحديث ولعله يتذكر يوم جئناه من المعتقل أنه سمع بعضنا يناشدونه مباشرة لترك رئاسة الحزب الوطنى، وقلت إنه فى العادة وفى النظام الرئاسى بالذات فإن الرئيس حتى وإن كان منتميًا إلى حزب، يجمد انتماءه لهذا الحزب فترة رئاسته.

قال بلهجة قاطعة: لو تركت الحزب فسوف يقع.

قلت: إذن فإن الحزب لا وزن له فى حد ذاته، وهو يستمد وجوده من السلطة، وليس من الناس، وهذا هو الخطر.

قال: تخوفك من الحزب الوطنى مبالغ فيه، ووجودى فيه ليس المشكلة، المشكلة فى العمل التنفيذى، فى الحكومة وأنت تعرف حجم المشاكل، وزاد علينا خطر الإرهاب، والناس تطلب لبن العصفور، ولا بد من الاستقرار قبل أن نستطيع عمل أى شىء، والجماعات الإرهابية كامنة، وتنتشر تحت الأرض.

بدورى قاطعته: والنظام يساعدها.

استغرب ما قلته وهو يسألنى: النظام يساعدها كيف؟

قلت له: هناك بالطبع المشاكل الاقتصادية والاجتماعية، وهذه مشاكل ثقيلة، لكن هناك أشياء أخرى منها كثرة البرامج الدينية البعيدة عن قيم الدين، وكثرة الفتاوى فيما لا علاقة له بروح الدين... كل هذا يسىء، لكن كله يشحن.

وزدت فقلت: إننى سألت أحد زملائنا القدامى فى مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية فى الأهرام، أن يدرس مساحة البرامج الدينية على الإذاعة والتليفزيون، وفوجئت حين قيل لى إن نتائج بحثه فى الموضوع، أظهرت أن أكثر من 27% من مساحة البرامج دينية، أو ذات طابع دينى، وأنا رجل من أسرة متدينة، وأعرف قيمة الدين هداية وعصمة،

ثم إننى من أسرة كان أول تقاليدها أن يحفظ أبناؤها القرآن، وقد حفظه كله، لكنى لا أستطيع أن أتصور بعض ما يقال فى البرامج الدينية.

أضفت آسفًا: إننى سمعت بنفسى من إذاعة القرآن الكريم من القاهرة، وفى معرض برنامج من برامج التواصل مع السامعين، سائلًا يستفسر عن كيفية الاغتسال بعد ممارسة الجنس مع بقرة، وبقدر ما أفزعنى السؤال، فقد أفزعنى أكثر أن أحد الشيوخ جاوب عليه، وراح يحدد لسائله وسائل الاغتسال المطلوبة فى تلك الحالة.

وأغرق مبارك فى الضحك، ثم قال: التوسع فى البرامج الدينية ضرورى، لأننا لا بد أن نواجه الإرهابيين على أرضيتهم، ونأخذ منهم الناس.

قلت: المشكلة أنك إذا واجهت الإرهابيين على أرضيتهم، وبهذه الطريقة، فسوف تقبل الاحتكام إلى قانون لا تعرف مصدره، ولا تعرف نصه، ولا تعرف قاضيه.

وتوقف عند هذا التعبير وبدت عليه الحيرة وقال لى: هل يمكن أن تفك لى هذا الكلام الملعبك؟

وحاولت شرح وجهة نظرى بأسلوب آخر!!

وقال وهو يعاود الضحك: هل على أنا أيضًا أن أهتم بالرجل الذى يعشق (استخدم لفظًا آخر غير العشق) بقرة؟

وقلت له بسرعة: لا أحد يتصور أن يطلب منك ذلك، ولكن الناس تطلب رؤية للمستقبل مقنعة.

9

رحنا نمشى نحو الباب، ولمح مبارك مصور الرئاسة المشهور، الأستاذ فاروق إبراهيم، يتحرك من بعيد، والتف نحوى قائلًا: دعنا نلتقط صورة معًا، وقلت للرئيس صراحة: إننا نستطيع أن نستغنى عن الصورة، وربما كان ذلك أفضل.

ووقف فى مكانه وتطلع إلى وهو يعلق: غريبة.. الناس يجئيون إلى مقابلتى وليس لديهم غرض إلا هذه الصورة.

وقلت: إننى كنت أقابل جمال عبدالناصر مرتين وثلاث مرات فى الأسبوع، وكذلك السادات وكانت اتصالاتنا التليفونية عدة مرات كل يوم، ومع ذلك لم تنشر صورة للقاء، ولا خبر عن اتصال تليفونى، وأنا لا أفهم بدعة نشر أخبار أو صور لقاءات الصحفيين مع الرئيس، لأن هذه طبائع أشياء، وطبائع الأشياء ليست خبرًا.

تدارك قائلًا: والله لك حق، إننى أقابل كل الناس ولا يحدث شىء، لكنهم عندما عرفوا أننى سأقابلك، ولعت اللمبة الحمراء فى الصحافة وفى الحكومة وفى الحزب.

لم أملك نفسى، فقلت: سيادة الرئيس هل هناك بالفعل حزب؟

وهز رأسه قائلًا: أنت مصمم على رأيك فى الحزب، الحزب مهم فى الاتصال بالناس وفى تمرير القرارات. ولفتت الكلمة الأخيرة نظرى.

10

فى سبتمبر 1982 تفضل الأستاذ مكرم محمد أحمد وطلب منى أن أكتب للمصور فى إطار مناسبات تجمعت مع بعضها: سنة من رئاسة حسنى مبارك، وسنة من التحولات والتغييرات خلالها، وسنة بعد خروجنا من السجن.

وفكرت ثم اخترت أن أكتب ما أريد على شكل خطابات مفتوحة موجهة إلى الرئيس حسنى مبارك، وكذلك بدأت الكتابة أوائل أكتوبر 1982، وفرغت من ستة مقالات اخترت أن أسلمها للأستاذ مكرم مرة واحدة، مجموعة متكاملة مترابطة مع أوائل نوفمبر 1982.

لكننى وأنا أعرف الأستاذ مكرم وأدرك دقة التزامه المهنى وأقدر تمسكه بالأصول المرعية، رجوته ملحًا ألا ينفرد فى

نشر هذه المقالات بقرار، فقد خشيت ان يتحمل بنشرها أكثر مما يلزمه، وأثقل مما أرضى له، ذلك أننى أستطيع عن نفسى قبول مخاطرة الطيران خارج السرب، لكنه من جانبه ليس مطالبًا بنفس المخاطرة.

ومضت ثلاثة أسابيع حتى تلقيت اتصالًا تليفونيًا من المستشار أسامة الباز مقترحًا أن يدعو نفسه على العشاء معى أى يوم هذا الأسبوع، وتحمست فالرجل زميل قديم، وبصرف النظر عن الزمالة الطويلة، فإن أسامة الباز ظل رغم تباعد المسافات رجلًا قادرًا على إقامة علاقات واسعة، محافظًا على جسور مفتوحة وطرق واصلة.

اتفقنا بالفعل على موعد للعشاء فى بيتى، وحين جاء لاحظت من أول نظرة أنه يتأبط رزمة كبيرة من الأوراق تعرفت عليها، لأنها كانت نفس الرزمة التى سلمتها داخل مظروف إلى الأستاذ مكرم محمد أحمد، أى مجموعة المقالات التى كتبتها للمصور.

وصحبت أسامة الباز إلى مكتبى فى نفس الطابق وهو ملاصق لسكنى، كى يتخلص على الأقل من حمولته، سواء فى ذلك رزمة المقالات التى يحملها تحت إبطه أو أى طلب فى شأنها ينتظر على طرف لسانه قبل أن نجلس إلى مائدة العشاء.

ولم يكن هناك داع لمقدمات، لأن رزمة الأوراق التى استقرت أخيرًا على مكتبى طرحت موضوعها وملخصه: إن هناك خشية أن النشر قد يسبب حرجًا فى هذه الظروف وقتها، وإن هناك رجاء بتأجيل النشر خارج مصر كما فى مصر أيضًا، وإن الأمر فى النهاية متروك لى.

لم يأخذ الموضوع منى تفكيرًا يقصر أو يطول، بل صدر ردى عفويًا وطوعيًا مضمونه: إننى آخر من يريد أن يتسبب فى إحراج من أى مقدار أو أى نوع فى هذه الظروف، بالتالى فسوف تنام هذه المقالات فى درج مكتبى، حديثًا مؤجلًا إلى يوم آخر، وفى خارج مصر كما فى داخلها.

وأبدى أسامة دهشته قائلًا: يظهر أن الرئيس يعرفك أكثر منى، ذلك أننى حين عبرت له بمعرفتى الطويلة لك عن الشك فى قبولك لما نطلبه منك، رد على بقوله (اذهب وانقل عنى واترك الموضوع لتقديره)، والذى أدهشنى أنك استجبت بهذه السرعة، لكنه كما قلت لك يبدو أنه يعرفك أكثر منى.

ومرت الأيام ومضت 25 سنة كاملة.

وفى سبتمبر وأكتوبر 2003 ورد حديث هذه المقالات الستة المحجوبة مع مناسبة (استئذانى فى الانصراف) عن الكتابة المنتظمة فى ذلك الوقت، ثم تكرر الكلام وزاد وتداولته وتناولته الألسنة- سؤالا وجوابا- فى حوارات صحفية وتليفزيونية.

وخطر لى وقتها أن ذلك اليوم الآخر ربما جاء أوانه.

وبقى ظنى خلال ذلك أننى التزمت بما وافقت عليه إلى الحد الذى كان مرغوبًا فيه وزيادة، فلم أكن فى المرتين- عندما حجبت المقالات وعندما نشرتها- أريد إحراجًا من أى درجة لأى طرف، ذلك أن محاولتى باستمرار موصولة بالتزام حد الأدب، ومعه حد الواجب، الأول يفرضه شرط الأخلاق، والثانى يفرضه شرط الحقيقة.

11

زارنى الأستاذ فؤاد سراج الدين يريدنى أن أسمع شريطًا مسجلًا وصل إليه لخطاب ألقاه وزير الداخلية وقتها اللواء زكى بدر أثناء مؤتمر شعبى فى قليوب، وسمعت الشريط وإذا بوزير الداخلية يكرس فقرات طويلة من خطابه للهجوم على رئيس حزب الوفد، ثم يتجاوز بالسب والقذف إلى أصول العائلة وجذورها، وكان فؤاد سراج الدين مستفزًا وهو يحكى لى وقائع ما جرى.

اتصلت وفؤاد سراج الدين أمامى بأسامة الباز وكان فى مكتبه بوزارة الخارجية القديم، أسأله إذا كان يستطيع أن

يمر علينا، وهو على بعد خمس دقائق بالسيارة من مكتبى، وبالفعل جاء أسامة وسمع بنفسه رواية سراج الدين وتعهد بأنه سوف يأخذ الشريط إلى الرئيس، وهو يثق أنه لا يرضى بإهانة أحد، خصوصا رجلًا فى مقام فؤاد باشا.

وبعد يومين اتصل بى الرئيس مبارك بنفسه على التليفون، يقول إنه عرف بما وقع وحقق فيه، وأنه طلب من زكى بدر أن يعتذر لفؤاد سراج الدين، وأن وزير الداخلية نفذ الأمر، وهو يطلب اعتبار الموضوع منتهيًا.

وأضاف مبارك أن زكى بدر حاول أن يلف ويدور معه، مدعيًا أن شريط التسجيل مزور، ولكنه لم يعطه الفرصة، ثم راح مبارك يروى ما جرى بعد ذلك.

وطبقًا لروايته اتصل به زكى بدر وأبلغه أنه اعتذر فعلًا لسراج الدين- وبأمر الرئيس- رغم أنه ما زال مصرًا على أن الشريط مزور.

وسأله مبارك: هل قبل فؤاد سراج الدين الاعتذار؟

وكان الرئيس مبارك يضحك وهو ينقل لى ما سمعه من وزير الداخلية زكى بدر، الذى رد عليه قائلًا: سيادة الرئيس أنت تعرف فؤاد سراج الدين هذا النوع من الناس لا يمكن إقناعهم، فهم (....) وكلها شتائم أقذع مما قال فى الشريط.

واستطرد مبارك: تصور أنه وهو ينكر فى كلامه معى كرر السب والقذف بأشد مما قاله علنا و(.....).

ولم أتمالك نفسى فأبديت ملاحظة تساءلت فيها: هل هذا معقول؟

وكانت المفاجأة أن الرئيس مبارك رد بقوله: أنت لا تعرف زكى بدر لسانه مفلوت و(.....)، وكانت كلمات الرئيس فى وصف وزير داخليته أصعب مما قاله زكى بدر عن سراج الدين، ولاحظ مبارك بسكوتى أننى مأخوذ مما سمعت منه أيضًا، ثم كان تعليقه الأخير: (لا مؤاخذة يا محمد بك) يظهر

أن الكتابة تعلمكم الشعر ولا تعرفكم على الدنيا وما فيها.

12

لقيت الملك حسين ملك الأردن فى القاهرة، وكان قد جاء إليها بعد ما بدا من هدوء بعد عاصفة الاغتيال، ولم يدهشى أن الملك أشار بيده إلى سقف صالون القصر الذى ينزل فيه، ويقترح: دعنا نخرج إلى الحديقة نتمشى، فأنا لم أمارس أى رياضة هذا الصباح.

خرجنا وكان الملك يريد أن يفضى إلىّ بما لم يشأ أن يقوله داخل جدران القصر، ولم ينتظر طويلًا عندما وصلنا إلى الهواء الطلق، وراح يتحدث عن مبارك وخشيته: إنه لا يعرف ما يكفى عن علاقات مصر العربية ولا تاريخها السابق أو الجديد، ولم يقرأ الملفات، وإذا كان قرأها فهو لم يستوعبها.

وأضاف الملك حسين أن الرجل لم يتغير منذ رآه لأول مرة وهو نائب للرئيس يحمل إليه رسالة من السادات.

وراح الملك ونحن نمشى بين الأشجار يقلد الرئيس مبارك عندما جاءه أول مرة نائبًا للرئيس، وبرسالة منه، ويقلده وهو يفتح حقيبته، ويستخرج ملفًا منها، وطبقًا لرواية الملك، فإن مبارك عند بعض النقط لم يستطع شرح المقصود من الرسالة، ودقق نائب الرئيس فى أوراقه، وبدا عليه الارتباك، ثم قال: لا أعرف.. ولكن هذا هو المكتوب أمامى، وعندما أعود إلى القاهرة فسوف أسأل الرئيس السادات عن مقصده، وأرجوه أن يكتب إليكم.

وعقب الملك حسين أنه لم يستطع أن يفهم هل محدثه نائبًا لرئيس الجمهورية أم حامل حقيبة يلتزم بأوراق كتبها بخطه، ومع ذلك لا يستطيع شرحها.

وكان ردى على الملك حسين بأن الرجل- أقصد مبارك- ورث أوضاعًا معقدة ومعظمها مشاكل عويصة وخطيرة، ومن الحق أن تترك له الفرصة.

13

تعرضت سنة 1986 لمشكلة صحية، وعادنى الدكتور عبدالجليل مصطفى، وأبدى رأيه بأننى فى حاجة إلى إجراء فحص طبى على القلب، وأننى ربما أحتاج إلى تغيير شريان أو اثنين من شرايين القلب، واقترح الدكتور عبدالجليل أن أذهب إلى هيوستن- تكساس، حيث أشهر مراكز جراحات القلب، وكان رأى الدكتور عبدالجليل واضحًا بأنه لا يقطع ولا يؤكد حاجتى إلى الجراحة، لكن ما يقطع به هو ضرورة الفحص والمراجعة، وبعدها يكون القرار، وبدأت أتخذ إجراءات السفر إلى هيوستن.

زارنى أسامة الباز وعلم منى بنية السفر، وفى اليوم التالى جاءنى اتصال من الرئيس مبارك، وسمعت صوته على الخط يقول بلهجة يشيع فيها الود أن أسامة أخبره أننى أرتب لسفرية علاج، وأنه يخشى أن يكون: أطباؤك خوفوك.

ثم أضاف: تحت أى ظرف من الظروف لا تذهب إلى هيوستن، فهذه المستشفيات فى تكساس سلخانات وليست مستشفيات، وعندما تصل عندهم سوف تجد نفسك على سرير، والسرير فى طابور، والطابور متجه إلى غرفة العمليات، ولن يفحصك أحد، وسوف يجرون لك الجراحة، وبعدها ربما يفحصون، وهذا أسلوبهم، وأنا أقول لك لا تذهب.

وقلت مقدرًا للرجل حرصه واهتمامه: إن أطبائى لم يقطعوا بحاجتى إلى الجراحة، لكنهم طلبوا الفحص والمراجعة قبل الجراحة.

وأصر الرئيس مبارك: أبدًا أنا أقول لك إنهم هناك لا يفحصون، وإنما كل مريض على سرير، وكل سرير له دور فى الطابور، والطابور كله فى اتجاه واحد إلى غرفة العمليات.

رحت أضحك من الصورة التى يرسمها مبارك، مع إحساس بالعرفان لمشاعره، ولاحظ ترددى، وقاطعنى أنه يرجو ألا أقرر الآن شيئًا، لأنه سوف يرسل إلى طبيبه الخاص وبعدها نتكلم.

وأعترف أننى وجدت وقتها على مكتبى مشروع مقال كنت أنتقد فيه بعض سياسات مبارك، وبردة فعل طبيعية أزحت الأوراق، وفى شعورى أنه لا يعقل أن أكتب نقدًا لرجل يتصرف معى بهذه الرقة.

14

تعاقدت مع دار (هاربر كولينز) لإصدار ثلاثة كتب عن الشرق الأوسط، وسألنى رئيس مجلس إدارتها (إيدى بيل) إذا كنت مستعدًا لبدئها عن تلك الحرب فى الخليج، ووافقت، وبدأت العمل، ونشرت بعض الصحف فى مصر وخارجها أننى أكتب كتابًا اخترت له عنوان (أوهام القوة والنصر).

وذات صباح فى مكتبى اتصل بى الرئيس مبارك بعد فترة انقطاع طويل، وبادر فسألنى دون مقدمات تقريبًا أنه قرأ فى إحدى الجرائد أننى سوف أذهب إلى عمان لمقابلة الملك حسين لأننى أكتب كتابًا عن حرب الخليج.

وقلت للرئيس: إن ما قرأه صحيح.

وسألنى الرئيس: لماذا الملك حسين؟

وقلت: سوف أقابل كثيرين غيره، ولكن المسألة فيما يتعلق بالملك حسين أنه الرجل الذى بقى منذ غزو الكويت حتى ضرب العراق على اتصال بكل أطراف الأزمة، فقد ظل على صلة بصدام حسين وجورج بوش ومارجريت تاتشر دون انقطاع.

وقال الرئيس مبارك معترضًا: أنت على خطأ فى ذلك، لأن حسين لم يكن الطرف الذى بقى على اتصال بالجميع حتى آخر لحظة، وإنما كنت أنا الذى ظل على اتصال بالجميع من أول لحظة حتى آخر لحظة.

وواصل الرئيس مبارك كلامه قائلا: والملك حسين سوف يكذب عليك وأنت تعرف ذلك.

ومع أن عبارته أدهشتنى فقد قلت: إنه من حق الملك أن يقول ما يشاء، وعلىّ أن أفرز ما أسمع وعلى أى حال فإن الملك أبلغنى عن طريق رئيس ديوانه بأنه رغبة منه فى إطلاعى على الحقائق كاملة فسوف يفتح أمامى كل الملفات دون تحفظ أطلع فيها على ما أشاء.

وعلق الرئيس بما يعرف عن اهتمامى بالورق، ثم أضاف أنه بالقطع لا يعترض حقى فى مقابلة من أشاء.

بعد عودتى إلى القاهرة بثلاثة أيام تلقيت اتصالًا من الرئيس مبارك بدأه بغير مقدمات: هل كذب عليك (الملك حسين) وروى لك ما يشاء لكى يبرر موقفه؟

ولم ينتظر بل استطرد أنه سوف يفاجئنى بما لم أتوقعه، فقد تأكد له غرامى بالوثائق، أبحث فيها عن صورة الوقائع بنفسى، وقد قرر أن يطلعنى على أوراق الرئاسة السرية، وسوف يسمح لى بقراءة ما أشاء منها، شرط عدم تصويرها.

ثم واصل مبارك: أليس مصطفى الفقى (سكرتير الرئيس للمعلومات) صديقك؟

قلت: صحيح.

قال: سوف أبعث مصطفى الفقى إليك ومعه الملفات، تطلع عليها فى حضوره، وكلما فرغت من جزء منها عاد إليك بجزء جديد، حتى تستوفى ما تريد.. ما رأيك؟

شكرت الرئيس مبارك بصدق على اهتمامه، ولم يمض نصف ساعة إلا واتصل بى الدكتور مصطفى الفقى ليقول إن الرئيس أمره بأن يطلعنى على الملفات السرية للرئاسة فى حرب الخليج، واتفقنا على أن يمر على فى مكتبى غدًا فى الساعة الواحدة بعد الظهر، ثم ينزل حتى يلحق بالإفطار، وكنا فى شهر رمضان.

جاء الدكتور مصطفى الفقى فى موعدنا المتفق عليه، ومعه مساعد له يحمل حقيبة جلدية كبيرة متخمة بالملفات وراح

وهو يفتحها جالسًا أمامى يقول: إن التعليمات لديه أن أقرأ ما أريد، ولكن لا أصور شيئًا.

وبدأ فاستخرج رزمة من مسيرات الرئاسة وهى الدفاتر التى تسجل ضمن ما تسجل اتصالات الرئيس وما يتم تحريره فيها بعد هذه الاتصالات.

وانهمكت فى القراءة، والدكتور مصطفى الفقى جالس أمامى يتابع ملامحى مرات، ثم يقلب ملفات الحقيبة الجلدية مرات أخرى، أو يبدى ملاحظة مرحة سريعة، لكن الرجل بيقظة سياسى خبير أحس بشعور يراودنى، وأنا أقلب أوراق أحد الملفات وأستعرض محتوياته بسرعة، وبدأ ينظر فى ساعته، وموعد المغرب يقترب، وهو مدعو للإفطار على مائدة أحد أصدقائه كما قال.

وقررت اختصار الطريق، فقلت له بصراحة: إننى أفضل ألا أواصل قراءة هذه الأوراق، وهو يستطيع أن يأخذها معه الآن، وأظننى سوف أكتفى بما قرأت، لا أطلب مزيدًا عليها يحمله إلى كل يوم.

بدت نظرة تساؤل فى عينى الدكتور مصطفى الفقى وانعكست بسرعة على ملامح وجهه، وقد أراد استيضاح موقفى، وقلت بصراحة: إن ما قرأت من مسيرات الرئاسة، جعلنى أشعر أن هذه المسيرات مكتوبة بأثر رجعى، أى بعد الحوادث وليس أثناءها، وهذا يفقد المسيرات قيمتها، لأن الأهمية القصوى للمسيرات أن يكون تسجيلها أولًا بأول، فإذا وقعت كتابتها- كما أحسست- بعد فوات الأوان، إذن فهى محررة بتوجيه لكى ترسم صورة معينة قد لا تكون موافقة لحقيقة ما جرى.

وسألنى الدكتور الفقى عما يدعونى إلى هذا الشك.

قلت بصراحة أيضًا: هذ ما شعرت به كرجل تعود النظر فى الوثائق.

وعاد الدكتور الفقى يسألنى: وماذا أقول للرئيس؟

قلت إننى أترك المشكلة لحصافته، لكنى أخشى إذا واصلت قراءة كل ما يحمله اليوم من أوراق، أو ما قد يحمله إلى غدا وبعد غد، أن أكون قيدت نفسى بمصدر لا أجده أمامى مقنعًا، وأنا أفضل أن أكتب ما أكتب مستندًا إلى ما أستطيع الوصول إليه راضيًا عن مصادره، أما إذا واصلت قراءة ما جاء به إلى ولدى شكوك فيه، فإن قراءتى له سوف تضع على قيدًا ربما يلزمنى بما لم أقتنع به.

وأعاد الدكتور مصطفى الفقى أوراقه إلى الحقيبة الكبيرة، ودعا مساعده الذى كان ينتظرنا خارج مكتبى كى يجىء لحملها، ويسبق بها إلى السيارة ومشيت بعدها مع الدكتور مصطفى الفقى إلى باب المكتب، منتظرًا المصعد وفجأة وبصدق قدرته له- قال الرجل: أستاذ هيكل.. لا تعتمد فيما تكتب إلا على ما تثق فيه، ولا تسألنى أكثر من ذلك.

وفى اليوم التالى كان هو الذى يتصل بى يبلغنى أنه أخطر الرئيس بأننى اكتفيت بما قرأت مما حمل إلى من ملفات الرئاسة، وأن الرئيس سأله، وهو بناء على ذلك يسألنى: هل الكتاب سوف يعكس وجهة نظرنا أم وجهة نظر الملك حسين.

وقلت له بصراحة: لا وجهة نظركم ولا وجهة نظر الملك حسين، وإنما هو مثل أى كتاب يعكس جهد كاتب فى تقصى موضوعه، وهذا كل شىء.

15

كان آخر اتصال مباشر بين الرئيس مبارك وبينى بعد ظهر 2 ديسمبر 2003، وكنت فى بيتى الريفى فى برقاش، عندما قيل لى إن الرئيس مبارك على التليفون يريد أن يتحدث معى، وعلى نحو ما فإن تلك لم تكن مفاجأة لأنه سبقها ما مهد لها.

سبقها أن الأستاذ إبراهيم المعلم رئيس مجلس إدارة دار الشروق، اتصل بى من فرانكفورت حيث كان يحضر المعرض السنوى للكتاب، يقول: إنه يظن أن اتصالا تليفونيا هاما قد

يجرى معى الآن.

وتساءلت وكان التفصيل لديه أن وزير الثقافة الأستاذ فاروق حسنى اتصل به فى فرانكفورت يطلب منه رقم تليفون بيتى فى برقاش لأنهم يريدون أن يتصلوا بى.

وزادت دهشتى لأن تليفونات برقاش معروفة فى مكاتب الرئاسة، فإذا كان هناك من يطلبها الآن، إذن فإن الاتصال يجرى من خارج القنوات الطبيعية.

الغريب إننى استبعدت أن يكون الرئيس مبارك نفسه هو الذى يريد التحدث إلى، فقد كنت أعرف أن ضيقه بما أكتب وأقول قد بلغ مداه، ضايقته بشدة رسالة بعثت بها إلى الجمعية العامة لنقابة الصحفيين وهى تبحث مشروع قانون جرى التفكير فيه ومطلبه تقييد حرية الصحافة، وطلبت النقابة حضورى، وآثرت أن أكتفى برسالة إلى الاجتماع موجهة إلى مجلس نقابة الصحفيين، تلاها نيابة عنى السكرتير العام للنقابة فى ذلك الوقت الأستاذ يحيى قلاش، وكان النص يحتوى على ما يمكن اعتباره مواجهة مباشرة.

ورد فى الرسالة تعبير (سلطة شاخت فى مواقعها) وأصبح على كل لسان، بل أصبح شعار كافة المعارضين لسياسة مبارك، وظل كذلك حتى لحقته قضية التوريث، ثم جاءت محاضرة لى فى الجامعة الأمريكية فى القاهرة نوفمبر 2002، تحدثت فيها عن احتمالات التوريث، ونبهت إلى مخاطره، وثارت عواصف الغضب فى الرئاسة وفى الحزب وفى دوائر السلطة والحكم.

كانت محاضرة الجامعة الأمريكية قد أذيعت على قناة دريم ثلاث مرات فى يومين، ثم تنبه المحتفلون إلى آثارها، فإذا عاصفة الغضب تطيح بكل من كان له دخل فى إذاعتها وتكرار إذاعتها، وتركز الغضب على رجل وسيدة كان لهما دور فى تكرار الإذاعة، وهما المهندس أسامة الشيخ مدير قناة دريم وقتها، والدكتورة هالة سرحان منسقة برامجها.

ونجا صاحب القناة الدكتور أحمد بهجت بشبه معجزة، وقال لى بنفسه بعدها إن إذاعة هذه المحاضرة كانت على وشك أن تكلفه 2 مليار جنيه لولا أن قدر الله ولطف، واستطاع شرح موقفه لمن يعنيهم الأمر.

فى مثل هذا المناخ فقد استبعدت احتمال أن يتصل بى الرئيس مبارك لأن حديث التوريث سوف يفرض نفسه على أى اتصال.. ولكن الرجل خيب ظنى.

فهو لم يتحدث عن التوريث بكلمة، وإنما انصب كل ما قال على موضوع آخر لم أتوقعه.

جاءنى صوت الرئيس مبارك وبدون مقدمات قائلًا: يا راجل ماذا تفعل بصحتك؟

كنت قد وضعت ورقًا وقلمًا على المكتب، أحاول أن يكون لدى سجل حرفى وضرورى لمكالمة تصورتها سياسية، وتوقف القلم فى يدى، أكرر سؤال الرئيس ولكن موجهًا إليه: سيادة الرئيس ما لها صحتى؟

قال: أنت لا تعطى نفسك فرصة العلاج الضرورى.. ماذا تفعل عندك؟ لا بد أن تسافر فورًا إلى أمريكا وتستكمل علاجك، لأن صحتك ليست مهمة لك فقط، ولكن للبلد، فأنت أديت خدمات كبرى للشعب، ودورك فى الحياة العامة يشهد لك.

دهشت حقيقة فقد كنت أعرف ما فيه الكفاية عن رأى مبارك فى مواقفى، وفيما أكتب أو أقول تعبيرًا عنها، ولم يكن فى استطاعتى وبظاهر الأمر أمامى دون حاجة إلى استعادة مخزون الذاكرة أو استقراء النوايا غير شكر الرئيس على بادرته، وكان ردى: إننى متأثر باهتمامه، شاكر لفضل سؤاله.

ثم شرحت: إن أحوالى الصحية والحمد لله الآن طيبة، وهو يعرف أننى أجريت عملية جراحية منذ أربع سنوات، وذكرته بأنه وقتها تفضل وسأل عنى ثلاث مرات فى مستشفى كليفلاند فى الولايات المتحدة، وبعد العملية فإننى عدت إلى كليفلاند عدة مرات وقصدت أوهاما مرة للفحص

والمتابعة، والآن فإن ابنى الأكبر وهو أستاذ فى كلية الطب يتابع أحوالى، وهو على اتصال منتظم بأطبائى فى أمريكا، وصحتى والفضل لصاحب الفضل مستقرة لم يطرأ عليها داع للقلق من جديد.

قاطعنى الرئيس بحزم قائلًا: لا لا.. هذا المرض لا يعالج مرة واحدة، واسمع منى.

استطرد يشرح وجهة نظره بأن صحتى مسألة مهمة، ولا بد أن أعود إلى أمريكا وأكرر العودة، ثم إن هناك موضوعًا يريد أن يتحدث فيه معى بصراحة، رغم أنه يعرف الكثير عما وصفه بالكبرياء، لكنه برغم ذلك مضطر إلى أن ينبهنى إلى أن تكاليف العلاج فى أمريكا نار، مهما كانت مقدرة صاحبه.

ثم يصل الرئيس إلى موقع الذروة فى كلامه: هذه المرة تكاليف علاجك ليست على حساب الدولة، وليست على حساب الأهرام، وإنما من عندى شخصيًا، وبينى وبينك مباشرة دون غيرنا.

واعترضت: سيادة الرئيس أرجوك، الدولة لم تتحمل عنى نفقات علاجى فى أى وقت، والأهرام كذلك لم تتحمل مليمًا من نفقات علاجى حتى عندما كنت لسبع عشرة سنة رئيسًا لمجلس إدارتها ورئيسًا لتحريرها، فقد تحملت باستمرار تكاليفى بنفسى، واعتبرت ذلك حقى وحق الآخرين، خصوصًا إذا كنت أقدر عليه.

ورد الرئيس أنه يعرف أن الدولة لم تتكلف بعلاجى ولا الأهرام، لكن ضرورات صحتى تقتضى الآن شيئًا آخر حتى لا يعود المرض، وكرر أن المسائل المالية سوف تكون معه شخصيًا، ولك أن تطلب بلا حدود وبدون تحفظ، وأنا أعرف الكثير عن عنادك ولكن.

توقف ثم استطرد: محمد بيه.. المرض ملوش كبير.

ثم يستكمل العبارة: السرطان ليس لعبة، وعلاجه مكلف وفى أمريكا بالذات تكاليفه ولعة، ونحن جربنا هذه التكاليف

فى حالة سوزى (يقصد السيدة قرينته). وكانت هذه الإشارة إلى أقرب الناس إليه دليل حميمة آسرة.

والحقيقة أن إحساسًا متناقضًا بدأ يتسرب إلى فكرى، من ناحية فإن الرجل فى كلامه يعبر عن اهتمام واضح بأمرى، وهذا يستحق اعترافًا بفضله، ومن ناحية أخرى فإن هذا العرض المالى بلا حدود، وبدون تحفظ يتبدى لى غير مريح لا فى موضوعه ولا فى شكله، ولا فى أى اعتبار له قيمة ومعنى، مهما كان حسن النية لدى قائله.

رددت بلهجة قصدتها واضحة لا تحتمل أى التباس: سيادة الرئيس أريد أن أضع أمامك موقفى.

العملية الجراحية التى أجريتها قبل سنوات نجحت والحمد لله، وطوال هذه السنوات فإننى تحت رعاية طبية أثق فيها، سواء فى مصر أو فى أمريكا، ومنذ عدة شهور فقد استجد عارض عدت فيه إلى الولايات المتحدة وظهر والحمد لله أنه أهون مما قدرنا.

ولو جد- لا سمح الله- فسوف أذهب إلى حيث ينصح أطبائى، وفق ما يروا من أحوالى.

وإذا حدث ذلك فإننى والحمد لله قادر على تحمل نفقات علاجى، فالحقيقة أن ما كتبت ونشرت من كتبى بمعظم لغات العالم وفر لى ما أحتاج إليه وأكثر.

وأضفت: أننى شاكر لكم كل ما أبديتم من اهتمام وكرم، ولكنى أعتقد أن هناك من يحتاج إلى ذلك أكثر منى، وفى كل الأحوال فإن عرضكم يأسرنى بفضله، وأعد أنه إذا حدث ولم تستطع مواردى أن تواجه ضروراتى، إننى سوف أعود إليكم، معتبرًا ما عرضتم على نوعًا من الاحتياطى الاستراتيجى ألجأ إليه إذا احتجت، أما الآن فليس هناك ما يدعونى إلى استخدامه.

ورد الرئيس: أنت لا تزال تعاند، وقلت لك إن المرض مالوش كبير، وإن تكاليفه فى أمريكا لا تحتمل، ثم تقول لى احتياطى

استراتيجى، يعنى إيه احتياطى استراتيجى.

وقلت للرئيس والحديث كله يصبح محرجًا: سيادة الرئيس هل أنا الذى أشرح لك معنى احتياطى استراتيجى، أنت بخلفيتك العسكرية تعرف ذلك أكثر منى أو غيرى معنى احتياطى استراتيجى، وما أقصده أن عرضكم رصيد موجود ماثل فى خلفية تفكيرى، ووجوده فى حد ذاته يطمئننى حتى دون استعماله، وقد أستدعيه لضرورة قصوى، لكن هذه الضرورة القصوى ليست حاضرة فى هذا الوقت.

وقال الرئيس: هذا كلام يمكن أن تكتبوه فى الجرائد، لكنه لا يودى ولا يجيب.

وانتهت مكالمتنا بطريقة حاولت كل جهدى أن تكون ودية، دون أن يضايقه اعتذارى- قاطعًا- عن عرضه.

لساعات ظل حديثه يلح على تفكيرى، والحق فقد كنت حائرًا فى تأويل مقاصده، فهو لم يذكر بكلمة ما قلته فى محاضرة معارضة التوريث، ولم يشر إليها بكلمة واحدة خلال مكالمة زادت على عشرين دقيقة.

ثم إنه أبدى حرصًا لا يصح لى أن أقابله بشك فى نواياه، لكنى بأمانة تصورت أن المسألة يجب وضعها فى إطارها الصحيح، بمعنى أنه من باب التجنى أن أشك فى النوايا، وأيضًا فإن من باب السذاجة ألا يرد الشك على بالى، وأن يكون لهذا الشك متنفس.

وعلى نحو ما فقد تصورت أن أسجل الواقعة فى خطاب شكر مكتوب أبعث به إليه من باب الوفاء، وفى نفس الوقت لكى يكون هناك مرجع لا يترك مجالًا لسوء فهم، وجلست فكتبت له خطابًا مختصرًا سجلت فيه ما دار بيننا.

وكان نصه بالحرف: سيادة الرئيس لا أعرف كيف أعبر لكم عن عرفانى بالفضل، وتقديرى لحديثكم التليفونى المستفيض مساء الإثنين 2 ديسمبر سؤالًا عن صحتى واهتمامًا بأمرى، واعتقادى أن نصيحتكم بشأن ضرورة

ذهابى لفحص شامل فى الولايات المتحدة الأمريكية نصيحة سديدة النظر، وحقيقية بحكم تقدم العلوم والتكنولوجيا، وبالفعل فإننى كنت فى الولايات المتحدة الأمريكية فى شهر مايو الأخير على موعد مع الدكتور (أرميتاج) عميد كلية الطب فى جامعة نبراسكا (أوهاما) الذى قيل لى إنه من أبرز الاختصاصيين فى العارض الصحى الذى تعرضت له أوائل الصيف، وسبب ضغطًا على القصبة الهوائية، كانت له مضاعفات حتى على صوتى، وقد وضع الدكتور أرميتاج خطة علاج جرى تنفيذها حتى على صوتى، ووضع خطة علاج جرى تنفيذها فى مصر، ويبدو لى أن نتائجها ناجحة بدرجة كبيرة حتى الآن، وأنوى بمشيئة الله أن أعود إلى الولايات المتحدة لمراجعة أخرى.

إننى لا أستطيع أن أشرح لكم كيف تأثرت بعرضكم الكريم فى شأن تكاليف العلاج، وكانت عفويتكم آسرة حين أشرتم إلى أنكم، وليس أى مؤسسة أو دولة، سوف تتحملون بها، تقديرًا كما تفضلتم لرجل له قيمته، وداعين إلى أن أطلب بغير حساسية وبغير تحفظ، وذلك كرم عظيم، وكان من دواعى تأثرى أنكم تعرفون سيادة الرئيس مما أكتب وأقول إننى على خلاف مع بعض توجهات السياسة المصرية وأن تتجلى مشاعركم على هذا النحو الذى تجلت به، فإن ذلك دليل على حس صادق، يقدر على التفرقة بين العام والخاص وبين السياسى والإنسانى.

وقد أعجبنى قولكم إن المرض مالوش كبير لأن تكاليف العلاج فى أمريكا مهولة، وبالفعل فإننى جربت ذلك مرتين من قبل، لكن الصحة تبقى أغلى ما يحرص عليه الإنسان.

إننى سوف أحتفظ بعرضكم الكريم معى، وسوف أعود إليكم فى شأنه عند الحاجة، معتبرا أنه احتياطى استراتيجى (كما يقال) يريح وجوده ويطمئن، وذلك فى حد ذاته فضل لا ينسى، ونبل قصد يستحق كل عرفان ووفاء.

سلمتم سيادة الرئيس مع أخلص الشكر وأعمقه وتقبلوا موفور الاحترام.

محمد حسنين هيكل

القاهرة فى 3/ 12/ 2003.

قارئ وكاتب
كل هذا العمر بين الكتب

1

كنت أشرع يومى وأختمه بالقراءة، فى طريقى إلى منتجع القطامية فى الساعة الخامسة وخمسة وأربعين دقيقة فجرًا، أطالع الجرائد المصرية لأطل على المشهد العام والأداء اليومى للبلد.

وفى طريق عودتى أكتفى بالاستماع لمحطة الـ«بى بى سى».

عندما أصل إلى مكتبى أجد تقارير الصحافة الإسرائيلية، ومراكز الأبحاث الخارجية، والجرائد والمجلات العربية.

فترة ما بعد العصر، أطل على البرقيات مستكملًا ما بدأته من الجرائد والمجلات.

قبل النوم أقرأ فى كتاب، وإن كنت أستنكر المطالعة فى السرير، وأظنه معيبًا لى ولمن أقرأ له.

فى حجرة نومى هناك كرسى فوتيه وأباجورة، وعلى ضوئها أقرأ ليكون آخر ما أقوم به، محتفظًا طول الوقت بقلم رصاص، ليس لتسجيل ملاحظات على الهامش، بل ربما لتداعى أفكار ليس بينها وبين الكتاب أى رابط، ولكنها بدأت بطرق باب تفكيرى كهاجس فأبدأ فورًا بتفريغها.

2

أنا قرأت كل ما كان متاحًا لى من الكلاسيكيات، قرأت فى الأدب الإسلامى والأدب الأجنبى، قرأت فى الفلسفة الإسرائيلية.

أى صحفى فى الدنيا هو حيوان قارئ، وكل كاتب هو قارئ

بالدرجة الأولى، وأنا مدين لكثيرين، هناك معلمون كبار فى تاريخ مصر أعتقد أننا أهملناهم بطريقة غريبة.

وفى تقديرى أن السياسة والحزبية فى مصر أسقطت عناصر النخبة المصرية، كان المفكر يتكلم بأسلوب المنطق والعقل، لكن الحركة الوطنية استدعت أشياء أخرى بالانقسامات الخطيرة التى حدثت، إنها مأساة لدينا، إن كل من تكلم بالعقل جرفه تيار وطنى، وليس معنى هذا أن كل من تكلموا بالعقل كانوا على خطأ، أو أن تيار الوطنية كان على خطأ، ولكن الكلام عن صراعات فى مجتمع ما زال ناشئًا وتحت ضغوط معينة، أعتقد أن الشعب المصرى كان مظلومًا بموقعه الذى أدى إلى تكرار التدخل الأجنبى دائمًا.

3

كل كتاب له علاقة خاصة بكاتبه، فهو قطعة من حياته، فكره وعمله وتجربته، استؤمنت عليها صفحات وسطور وحروف.

وما يبوح به أى كاتب فى مجمل ما يكتبه، هو فى الحقيقة مراحل عمره، ومراحل عمر أى كاتب ليست مجرد تواتر واتصال وتكرار، وإنما هى عالم إنسانى بأكمله، عالم متنوع متناغم مختلف مؤتلف، فكل يوم وكل ساعة وكل لحظة لها طعم ولها لون ولها عبق متميز تدركه الحواس وتستشعره، وتذوب فيه أحيانا أو يذوب فيها.

4

الكتب عندى نوعان.

نوع يزكيه موضوعه وعمق التناول وجاذبية العرض.

ونوع ثان يمهد له اسم كاتبه، لأن الاسم وحده يكون علامة مميزة سابقة فى الإيحاء بالقيمة حتى من قبل أن تتأكد هذه القيمة برضا القارئ وحكمه.

وأنا فى مكتبتى بين الكتب، يدور حوار بينى وبين من صاغوا تلك الأسفار من النفائس، أشعر بأن أرواحهم تنصت، بل لعلى لا أكون مبالغًا إذا قلت بأن ما بينى وبينهم مناجاة ظانًا أنهم يتابعون وقع ما أخط من ملاحظات وتعليقات على أبحاثهم، وما توصلوا إليه من نتائج وأحكام، وبذلك لا تكون أرواحهم حبيسة داخل أغلفة كتبهم، فبينى وبينهم حوار دائم وخيط لا ينقطع.

5

مرت فى حياتى ثلاثة كتب حرمتنى تمامًا من النوم ليلة مطالعتها.

الكتاب الأول كان المانيفستو الشيوعى (إعلان ماركس وإنجلز)، أول مرة قرأته فيها لم أذق طعم النوم طوال الليل، قلت: يا سلام.. هذا هو الحل.

بعد شهر واحد عدت لأقول: لا.. ليس هذا صحيحًا.

المانيفستو كتيب سياسى صدر عام 1848 ويلخص النظريات حول طبيعة المجتمع والسياسة، وذلك فى قول مأثور عنهما (إن تاريخ أى مجتمع حتى الآن، ليس سوى تاريخ صراعات طبقية)، كما احتوى فكرة عن كيفية تبديل المجتمع الرأسمالى بمرور الوقت بالاشتراكية بما يسمى الحتمية التاريخية.

الكتاب الثانى كتبه الجنرال (تومى فرانكس) قائد غزو العراق عام 2003، اسمه (جندى أمريكى)، فى ليلة الأربعاء 25 يوليو 2004 لم يعرف النوم طريقه لعينى، حاولت النوم فى العاشرة مساء لكنى صحوت فى الثانية، ولم أتمكن من النوم، ففى جفونى أرق وفى عروقى قلق، والسبب ما ذكره فرانكس عما قام به القادة العرب، فقد كان أكثر من شائن وأكبر من مؤلم.

الكتاب الثالث هو الطاو.. الكتاب الصينى المقدس، وهو كتاب قام الدكتور محسن فرجانى بترجمته، وقامت جريدة

أخبار الأدب بنشره كاملًا، طالعته- خاصة أن الترجمة جميلة ومباشرة من الصينية للعربية، وليس كما يحدث غالبًا فتكون عبر لغة ثالثة كالإنجليزية أو الفرنسية كما فعل الدكتور سامى الدروبى فى ترجمته لجميع مؤلفات فيودور دوستويفسكى، فقد ترجمها من الفرنسية إلى العربية وليس من الروسية للعربية- لكن السهد كان رفيقى تلك الليلة.

6

فى فبراير 1974 تركت العمل فى الأهرام نتيجة خلاف مع الرئيس السادات، كان الخلاف حول قضية أساسية هى قضية الصلح المنفرد مع إسرائيل، هذا الموقف الجديد تبلور فى يوم حاسم من تاريخ مصر، هو يوم 7 نوفمبر 1973 عندما التقى أنور السادات بهنرى كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية فى هذا الوقت.

فى هذا اليوم ظهر للوجود مشروع النقاط الست، وهى نفس النقاط التى اقترحتها جولدا مائير، وبدأ نوع جديد من العلاقات بين مصر وإسرائيل، وعلى الأصح بين أنور السادات وإسرائيل عبر أمريكا.

منذ هذا اليوم أصبح لى موقف محدد مما يجرى، وبدأت كتابة مقالات أكثر حدة ووضوحًا، شرحت ما جرى بينى وبين كيسنجر، وتكلمت عن أسلوب التفاوض الإسرائيلى وأنا أقصد أسلوب التفاوض المصرى، وعندما تم اتفاق فك الارتباط الأول اعتبرته بداية لصلح منفرد مع إسرائيل، سوف تكون له آثار سلبية اجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية على مصر، وسيؤثر على مستقبلها فى الفترة القادمة، وسيؤدى إلى عزلها عن العالم العربى، وكتبت ما أعتقد، وخرجت من الأهرام بسبب هذه القضية.

خرجت من الأهرام نتيجة لموقف ودفاعًا عن قضية، وأن تكون صاحب موقف وقضية فلا يعقل أن تلزم الصمت وإنما واجبك بعد أن تركت موقعك أن تقول قدر المستطاع ما حدث بالضبط.

من هنا بدأت أكتب فى هذا الموضوع وأتكلم فيه من هنا من القاهرة، وكان هذا قرارًا سياسيًا أن أبقى فى مصر وأتكلم من مصر، وذلك لأكثر من سبب.

فعندما تتكلم عن سياسة الحكومة المصرية ومواقفها وأنت خارج مصر فى أمان كامل، لا يكون لكلامك نفس المصداقية التى يكتسبها وأنت داخل مصر تحت سلطة الدولة المصرية وخاضع لسلطة القانون المصرى، فما تقوله وأنت فى مصر لا بد أن تكون قادرًا على إثباته، قادرًا على الدفاع عنه، مستعدًا للذهاب إلى السجن بسببه، قابلًا حتى أن تموت فى سبيله.

لم يكن أمام الرئيس السادات خيار، فإما أن يعتقلنى أو يكذب ما أقوله.

فى اعتقادى كان صعبًا عليه تكذيب ما أقول، وأيضًا كان صعبًا عليه اعتقالى، لأن الاعتقال فى حد ذاته يؤكد ما أقول ويكشف أشياء إضافية.

السبب الثانى اعتقادى بضرورة أن يصدر صوت من القاهرة يخاطب رأيًا عامًا عربيًا واسعًا، يؤكد أن الارتباط المصرى العربى القديم منذ أيام حزب الوفد وتوقيع ميثاق الجامعة العربية إلى أن تجسد فى التجربة الناصرية لا زال قائمًا وله صوت يصدر من مصر، وإن كان محرومًا من الحديث داخل مصر ذاتها، كان ضروريًا أن تصدر إشارات إلى أطراف أخرى فى العالم العربى تؤكد أن القوى الوطنية المصرية ما زالت موجودة، وقد تصورت أننى أقدر من يستطيع تأدية هذا الدور.

لقد كنت صديقًا لعبدالناصر وقريبًا من التجربة، وأمثل أمام الرأى العام العربى جزءًا ما من تجربة عبدالناصر التى عاشتها الأمة العربية وارتبطت بها، وشهادتى فى شأنها يمكن أن تكون مصدقة لدى الرأى العام، كذلك فلم يكن فى قدرة أحد أن يتهمنى بموقف مسبق أو ارتباط بموقف حزبى، فقد عشت طوال عمرى صحفيًا، أشتغل بالصحافة من موقف ملتزم، ملتزم بما أراه وليس التزامًا مسبقًا برؤية حزبية معينة.

حتى مع عبدالناصر طرحت أشياء لم يكن يوافق عليها، فعلًا تكلمت عن تحييد أمريكا ولم يكن هو مع هذا الرأى ولكن لم يعترض على حقى فى إبداء ما أشاء من آراء لأنى أتكلم من داخل التجربة ومن موقف وطنى حتى وإن اختلفت مع رؤيته.

على هذا الأساس اخترت لنفسى بعد ترك الأهرام دورين متكاملين.

كتبت مجموعة من الكتب باللغة الإنجليزية، نشرت فى العالم وترجمت إلى أكثر من لغة، هذه المجموعة من الكتب أضعها متجاورة أمام مكتبى لتذكرنى دائمًا بأننى لم أخسر بتركى الأهرام، فقد أنجزت كتابًا كل سنة أو كل 16 شهرًا تقريبًا ظهرت فى السوق الدولية، ولتكون بمثابة حساب للنفس عما حققت خلال هذه السنوات، ومع الكتب مئات المقالات فى الصحف والمجلات، وقد استمررت على هذا المنوال حتى دخلت السجن.

بعد أن خرجت من السجن كان هناك جديد، وقد أعلنت بوضوح أننى لست طرفًا فى لعبة السياسة المصرية، ولا طرفًا فى لعبة الصحافة المصرية، هذا الموقف يمتد تقريبًا إلى عام 1975، وقد اتخذته فى ظل ظروف وسياسات معينة، وأصبح موقفًا ثابتًا بالنسبة لى، أعلنت أننى طرف مراقب، ولكننى لست طرفًا محايدًا، فلم أكن أبدًا محايدًا.

فكرت وقتها وسألت نفسى: لو فكرت فى الكتابة فى مصر.. فأين أكتب؟

بصراحة لم أكن على استعداد للكتابة فيما يسمى بالجرائد القومية، ولا أظن أن هذه الجرائد مستعدة أن تنشر لى، أما صحف المعارضة فكل جريدة تمثل موقفًا معينًا قد لا أوافق عليه كله، ثم إن أى مساحة فى صحيفة حزبية من حق أصحاب هذا الحزب.

كان أمامى بديل آخر، كنت على استعداد لاختياره لو كان

متاحًا، وهو الحصول على ترخيص بإصدار صحيفة من موقع مستقل، لو كان هذا ممكنًا فلن أتردد خلال ستة أشهر فقط فى أن اصدر صحيفة جديدة فى مصر.

كنت أشعر بالحزن لأن القارئ المصرى لا يعرف ما يجرى حوله فى العالم، أو ما يجرى حتى فى بلده بعد أن يصبح الأمر تاريخًا ماضيًا.

7

وراء كتابى (عبدالناصر والعالم) قصة تعود إلى سنة 1957.

فى بداية تلك السنة اللاحقة مباشرة لحرب السويس كان اسم جمال عبدالناصر يدور فى آفاق الدنيا، ولم يكن رمز الحركة الوطنية المصرية والقومية العربية فحسب، ولكنه كان أيضًا رمز حركة التحرير الوطنى التى كانت رياحها وعواصفها تتجمع لتهب على كل القارات المتطلعة لغد جديد: آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية.

فى ذلك الوقت تلقيت أول عرض عالمى لى بأن أكتب قصة (عبدالناصر والسويس)، ولكننى ترددت لأن الحوادث كانت ساخنة وملتهبة، كما أننى كنت مستغرقًا بالكامل فى ملاحقة التحولات السياسية والاجتماعية والدولية التى كانت تهز المنطقة العربية وما حولها هزًا لسنوات طويلة.

خلال هذه الفترة لم تتوقف محاولات إقناعى بأن أكتب شيئًا آخر- غير المقالات الأسبوعية- يمكن أن تضمه دفتى كتاب، ثم يحمله رف مكتبة يبقى عليه لعمر أطول- قليلًا- من عمر جريدة سيارة يقرؤها الناس فى الصباح ثم ينسونها فى المساء.

لم يكن لدى الوقت، وربما لم تكن لدى الأعصاب لأننى أعتبر أن الكتاب مسئولية خاصة، تقتضى توفر استعداد آخر لم أكن واثقًا أننى أملكه.. وظلت الفكرة تجىء وتروح على هذا النحو سنوات حتى 28 سبتمبر 1970.

بعد رحيل جمال عبدالناصر فى 28 سبتمبر 1970 وجدت نفسى تحت ضغوط شديدة لكى أكتب عنه، وكانت الاقتراحات تقدم نفسها إلىّ وكأنها دعوة إلى واجب لا يحق لى أن أتحلل منه أو أتأخر عنه.

فى تلك الأيام لم أكن- من نفسية بحتة- على استعداد، وحاولت أن أقنع كثيرين بأنه قد يكون من الأنسب أن أترك هذه المهمة لغيرى على أن أضع تحت تصرفه ما يكون لدى من حقائق ووثائق احتفظت بها فى ذاكرتى أو على الورق فى الفترة ما بين يوم 18 يوليو 1952 إلى 28 سبتمبر 1970، وهى فترة كان لى فيها الحظ والشرف بملازمة جمال عبدالناصر والحياة بالقرب منه ومتابعته على المسرح ووراء كواليسه بغير انقطاع، وكانت إلى جانب ذلك سنوات حوار لم يتوقف معه فى كل مكان وفى كل شىء.

ولكنى أحسست أن ما حاولت أن أقنع به كثيرين لم يكن مقنعًا حتى لى، فإن بعضًا من الذين راحوا يكتبون عن جمال عبدالناصر كانوا يأخذون ما أضعه تحت تصرفهم من الوقائع ثم يتصرفون فيه كما يحلو لهم، وهذا منطقى لأن بعضهم مقيد باعتبارات معينة، كما أن البعض الآخر لديه أفكار مسبقة، وكانت عقدة المسألة أننى حين أعطى ما لدى لغيرى فإن ملكيته تنتقل إليه وذلك لا أعترض عليه، ولكن العقدة تستحكم فى أننى أفقد فى نفس الوقت أى حق فى توجيه استعماله توجيها أعتقد باتساقه مع الحقيقة، وذلك ما كنت أعترض عليه أحيانًا.

اشترك عدد من الأصدقاء فى إقناعى بأننى لا أستطيع أن أتقدم بشهادة للتاريخ بالوساطة، أى عن طريق أن أحكى لغيرى، ثم ينتقل هو للناس، خصوصًا إذا كنت أنا من الأصل كاتبًا محترفًا لا عمل لى غير أن أقدم للناس ما لدى من وقائع أو أفكار أستخلصها من عملى الصحفى، والصحافة فى صميمها تاريخ تحت الصنع.

كان بين الذين حاولوا إقناعى صديقان:

أولهما دنيس هاملتون، رئيس التحرير العام لمجموعة صحف طومسون، وبينهما جريدة التايمز اليومية، والصنداى تايمز الأسبوعية، وكان ثانيهما هو سيروس سالزبرجر، أحد رؤساء تحرير جريدة نيويورك تايمز.

تحاورت مع الاثنين طويلا فى لندن وفى باريس فى شتاء سنة 1970، وكان رأيهما أنه من الضرورى أن أكتب.

قال لى دنيس هاملتون مرة: ومن غيرك يستطيع أن يكتب قصة حياة جمال عبدالناصر كاملة؟

وقلت: قد أستطيع بغير تواضع وبغير ادعاء أن أقول أنا، ولكن المسألة ليست بهذه البساطة وإنما هناك نواح عديدة لا بد أن أضعها فى اعتبارى.

من ناحية فإن قصة جمال عبدالناصر ما زالت مستمرة باستمرار التيار الذى قاده، ومن ناحية أخرى فإن العالم العربى يعيش فى أزمة خانقة، وقصة حياة جمال عبدالناصر قد تفجر الآن ما لا داعى لتفجيره فى مصر أو العالم العربى.

ومن ناحية ثالثة فإننى ما زلت- عاطفيًا- تحت صدمة الرحيل، ولست أريد أن أكتب مرثية فى جمال عبدالناصر، وإنما أنا أحلم بأن أكتب تاريخًا، أو على الأقل شهادة يأخذها التاريخ فى تقديره عندما يحكم ويقرر.

وقال دنيس هاملتون: لا بد أن تكتب.. اكتب فى أى شىء يتصل بقصة حياته، اكتب عن الصراع على الشرق الأوسط، اكتب عن أزمة الشرق الأوسط، لا بد أن تكتب ولا تستطيع أن تعفى نفسك من هذه المهمة.

وعدت إلى مصر وخاطر الكتابة معى، ولكن ماذا أكتب عن جمال عبدالناصر، وكيف؟

وطرأت لى فكرة الإطار لهذا الكتاب.

إننى لا اريد أن أكتب قصة جمال عبدالناصر كاملة.. ليس

الآن.

ولا أريد كتابة قصة الصراع على الشرق الأوسط.. ليس الآن.

وهكذا وصلت إلى فكرة الإطار العام لهذا الكتاب عن طريق الاستبعاد، وليس عن طريق الاختيار الأول، فكرت أن أكتب عن جمال عبدالناصر وعمالقة عصره، وكان عبدالناصر عملاقًا، وكان عصره عصر عمالقة التقى معهم جميعًا، بالاتفاق أو بالاختلاف، ونشأت عن لقاءاته بهم صداقات وصراعات تركت أثرها على العصر كله.

كان ذلك يعفينى من أسباب للحرج شديدة، بينها ضرورات السرية التى ما زال يتحتم أن نراعيها ونحن ما زلنا فى معركة مصير.

ثم إن ذلك يعطينى فرصة لمس جوانب إنسانية من حياة جمال عبدالناصر وحياة غيره من عمالقة العصر كما رآهم وكما رأيتهم.

وعرضت الفكرة على بعض من أثق فى رأيهم- وبينهم هاملتون وسالزبرجر- وكانت حماستهم لها غلابة، واستسلمت.

وفى ستة شهور من مارس 1971 إلى سبتمبر 1971 سلمت الكتاب بالإنجليزية للناشر البريطانى الذى تولى نشره، وإذا الكتاب يلقى ما لم أتوقعه، وإذا هو على الفور يترجم إلى أكثر من عشرين لغة بينها الفرنسية والإيطالية والإسبانية واليابانية والألمانية والسويدية والأردية والهندية والصربية والبرتغالية، ولا أذكر ماذا أيضًا.

وكنت حريصًا على أن تنشر فصول من الكتاب فى الصحافة العالمية مع موعد الذكرى الأولى للرحيل، سبتمبر 1971، وقد كان، برغم متاعب سببتها للناشرين بهذا الطلب الملح.

قدمت للنشر المسبق فى الصحافة لفصول من هذا الكتاب باعتذار رجوت فيه أن يحكم عليه فى إطاره، فهو ليس قصة

حياة عبدالناصر ولا قصة بعينها ضمن معاركه، وألا يحكم عليه إجمالًا من مجرد فصول اختيرت منه للنشر الصحفى لا تزيد نسبتها فيه على الخمس، فإن البعض فى العالم العربى بالذات لم يقبل هذا الإطار.

راح البعض يتساءل: كيف أملك حق الكتابة عن جمال عبدالناصر؟

وبصرف النظر عن أشياء كثيرة واعتبارات لا أجد داعيًا لذكرها، فإن الكتابة عن جمال عبدالناصر حق لمن يستطيع، ولم أدع لنفسى يومًا حق احتكارها، لقد كتبت عنه كما كتب غيرى فى العالم كله، ولم يقم فى وجه واحد منهم اعتراض.

وراح البعض الآخر يدعى أننى- بما كتبت عن جمال عبدالناصر- جعلت من حياته مغامرة ولم أجعلها فكرة، والغريب أن أصحاب هذا الادعاء فى معظمهم كانوا من الذين قضوا عمرهم فى عداء عبدالناصر، ولقد كنت أتوقع شيئًا من ذلك، بسبب الظروف العربية الراهنة، وبسبب ظروفى الشخصية.

أما عن العالم العربى فقد كان مشغولًا بالاقتتال مع النفس، أكثر مما هو مشغول بالقتال ضد العدو فى مرحلة التفاعلات العنيفة التى يعيشها.

وأما ظروفى الشخصية فكنت أعرف أنها دقيقة، ذلك أننى تعرضت لليمين الرجعى فى العالم العربى، كما تعرضت لليسار المغامر فيه، وليس يهمنى أن أحصل على رضا أيهما، ولقد اعتبرت أن هذا الوضع شرف لا أسعى إليه، ووسام ليس بين أحلامى أن أعلقه على صدرى.

لقد كتبت ما كتبت من قلب تيار أعرفه وأحسب نفسى منتميًا إليه وهو التيار الناصرى، تيار الجماهير التى كانت مع جمال عبدالناصر فى اختياره التاريخى بالصورة البارعة التى سمعتها ذات مرة فى مطعم لاسير فى باريس من أندريه مالرو مفكر فرنسا العظيم وكان يقارن ما بين عبدالناصر

وديجول.

وقال لى مالرو: كلاهما واجه عصره اختيارًا دوليًا هائلًا، وكلاهما رفض هذا الاختيار.. كلاهما قيل له: هل أنت مع أمريكا أم مع الاتحاد السوفيتى؟ وكلاهما قال: لست مع أمريكا ولست مع الاتحاد السوفيتى.. وإنما أنا مع وطنى وأمتى.

لقد كتبت ما كتبت أيضًا وفى ذهنى أن (جمال عبدالناصر ليس أسطورة)، كما قلت فى مقال نشر فى ذكرى مرور الأربعين على رحيله، وكان رأيى- ولم أغيره- أن الذين يتصورون عبدالناصر أسطورة، لا يعرفون ماذا تعنى كلمة أسطورة، أو لا يعرفون ماذا يعنى اسم جمال عبدالناصر؟

إن عبدالناصر ليس أسطورة، وإنما هو إنسان، ولقد كان إنسانًا عظيمًا، وربما كان أعظم ما فيه إنسانيته، وكانت هذه الإنسانية هى طريقة التزامه الفكرى والتزامه الإنسانى، والتزامه القومى، والتزامه الدولى، بل وأهم من ذلك كله التزامه الطبقى بالعمل والذين يعملون، وأن العمل هو المصدر الوحيد لأى قيمة.

لقد كان بودى لو كتبت الكتاب بالعربية، وقدمته بأسلوبى الذى اعتاده القارئ، ولكنى فى الحقيقة كنت أكتب عن عبدالناصر والعالم.. للعالم الذى عرف عبدالناصر واهتم بسيرته.

لقد كان هناك اقتراح بأن أتولى ترجمة الكتاب بنفسى، لأن القارئ العربى وقد اعتاد أسلوبى سوف يجد غريبًا عليه أن يقرأ لى بأسلوب آخر، ولكن ذلك معناه فى رأيى أننى سوف أكتب الكتاب مرتين، ومن أجل الذين يقرأون فلقد وجدت أن مرة واحدة تكفى.

8

بعد رحيل عبدالناصر أعلنت أننى أنوى كتابة تاريخه باعتبارى من أقرب الناس إليه وأكثرهم معرفة بكل أسراره،

وكنت مقدرًا لنفسى خمس سنوات أبدأ بعدها الكتابة، لكى أقدر على أن أكتب كتابة متجردة دون أن تكون متأثرة بعاطفة أو صداقة.

وكنت أعتقد أن كتابتى لا بد أن تكون شهادة للتاريخ، شهادة مبرأة من مشاعرى نحوه، لكن عندما أثيرت الحملة على عبدالناصر أجلت كتابتى لأنى تصورت إننى إذا كنت سأكتب شيئًا فلا بد أن يكون تقييمًا موضوعيًا لتجربته كلها، وعليه فلا بد أن أشير فيها إلى الإيجابى والسلبى، لكننى تصورت أن الظروف السائدة مع تصاعد الحملة عليه ستدفع الذين يهاجمونه إلى استغلال كلامى خاصة عن السلبيات، ويقولون: انظروا هذه هى شهادة أقرب الناس إليه.

أدركت أنهم سيهملون الجانب الإيجابى تمامًا وسيركزون فقط على الجانب السلبى، مستغلين ما أطرحه لخدمة أغراضهم، لهذا قررت أن أنتظر حتى يفرغوا جميعًا مما لديهم، انتظارًا لمناخ يناسب محاولة التقييم الموضوعى التى أريدها، فلم أكن أريد الكتابة فى مجال الدفاع عن عبدالناصر ولا فى مجال نقده.

كنت أعتقد دائمًا أن الكلام عن تعذيب السياسيين فى عصر عبدالناصر فيه مبالغات كثيرة جدًا، وقد طالبت بتحقيق نزيه يرصد الوقائع واقعة واقعة، حتى نعرف ونحكم، لكن الضجة التى أثيرت بعد وفاته، واستغلها كثيرون حتى يقولون ويحكون ويصورون أنفسهم وكأنهم أبطال دون أساس، فلم يكن هذا كلامًا صحيحًا، كل ما أردته هو تحقيق بواسطة لجنة محايدة، لجنة برلمانية، لجنة تاريخية، يتم من خلالها تحقيق الوقائع وإعلانها على الناس بعد الاستقصاء والبحث العلمى النزيه.

لقد كتبت عن واقعة تعذيب الدكتور عبدالمنعم الشرقاوى فى عصر عبدالناصر وهو موجود، بعد أن جاءنى شقيقه عبدالرحمن الشرقاوى وحكى لى ما جرى، وكتبت واستنكرت ما حدث بشدة وقلبت الدنيا، وكتبت سلسلة مقالات بعنوان (زوار الفجر) وهو التعبير الذى نقلوه عنى وأصبح شائعًا بعد

ذلك.

كانت هناك تجاوزات فى أجهزة سيادية وانتقدت أوضاعها فى حياة عبدالناصر، ليس هذا فقط، بل سمحت بنشر روايات توفيق الحكيم ونجيب محفوظ التى كانت تنتقد هذه الأجهزة، والسلبيات التى ظهرت فى حياة عبدالناصر.

لم أنتظر الموت لكى أتكلم.. ولا أدرى أين كان هؤلاء الذين كتبوا بعد وفاة عبدالناصر عندما كان حيًا بيننا.

9

كنت أعرف أن القصة الكاملة لجمال عبدالناصر سوف تكتب فى يوم من الأيام، وكنت أرجو أن تتيح لى الظروف فرصة المشاركة فى كتابتها كاملة.

لقد كنت الأقدر على توثيق ومراجعة حياة عبدالناصر بحكم أننى كنت أحد أقرب الناس إليه، ولن يكون الكتاب عن تاريخ ناصر ولكن سيرة له، وهو مشروعى الثابت والأصيل.

نعم رباعية حرب الثلاثين عامًا تناولت جزءًا من سيرته فى 56 و67 و73، لكن الكتاب الذى خططت لكتابته عنه يتناول سياساته العربية، وسياساته الداخلية، والتكوين النفسى والثقافى له، ورؤيته الاجتماعية وغيرها من الموضوعات المتعلقة به.

كتبت أجزاء مهمة من هذا الكتاب، ولم يتبق إلا بعض الرتوش والإضافات، وبالطبع الكتاب به ملحق وثائقى ليدعم ويساند.

أخذت فى إعداد كتاب عن العالم العربى إثر غياب عبدالناصر ونتائج حرب أكتوبر وبدايات حقبة البترول، وبدأت بالفعل فى العام 1975، وفى الإعداد له قمت برحلة واسعة إلى مغرب العالم العربى ومشرقه باستثناء ليبيا لعدم استفزاز الرئيس السادات، كنت أحاول تجديد معرفتى به، وألتقى وجهًا لوجه بالتيارات المؤثرة فيه وبالرجال الذين

يوجهون مصائره.

وفرغت من إعداد مسودة كاملة لهذا فى منتصف 1976، وكان مفروضًا أن يبدأ طبعه ونشره فى بداية 1977، لكن تطورات الحوادث فى لبنان (مذبحة الكرنتينا ومجزرة الدامور وانتخاب الرئيس إلياس سركيس ودخول قوات الردع العربى بقيادة الجيش السورى وبمشاركة قوات سعودية وإماراتية وسودانية ويمنية ومجزرة تل الزعتر واغتيال كمال جنبلاط) دعتنى إلى إعادة النظر فى بعض فصوله، وقمت بذلك فعلًا، وفرغت من إعداد نص معدل ونهائى قرب نهاية 1977، ليكون الكتاب معدًا للطبع والنشر فى ربيع 1978.

وأتذكر أننى كنت فى لندن فى شهر أكتوبر 1977، وراجعت للمرة الأخيرة بروفات كل صفحة من صفحات الكتاب، ووضعت توقيعى على تصميم غلافه، وعدت إلى القاهرة مطمئنًا إلى أنه لم يبق غير دوران المطابع فى إسكتلندا ويتم كل شىء.

لكن لم أكد أعود إلى القاهرة حتى انفجرت المفاجأة التى اصطلح على تسميتها بوصف (المبادرة)، وإذا أوضاع العالم العربى كلها تنقلب رأسًا على عقب، وفى وسط كل الهموم النازلة فقد وجدتنى أمام هم محدد ومباشر وهو أن أبعث إلى الناشرين فى لندن أرجوهم تأجيل كتاب العالم العربى لأن مفاجآت الحوادث تجاوزت ما كتبت، خصوصًا عن الصراع العربى- الإسرائيلى.

بعد فراغى من كتاب خريف الغضب حاولت أن أكتب لمجموعة الناشرين التى تملك حق نشر كتبى فى العالم عن ظهور وتراجع القوة العربية، وبدأت المحاولة فعلًا، ثم كنت أنا الذى تراجعت مؤقتًا عما اعتزمت، فقد وجدتنى أصف عالمًا عربيًا كل أحواله تدعو للرثاء، ولم أشأ أن يكون ما أكتبه سهمًا جديدًا تتكسر له النصال على النصال.

اتجهت فى العام 1985 إلى وضع كتاب عن قائمة بعشر

أسماء من الشخصيات الغامضة التى لعبت أدوار مهمة من وراء الستار فى السياسة العربية، وقد قابلتهم جميعًا، ثم كان أن غيرت رأيى فى مشروع الكتاب كله، واعتذرت للناشر أندريه دويتش الذى كان يلح فى طلبه، فقد رأيت أن هناك فى المنطقة قضايا أسبق إلى الاهتمام من عشرة رجال غامضين مارسوا أدوارهم من وراء ستار على مسرح سياسى تجرى أخطر وقائعه وراء الضوء، وبعيدًا عن عيون الناس.

فى نهاية العام 1990 كنت قد اتفقت مبدئيًا مع دار هاربر كولينز على كتابة ثلاثة كتب، وقد ظهر منها اثنان (حرب الخليج: أوهام القوة والنصر)، و(المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل)، وتأخرت فى كتابة ثالث الكتب وهو يناقش «الإسلام السياسى» وكان عنوانه (السيف والهلال).

قضيت أكثر من عام فى الإعداد لهذا الكتاب، وكانت سنة مفيدة بالنسبة لى، ولم يفتر حماس دار هاربر كولينز، فقد استمروا فى إلحاحهم علىّ بأن يصدروه حتى أبريل 2001.

عرضت على دار هاربر كولينز مطلع العام 2013 عنوانًا جديدًا يحل محل الكتاب الذى رفضت الاستمرار فيه وهو (السيف والهلال)، أتناول فيه ما استجد من أحداث فى المنطقة العربية مع بداية حقبة جديدة من القرن الواحد والعشرين، والذى عرف بالربيع العربى.

بدأت العمل على ذلك، عقدت سلسلة لقاءات مع مسئولين عرب ومعارضين فى أغلب الدول العربية التى شهدت ما يسمى الربيع العربى (تونس- مصر- سوريا- البحرين- اليمن) وأيضًا مع الجهات التى حرضت ودعمت قيام تحركات هنا وهناك، ومع جهات إقليمية ودولية فاعلة.

ورغم تجميع خيوط كثيرة فى يدى، وثائق تدعم، ومعلومات تؤكد، ودراسات ومذكرات تستكمل الصور والمشاهد، إلا أننى آثرت التوقف عند نقطة معينة، تاركًا ما كتب لقابل الأيام لو سمحت بذلك المقادير.

10

فى فبراير 1976 صدر لى فى بيروت كتاب اسمه (الشرق الأوسط 1967) وهذه هى الطبعة العربية لأن الأصل نشر بالإنجليزية فى جريدة (الصنداى تلجراف) فى أكتوبر 1973.

لم ينتبه أحد للكتاب لأنه صدر عندما كانت حرب أكتوبر مشتعلة، وكان كل الأذهان مشدودة لها.

فى هذا الكتاب أوضحت كل الحقائق المتعلقة بنكسة يونيو، وكان رأيى بصراحة أن هزيمة 67 لا يمكن أن ينظر لها فعلًا على ضوء المعركة العسكرية الخاسرة التى خضناها، لأنها كانت جزءًا من حركة الصراع بين القومية العربية والاستعمار، لكن لا شك أن حجم الهزيمة كان مزعجًا، لم يكن طبيعيًا ولا يرجع بالضرورة لحركة الصراع التى نتحدث عنها، لكن يرجع لمسئولية وأخطاء القيادة ولاعتبارات وتراكمات كثيرة، إذا أردنا تحديدًا أكثر فقد كان حجم الهزيمة راجعًا لعاملين أساسيين وقت المعركة، ضربة الطيران وقرار الانسحاب.

11

علاقتى بإيران علاقة طويلة، ففى مرحلة الشباب الباكر كنت أشغل وظيفة المراسل المتجول فى الشرق الأوسط لجريدة أخبار اليوم، وكان من بين المهام التى قمت بها تغطية أزمة البترول الإيرانية عام 1950- 1951، وقضيت فترات طويلة فى إيران، وسافرت إلى كل أنحائها، وقابلت كل قيادات العهد القديم من السياسيين أمثال السيد (ضياء الدين طباطبائى) و(قوام السلطنة) و(الدكتور مصدق) بطبيعة الحال، وأهم رجل من رجال الدين الشيعة فى ذلك الوقت، ومؤيد (مصدق) المتحمس، (آية الله كاشانى)، وفى ذلك الوقت أيضًا دارت أول أحاديثى مع الشاه، كما تعرفت على شقيقته التوأم الأميرة أشرف، التى كان زوجها الأسبق أحمد شفيق وهو مصرى صديق لى.

كانت خلاصة هذه التجربة كتابى الأول (إيران فوق بركان) الذى صدر بالعربية فى عام 1951، وكان كتابًا حسن الحظ مع قرائه، والكتاب الأول بالنسبة لأى كاتب يشبه الحب الأول، ذكرى تبقى معه إلى زمن طويل، لذا فإننى تابعت الأحداث فى إيران باهتمام خاص منذ نشر كتابى (إيران فوق بركان).

وعندما نشبت الثورة فى العراق عام 1958، تم الاستيلاء على كل الوثائق التى وجدت فى رئاسة حلف بغداد، وأرسلت إلى القاهرة فى طائرة خاصة، كان ذلك فى الأيام الأولى للثورة، عندما كان قائدها اللواء عبدالكريم قاسم شديد الإعجاب بالرئيس جمال عبدالناصر، وقبل أن يدب النزاع بينهما، وكانت إيران عضوًا أساسيًا فى حلف بغداد الذى كنت أهاجمه على صفحات الأهرام.

وعندما أتيح لى الاطلاع على وثائق الحلف السرية، سنحت لى الفرصة لكى أراجع مدى صحة افتراضاتى عما كان يدور فى اجتماعات الحلف، وكانت تجربة ممتعة، كما أننى تمكنت أيضًا فيما بعد من أن أقارن بين المذكرات التى كنت أدونها عندما كنت مراسلًا فى إيران من جهة، وبين الحقائق التى تكشفت فيما بعد من خلال نشر مجموعات ضخمة من الوثائق الأمريكية، كل ذلك ساعدنى أيضًا على أن أتأمل جذور الدراما التى وصلت ذروتها فى الأشهر الأولى من عام 1979.

وفى أعقاب معارك 1967 فى الحرب مع إسرائيل، وجدت نفسى ألعب دورًا فى إعادة صياغة السياسة المصرية تجاه إيران، فبعد حرب 1967 شعر الكثيرون منا فى مصر بالحاجة الماسة لتحالف جديد للقوى فى الشرق الأوسط، لا يضع حدًا للخلافات بين العرب فحسب، بل لكى يحشد تأييد كل الدول الإسلامية فى المنطقة فى عملية المواجهة مع إسرائيل، وأحسسنا أن نزاعنا مع إيران، الذى يرجع تاريخه إلى أيام حلف بغداد، وأدى إلى قطع العلاقات الدبلوماسية، أصبح يقتضى مراجعة، وتلقيت فى ذلك الوقت رسالة ودية من الشاه مع السيد عباس مسعودى، الذى كان إلى جانب

عمله الصحفى يشغل منصب نائب رئيس مجلس الشيوخ إلى القاهرة عام 1968، ومرة أخرى عام 1969.

وبعد مناقشات طويلة اتفقنا فيما بيننا على الخطوات اللازمة لعودة العلاقات الدبلوماسية، بما فى ذلك إعداد البيان المشترك، وأحب أن أتصور أننى ساهمت فى إقناع الرئيس عبدالناصر بهذه الخطوة، التى كللت بالنجاح فى نهاية الأمر، وقبل رحيله فى سبتمبر 1970 بفترة وجيزة.

تلقيت دعوات عديدة من الشاه لزيارة طهران، وفى عام 1975 أمكن لهذه الزيارة المتأخرة أن تتم، وأدرت أحاديث طويلة مع الشاه نفسه، ومع رئيس الوزراء وقتها أمير عباس هوفيدا، ومع جامشيد أمزجار الذى خلف أمير عباس فى منصب رئيس الوزراء عامين، ومع الجنرال نعمت الله ناصرى، رئيس جهاز السافاك المخيف، ومع آخرين عديدين، كما تمكنت أيضًا من مقابلة معارضى النظام والتحدث معهم، بما فى ذلك عديد من الطلبة الذين ينتمون إلى اليمين واليسار.

وبعد ثلاثة أعوام أعيدت الحلقة التى تربطنى بالدراما الإيرانية مرة أخرى، لكن فى مكان جديد، ومع ممثل جديد.

كنت فى باريس فى ديسمبر عام 1978، وتلقيت دعوة لزياة آية الله الخمينى، فى بيته المتواضع فى المنفى فى (نوفل لو شاتو)، وقمت بهذه الزيارة، وقضيت فى صحبته عدة ساعات، وتحدثت معه على انفراد وبالتفصيل فى عدة موضوعات متنوعة.

سألنى الخمينى بعد أن تحدثنا بعض الوقت، عما إذا كنت أريد أن أصلى العشاء، وعندما عبرت عن رغبتى فى ذلك أخبر حفيده أن يصحبنى إلى السرادق، وبعد الصلاة بدأ الخمينى فى مخاطبة مؤيديه.

وقد كان مقدرًا لى أن أقابل الخمينى مرة ثانية بعد عودته المظفرة إلى طهران، ومرة أخرى قضيت ما يقرب من يوم أتناقش معه فى مدينة قم، كما تحدثت مع ابنه أحمد،

مساعده الأساسى، ومع حفيده حسين وهو من أعضاء حاشيته ذوى الرأى.

وأثناء هذه الزيارة سنحت لى الفرصة لمقابلة كل أعضاء المجلس الثورى، بما فى ذلك الحسن بنى صدر، الذى أصبح فيما بعد أول رئيس للجمهورية الإيرانية، كذلك معظم الشخصيات القيادية الدينية والساسة والعسكريين المتصلين بالنظام الجديد، كما تحدثت طويلًا مع الطلبة الذين احتلوا السفارة الأمريكية، وقابلت كذلك مهدى بازرجان رئيس الوزراء الذى استقبلنى فى مكتبه الضخم، الذى رأيت فيه هوفيدا من قبل، وقد رفض بازرجان أن يستخدم منضدة سلفه المستديرة الفخمة، وفضل عليها منضدة عادية وبعض المقاعد، كان قد أمر بوضعها فى أحد أركان الغرفة.

كان رئيس الوزراء كريمًا معى إلى حد أنه جاء بدفتر مذكراته اليومية الخاصة، والذى كان يدون فيه وقائع الأيام الأخيرة للنظام القديم، وقرأ على منها مقتطفات طويلة.

كما أننى مدين بالشكر أيضًا وبشكل خاص لإبراهيم يزدى نائب رئيس الوزراء للشئون الثورية فى ذلك الوقت، لإتاحته الفرصة لى للاطلاع على ما تحويه خزانته من عدة وثائق هامة تتصل بنظام الشاه، والتى ألقت كثيرًا من الضوء على الأحداث الأخيرة.

وبعد فترة وجيزة من قيام الثورة وجدت نفسى مرة أخرى مستغرقًا فى شئون إيران بشكل مباشر، بل وأصبحت أحد الذين وجدوا أنفسهم مشتركين فى المفاوضات من أجل إطلاق سراح الرهائن الأمريكيين.

فى العام 1982 صدر كتابى (مدافع آية الله.. قصة إيران والثورة».

فى الطبعة العربية منه عدت إلى العنوان الأصلى الذى عملت تحته طوال فترة إعداده، وقد رأى الناشرون فى بريطانيا وأمريكا أن يعدلوا عنه فى اللحظة الأخيرة إلى

عنوان تقليدى آخر هو (عودة آية الله).

كان رأيهم أن العنوان الأول يعطى للقارئ انطباعًا عن الكتاب لا يتفق مع حقيقته، فقد يتصوره البعض عرضًا صحفيًا سريعًا لوقائع الثورة الإيرانية، من نوع ما يصدر عادة عن بعض الأحداث الكبرى، وكأنه من حبوب البلع السريع التى تمتلئ بها الصيدليات، فالقارئ الإنجليزى أو الأمريكى كان فى رأيهم لا يعرف اهتمامى بإيران، وكتابى الأول عن الثورة الإيرانية أيام الدكتور مصدق يعود إلى قرابة ثلاثين سنة مضت، ولقد تصورت أن القارئ العربى يعرف الحقيقة، وهكذا رجحت أن أعود فى الطبعة العربية إلى عنوانى الأصلى الذى عشت معه سنتين فى الإعداد للكتاب.

لم أكتب هذا الكتاب من منازلهم أو من مكاتبهم كما يقولون، وإنما بدأت مع آية الله الخمينى من باريس، وتبعته إلى طهران، وعشت معه فى قم، وكنت الضيف الوحيد الذى دعاه الطلبة الإيرانيون الذين احتجزوا الرهائن فى السفارة الأمريكية إلى زيارتهم فى معقلهم.

وقضيت أيامًا أقلب فى وثائق وزارة الخارجية الإيرانية والقصر الإمبراطورى (نيافاران) وأقابل كل من أردت مقابلتهم من تبريز إلى أصفهان، ومن قم إلى طهران.

وكان أن اتصل بى وزير الخارجية الأمريكية وقتها (سايروس فانس) يسألنى إن كنت مستعدًا أن أتوسط فى قضية الرهائن، ودعانى إلى مقابلته فى واشنطن لبحث المسألة، ولم تكن ارتباطاتى المسبقة تسمح لى بالذهاب إلى واشنطن يومها، فأرسل لى مساعده لشئون الشرق الأوسط (هارولد سوندرز) يقابلنى فى لندن، ثم يعود إلى مقابلتى بعد ذلك فى قلعة (بلريف) بجوار جنيف، حيث كنت أنزل لبضعة أيام ضيفًا على الأمير صدرالدين أغاخان، وقد تسبب توسطى فى قضية الرهائن فى أزمة انتظرتنى فى مصر عندما عدت إليها.

كان الرئيس السادات متضايقًا وقال للسفير الأمريكى فى

مصر: هل لم تجد واشنطن بين الأربعين مليون مصرى أحدًا توسطه فى مشكلة الرهائن غير هيكل؟

ورد السفير الأمريكى قائلًا: من سوء الحظ أنه كان الوحيد بين الأربعين مليونًا الذى يعرف الخمينى.

الغريب أن موضوع توسطى فى مشكلة الرهائن كان موضوع حملة علىّ فى مصر.

كان دورى فى الكتابة عن إيران أن أشرح للعالم لماذا حدث ما حدث هناك؟.

لم أمنح الثورة الإيرنية تعاطفًا غير مشروط، أنا أعجبت بها كظاهرة إنسانية، أعجبت بالخمينى كشخصية، لكننى وصفته فى مقالاتى بأنه مثل الرصاصة التى انطلقت من القرن السابع واستقرت فى قلب القرن العشرين، رجل مقطوع من حقائق الدنيا وحقائق العصر الحديث، لكنه يمثل شيئًا فى تاريخ الشيعة.

كل ما فعلته أننى حاولت أن أشرح ماذا حدث فى إيران، لم يكن يهمنى الدفاع عنها، كنت أرى المشاكل التى مرت بها، وطبيعة التناقضات التى تعيشها، والأخطاء الفظيعة التى وقعت فيها، وارتكبتها، لقد ارتكبت الثورة الإيرانية أخطاء بشعة، لكن هذه هى طبيعة التاريخ.

كل كاتب فى الدنيا لا بد أن يأخذ موقفًا، لا يوجد كاتب فى الدنيا كلها محايد.

ولذلك فأنا أعترف أن الثورة الإيرانية بهرتنى فى أيامها الأولى، ولذلك اجتهدت فى تفسيرها وشرحها للعالم، ولو عاد القارئ إلى الفصول الثلاثة الأخيرة فى (مدافع آية الله) لوجد أننى توقعت ما حدث، وللأسف فقد صدقت توقعاتى عن خلافات الداخل والخارج، وعن رجال الدين والسياسيين والدور الذى لعبه الجيش والإرهاب والإرهاب المضاد.

عندما نصل إلى (فلسفة الثورة) الذى صدر فى العام 1954 حاملًا اسم عبدالناصر، لم أكن الأقرب إلى الرئيس وقتها.

كنت أقابله فى هذه الفترة وكنا نتكلم، كنا نتكلم كثيرًا، وبالنسبة لفلسفة الثورة كانت هناك رغبة فى وضع نوع من المنهج بشكل أو آخر، إن مبادئ الثورة كتبت فيما بعد، كانت هذه النقاط محسوسة فى الجو وفى المناخ العام كمطالب للثورة، لكنها لم تتم صياغتها، وتمت الصياغة بعد الثورة، بعد البيان الذى أعلن عن قيام الثورة.

كنت وقتها أريد أن أعمل شيئًا لمجلة (آخر ساعة)، كنت رئيس التحرير، ولذلك تجد أن فلسفة الثورة ظهرت أول ما ظهرت فى مجلة آخر ساعة. كنا قد بدأنا نتكلم، وكانت علاقتنا قد اقتربت، لكنها لم تكن قد التحمت الالتحام الذى جرى بعد ذلك.

كنا جالسين جمال عبدالناصر وأنا نتكلم، وهو لم يعرض على أن أكتب شيئًا، وأنا لم أعرض ولم أطلب، لكن عندما كتبت أنا محصلة الكلام الذى دار بيننا فى ثلاثة أجزاء ونشرت فى آخر ساعة، اكتشف هو أن هذه الحلقات معبرة، هكذا بدأت الحكاية، لم تبدأ بتخطيط وتصميم.

13

لم أكتب للطبعة الإنجليزية من كتابى (الطريق إلى رمضان) أية مقدمات، وإنما تركت الكتاب يقدم نفسه بنفسه، وتركته للناس يحكمون عليه.

ولم أكن أنوى أن أكتب للطبعة العربية- وهى ترجمة له عن الإنجليزية- أية مقدمات عملًا بنفس المنطق، منطق أن أترك الكتاب يقدم نفسه بنفسه وأترك للناس أن يحكموا عليه.

لكن الضجة التى ثارت حينما نشرت بعض الأجزاء منه مسلسلة فى جريدة (النهار) اللبنانية، أو منقولة عنها، هى التى دعتنى إلى محاولة كتابة مقدمة.

فعندما بدأت النهار وتبعتها صحف أخرى فى نشر حلقات مسلسلة من بعض فصول هذا الكتاب (الطريق إلى رمضان) كنت فى زيارة إلى إيران، أحاول أن أستكمل كتابى عن العالم العربى بنظرة عليه واقفًا عند تخومه القريبة جغرافيًا أو حضاريًا، وعدت لأجد ضجة لم تكن لى على بال، ووجدت لازمًا على أن أوضح وجهة نظرى كاملة أمام من ساءهم بعض ما كتبت عن غير قصد، وبغير سبب، فى صلب الكتاب يمكن أن يسىء.

وكنت أرى أنه من الأولى قبل إبداء رأى فى الكتاب أن ننتظر حتى يكون أمامنا نص كامل له، فهل يمكن الحكم على كتاب من مقتطفات تنتقى منه للنشر الصحفى، وقلت ذلك تأسيسًا على أن النقاد فى العالم كله لا يحكمون على كتاب قبل أن يكون أمامهم، يعرض عليهم كل قصته، ومن ثم تكون أمامهم الفرصة لتقييمه على أساس سليم.

وتساءلت: لماذا القفز بهذه السرعة إلى مقولة تزييف التاريخ، ولماذا أقوم أنا بذلك؟ وأى مصلحة لى فيه؟

يقول المنطق أنه عندما يزيف كاتب التاريخ، فهو يفعل ذلك لمصلحة، يزيف التاريخ لحساب حاكم أو لمصلحة سلطة، فالمصالح عند الاثنين، المصالح عند الأحياء الأقوياء، وليست عند الموتى والضعفاء.

وكنت أقول لنفسى إنه يمكن أن يكون هناك خطأ وقعت فيه؟

لكننى سرعان ما كنت أعود وأقول: حتى إذا حدث ذلك فله من حسن النية شفيع، وأنا لم أدع لنفسى صفة المؤرخ، فالذين عاشوا وقائع من التاريخ لا يستطيعون التأريخ لها، لأن رؤيتهم مشوبة بتجربتهم الذاتية، وقصارى ما يستطيعون تقديمه هو شهادة للتاريخ وليست تأريخًا، وهناك فارق ضخم بين الاثنين، ومع ذلك فلعلنى أكون أسعد الناس لو أن أحدًا قال لى: أنك كتبت كذا وكذا.. ولكن الحقيقة كانت كذا وكذا، ولو أننى اقتنعت لسجلت اقتناعى، ولتراجعت عما كتبت

شاكرًا ومقدرًا لشعاع من الحقيقة أنار أمامى ما كان شاحبًا أو معتمًا.

لقد ظلت القاعدة عندى أنه بالنسبة إلى ما أبديت من آراء- بعد ما رويت من وقائع ما عشت- فإن رأيى هو رأيى، أتحمل مسئوليته وقد فعلت، ولم أخف أنه كان لى رأى مختلف فى طريقة إدارة الصراع السياسى منذ انتهت حرب أكتوبر العظيمة، ولكنى قلت إن هناك مسافة شاسعة بين الرأى والقرار.

قلت ذلك فى توضيح وجهة نظرى كمنطق عام، ثم دخلت فى بعض التفاصيل أتخذ منها نماذج لا أكثر ولا أقل.

لقد ذكروا أننى كتبت أنه كانت هناك خطط لعمليات هجومية قبل خطة بدر التى نفذت بجسارة واقتدار فى أكتوبر 1973، وهذا صحيح بالقطع، ولست أعرف ماذا فيه يسىء إلى أحد؟

أية إساءة إلى أحد أن أقول إن الفريق عبدالمنعم رياض بدأ مع نهاية سنة 1967 يضع التصورات الأولى لعملية هجومية؟

ذهبت إلى أن العبرة ليست بالخطط، وإنما العبرة بالقرار السياسى الذى يضع هذه الخطط موضع التنفيذ، ولا يمكن لقوة على الأرض أن تنسب قرار أكتوبر العظيم إلى أحد غير صانعه، وهو أنور السادات، ذلك قرار سوف يظل مجدًا مقيمًا لمصر ومجدًا مقيمًا للعرب، ولقد كنت بنفسى أول من أطلق على أنور السادات (صاحب قرار أكتوبر)، ولا أظن أن أنور السادات يريد مدخلًا إلى التاريخ غير كونه فعلًا (صاحب قرار أكتوبر) العظيم.

وذكر من لم يقرأوا الكتاب أننى تحيزت للفريق محمد أحمد صادق، ولا أظننى فعلت ذلك، لقد أدى الرجل واجبه والحكم عليه للتاريخ، أخطأ أو أصاب، ومع ذلك فقد كنت أثبت اختلافى مع الفريق صادق فى الكتاب، ثم إنه لم تكن تربطنى

صداقة خاصة أو وثيقة بالفريق صادق.

لقد عرفت الرجل عندما كان يقود القوت المسلحة المصرية، وقدرت فيه مزاياه، وأختلف مع العديد من آرائه، ولكنى رفضت أن أقاطعه بعد أن فقد منصبه، ربما لأنى أعتبر أن معرفة الناس من خلال مناصبهم- فقط- عيب- لا يليق.

وذكروا أننى أعطيت للمملكة العربية السعودية دورًا فى قرار إخراج الخبراء السوفيت من مصر، ولم يكن ذلك من بين ما كتبت، لقد أشرت إلى بعض الشخصيات السعودية فى معرض رسالة وصلت إلى الرئيس السادات (من تحت المائدة)، كما قال بنفسه فى مؤتمر صحفى، رسالة قيل لى فيها: أرح نفسك، الباب هنا والمفتاح هنا والحل عندنا فى واشنطن.

قلت إن قرار إخراج الخبراء السوفيت كان فى رأس أنور السادات، وكان قد وصل إليه بعد ظروف رآها داعية إليه، وقد شرحت كثيرًا من هذه الظروف ضمن فصول هذا الكتاب، وفيما يتعلق بالرسالة التى جاءت (من تحت المائدة) حسب تعبير الرئيس السادات فلقد كان كل ما فعلته هو أننى تساءلت عمن حمل هذه الرسالة؟.. وكان ذلك كل شىء.

تطور الهجوم علىّ- ولعلى أقول تدهور- إلى درجة استعمال وصف (الكذاب) فى إشارة صريحة إلىّ، والغريب أن ذلك كان فى معرض كلام يقول بأنه لم تكن هناك خطط هجومية مصرية، قبل أن يتولى المشير أحمد اسماعيل قيادة القوات المسلحة المصرية.

كان اعتقادى أن نقل هذا الكلام جاء مشوهًا.

فكيف يمكن أن يقال بأنه لم تكن هناك خطط هجومية مصرية قبل قيادة أحمد اسماعيل، فى حين أن أحمد إسماعيل لم يتول منصبه إلا فى أكتوبر 1972، بينما نحن نتذكر أن الرئيس السادات أعلن سنة 1971 سنة للحسم، وكان متجهًا إلى معركة قبل نهايتها، لولا أن فاجأته ظروف

الحرب فى شبه القارة الهندية بين الهند وباكستان كما أعلن بنفسه للأمة، فهل يعقل أنه كان متجهًا إلى معركة من دون خطة، أو أن المعقول أكثر هو أنه كانت هناك خطط قبل أحمد إسماعيل.

وأعترف أن وصف (الكذاب) لم يغضبنى، ولم ألجأ إلى القضاء- كما أراد بعض الأصدقاء- لأنى ببساطة لم أعتبر أننى أهنت، ومهما يكن فلقد أحسست بعرفان حين بعث الرئيس أنور السادات من سالزبورج يطلب التحقيق مع الذين استغلوا ما نسب إليه خلافًا لما قال، وكان مطلبه فى التحقيق أنه لا يريد أن ينسب إليه ما لم يقله، وأنه لا يقبل أن يستغل فى تسوية حسابات شخصية.

من جانبى لم تكن لدىّ حسابات شخصية أريد تسويتها مع أحد، فأنا أعرف نفسى، وأظننى أعرف الآخرين، وإذا قررت أن أتكلم فلن يكون ما أقوم به تصفية لحساب شخصى، وإنما سيكون حساب قيم أخلاقية ووطنية.

كانت لى ملاحظتان على ما دار أمامى.

الأولى أن من بين مشاكلى أننى أكره الخوف لأنى أؤمن بالحب دون أن أسمح لنفسى بالمتاجرة فيه، فقد أحببت جمال عبدالناصر، ولهذا لم أخف منه، وأحببت أنور السادات ولهذا لا أخاف منه، وأتذكر أننى قلت له مرة: إن الذين يخافون لا يحبون، والذين يحبون لا يخافون.

والثانية هى أننى كنت فى لندن أثناء الاحتفال بصدور الكتاب، وبين برامج الاحتفال كان هناك مؤتمر صحفى فى مبنى دار (كولينز) للنشر، حضره أكثر من مائة صحفى بريطانى وغير بريطانى من الذين يعملون ويتابعون الأخبار من لندن.

دخلت إلى المؤتمر منتظرًا أن يتوجه بعضهم أو أحدهم بسؤال عن الضجة التى ثارت هنا حول بعض الوقائع فى كتابى.

دهشت، وتساءلت: أليس غريبًا أن واحدًا منهم- حتى واحد فقط- لم يوجه إلى سؤالًا كنت أنتظره.

سؤال يقول: لقد ذكرت كذا وكذا، ولكنهم خالفوك فيما ذكرت، فما هو تعليقك؟

لم أسمع هذا السؤال أو شيئًا قريبًا منه، ولم أعط جوابًا بالتزيد أو بالتطفل، لقد وجدوها زوبعة فى فنجان صغير للقهوة العربية، فلم يشربوا ولا أنا شربت.

14

كانت شبكة قنوات الأخبار التليفزيونية الأمريكية (سى إن إن) أول من نبهنى إلى أن عشرين سنة مضت على الزيارة الشهيرة التى قام بها الرئيس أنور السادات إلى القدس فى شهر نوفمبر 1977، والتى داهمت العالم مثل زلزال تتوالى توابعه.

وفى مناسبة الذكرى العشرين لتلك المفاجأة السياسية نوفمبر 1977 فإن شبكة قنوات الأخبار التليفزيونية الأمريكية اتصلت تدعونى أمام مشاهديها فى العالم عن النتائج والآثار التى توالت وتداعت على العالم العربى والشرق الأوسط من يومها حتى الآن.

واعتذرت لشبكة قنوات التليفزيون الأمريكية وشعورى أنه ليس هناك داع لتقليب مواجع مصرية وعربية أمام جمهور عالمى.

وفى اليوم التالى مباشرة جاءتنى مجلة (روزاليوسف) ممثلة فى نائب رئيس تحريرها الأستاذ عادل حمودة وكان طلبه هو نفس الطلب الذى اعتذرت عن تلبيته لشبكة التليفزيون الأمريكية، وأفضيت للزميل بما لم أقله لغيره، لأن عرض الأشجان على الغرباء هوان.

لكن الزميل الصديق لم يقتنع وظنه، أو حسن ظنه، أن الحديث أمام جمهور مصرى وعربى ليس تقليبًا للمواجع،

وإنما هو فحص جديد بالدرس لتجربة سياسية غير مسبوقة ولعلها غير ملحوقة فى تاريخنا.

وكان عادل حمودة يحمل معه نسخة من كتاب صدر لى قبل عشرين عامًا تقريبًا بعنوان (حديث المبادرة) وكان يرجع إلى صفحات منه أثناء لقائنا وحديثنا، والكتاب يحوى مجموعة مقالات بدأت نشرها بعد أربعة شهور من الزلزال ثم ضمها جميعًا غلاف ظهرت به فى بيروت أوائل مايو سنة 1978 أى بعد ستة شهور بالضبط.

وهكذا فإن شبكة (سى إن إن) ذكرتنى بالمبادرة، ثم إن مجلة (روزاليوسف) ذكرتنى بحديث المبادرة.

ويبدو أن آخرين غيرى لم يكونوا فى حاجة لمن يذكرهم سواء بالمبادرة أو حديث المبادرة، فلم ألبث أن وجدت أمامى اقتراحًا من دار الشروق بإعادة نشر الكتاب مرة أخرى بعد عشرين سنة، وقد ترددت رغم شعور يراودنى بأن ذلك الكتاب (حديث المبادرة) لم يصل فى حينه بقدر كاف إلى مصر، وكنت أعرف أن بيروت أصدرت أكثر من أربع عشرة طبعة له، لكن الكتاب ظل مصادرًا فى مصر لسنوات طويلة رغم تسرب نسخ منه- قليلة كانت أو كثيرة لست متأكدًا- من خلال ثغرات يصعب على أية رقابة أن تتفاداها أو تسدها مهما كانت صرامة إجراءاتها.

وكان مبعث ترددى أن كل كتاب- والكتاب السياسى بالذات- كلمة قيلت فى زمانها ومكانها، ثم مضى سيل الحوادث متدفقًا وبالطبع متجاوزًا، وبالتالى فإن استرجاع كلمة سبق زمانها ومكانها تلكؤ ليست له فائدة محققة، ثم إن هناك غير التلكؤ مظنة غرض حتى وإن لم يظهر بذاته على السطح، ذلك أن تكرار كلمة سبقت فى الزمان والمكان مسألة لا تقبل غير إحدى حالتين، حالة الخطأ المحقق بعد مضى السنين، وهنا فإن غرض الكلمة يكون التغطية على خطئه بإعادة تفسير ما قال قاصدًا أن يشوش أو يلون.

وأما الحالة الثانية فهى الصواب المبين بعد مضى السنين

أيضًا، وهنا فإن غرض صاحب الكلمة يكون ادعاء الحكمة بإظهار صواب ما قال مبكرًا، مقلدًا الديك الذى صاح عند الفجر، متوهمًا أنه لولا صيحته ما لاح نور الصبح ولا طلع النهار.

مع بواعث ترددى طلبت نسخة من (حديث المبادرة) أعيد قراءته، وفوجئت عندما لم أجده، ومعنى ذلك أن كل ما وصل إلىّ من النسخ بالتهريب خرج من عندى بالتسريب إلى حوزة آخرين، تفضلوا بطلبه ووجدت حقًا ان أستجيب، وأظن أننى كنت تواقًا أن يقرأ أحباب وأصدقاء لى فى مصر ما نشرته خارجها، وهكذا فلم يكن أمام مكتبى غير شراء نسختين- هما الأخيرتين- من مكتبة مدبولى، إحداهما أخذتها أعيد قراءة ما كتبت قبل عشرين سنة، وأما النسخة الثانية فقد حجزت للحفظ والتسجيل، وحتى لا يجىء يوم يكتشف فيه كاتب أنه لا يمتلك نصًا لما كتب.

حين أمسكت بنسخة الكتاب، وقبل أن أعيد قراءته، رحت أستدعى ظروف نشره وتوقفت وقفة استذكار أمام عنوانه، وقد تأثرت فى صياغته وقتها بالقول المأثور عن (حديث الإفك)، الذى تكررت الإشارة إليه فى روايات السيرة النبوية، والشاهد أن إيقاع العبارتين (حديث المبادرة) و(حديث الإفك) يحوى من التماثل أكثر مما تحتمله المصادفة، وأحسب أن ذلك لم يفت على كثيرين وقتها، وربما لم يفت على الرئيس السادات نفسه.

قبل أن أفتح غلاف الكتاب رحت أقلب أوراق ملف يضم قصاصات صحف- من أيامها- وقد طلبتها استعادة للأجواء مع مناسبتها، وقبل إعادة قراءة نص الكتاب مرة أخرى بعد عشرين سنة.

كان نشر الكتاب فى بيروت يوم 15 مايو 1978.

وفى القاهرة يوم 28 مايو 1978 تطالعنى قصاصة من الأهرام ومن قلب الصفحة الأولى على خمسة أعمدة عنوان كبير يقول: إحالة 5 صحفيين بينهم هيكل إلى المدعى

الاشتراكى، وتحت عنوان فرعى: الداخلية تعلن: الصحفيون الخمسة شهّروا بمصر وهددوا سلامة الجبهة الداخلية.

ثم يبدأ الخبر بعد ذلك فيقول: بعث السيد محمد نبوى إسماعيل، وزير الداخلية، أمس، إلى المدعى الاشتراكى قائمة أولى بأسماء خمسة صحفيين مصريين موجودين فى الداخل، وقال وزير الداخلية فى رسالته إلى المدعى الاشتراكى إن الصحفيين الخمسة قد دأبوا على إرسال أخبار ومقالات إلى الخارج تشهر بمصر وتهدد سلامة الجبهة الداخلية، والصحفيون الخمسة هم: محمد حسنين هيكل ومحمد سيد أحمد وأحمد حمروش وصلاح عيسى وأحمد فؤاد نجم.

وقد بعثت وزارة الداخلية إلى المدعى الاشتراكى بالوثائق الخاصة التى سيتناولها التحقيق مع الصحفيين الخمسة وفيها صور المقالات التى كتبوها.

وقد أصدر المدعى الاشتراكى قرارًا بمنع الصحفيين الخمسة من السفر إلى الخارج حتى يجرى التحقيق معهم.

ثم مضى سياق الخبر بعد ذلك إلى تفاصيل أوسع وأشمل.

قصاصة أخرى فى الملف تحوى برقية صادرة بتاريخ 29 مايو بتعليق لى على الموضوع بعثت بها إلى وكالة رويترز، وكان عنوانها (هيكل يقول لم أسىء إلى مصر.. ومن حقى أن أختلف مع الرئيس السادات).

وبدأ خبر رويترز على النحو التالى:

(صرح محمد حسنين هيكل لوكالة رويترز بأنه لم يستطع فهم القرار الذى صدر بتحويله إلى المدعى الاشتراكى فى مصر للتحقيق معه بتهمة الإساءة إلى مصر، ونفى هيكل أنه يمكن أن يسىء إلى وطنه، لكنه أضاف قائلًا: إننى بالتأكيد أختلف مع الرئيس السادات فى كيفية تحقيق سلام فى الشرق الأوسط، وكنت أظن أن ذلك حق كل مواطن.

قصاصة ثالثة من الصفحة الأولى من الأهرام بتاريخ 15 يونيو 1978 وبداية ما فيها يقول: بدأ أمس المستشار أنور حبيب، المدعى الاشتراكى، التحقيق مع الأستاذ محمد حسنين هيكل فيما نسب إليه من نشر مقالات فى الداخل والخارج تمس سمعة مصر، وحضر التحقيق الذى استمر ساعة ونصف الساعة الأستاذ ممتاز نصار، محامى المدعى عليه، والسيد حسن الشرقاوى، سكرتير عام نقابة الصحفيين ممثلًا للنقابة، ويستأنف المدعى العام الاشتراكى التحقيق صباح اليوم.

قصاصة رابعة ببرقية لوكالة الأسوشيتد برس صادرة من القاهرة يوم بدء تحقيق المدعى الاشتراكى فى 15 يونيو 1978 تقول مقدمتها بالنص:

(جرى استجواب محمد حسنين هيكل مطولًا أمس بواسطة المستشار أنور حبيب، المدعى الاشتراكى، واثنين من مساعديه هما المستشار عبدالرحيم نافع والمستشار أحمد سمير سامى، وذلك بشأن مقالات نشرها هيكل خارج مصر، وبعد الاستجواب الأولى الذى استغرق ساعتين ونصف الساعة قال محمد حسنين هيكل للصحفيين: لقد كان جو التحقيق مهذبًا، ولا أستطيع أن أضيف أكثر لأن المدعى الاشتراكى طلب منى ألا أتحدث للصحفيين عن تفاصيل التحقيق، وأضاف هيكل أنه شديد العرفان للصحافة العالمية والعربية، لأنها تتابع قضيته باهتمام، لكنه يأسف لأنه لا يستطيع أن يساعد فى إلقاء ضوء على موضوعات التحقيق معه).

ثم أضافت الوكالة بعد ذلك قائلة: إن بدء التحقيق مع هيكل كان موضوع تعليقات فى معظم صحف الولايات المتحدة وأوروبا، وقد خصصت خمس صحف كبيرة فى العالم وهى نيويورك تايمز وواشنطن بوست الأمريكيتان والموند الفرنسية والتايمز الإنجليزية والكورييرا ديلا سيرا الإيطالية افتتاحياتها اليوم لموضوع التحقيق مع هيكل.

ثم استطردت الأسوشيتد برس أن هيكل يواجه إقصاءه من

نقابة الصحفيين ومنعه نهائيًا داخل مصر أو خارجها، وربما يواجه عقوبة السجن ما بين خمس سنوات وسبع سنوات.

ويتضخم ملف القصاصات على هذا النحو مع استمرار تحقيق المدعى الاشتراكى معى صيفًا بأكمله من يونيو وحتى أكتوبر 1978.

وإلى جانب ذلك وبعده لأيام وشهور عشرات من المقالات- أو هل أقول مئات- ورسوم كاريكاتورية تحتها إشارات وتعليقات مؤادها جميعًا أننى أسأت إلى مصر وخرجت على عهدها، بل أكثر من ذلك أننى تركت حِمى الوطن ولجأت إلى حِمى غيره، مرة كما قيل فى بيروت، ومرة فى لندن، بل وحتى مرة فى ليبيا، بينما أنا لم أطأ أرض ليبيا، رغم أنها جزء من وطنى العربى الكبير، منذ سنة 1970، ثم إننى لم ألتق بالعقيد معمر القذافى رغم أنه واحد من أشهر قادة العالم العربى بعد سنة 1974، أى منذ تركت مكانى فى الأهرام، وكان ذلك من حرص شديد إلى درجة التعسف على أن تكون الخطوط واضحة وتظل الحدود ظاهرة تحت شعاع الشمس آمنة ومحترمة.

وكنت أطالع ما يكتب عنى فى تلك الأيام استقرئ اتجاهاته، دون أن أدقق فى نصوصه قائلًا لنفسى ولمن حولى: إن هذه كلها قراءات مؤجلة إلى زمن قادم.

والواقع أننى كنت أشعر أن قراءتى لها بالنصوص يمكن أن تؤثر على مشاعرى الإنسانية، وربما على توازنى الفكرى والنفسى، أتمنى الحفاظ عليه.

وفى الغالب فقد كنت أطل على العناوين وأمر بعينى على السطور وأتطلع إلى أسماء الكتاب وبينهم من كانوا- وبعضهم ما زالوا- فى موضع القرب والود منى.

والحقيقة أننى كنت أتفهم وأعذر، فالضغوط عنيفة، ويد السلطة فى الدولة الشرقية غليظة، ثم إنه ليس يصح لرجل اختار لنفسه أن يطلب من الآخرين اعتماد موقفه، فلكل رجل

أولوياته وحتى حساباته، وذلك حقه، هكذا كنت كما قلت أتفهم وأعذر ولا أزال.

ولربما أعترف ودون مكابرة أننى أحسست بالوجع مرة واحدة وكان ذلك حين استيقظت فى الصباح يوما ووجدت عنوانًا رئيسيًا على الصفحة الأولى من جريدة الأخبار موضوعه عنى، وكان العنوان من كلمة واحدة: (الكذاب).

ولم يكن مبعث ما أحسست به مجرد ما طالعت، لكن الذى حدث أن أصغر أبنائى وهو يومها صبى فى التاسعة من عمره مر على- كما تعود كل صباح- فى طريقه إلى مدرسته عارفًا أننى فى ذلك الوقت أكون جالسًا لفنجان شاى مع صحف الصباح.

كنت قد طالعت العنوان فى اللحظة التى سمعت صوته قادمًا إلى حيث أجلس، وخطر ببالى أن أدارى الجريدة حتى لا يرى ما رأيت، وقلقى عليه أنه مكشوف لمؤثرات ما يقرأ بينما أنا محصن ضده، ثم عدلت عن المحاولة تاركًا الأمور لطبائعها دون انفعال أو افتعال، وجاء الصبى إلى جوارى وكانت تحيته فى الصباح ندية وحلوة، ثم وقع نظره على مجموع الصحف، وكنت أزحتها قليلًا لألتفت له، ولمح بسرعة ما كنت أتمنى أن أخفيه وراح يقرأ، ولم أعترضه بجد أو بمزاح لأثنيه أو لأخفف عنه، وقرأ الصبى ما قرأ ثم تطلع إلى وفى عينيه حيرة لا يعرف كيف يداريها ولا يعرف كيف يعبر عنها، ثم تحولت الحيرة فى ومضة إلى نظرة امتزج فيها الحزن بالغضب، وبادرته بأنى لست متضايقًا ولا أريده أن يتضايق.

ثم قلت له: ذات يوم سوف أجلس إليك وسوف أحدثك طويلًا عما نحن فيه الآن، ولكننى فى هذه اللحظة أرجوك ألا تشغل بالك بشىء غير درسك.

ووقف الصبى أمامى وغامت عيناه بدمعة أحسست به يغالبها ورجوت من أعماقى أن يغلبها ولا تغلبه، وأحسست بالعجز عن أى قول أو فعل، وكان الصبى رائعًا، فقد اختصر

الموقف بفطرة البراءة فيه وأمسك برأسى يقبله ومضى صامتًا.

تلك اللحظة أذكرها ولا أنساها، وأعترف إننى بعدها- وكما يفعل غيرى حين يلجأون إلى المعلقات فى ذاكرتهم من المأثورات- ظللت لعدة أيام أتأسى بترديد الآية القرآنية (سيعلمون غدًا مَن الكذاب الأشر).

لكن الغد وقتها كان ما زال بعيدًا فى الغيب، وكان وعده بالعلم محجوبًا وراء أجواء رمادية معبأة باحتمالات مجهولة، لا أحد يعرف ماذا تترك بعدها من أثر؟ وماذا تبقى وماذا تذر؟

أزحت ملف القصاصات وفتحت غلاف الكتاب الذى استدعى العواصف كلها، ورحت أقرأ وأقرأ وأستعيد وأستعيد وأراجع وأراجع، وحينما قاربت نهاية الكتاب، وجدتنى أقترب من التفكير بجد فى اقتراح إعادة نشره، وكانت أسبابى أبعد ما تكون عن الرغبة فى التغطية على خطأ أو الادعاء بصواب.

كانت الأسباب التى راحت تراودنى إزاء اقتراح إعادة نشر (حديث المبادرة) مرة أخرى بعد عشرين سنة أسبابًا كلها فيما أتصور موضوعية.

لقد جرى نشر المقالات ثم جرى طبع الكتاب بينما أنا مقيم فى مصر لم أفارقها يومًا واحدًا، وعندما صدر قرار التحقيق معى أمام المدعى الاشتراكى (وبمقتضى قانون العيب) فقد جرى إعلانى فى مكتبى، وحين أرادوا مصادرة جوار سفرى فقد أخذوه من يدى مباشرة.

ومثلت أمام تحقيق غريب فى بابه أجراه معى المدعى الاشتراكى أنور حبيب، وطال التحقيق صيفًا بأكمله، وطلبت نسخة من المحاضر ولم يستجب لطلبى أحد، لكن أحد الكرام تطوع وجاء إلى بها ونشرتها بدورها فى كتاب تحت عنوان (وقائع سياسى أمام المدعى الاشتراكى).

ومضت سنوات طويلة من سنة 1977 إلى سنة 1981، ولم يحدث لى شىء إلا حملة إعلامية تؤجج نيرانها بين

الحين والآخر خطبة للرئيس السادات يختصنى فيها بالكثير من استهجانه وضيقه بمواقفى، لكن السلاسل والقيود بقيت على رفوفها حتى سبتمبر 1981 حين جرى اعتقالى واعتقال آخرين.

بين التاريخين أربع سنوات كاملة، وخلال تلك الفترة المزدحمة بالحدة والضيق فقد أبدى كثيرون خارج مصر- فى العالم العربى وخارجه- كرمًا يعرض الملجأ والمأمن بعيدًا عن احتمال الخطر، وأشهد أننى لم أجد داعيًا للقبول رغم عرفانى بالفضل.

كان اعتقادى باستمرار أن الشعب المصرى قادر على الحماية حتى وإن لم يكن قادرًا على التصدى.

وكان تحسبى باستمرار أن اللجوء السياسى خارج الأوطان يخلع جذر الشجرة من أرضها، ثم إنه يرهن الإرادة لحيازة أو لرهن تفرضه الظروف على أى لاجئ، فهو فى اللحظة التى ينجو فيها بنفسه من السلطة وفى وطنه يجد نفسه تلقائيًا تحت سلطة أخرى يحتاجها بأكثر مما تحتاجه.

وعلى الأرجح فإنه فى الشهر الأول من التجائه إلى دولة أخرى يقابل رئيسها، وفى الشهر الثانى يقابل أحد وزرائها، وفى الشهر الثالث يكون المسئول عنه رئيس مخابراتها، وفى الشهر الرابع يكون عليه أن يؤقلم نفسه على التعامل مع واحد من ضباط المخابرات على أفضل الاحتمالات.

ولم يكن ذلك ما أريد لنفسى، والواقع أننى كنت فى غنى عنه، لأنى كنت أشعر بذلك الدرع غير المرئى من حماية الرأى العام فى مصر، حماية بالسلب وإن لم تكن بالإيجاب.

15

لم تخطر فكرة كتابى (أحاديث فى العاصفة) لى، وإنما طرت لغيرى، وبعد تفكير لم يطل رحبت بها. صاحب الفكرة الأصلى هو دار الشروق- وملخص الفكرة هو جمع ونشر أحاديث صحفية أجرتها معى الصحف العربية والأجنبية

ونشرت خارج مصر فى أيام لم يكن مسموحًا لى أن أنشر- فضلًا عن أن أكتب- داخلها.

تأملت الفكرة ثم رحبت بها، وكانت دوافعى كما يلى:

أولًا: نشرهذه الأحاديث يسد فجوة زمان حوصرت فيها آرائى فى شئون الساعة وأحداثها، وصحيح أنها شئون وأحداث سبق توقيتها، ومع ذلك بدا لى أن جمعها ونشرها فى كتاب يحمل السجل كاملًا وواضحًا، وهذا فى حد ذاته مطلوب.

ثانيًا: إنه وإن كان التوقيت الذى صدرت فيه هذه الأحاديث قد سبق زماننا، فإن موضوعات هذه الأحداث لا تزال حالة وربما أيضًا لاحقة، فبعض الأحداث قد يذهب عنها وهجها الإخبارى بالتوقيت، لكن بعض قيمتها يظل باقيًا لأن الأحداث الهامة تتحول فى كثير من الأحيان من أخبار وقضايا.

وثالثًا: وهذه نقطة مهمة تستحق بعض الإفاضة، فإن مجموعة الأحاديث التى أدليت بها لتنشر خارج مصر- وخصوصا فى العالم العربى- كانت هى الذريعة التى وقع الاستناد إليها فى تلك الأيام للترويج لتهمة غريبة وجهت إلىّ- كتابة وخطابة- تدعى بأننى أسأت إلى سمعة مصر خارجها، وتذرعًا بها جرى سحب جواز سفرى، ومنعى من مغادرة مصر، وتحويلى إلى المدعى الاشتراكى للتحقيق معى طوال ثلاثة شهور من صيف 1978.

وقتها كان المناخ المحيط بى غريبًا وممعنًا فى غرابته.

من ناحية هناك من نشطوا للترويج بأننى هاجرت من مصر وأقمت خارجها، ولم يكن هذا بالطبع حقيقى، ولقد بلغت عملية الترويج لهذه المقولة حدًا أصابنى بشىء من الحساسية فى بعض اللحظات، ولا بد أن أعتذر الآن لكثيرين قابلتهم تلك الأيام فى مصر، فإذا بهم يبدأون تحيتى تهنئة بسلامة العودة، ويفاجأون منى برد تحمل نبراته معنى العتاب، متسائلًا: العودة من أين؟

ويبدو الارتباك على السائلين بحسن نية فيستوضحون بتردد: ألم تكن مقيمًا خارج مصر؟

وربما كان يجب أن أفهم أكثر وأن أعذر، فحملة الترويج كانت قوية، ثم إن ملابساتها كانت محيرة، فقد وجد الناس فجأة أننى لا أقول شيئًا وإنما يقال عنى الكثير دون اعتراض من جانبى يظهر أمامهم، ولم يخطر ببالهم أن القول من جانبى مصادر، وأن القول عنى مباح أو لعله مستباح.

ومن ناحية أخرى فقد وجد الناس أن رئيس الدولة نفسه فى ذلك الوقت يقود حملة الهجوم على، ولم يتصور أحد منهم أن مواطنًا عاديًا يستطيع أن يعيش فى بلد- أى بلد- تحت سلطة رئيس دولة يناصبه العداء شخصيًا وعلنيًا، ولا يترك مناسبة عامة يتكلم فيها دون أن يشير إليه تلميحًا أو تصريحًا باتهامات وصلت أحيانًا إلى الخيانة العظمى، إذن فلا بد أن هذا المواطن بعيد، مطمئن هناك فى ابتعاده، ولا بد أيضًا أن رئيس الدولة معذور فهو لا يستطيع أن يطول بيده واحدًا من رعايا دولته، وإذن يناله بالكلام ما دام غير قادر على أن يطوله بالفعل.

ومن الغريب فى تلك الأيام أن بعض الذين كانوا يعرفون حقيقة وجودى طوال الوقت فى مصر لم يجدوا تفسيرًا لإصرارى على البقاء فيها، رغم جو العداء الموجه إلىّ من أعلى المستويات بالدولة، إلا تفسيرًا واحدًا وهو أننى لا بد أملك من الأوراق والمستندات ما يعطينى حصانة تردع هذه المستويات العالية عن أن تمد يدها نحوى بأذى، ولم يكن هذا صحيحًا، والصحيح فيما أظن أنه كان هناك تحسب من ردود فعل خارج مصر، خصوصًا فى أوروبا وأمريكا، حيث كانت تنشر كتاباتى الممنوعة فى وطنى، ومع ذلك فإن هذا التحسب انتهى مفعوله عند لحظة معينة وجدت نفسى فيها مع آلاف غيرى ضمن حملة اعتقالات سبتمبر.

أكثر من كتب
ماذا فعلت بالوثائق؟
1

أهم ما عندى مجموعة أوراقى الشخصية التى سجلت فيها بخط يدى ما رأيت وما سمعت، كتبتها كى لا أنسى حين الحاجة إليها لتوثيق السجل، أو حين يحين أوان الكتابة والنشر، وفى كل الأحوال فإن هذه الأوراق الشخصية ذاكرة رجل وليست ذاكرة وطن.

لم أترك ما مر بى يضيع وإنما حاولت أن أسجله، ولا أتصور أن ذلك يحمل مظنة أى نوع من أنواع الاحتكار للحقيقة، فما أتيح لى كان متاحًا لغيرى، فى مثل ظروفى، وكان الفارق الوحيد أن الكتابة كانت بحكم المهنة فى خواطرى، ولم يكن الأمر كذلك لغيرى، وإنما طرأ فيما بعد لسبب أو لآخر.

هناك قيمة مضافة لما تدون وتكتب، إنها مشاعرك، وهى مسألة تخصك وحدك، ولا تلزم غيرك لكنها تكشف أمامك، عندما تطالع الورق بعد وقت يطول أو يقصر، الطريقة التى نظرت بها إلى الحدث وقت أن سجلت ما لديك من معلومات وملاحظات، وقد تحتاج إلى مراجعتها وتأملها من جديد، قد ترى أنها كانت صائبة، أو جانبها الصواب بحقائق أخرى تكشفت أمامك فيما بعد، لكنك كنت فى لحظتها على النحو الذى كتبت.

لم أنشر كل ما كتب على ورق، وهذا طبيعى، استخدمته أحيانا بصورة مباشرة مع ضبط الصياغات، وأدخلت بعضه الآخر فى سياقات ما كتبت من روايات تاريخية، ورأيت فى بعضه الثالث أن وقته للنشر لم يأت بعد.

وأنت عائد من مواقع الأحداث الكبرى تطرح عليك أسئلة عما رأيت، فإن لم يكن معك ورق عليه ملاحظاتك تفقد روايتك سلامة سياقها، وإن لم يكن من ضمن الورق ما تقدر

أن تحصل عليه من محاضر ووثائق تفقد قدرتك على إقناع قارئك بأن ما تقوله ثابت ومؤكد.

بهذه الروح دخلت إلى مجموعة من كتبى وأنا مسلح بوثائقى وما لدى من تدوينات، كنت أعرف أن وقتها سيأت حتمًا.

2

لا أظننى أبالغ لو قلت إن صاحب الجلالة الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود هو الذى أغرانى أن أترك هذه المجموعة من الخطابات الموجهة إلى جلالته تنشر فى شكل كتاب، وهو الكتاب الذى صدر فى العام 1963.

كانت الحرب التى يشنها جلالته بعصبية وضيق صدر على ما ينشر لى مكتوبًا على صفحات الأهرام، أو ما يذاع من إذاعات الجمهورية العربية المتحدة منقولًا عن الأهرام، هى السبب الأول والأخير فى ظهور هذا الكتاب وأنا بالتجاوز أسميه كتابًا.

وفى الواقع إن الخطابات الستة التى ضمها الكتاب- موجهة إلى صاحب الجلالة- نشرت فى الأهرام على مجموعتين، تباعدت الأيام فيما بينهما ما يقرب من أربعة أعوام، وتباعدت الظروف أيضًا والملابسات.

القسم الأول، الذى يضم خطابين إلى صاحب الجلالة، كتب فى بداية سنة 1958 عقب فضيحة محاولة الملك رشوة السيد عبدالحميد السراج لكى يقوم بانقلاب على الوحدة ويضع قنبلة فى طائرة جمال عبدالناصر العائدة من دمشق إلى القاهرة بعد زيارته الأولى لسوريا، وكان مبلغ الرشوة كما يذكر الناس جميعًا مليونى جنيه إسترلينى أعطاها الملك شيكات لعبدالحميد السراج، وقدمها السراج لرئيس الجمهورية العربية المتحدة، وحولها الرئيس لحساب مشروعات التصنيع.

والقسم الثانى، يضم ثلاثة خطابات إلى صاحب الجلالة،

وقد كتب فى نهاية سنة 1961 عقب فضيحة أخرى، وأكاد أقول خيانة، قام بها الملك إذ دفع سبعة ملايين جنيه إسترلينى أشارت إليها تحقيقات رسمية جرت فى سوريا بعد الانفصال، وكان دفعها استطرادًا مع كراهية الملك لتجربة الوحدة الأولى من أول يوم لها حتى اليوم الأخير، فقد كان غرض الملك، وهو غرض جميع أعداء الحركة القومية العربية، هو ضرب التجربة وإيقاع الانفصال.

ثم جاء بعد ذلك خطاب وحيد وأخير بعد ثورة اليمن ونجاحها وبعد محاولة الملك الجنونية لضربها وفشل المحاولة، ولعل اختلاف الزمن واختلاف الظروف والملابسات هو الذى يجعل اختلافًا بين المجموعة الأولى من الخطابات وبين المجموعة الثانية فى معيار الحديث ورنينه.

ومنذ ظهر أول خطاب من هذ المجموعة الموجهة إلى صاحب الجلالة، أتيح لى أن أعرف صداها لديه، وقد رواه لى بنفسه الشيخ يوسف ياسين مستشار الملك يرحمه الله.

روى لى الشيخ يوسف ياسين مرة بعدها أن الملك طلب عدد الأهرام الذى نشر فيه أول خطاب، ثم طلب منه أن يقرأ له، فقد كان بعينى الملك ضعف يحجب الرؤية عنهما، وحاول الشيخ يوسف ياسين أن يثنى الملك عن سماع الخطاب حتى لا يعكر الملك دمه، على حد تعبيره، لكن الملك أصر على أن يسمع.

وسمع الملك الفقرة من أول خطاب، وأعصاب وجهه كلها تلعب دون سيطرة منه تمكنه من التحكم فى حركاتها، وفجأة صرخ الملك: توقف.

وطوى الشيخ يوسف ياسين عدد الأهرام، وقال الملك إنه يطلب إحراق كل نسخة من الأهرام فى السعودية والقبض على حاملها وإعدامه باعتبار أن ما كتبته فيها منشورات موجهة ضد جلالته تدفع إلى الثورة وتحض عليها.

وقد روى مؤلف كتاب (التيارات الأدبية فى الجزيرة

العربية) أن نسخة الأهرام التى كانت تحمل واحدًا من هذه الخطابات إلى الملك كانت تباع فى السعودية بمائة جنيه.

وإدارة الأهرام ما زالت تحس بشطارة واحد من تجار السعودية مر بها بعد الضجة التى أثارتها الخطابات واشترى مائة نسخة من الأهرام دفع فيها هنا جنيهًا واحدًا، ثم تولى التاجر بشطارته تهريبها إلى السعودية وباع النسخة بمائة جنيه، أى أنه ربح فى العملية 9999 جنيهًا.

ولكن إذاعات القاهرة أفسدت الفرصة بعض الشىء على شطارة التجار، فقد كانت تذيع ما أكتب، ومع ذلك فإن الملك لم ييأس وراح، كما تقول الأخبار، يحرض جمعية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما يسمونها فى السعودية، أو الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف كما أسميها أنا، على أن تمنع الناس من الاقتراب من أجهزة الراديو مساء يوم الجمعة لكى لا يسمعوا.

وقال لى أحد الأمراء السعوديين أن الملك سمعه مرة يستشهد فى حديث له معه ببعض ما كتبت، وإذا الملك يستحلف الأمير، ويستحلف كل الأمراء ألا يقرأوا ما أكتب ولا يسمعوه، ويأخذ عليهم العهد والميثاق ويصل إلى حد أن يطلب منهم أن يحلفوا أمامه بالطلاق.

وصل الحال مرة إلى حد أننى فوجئت صباح يوم من الأيام ببرقية على مكتبى من سيد كان مارًا بجدة فى طائرة قادمة من العراق، وإذا هم يقبضون عليه فى جدة بلا سبب إلا أن لاسمه شبهًا باسمى، وطلب السيد منى أن أبعث له بشهادة أقر فيها وأعترف أنه ليس قريبًا لى ولو من بعيد.

ذلك كله كان فى ذهنى عندما جاءنى اقتراح إخراج هذه المجموعة من الخطابات على شكل كتاب.

قلت لنفسى: فرصة أخرى لنشرها.

وقلت: وفرصة أخرى لها كمجموعة واحدة تصل كلها إلى من يريدها مرة واحدة.

وقلت: فرصة أخرى لإغضاب الملك.

لقد وجدها مرة على صفحات جريدة، وعبرت الهواء فوق حدوده كلمات مذاعة، وها هى اليوم مرة ثالثة بين يديه فى دفتى كتاب، وتحية وسلامًا يا صاحب الجلالة.

3

كان كتاب (لمصر لا لعبدالناصر) لحظة من العمر لها إيقاع خاص، مزيج متداخل من الحزن والشجن، من الشعور بالاستفزاز والرضا بقبول التحدى، وهى لحظة من العمر كانت بداية لسبع سنوات لها قيمة معينة فى حياتى من سنة 1974 إلى 1981.

سبع سنوات من قتال شديد كان هذ الكتاب هو الطلقة الأولى فيها من جانبى على الخطوط، وبعدها تزايد القصف المتبادل حتى وجدت نفسى فى النهاية وراء قضبان سجون طرة فى سبتمبر 1981، مع كثيرين غيرى لم يجدوا مفرًا أمامهم عند نقطة فاصلة فى تاريخ مصر، غير حمل السلاح، بالموقف والكلمة والدخول إلى ساحة المعركة.

والحاصل أن هذا الكتاب كان مجموعة مقالات صببتها فوق الورق على عجل، وفى مناخ ضغط غليظ لا تحتمل غلاظته، ودفعت بها إلى النشر حيث أتيح المجال لها مدركًا أنها البداية، وأما النهاية فعلمها عند الله.

ولم يكن لهذه المقالات مجال للنشر فى حينه إلا خارج مصر، ولم أكن أتوقع أنها سوف تنشر فى مستقبل قريب داخل مصر، ومع ذلك فقد كان همى كله أن اقول وأن أسجل، ولتأت المقادير بعد ذلك بما تقضى به وتحكم، وقد كان.

وشاء الله أن يجىء المستقبل الذى لم أتوقعه قريبًا، وها هو الكتاب يطبع فى مصر وينشر لأول مرة، وهكذا أجد مناسبًا أن أضع أمام القارئ المصرى صورة عامة للأجواء التى أحاطت به عند لحظة البداية.

عندما أعلنت خلافى مع الرئيس السادات من خلال سلسلة من المقالات نشرت فى الأهرام ابتداءً من أواخر شهر أكتوبر 1973 وحتى أول شهر فبراير 1974، ووجد الرئيس السادات بعدها أن استمرار بقائى فى الأهرام أصبح مستحيلًا من وجهة نظره بسبب التعارض والتصادم بين آرائنا، وهكذا خيرنى بين دخول الوزارة أو العمل مستشارًا للأمن القومى معه، وكان ذلك حلًا توفيقيًا لا تحتمله طبائع الأحوال.

أراد رحمه الله أن يضعنى أمام الأمر الواقع فأصدر قرارًا بتعيينى مستشارًا للرئيس واعتذرت، وتضايق هو من أننى فى يوم خروجى من الأهرام آخر مرة فى 2 فبراير 1974 أجبت على سؤال لوكالات الأنباء العالمية على نحو لم يرق له.

وليومين تاليين جرت محاولات معى واتصالات، ولم أغير رأيى ولا موقفى.

ومضت ثمانية شهور من فبراير إلى أكتوبر 1974، والطريق بيننا غير سالكة، كما يقول إخواننا فى بيروت، حتى تفضل هو يوم أول أكتوبر فاتصل بى على غير انتظار، ثم تلاقينا وتحدثنا، واقترحت عليه بعد لقاء طويل أن نبقى أصدقاء، وأن نستبعد فى الوقت الراهن على الأقل أية فكرة عن المراكز والمناصب والمسئوليات قائلًا: إننى فى الأوضاع الراهنة لا أريد غير مكان ومكانة الصديق.

تكررت لقاءاتنا وطالت أحاديثنا، وحضرت معه مفاوضاته مع (هنرى كيسنجر) فى المحاولة الأولى لفك الارتباط الثانى، وقد جرت فى أسوان فى شهر مارس من سنة 1975، ولم تنجح هذه المحاولة، ولم أكن شديد الأسى على فشلها، بل إننى أحب أن أتصور أنه كان لى نصيب ولو ضئيل فى إفشالها.

المهم فى هذا الشأن هو ما حدث مساء يوم 11 أبريل سنة 1975 فى مكتب السيد ممدوح سالم، وكان وزيرًا للداخلية ومكلفًا بتشكيل وزارة جديدة تخلف وزارة الدكتور عبدالعزيز حجازى، التى قرر الرئيس السادات فجأة أنه يريد تغييرها.

دعانى السيد ممدوح سالم إلى لقائه فى الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم، ليعرض على الاشتراك فى وزارته نائبًا لرئيس الوزراء ومختصًا بالإعلام والثقافة، وسمعت عرضه الرقيق كاملًا بما فيه تصوره لمهمة وزارته وآماله فيما تستطيع تحقيقه، واتفاقه مع الرئيس السادات على مجلس للسياسات العليا يرأسه رئيس الجمهورية ومعه رئيس الوزارة وخمسة نواب لرئيس الوزراء، أنا بينهم، وأنهم سوف يعملون كفريق رسم ومتابعة سياسات الدولة بسلطات كاملة.

وعندما فرغ السيد ممدوح سالم من حديثه أبديت له اعتذارى وأبديت له أسبابى مفصلة فى حوار بيننا استغرق ساعتين كاملتين، كانت هناك أسباب متعلقة بالسياسات الداخلية والخارجية للحكم وهى سياسات لا أوافق عليها وبالتالى لا أستطيع أن أنفذها أو أعبر عنها.

وكانت هناك أسباب متعلقة بطبائع السلطة والحكم فى مصر وقتها، وكانت هناك أسباب أخرى، ثم قلت له إن لدى سببًا آخر قد يبدو شخصيًا والحقيقة أنه أكثر من ذلك.

وقلت للسيد ممدوح ما يلى بالحرف تقريبًا: إننى أرى الآن بداية حملة على عبدالناصر وهى حملة جائرة وظالمة، وأنا لا أستطيع أن أوافق عليها فضلًا عن أن أشارك فيها، ولو حتى بطريق غير مباشر، ولسوف أجد نفسى شريكًا فى هذه الحملة شئت أو لم أشأ إذا أنا قبلت منصب نائب رئيس الوزراء للإعلام والثقافة.

سوف أجد نفسى أمام احتمالين لا ثالث لهما:

إما أن أترك الحملة تستمر وتتزايد، وهو ما أتوقعه مع الأسف.

أو أن أمنع مثل هذه الحملة بسلطة الرقابة، ومهما يكن من رأيى فى شان هذه الحملة، وفى شأن القائمين بها، وفى شأن القوى العربية والدولية التى تشجع عليها، فإننى كصحفى لا أتصور أن أستعمل سلاح الرقابة لمنعها.

ثم قلت له: إننى وقد اعتذرت عن المنصب أريد ولوجه الله والوطن أن أنبه إلى مخاطرها، فهذه الحملة سوف تؤدى إلى تقويض شرعية النظام، لأنها تضرب فيه عند الأساس، والحقيقة أن ما يحدث هو أشبه ما يكون برجل يقف على فرع شجرة ولا يشغل نفسه إلا بقطع جذعها، ناسيًا أنه إذا سقط الجذع فإن كل الفروع سوف تنهار.

قلت هذ كله بتفاصيل التفاصيل، وقلت غيره وبقيت على اعتذارى ولم أغير رأيى.

ومرت أسابيع وشهور والحملة على جمال عبدالناصر تتزايد وتشتد يومًا بعد يوم، ولا تعرف حدًا تقف عنده بل وتستبيح كل الحدود، التاريخ والأمانة والأخلاق والشرف جميعًا.

ولم تكن الحملة فى حقيقة الأمر على الرجل نفسه، فالرجل نفسه كان فى رحاب الله منذ سنوات وليس بعين البشر جميعًا من يملك له ثوابًا أو عقابًا.

كان واضحًا أن الحملة تستهدف مبادئ معينة، وقيمًا معينة، ولحظات معينة فى تاريخ مصر وأمتها العربية، وكان واضحًا أن هذا كله يجرى لحساب قوى وأطراف بعضها يعرف ما يفعله وبعضها لا يعرف.

ويومًا بعد يوم أشعر أكثر وأكثر بالضيق والاستفزاز، وذات يوم قررت أن أكتب مجموعة مقالات تحت عنوان (لمصر لا لعبدالناصر) وكتبت هذه المقالات، ثم جرى جمعها بين دفتى كتاب.

لقد نشرتُ هذه المقالات أيامها خارج مصر لأنه لم يكن أيامى وقتها مجال فى مصر، وفى كل الأحوال فلست واحدًا من الذين يعترفون بوجود خطوط حدود إقليمية على أرض الأمة العربية، ولم تزعجنى كثيرًا تهمة الإساءة إلى مصر خارجها، وقد بدأ توجيهها إلىّ فى تلك الأيام، فلقد كنت أعرف فى صميم قلبى أننى بما أكتب لا أسىء إلى مصر، وربما قلت بغير ادعاء أن يقينى كان عكس ذلك.

4

في العام 1977 صدر لى كتاب (الحل والحرب) وكان عبارة عن مجموعة أحاديث كتبتها فى الفترة ما بين بدايات سنة 1976 وبدايات سنة 1977، وهى ليست كل ما كتبت فى هذه الفترة وإنما هى مجرد نماذج منه، فكرت ثم ترددت ولعلى أقول تجاسرت فوضعتها بين دفتى كتاب.

والسبب فى هذه المشاعر المتعارضة أننى كنت أريد لهذه لأحاديث مجتمعة أن تروى قصة، وفى نفس الوقت فأنا أريد لهذه القصة أن تضيف مشكلة إلى مشاكل، ومع ذلك ومن ناحية أخرى، وبصرف النظر عن القصص والمشاكل فقد كنت أتمنى أن أجد فى متناول كل يد يهمها الأمر ملفًا مختصرًا وجاهزًا يمثل وجهة نظرى فى حوار دار على أرضنا العربية وتعرض لبعض قضايانا الراهنة، خصوصًا أزمة الشرق الأوسط فى هذه المرحلة بالذات.

ولم يكن فى استطاعتى أن أمثل دور القردة الثلاثة فى اللوحة المشهورة، أحدها يغطى عينيه فلا يرى، والثانى يغطى أذنيه فلا يسمع، والثالث يغطى فمه فلا ينطق.

وهكذا اشتركت فى الحوار ملتزمًا قدر ما استطيع بأدبه كما ينبغى أن يكون، وبالموضوعية لا تنحرف بها الأهواء، وباستقامة القصد لا تتجاوز الحد أو تتعداه، ولست أعرف إذا كنت نجحت فيما التزمت به أمام نفسى أو أننى لم أنجح، ولكنى وجدت أن بعض الذين تصدوا للرد على مشاركتى فى الحوار قد تركوا ما عرضت له من اجتهادات تحتمل الصواب والخطأ، وانصرفوا إلى شىء آخر.

انقلب الحوار إلى معركة لا مبرر لها، فضلًا عن أننى لم أسع لها، ولا تصورت أن شيئًا مما قلته يستوجبها، ولقد أدهشنى أن بعض الذين قلبوا الحوار معركة- فى صحف القاهرة- لجأوا إلى أسلحة لم يعد لها وجود فى العصر الحديث وفى عوالمه المتمدنة، أو هكذا كنت أظن.

كانت الأحاديث التى يضمها (الحل والحرب) بين دفتيه تنقسم إلى أربع مجموعات:

الأولى: مجموعة من أربعة مقالات بعنوان إلى أين من هنا؟ وقد كتبت فى مطلع سنة 1976.

الثانية: مجموعة من مقالتين فى سلسلة عن جيمى كارتر الرئيس الجديد للولايات المتحدة الأمريكية، وكان أصل هذه المجموعة أربعًا، ولكن اثنتين منها كانتا بعيدتين عن جو القصة، فأولاهما كانت عن كارتر وانتخابه، والثانية عن كارتر ورجاله، وهو حديث استنفد أغراضه لأنه كان مرهونًا بوقته، وأما الثالثة والرابعة فى هذه السلسلة فقد كان موضوعهما على التوالى، كارتر وأولوياته ثم كارتر وأزمة الشرق الأوسط، وقد احتفظت بهما فى هذا الملف، لأنهما على صلة وثيقة بالقصة وجوها ووقائعها، وكنت قد كتبت هذه السلسلة عن كارتر فى نهاية سنة 1976، وبالتحديد فى شهر نوفمبر، أى غداة انتخاب جيمى كارتر رئيسًا للولايات المتحدة.

والثالثة: مجموعة من ست مقالات عن عالم بغير كيسنجر، وكانت محاولة لدراسة أسلوب هنرى كيسنجر فى إدارة الأزمات الدولية، مع تركيز خاص على إدارته لأزمة الشرق الأوسط، وقد كتبت هذه المجموعة فى مطلع شهر يناير 1977 حين كان هنرى كيسنجر يجمع أوراقه الخاصة من مكتب وزير الخارجية الأمريكية ويستعد لتجربة الانتقال من دائرة الضوء إلى عالم الظل.

والرابعة: مجموعة من ست مقالات أيضًا، وكانت عن الموقف التفاوضى العربى، وقد كتبتها فى مطلع شهر فبراير سنة 1977، فى وقت اشتد فيه الجدل حول مؤتمر جنيف، وتعالت أصوات فى العالم العربى تدعو وتطلب وتلح بضرورة عقده قبل نهاية شهر مارس سنة 1977.

هذه هى المجموعات الأربع من المقالات التى ضمها (الحل والحرب)، وقد نشرتها بنصها الحرفى وكما كتبت- كلًا منها فى حينها- أى أننى لم أراجع ولم أغير وإنما تركت كل شىء

فيها على أصله وبكل ما يحتويه من اجتهادات أثبتت التطورات اللاحقة صوابها أو أظهرت خطأها أو استبقتها إلى الآن معلقة فى الميزان.

لماذا فعلت ذلك؟ لماذا جمعت هذه المقالات بين دفتى كتاب، يكون ملفًا مختصرًا وجاهزًا بوجهة نظرى فيما تعرضت له- خلال الحوار- من قضايا نضالنا الراهن؟ لماذا حرصت على أن أترك كل شىء فيها على أصله، لا أراجع ولا أغير؟ لماذا؟

هل أريد أن أتمسك معاندًا ومكابرًا برأيى لا أتزحزح عنه بصرف النظر عما تجىء به التطورات؟.. لا أظن.

هل أريد أن أثبت حقًا أو ادعاءً أننى كنت على صواب وأن غيرى كان على خطأ؟.. لا أظن.

إذن ماذا أريد؟.. ربما قلت إن ما أريده حقيقة أبسط من ذلك بكثير.

ربما قلت إن كل ما أريده هو أن أتحمل مسئولية كل ما قلت، ولهذا فإننى أريد أن تكون الحدود واضحة، وليس هناك ما هو أكثر تحديدًا ووضوحًا من دفتى كتاب، وهذا بالضبط ما أفعله، خصوصًا بعد أن اكتشفت مما قرأته فى بعض صحف القاهرة أن السبب الحقيقى وراء هجمة الرمى بالسهام المسمومة، كان مجموعة (الموقف التفاوضى العربى).

5

كان كتاب (زيارة جديدة للتاريخ) على نحو ما سعيد الحظ، فقد جرت كتابة فصوله سنة 1985، وفى ظروف الإنتهاء من عمل قدمته للنشر الدولى وبداية التركيز على عمل تال بعده فى نفس المجال، وطبقًا لقواعد النشر الدولى فإنه لا بد أن تنقضى فترة سنتين بين نشر عمل وبين جديد وراءه، حتى يأخذ السابق فرصته دون أن يزاحمه- من نفس الكاتب- لاحق يغطى عليه أو يزيحه.

كان هذا الكتاب إذن فترة استراحة بين سَفرتين، وفى هذه

الاستراحة وبينما رحت أقلب بعض الملفات والأوراق متأهبًا للجديد، صادفت مذكرات وخطابات وصور أعادت إلى الذاكرة ساعات سبقت عشت فيها مع بعض من قابلت، وتداعت مواقف ومشاهد، وخطر لى- وأمامى فسحة من الوقت- أننى أستطيع أن أستعيد وأتأمل بل وأتحاور من جديد (فى الضمير) مع كبار أتاحت لى الظروف فرصة أن أتعرف إليهم وأحاورهم وجهًا لوجه.

وكذلك اخترت سبع شخصيات وجدت ما يخصها جاهزًا أمامى، ثم رحت أكتب عن أيام معها، واخترت للفصول عنوان (زيارة جديدة للتاريخ) وشرحت قصدى فى مقدمة مهدت بها، ثم كان مفاجئًا أن هذه الفصول التى كتبتها فى فترة استراحة صادفت حظًا حسنًا لدى جماهير القراء فى العالم العربى حتى صدر الكتاب الذى جمعها فى اثنتى عشر طبعة خارج مصر، فقد كان النشر الأول فى بيروت، فى ظروف كانت تعترض النشر لى فى مصر.

ثم حدث بعد أن تغيرت الأحوال أن الصديق الأستاذ إبراهيم سعدة، وهو وقتها رئيس تحرير جريدة أخبار اليوم، اطلع على هذه الفصول فإذا هو ينشر بعضها على حلقات فى جريدته الأوسع انتشارًا.

وراحت نسخ من الكتاب تصل إلى مصر، ورحت أتلقى رسائل كثيرة من قراء أصدقاء اهتموا بما قرأوا، ثم زاد فضلهم فكتبوا بما رأوا.

وخطر ببالى إزاء ذلك الاهتمام أن أزيد فى الفصول بما يسمح بجزء ثان، وربما ثالث من الكتاب، فقائمة من قابلت طويلة، لأن الأيام سمحت لى أن ألتقى بأقطاب الزمن الذى عشته ونجومه، وبالتالى فإن ما لدى فيه فيض وزيادة، لكننى انشغلت عن ذلك الخاطر بطوارئ الأحداث الجارية، وربما أن حظ الكتاب الأول جعلنى أخشى من ثان يلحق به.

ثم حدث أن الصديق الأستاذ إبراهيم المعلم جاءنى باقتراح إصداره من جديد، ولم يكن فى مقدورى غير أن أستجيب، ثم

أحسد الكتاب على حسن حظه مع قرائه.

بدا الكتاب مختلفًا عن غيره، وكنت قد اخترت فكرته باقتراح من هيئة تحرير جريدة (القبس) عنوان (زيارة جديدة للتاريخ)، والعنوان كان يحمل ثلاث كلمات (زيارة.. وجديدة.. وللتاريخ).

كلمة (زيارة) تعنى إلى حد ما أننى أعود إلى لقاء أشخاص عرفتهم قبل، وعودتى إليهم محاولة لتجديد المعرفة ولإبقاء حبلها موصولًا وتوثيق أواصرها إذا استطعت، وهكذا فإنى أعود إلى أحاديث رجال أتاحت لى ظروف حياتى وتجربتى أن ألتقى بهم وأن أحتك بأفكارهم وآثارهم، وأن أسبر- بقدر ما هو ممكن- أغوارهم، وأحاول- بقدر ما هو متاح- استكشاف أسرارهم وكيف ولماذا بلغوا من نفوذ على التاريخ الذى عشناه والذى نعيشه؟.

وأشهد أننى كنت سعيد الحظ بمن لقيت، فلقد أتاحت لى الظروف أن أرى قمم عالمنا المعاصر، وأحيانًا عشت وسطها أراقب وأتابع مدركًا فيما بينى وبين نفسى أن الأيام منحتنى شرف أن أتتلمذ على التاريخ نفسه بواسطة صناعه أو المشاركين مباشرة فى عملية صنعه.

ولقد كان من بينهم ملوك وزعماء وساسة، وقادة حرب وأساطين علم وفكر قامت أصابعهم- خلال أربع حقب بين الخمسينيات والثمانينيات- بتشكيل دنيانا كما نعرفها الآن.

(وجديدة) وهنا تحتاج المسألة إلى توضيح فأنا هنا أستعمل الكلمة بغير مدلولها الحرفى الضيق، بمعنى أننى لم أعد فعلًا إلى زيارة كل هذه الشخصيات التى أكتب عنها، فذلك لم يعد ممكنًا حتى ماديًا بالنسبة لبعضهم، فهناك بينهم من فارق دنيانا ولم يعد فى إمكان أحد منا أن يعود ليزورهم من جديد إلا فى عوالم الفكر، وهذا ما أفعله.

وصحيح أن بعضهم ما زال معنا، ولكنى لم أعد إلى زيارة أى منهم مرة أخرى لغرض كتابة هذه الصفحات.

هى إذن عودة بالفكر وليست عودة بالجسد، أى أننى أعود إلى أوراقى وانطباعاتى ثم أترك نفسى أفكر وأتأمل.

أفكر وأتأمل بفعل المضارع أى فى ما هو قائم الآن، وبفعل المستقبل أى فى ما هو محتمل غدًا، وليس فقط بفعل الماضى أى ما جرى فعلًا وكان.

وبالطبع فأنا لا أنسب إلى أحد ما لم يقله مستغلًا واقع غيابه، وبالطبع- أيضًا- فأنا لا أنسب لأحد ما لم يسمح لى حاضرًا بأن أنسبه إليه وإن كان قد قاله لعلمى، فغياب أحدهم أو حتى حضوره مع مرور الأيام لا يعفينى من التزامى أمامه بحفظ ما أفضى إلى ثقة وأمانة.

لا أفعل شيئًا من هذا أو قريبًا منه بالطبع، وبالقطع فكل ذلك خارج عن أصول القول وحدوده وحقوق المجالس وحرماتها.. إذن ما الذى أنوى فعله؟

إننى لا أنوى أن أعود للماضى بممارسة اجتراره: مضغه مرة أخرى وتكراره مرة ثانية.

ثم إننى لا أنوى أن أجعله حديث ذكريات مما يرويه الآباء للأبناء أو للأحفاد، يحكون لهم حكايات الماضى وقصص أبطاله بصوت يختلج فيه الدفء والحنين إلى أيام مضت ورجال ذهبوا ودنيا غير الدنيا وأيام تباعدت عن أيام.

لا أقول ذلك وليس فى نيتى، فالماضى لا يعنينى على الأقل فى فصول هذا الكتاب، وإنما الحاضر والمستقبل هما هاجسى وشاغلى قبل وبعد أى اعتبار.

والسؤال: كيف أزور الماضى وآخذ معى إليه الحاضر والمستقبل؟

وإجابة السؤال هى أن الجسد لا يستطيع ولا يقدر، وإنما الفكر يستطيع ويقدر، الفكر ومعه التأمل، ومع الاثنين يقين بأن التجربة الإنسانية لا تنقطع، كما أن حركة التاريخ لا تتقدم من فراغ ولا تترك وراءها ثغرات يطل منها هباء أو خواء.

بمعنى أدق فهناك كثير رأيته وسمعته فى الماضى ولم أستطع أن أقدر فى حينه معانيه الحقيقية أو مراميه البعيدة.

ثم إن هناك كثيرًا رأيته وسمعته وكان متاحًا للنشر ولكنى لم أنشره، لأن ضغوط الحوادث وتكوراتها فى حينه نقلت مواضع الاهتمام وغيرت مواقع التركيز.

وكذلك فإن هناك كثيرًا مما رأيته وسمعته اكتسب قيمة مستجدة عندما تعرض لاختبارات الحاضر، مما يجعله صالحًا لقياس المستقبل.

ثم إن هناك كثيرًا مما رأيته وسمعته حوى دروسًا وعبرًا تستحق منا أن نراجعها ونستخلص منها ما يحتمل أن يكون غذاء لنا وزادًا فى ظروف قد تكون متشابهة ولا أقول متماثلة.

وصحيح أن التاريخ لا يكرر نفسه لاختلاف الناس والأمم والأحوال، ولكن أليس صحيحًا أيضًا أن هناك قوانين للتاريخ، وأن هذه القوانين تعمل أحكامها إذا تجمعت عناصر وعوامل تستدعى مثل هذه الأحكام.

بقيت الكلمة الأخير فى عنوان الكتاب وهى (للتاريخ).

التاريخ ليس علم الماضى وحده، وإنما هو- عن طريق استقراء قوانينه- علم الحاضر والمستقبل أيضًا، أى أنه علم ما كان وما هو كائن وما سوف يكون.

وهكذا فإننى عدت إلى شخصيات قابلتها فى الماضى مستعيدًا صورتها الكاملة أو شبه الكاملة فى أوراقى، محاولًا برؤية معاصرة- إذا استطعت- تسليط أضواء على أجواء تحيط بنا فى العالم العربى بالذات، مركزًا على قضايا ومشاكل تستغرقنا اليوم وسوف تستغرقنا بعده وبعده.

قضايا مثل الحرية والديمقراطية، قضايا مثل الحرب والسلم، قضايا مثل العلم والمعاصرة.. إلى آخره.

قضايا تلح علينا فى حاضرنا هذا، وسوف يزداد إلحاحها علينا فى صبح غدٍ، هكذا خطرت لى ثم أمسكت بى هذه الفكرة، (زيارة جديدة للتاريخ)، مشاعل من معابد التاريخ لإضاءة تخوم جديدة فى معالم التاريخ.

وقد يسألنى سائل: لماذا اخترت عددًا محدودًا أكتب عنه ضمن كل من قابلت من الكبار وهم بالعشرات على الأقل؟ وعلى أى أساس؟ وماذا كان معيار الاختيار؟ أهى الأهمية؟ أهو التسلسل الزمنى للمقابلات؟ أم ماذا؟

والحقيقة أننى لا أستطيع أن أقطع فى هذه الأسئلة بجواب.

إن الكبار الذين عدت لزيارتهم على صفحات هذا الكتاب لم يكونوا كل من رأيت من أقطاب التاريخ المعاصر، وبعضهم لم يكن من أهم من قابلتهم، خصوصًا إذا قارنتهم بغيرهم.

إذن لماذا هؤلاء السبعة بالذات؟

أكاد أقول إن ما شدنى إليهم فى هذه الظروف بالذات هو ارتباط أدوارهم التاريخية- ومن ثم أحاديثهم معى وأحاديثى عنهم- بعدد معين من القضايا الكبيرة التى تشغلنى وغيرى فى الظروف التى جلست فيها لكتابة هذه الصفحات.

ولعلى أجازف وأقول إن إلحاح قضايا بالذات هو الذى وجهنى- وربما دفعنى- إلى رجال بعينهم.

قضية الديمقراطية هى التى ذكرتنى بلقائى مع خوان كارلوس ملك إسبانيا.

قضية الحرب والسلام هى التى ذكرتنى بلقائى مع مونتجمرى قائد العلمين المنتصر.

قضية الخطر الماثل فى احتمالات الحرب النووية هى التى ذكرتنى بلقائى مع آينشتين صاحب نظرية النسبية.. وهكذا وهكذا.

القضايا كانت دليلى إلى الرجال، ولست أعرف إلى أى حد

حالفنى التوفيق فى إقامة التوازن بين القضايا وهى حية وممتدة وبين لقاءاتى مع الرجال، وقد تمت كلها من قبل وتحددت نصوصها، ولقد حاولت وأتمنى ألا أكون قد وقعت فى خطأ مال معه الميزان أو اختلت به خطوط الحدود.

وقد يسألنى سائل أيضًا: ولماذا لم يكن من بين من اخترت الكتابة عنهم الآن أحد من العرب؟

وردى أن ذلك اختيار اتخذته واعيًا، ولقد كان فى استطاعتى أن أكتب عن كل زعماء وملوك وساسة العرب فى الأربعين سنة الأخيرة، لكن لم أفعل، وكان مبررى أمام نفسى أن زعماء وملوك وساسة العرب فى هذه الفترة يلزمهم إطار مستقل لأنهم أبطال قصة واحدة بأخيارها وأشرارها، ومن المعقول والقصة واحدة أن يكون إطار عرضها واحدًا، خصوصًا والقصة معقدة وبعض رجالها أكثر تعقيدًا من كل ما تستطيع الوقائع أن ترويه ومن كل ما تقدر الكلمات أن تنبئ به.

واعترف أنه كان فى استطاعتى أن أواصل الكتابة عن كثيرين غير من كتبت عنهم الآن دون أن أجد حدًا أقف عنده، لكنى- وهذا هو اعترافى- فرضت على نفسى أن أتوقف حينما بلغ حجم ما كتبته حجم كتاب طبيعى من كتبى وزاد، ولقد كانت أمامى وأنا أكتب قائمة تضم قرابة ستين اسمًا من الأعلام وكنت أستطيع أن أستمر، ولكن كان لا بد من نقطة يتوقف عندها الكلام، وهكذا لم أستطع أن أقترب من قلة بين كثرة تمنيت أن أعود إليهم زائرًا، مقبلًا عليهم ومشتاقًا، ذاكرًا ساعاتى الطويلة فى صحبتهم وفى حضرة التاريخ.

6

كتاب (حرب الثلاثين سنة) هو مشروعى الأكبر، الذى اضطررت إلى قطعه بسبب كتاب حرب الخليج، وسبق ذلك مشروع عن الصراع بين القوتين الكبيرتين فى الشرق الأوسط، وقد أنجزت منه الجزء الخاص بالسوفيت فى كتاب (العرب السوفيت)، وكان المفروض أن أنجز بعده (العرب

والأمريكان)، لكن جاءت الثورة الإيرانية فكتبت (مدافع آية الله).

باستمرار هناك مشروع قائم لكنه قابل لأن تقطعه أو تعترضه الأحداث الطارئة.

هذه المجموعة من أربعة مجلدات هى فى الواقع كتاب واحد، موضوعه حرب الثلاثين سنة، وتلك هى الفترة الواقعة بين سنة 1955 (حين خرجت مصر تقاوم إنشاء حلف بغداد باعتباره طرفًا يقيد شعوب الأمة ويربطها بهيمنة الغرب تحت قيادة الولايات المتحدة الأمريكة) وحتى سنة 1985 (حين وقعت مصر اتفاق فك الاشتباك الثانى مع إسرائيل تحت إشراف ورعاية الولايات المتحدة الأمريكية، وكان ذلك تأكيد أنه صلح منفرد مصرى- إسرائيلى، وكذلك تبدلت الأحوال وتغيرت التوجهات).

وفى تلك السنوات الثلاثين الحافلة (من سنة 1955- وحتى 1985) خاضت مصر ومعها شعوب الأمة العربية ثلاث حروب مسلحة مع إسرائيل: حرب السويس سنة 1956، وحرب سيناء سنة 1967، وحرب أكتوبر سنة 1973، وكانت هذه الحروب المسلحة هى الذرى العالية المشتعلة بالنار لذلك الصراع ضد حماقة القوة الإسرائيلية ووراءها خطط الهيمنة الأمريكية.

وعليه فإن هذه الكتب الأربعة تتابع تلك السنوات الثلاثين، وتوثق لها وتستعيد بالتفصيل وقائعها، وتتعرض للمواقف ودخائلها، وتتحرى أدوار الرجال إلى أبعد حد ممكن من الاقتراب، وكانت عناوين هذه المجلدات، ملفات السويس (من 1955 إلى 1957)، سنوات الغليان (من 1957 إلى 1966)، والانفجار (من 1966 إلى 1967)، وأكتوبر: السياسة والسلاح (من 1967 إلى 1973 وإلى سنة 1985)، وقد روت هذه المجلدات قصة واحدة كاملة ممتدة على مساحة هذا العدد من السنين.

كانت تلك السنوات الثلاثون بالنسبة لى شخصيًا سنوات

الشباب، أو لعلها هضبة أواسط العمر، وكان دخولى عليها دور نشيط فى الشاغل السياسى العام، إلى جانب انهماكى فى العمل المهنى الأصيل.

فى تلك السنوات من تاريخ مصر والأمة، كان لدى حظ أن أكون قريبًا من جمال عبدالناصر حتى الساعة الأخيرة فى حياته سنة 1970، وقد تحاورنا طويلا ولم نفترق.

ثم كان لدى حظ أن أكون قريبًا من أنور السادات حتى انتهاء حرب أكتوبر، وقد تحاورنا طويلًا ثم افترقنا، وتباعدت بيننا الطرق مع اختلاف رؤانا السياسية بعد دور السلاح فى حرب أكتوبر.

وهكذا فإننى إلى جانب المتابعة المهنية تواجدت فى أجواء ووقائع حرب الثلاثين سنة بالمعايشة وليس فقط بالمتابعة، ومن الداخل وليس فقط من الخارج، وإذن فإن المناخ ما زال دافئًا حولى- حاضرًا حيًا- متحركًا ناطقًا، وكأن عدسة تصوير أمسكت بالحوادث واللحظات والتقطتها وسجلتها على ذاكرة شريط حساس ومأمون.

ومن الحق أن أقرر أن الطبعة الأولى من هذا الكتاب الواحد من أربعة أجزاء صدرت عن الأهرام وذلك عندما بادر رئيس تحريرها ومجلس إدارتها الصديق الأستاذ إبراهيم نافع إلى طلب حقوق تلك الطبعة من دار أندريه دويتش وهاربر كولينز فى لندن ونيويورك، وكانت حفاوة الأهرام ومركز النشر والترجمة التابع له- وفيه أيامها تلك الصديقة الغالية الراحلة نوال المحلاوى- حفاوة بالغة.

إلى جانب ذاكرة الشريط الحساس والمأمون كانت هناك محاولة ذهبت بعيدًا فى التوثيق، لأن الصورة إذا لحقت تأكدت الرواية دون أى ظن أو التباس، وعند هذه النقطة فإن قضية الوثائق تستحق هنا وقفة، ذلك أن كثيرين، بينهم عدد من الأصدقاء، أثاروا مسألة احتفاظى بصور من وثائق سياسية هامة وصلت إلىّ بذلك القرب من جمال عبدالناصر، أو من أنور السادات، وكنت ذكرت أننى أحتفظ بجزء من

هذه الوثائق خارج مصر حماية لها وصونًا، وراح كثيرون يطالبوننى بإعادة هذه الوثائق، دون أن يتذكروا أن جزءًا كبيرًا من هذه الوثائق عاد ونشر فعلًا فيما صدر من كتبى فى السنوات الأخيرة.

وبالتالى فإن ذاكرة مصر فيما يتعلق بما كان لدىّ محفوظة ومصانة موجودة، بجزء كبير منها ومنشورة فى سياق (حرب الثلاثين سنة) وغيره من الكتب، وقد أشير إلى ما ذكره المؤرخ الصديق الدكتور يونان لبيب رزق من أن كثيرين أخذوا علىّ كثرة ما نشرت من نصوص وصور من الوثائق، وقد بلغت قرابة الألف صفحة ضمن الأجزاء الأربعة فى مجموعة (حرب الثلاثين سنة)، وزاد عليها قرابة ألف صفحة أخرى من الوثائق المنشورة فى كتب: المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، والعروش والجيوش، وخريف الغضب.

والحقيقة أننى قصدت إلى عرض الوقائع والأجواء، دون الاكتفاء بقول (إننى كنت هناك) والقصد أن أضيف إلى ذلك دليلًا لا يقبل الشك، على صدق الرواية ودقة المشاهد، ومؤدى ذلك أن ما عندى من الوثائق ليس محجوبًا، وإنما هو منشور ولا يزال ينشر، إنه فى متناول اليد وتحت النظر.

لعلى أذكر أيضًا ما أشار إليه بعض الأصدقاء عن شريط مسجل لحديث طويل مع حسن يوسف باشا الذى كان وكيلًا ورئيسًا للديوان الملكى (يزيد على خمس عشرة ساعة) وما أريد توضيحه هنا أن هذا الشريط جرى تسجيله سنة 1977، أى بعد خروجى من الأهرام بثلاث سنوات، وبالتالى فهو ضمن محفوظاتى الخاصة ولا صلة له بغيرها، فقد جرى تسجيل هذا الشريط فى بيتى الريفى فى برقاش، وبمحض مصادفة ليس عن تصميم مسبق، فقد كنا هناك ذات يوم فى شهر مارس من تلك السنة ومعنا صديقه وصديقى عبدالفتاح عمرو باشا، الذى كان سفيرًا للعهد الملكى فى لندن، ودار الحديث بيننا عن عصور مضت، وتدفقت الذكريات واقترحت تسجيلها، ووافق الصديقان، بشرط أن يظل التسجيل فى حوزتى لا يخرج إلا بعد عدد من السنين.

ومن الأنسب أن أقول إن الأصول من وثائق التاريخ المصرى الحديث وضعت بكاملها تحت تصرف لجنة كتابة التاريخ سنة 1975، وقد قام عليها ذلك الوقت نائب الرئيس حسنى مبارك، وكان مقر تلك اللجنة ومجمع أوراقها ووثائقها ومحفوظاتها قصر عابدين، حيث يوجد النصيب الأكبر من وثائق مصر الحديثة.

لقد كتبت مجموعة (حرب الثلاثين سنة) لأجيال جديدة من الشباب فى مصر وعلى اتساع الأمة، فهؤلاء لم يكونوا معنا حين كنا هناك، ثم إن الأهواء والأغراض تلاعبت، قاصدة وعامدة وطمست الحقائق، وحكت بدلًا منها ما يغطى عليها أو يشوه وجهها، لأنه كان مطلوباً ولا يزال تغييب الذاكرة العربية، واغتيال الوعى والهوية، لكى يمكن تطويع المستقبل وتوجيهه بسهولة على هوى وأغراض الآخرين، ولذلك فإن هذه الأجيال من الشباب هى بالدرجة الأولى هدفى ومقصدى، فهى وليس غيرها حاملة المسئولية والسائرة بها على دروب الغد واصلة به متنبهة ويقظى إلى أهدافه وأهدافها.

7

وأنا فى سبيل إعدادى لكتاب (حرب الخليج أوهام القوة والنصر) التقيت وتناقشت واستمعت إلى كثيرين من رؤساء الدول والقادة السياسيين والعسكريين فى العالم العربى، كذلك التقيت وتناقشت واستمعت إلى كثيرين من المشاركين فى صنع القرار فى الولايات المتحدة وفى أوروبا.

ولقد سمح لى بعض الكرام بينهم أن أطلع على أوراق وتقارير رسمية، وسجلات معلومات كانت فى حوزتهم بحكم المنصب والمسئولية، وإذ أعترف بالفضل لأصحابه ممتنًا وعارفًا، فإنى أجد من الضرورى أن أقول إن ما استخلصته مما سمعت منهم أو قرأت بإذنهم تظل مسئوليته علىّ وحدى، وليست على أحد منهم.

ولقد كان هناك رجل واحد تمنيت لو أننى استمعت إليه

وناقشته فى الأحداث والتطورات- هذا الصديق أحمد بهاء الدين- كان مخطوفًا منا جميعًا فى وقت الأزمة فى أثار المرض، أمامنا وهو بعيد، ومعنا وهو صامت، وليس ذلك عهدى به، ولا عهد الناس، لكنها تصاريف الزمان ومفارقاته أن يبتعد من يحق له الاقتراب، وأن يسكت من يقدر على الكلام، ذلك أن بهاء قضى من عمره سنوات فى منطقة الأزمة وتأمل ودرس واستوعب، وفى لحظة الحاجة إلى علمه كان عطاؤه غائبًا وهو الحكيم، وكان قلمه معطلًا وهو الكفء المقتدر.

ظل أملى معلقًا بأن يعود بهاء ذات يوم، كما عاد غيره من الرهائن المخطوفين بعيدًا عن أحبابهم، ثم نجلس معًا كما كنا نفعل، ثم نناقش ولو بأثر رجعى حكايات الحرب فى الخليج، وما فعلته بنا الأيام وما فعلناه نحن بأنفسنا.

لقد وضعت أصل هذا الكتاب باللغة الإنجليزية لمؤسسة هاربر كولينز، وهى أكبر دور نشر الكتب فى العالم، وقد رأيت أن أقوم بنفسى على ترجمته إلى اللغة العربية ولا أتركه لغيرى يترجمه كما حدث مرات فى كتب سابقة، ومع تقديرى للجهد الذى بذله أصدقاء لى فى ترجمة ما كتبت إلى اللغة العربية، فقد آثرت هذه المرة ألا يكون الموضوع موضوعى فقط، ولكن أن تكون كلماته كلماتى أيضًا حتى تتأكد مسئوليتى عما أفعل.

والحقيقة أننى فعلت ما هو أكثر من ترجمة الكتاب عن أصله الإنجليزى، فقد ألحت على حقيقة أن لكل لغة عقل متميز، ولكل ثقافة تعبير خاص، ولما كنت مسئولًا عن النص الإنجليزى نفس مسئوليتى عن النص العربى فلقد سمحت لنفسى أن أتصرف مراعيًا أن يظل سياق الكتاب سياقه، وبناؤه المنطقى بناؤه فى الحالتين، وفضلًا عن ذلك فإنه بين الانتهاء من النص الإنجليزى والانتهاء من النص العربى ثلاثة شهور ظهرت واستجدت فيها معلومات وأفكار وجدت مناسبًا إضافتها ما دامت الصفحات مفتوحة ومحركات المطابع لم تدر بعد.

وكانت سعادتى كبيرة عندما عرفت أن الأهرام بادر إلى

احتضان الطبعة العربية من هذا الكتاب، فاتصل بمؤسسة (هاربر كولينز) التى تحتفظ بحقوقه فى جميع اللغات، لكى تكون الطبعة العربية صادرة من القاهرة وعن الأهرام، ورغم أن عددًا من كبار الناشرين العرب وفيهم أصدقاء كانوا يحاولون الحصول على الطبعة العربية، فإن سبق الأهرام وافق هواى مع أننى أقدر أنه يضع على- كما قلت- الأخ الكريم إبراهيم نافع رئيس مجلس إدارتها وتحريرها عبئًا مضافًا، ذلك لأنى أمام قارئ الأهرام ومطبوعاته أجد أن ولاءاتى المعنوية والعاطفية تتداخل مع التزاماتى العملية والمهنية لتجعل المسئولية مضاعفة.

8

فى 8 يناير 1996 صدرت الطبعة الإنجليزية من كتابى (المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل) ولظروف غير مألوفة، أو على الأقل غير عادية، تأخرت الطبعة العربية، وكان المقرر لها أن تسبق، وذلك تقليد حرصت عليه منذ أن سمح لكتبى أن تطبع وتصدر من القاهرة بعد قرابة عشر سنوات من المنع والحظر، كنت أمارس عملى من وطنى دون وسيلة لنشره فى هذا الوطن.

طوال تلك السنوات من المنع والحظر كانت كتبى تطبع وتصدر من لندن ونيويورك ومن باريس وطوكيو، ومن مدريد وروما، وغيرها عبر القارات، وفى نفس الوقت كانت هناك طبعة عربية لهذه الكتب تخرج إلى طلابها من خارج القاهرة، كذلك فإن ترجمة هذه الطبعة وتقديمها إلى القارئ العربى كان يقوم بها غيرى، وكنت أقول لنفسى وللسائلين إنه يصعب علىّ أن أكتب الكتاب مرتين، مرة باللغة الإنجليزية للنشر الدولى ومرة باللغة العربية، خصوصًا وقد وجدت أننى عندما أتعرض لترجمة أعمالى إلى العربية لا أكتفى بالترجمة، وإنما تدفعنى اهتمامات القارئ العربى إلى الأبعد بالزيادة وإلى الأوسع بالتفصيل، وذلك يجعل الكتاب الواحد كتابين بالفعل.

وقد شجعنى على ترك مهمة الترجمة إلى العربية لغيرى، أن مترجمين مقتدرين تفضلوا وأعطوا أعمالى من جهدهم

ما يكفيها أو أكثر، وعلى سبيل المثال فقد قام الأستاذ محمد حقى زميلى فى الأهرام وقتها، على ترجمة كتاب (وثائق القاهرة) كما قام الصحفى اللبنانى الكفء سمير عطا الله على ترجمة كتاب (الطريق إلى رمضان) ثم قام الصديق العالم الدكتور عبدالوهاب المسيرى على ترجمة كتاب (مدافع آية الله) وهكذا، وكانت تلك أفضالًا ومكرمات سعدت بها وعرفت لها قدرها، وظل الأمر على هذا النحو حتى جاء كتاب (خريف الغضب) ونظرًا لحساسية موضوعه فقد آثرت ترجمته لنفسى وبنفسى إلى اللغة العربية، ولم يخطر ببالى أننى بذلك أرسيت سابقة لم أعد أستطيع التخلى عنها أمام القارئ العربى، وأغرانى على ذلك أكثر أن كتبى رفع عنها المنع والحظر فى مصر وأصبحت مطبوعة منشورة فيها بداية من سنة 1985.

ومنذ ذلك الوقت صدرت لى كتب عديدة كان كل واحد منها فى واقع الأمر كتابين، طبعة إنجليزية هى الأصل لكل الترجمات، وطبعة عربية أقوم عليها بنفسى، ويتسع مجالها وتزيد تفاصيلها وتلتحق بها وثائقها، حتى يكاد الكتاب العربى أن يصبح بالفعل شيئًا مختلفًا عن الأصل الإنجليزى، وإن بقى الجوهر والسياق والاتجاه واحدًا فى الحالتين.

فى (المفاوضات السرية) تصرفت كما جرت عليه العادة منذ سنة 1985.

تقدم الأهرام مبادرًا بطلب الحقوق العربية كلها، سواء للنشر الصحفى أو على شكل كتاب، وتحمست حتى من قبل أن تجىء موافقة دار (هاربر كولينز) التى تملك حق التصرف فى أى تعاقد، وكنت واثقًا- على أى حال- أنهم يعرفون من تجارب سلفت أنه حين يكون الأمر متعلقًا بالأهرام فإن الموافقة تسبق التفاصيل بصرف النظر عما تقول به أصول صياغة العقود.

استعدت الطبعة الإنجليزية من الكتاب للصدور من دار (هاربر كولينز) ومعها الطبعة اليابانية فى نفس الوقت، لكن الطبعة العربية التى ترجمت نصوصها بنفسى وتوسعت فيها وزدت عليها وألحقت بها وثائقها، واجهت ظروفًا غير

مألوفة، وحاولت تقدير الدواعى وأظننى فعلت مستجيبًا لمشاعر وولاءات تعلو فوق الحقوق والعقود، وحافظًا لصلات وصداقات تسبق فى حسابى أى حساب.

وقد أضيف إلى ذلك أننى لم أطلب تفسيرًا ولا تفصيلًا، وبالى أن الطلب قد يحمل شبهة إلحاح لا أحتاجه أو شبهة ضغط لا أبتغيه.

لعدة أيام كان أمامى عرض لإصدار هذه الطبعة العربية من بيروت، وعاودتنى ذكريات أزمنة المنع والحظر، وأظن أن ذلك جعلنى أتردد.

ظلت بيروت كريمة مع ما أكتب، حفية به وحانية عليه، وظلت فى كل الأوقات مركز إشعاع عربى يساير مركز القاهرة ويضاهيه، لكن الأمر هذه المرة كانت تخالطه اعتبارات نفسية من نوع آخر.

لم تكن اعتباراتى النفسية تتعلق ببيروت، من حيث هى بيروت، وإنما كانت تتعلق بإحساس يخشى مظنة قبول طوعى بما يمكن أن يتبدى ولو بالرمز أو بالشكل درجة من درجات المنع والحظر على عمل يكتب فى القاهرة ثم يصدر وينشر خارجها كما حدث من قبل.

ولعل من هذه النقطة بالذات أننى رحبت وسعدت بعرض من دار الشروق لطبع الكتاب ونشره فى مصر، ومنها إلى بقية الوطن العربى، الذى لا أفرق فيه بين بلد وآخر عن إيمان عميق بأمة لها كل خصائص الأمة الواحدة، بما فيها ذلك التنوع الخلاق الذى يميز الأمم العظيمة.

ويتداعى إلى فكرى سؤال كثيرًا ما يواجهنى به أصدقاء فى الفكرة والكلمة، يسألوننى: لماذا لا أكتب بانتظام فى الشئون الجارية؟

وفى العادة فإن ردى يقتصر على عبارة عامة مرسلة أن واقع المشكلة التى تواجهنى فى الكتابة بانتظام عن الشئون الجارية فى مصر معقد بأكثر مما يظهر على السطح، ذلك أن

الصحف التى تصدر فى مصر نوعان، نوع يسمى بالصحف القومية، ونوع يعرف كصحف حزبية وأخرى خاصة، وأشعر على نحو ما أن كتابتى بانتظام أو بغير انتظام فى الصحف القومية قد تكون مسئولية ومخاطرة بالنسبة للقائمين على أمورها، وذلك ليس من مطالبى، ثم إن الكتابة بانتظام فى الصحف الحزبية تبدو لى استعارة لهوية ليست لى وذلك ليس من حقوقى.

وفوق ذلك- وربما قبله- فإنه يخطر لى أننى كتبت كثيرًا وما زلت أكتب أحيانًا وتكلمت طويلاً وما زلت أتكلم مرات، وقد يكون مناسبا أن أترك المجال لآخرين وأن أقرأ مع القارئين وأن أصغى مع السامعين، ولعله يرضينى أن يسأل أحد، لماذا لا يكتب هذا الرجل بانتظام؟ خير من أن يسأل أحد: لماذا يكتب هذا الرجل بانتظام؟

9

لم يكن يخطر ببالى أن المقالات التى أكتبها لجريدة (يوميورى شيمبون) اليابانية- والتى توزع على صحف كثيرة فى جنوب شرق آسيا، كما توزع بواسطة الوكالة الدولية لجريدة (لوس أنجلوس تايمز) فى الولايات المتحدة- يمكن أن تنشر يومًا فى العالم العربى أو باللغة العربية، والحاصل أننى اعتبرت هذه المقالات نوعًا من مجرد التواجد الدولى هناك بعيدًا على شواطئ المحيط الهادئ، وذلك فى حد ذاته كاف، ولعله مرغوب.

كان مجالى الدولى فيما سبق من تجربتى هو أوروبا وما يمكن أن ينتشر عن اللغات الأوربية (الإنجليزية والفرنسية بالتحديد) إلى ما هو أوسع وأبعد، لكن منطقة شرق آسيا كنقطة ابتداء لم تكن حاضرة حتى جاء يوم فى بداية التسعينيات تلقيت فيه اتصالًا من جريدة (يوميورى شيمبون) ومعها وكالة لوس أنجلوس تايمز، تعرضان أن أشارك فى باب ثابت تحت عنوان (نظرات على العالم).

تفضل رئيس تحرير (يوميورى شيمبون) فأرفق برسالته

قائمتين، قائمة بأسماء أكثر من 240 جريدة تصدر فى جنوب شرق آسيا وغرب الولايات المتحدة الأمريكية تحصل على حق نشر هذا الباب، ثم قائمة ثابتة بأسماء عدد من المشاركين- بانتظام- فى كتابة هذا الباب الثابت، وهم حشد من نجوم الفكر والسياسة فى العالم بينهم (آرثر شليزنجر) و(هنرى كيسنجر) و(مرجريت تاتشر) و(ميخائيل جورباتشوف).

فكرت وداخل فكرى شىء من التردد، حين بدا لى أن ذلك قد يؤثر على شواغلى الطبيعية إذ يأخذنى من وقت إلى آخر لمهمة قد تكون محدودة، لكنها تعترض المجرى الأساسى لجدول عملى كما هو مرسوم، وعلى نحو ما، وربما بحكم بقايا المواريث القديمة قبل ثورة القرية العالمية الواحدة، فقد بدا لى أن طوكيو مكان بعيد، وأن أى حديث ينشر وينتشر من هناك أشبه ما يكون بما كانت تردده الأمثال الشعبية المصرية المأثورة عن (الأذان فى مالطة).

ثم كان أن أقبلت على التجربة متصورًا أنها تستحق، سواء من ناحية كونها نوعًا من التواجد الدولى على شواطئ المحيط الهادى، ثم من ناحية كونها اختبارًا جديدًا أمام قارئ مختلف، كذلك فإن صحبة المشاركين بانتظام فى كتابة هذا الباب الثابت مغرية، وفى الحالتين فهى فرصة لحوار مفيد مع أفكار الآخرين.

لسنوات عديدة انتظمت فى الكتابة، أبعث مقالى باللغة الإنجليزية، ثم أنتظر أيامًا فأجده عائدًا إلىّ باللغة اليابانية إلى جانب ظهوره فى مطبوعات أخرى بلغات آسيوية لا أعرف حتى كيف أقرأ اسمى فيها، وكل دليلى على صلتى بها صورتى منشورة وسطها.

وحدث فى عدد من المرات أن جريدة (الأهرام ويكلى) التى تصدر باللغة الإنجليزية فى القاهرة عثرت على بعض مقالاتى اليابانية ونشرتها فى مصر بأصلها الإنجليزى، ومن ثم بدأ هنا- فى القاهرة وحولها- نوع من الالتفات إلى ما أكتبه هناك على الشواطئ الآسيوية- الأمريكية البعيدة على شطآن المحيط

الهادى.

ومع إننى حمدت ذلك، فإن فكرة نشر هذه المقالات فى اللغة العربية ظلت بعيدة عن شواغلى، رغم أن بعض الأصدقاء فى مجال النشر العربى طلبوها منى، وكان اعتذارى لسببين أبديتهما:

أولهما أن تلك مقالات موقوتة بموضوعات جارية.

ومن ناحية أخرى فإن نشرها باللغة العربية يقتضى أن أقوم على ترجمتها بنفسى إلى اللغة العربية، وذلك معناه كتابة المقال الواحد مرتين، وهو حال أشكو منه فى الكتب وليس معقولًا أن أسحبه مكررًا على المقالات.

ثم جاء يوم زارنى فيه صديقى الأستاذ فهمى هويدى، وكان يتحدث معى فى شأن مقال من تلك المقالات اليابانية أثار بحكم موضوعه مناقشات فى القاهرة، لأنه دار حول رغبة الدكتور بطرس غالى فى ترشيح نفسه لمدة ثانية كسكرتير عام للأمم المتحدة.

وكان لى رأى مختلف لرغبة بطرس غالى، وكان من دوافع هذا الرأى حرصى على الرجل وسمعته وكرامته، لكن المقال أثار بعد نشره فى اليابان وفى غرب الولايات المتحدة ثم فى شرقها جدلًا واسعًا، واتخذه البعض فى مصر- سواء بسوء الفهم أو بسوء القصد- فرصة للتشويش.

رأيت ترجمة المقال إلى اللغة العربية ونشره بسرعة توضيحًا للصورة وجلاء للحقيقة، وفى ختام المناقشات ذات اليوم سألنى فهمى هويدى: لماذا لا تنشر هذه المقالات باللغة العربية؟

شرحت له رأيى، لكنه ظل متحمسًا لاقتراحه، ثم إذا هو يحرض عليه صديقنا المشترك الأستاذ إبراهيم المعلم، رئيس مجلس إدارة دار الشروق، ويومًا بعد يوم وجدتنى أدير الفكرة فى رأسى، ثم أقترب منها باختيار مجموعة من المقالات يمكن أن تظل لها بعض القيمة الإخبارية أو التحليلية رغم

مضى الوقت، ورغم بعد المسافات، ثم رحت أجرب ترجمتها إلى اللغة العربية مدركًا أن لكل لغة عقلًا وأن لكل لغة أسلوبًا، ولقد آثرت أن أحتفظ فى هذه التجربة بلغة وأسلوب الأصل، حتى وإن بدا إيقاع الحديث غير مألوف بالنسبة لقارئى فى اللغة العربية.

كان الخيار الآخر أن أعيد كتابة هذه الأحاديث من الأساس بدلًا من ترجمتها، وحينئذ يتغير وجه الموضوع كله، وكان السؤال المطروح هو: هل هناك ما يستحق فى هذا الذى يقال فى طوكيو وينتشر حولها، وعلى أقرب نحو من صورته الأصلية أو ....، ووجدتنى مستعدًا للمجازفة بقبول رأى أصدقاء رأوا أن هناك ما يستحق.

وكان المنطق الذى أقنعت به نفسى هو: ليكن أن هذه المقالات كانت (أذانًا فى طوكيو) على طريقة (الأذان فى مالطة) كما يقول المثل الشعبى الشهير فى مصر، فأى ضرر يقع إذا سمعت أصداء هذا الأذان البعيد آتية من شواطئ المحيط الهادى إلى هنا على شواطئ البحار والخلجان العربية؟

10

فى العام 2001 كتبت فصولًا، بدأت فيها بحديث عن مؤتمر القمة العربى فى عمان مارس 2000 وكان عنوانها (نهايات طرق) ثم إن هذه الفصول نشرتها فى كتاب ظهر فى العام 2001 والأمة تتطلع إلى مؤتمر قمة عربى فى بيروت مارس 2002، والظاهر ولسوء الحظ أن الطرق كانت تبدو نهاياتها وكأنها وصلت إلى تيه لا يظهر عليه أفق.

مع بداية القرن الجديد- القرن الحادى والعشرين- بدا لى أن العربى أصبح هو التائه، وهو صدى بالمقلوب لتعبير شاع قبل ذلك قرونًا عن (اليهودى التائه).

وفى قرن سبق، وهو القرن العشرين، فإن ذلك اليهودى التائه وجد لنفسه مكانًا حط فيه رحله، وحصن موقعه، وفى

نفس الوقت فإن العربى اختلطت عليه الأمور، وبدا وكأنه ضيع عالمه وفيه تراثه ومستقبله، ثم إنه ارتحل لحاضره تائهًا بين الحقيقة والوهم، وبين الرؤية والسراب، وبين الحلم والعجز.

وهكذا بدأ القرن الحادى والعشرون واليهودى- الذى كان تائهًا- متحصن فى المشروع الصهيونى على أرض فلسطين، فى حين أن العربى- الذى كان راسخًا فى الطبيعة والتاريخ- أصبح هو الشارد فى التيه، قد يعرف من أين، لكنه لا يعرف إلى أين، وكان ذلك هاجسى وأنا أعيد قراءة هذه الفصول حتى تظهر بين دفتى كتاب.

خصومى
إنهم يقولون عنى.. دعهم يقولون
1

كنت أسأل نفسى دائمًا: لماذا لا أغضب لكل الإساءات التى توجه إلىّ بغير حق فيما أظن؟

ودون أن أرهق نفسى، كنت أذهب إلى أنه لا يوجد سبب واحد لذلك، بل أكثر من سبب.

منها أننى أعرف أن الشعب المصرى بصفة عامة والقارئ المصرى بصفة خاصة أذكى من كل هؤلاء الذين يتصورون أنهم يخدعونه بحجب الحقائق.

ومنها أننى أعرف إلى مدى استحكمت أزمة التصديق واتسعت الفجوة بين كل ما يقال وكل ما هو واقع.

ومنها أخيرًا أننى أعرف أن رماة السهام المسمومة ومعرفتى بهم تعصمنى من الغضب لأى شىء يصدر عنهم، بل لعلى أقول إننى بمعرفتى بهم أعتبر شتائمهم فىّ مديحًا لى، كما أن اتهاماتهم ضدى أوسمة على صدرى.

بدت لى هذه المعانى واضحة جدًا عندما تلقيت برقية من صحفى لامع فى بيروت كتب إلى يقول: أنا أحسدك على خصومك.

ورددت عليه أقول له: أنت على صواب، فأنا أستحق الحسد على خصومى، ولكنى أيضًا أستحق الحسد على أصدقائى، ولو خيرت لما اخترت غير ما لدى على الناحيتين.

ولهذا لم أكن أتعجب من الهجوم المتواصل على، فطالما أن هناك بعض الناس تهاجمك، فمعناها أن الناس تهتم بك، بل ومعناها أكثر أن الناس كلهم يهتمون بك، ولكن بعض الناس غير راضين عن اهتمام الناس بك، والهجوم عليك هو اعتراف

بقيمتك واعتبار أن لك أثرًا فى الحياة وليس عليك إلا أن تتأكد من هذه الحقيقة.

كان لمن هاجمونى مبرر آخر.

فأنا تعرضت لليمين الرجعى فى العالم العربى، كما تعرضت لليسار المغامر فيه.

وليس يهمنى أن أحصل على رضا أيهما، وقد اعتبرت وما زلت أعتبر أن هذا الرضا شرف لا أسعى إليه، ووسام ليس بين أحلامى أن أعلقه على صدرى.

أعرف أن كثيرين وضعونى فى خانة اليمين وارتاحوا، ولكن هذا لا يمنعنى من إعلان رأيى بضرورة إعادة النظر فى المعانى التقليدية لليسار واليمين بعدما تخطاها عصرنا المذهل، وحتى لو اعتمدنا المفهوم القديم، فأنا يسارى بمعنى أننى وطنى، لأن الوطنى لا يمكن إلا أن يكون يساريًا، وكل وطنى لا بد أن يلتزم اجتماعيًا مع اليسار.

على أية حال الهجوم علىّ يسرنى جدًا لأن أية كلمة تقال ولا تحدث صدى لا أهمية لها، يطمئننى عندما ينشر لى كتاب ويحس به الناس ويضطرون لمناقشته، وحتى إذا ناقشوه بالشتائم، فهذا يعطينى إحساسًا بأن من لا يستطيعون المناقشة لا يجرؤون على السكوت، ولا بد أن يتكلموا فيقولون أى شىء حتى الشتائم، لكننى لا أعترض ولا أرد عليها.

إننى أقرأ ما يكتبه الآخرون وكأننى أقرأ عن شخص آخر لا علاقة لى به، بعض الناس يروى وقائع محددة، يقول إنه قال لى وقلت له، وكثير منه غير صحيح، وأنا لا أناقش ولا أتوقف، وأعتبر القيل والقال من أوله إلى آخره يخص أصحابه ولا يخصنى، حتى وإن كنت أنا موضوعه.

2

أول هجوم على شخصى كان بسبب تحقيقات قمت بها فى

السودان، وكان معها رأيى أنه لا يمكن الكلام عن وحدة وادى النيل إلا إذا استقل السودان واختار الوحدة بإرادته.

لم نكن نعرف مع من نتحدث عن السودان، ووجدت الشتائم تنهال علىّ فى الصحف لأنى انفصالى، وصوت الأمة التابعة لحزب الوفد بدأت تهاجم أخبار اليوم.

وعندما أجريت حوارًا مع المهدى الكبير فى أخبار اليوم وآخر ساعة ارتفعت نبرة الشتيمة وكنت مقتنعًا بما أقول، وكنت أرى الأوضاع فى السودان عن قرب، وكنت واثقًا أنه لا أحد ممن يشنون الهجوم علىّ عندهم أى فكرة عن السودان الحقيقى.

وفى بدايات عمرى الصحفى كنت أتضايق، ثم اتخذت قرارًا مع نفسى، وهو الدراسة العلمية الجادة، المتمثلة فى رسائل جامعية، أما الكتابات الصحفية الملتهبة فأنا أضعها فى دولاب مكتوب عليه (قراءات مؤجلة)، واسترحت نفسيًا، قد أقرؤها يومًا ولكنى لا أريد الانفعال.

أتذكر أن إحدى المقالات نشرتها أخبار اليوم، واتصل المسئول عن مكتبى ليبلغنى مضمون المقالة، فأرسلها لى وكنت خارج مصر، وقرأت ثلاثة أسطر فقط، وقلت لهم: يا جماعة إن هذا لا أقرؤه فى مصر، فكيف أرغب فى قراءة هذا الكلام فى الغربة ضعوه أرجوكم فى الملف إياه (قراءات مؤجلة).

ولو كنت أرد على حجم ما هوجمت به لضيعت عمرى فى الردود.

أنا أريد أن يضيع عمرى فى قول شىء مفيد للناس.

لا بد أن الهجوم هاجسه أنك إنسان مؤثر واعتراف من الآخرين بك ورغبة فى إزاحة تأثيرك، فإذا أنت تعثرت فى الهجوم، فقد تعثرت.

بسهولة تجد خمسين شخصًا يقولون عنك نفس الكلام

وأن حولك علامات استفهام، الناس تحب البشر صفًا واحدًا متساويًا محاذيًا، فإذا خرج من الصف بأى مسافة قالوا: اشمعنى؟

والأمر ليس متعلقا بالسر أكثر مما يتعلق بالسائل، والغموض يأتى من تساؤل حتمى: ليه مش أنا؟

وإذا تساءل بهذه الجرأة فلا بد أن عندى شىء ليس عنده، أو محروم منه، وفى النهاية يحيط المسألة بعلامات الاستفهام والغموض.

3

بعد أن خرجت من الأهرام لم أكن أريد أن أكون طرفًا فى شىء مما رأيته يهدر أمامى متدفقًا كحمم البركان، ولم يكن بى خوف على الحقيقة، وعزلت نفسى فى مكتبى وفى بيتى، وركزت جهدى كله فى كتابة (الطريق إلى رمضان) وكان كتابًا عن مصر فى أعقاب سنة 1967 إلى حرب أكتوبر 1973.

ومضت أيام وأسابيع، ثم فوجئت بمجلة الحوادث اللبنانية تبدأ فى نشر سلسلة من التحقيقات عنوانها (ماذا فعل الطريد هيكل بالشريد على أمين؟).

كنت أعرف أن مجلة الحوادث فى ذلك الوقت تنطق بلسان جماعات معينة فى العالم العربى لها اتجاهات ومصالح وارتباطات لسبب واحد، وهو أن صاحبها الأستاذ سليم اللوزى لقى مصرعه فى ظروف مأساوية تثير غضبًا حقيقيًا فى نفس أى إنسان، لكن بعض ما حوته السلسلة لفت نظرى.

كان واضحًا أن كاتب السلسلة مصدره الأستاذ مصطفى أمين.

مثل إننى كنت وراء قانون تنظيم الصحافة لكى أسيطر على المهنة.

وإننى قمت بنفى على أمين إلى لندن.

وإننى تخليت عن مصطفى أمين وعلى أمين بعد القضية ولم أقف معهما.

وإننى كنت أزوره فى السجن لمجرد أن أتشفى فيه.

وإننى وجدت عملًا فى الأهرام لابنته لكى أتظاهر أمام الناس لا أكثر ولا أقل.

ثم زاد العيار مع قرب نهاية السلسلة فإذا أنا تواطأت على الأستاذين مصطفى وعلى أمين، وأنا الذى لفقت التهمة للأستاذ مصطفى أمين، وأنا الذى عارضت الإفراج عنه طول الوقت وآخره مع الرئيس السادات رغم أنه كان مقتنعًا طول الوقت ببراءة الأستاذ مصطفى أمين.

لم أغضب، ولكن الذى غضب وثار هو الأستاذ سعيد فريحة، وكان شاهدًا على كل ما حدث، بل كان شريكًا فيه، فكتب فى الصفحة الأولى من صحيفة الأنوار اللبنانية تفاصيل ما رآه بعينه.

دفاعى عن مصطفى أمين أمام جمال عبدالناصر وأمام أنور السادات.

ذهابى إلى السجن ومعى الأدوية والفيتامينات وصناديق التفاح وعلب الدجاج، والمشاكل الكبرى التى تعرضت لها فى ذلك الوقت حتى كادت بعض الشبهات تلحق بى أنا الآخر.

اتهموا سعيد فريحة بأنه ينافقنى، فكتب يقول: إننى أعرف مصطفى قبل أن أعرف هيكل بخمسة عشر عامًا، وإذا كان الأمر نفاقًا فلماذا أنافق رجلًا يلزم بيته ولا أنافق هؤلاء الذين يسيطرون على مواقع القوة والنفوذ؟

أبلغنى الأستاذ سعيد فريحة أنه يضع إمكانات داره تحت تصرفى لكى أكتب الحقيقة التى كان شاهدًا عليها، واعتذرت، وحينما جاء بعد ذلك فى زيارة للقاهرة سألنى: هل تتصور أنهم يؤكدون أن الرئيس السادات قال لهم إنك عارضت فى الإفراج عن مصطفى أمين حين أخبرك به، ورويت له تفاصيل

ما حدث، وإننى ناقشت الرئيس السادات فى توقيت الإفراج عن مصطفى لكيلا يبدو خروجه ضمن صفقة الإفراج عن جواسيس لأن هذا يسىء إليه مدى العمر إذ يثبت التهمة عليه جنائيًا.

4

قيل فى وقت من الأوقات أن الصحافة كانت مغلقة علىّ فى زمن عبدالناصر.

وقيل إننى كنت أحتكر الأخبار لنفسى.

قيل ما قيل.

وفى نفس الوقت كان إحسان عبدالقدوس يكتب، وأحمد بهاء الدين يكتب، وجلال الحمامصى يكتب، ومصطفى أمين يكتب حتى عام 65، ويوسف السباعى يكتب، وعندما كنت موجودًا رئيسًا لمجلس إدارة أخبار اليوم قمت بعدة خطوات أعتز بها.

عينت جلال الحمامصى مشرفًا عامًا على التحرير.

أعطيت موسى صبرى سلطات رئيس تحرير.

طلبت من أنيس منصور أن يكتب بابًا ثابتًا، واخترت بنفسى عنوانه، جاء أنيس بثلاثة عناوين، وكان مترددًا فاخترت (مواقف).

كيف تغلق الصحافة على صحفى، لقد كنت أحافظ على كرامتى كصحفى، ثم إنه كانت هناك ثقة بينى وبين عبدالناصر، ودخلنا معا فى مناقشات لم أحجب رأيى عنه فيها.

أيام الاتحاد الاشتراكى الذى حاول أن يكون حكومة فوق الحكومة، أو حكومة إلى جانب الحكومة، وأغرق نفسه فى متاهات فكرية تعبر عن أشخاص ولا تعبر عن فكر جماعى، فى تلك الأثناء كنت أنادى فى مقالاتى بتحييد أمريكا، فماذا

حدث؟

خرج أربعة كتاب فى الجمهورية بأربع مقالات، كل مقالة صفحة تهاجمنى.

فأين الصحافة المغلقة على هيكل؟

لقد كنت بالنسبة لعبدالناصر صديقًا، كان يثق فى خطى الاستراتيجى وفى سلامته، كنت أكتب ولا يقرأ مقالى كما كان بعض الناس يتصورون.

5

عندما خرجت من السجن فى نهايات العام 1981 كنت مجروحًا من المهنة وأهلها.

صحافة العالم كله وقفت معى.. إلا الصحافة المصرية.

أنا أعتقد أننى أديت دورى المهنى وأديت دورى لزملائى، كان رصيدى بدون تشويه يثبت قدر وحجم العطاء المهنى، وأنا قابل للحساب عن كل ما كتبت وعن كل موقف اتخذته، وعندما كنت أنظر إلى الوراء لا أشعر بما يثقل ضميرى، لقد حاولت أن أكون أمينًا مع نفسى، لقد كتبوا عنى الكثير، ولم أرد، قررت ألا أدخل فى حوار مع أحد، كنت أعرف قيمة نفسى ولا أغفل قيمة الآخرين، ولا أقلل من قيمتهم.

أنا أعطى دائمًا العذر للطبيعة الإنسانية، هناك موقف لم أفهمه، حين كنت فى السجن لم أقرأ شيئًا، وحين خرجت جمعوا لى ما كتب، فوضعته فى ملف مكتوب عليه (قراءات مؤجلة) ثم قرأتها.

اكتشفت أن صحافة العالم وقفت معى فيما عدا الصحافة المصرية، ثم بدأت أسمع أعذارًا، من يقول لك كان مضغوطًا علينا، وكنا مضطرين، وأنت عارف الظروف، وسامحنا، وأعترف أننى أقفلت هذه الصفحة عملًا بمبدأ (اعط العذر للطبيعة البشرية).

6

كان يدهشنى حقيقة أن أعرف أن لىّ فى الصحافة المصرية خصومًا.

لقد تركت المسرح كاملًا للجميع وأنا أعرف جيدًا أننى سعيت جهدى إلى أن أساعد الصحافة المصرية، وسعيت جهدى إلى أن أقف إلى جوار العاملين فيها، وسعيت إلى خلق صحافة حديثة عندما توليت الأهرام.

ببساطة هذا هو الجهد الذى قدمته، وإن رأى البعض أنه أقل مما ينبغى، فمن حقى أن يكونوا متوازيين، لقد بنوا جميعًا هجومهم علىّ بدعوى أننى كنت الصحفى الأوحد.

تحدثوا عن احتكار الصحافة أيام الرئيس عبدالناصر.

فات على هؤلاء أن العلاقة بين الصحافة والسلطة علاقة حوار وصراع، وهى فى نفس الوقت علاقة اعتماد متبادل فيه صراع بينكم.

(إنت عايز منه حاجات كتير قوى وهو عاوز منك حاجات كتير... هو عاوز ياخد منك خدمات أكبر ويديك أخبار أقل إنت عاوز العكس).

العلاقة متشابكة ومعقدة لكن يبقى معيارها فى النهاية هو إلى أى مدى يمكن أن يتحول ما تفعله سياسيًا إلى أن يصبح عملًا إخباريًا؟

إلى أى مدى يخدم صحافتك؟

وإلى أى مدى يخدم جريدتك؟

إلى أى مدى يساعدك على الاحتفاظ باستقلالك وحريتك؟

7

رغم كل ما تعرضت له من مشاكل فى زمن الرئيس السادات

إلا أننى اتخذت خيارًا بكامل حريتى وإرادتى بأن أبقى بمصر مهما كانت المشاق، مبديًا رأيى مهما كانت المخاطر، مخالفًا قول الكاتب الفرنسى فولتير(إن كل كاتب يجب أن يكون حرًا فى اختيار وطنه.. وطنه حيث توجد الحرية)، فوطنى هو وطنى، فتحديد نقطة البداية وهى الوطن وما عليه من بشر وقضايا، قبل التوجه إلى الوجه الإنسانى الأرحب، وبعدها وليس قبلها، يتحقق اللقاء بالعالم الأوسع.

عندما صدر قرار التحقيق معى أمام المدعى الاشتراكى (يونيو 1978) جرى إعلانى فى مكتبى فى مصر.

وحين أرادوا مصادرة جواز سفرى جرى تسليمه لهم من يدى مباشرة فى مصر.

وعندما صدر قرار الاعتقال فى سبتمبر 1981 لم يزد الأمر عن قرع باب شقتى فى مصر.

فبقائى فى مصر وتحت سلطة النظام يعطى مصداقية لما أقول كتابة وكلامًا، كون الكلام لا بد أن يكون مسئولًا ليس لأنه فى ظل القانون وإنما فى مطال السلطة.

لم أرغب بدور اللاجئ السياسى، وقد يصلح لشخص احترف السياسة، وليس لصحفى له رأى.

اللجوء السياسى خارج الأوطان يخلع جذر الشجرة من أرضها، ويرهن اللاجئ لسلطة جديدة يحتاجها بأكثر مما تحتاجه، وينتهى به المطاف من مقابلة الحاكم فى اليوم الأول إلى التعامل مع ضابط مخابرات فى اليوم الأخير رهينًا لسياسات ومقاصد.

8

خلال فترة التحقيق معى أمام المدعى الاشتراكى، وقد امتدت على مسافة ثلاثة شهور من يونيو إلى أغسطس 1978، كان التحقيق معى خبرًا فى كل الصحف المصرية، بنفس الصيغة فى نفس المكان تقريبًا، يقول كل يوم بأننى

ذهبت إلى جلسات التحقيق وعدت متهمًا بأننى كتبت خارج مصر ما أساء إلى سمعتها، هكذا بغير تفصيل أو إيضاح.

إزاء هذا الغموض والإبهام راجت داخل مصر وخارجها أقاويل وأحاديث عما يجرى فى التحقيق، ووجد بعض ذلك طريقه إلى النشر فى صحف عربية وأجنبية، وكان فيه ما هو قريب من الحقيقة، وكان فيه ما أهو أبعد الأشياء عنها، وفى الحالتين امتنعت عن التأكيد أو النفى حتى لا أدع مجالًا للتأويل، واثقًا فى كل الأحوال أن لحظة ستجىء يمكن أن توضح فيها الحقيقة أمام الذين حاولوا متابعة القصة كلها رغم حواجز الغموض والإبهام.

طوال فترة التحقيق وحتى بعد نهايته، وإلى أن أبلغت رسميًا بأن حظر السفر الذى كان مفروضًا علىّ وعلى غيرى ممن تعرضوا لمثل ما تعرضت له قد رفع، امتنعت متطوعًا عن الكتابة أو بمعنى أصح عن النشر، وكان قصدى أن أقطع الطريق على أى حجة وأن أستبعد أى مظنة أو لبس.

نشأت فجوة زمان دامت ستة شهور فى علاقتى بالقارئ العربى، ولم أكن استطيع بعد هذه الفجوة أن أستأنف النشر وكأن شيئًا لم يكن.

كان لا بد من جسر على هذه الفجوة، وكان الجسر الوحيد كما قدرت هو الحقيقة فيما جرى من وقائع التحقيق معى بواسطة المدعى الاشتراكى فى مصر، فهذا الأفضل من الحكاية، هو نفسه الفصل الناقص، الفجوة الضائعة التى لا بد لها من جسر.

قبل أن أجلس أمام المدعى الاشتراكى بما يقرب من سنة- وربما سنين- كان واضحًا أننى معرض لمشاكل فى القاهرة التى اخترت أن أبقى فيها لا أغادرها إلا لرحلات عمل يتجه معظمها إلى لندن، بالذات حيث توجد مجموعة الناشرين التى تملك حق نشر كتبى فى العالم.

كان خيارى الذى اتخذته بكامل حريتى وإرادتى أن أظل

فى مصر مهما تكن المشاق، وأن أبدى رأيى من داخلها مهما كانت المخاطر، ومع أن كثيرين حاولوا تبصيرى بما يمكن أن ينتظرنى فى مصر وحاولوا إقناعى بالبقاء بعيدًا عنها ولو لبعض الوقت، ووصل بعضهم ولهم الفضل إلى حد أنهم قدموا عروضًا بمهام وأعمال تشغلنى خارجها، إلا أننى شكرت ثم اعتذرت.

كان ذلك اختيارى، صوابًا أو خطأ، ولا أحسبنى كنت غافلًا عن عواقبه، فالذين لا يعطون إخلاصهم الدائم للرياح، تسوقهم مع اتجاهاتها السائدة فى الفصول الأربعة، يُعرضون لتغيراتها فى كل فصل.

فى أوائل شهر نوفمبر من العام 1977 أقيم لى عشاء وداع فى لندن، وكان الجمع صفوة من المشتغلين بالسياسة والدبلوماسية والصحافة، وسألنى (جوردون بروك شبرد) مدير تحرير الصنداى تلجراف، عما إذا كنت مصممًا على العودة إلى القاهرة، وكان ردى بالإيجاب (فقد غبت عن وطنى أكثر من شهرين، وهذا أقصى ما أطيقه على فراقه).

كان رأى (جوردون بروك شبرد) أنه لا يجد ضرورة ملحة لذلك فى الوقت الراهن على الأقل، لأن كل معلومات القاهرة التى تخصنى تبعث على القلق، فهناك ضيق بما أبديه من آراء، وهناك تحريض علىّ وتربص بى.

ثم سألنى (شبرد) وقد رأى تمسكى بما اعتزمت عليه (إذا كنت أقبل الاحتكام إلى تصويت) يقوم به الجمع من الأصدقاء هنا، وكلهم يعرفنى ويعرف الظروف، وكان رأيى أننى مع كل العرفان لأصدقائى أمام قضية لا يمكن الاحتكام فيها إلى غير مشاعرى وضميرى.

وأتذكر أننى بعد ذلك سألت (جوردون بروك شبرد): ما الذى يتبقى من شجرة تخلع من تربتها؟

لوح خشب؟

لم ييأس ذلك الصديق العزيز، وإنما وجدها فرصة للاقتراب

من زاوية أخرى فقال: إذن لماذا لا تذهب إلى بلد عربى آخر.. ألست تعتبر نفسك قوميًا عربيًا؟.. أو ليست أرض الأمة العربية كلها وطنك كما تقول؟

هناك فى أى بلد عربى تتفق أفكاره مع أفكارك سوف تظل جذور الشجرة فى تربتها دون أن تتحول إلى لوح خشب.

كان ردى أن مشكلة عالمنا العربى أنه ما زال تحت تأثير المنطق القبلى، ما زال محكومًا بالولاءات لأفراد، ربما كانت تلك ظاهرة موجودة فى العالم كله، لكن هناك اختلافًا دقيقًا وحاسمًا.

ثم قلت: أنا أريد أن أكون موضوعيًا ضمن قناعاتى، وذلك صعب أو شبه مستحيل فى العالم العربى، وإذا كان الأمر كذلك فإن وطنى المحدود يبقى مهما تكن الظروف أولى بالبقاء فيه، خصوصًا إذا كان هذا الوطن هو مصر بكل دورها وتأثيرها فى تاريخ ومصير الوطن العربى الكبير.

لم يقتنع (شبرد) ولم يسكت، بل سألنى: وهل تستطيع أن تكتب؟

وكان ردى: هناك حدود، وفى هذه الحدود أحاول، وأعرف أن ما أكتبه يُحجب عن القارئ فى مصر، ومع ذلك يبقى الكلام هنا فى مصر ومنها ضروريًا، يبقى فيها ضروريًا لأنه تمسُك عملى بحق التعبير عن الرأى، ويبقى منها ضروريًا لأنه إشارة أو رمز إلى أن أفكارًا أؤمن بها ما زالت فى مصر شعلة أو حتى شمعة.

سألنى: والمخاطر؟

وكان ردى: قائمة فى كل وقت، وماثلة فى كل مكان فى العالم العربى، مع أن التقاليد الحضارية فى مصر تستطيع فى بعض الأحيان أن توفر قدرًا من الأمان لرأى مخالف أو مختلف، وهذا أصعب فى أى مكان خارج مصر فى العالم العربى، أقولها إنصافًا.

أشارت الـ(صنداى تلجراف) إلى هذا الحوار الذى دار بينى وبين شبرد ضمن مقال كتبته بمناسبة التحقيق الذى جرى معى بواسطة المدعى الاشتراكى وربما لهذا سمحت لنفسى أن أستشهد به.

9

لم تكن إحالتى إلى تحقيق يجريه معى المدعى الاشتراكى فى أوائل شهر يونيو 1978 أول مرة يحوم حولى شبح مثل هذا الإجراء.

لقد حام الشبح مرات عدة قبل ذلك فى سنة 1976 وسنة 1977.

أتذكر مرة من المرات بلغت فيها الحملة علىّ مداها، مختلقة فى ذلك أسبابًا ما أنزل الله بها من سلطان كما يقولون.

نشرت إحدى الصحف صباح أحد الأيام ما يكاد يكون عريضة اتهام ضدى، بل ونشرت ما يكاد يكون حكمًا مسبقًا، وكان هناك قول صريح بأننى محال لا شك فى ذلك اليوم إلى المدعى الاشتراكى، وكان مقررًا أن يلقى الرئيس أنور السادات يومها خطابًا فى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى، وكان التلميح أن الإحالة آتية ضمن ذلك الخطاب.

وجاء الخطاب المنتظر، وجاء خلوًا مما جرى الوعيد به، وأتذكر أننى أمسكت قلمى بعد انتهاء الخطاب وكتبت للرئيس السادات خطابًا من أربعة سطور وجهت له فيها الشكر على أنه لم يستجب لحملات تحريض ظالمة.

لكن الشبح ظل يحوم، يقترب أحيانًا حتى تكاد أن تتلامس ظلالنا، ويبتعد أحيانًا وإن بقى ظاهرًا قرب حد الأفق، ولم يكن الاقتراب أو الابتعاد عبث مصادفات، وإنما ظواهر موصولة بمواقفى: هل أكتب؟ وأى الموضوعات أتناول؟ وإلى أى مدى؟

حتى كانت مبادرة السفر إلى إسرائيل فى أواخر سنة

.1978

أبديت رأيى عارفًا مقدمًا أنه سير الحفاة على طريق الشوك، ومضت الأسابيع والشهور مشتعلة بالتوتر والقلق حتى انفجرت عاصفة الخماسين التى هبت على مصر فى شهر مايو 1978، وأطاحت بأوضاع المسرح السياسى المصرى كما كان فى ذلك الحين.

وقتها ضاع اليمين فى مصر ممثلًا فى حزب الوفد الجديد، الذى لم يجد أمامه غير أن يحل نفسه.

وحوصر اليسار فى مصر ممثلًا فى حزب التجمع الديمقراطى.

وكان الأغرب من ذلك كله ما حدث للوسط- كما كانوا يتصورونه- ممثلًا فى حزب مصر، الذى كانت الأغلبية الرسمية الحاكمة منه، ما حدث له عجب، فإن الأرض انشقت تحته فاختفى، والأغلبية الرسمية الحاكمة التى كانت له تركت ساحته متوجهة إلى ساحة أخرى جديدة، وربما كان فى ذلك نوع من الحكمة الإلهية، فإن عناصر فى رئاسة الحزب القديم كانت- كما يقول أقطاب الحزب الجديد- مسئولة عن النظرة البوليسية إلى العمل السياسى فى المرحلة السابقة، وكان تركيزها المبالغ فيه على دعاوى الأمن لا هدف له غير تعويض العجز عن الفكر والفعل السياسيين.

فى وسط هذه الضوضاء الشديدة والزحام جاءنى القائلون يهمسون إلىّ بأن دورى قد جاء، وبأن بعض المواد التى طرحت فى الاستفتاء العام الذى أجرى وقتها موجهة إلى، بل إن بين صياغات هذه المواد عبارات فصلت تفصيلًا لكى تلبسنى، وكان ذلك صعبًا على التصديق، فقد بدا لى اهتمامًا لا اظننى أستحقه.

ثم أشيع أن هناك قوائم بإحالات إلى المدعى الاشتراكى وأن أسمى وارد فيها، ولكننى عرفت بالخبر اليقين على طريقة (ويأتيك بالأخبار من لم تزود)، فقد اتصل بى ذات

مساء (بوب جوبيتر) مراسل هيئة الإذاعة البريطانية بالقاهرة يسألنى: ما هو تعليقك؟

وقلت له: تعليقى على ماذا؟

قال لى: ألم يبلغك أحد؟.. لقد أذيع الآن قرار بمنعك من السفر انتظارًا لتحقيق يجريه معك المدعى الاشتراكى.

وكان شعورى مزيجًا من الدهشة والأسف، ولم يكن الأمر فيما يتعلق بى يحتاج إلى قرار يمنعنى من السفر، يذاع وينشر فى الدنيا كلها، لقد كان يكفى أن يتصل بى أحد أفراد سكرتارية أى مسئول معنى بالأمر ليقول لى إن وجودى فى مصر مطلوب حتى إشعار آخر، وكان مؤكدًا أننى سأمتثل راضيًا.

كان اختيارى البقاء فى مصر مع تمسكى بحقى فى إبداء رأيى معناه يقينًا أننى معرض فى أى وقت لمثل ذلك، وأنه نوع من المخاطر قبلته، وكان أمامى منذ وقت طويل أن أقفل فمى وأسكت، أو أحزم حقائبى وأذهب، وذلك ما لم أفعله.

فلم أكن أبدًا من الذين يتسللون فى الليل قبل أن يواجهوا باستدعاء أمام أى جهة مهما كان سلطانها، فأنا أعرف نفسى وأعرف دورى فى الخدمة العامة لوطنى ولأمتى، وأظن- وقد أكدت التجربة- أن هناك فى مصر وفى العالم العربى وفى الدنيا الواسعة كلها من أظهروا بما لا يدع مجالًا للشك أن الذاكرة الإنسانية ليست مسطحًا من الماء الآسن العكر.

إذن ما هو مبرر إجراء معى على هذا النحو، وهو لا يسىء إلى بقدر ما يسىء لغيرى، وقد أساء فعلًا إلى الصورة العامة لما يجرى فى مصر؟

لم يتركنى (بوب جوبيتر) لخواطرى، وإنما سألنى إذا كان يستطيع أن يجىء فورًا إلى مكتبى ليحصل على تعليق يذاع بصوتى من لندن، وجاء وأبديت رأيى أمامه، ثم أبديت رأيى أمام كثيرين غيره من حملة الأقلام والميكروفونات والعدسات تنقله حرفًا وصوتًا وصورة إلى أرجاء الله كلها،

وكنت فيما قلت حريصًا على مصر، فهى وحدها التى أهابها إجلالًا، وملء عين حبيبها، كما يقول بيت الشعر المشهور.

اكتفيت بأن أبديت دهشتى من إجراء لا أجد له داعيًا، ولم يكلف أحد خاطره بإبلاغى به أو بحيثياته ودواعيه قبل إذاعته على العالم، ثم إننى لم أفعل شيئًا سوى إبداء وجهات نظرى فى قضايا مصيرية بالنسبة لوطنى وأمتى، وهذا حق لا يستطيع أحد أن يعترض سبيلى إليه، وقد مارسته فى ظل القانون وفى وضح النهار وهذا كل شىء.

خرجت بعض الصحف بعناوين حمراء، أو لعلها صفراء، وبقوائم وضعتنى فى صحبة لم أتشرف من قبل بمعرفة معظم الذين تجمعوا فيها، كانوا قرابة أربعين، أكثر من ثلاثين منهم خارج مصر، والباقون أكثر قليلًا من خمسة كانوا فى مصر، وحتى هؤلاء كان بينهم من لم تقع عليه عيناى حتى ذلك الوقت وحتى الآن.

نُسبت إلىّ تهم أعرف ويعرف الذين وجهوها أننى يقينا لم أقترفها، وألحقت بى مقاصد لم أسع إليها ولم تدر قط فى خواطرى، وكان ذلك مناخًا غير مألوف فى مصر على كثرة ما مرت بمصر العهود، واقترح على البعض مخلصين أن أرفض المثول أمام المدعى الاشتراكى فى هذا الجو وكانت حجتهم: إذا كنت بما تصرفت قد أتيت ذنبًا فقانون العقوبات موجود والنيابة العامة وحدها مسئولة عنه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن المناخ كله مجاف لروح العدل، إذا كان العدل هو هدف القانون.

كان رأيى مختلفًا بصرف النظر عن أية تحفظات كانت لى على الأمر كله فى الشكل وفى الموضوع، وكان اقتناعى بعدها أننى لن أمتنع عن التحقيق، بل على العكس سوف أتعجله.. وهكذا كان.

10

توجه الصديق الكريم المستشار ممتاز نصار إلى مقابلة مع

المدعى الاشتراكى، الوزير أنور حبيب، يقول له إنه حاضر معى فى التحقيق بوصفه محامى: ونحن نرجو تحديد أقرب موعد للمثول أمامك.

تحدد بالفعل موعد الجلسة الأولى، الأربعاء 14 يونيو 1978، ولم أكن أعرف ما سوف أُسأل فيه، ورحت أراجع ما كتبت وأستوثق من بعض الوقائع، أحاول أن أكون مستعدًا لكل الاحتمالات.

كانت لدى كما قلت تحفظات على الأمر كله، فى الشكل والموضوع.

ماذا فعلت؟

إننى لم أفعل سوى إبداء رأيى فى قضايا مصيرية بالنسبة لشعبى وأمتى، ولقد أبديت رأيى بالكتابة وهى مهنتى طول عمرى كله، وصحيح أننى نشرت آرائى خارج مصر لكنى فعلت ذلك حين امتنع على النشر داخلها، ومع ذلك فأنا لم أخرج من مصر وإنما آثرت برغم كل شىء أن أبقى فيها، ومعنى ذلك أننى فضلا عن ولاء مطلق لها رضيت الخضوع لقوانينها.

لم أكن أعرف- ولا أظن أن أحدًا غيرى كان يعرف- شيئًا اسمه التحقيق السياسى، وربما جاز أن يكون هناك تحقيق سياسى داخل تنظيم سياسى واحد، بمعنى أن تنظيمًا سياسيًا معينًا يرى فى تصرف أحد أعضائه خروجًا على مبادئه، وهنا يكون التحقيق السياسى لبحث أمر التزامه أو خروجه على مبادئ الحزب وتقرير بقائه فيه أو فصله منه، وأنا أعرف أننى لا أنتمى إلى تنظيم سياسى، وإذن من أين يمكن أن تطولنى مسألة التحقيق السياسى؟

إننى بالقطع خارج هذا النطاق، ومعنى ذلك فيما يتعلق بى أنه يستحيل أن يكون هناك تحقيق سياسى، فالخلط غير وارد وغير محتمل بين منطق التحقيق ومنطق السياسة، إذا كان هناك تحقيق، إذن فليس هناك غير إطار قانون العقوبات، وليست هناك أداة غير النيابة العامة.

وإذا كانت هناك سياسة، إذن فليس هناك غير إطار الحوار، وفى إطار الحوار لا يمكن أن تكون هناك إجراءات وعقوبات إلى آخره، وعلى فرض جواز ما لا يجوز، فأى قانون ينطبق على ما سوف يجرى فيه التحقيق معى بواسطة المدعى الاشتراكى.

إن كل ما كتبته وما هو موضع التحقيق أغلب الظن، والجو كله كما نرى ظنون، سابق على الاستفتاء الذى استندت إليه كل هذه الإجراءات مع غيرى ومعى، فهل يمكن أن يكون هناك قانون عقابى بأثر رجعى؟

إننى لم أتوقف كثيرًا أمام هذه التحفظات، ولقد كانت قيمتها بالنسبة لى أنها أكدت للكل أننا لسنا أمام إجراءات قانون وإنما نحن أمام إجراءات سياسية اتخذت من القانون برقعًا، وهذ شىء خطير خطير.

لم أشعر بقلق، صحيح أننا لسنا أمام إجراءات قانون، وإنما نحن أمام إجراءات سياسية، وصحيح أيضًا أن الخلط بين الاثنين خطير خطير فى أى مكان وفى أى زمان، لكن عصرنا الحديث له مزاياه كما أن له بالقطع مساوئه.

11

جاء موعد الجلسة الأولى الأربعاء 14 يونيو الساعة العاشرة صباحًا، ووجدت جمعًا من مراسلى الصحف ووكالات الأنباء العالمية ينتظروننى خارج مكتب المدعى الاشتراكى، فى الدور السابع من مبنى جديد ضخم يطل على ميدان (لاظوغلى) ولا يبعد غير خطوات عن مجلس الشعب ومقر رئاسة الوزراء.

كان قولى لهم: ابتداء من الآن لم يعد من حقى أن أقول شيئًا، فالمدعى الاشتراكى وحده يملك أن يقول ما يريد. وأصروا على انتظارى حتى انتهاء الجلسة الأولى، فربما كان هناك ما أستطيع قوله.

توجهت فى صحبة المستشار ممتاز نصار إلى القاعة التى

تقرر أن يجرى فيها التحقيق.

كان المدعى الاشتراكى بنفسه هو الذى سيتولى التحقيق معى، وهكذا كانت قاعة الاجتماعات الكبيرة الملحقة بمكتبه هى المقر المختار لجلساته، والقاعة صفان طويلان متوازيان من الموائد المتلاصقة يربطها فى الصدر مكتب نصف دائرى جلس إليه المدعى الاشتراكى، الوزير أنور حبيب، وإلى يساره المحامى العام المستشار عبدالرحيم نافع، وإلى يمينه المحامى العام المستشار أحمد سمير سامى.

فى مواجهتهم كانت هناك ثلاثة مقاعد، أحدها لكاتب الجلسة، وآخر بجانبه لى، ومن ورائنا نحن الاثنين المقعد الثالث للمستشار ممتاز نصار، إلى جوار المحامى العام المستشار أحمد سمير سامى كان مقعد خصص للأستاذ حسن الشرقاوى سكرتير نقابة الصحفيين الذى حضر لمتابعة الجلسات وفقًا لقانون النقابة.

اتضح لى منذ اللحظة الأولى أن هيئة التحقيق تريد أن تقوم بالمهمة الموكولة إليها فى جو يسوده احترام متبادل، وهذه شهادة حضارية لمصر ولتقاليد رسخت فيها بالتجربة وعلى مر السنين.

على فنجان قهوة افتتاحى اتفقنا على أسلوب التحقيق.

قال المدعى الاشتراكى إنه سوف يسألنى فى بعض ما كتبت، وقد تمتد أسئلته إلى موضوعات أخرى لا تتصل بما كتبته، وأنه هو بنفسه الذى يتولى التحقيق.

وقال إن لى مطلق الحرية فى الإجابة كما أشاء على أى سؤال يوجهه إلى، بل إنه يقترح- رغبة فى مزيد من الدقة- أن أقوم بإملاء ما أرى إثباته نصًا من إجاباتى فى سجلات التحقيق.

وقال إنه لا يعرف متى تنتهى، فهناك أسئلة كثيرة عما كتبت، وما كتبته والحمد لله كثير.

وقلت: إننى تحت تصرفه فيما يشاء معرفته، سواء بشأن ما كتبته أو بشأن مواقفى غير المكتوبة، وكل ما أطلبه هو ألا يكون النقاش بيننا على جمل خارج سياقها أو على مقالات معزولة وحدها عن مجمل ما كتبت، ذلك لأننى أعتقد أن لكل كاتب موقفًا كاملًا تجاه أى قضية من القضايا، وهو لا يستطيع أن يصب كل ما عنده فى جملة، ولا يستطيع أن يعرض فكرته مستوفية فى مقال واحد، ولهذا فإننى أتمنى أن يكون النقاش- كما قلت- على مواقف كاملة من قضايا محددة.

بدأ التحقيق وتعاقبت جلساته واحدة بعد الأخرى.

عشر جلسات كاملة، أربع منها فى شهر يونيو، وخمس فى شهر يوليو، وجلسة ختامية فى اليوم الأول من شهر أغسطس، وكان متوسط مدة الجلسات ثلاث ساعات، أى أننا جلسنا وجها لوجه ثلاثين ساعة كاملة بين سؤال وجواب.

كان هو السائل أساسًا، وكان المحامى العام المستشار عبدالرحيم نافع يتدخل أحيانًا بأسئلة فرعية، وكذلك يفعل فى أحيان أخرى المحامى العام المستشار أحمد سمير سامى، وأشهد أن الفرصة أتيحت لى- فى كل الأحوال- كى أقول ما أريد من إجابات فى الرد على ما وجهوه من أسئلة.

وكانت هناك أسئلة تحفظت على صياغتها وسجلت تحفظى، وكانت لى إجابات طويلة على بعض الأسئلة لم يحاول أحد اعتراضها، وفى مرات كانت هناك مواقف طلبت فيها إيقاف التحقيق لكى أدلى بخلفيات مفصلة لبعض ما سئلت فيه من آرائى ومواقفى، خلفيات رأيتها ضرورية لعلم هيئة التحقيق، وفى نفس الوقت لم أجد داعيًا لإثباتها فى نصوصه، وكان حسن إصغاء وصبر فى المتابعة.

فى الجلسة الأخيرة بتاريخ أول أغسطس أخطرت منذ البداية بأنها الجلسة الأخيرة، وكنت على وشك أن أسجل أن موسم صيف بأكمله ضاع منى ولم أفعل شيئًا، لأن مثل ذلك يصبح تزيدًا لا مبرر له ما دمت أخطرت بأنها الجلسة الأخيرة.

وبعد ساعة ونصف الساعة وجه إلى السؤال الأخير وأجبت عنه.

سألنى المدعى الاشتراكى ذلك السؤال التقليدى الذى ينتهى به أى تحقيق: هل لديك أقول أخرى؟

قلت: نعم.

ثم رحت أملى تعقيبًا على التحقيق دام لأكثر من ساعة كاملة حاولت فيها أن ألخص رأيى فى الموضوع كله بطريقة سريعة ومركزة، وتبادلنا عبارات مجاملة وتحية.

12

قلت للمدعى الاشتراكى إن لدى عنده طلبين أرجو أن أكون فى طلبهما داخل الحدود التى تسمح بها القوانين.

الطلب الأول أن أحصل على صورة كاملة من سجلات التحقيق.

وقال لى المدعى الاشتراكى إن هذا من حقى، وإنه سوف يطلب من سكرتاريته تصوير كل صفحة من صفحات التحقيق لتسليمها لى، وإنه يرجو أن يتم ذلك فى ظرف أسبوع.

والطلب الثانى أن يخطرنى فى أسرع وقت مناسب له بما يراه بالنسبة لإمكانية سفرى إلى لندن لمدة أسبوعين فى شهر نوفمبر.

قلت له إن لدى كتابًا سوف يظهر فى السوق العالمية فى هذا الوقت فى لندن، وستبدأ جريدة الصنداى تايمز فى نشر بعض حلقات مسلسلة منه فى ذلك الوقت، وهناك إلحاح على من الناشرين أن أحضر معهم احتفالات ظهور هذا الكتاب.

وقلت إننى أتفهم الظروف، ولذلك فإنى لا أطلب منه تصريحًا بالسفر، وإنما أطلب منه مجرد إخطارى، هل أستطيع

أو لا أستطيع السفر، حتى أتمكن فى موعد ملائم أن أخطر الذين ينتظروننى فى لندن أننى ذاهب إليهم، أو أخطرهم فى أن الظروف ما زالت تحول بينى وبين السفر.

وقلت إننى لا أريد إحراجه، فانا أعرف أن المسألة فى صميمها مسألة سياسية، وكل ما أطلبه كما قلت وشددت على القول أن أعرف، وقال لى المدعى الاشتراكى إنه سوف يخطرنى بالقرار فى مسألة السفر فى بحر عدة أيام، أسبوع أو نحو ذلك.

فوجئت فى اليوم التالى 2 أغسطس 1978 بصحف الصباح فى القاهرة تنشر أن التحقيق معى تأجل لأجل غير مسمى أو لموعد يتحدد فيما بعد، وكان ذلك شيئًا مختلفًا كل الاختلاف عن الحقيقة، وكتبت خطابًا إلى المدعى الاشتراكى رجوت محامى أن يتفضل مشكورًا فيحمله بنفسه إلى مكتبه، ويستوضح منه سبب التباين بين الحقيقة وبين الصورة التى أوردتها الصحف.

عاد إلى المحامى يقول إنه قابل المدعى الاشتراكى بنفسه وسلمه الخطاب، وإن الحقيقة هى ما نعرفه، وأما ما نشر عنها فقد تسبب فيه لبس غير مقصود، ولم يكن أمامى غير انتظار التطورات، ومضت الأيام والأسابيع والشهور.

لم أتسلم الصورة الرسمية المعتمدة للتحقيق، رغم أننى طلبت مثل هذه الصورة الرسمية المعتمدة، ومن حسن الحظ أن الأستاذ المستشار ممتاز نصار، كان فى الجلسات الأربع التى حضرها معى يسجل كل ما يدور، وبعد أن حرمنى مرض طارئ ألم به من حضوره معى فإنه أناب عنه من مكتبه زميله وصديقه المستشار إبراهيم زكريا، الذى واصل بعده نفس الأسلوب فى تسجيل وقائع الجلسات الست التى سعدت فيها بحضوره معى حتى تمام التحقيق.

ومع أننى كنت أعود إلى مكتبى بعد كل جلسة فانقطع لإعادة بناء وتسجيل كل ما جرى فيها ضمن سياقه، فقد اعتمدت بالدرجة الأولى على أوراق الصديقين الكريمين

المستشار ممتاز نصار بالنسبة للجلسات الأربع الأولى، والمستشار إبراهيم زكريا بالنسبة للجلسات الست التى تلت ذلك من التحقيق.

بعد كل ما جرى سألت نفسى عن النتيجة من كل ما جرى.

عشر جلسات، ثلاثون ساعة، ثلاثة شهور استغرقت موسم صيف بأكمله، ولم أعرف لماذا جرى ما جرى؟!.. ما أعرفه فقط هو أن أى إساءة إلى مصر لم تصدر عنى.

13

لقد قيل يومًا إن الصحفيين المصريين يكتبون خارج مصر ضد مصر، ولم يكن هذا الكلام دقيقًا بالنسبة لى على الأقل، وقد تمنيت أن يلتقط أحد مقالًا واحدًا أسأت به إلى مصر، وينشره هنا، ليقدم الدليل على إدانتى، ويكتب بالمانشيت الأحمر: هذا ما يقوله هيكل بعد تاريخه. لكن شيئًا من هذا لم يحدث.. وظل الطنين.

جاءنى صديق يحمل إلىّ نشرة استماع صادرة عن هيئة الإذاعة البريطانية ناولها وهو يقول: لقد بدأ الهجوم عليك مرة أخرى فى صحف القاهرة؟

وناولنى نشرة الاستماع وهو يقول: ينسبون إليك الآن وبالتلميح الصريح تقريبًا أنك كنت مصدر المعلومات فى مقالات كتبها صحفى بريطانى فى جريدة الجارديان سنة 1972، وفيها كلام عن فساد فى مصر.

أمسكت بنشرة الاستماع مستغربًا، لم أستغرب الهجوم ولكنى استغربت التهمة، ومشيت بنظرى على سطور ما يخصنى فيها، ثم وضعتها على مائدة أمامنا وأنا أهز رأسى أسفًا، وقلت له أو لعلى قلت لنفسى: اننى أتذكر هذه المجموعة من المقالات فى الجارديان، كتبها ديفيد هيرست وهو مراسل الجريدة فى الشرق الأوسط.

انه كتب هذه المقالات فيما أذكر سنة 1972، وأنا لم أقابله

فى حياتى إلا سنة 1975، وفى حياتى كلها قابلته مرتين، وكان قد طلب لقائى ليعرف رأيى فى اتفاقية فض الاشتباك الثانية فى صيف 1975، وقد نشر رأيى منسوبًا إلىّ فى ذلك الوقت، قبل هذا لم أقابله، وبعد هذا لم أقابله لا بموعد ولا صدفة.

كان ديفيد هيرست تحت الرقابة، وكذلك كنت أنا، وقبل ذلك كله وبعده فلست الصحفى الذى يذهب إليه مراسل أجنبى ليحصل منه على معلومات، إننى أقابل صحفيين بغير عدد، ولكنهم يجيئون فى طلب رأيى، منسوبًا إلى صاحبه، ولست أريد أن أعطى نفسى أكثر مما أستحق، وفى نفس الوقت فأنا أعرف مكانى وأحرص عليه.

وأعترف على استحياء شديد أننى سعدت بعبارة قالها أنتونى ناتنج، وزير الدولة السابق للشئون الخارجية فى وزارة إيدن، ضمن برنامج عنى أخرجته هيئة الإذاعة البريطانية ووضعته على موجاتها يوم 14 ديسمبر 1978 فى سلسلة صور شخصية.

فى هذا البرنامج سُئل أنتونى ناتنج عن تقييمه لى فترة اقترابى من القمة فى مصر وفترة ابتعادى عنها.

وقال ناتنج: عندما كان قرب القمة كان الكل يهتمون بما يعرفه، وعندما ابتعد عن القمة تحول اهتمام الكل إلى ما يفكر فيه.

وفى الحقيقة فإنى أعجز أحيانًا عن معرفة السبب الذى يدعو إلى اتهامى بما لم أفعله.

إن أسباب ابتعادى فى أعقاب حرب أكتوبر معروفة، ثم أن آرائى فى كل القضايا موجودة ومنشورة، وهى على خلاف ظاهر وواضح فى كثير من المجالات القومية والوطنية والاجتماعية والسياسية، ولست أدعى أن رأيى وحدى هو الصواب ورأى سواى هو الخطأ، فتلك عصمة لا يملكها بشر، وإنما يتحمل كل بشر بقدر ما يطيق، وعليه مسئوليته، ومنها

حسابه، وقد رضيت دائمًا بالحساب عن آرائى حتى فى أكثر الظروف عنتًا وتعسفًا، لكن تلك مسألة والادعاء علىّ بما لم أفعله مسألة أخرى على النقيض منها تمامًا.

14

قيل لأحد كبار القانونيين- وقد كتب ونشر ما قيل له- إننى كنت وراء ضرر أصابه.

لم أكن أعرف الرجل ولا تشرفت بلقائه، وكان موقفى منه عكس ما نقل إليه، وفضلًا عن اهتمامى به لقيمته العلمية- والإنسانية باعتباره مواطنًا- قد كان قريبًا لصديق كبير لى هو على الشمسى باشا.

وقيل لأحد الزملاء الصحفيين إنه دعى لمنصب صحفى مهم عن طريقى، وإننى لم أبلغه بالدعوة الموجهة إليه وهكذا ضاعت الفرصة منه، وقد كتب ونشر ما قيل له، ومن ذلك عرفت لأول مرة حكاية أنه كانت هناك دعوة له.

وقيل للكثيرين: إننى كنت وراء اضطهاد تعرضت له (العائلات) فى مصر، بينما كان مكتبى ملجأ لكل عائلة، تريد أن ترفع صوتها، ولا أريد أن أستشهد بأحد، لأن الاستشهاد بأحد فى هذا الصدد قد يصبح نوعًا من المن عليه لا يجوز لى ولا يليق به، وقد أعفانى أحد كرام الناس وهو رجل لم أقابله منذ سنوات من كل حرج، وهذا الرجل هو محمد على فرغلى باشا، وكان من أبرز نجوم الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مصر قبل الثورة، وكان يلقب بملك القطن.

أصدر فرغلى باشا كتابًا يحوى مذكراته بعنوان (عشت حياتى بين هؤلاء) تضمن فصلًا عن تجربته معى، وقد امتد هذا الفصل على مساحة عشر صفحات كاملة من 187 إلى 196، وقد روى فيها تفصيلا كيف (وقفت معه ومع مئات غيره فى ظروف صعبة دون انتظار حتى كلمة شكر) وأثار صدور الكتاب اهتمامًا كبيرًا فى مصر، لأن صاحبه وإن كان من الذين أضيروا بالقرارات الاشتراكية إلا أنه حاول أن يرتفع

فوق مصالحه الشخصية.

ولم يجىء صحفى عربى إلى مصر، أو كاتب أو مفكر، إلا وقصوا عليه حكايات أننى حجبت الكل- عنوة- ولا أعرف كيف؟ حتى أُصبح الكاتب الأوحد، وكان العجب يبلغ من السامعين مبلغه لأن السجلات أمامهم تشهد بالعكس على طول الخط.

لقد كنت أنا الذى تعاقد للأهرام مع صفوة من أقلام مصر وأحسن صحفييها، ولقد تمنيت مرات لو طاوعنى الحياء- أو لعلها الكبرياء- فأنشر بعضًا من رسائل أصحاب هذه الحكايات إلىّ بخط أيديهم يشهدون فيها ويشيدون، فلم يكن هناك بينهم وبدون استثناء واحد لم أقف معه، ولم أفتح طريقًا أمامه بحكم صلات الزمالة، لكننى كنت أراجع نفسى وأردها حتى عن مجرد الوقوف أمام طواحين هواء فضلًا عن معارك معها.

هل نُسى كل ما شهدوا لى به، وآخره ما كتبه الأستاذ مصطفى أمين فى (فكرة) قبل أيام من انفجار خلافى مع الرئيس السادات وخروجى من الأهرام.

هو الذى كتب بخط يده يقول: كنت أتتبع الجهود الضخمة التى يبذلها هيكل لرفع الظلم، ولكن الأقلام الكبيرة أصيبت بالخرس.

كان هو الذى كتب وكنت أنا الذى قررت ألا أنشر هذا الكلام عنى.

وكنت أيام مسئوليتى عن أخبار اليوم، بالإضافة إلى الأهرام- الذى أعدت فيها جلال الحمامصى مشرفًا على تحرير أخبار اليوم، وعينت إحسان عبدالقدوس رئيسًا لتحرير أخبار اليوم، وعينت يوسف السباعى رئيسًا لتحرير آخر ساعة- وكانت هذه أحسن الاختيارات التى وجدتها فى السوق لأعطى أخبار اليوم الفرصة لمنافسة الأهرام، وقد ظل هذا الوضع قائمًا قرابة سنتين، ثم كنت أنا الذى طلبت الإعفاء

من مسئوليات الانتقال إليه، وما تفرضه من ضرورات إعادة تنظيم العمل على أسس تلائم نقطة تحول أساسية فى الصحافة العربية، وقد قبل طلبى.

إلى جانب ذلك كانت جريدة الجمهورية هى جريدة التنظيم الطليعى فى الاتحاد الاشتراكى، وفيها كانت قيادات الصف الأول كلها تكتب، ومعظم ما كتب كان فى معارضة آرائى واعتبار ما أقوله مروقًا على خط الاتحاد الاشتراكى.

وكانت هناك دور صحفية أخرى لها رؤساء تحريرها ولها محرروها.

دار الهلال على سبيل المثال وروزاليوسف.

طوال هذه السنين لم أتجاوز حدود الصحيفة التى كنت أرأس تحريرها وهى الأهرام، وحتى عندما عينت رئيسًا لمجلس إدارتها فإننى اعتبرت أن ذلك قرار سياسى وليس قرار مهنة، ولهذا لم أضع اسمى مرة واحدة على الأهرام كرئيس لمجلس الإدارة، وإذن فإن الصحافة لم تكن فى ذلك الوقت صحفيًا واحدًا، ومع ذلك فإن هذا الصحفى الواحد ترك لهم مكانه فى الصحافة المصرية.. وإذن فلماذا؟

قيل لى مرات: إن خطيئتى الكبرى أن الأهرام نجح عالميًا، وكذلك كتاباتى فى الدنيا الواسعة بعد خروجى من الأهرام، وإن هذا النجاح فى حد ذاته جريمة لا تغتفر، ولم أقبل هذا التفسير، فلم أكن صانع الأهرام الحديثة وحدى، ثم أليس من سنن الطبيعة أن يقدم كل جيل إضافة إلى ما صنعته أجيال سبقت؟

ولم أكن أطلب من أحد أن يرد لى جميلًا، ولكنى أيضًا لم أكن أتوقع جزءًا سنمار.

ومرات حاولت أن أعزى نفسى، لقد كان ذنبى أننى ابتعدت عن كل سلطة، أو لم يحدث ذلك لغيرى؟

ألم يتحول الملك فاروق على نفس النمط من الوطنى الأول

والعامل الأول والفدائى الأول لكى يصبح بعد نزوله عن عرش مصر وخروجه منها أفاقًا ولصًا وهاتك أعراض على نفس المكان من صحف أخبار اليوم؟

ألم يتحول مصطفى النحاس على نفس هذا النمط، وهو الذى كان على الأقل طوال حقبة الثلاثينيات رمزًا للمقاومة ضد الاحتلال وضد القصر، إلى خائن وفاسد وألعوبة فى يد زوجته على نفس صفحات أخبار اليوم؟

ألم يتحول جمال عبدالناصر وهو رمز حركة الحرية والتحرر والعدل الاجتماعى، إلى طاغية وجلاد بعد أن تأكد رحيله إلى رحاب الله بنفس الأقلام وإن اختلفت ألوان الحبر؟

وأنا بالقطع لا أريد أن أقارن نفسى بالملك فاروق، ولا أتجاوز فأضع نفسى على نفس الدرجة مع مصطفى النحاس، ولا أتجاسر على مقام جمال عبدالناصر، وإن كان قد حدث لهؤلاء ما حدث، فلماذا لا يحدث لى نفس الشىء؟

15

ظللت لسنوات طويلة من حياتى عزوفًا عن استعمال حق الرد على من يهاجموننى، خصوصًا فى ظروف لا تسمح بالحق من أصله، ومن ثم تصبح ممارسة الفروع أو محاولة ذلك نوعًا من ضرب الرءوس بالجدران.

فى السنوات التى أعقبت خروجى من الأهرام فى فبراير 1974، صال وجال كثيرون أسميهم فى العادة (فرسان الساحات الخالية)، هؤلاء الذين يرمحون فى ميادين يعرفون مقدمًا أنه ليس فيها عدو وبالتالى ليس عليها قتال.

وحين وصلت إلىّ من بعيد صرخات (فرسان الساحات الخالية) التى كان مقصودًا بها إرهاب العدو قبل ملاقاته لم أجد فيها ما يغريننى أو يدعوننى إلى الإصغاء لأصواتها، أو انتظار أصدائها.

خرجت مرتين اثنتين بالعدد عما آثرت الالتزام به.

مرة حين نشرت إحدى الصحف عنوانًا رئيسيًا فى صفحتها الأولى تعليقًا على رأى أبديته خارج مصر بمعارضة (رحلة القدس) قالت فيه بالحرف (واحد ضد مصر).

كان ردى على ذلك كلمة واحدة فى نهاية مقال نشر أيضًا خارج مصر جاء فيها (بل واحد من مصر).

وفى المرة الثانية كان ردى كتابًا عنوانه (بين الصحافة والسياسة) وهو يحكى بنفسه قصته، القصة كانت فى حد ذاتها مؤلمة وحزينة، وقد كنت أفضل أن أكتم تفاصيلها فى نفسى ولكن أصحابها لسوء الحظ لم يتركوا لى خيارًا غير أن أروى الحقيقة كاملة وبوثائقها.

وخلال هذا كله لم يكن يراودنى شك فى أن الظروف سوف تتغير، وأنه سوف يجىء يوم ينفذ فيه ولو شعاع ضوء يكشف لكل الناس ما لا بد أن يروه، ومن الحق أن أعترف أن صحف المعارضة فى مصر وبالتحديد (الأهالى) و(الشعب) حاولت ما استطاعت أن تصلنى بالقارئ المصرى، لكن صحافة المعارضة مظلومة فوسائلها محدودة ومجال حركتها مقيد.

ومن ناحية أخرى فقد كنت أشعر طوال تلك الفترة أن المساحات التى تخصصها هذه الصحف أحيانا لما أقول أو أفعل، هى عملية خصم من حقوق أحزابها وكتابها الذين هم أصحاب الحق قبل غيرهم فى مساحات صفحاتها، ثم تحول شعاع الضوء إلى نافذة تفتحت كاملة للشمس من حيث لم أحتسب وأتوقع وهذه مفارقة غريبة.

فقد كانت النافذة هى جريدة أخبار اليوم ورئيس تحريرها الأستاذ إبراهيم سعدة، وقد تشككت فى نواياه حينما زارنى فى مكتبى فى أواخر سنة 1985 ليقول لى إن صفحات أخبار اليوم مفتوحة أمامى إذا أردت.

كان مبعث تشككى هو اختلاف آرائنا وتوجهاتنا، وربما من هنا فإننى وضعت عرضه موضع الاختبار العملى، وأشهد أنه كان عند وعده وتحمل بسببه راضيًا ما جعلنى، رغم اختلاف

الآراء والتوجهات، أعتبره صديقًا يتحتم على أن أعفيه من مآزق قادته إليها جرأته.

لقد قبلت عرضه بالكتابة فى أخبار اليوم متشككًا، ثم أعفيته من حرج الكتابة فى أخبار اليوم متعاطفًا، لأن ما كتبته أغضب أكثر مما أرضى.

16

فتحتُ صحيفة الـ(ديلى تلجراف) التى جاءتنى فى الصباح الباكر على مائدة الإفطار، وإذا خبر فيها عنى يقول إننى مشغول فى مصر بالمشاركة فى تكوين حزب سياسى جديد يحمل اسم جمال عبدالناصر، ووجدتنى أمد يدى إلى التليفون أدير قرصه برقم بيت مدير تحرير التلجراف، ثم أتوقف فى منتصف الرقم لأنظر إلى ساعتى فأجد أنها ما زالت عند السابعة والربع صباحًا، وأضع سماعة التليفون فى مكانها، وأنتظر موعدًا أكثر تحضرًا أستطيع أن أقتحم وقت الناس بشواغلى.

بالكاد أنتظر حتى التاسعة ثم أدير الرقم عارفًا أننى سوف أوقظ الرجل من نوم عميق، لكننى أعتمد على صداقة وثيقة ربطتنا من زمن بعيد، وأسمع صوته يرد كأنه يجىء من أعماق بئر سحيقة، ثم يعرف صوتى ويقول بسرعة وقد دب التنبه فى نبراته: بحق السماء ما الذى أيقظك فى هذه الساعة؟

وأقول له: إننى ما زلت مضبوطًا على توقيت القاهرة، ولكنه كان يجب أن يسألنى عما حدا بى إلى إيقاظه هو فى هذه الساعة، وليس عما أيقظنى أنا فيها، ثم استطردت أقول له: أنت المسئول، هل قرأت عدد التلجراف اليوم؟

رد بأنه قرأه بالأمس قبل أن ينام، ولكنه لم يفهم بعد حكمة سؤالى، وأصل الموضوع أن الخبر المنشور عنى فى التلجراف اليوم غير صحيح، وهو يعرف وأصدقاؤنا فى العالم كله يعرفون أن تأسيسى حزبًا سياسيًا أو المشاركة فى تأسيس حزب سياسى هو أمر خارج عن نطاق ما أفكر فيه.

إنه يعرف وأصدقاؤنا فى العالم كله يعرفون أن هناك شيئًا واحدًا أريده، وهو أن أظل كما كنت دائمًا صحفيًا.

إن الصحفى قد يكتب فى السياسة ولكن كتابته فيها لا تعنى احترافه لها، إن الصحفى قد يكتب فى شئون المال أو الفن أو الحرب ولكن ذلك لا يجعله مضاربًا فى البورصة أو ممثلًا على الشاشة أو جنرالًا فى ميدان قتال، والصحفى الذى يكتب فى السياسة قد يتخذ لنفسه موقفًا، ولكنه فى ذلك يختلف عن السياسى المحترف، فالصحفى السياسى يعتبر الموقف والدفاع عنه غاية، بينما السياسى يعتبر أن الغاية هى السلطة لتنفيذ ما يعتقد فيه.

رد (جوردون بروك شبرد) وقد طار النعاس تمامًا من صوته: يا إلهى هذا كله فى هذه اللحظة من الصباح الباكر، حسنا قل لى ماذا يتعين علينا أن نفعل الآن، إن الخبر جاءنا فى برقية من القاهرة، وكان يجب أن أسألك فيه ولكنى خشيت إحراجك بالسؤال، المهم الآن ماذا نفعل؟

اتفقنا أن أبعث برسالة تنشرها التلجراف فى اليوم التالى وحدث.

حين نشرت التلجراف رسالة تصحيح واقعة قيامى أو اشتراكى فى تأسيس حزب سياسى فى مصر جاءنى من يتساءلون: ولِمَ لا؟ ولماذا تقطع بهذا الحسم احتمالًا قد يكون واردًا إن لم يكن اليوم فغدًا؟

قلت لهم: كلٌّ ميسر لما خلق له، وأنا أعرف حدودى وألزمها، إن الكاتب الصحفى بالطبيعة لا يستطيع غير أن يكون مستقلًا، والاستقلال لا يعنى التحرر من الالتزام، لكن الالتزام مع الاستقلال يكون التزامًا بفكرة وليس التزامًا بفرد أو التزامًا بتنظيم، إن الالتزام بفرد نوع من العبودية، والالتزام بتنظيم نوع من الأسر بالذات فيما يتعلق بالكاتب الصحفى.

17

كنت أقرأ ما يكتب فى الهجوم علىّ وأكتفى بالتعرف

على اتجاهاتها دون أن أدقق فى النصوص، كنت أطل على العناوين وأمر بعينى على السطور، وأتطلع إلى أسماء الكُتّاب وبينهم من كانوا فى موضع القرب والود منى.

كنت أتفهم وأعذر، وليس لرجل اختار لنفسه أن يطلب من الآخرين اعتماد موقفه، فلكل رجل أولوياته وحتى حساباته وذلك حقه.

وأعترف أننى أحسست بالوجع مرة واحدة، حين وجدت عنوانًا رئيسيًا على الصفحة الأولى من جريدة الأخبار موضوعه عنى، وكان العنوان من كلمة واحدة (الكذاب) والذى حدث أن أصغر أبنائى وهو يومها فى التاسعة من عمره مر على- كما تعود كل صباح- وهو فى طريقه إلى المدرسة، وخطر ببالى أن أدارى الجريدة حتى لا يرى ما رأيت، ثم عدلت عن المحاولة.

جاء الصبى إلى جوارى وكانت تحيته فى الصباح ندية حلوة، ثم وقع نظره على مجموع الصحف ولمح بسرعة ما كنت أتمنى أن أخفيه، وراح يقرأ ولم أعترضه، وقرأ الصبى ثم تطلع إلى وفى عينيه حيرة لا يعرف كيف يداريها، ولا يعرف كيف يعبر عنها، ثم تحولت الحيرة إلى نظرة امتزج فيها الحزن بالغضب.

بادرته بأنى لست متضايقًا ولا أريده أن يتضايق، ثم قلت له: ذات يوم سوف أجلس إليك وأحدثك عما نحن فيه الآن، لكننى فى هذه اللحظة أرجوك ألا تشغل بالك بغير درسك.

وقف الصبى أمامى وغامت عيناه بدمعة، وأحسست بالعجز عن أى قول أو فعل، وكان الصبى رائعًا، فقد اختصر الموقف بفطرة البراءة فيه وأمسك برأسى يقبلها ومضى صامتًا.

18

تفتحت عيناى على حل بسيط لكل هذه المفارقات.

ذنبى أننى كنت شاهدًا أتيح له أن يرى ويسمع كل شىء،

وكان فى موقع يمكنه من هذا، والذين يخشون الحقيقة لا بد لهم أن يتخلصوا من شهودها.

هناك كثيرون لم يروا ولم يقرأوا، أجيال جديدة لم تكن معنا منذ البداية.

هناك كثيرون رأوا وقرأوا، لكن الذاكرة تضعف مع الأيام، ثم لا يظل فى الأذهان إلا ما تراه العيون وتسمعه الآذان لحظتها.

ثم إن هناك من رأوا وقرأوا لكنهم يعتقدون فى الحكمة القائلة بأنه إذا كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب، خصوصًا إذا كان فيه ما يزعج السلطان.

كانت ذنوبى إذن أننى ابتعدت عن أية سلطة، ثم إننى كنت شاهدًا رأى معظم جوانب الصورة، ثم إننى سأرد على الكلام فى يوم من الأيام، وأعترف- ويشهد على ذلك كل من قابلنى فى هذه الفترة الحافلة بالصخب والضجيج- أننى كنت أتابع ما يكتب وينشر وكأننى أتابع ظاهرة لا تتصل بى ولا تمت إلى بسبب.

كانت الحملة على وجه اليقين لها أهداف أخرى هى إرغامى على اتخاذ موقف الدفاع عن نفسى أو إغراقى فى الصمت إلى الأبد حتى لا أتكلم، أو إضعاف أية مصداقية لما أقول إذا ما قررت يومًا أن أحكى ما رأته عيناى وسمعته أذناى.

لم يكن الخوف فقط من فتح ملفات ما جرى فى الصحافة المصرية، فالصحافة فى أى بلد هى جزء من الحياة السياسية فيه، ولا يمكن أن يكون غير ذلك، وفى العالم الثالث عمومًا فإن السياسة ليست مجرد صراع مصالح اجتماعية وتيارات فكرية ورؤى مستقبلية، إنما هى مع الأسف أيضًا، وهذه طبائع التطور ومراحله، حروب دامية من أجل البقاء، ومعارك ظاهرة وخفية، ومطامع ومؤامرات، ثم هى أيضًا مخططات قوى عظمى تلعب بمصائر ومقادير شعوب وتحاول فرض سيطرتها على الآخرين وترويض هممهم وإفقادهم الثقة بكل شىء حتى يصبحوا على استعداد للقبول بأى شىء، ثم

إعادة تشكيل أفكارهم وأحلامهم بوسائل عديدة تبدأ بالكلمة والصورة، وتنتهى بالمدفع والدبابة.

عبرت من خلالهم
هؤلاء الرجال وحكاياتهم

1

خلال الفترة التى اقتربت فيها من جمال عبدالناصر، قابلت عددًا كبيرًا من الناس، وبالتالى أنشأت قاعدة عريضة من العلاقات الإنسانية.

2

قابلت نهرو للمرة الأولى مع جمال عبدالناصر، وتحاورت كثيرًا معه ولم أجعله يشعر أن كل ما أريده منه أن أسمع كلامًا على لسانه وأنشره فى الجورنال، حاولت أن أجعل ما بينى وبينه حوارًا أوسع، وصل بعدها إلى حدود الصداقة.

3

قابلت معمر القذافى لأول مرة مساء أول سبتمبر 1969.

كانت أنباء الثورة فى ليبيا قد أُعلنت للعالم الخارجى من إذاعات طرابلس وبنغازى ضحى يوم أول سبتمبر 1969، وكان الإعلان مصحوبًا بالبيان الأول للثورة على مكتبى حوالى الساعة العاشرة صباحًا.

اتصلت بجمال عبدالناصر، لكنه كان قد دخل إلى قاعة اجتماع طارئ لدول المواجهة، وكان المطلوب من هذه الدول تنسيق العمل العسكرى على الجبهة الشرقية، استعدادًا للمعركة القادمة مع إسرائيل.

بعد دقائق اتصل بى جمال عبدالناصر لأن الاجتماع الذى وصلته أنباء الثورة فى ليبيا انشغل بالحدث الطارئ الذى فرض نفسه فوق جدول الأعمال المعد سلفًا، خصوصًا أن المجتمعين كانوا فى أجواء تساؤل يتحرق إلى معرفة اتجاه الثورة فى ليبيا، وهل هو قومى أى أقرب إلى القاهرة، أم هو

بعثى أى أقرب إلى حزب البعث بصرف النظر عن انقسامه إلى فريقين بين بغداد ودمشق.

سألنى جمال عبدالناصر عندما اتصل بى عما أستطيع استقراءه من بيان إعلان الثورة فى طرابلس، وكان سؤاله يحمل نبرة من طلب التدقيق شاغلها ومغزاها فى النهاية، أهم أقرب إلى القاهرة أم أقرب إلى البعض.. وأى بعث منهما؟

قلت إن استقرائى للبيان أنهم أقرب إلى القاهرة، ذلك أنه بصرف النظر عن العبارات الإنشائية فى النص فإن ترتيب شعار الحرية والاشتراكية والوحدة جاء متفقًا مع الترتيب الذى يستعمل فى القاهرة، ومخالفًا للترتيب الذى يستعمله حزب البعث والذى ترد فيه الوحدة قبل الاشتراكية وقبل الحرية.

كان رأى جمال عبدالناصر أننى ربما أتعسف فى دلالة ترتيب الكلمات، لأن الذى يقوم بما قام به هؤلاء الضباط فى ليبيا لن يتوقف طويلًا أمام مواضع الشعارات، وحتى إذا جاءت الشعارات المعلنة فى طرابلس متوافقة مع الترتيب الذى تستعمله القاهرة فمن الاحتمال أن تكون تلك محض مصادفة.

وقلت: ربما ولكنى أشعر فى نبرة البيان بما يعزز استنتاجى.

كان اعتقادى أن جمال عبدالناصر يميل إلى استنتاجى سواء لأنه رأى مثلما رأيت، أو لأن ذلك كان معناه، فقد كانت قوى الأمة المقاتلة ذلك الوقت وسط معارك حرب الاستنزاف المستمرة على الجبهة المصرية فى حاجة إلى دعم معنوى من الحركة القومية العامة فى الوطن العربى.

فى الساعة الثالثة والربع عاد جمال عبدالناصر إلى الاتصال بى يقول إن ضابطًا ممثلًا لقيادة الثورة فى ليبيا قصد القنصلية المصرية فى بنغازى وأبلغ رسالة مفادها أن قيادة الثورة فى ليبيا تريد إقامة اتصال سريع مع القاهرة، والهدف منه بحث التطورات المحتملة- وتقديرهم أن الثورة نجحت وتسيطر على كل أنحاء ليبيا- لأن هناك قواعد بريطانية

وأمريكية والمخاطر قائمة.

وقال لى جمال عبدالناصر إن هناك الآن اتصالات جارية بقصد الاتفاق، إما على مجىء وفد من الثوار إلى القاهرة، أو على ذهاب وفد مصرى إلى ليبيا يقابل ممثلًا أو ممثلين لقيادة الثورة لبحث الاحتمالات.

فى الساعة الخامسة والربع بعد الظهر عاد جمال عبدالناصر إلى الاتصال بى وأتانى صوته على التليفون ضاحكًا قبل أن يقول كلمة واحدة.

تساءلت، فكان قوله: يظهر أنك سوف تقضى ليلتك فى بنغازى لأنهم طلبوا حضورك.

قلت مستغربًا: مَن هم؟

قال: قيادة الثورة هناك، اتفقوا على أفضلية أن يسافر وفد من هنا إليهم، فليس بينهم من يستطيع أن يترك البلد فى هذه الظروف.

وأضاف: إنهم طلبوك بالاسم، وهم يعرفون صلتك بى، كما أنهم يقرأون مقالاتك أو يسمعونها من الإذاعات ورأيى أن تذهب.

قلت متحمسًا: إنه بصرف النظر عن أى شىء فأنا أريد أن أذهب، ما دامت هناك فرصة كصحفى بالدرجة الأولى.

وتساءلت: هل أستطيع أن آخذ مصورًا من الأهرام معى؟

قال جمال عبدالناصر الذى كان يتبرم أحيانا من هوس صحفى لا يفارقنى فى كل الأوقات: خذ من تشاء.

وكان رفيقى من الأهرام صديقى وكبير مصوريه فى ذلك الوقت محمد يوسف.

فى الساعة السابعة والنصف مساء وجدت نفسى على متن طائرة حربية مصرية تقلع من مطار ألماظة فى اتجاه

الحدود الليبية، وتقاطعها عند طبرق رسالة من قاعدة العظم البريطانية تسألها عن هويتها وعن اتجاهها وعن حمولتها، وترد الطائرة المصرية على الأسئلة بطريقة عامة تريد كسب دقائق تبدأ بعدها الهبوط فى مطار طبرق.

وفى الساعة الحادية عشرة والنصف وجدت نفسى فى القنصلية المصرية فى بنغازى وقيل لى إن رئيس مجلس قيادة الثورة قادم إلى لقائى فيها.

بعد قرابة نصف الساعة أقبل جمع من الضباط الشبان، أربعة أو خمسة، وتقدم أحدهم نحوى قائلًا: لا أصدق أنك هنا.

ثم قدم نفسه: معمر القذافى (نطقها الجذافى)

وكان سؤاله الأول: كيف حال الرئيس جمال طمئنا عليه.

قلت له: إن الرئيس جمال هو الذى يريد أن يطمئن عليكم.

قال: اقترح بعض الإخوان أن نتصل به قبل قيام الثورة لكنى آثرت ألا نفعل، كنا سوف نحرجه بمجرد إخطاره، وكنا إذا لا سمح الله فشلنا فيما اعتزمناه سوف نلقى عليه المسئولية، ولذلك فضلنا أن نفعل ما هيأنا أنفسنا له ونفاجئه بالنجاح الذى تحقق.

حتى الساعة السادسة صباحًا كنت ما أزال أستمع إليه، وأسأله ويجيب، وأحاوره ويناقش، ثم قلت فى النهاية إننى الآن عائد بالطائرة إلى القاهرة، وكان فى رأسى كثير مما أريد أن أحكيه لجمال عبدالناصر، وكان فى عدسة صديقى محمد يوسف ألبوم كامل من صور قائد الثورة الليبية ورفاقه، وعدت إلى القاهرة، قبل الظهر، وكانت هناك رسالة من جمال عبدالناصر بأن أتوجه إلى بيته مباشرة.

دخلت عليه وكانت الأسئلة تطل من عينيه قبل أن تجرى على لسانه، وقلت له: عندك مشكلة.

وسألنى إذا كنت وجدت لديهم ميولًا حزبية أو عقائدية من

أى لون؟

وقلت له: على العكس.. مشكلتك أنهم رجالك.

وأحسست أنه استراح بأعصابه ولم يسترح بفكره، وسألنى: أين المشكلة إذن؟

قلت: لأنك الآن أمام شباب برىء إلى درجة محرجة، وشباب رومانسى إلى درجة خطرة.

وكان فى شوق إلى التفاصيل، وجلسنا لحديث متدفق وغزير أكثر من أربع ساعات.

جمعت بيننا- أنا والقذافى- السنون، التقينا، وتقطعت بنا السبل، كان آخر مرة رأيته فيها قبل سنوات من الثورة عليه، لكن المشكلة الكبرى بالنسبة للقذافى أنه جاء بمساحة كبيرة من البراءة، وهناك انفصام بين آرائه والواقع، بالإضافة إلى أنه منذ رحيل جمال عبدالناصر، ذهبت كل الأحزاب والتيارات والقوى السياسية العربية إليه، كل منها قال له كلامًا مختلفًا، وهو يصدق الجميع.

فى النهاية بقيت مشكلة كبيرة جدًا، إنك عندما تقول إنك تريد عمل رحلة فى عقل القذافى تحتار، خاصة عندما تغوص فى تصوراته للعمل الثورى، لقد دخل فى أشياء غير طبيعية، مثل مساندته للجيش السرى الأيرلندى، وقد حدثنى ثلاثة من رؤساء الوزراء المتعاقبين فى بريطانيا (هيوم وويلسون وكالاهان) عما يفعله القذافى مع الجيش السرى الأيرلندى، إنه تصور أنها منظمة ثورية فراح يدعمها، وهى غير ذلك.

من ينظرون إلىّ كصديق للقذافى، أنا أقبل بهذا، وأعتبر نفسى صديقه، وإذا كان هو يعتبر الشىء نفسه، فإننى أكون سعيدًا.

أعتقد أن القذافى كان رجلًا وطنيًا وقوميًا، ومليئًا بالحماس، ثم إنه كان له فى داخل ليبيا إيجابيات، وله إيجابيات خارجها، كما أن له مشاكل أو سلبيات فى الداخل

والخارج، لكنى أعتقد أنه فى مجمل ممارساته كان من الظواهر فى العالم العربى.

تخيل البعص أننى كان من الممكن أن أقوم معه بالدور نفسه الذى قمت به مع عبدالناصر، لكن هذا لم يخطر ببالى، لأن الإنسان لا يكرر نفسه، عملت تجربة مع عبدالناصر لأننا من بيئة واحدة، من داخل وطن عربى واحد، من ظروف عمل واحد، من اتصال يومى مستمر.

وعندما وجدت أمامى عرضًا بأن أعيش فى ليبيا، قلت: أنا لا أستطيع العيش فى ليبيا، لأننى لن أعيش إلا فى مصر، فى بيتى، ثم إننى لا أعرف ظروف ليبيا بالقدر الكافى ولا أعرف عقلية ونفسية القذافى، ولا الاعتبارات التى تحركه.

أحيانًا من بعيد كنت أتساءل: كيف يقوم القذافى بهذه الأعمال؟

وأحيانًا ومن بعيد أعجب بأعمال يقوم بها.

لم أكن مستعدًا لأن أقوم بدورى مع عبدالناصر، لا مع معمر القذافى ولا مع أنور السادات، ولا مع أى شخص آخر، كان ما جرى مرهونًا بظروف تاريخية معينة غير قابلة للتكرار إلا إذا تحولت القناعات إلى ارتزاق، وهذا يعنى مصيبة.

فى 17 يوليو 2010 كانت المرة الأخيرة التى رأيت فيها القذافى.

وكان آخر ما قلته لأحمد قذاف الدم عند باب الطائرة وأنا عائد من ليبيا: لن أرى ابن عمك مرة أخرى.

وقد كان.

4

قضيت يومًا كاملًا مع الملك حسين، وتناولت معه الغداء والعشاء.

قلت له: إننى غدًا سأرى الأمير الحسن فى الصباح على فنجان قهوة ثم أعود إلى القاهرة، وفوجئت فى اليوم التالى أن الديوان الملكى يتصل بى ويبلغنى: إحنا فى انتظارك الساعة العاشرة.

فقلت إن جلالة الملك حسين يعلم أن عندى موعدًا مع الأمير الحسن الساعة العاشرة.

فقال لى رجل المراسم الأردنى: أستاذ هيكل إحنا بنتصرف وسنبلغ الأمير الحسن بموعدك الجديد عند الملك، وذهبت إلى الملك حسين فى الموعد الذى كان محددًا للأمير الحسن وتكلمنا.

كانت بينى وبين الأمير الحسن علاقة من نوع غريب، فأنا وهو وجورج بوش أصدقاء، وكل منا صديق لصدر الدين أغاخان، وعندما نذهب إلى جنيف ننزل ضيوفًا فى قلعة بيليرى، ونحن الثلاثة مهتمون بالشرق الأوسط، وهناك سيدة اسمها ماريا تشرف على إدارة القصر، وبالذات الغرفة الخضراء التى ينزل فيها الأصدقاء الشخصيون للأمير صدر الدين أغاخان، وكانت ماريا قريبة من كل ضيوف الغرفة الخضراء، وكانوا يسمعون عن بعضهم دون أن يلتقوا بالطبع فى نفس الجناح فى الوقت نفسه.

وعندما رأت ماريا ابنى أحمد ينزل من السلم إلى حديقة القصر الواصلة إلى البحيرة قالت له: الأمير يجب ألا يلبس جينزًا أزرق، فرد عليها أحمد قائلًا: أنا لست أميرًا.

لقد اعتدنا الضيافة أنا وزوجتى هناك والأمير الحسن والأميرة ثروت وجورج بوش وزوجته، حتى وإن لم نلتقى كان هناك ما يربطنا.

5

كان الرئيس السورى حافظ الأسد ضابطًا مهتمًا بأن يعلم بأكثر مما هو ضرورى لمهنته، الاهتمام بالشأن العام والاقتراب من السياسة.

ضابط التقى بحزب عقائدى قومى منتظمًا فى صفوف الحزب ليصل إلى منصب رئيس اللجنة العسكرية بحزب البعث.

مدرك لموقع سوريا فى حوض المتوسط، ودورها فى العمل القومى، وقد أصبحت مسرحًا (جائزة) لصراع القوى الإمبراطورية وهدفًا لصراعات القوى الإقليمية فى زيادة نفوذ كل منهما.

قارئ شغف للتاريخ العربى، ومهتم بسيرة صلاح الدين الأيوبى (تزين مكتبه لوحة ملحمية للجيوش العربية تحت قيادة صلاح الدين) ومن هنا أدرك أهمية العمل القومى مع مصر، خاصة مع تجربته العملية فى مصر ما قبل حرب أكتوبر 1973.

مع كل هذه المزايا كان مفضيًا إلى فهم استراتيجى جعلته يمد خطوطه بكفاءة من بيروت إلى طهران، فى محاولته كلاعب تكتيكى بارع أن يجمع فى يديه مجموعة من الأوراق الرابحة.

وكنت أعرف أن هنرى كيسنجر كان معجبًا إلى حد بعيد بالرئيس حافظ الأسد، كان حكمه عليه بعد أول لقاء بينهما فى 15 ديسمبر 1973 أنه متشنج، لكنه بالتجربة غير رأيه وأصبح يعتقد أنه أمام رجل متزن يعرف ما يريد ويحاول الوصول إليه.

قبل رحيل الرئيس الأسد جمعنى به لقاء، قلت له: سيادة الرئيس عندى ملاحظة أرجو أن يتسع صدرك لها.

بعد عشرين عامًا، سرت فى الطريق نفسه، طلعت من فندق البستان فى بيت مرى عن طريق الجيب عبر الحدود إلى دمشق قادمًا من بيروت فى الطريق نفسه لأقابل الرجل نفسه، وكأن شيئًا لا يتغير.

كان الرئيس الأسد رقيقًا ومداعبًا، فقال: ألا تلاحظ أنت

أيضًا إننى أقابل الرجل نفسه.

قلت للرئيس الأسد: أنا الرجل نفسه باق لسبب واحد أنه يجرى على استفتاء كل يوم، بمعنى أنه إذا توقف قارئ عن شراء جريدة أنا أكتب فيها أو شراء كتاب أنا مؤلفه، فأنا سقطت فى الاستفتاء.

القارئ بإمكانه أن يعزلنى، فالقارئ يصنع قيمتك وهو الذى يقدر عمرك الافتراضى، وهو الذى يستغنى عنك برقة، وأنا أعتبر أنه متى بدأ القارئ يقول (كفاية) فلا تلح عليه.

6

التقيت بالأخ والصديق ياسر عرفات لأول مرة فى سبتمبر 1967، بالطبع كنت قد سمعت عنه قبل ذلك خلال متابعتى النشاط الدائر على الساحة الفلسطينية، وكان اسم أبوعمار يصل إلينا فى القاهرة بين الحين والآخر باعتباره زعيم منظمة فتح التى كانت ظاهرة جديدة على الساحة الفلسطينية فى تلك الأيام.

فى البداية كانت فتح قد حاولت إقامة اتصال مع مصر، وتم هذا الاتصال مع بعض الأجهزة الرسمية المصرية المهتمة بالعمل الفلسطينى، وكان الذى قام بهذا الاتصال المبدئى هو الآخر خالد الحسن، ولم تلق محاولة خالد الحسن فى ذلك الوقت ما كان يتوقعه وتتوقعه فتح من القاهرة، لأن الأجهزة التى اتصل بها كان لها رأى فى فتح، تعتبرها بالدرجة الأولى واجهة لتنظيم الإخوان المسلمين، وهو تنظيم كانت له أيامها مشاكل مع السلطة فى مصر.

ويبدو لى أن فتح قررت أن تحاول تجربة اتصال مباشر مع جمال عبدالناصر يتخطى كل أجهزة الدولة، وهكذا جاءنى رسول قدم لى نفسه فى ذلك الوقت باسم (خالد).

حدثنى خالد طويلًا عن فتح، وبدورى فإننى نقلت صورة كاملة لجمال عبدالناصر، وفى اليوم التالى أخذته للقاء جمال عبدالناصر، بعد أسبوع عاد إلى خالد ومعه شاب آخر

من قيادة فتح، قدم لى نفسه باسم (أبواللطف)، فاروق قدومى الذى ذاع صيته فيما بعد باعتباره المسئول الأول عن دبلوماسية العمل الفلسطيني.

أبواللطف أعطانى صورة كاملة عن جذور فتح وتوجهاتها وآمالها، ومرة أخرى أخذته معى للقاء جمال عبدالناصر، وفى هذا اللقاء تم الاتفاق بيننا على مجىء ياسر عرفات إلى مصر، ولم تمض أيام حتى جاء ياسر عرفات ومعه أبوأياد وكان أبواللطف معهما.

فى ذلك اليوم جلست ساعات طويلة مع الثلاثة نتحدث عن العمل الفلسطينى وإمكانياته ومستقبله، واتصلت فى المساء بجمال عبدالناصر لكى يحدد موعدًا للقائهم، وسألنى رأيى فيهم، وأتذكر أننى قلت له: إذ حكمت بأول انطباع فإن ياسر عرفات فيما بدا لى رجل يستطيع أن يعطى حياته لقضيته ويستطيع أن يجسدها.

وأما أبوإياد فقد لفت نظرى كمناضل صلب صريح مستعد لمواجهة تحدى الموت فى أى لحظة.

كان تعليق جمال عبدالناصر فى التليفون كما أذكر: غريبة إن كل الناس هنا لهم رأى مختلف عن رأيك فى فتح وفى المسئولين عنها.

ثم حددنا موعدًا فى الساعة الثانية ظهر اليوم التالى.

واتصلت بالثلاثة فى ساعة متأخرة من الليل أدعوهم إلى التجمع فى مكتبى الساعة الحادية عشرة صباحًا، نتحدث معًا بعض الوقت ثم نذهب فى سيارتى إلى بيت الرئيس لموعدنا معه.

قبل أن يدخلوا مكتبى بدقائق صباح ذلك اليوم اتصل بى جمال عبدالناصر تليفونيًا يقول لى: هل تعرف ماذا أقرأ الآن؟

واستطرد: أمامى الآن تقرير ينصحنى بألا أقابل أصدقاءك، يقول التقرير إنهم جاءوا لتنفيذ مؤامرة لاغتيالى.

لم أجد ما أقوله لحظتها سوى عبارة: هل هذا معقول؟

وقال جمال عبدالناصر: أظنه غير معقول، واستطرد: أنا أعرف طبيعة مثل هذه التقارير ولو أننى صدقتها لما تحركت خارج غرفة نومى. ثم سألنى فجأة قبل أن تنتهى المكالمة: هل أنت واثق منهم؟

وقلت: بقدر ما أستطيع إنسانيًا.

جاءوا فى موعدهم، وتحدثنا لبعض الوقت، ثم ركبنا سيارتى وكان ما سمعته من الرئيس يلح على فكرى، وقررت أن أفتح الموضوع معهم ونحن بعد فى السيارة تشق طريقها من وسط المدينة إلى منشية البكرى حيث منزل الرئيس.

قلت لياسر عرفات: كان الرئيس معى على التليفون قبل أن تدخلوا مكتبى.

ثم رويت له ما سمعت منه، وكان تعليق ياسر عرفات العفوى والتلقائى: أعوذ بالله.

حين وصلنا إلى بيت الرئيس ودخلت بنا السيارة إلى ساحته الداخلية ونزلنا لندخل من باب البيت، تقدم أحد ضباط الحراسة يسأل الثلاثة إذا كان مع أى منهم سلاح؟

تطوعت لضابط الحراسة بألا يلح فى سؤاله، وكان ياسر عرفات فى غاية الحرص والتنبه واللباقة، فقد قال لضابط الحراسة: إننى لم أخلع مسدسى أبدًا منذ بدأنا العمل الفدائى، ولكن احترامًا لجمال عبدالناصر أنزع سلاحى على بابه.

وفعلًا أخرج مسدسه ووضعه على مائدة فى مدخل البيت، ومرة أخرى تطوعت فقلت لياسر عرفات: خذ مسدسك إذا أردت، وقال هو بسرعة: لا يدخل عليه أحد بسلاح أبدًا.

دخلنا غرفة الصالون، ولم تمض ثوان حتى دخل جمال عبدالناصر وفوجئت بما حدث، قام الثلاثة يحتضنون جمال عبدالناصر ويقبلونه كأنه يعرفهم من زمن طويل، وكانت

دموع ياسر عرفات على خده وهو يقول: الحمد لله الذى جمعنا بكم.

فيما بعد قال لى جمال عبدالناصر إن قلبه تفتح لهم من أول لحظة، وكان انطباع أول لحظة دائما شيئًا مهمًا بالنسبة لحكم جمال عبدالناصر على الناس.

7

فى ديسمبر 1993 وصلت إلى العاصمة الإيرانية طهران، وكانت هذه هى آخر زيارة لإيران، التقيت برئيس الجمهورية على رفسنجانى، أجريت معه حوارًا تليفزيونيًا، وفوجئت بأنه يبوح لى عن أمنيته التى يتمنى يومًا أن تتحقق.

قال لى: أتمنى أن أمشى يومًا فى صحن الأزهر الشريف.

8

صليت الفجر خلف الملك عبدالله بن الحسين مؤسس المملكة الأردنية الهاشمية فى إحدى حجرات قصر رغدان بالعاصمة عمان فى مايو 1948.

وصليت العشاء خلف الإمام روح الله الموسوى الخمينى فى سرادق أقيم على ساحة فى إحدى ضواحى باريس (نوفل لوشاتو) فى ديسمبر 1978.

وبذلك أرضيت المذهبين السنة والشيعة.

وكذلك فرعى الإمام على من زوجته السيدة فاطمة.

فمن ينتهى نسبه للإمام الحسن بن على هو من الأشراف.

ومن ينتهى نسبه للإمام الحسين بن على هو من السادة.

9

رؤساء الدول يقولون لك: قدم لنا أسئلتك ونحن سنجيب عليها ولو كنت تريد التقاط صورة مع الشخصية ممكن، لم

أقبل هذا الأسلوب أبدًا.

كنت أرفض هذا المنهج لأنى أعلم أن رئيس الدولة سيكلف وزير إعلامه بالرد، ووزير الإعلام يكلف واحد فى مكتبه بالرد، أنا أفضل أن أعرف الناس عن قرب.

عندما ذهبت لأقابل الزعيم الروسى خروشوف، وكان النجم الساطع فى السياسة الدولية بعد مؤتمر جنيف وبعد السويس، طلب أسئلة مكتوبة، وحاولت أن أشرح لسفيرنا حينذاك إننى لا أريد هذا الأسلوب، فقال لى: معلهش.

وعندما ذهبت للمقابلة ووجدت الإجابات على أسئلتى جاهزة، قلت لخروشوف بواسطة المترجم أريد أن أجلس معك وأتكلم معك، أريد أن أفهم أكثر من العثور على حديث سوف تبثه على الفور وكالة تاس، وكان خروشوف كريمًا، فسمح باللقاء.

قلت له على الفور: أنت كلفت الرفيق جروميكو بالرد، والرفيق كلف مستشارًا مستشرقًا يكتب الإجابات على مقاس ما يتصوره هذا المستشار عما ينبغى أن يقال فى مصر.

وعندما زارنا خروشوف ليشارك عام 1964 فى افتتاح المرحلة الأولى من مشروع السد العالى، وكانت هذه أول زيارة له لدولة عربية وللعالم العربى وإفريقيا، طلب شخصًا غير رسمى يستطيع التحاور معه، فيما يرى أو يستعصى فهمه من شئون لهذه المنطقة أو العالم المستجد عليه.

قالت له ابنته: ما رأيك فى هيكل؟

قال بطريقته المحببة: هاتوا لى هيكل.

فى هذا الوقت كنت فى اليمن والرئيس أرسل يستدعينى، ولما وصلت المطار وجدت سامى شرف فى انتظارى، وطلب منى إحضار شنطة من منزلى بها هدوم ثقيلة، لأننى سأذهب إلى موسكو.

سألت سامى شرف عن السبب.

قال: خروشوف عاوزك.

اتصلت بالمنزل وطلبت تحضير شنطة، ثم ذهبت لمقابلة الرئيس وطرت إلى موسكو، وقابلت خروشوف الذى نمت فى بيته يومين ثم ركبنا المركب أرمينيا إلى الإسكندرية، واستغرقت الرحلة 5 أيام، وطوال الطريق كنا نتكلم وذكرنى هو بمقابلتى الأولى ورفضى الإجابات الجاهزة.

10

وصلت إلى ميونخ منتصف أغسطس 1972، حتى امتلأت صحف العالم وإذاعاته بحكايات تقول إن مقصدى من السفر إلى عاصمة بافاريا هو ترتيب لقاء بينى وبين هنرى كيسنجر مستشار الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون لشئون الأمن القومى، وإنها محاولة جديدة فى الدبلوماسية السرية التى مارسها كيسنجر بنجاح مشهور فى بكين وموسكو وباريس، وجاء الدور فيها الآن على أزمة الشرق الأوسط.

سمعت بحكاية كيسنجر لأول مرة من صاحبة الفندق الهادئ الذى نزلت به أيامًا على ضفاف بحيرة فى شمال النمسا، قبل أن تبدأ الدورة الأوليمبية، كنت أقف فى مدخل الفندق ذات صباح مبكر لآخذ مجموعة من صحف لندن وباريس حتى لا أنقطع عن الدنيا فإذا بصاحبة الفندق، وكانت فى شبابها ممثلة لامعة من نجوم المسرح والسينما، واقفة فى انتظارى.

سألتنى: هل ستقابل كيسنجر فى هذا الفندق أم أن اللقاء سيتم خارجه؟

نظرت إليها بدهشة وسألتها: من الذى قال بأننى سأقابل كيسنجر؟

قالت: أوه.. هر هيكل.. إن القصة كلها منشورة فى الصفحات الأولى من جرائد سالزبورج هذا الصباح.. من أجل خاطرى دع هذا اللقاء يتم هنا، إنه سوف يجعل من هذا الفندق مكانًا

مشهورًا.

تناولت منها الصحف التى كانت تحملها، وقلت لها ضاحكًا: هل تصدقين الصحف؟

سألتنى باستغراب: ألست أنت صحفيًا؟

قلت لها على الفور: إذا كانت تجربتى مع الصحافة أكثر من ثلاثين سنة قد علمتنى شيئًا، هو ألا أصدق كل ما أقرأه فى الصحف.

بعد ما يقرب من عام تقريبا، وفى 7 نوفمبر 1973 وصل هنرى كيسنجر إلى القاهرة لأول مرة، وطلب أن يقابلنى، حاولت أن أعتذر بواسطة السفير أشرف غربال، وهو وقتها المستشار الصحفى لرئيس الجمهورية، خصوصًا بعد أن قرأت نص مشروع النقاط الست التى عرضها على الرئيس السادات ونالت موافقته فى لقائهما الأول.

اعتذرت عن غداء أقامه له السيد حافظ إسماعيل، مستشار الرئيس للأمن القومى، فى نادى التحرير، لكن السفير أشرف غربال عاد إلىّ بعد قليل يبلغنى أن الرئيس السادات يطلب منى أن أقابل كيسنجر، واتصلت بالرئيس ولكنه كان قاطعًا لأننا فى هذه اللحظة يجب أن نكون صفًا واحدًا وكلمة واحدة.

حضرت بالفعل حفل عشاء فى بيت الصديق العزيز إسماعيل فهمى، وزير الخارجية، وكان العشاء تكريمًا لكيسنجر، واتفقنا على أن يغادر وزير الخارجية الأمريكية حفل العشاء فى الساعة العاشرة وألحق به بعد ربع ساعة فى جناحه فى الدور الثانى عشر من فندق هيلتون النيل حيث يقيم والوفد المرافق له، وجلسنا لحديث طويل دام ساعتين ونصف الساعة.

وصباح اليوم التالى اتصلت بالرئيس السادات، وذهبت إليه فى الساعة الحادية عشرة صباحًا وكان لا يزال فى سريره بعد حمام ساخن، وهو بعد الحمام يرتدى (البرنس) الأبيض

وفوقه غطاء أبيض مطرز باللون نفسه.

حاولت أن أروى له من أوراق كتبتها تفاصيل ما دار بين كيسنجر وبينى، وأهمها مخاوفى أن مشروعه لحل الأزمة خطير (خطوة بعد خطوة- والبلاد العربية المعنية واحدة- بعد واحدة- وأية مفاوضات لا بد أن تجرى تحت إشراف أمريكى لا دور فيها للاتحاد السوفيتى ولا لأوروبا إلا عندما يحل دور المراسم والتشريفات).

وأبديت أن كيسنجر نفسه يصعب الاعتماد عليه لأنه بالضرورة منحاز، وانحيازه طائفى وفكرى وسياسى محكوم بصراع الحرب الباردة وليس بسلام عادل فى صراع الشرق الأوسط.

وكان رد الرئيس السادات أن كيسنجر هو الرجل الوحيد الذى يستطيع أن ينجز المهمة، فهو الساحر الذى أنهى حرب فيتنام وفتح باب الصين والذى لا يتفاوض حتى فى الاتحاد السوفيتى إلا مع الزعيم (ليونيد بريجنيف) ولا أحد غيره، ثم إن كون كيسنجر يهوديًا يجعله مهيأ للضغط على إسرائيل إذا اقتنع، وهو واثق من قدرته على إقناعه وفى ذهنه تصور كامل لما ينوى أن يعرضه عليه، وخرجت من قصر الطاهرة يومها شاعرًا أنها نهاية النهاية وعلىّ أن أحدد موقفى.

11

أتذكر ليلة 22 مارس سنة 1980 وكنت فيها ضيف عشاء على مائدة اللورد (هارتويل) صاحب جريدتى التلجراف والصنداى تلجراف، وزوجته الليدى (باميلا)، وكانت مائدتهما تضم باستمرار ألمع شخصيات المجتمع البريطانى وليلتها كان اللورد (سبنسر) والد الأميرة ديانا بين الضيوف، ولاحظت أن الرجل أسرف فى الشراب، ووجدته وسط حلقة صغيرة بعد العشاء يتحدث عن ابنته ديانا، وكانت خطبتها إلى ولى العهد البريطانى قد أعلنت، وتحدد موعد الزفاف فى الصيف، ودهشت حين قال اللورد (سبنسر) بصوت مسموع ما نصه تقريبًا: إننى ذهبت إلى الملكة وقلت لها يا صاحبة الجلالة

إننى أعرف ابنتى أكثر من أى شخص آخر، وديانا ليست مهيأة لكى تكون ملكة على عرش إنجلترا فى يوم من الأيام، لكن الملكة لم تسمع لى.

12

خلال عقد الثمانينيات التقيت عدة مرات بالصدفة البحتة بالكاتب الهندى البريطانى المسلم سلمان رشدى، فى مكتب ناشره البريطانى أندريه دويتش، وكنت معجبًا بقوة أسلوبه وتميزه، كنت أراه نسخة من الروائى الكولومبى جابريل جارسيا ماركيز، ولاحظت أنه فعلًا متأثرًا به، خاصة مع أعمال سلمان الضخمة (أبناء منتصف الليل) و(العار) و(الغضب).

وقد واجهت ضغوطًا ثلاثية من ناشره ورئيس مجلس إدارة بنجوين وسلمان رشدى شخصيًا، الذى لم يكتف بالاتصال الهاتفى بل أتبعه برسالة، فى محاولة لتوقيعى على بيان أعده رئيس مجلس إدارة شركة فايكنج التابعة لمؤسسة بنجوين، يدافع عن حق رشدى فى التعبير عن نفسه، وإدانة تعصب إيران الجاهل بقيم الحرية وسلطان الأدب والفكر.. لكنى رفضت.

13

يوم الأحد 25 فبراير 2007 افتتحتُ (مؤسسة هيكل للصحافة العربية) بحضور صديقى أستاذ الصحافة الاستقصائية الأمريكى سيمور هيرش فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

فوجئنا بأبواب عديدة توصد أمامنا، وأنا لا أريد أن أشير إلى ما لا يلزم- ربما لا يستحق- الإشارة إليه، لكن من حق الجامعة الأمريكية علىّ أن أقول إنها، وإن لم تكن مقصدنا الأول، أصبحت مع إحساسها بمعنى الحق فى المعرفة ملجأنا الأخير.

فى البداية فكرنا أن تكون إحدى قاعات مكتبة القاهرة الكبرى مكانًا تعقد فيه هذه الدورة الأولى من نشاط المؤسسة، ومع أن قاعات مكتبة القاهرة كانت مفتوحة

لمناسبات كثيرة متعددة الاهتمامات، فإننا تلقينا ردًا بالاعتذار لسببين مختلفين:

الأول أن هناك مشكلة أمن.. والثانى أن سيمور هيرش يهودى.

كان من المدهش بالنسبة لى أن تثار مثل هذه الإشارة بمواريث الجانب المظلم فى التاريخ غير العربى وغير الإسلامى دون تفرقة بين الديانة اليهودية وبين العدوانية الإسرائيلية، خصوصًا بالنسبة لرجل مثل سيمور هيرش، وهو الذى كشف أمام العالم كله خبايا وخفايا مشروع إسرائيل النووى، منبهًا إلى حجمه وخطره، ولعلها من المفارقات أن تصدر مثل هذه الإشارة إلى ديانة سيمور هيرش هنا، فى حين أنها نسيت مع أمثال مناحم بيجين وشامير ورابين وديان وشارون وإيهود أولمرت.

على أن باب مكتبة القاهرة لم يكن الباب الوحيد الذى جرى إغلاقه أمام المؤسسة، لكن هذا الإجراء المبكر بدا إشارة مبكرة إلى تصرفات لاحقة، ولولا أن مسألة يهودية سيمور هيرش وصلت إليه لما أشرت إليها، لكننى أعتذر عنها لرجل وقف دائمًا بالحق فى مواجهة القوة، ابتداءً من مذبحة ماى لاى فى فيتنام إلى مأساة سجن أبوغريب فى العراق.

المفارقة أن أول جملة أطلقها هيرش من فوق منصة الجامعة الأمريكية كانت: هذه هى المرة الأولى التى يذكر فيها اسمى مع بيجين وشامير.

وكان أن ضجت القاعة بخليط من الضحك والتصفيق.

14

عرفت عبدالمنعم رياض لأول مرة عن طريق خاله حسن صبرى الخولى الممثل الشخصى لجمال عبدالناصر، وكان إعجابه بزعيم يوليو ظاهرًا فى كلماته وإيماءاته، يؤيد تجربته ومقتنع بها ويشاركه الأفكار ذاتها، وإن أردت أن تستخدم المصطلحات السياسية الحالية فإنه ناصرى.

ثم رأيته مرة أخرى فى سكرتارية مؤتمر القمة الأول فى يناير 1964، ولمحته مرات فى مكتب عبدالحكيم عامر قبل أن أعرفه عن قرب وأحاوره طويلًا فى الاستراتيجة والأمن القومى ومستقبل الصراع العربى- الإسرائيلى، وتصوراته عما بعد حرب الاستنزاف وإعداد القوات المسلحة لخوض حرب تحرير أراضيها المحتلة فى سيناء.

كان رياض هو الرجل الذى توصل إلى أنه إن لم يكن بوسع قواتنا مجاراة إسرائيل فى قدرة سلاحها الجوى، فإن بمقدورها إلغاء أثره وفارق تفوقه اعتمادًا على الدفاع الجوى وشبكة صواريخ متقدمة، وهو الرجل الذى وضع الخطوط الرئيسية لخطة عبور قناة السويس وتحرير سيناء التى طورها الفريق سعد الدين الشاذلى فى حرب أكتوبر.

عبروا فى حياتى
أضواء وظلال طريق طويل
1

عندما سقطت طائرة الممثلة كاميليا يرحمها الله، ذهبنا أنا ومحمد يوسف نغطى الموضوع.

استقبلنا هناك فى موقع الحادث، محمد نجيب، كان قائد حرس الحدود قبل الثورة، وكان حريصًا بل وطلب أن يظهر فى كل صورة، يوسف غضب جدًا، وهمس لى أنه لا يستطيع أن ينجز عمله.

قلت له: خلصها له أمريكانى يا أخى وخلص نفسك، وبعدين لاحظ إن الرجل تعب معانا وهو الذى سهل لنا الوصول، وسيسهل الخروج بالصور مرة ثانية.

ومرة كنت عند محمد نجيب فى البيت، وهانزل عابدين، وكان عنده ميعاد استقبال طابور من السفراء الجدد الساعة التاسعة صباحًا لأن المراسم الساعة 11، ظل يتلكع حتى التاسعة إلا عشرة، وفى الطريق طول السكة الناس تحييه على الجانبين، وهو يتوقف ويحيى الجماهير وأثناء التلويح للناس توقف فجأة والتفت نحوى، وقال: محمد لازم نرجع حالا.

فقلت منزعجًا: لماذا يا سيادة الرئيس؟

فقال: لأنى نسيت أن أحلق ذقنى.

ورجع فعلا وفى البيت فتح الموسى وراح يحلق وهو يتكلم.

قلت له لا تتكلم حتى لا تجرح نفسك، وبعد ضياع ساعة تأخرنا عن ميعاد السفراء، وبعد الحلاقة والكولونيا، عاد مرة أخرى يلوح للناس طول الطريق، وقائد الحرس شايط لأنه ضابط الميعاد والرئيس نجيب بطيبة شديدة يوقف السيارة

كل عدة أمتار ليصافح الناس.

2

فى 1954 طلب منى جمال عبدالناصر الذهاب إلى أحمد لطفى السيد، وربما يكون قد أرسل له بواسطة أخرى، وأنا لست متأكدًا من هذه النقطة، ولكنى أنا الذى ذهبت إليه برسالة من جمال عبدالناصر.

عبدالناصر كان رأه بعد الثورة بأربعة أو خمسة أسابيع، وسمع منه وتكلم معه، وهو فى العموم كان مقلًا فى الكلام مع من لا يعرفهم، وحتى إن أقدم على الكلام معهم لا يستطيع، ثم إن الذى كان يراه أمامه من الظواهر كان مختلفًا عن حقيقة الأمور، علاوة على أنه كان قد كبر فى السن.

ذهبت إليه فى بيته، وكان محمد نجيب على وشك الخروج من السلطة، ونقلت له اقتراح جمال عبدالناصر بأن يتولى رئاسة الجمهورية، ووجدته واضحًا جدًا.

قال لى: كل واحد يتصدى لعمل عام ينبغى أن يبقى لتحمل مسئوليته، أنا رجل فى نهاية عمر، ليست عندى الصحة للدخول فى عمل جديد وتجربة جديدة تبدأ الآن بالكاد.

وطلب منى أن أبلغ البكباشى جمال عبدالناصر ألا يتوارى وراء أحد بسبب سنه ومن أجل اسمه، أن يطلع ويظهر باسمه وبذاته وبصفاته للناس وأن يواجههم، وإن كان عندكم تصور أن الناس غير مستعدة لتقبل شاب فى سنه، أنا أقول لك إن الناس تتقبل شابًا فى هذه السن جدًا، شريطة أن يقول لهم ماذا يفعل وماذا سيفعل.

لابد أن يظهر البكباشى جمال ظهورًا علنيًا ويتحمل مسئوليته.

عدت إلى جمال عبدالناصر، وقلت له ما دار بيننا وانتهى الموضوع.

3

أعتقد أن طه حسين كان مستعدًا للمجىء إلى الأهرام لو فاتحته مبكرًا، لكنه أولًا كان قد ذهب إلى الجمهورية، كانت الأمور قد تقلبت به تقلبات شديدة، ذهب إلى الجمهورية، وأصبح رئيس تحريرها، مع أنه لم يكن يتابع العمل اليومى بسبب ظروفه، كان هذا ظلمًا له.

لكن أعتقد أن طه حسين اكتشف أن ما سوف يكون مطلوبًا منه فى الأهرام سيتعبه وقد لا يقدر عليه.

فى الأهرام كنا نعزم الكثيرين على الغداء والعشاء، ونقابل أناسًا ونحضر ندوات، ونتعرض لضيوف من الداخل ومن الخارج، ولوجوه من كل أنحاء الدنيا، وظروفه الصحية ودقة وضعه قد لا تمكنه من المشاركة فى هذا.

ثم إن إحساس طه حسين بانحيازى لتوفيق الحكيم كان يضايقه ويدفعه إلى الابتعاد.

وقد يكون هذا ما دفع طه حسين إلى أن يقول إن وجود توفيق الحكيم فى الأهرام مثل شرابة الخرج، وقد سمعت أنه قال: إن الأهرام مثل المحمل فيه أشياء مقصبة ومذهبة تبدو للنظارين دون فائدة منها.

كنت أعرفه جيدا قبل مرحلة الأهرام، وقد أمضيت ساعة ممتعة معه قبل أن يسافر إلى أوروبا، إن الجو فى مكتبة الدكتور طه حسين غريب مثير، هى أشبه ما تكون بصومعة.. صومعة عقل.

كان فى المكتبة مع طه حسين ضيفان اثنان من الآباء الدومينيكان، بملابس الرهبان السائحين فى الأرض يبحثان عن المعرفة حيثما يمكن أن يكون التاريخ قد نسيها فى طوافه حول الأرض.

قال لى طه حسين: هل تحب أن تسمع شيئًا ليس فيه أخبار وليس فيه سياسة.

قلت بحماسة: جدًا.

قال: إذن فاجلس وشاركنا فى الحديث، وجلست ولكنى لم أشارك فى الحديث، لقد اكتفيت بالسماع.

كان موضوع المناقشة هو الحب فى الدين الإسلامى والحب فى الدين المسيحى، وكانت المناقشة بمزيج عجيب من الفرنسية الفصحى والعربية الفصحى، فقد كان الأبوان الدومينيكان من المستشرقين أيضًا، واستمعت فى شغف إلى طه حسين وهو يدلل كيف أن الإسلام اهتم بالقلب قدر اهتمامه بالعقل، ثم سمعته يقول إنه لا فرق بين الإسلام والمسيحية تجاه الحب.

4

لم أسمح لنفسى فى أى لحظة لأى سبب أن استدعى أحدًا من كبار الأدباء والمفكرين الذين احتواهم الدور السادس فى الأهرام إلى مكتبى فى الدور الرابع، انا الذى كنت أذهب إلى مكاتبهم محاورًا عندما يتوافر عندى وقت.. أردت توفير مناخ للإبداع بدون ضغوط أو شواغل أخرى وتركت القيمة تتجلى وفق ما يرى أصحابها.

عندما جاءنى توفيق الحكيم واقترح علىّ أن نضم نجيب محفوظ إلى الأهرام، قلت لنجيب: لا أريد منك أن تفعل شيئًا غير أن تهتم بفنك الروائى، كل ما أتمناه أن تنشر كل عام رواية جديدة على حلقات.

طلب نجيب محفوظ أمرًا واحدًا، الانتظار حتى يصل إلى سن الإحالة إلى المعاش، أى عندما يصل إلى سن استحقاق المعاش الكامل.

لم أكن أتصور هذا لأننا كنا سنعطيه مرتبا فى الأهرام أكبر بكثير من الذى كان يحصل عليه وقتها.

سألت نفسى: أى معاش يمكن أن ينتظره هذا الروائى المهم؟

نجيب محفوظ أعطى (أولاد حارتنا) لعلى حمدى الجمال، كان نجيب محفوظ يزوره باستمرار فى مكتبه، وكان على الجمال مدير تحرير الأهرام، وقد أعطاه الرواية فى 1959.

على لم يقرأ الرواية، لكنه قال لى إن نجيب محفوظ وهو يعطيها له طلب منه قراءتها بشكل جيد وبعناية، وأضاف الجمال: يبدوا أن فى الرواية لغمًا ما.

أخذت الرواية وقرأتها، أحضرتها معى إلى البيت، لأن جو المكتب قد لا يساعدنى على قراءة الرواية، وأدركت مغزى تحذير نجيب محفوظ لعلى حمدى الجمال.

استقر رأيى على النشر، تصورت من البداية أن بعض رجال الدين قد يحاولون وقف نشرها، لكل هذا قلت: سأنشر هذه الرواية بصورة يومية، وكانت أول مرة تنشر فيها رواية يومية.

لم أجد سببًا يدعونى لسؤال جمال عبدالناصر قبل النشر، فهذا عملى وأنا أمارسه.

كنت متأكدًا أن أحدًا، خاصة من رجال الدين، لن يتمكن من التنبه لأهمية الرواية إلا متأخرًا، وهذا ما جرى فعلًا عندما نشرت الحلقة السابعة عشرة، خلال النشر تحرك رجال الأزهر وأطلقوا طلقاتهم، الضجة قامت والدولة دخلت فيها ونحن كنا قد وصلنا إلى الحلقة العشرين.

كان عندى بعض القلق لكننى لم أكن أتصور أن يصل الأمر إلى هذا المدى الذى وصلت إليه، قلت نعمل تجربة جديدة فى النشر، حتى نرى إن كانت الرواية ستشد القارئ أم لا، من خلال النشر بهذه الطريقة الجديدة كنا ننشرها فى الصفحة السابعة، أكثر قليلًا من ثلث صفحة، بعد الحلقة السابعة عشرة وحتى الحلقة العشرين انقلبت الدنيا والأزهر أصدر بيانات.

تحدث معى الرئيس عبدالناصر، سألنى: إيه الحكاية؟

قلت له: أنا كنت مدركًا لكل المحاذير قبل النشر، لكن هذه رواية لنجيب محفوظ، وعلى أية حال سوف ينتهى النشر خلال أيام.

ثم جاء قرار الأزهر بعد ذلك، وانطبق القرار على طبعها فى كتاب وليس على النشر مسلسلًا فى الأهرام، الذى كان قد تم، ولم نكن نحن طرفًا فى قرار الأزهر، ولم تكن لنا صلة به.

وفى حدود علمى فإن الدكتور سيد أبوالنجا هو الذى اتصل بنجيب محفوظ من أجل نشر الرواية فى بيروت، لأن دار المعارف كان لها فرع هناك، وكانت لها صلات بدور نشر لبنانية كثيرة، وكانت تابعة للأهرام.

لم أقرأ كافة أعمال نجيب محفوظ الروائية والقصصية، لكنى قرأت ما اعتبرت أنه أهمها، أو ما نشره الأهرام منها.

لم يفكر أحد فى اعتقال نجيب محفوظ فى أى وقت من الأوقات.

أولًا: لأن جمال عبدالناصر كان يعرف قيمة وقدر نجيب محفوظ، ويعلم أنه يستطيع أن يعاتبنى على بعض الأشياء التى يكتبها نجيب وغيره من كتاب الأهرام.

وثانيًا: لأننى كرئيس تحرير لم أكن أسمح بذلك أبدًا، لأننى أرى دور رئيس التحرير يتخطى مجرد قدرته على تجنيد الكتاب المهمين وإدارة الجريدة، دوره الأهم هو حماية الجريدة وكل كتابها، ولم أقبل أبدًا أن يتجاوز أحد أو يؤذى محررًا فى الأهرام، وكان الجميع يعلمون أن من يريد التحدث مع أى شخص فى الأهرام بخصوص أى أخطاء أو مشاكل فعليه أن يتحدث مع رئيس التحرير فقط.

و بعيدًا عن (أولاد حارتنا) فكل أعمال محفوظ النقدية مثل (اللص والكلاب- السمان والخريف- ميرامار...) نشرت فى الأهرام وأنا رئيس تحرير وفى عصر جمال عبدالناصر، ولم تحذف منها كلمة، وأعتقد أن جائزة نوبل التى تحصل عليها محفوظ كانت على أعمال نقدية، نشرت كلها فى الأهرام.

بعد سنوات طويلة قرأت ما قاله نجيب محفوظ فى كتاب (نجيب محفوظ يتذكر) الذى دونه جمال الغيطانى.

قال نجيب: (لم ألتق بعبدالناصر فى لقاءات خاصة، إنما رأيته ثلاث مرات عندما حصلت على وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى، طلعت وسلمت عليه ونزلت، المرة الثانية 1957، كان هنا عدد من الأدباء العرب التقى بهم، وكنت أحد الذين ذهبوا إلى اللقاء، المرة الثالثة كانت فى الأهرام عندما زاره، كان يتحدث إلى كل شخص.

قال لى عبدالناصر: إزى ناس الحسين بتوعك، بقالنا زمان ماقريناش لك قصة.

هيكل قال له: لا ده بكره طالعة له قصة.

كنا يوم خميس.

هيكل قال: نعمل إيه؟... ما هى قصصه تودى فى داهية.

عبدالناصر قال له: لا، تودى رئيس التحرير).

هذه الرواية عمليًا غير ممكنة، وفضلًا عن أن الأستاذ جمال الغيطانى كتب عن أقوال للأستاذ نجيب محفوظ من الذاكرة، فالرواية كما نشرت غير معقولة لسبب أساسى أنها لا تتفق مع سلوكى مع عبدالناصر ولا نوع علاقتى به.

قال نجيب محفوظ إن عبدالناصر قال له: إننا لم نقرأ لك شيئًا، من الممكن أن يكون هذا صحيحًا، لكن أن أقول لعبدالناصر إننا سنقرأ له نصًا يودى فى داهية، فهذا معناه إننى أقول لجمال عبدالناصر فى مواجهته، وفى حضور جمع كبير من الناس وعلنًا، إنه من الممكن أن يذهب كاتب فى داهية فى ظل حكمه بسبب قصة أدبية.

لو كنت قلت ذلك فمعناه أننى أسىء إلى جمال عبدالناصر وإلى نظامه، وأكثر من ذلك أننى أسىء إلى نفسى ولعلاقتى بجمال عبدالناصر.

هل من المعقول أن أرضى لنفسى، وأن أرضى لجمال عبدالناصر مثل هذا الموقف، والتداعيات التى يمكن أن تخرج منه ومن الصعب حسابها.

هل أقول لجمال عبدالناصر يوم زيارته إلى الأهرام وعلى مسمع من جميع مثقفى مصر إن رواية نجيب محفوظ القادمة (تودى فى داهية)؟

هل أقول هذا لجمال عبدالناصر؟

هل أقلل من نفسى وفى حضور الكتاب الذين يعملون معى فى الأهرام؟

وحتى لو قلت أنا هذا الكلام، أى مع فرض أننى قلت هذا الكلام، فهل يرضى الرئيس جمال عبدالناصر أن يقول لى وفى هذا الجمع إن اللى يروح فى داهية هو أنا وليس نجيب محفوظ.

الكلام جميعه اعتراف ضمنى أن هناك داهية أو ليمان يمكن أن يروح فيهما من يجرؤ على الكتابة بطريقة لا ترضى السلطة.

هذا كلام لا يمكن أن يكون قد قيل، وأعتقد أن رواية الأستاذ نجيب محفوظ تظهر التباسًا فى الحقائق، وأظن أن هناك من حكى لنجيب شيئًا عما جرى فدخل الأمر فى رأسه، وكرر الحكاية وقالها أكثر من مرة يومًا بعد يوم.

جمال عبدالناصر فى هذا اللقاء كان مهتمًا بأن يستمع بأكثر مما يتكلم، وأظن أنه تكلم بعد المقدمة التى قدمت بها المثقفين له، كان قد طلب أن يستمع لكل التيارات، وجميع التيارات تكلمت واستمع للجميع باهتمام وناقش كثيرًا، وبقى فى الأهرام وقتًا أكثر مما كان مقررًا من قبل.

5

عندما دعونا سارتر إلى مصر طلبت من توفيق الحكيم أن

يكون مضيفه باسم الأهرام ورفيقه طوال فترة وجوده فى مصر.

وافق الحكيم ولكنه جاءنى فى اليوم التالى غاضبًا وقائلا: أنا لست أقل من سارتر حتى أكون مرافقًا له فى رحلته إلى مصر.

قلت له: أنت لست مرافقًا ولكنك المضيف باسم الأهرام.

وتناقشنا طويلًا حتى اقتنع، واكتشفت فيما بعد أن الحكيم كان خائفًا من أن تخونه لغته الفرنسية أمام سارتر.

جاء سارتر وحضرت المقابلة الأولى بينه وبين الحكيم وظل الحكيم متشككًا فى بداية اللقاء من لغته الفرنسية، ولكنه انطلق بعد ذلك وتحدث بطلاقة.

نجحت زيارة سارتر إلى مصر كثيرًا، واكتشفت أن الرئيس عبدالناصر كان قد أرسل إلى بيروت للإتيان بكتب سارتر ليقرأها قبل أن يقابله، وهكذا كان عبدالناصر يعد نفسه لكل المواقف، وكم كان ممتعًا أن أحضر تلك المناقشة التى دارت ما بين عبدالناصر وسارتر، والذى تحدث بصراحة مع عبدالناصر عن السلام مع إسرائيل.

6

أندريه مالرو الأديب الفرنسى الكبير وصديق الجنرال شارل ديجول ووزير الثقافة فى بلاده كان يرى بشكل أو بآخر أن موقفى من عبدالناصر يشبه إلى حد كبير موقفه من ديجول، وهذا الاعتقاد قرب ما بيننا أكثر، وقد تقابلنا لأول مرة فى أحد مطاعم باريس وكانت معى زوجتى التى قامت بدور كبير فى عملية الترجمة، ثم توطدت علاقتى به، وعندما جاء إلى مصر دعوته إلى الأهرام وأقمنا له ندوة كبيرة حضرها مجموعة كتاب الأهرام وعلى رأسهم لويس عوض ويوسف إدريس.

فى شتاء العام 1970 جلست مع أندريه مالرو على مائدة

غداء فى مطعم (لا سير) فى شارع فرانكلين بباريس، وكان مالرو منتشيًا برواد المطعم عندما يلقون عليه تحية تلحقها عبارة (السيد الوزير)، حاولت تنبيهه إلى أن قيمته كمثقف وأديب أهم من لقب وزير، لكنه لم ينتبه.

7

دعونا فى الأهرام المناضل الرمز تشى جيفارا، والذى دعوناه لزيارة مصر لمدة أسبوع، ورتبنا له ندوة حاشدة فى الأهرام حضرها العديد من رموز تيار اليسار، إسماعيل صبرى عبدالله وفؤاد مرسى ومحمد سيد أحمد، وسجلنا مع جيفارا 17 ساعة، انطلاقًا من ضرورة تكامل الثقافة والسياسة.

وللأسف الشديد ضاعت- ولا أدرى كيف- تسجيلاتنا مع تشى جيفارا، تلك الثروة الهائلة 17 ساعة حوار مع كبار مثقفى مصر، وقد سألت الدكتور عبدالملك عودة، وكان مدير مكتبى بالأهرام ومشرفًا على هذه الندوة، وخرج هو الآخر من الأهرام دون أن يعرف أين هذه التسجيلات النادرة.

وسألت على حمدى الجمال، رئيس تحرير الأهرام بعد ذلك، عن هذه التسجيلات فلم يعرف مصيرها، وقد ظلت هذه التسجيلات النادرة والمهمة مفقودة.

8

عندما دخلت أخبار اليوم للمرة الأولى فى العام 1946، كان الجو العام فيها غير مستعد لقبول واستيعاب غرباء من الخارج، وكنت أنا القادم إليهم من (آخر ساعة) مع الأستاذ محمد التابعى.

لم تمر سوى أسابيع إلا وتحقق الاندماج، وللحق فإن الأستاذ كامل الشناوى كان صاحب الفضل الأكبر فيه، كنت أعرفه من قبل، وجلست إلى جواره مرات فى شرفة الصحافة فى مجلس النواب، واستهوتنى شخصيته.

شاعر وكاتب، محدث وراوٍ، فنان قلب نواميس الكون، فإذا

النهار نوم وإذا الليل يقظة، ومغامرات وحكايات لا أول لها ولا آخر، وعلى اختلاف شخصية كل منا، وربما بسببه، فقد انشدّ كل منا إلى الآخر، والتناقض أحيانًا عنصر جذب، وكنت أتهمه بالبوهيمية وهو يتهمنى بالنظام، وكنت أراه يهدر ثلاثة أرباع وقته، وكان يرى أن الحياة أجمل من أن تضيع فى العمل، وكان (كامل) على علاقة حب دائمة مع الحب نفسه، فقد كانت له حكاية غرام كل ليلة، وكانت كلها غراميات يائسة تلهمه قصائد حلوة، فإذا جاء الصباح وسطعت الشمس تبدد غرام الليل وبقيت منه القصيدة الحلوة نسمعها ونستعيد سماعها، وتتيح لنا الظروف أن نسعى إلى غرفة مكتبه، ملتقى الجميع بدفئها الذى يذوب فيه الصقيع.

فى نوبة من نوبات غرامياته (وجع دماغنا) بشىء اسمه (روز)، وقد قابلتها، وكتب كامل لها قصيدة رددها أمامى كثيرًا، لدرجة أننى أحفظها.

قلت لكامل: مين روز التى تكتب لها هذا الشعر الهائل؟

ذهبت معه لرؤيتها، المفارقة أنه كان فى ذات المكان حيث توجد به عمارة مرشاق بالجيزة التى أسكنها، فقبل بناء هذه العمارة كان هناك كازينو بديعة، وكانت تعمل روز فى الكازينو، وسهرنا حتى ما بعد منتصف الليل، إلى أن انتهت روز مما كانت تقوم به من رقص، وجاءت لكامل قائلة له: كمولتى معاك 50 جنيه؟

أخرج كامل من محفظته الـ50 جنيهًا ولم يعد يراها بعد ذلك.

لم يكن يكف عن الإبداع، ولم يكن يسجل منه شيئًا، قلت له: يا كمولة يا ريت تسجل ما تقوله على ورق، فالأحاديث الشفهية مهما تكن روعتها وسحرها تنسى مع الوقت ولا يبقى منها شىء.

9

يرجع افتتانى بالمتنبى وشوقى إلى أنهما الأقرب للسياسة.

فالمتنبى كان سياسيًا بصرف النظر عن أى شىء آخر، وشوقى تنطبق عليه نفس القاعدة، وكنت أتناول أشعارهما كثيرًا لأنى أتحدث فى السياسة، وهما أكثر الشعراء اهتمامًا بالسياسة.

وبعيدًا عن المتنبى وشوقى فإننى معجب جدًا بأشعار بشار بن برد، ذلك الأعمى الذى وصف الجيش وهو يخوض فى مستنقع كما لم يصفه الشعراء المبصرون.

نزار قبانى كان صديقى وكذلك محمود درويش، ولكن تجربة كليهما تختلف تمامًا عن المتنبى وشوقى وأيضًا طريقة التناول، كما أن نزار ودويش يكتبان الشعر بإيقاع حداثى، والشعر هو الكلام الذى يعبر عن الشعور وتستطيع أن ترويه وتحفظه.

وبعيدًا عن نزار ودرويش وكل الشعراء الكبار، فإن الانتقال إلى الشعر الحديث أثر كثيرًا على الشعر عند الناس، فلا يوجد مثلًا إنسان يستطيع أن يحفظ هذا الشعر الحديث ويردده، ولكن الشعر العمودى التقليدى ملىء بالموسيقى مما يجعله أسهل فى الحفظ والترديد، وقد فطن نزار إلى ذلك فتوسع كثيرًا فى تقديم قصائده إلى المطربين والملحنين حتى يضمن سرعة انتشار أشعاره.

أما محمود درويش فكنت أتابع أشعاره وهو موجود فى فلسطين تحت حصار الاحتلال، وكانت تصلنا أشعاره وصداها، ورغم ذلك تواصلنا فقد كان ينظر لى باعتبارى قارئًا حرًا أعيش فى عالم طليق وحر، بينما هو محبوس فى قفص الاحتلال.

كنت أحد أطراف عملية الترتيب لعدم عودة محمود درويش إلى فلسطين مرة أخرى ليصبح أكثر حرية بعيدًا عن الاحتلال، وحدث ذلك عندما كان درويش ضمن وفد فلسطين يزور موسكو، وكنت ضمن وفد مصرى فى موسكو فى نفس الوقت، وأخذنا درويش إلى السفارة المصرية هناك،

وعاد الوفد الفلسطينى إلى الأرض المحتلة، ومن موسكو جاء درويش قبل أن يقرأ مقالاتى ويستمع إليها من إذاعة صوت العرب، وربطت بيننا صداقة الثقافة ثم الصداقة الإنسانية الأرحب، وأذكر أن الدور الأكبر لعملية تهريب درويش من موسكو إلى القاهرة كان للسفير مراد غالب سفير مصر فى موسكو، وكان درويش قبل ذلك يرسل قصائده إلىّ ويكتب أن القصيدة لا تكتسب شرعيتها إلا بعد قراءتى لها.

قد يكون سميح القاسم أقوى شعريًا من محمود درويش، ولكن سميح آثر أن يظل طوال الوقت تحت سلطة الاحتلال، بعكس درويش الذى انطلق إلى العالم الخارجى، فأضفت الحرية الكثير من الحيوية على أشعاره، وأعطته قدرة أكبر على التواصل مع كل العالم، فتفتحت مواهبه أكثر وأكثر، والغريب أنه أجاد التعبير عن آلام المحاصرين أنفسهم، وكل هذا جعل محمود درويش أكثر وجودًا فى الوجدان العربى والعالمى.

سميح القاسم عربى رغم وجوده تحت سيادة الدولة الإسرائيلية، فهو اختار أن يتشبث بالأرض ويبقى بالداخل ولو تحت الاحتلال، وقبل هو وغيره بالمواطنة الإسرائيلية ولها أحكامها، لكنه تمسك بالهوية الفلسطينية ولها تحدياتها وضغوطها، ومد جسورًا إلى الضفاف العربية المحيطة بفلسطين، وهو محيط علاقاته ملتبسة مع الدولة التى ينتمى إليها بالمواطنة، من تناقضات ثقافية وسياسية إلى تناقضات عسكرية.

10

لم أكن أعرف إدوارد سعيد معرفة شخصية، رغم متابعتى الجيدة لما يكتبه فى الخارج، وتقابلنا لأول مرة عندما أراد أن يصدر كتابه الأول باللغة العربية، وطلب منى أن أكتب له مقدمة الكتاب، فقلت له أنت كاتب معروف ولا تحتاج إلى من يقدمك إلى القارئ، فقال لا أحد يعرفنى فى الوطن العربى، أنا فقط معروف فى الغرب، وأحتاج إلى من يقدمنى للقارئ العربى، وتواصل الحوار بيننا بعد ذلك، وتطور الحوار إلى

صداقة، وإدوارد سعيد رجل تفخر به من دون أن تعرفه، فإذا عرفته ازداد فخرك وإعجابك به.

كان إدوارد سعيد محاضرًا مؤثرًا فى دفاعه عن حقوق أمته وشعبه، وكان فيما كتب وقال نفاذًا إلى الضمائر، مالكًا لزمام التعبير، قادرًا على جلاء الفكرة بسحر الكلمة، وكذلك وصل قوله وصوته أشعة من التنوير، وهزة تدعو إلى يقظة.

تعرض إدوارد لحملة ضارية شنتها عليه جماعات مؤيدة لإسرائيل أزعجها تأثيره، وظهرت لها ردود أفعال تأثرت بما يكتبه ويقوله، ولم توقفه الحملات، فهو فى صميم قلبه طالب سلام، شرط أن يكون سلامًا حقيقيًا مؤسسًا على العدل وقابلًا للبقاء.

كان يعرف أنه مصاب بسرطان الدم، وكان يقاوم ببسالة، يقعده المرض مرات، لكنه لا يلبث أن يقوم رافعًا قامته بكبرياء، مجلجلًا بصوته، كاتبًا كلمته بتدفق مفكر، ومناضل، وفنان، وقبل وبعد كل شىء بكرامة إنسان، كأكرم ما يكون الإنسان، بحثًا عن القيمة والمعنى والمعدن والجوهر، وحواره المتصل مع الكون والحياة والخير والجمال.

فى أوائل صيف 2003، كان إدوارد مدعوًا لمحاضرة فى الجامعة الأمريكية، ولقيته قبلها فى الفندق الذى ينزل فيه، وأحسست به مرهقًا، وصحبته إلى محاضرته فى قاعة إيوارت، وبعدها كان مستنزفًا سواء بما لقى من حفاوة، أو بما بذل من مجهود، وفى اليوم التالى جاء ضيفًا علينا ليوم راحة فى بيتنا الريفى ومعه قرينته المحبة والحانية (مريم)، وقضينا يومًا كاملًا ورغم أنه كان متعبًا- مما أثار عندى إحساسًا غامضًا وحزينًا بأن النهاية تقترب- فإنه مع ذلك ظل طوال الوقت يتكلم ويسأل ويناقش ويحاور، كأنه يريد أن يكون آخر نفس فى الحياة، حياة فى قلب الحياة.

عندما عرفت أنه دخل المستشفى فى نيويورك، حاولت أن أتصل به، وكان لسوء الحظ فى غرفة الإنعاش، وأحسست بانقباض يمسك أعصابى ويشدها، فقد رادونى إحساس بأن

أجراس السماء تدق.

11

حين سألنى عبدالرحمن الأبنودى إذا كنت أستطيع تقديم مربعاته عندما تنشر على شكل كتاب، فإن طلبه أسعدنى، ليس فقط لأننى كنت أتمنى لهذه المربعات أن تظهر كاملة على شكل كتاب، إنما سعادتى لأن طلبه جاء فرصة متجددة أقرأ فيها المجموعة موصولة ببعضها، بعد أن تابعتها يوما بيوم تنشر متقطعة على صفحات جريدة يومية.

وتصورت فى كل الأحوال أن قراءة المخطوطة فى صورتها الأصلية وقبل أن تدور المطبعة فرصة حميمة بين المربعات وبينى، تتيح لى قراءتها مكثفة مركزة، تحمست إذن لكتابة مقدمات للمربعات دون أن يخطر ببالى لحظتها أن الأمر أصعب مما تصورت، وأعقد مما قدرت.

عندما قرأت هذه المربعات من جديد مرة واحدة وباهتمام غير منقطع، تجلت أمامى مربعات الأبنودى على صورة مختلفة، تذكرت المقولة الشهيرة التى سمعناها قبل أربعة قرون من فلاسفة جامعة (فرايبورج) وهى من أوائل جامعات زمن النهضة (إن كل الأنهار تتسابق إلى البحر).. إشارة إلى وحدة المعرفة مع المنابع.

فى قراءاتى المتقطعة الأولى فإن المربعات كل يوم بدت لى نوافذ على فضاء لا يصل إليه النظر، وعند القراءة الثانية الموصولة سياقًا واحدًا بدت لى المربعات أفقًا غير محدود، ساحة بحر واسع، لكنه خضم حافل بكل فصول الطبيعة فى الوقت نفسه، فى اللحظة ذاتها، صامت هادئ فى موقع، غاضب هائج فى موقع آخر، نائم حالم قرب صخرة، ثائر جامح يضرب نفس الصخرة بقوة إعصار.

ساءلت نفسى طويلًا كيف يمكن وصف هذا المشهد غير الطبيعى على لوحة الطبيعة ذاتها، ساحة واحدة ومناخ تتباين ظواهره من صيف إلى شتاء، ومن ربيع إلى خريف،

وشراع مرفوع داخلًا إلى البحر قادمًا من النهر، فسر مربعات الأبنودى يتجلى عند القراءة الموصولة، ومحاولة جديدة وتلقائية ما بين الأدب والسياسة، بين الفكر والتاريخ، بين الفن والثورة، فهو شاعر عاش وسط الجماهير وهى تحاول بالثورة أن تصنع مستقبلًا، وهو لا يغنى لهذا المستقبل من بعيد، وإنما ينشد من وسط الجموع وبلغتها، وهى تتدافع بالزحف أحيانًا، وبالتراجع أحيانًا، خطوة بالأمل وخطوة بالألم، وهى أحيانًا صيحة بالفرح تهلل، وفى أحيان أخرى جرح بالوجع مفتوح.

ما يدعو للتأمل أن عبدالرحمن الأبنودى واصل كتابة مربعاته سنة كاملة، يومًا بعد يوم، وصباحًا بعد صباح، لا يسكت ولا يهدأ ولا يكل ولا يمل، يصيح بالقول على السياسة أن تتماسك لتصنع تاريخًا، ويصرخ بالنذير حتى يمنع النسيم أن يتحول إلى عاصفة، ويمسك بالجمع كى لا ينفك إلى شراذم، ولا يتفرق إلى هباء، يريد للتاريخ أن يتحول إلى نبوءة، ولا يريد للسياسة أن تتحول إلى لعنة، وهو يواصل المحاولة لعام كامل، مربع إلى جانب مربع، نافذة بعد نافذة، ثم تتجمع النوافذ وتتفتح على بعضها، فإذا هى بحر متلاطم وأفق بعيد، فالقراءة الموصولة للمربعات هى وحدها التى تكشف وتبين.

ساءلت نفسى بعد القراءة الثانية الموصولة للمربعات، بعد سنة كاملة واصل فيها عبدالرحمن الأبنودى كتابة مربعاته، ثم أغلق دفترها ونحى القلم، هل استراح واطمأن، ورأى أن يعطى لنفسه صخب البحر وموجه العاتى وصخره، أم أن القلق استبد به خشية أن يضيع صوته فى اللا محدود يطغى عليه هدير البحر ويغطى نشيده.

هل أرهقه الإيقاع المنتظم كل صبح وحسبه قيدًا على الشاعر، لأن الشراع لا يطيق قيدًا أو رباطًا، ولا خطًا ملاحيًا يحدد مسار حركته مسبقًا من النهر إلى البحر؟

لا أعرف جوابًا قاطعًا، لكنى أعرف أن الشراع القادم على النيل من صعيد مصر إلى شمالها ظل يصارع أعالى البحار،

والريح تملأ ذلك الشراع، وهو يواصل رحلته إلى أفق لم يظهر بعد شاطئه.

12

كان أحمد بهاء الدين يمثل لى حميمية الحوار، وبهاء سواء كان فى الأهرام أو فى أى جورنال آخر، كان بيننا كل يوم سبت موعد ساعة أو ساعتين حوارات لا تنتهى، أحيانًا كنا نقضى الوقت فى دردشة عادية، ولكن المهم أنه كانت تجمعنى معه أوقات سعيدة، وبهاء من الشخصيات التى يمكن أن تجلس وتتكلم معه وتشعر بإحساس القلب المفتوح والحوار المفتوح، ليس فيه روادع أو جوارح.

زرت بهاء وقت حرب الخليج ولم يكن فى حالة طيبة بسبب جلطة المخ، ومخ بهاء أو عقله كان أبدع ما فيه، وكنت حين أجلس معه أتساءل بينى وبين نفسى (هل يهاجم المرض أقوى وأحلى ما فى بهاء؟ وجاءت لحظة كان يرى فيها الأشياء كلها مهزوزة.

كان قلبى مكسورا وهو يحاول أن يعرف ماذا على شاشة التليفزيون من تحركات وبيانات عسكرية، وكأنه يقول: فيه إيه؟

13

صلاح جاهين فنان لا يتكرر، فهو شاعر وممثل وكاتب سينمائى، ورسام كاريكاتير عبقرى، ومثل هذا الفنان كان لا بد أن يكون موجودًا فى الأهرام، ويكفى أنه رسام الكاريكاتير الوحيد الذى لم يكن يذهب إلى رئيس تحريره للبحث عن أفكار لرسوماته، فقد كان متدفق الأفكار وقادرًا على تنفيذ أفكاره بحرفية عالية، وقد هاجمونى كثيرًا فى (روزاليوسف) لأنى أخذت منهم صلاح جاهين.

ولأن جاهين فنان حقيقى.. فقد كان طبيعيًا أن يكون مثل أى فنان حقيقى أسرع من غيره بالانكسار.

14

فى أبريل 1969 نشرت للدكتور يوسف إدريس قصته القصيرة (الخدعة).

كانت القصة ببساطة عن رأس جمل يظهر للناس فى كل مكان، فى منازلهم، فى الحمام، فى غرف نومهم، فى الأتوبيس.

سافر يوسف بعد النشر إلى الإسكندرية، قضى هناك عشرة أيام، وعندما عاد إلى الأهرام وجد الجميع ينظرون إليه بدهشة.

اقترب منه أحدهم وقال له: صحيح أنت اترفدت يا د. يوسف؟

وكان يرد عليهم: اترفدت إيه يا ابنى أنا يا دوب اتعينت من أسبوع واحد.

دخل علىّ يوسف إدريس ساخرًا وقال لى: تصور يا أستاذ هيكل الناس العبط اللى بره قالوا لى إننى اترفدت من الأهرام.

قلت له بهدوء شديد: أنت فعلا اترفدت.

سألنى بدهشة: ليه؟

قلت له: الجماعة فى اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى راحوا للرئيس جمال عبدالناصر وفهموه أن قصة الخدعة بتاعتك كتبتها عليه شخصيًا، وإنه المقصود برأس الجمل اللى بيظهر للناس فى كل مكان.

قال يوسف بخوف: يا نهار أسود.. طب وأنت قلت إيه؟

قلت له: أنا قلت لهم إن رأس الجمل دى النكسة اللى بتظهر للناس فى كل مكان، والناس غير قادرين على نسيانها.. هه إيه رأيك؟.. على العموم بعد شهر كده هترجع الأهرام تانى

ومرتبك ماشى واعتبر مفيش حاجة حصلت.

15

هناك أفراد لديهم تميز فى الإبداع، فوسط الزحام تستطيع أن ترى بهاء طاهر، وجمال الغيطانى ويوسف القعيد، ورغم ذلك فلم نشعر بوجود مدرسة أو تيار فكرى جامع يعمل على إفراز النجوم، ولكنك تلمح كل فترة نجمة منفردة تلمع بذاتها.

وكان يعجبنى شعر فاروق جويدة، كان لدىّ ضعف ناحيته، فشعره ينم عن موهبة، وخاصة قصيدته (فى عينيك عنوانى).. هذه القصيدة جلبت له جيشًا من المعجبات لم يتوفر لى.

16

قرأت لجمال حمدان قبل أن أعرفه.

درس فى جامعة ريدنج البريطانية لكنه انتمى إلى المدرسة الألمانية الأكثر جدية فى دراسة الجغرافيا، وهى مدرسة تنتمى إلى إمبراطورية متشوقة لمستعمرات لم تحصل عليها باستثناءات سبقت الحرب العالمية الأولى، الاستكشاف عندها سبق معرفى دون أن يكون مرتبطًا بمصالح محققة.

اطلعت على أثره (شخصية مصر دراسة فى عبقرية المكان).. واستمعت إلى قصص تروى عن عزلته فى محراب فكر، لا يتصل بالعالم من حوله، يخرج من منزله قليلًا ولا يفتح بابه لأحد إلا بإجراءات واتفاقات مسبقة، وتقصر الزيارات على من يطمئن إليه وعددهم يحصى على أصابع يد.

ذهبت لزيارته، من خلف باب موارب رأيته مرتديًا روبًا أحمر فوق ملابس البيت، كان الرجل يعد الطعام لنفسه وغرفة الاستقبال لم تخضع لعناية منذ فترة، لم يكن المشهد يليق بمفكر بحجمه أثرت كتاباته فى مجرى التفكير العام ولفتت إلى دور الجغرافيا فى حياة المصريين.

بدا رجلًا تعرض لصدمة إنسانية فاقت طاقته على احتمالها لدرجة أنه أخذ يعاقب نفسه.

سألته: لماذا هذه العزلة وإسهاماتك مراجع كبرى للباحثين والمثقفين والمعنيين بالشأن العام؟ لماذا تفعل ذلك بنفسك وأنت الآن مؤثر لحدود لا تتصورها فى التفكير العام؟

وقلت له أيضًا: أنت تعيد فكرة الرهبنة المصرية بالعزلة فى الخلاء، لكنك منعزل فى فوضى.

طالبته بأن ننتقل إلى مكان آخر يصلح للحوار فيه، أن يرى الحياة الطبيعية فربما تغريه بالعودة إليها.

ذهبنا إلى فندق شهير بحى الدقى يطل على النيل.

وجدته يقول لى: إنك تتصرف كلورد إنجليزى رغم صداقتك لجمال عبدالناصر.

كان يشير إلى السيجار فى يدى، فسألته إن كان يريد أن يدخن سيجارًا، وكنت أحتفظ بآخر معى، أخذه وبدأ ينفث دخانه فى الهواء ناظرًا إلى جريان نهر النيل.

امتد بيننا الحوار.

سألنى: كيف تسكت يا أستاذ هيكل على ما يجرى فى مصر؟

أجبته: وماذا تريد أن أفعل؟

قال: لا تقل لى ما تردده أنك مجرد كاتب صحفى، فهذا غير صحيح.

أنت زعيم سياسى يسلم بزعامته كثيرون، فكيف لا تقود الشعب فى ثورة لإسقاط المعاهدة المصرية الإسرائيلية، خصوصًا أنك تتمتع بالثقة وبمميزات لا يتمتع بها سواك، ولديك تجارب ومعرفة عميقة بالمسرح الدولى والأوضاع المحلية.

عادة لا يتقن الحديث من يحترف الكتابة، ولكنك تتقن بالوقت نفسه الكتابة الراقية والحديث المقنع، وعادة لا يعرف التفاصيل من هو غارق فى الكليات، لكنك تجمع بين المعرفة الدقيقة بالتفاصيل والكليات معًا، وعادة لا يعرف الفيلسوف المسائل العملية ولا يتقنها، وأنت تعرف الفلسفة ولديك قدرة عملية كبيرة، وعادة ما يكون المفكر السياسى غير محترف للسياسة وممارساتها، لكنك مفكر وسياسى فى ذات الوقت، فلماذا لا تقود أهل مصر فى طريق الخلاص؟

قلت له: لقد جئت إليك حتى أسمع منك، ما تفسيرك لتدهور موقف مصر السياسى؟ ولماذا رحب البعض بهذه الاتفاقية؟

قال فى كلمة كالرصاص: إنه الطغيان.

بعدها زارنى فى مكتبى، حمل معه نسخة من أثره الجليل (شخصية مصر) عليه إهداء يصفنى بأهم كاتب سياسى فى العالم وأعظم مفكر سياسى أنجبته مصر.

قلت له: يا جمال هذه مبالغة.

تحدثت مع جمال حمدان فى مكتبى لآخر مرة عندما كنت على وشك أن أبدا كتاب (أكتوبر 1973: السلاح والسياسة)، وبطبيعة الحال فقد تحدثنا عن شواغلى فيه، ثم تواصلت مناقشاتنا طويلًا حول موضوع يستدعى اهتمامنا نحن الاثنين وهو علاقة الجغرافيا والتاريخ، ومصر فى محيط الاثنين معًا، وكان ذلك بالضبط محور كتابه (شخصية مصر).

وأتذكر أننى أبديت هواجس تراودنى، وتساءلت: إذا قلنا إن المكان ليس مجرد موقع جغرافى، وإذا قلنا إن الزمان ليس مجرد أن تغرب شموسها أو قرون تهل مطالعها، فكيف نفسر ما يجرى ما أمامنا؟

لقد حدث شىء ما لعبقرية المكان، عبقرية المكان بشكل من الأشكال تبدو لى معطلة هنا، حتى الانشغال بها معطل.

هناك من يقولون بخفة إن العبقرية كبرت على موقعها وموضعها، وإذا كان تشخيصهم صحيحًا، فلعلها كبرت إلى درجة أنها انحشرت فيه بعد أن ضاق عليها، وبالتالى حبس حركتها.

وهناك من يقولون بقسوة إن العبقرية صغرت على موقعها وموضعها، ولا أصدق أن يكون ذلك صحيحًا، وإذا كان فإنى أتصور أنها لحظة، لأن حركة التاريخ بالطبيعة إلى أمام، أو.. أو لعلها لم تعد كذلك؟

دعنا من الخفة والقوة إلى ما هو أكثر موضوعية وعلمية.

قل لى ماذا جرى لعبقرية المكان، وفعلها فى الزمن التاريخى للإنسان، بكل ما يستلزمه من ضرورات الحركة والتغيير، وهما الأساس فى حيوية الوجود.

كان جمال حمدان يسمعنى وكنت ما زلت أتساءل.

قل لى أين المكان فى هذا العالم الذى أصبح قرية؟ وأين الزمان فى هذا العصر الذى تنطلق فيه ومضة ليزر إلى القمر وتعود فى ثانية واحدة؟

قل لى هل تملك عبقرية المكان أن تسافر منه أو تهاجر؟ أو هل يمكن لها أن تنزوى وتنكمش؟

أعرف أن عبقرية الأفراد يحدث لها مثل ذلك:

عبقرية سقراط انتهت بكأس شراب مسموم، وعبقرية نابليون جرى تسفيرها بالبحر إلى منفى فى جزيرة سانت هيلانة، وعبقرية نيتشه وصلت فى النهاية إلى بيت منعزل على حافة جبل فى سلزمارى قرب سان موريتز فى سويسرا، أقام فيه العقل الشامخ بعد أن غام ضياؤه ولفه الضباب.

قل لى هل يمكن لعبقرية الجغرافيا والتاريخ التى صنعت عبقرية المكان على حد تعبيرك، أن يتعطل فعلها وأثرها ويبطل سرها وسحرها؟

قل لى هل للزمان أن يمشى بظهره إلى المستقبل؟

وهل يمكن للعدد أن يتنازل بحسابه للسنين والحقب بدلًا من أن يتصاعد معها بقوة الأشياء، ويحملنا ولو بالقسر من قرن يودع إلى قرن يسلم؟

بعقلى وقلبى أعرف أن ذلك مستحيل، لكنى لا أستطيع أن أذكر ما أراه.

على نحو ما تساورنى هذه اللحظة هواجس: لست متأكدًا أن هذا المكان عارف بموقعه وموضعه، واثق من هويته، أو واثق من دوره فى محيطه الذى هو قطعة منه؟

لست متأكدًا أن هذا المكان قائد- حيث تؤهله الجغرافيا والتاريخ أن يقود؟

لست متأكدًا أنه الملهم والنموذج والمثال.

لست متأكدًا أنه العالم والمعلم والمفتى والمجتهد.

لست متأكدًا أنه المبدع المصور.

لست متأكدًا أنه المطرب والمغنى.

قصارى ما يمكن أن يجيئك إذا مددت سمعك دقات طبول بدائية وغريزية تكرر نفسها، تعطيك إحساسًا موحشًا بأن الحقول الخضراء تتراجع أمام عملية تصحر بطىء، ولكن خطاه منتظمة ومتتالية، كأنه على موعد يقصد إليه بنشاط رتيب، هناك على حافة الدنيا وعلى حافة العصر.

كان جمال حمدان إنسانًا بالغ الحساسية، شديد الكبرياء، وقد زادت على ذلك أخيرًا مسحة حزن ضغط انطباعها على قسمات وجهه، وشاعت فى نبرة صوته، وقد حاول أن يعزى نفسه أو يعزينى قائلًا: إن حركة التاريخ دائمة، ولكن اتجاهها ليس ثابتًا، وكان عهدنا بها أن تكون إلى أمام خطوتين وإلى وراء خطوة، ولعلنا الأن نرى بعدًا مغايرًا، حركة إلى أسفل.

نحن شهدنا انقلابًا لأنه كان بين السكان من لم يقدر ولم يرع حرمة وحق المكان.

وكما حاولت دائمًا، فقد حاولت تلك المرة أن أقنعه بالخروج من دير العزلة والعودة إلى دنيا الناس، ولم يقتنع مصرًا على أنه اعتزل وحركة التيار إلى أمام، فكيف يعود والحركة معاكسة سواء إلى وراء أو إلى أسفل؟

افترقنا ولم أكن أعرف أنه فراق إلى الأبد، وانشغلت بهذا الكتاب حتى فاجأتنى وأنا غارق فيه تلك النهاية المأساوية التى انتهت إليها حياة ذلك العالم الراهب المعتزل والمهموم بشخصية مصر وعبقرية مكانها، الموقع والموضع، وربما من هنا خطر لى منذ البداية أن أهدى هذا الكتاب إليه.

17

كان حسن البنا رجلًا بلا جدال أنشأ حركة، ووضع أساسًا لفكرة استمرت طويلًا، اقترب بالاجتهاد الدينى من الفعل العام، وفعل ذلك خلال ملابسات سياسية وإقليمية معينة، لم يكن معزولًا عنها.

اصطدم حسن البنا ومصطفى النحاس، وتصاعد الصدام فى سنة 1948، سنة حرب فلسطين، حيث استغل الإخوان ما حدث من اضطراب وانهيار، فى ذلك الوقت كنت صحفيًا شابًا، وأتذكر أن كل دور السينما كان بها قنبلة، وأتذكر الاغتيالات التى لم تتوقف، أحمد ماهر، النقراشى، الخازندار، سليم زكى وغيرهم، لم يكن يمر شهر إلا وتقع حادثة مدوية، ودخل النظام فى مواجهة، ونجح النظام فى المواجهة رغم أنه كان ضعيفًا.

أول مرة رأيت حسن البنا كان فى مكتبى فى أخبار اليوم، ظل جالسًا ينتظر عبدالرحمن عمار وكيل وزارة الداخلية كى يعطيه أحد بيانات الجماعة.

بعد شهور وجدت حسن البنا يعرض علىّ سكرتارية تحرير جريدة (الإخوان المسلمون)، ولكنى اعتذرت، كان ذلك فى

سنة 1946، فى وقت أراد فيه الإخوان إصدار جريدة لهم، وقد عهدوا بالمشروع إلى عبدالحليم الغمراوى وكان محررًا بالأهرام.

لسبب أو لآخر قال الغمراوى للبنا: إننا بحاجة إلى شبان للجريدة.

وكان يبدو وقتها أننى يمكن أن أكون صحفيًا واعدًا، فرشحونى، وذهبت إلى حسن البنا فى مقره العام بالحلمية، بعد أن أخذت موعدًا بعد صلاة الجمعة، ودخلت المسجد، فى وقت كان البنا يخطب فيه خطبته الشهيرة التى وصف فيها الإخوان برهبان الليل وفرسان النهار، وبعد أن انتهى البنا، فتحنا موضوع الجريدة، وأتذكر أننى سألته سؤالًا مهنيًا عن قارئ الجريدة.. مَن يكون؟ وكيف تصل إليه؟

قال: إذا كنت تتحدث عن التوزيع، فلا تقلق من هذه الناحية.

أنا كنت أتساءل عن محتوى الجريدة ونوعية قارئها، وهو سؤال سهل وصعب فى وقت واحد، لكنه قال إن مصر بها 4 آلاف قرية، كل قرية منها بها مكتب دعوة يضم 12 فردًا، ولو اشترى الجريدة هؤلاء فقط، لكان التوزيع 48 ألفًا قبل النزول إلى الباعة.

قلت له إن هذا غير ممكن، إننى أخشى أن أقول إن فى دعاوى الوطنية ودعاوى الدين، والدعاوى الكبرى لا بد أن نفرق بينها وبين سلعة تباع، لأن القارئ عندما يدفع قرشًا فى صحيفة، فهو يختار ما يرضى مزاجه، فلا تقيده بما تتحدث عنه، ابعد عنه موضوعات الدعوة والوطنية، دعه يختار السلعة التى يعتقد أنها أنفع له، ولا تضيع وقتك معه، وكان من المتوقع أن نختلف، وهو ما حدث، ثم بعد ذلك سافرت حتى لا يتكرر العرض.

18

فى أكتوبر 1954 قابلت محمود عبداللطيف المتهم

بمحاولة اغتيال جمال عبدالناصر فى حادث المنشية على ضوء الشموع، فإن أسلاك الكهرباء فى سجن البوليس الحربى كانت قد أصيبت بخلل وساد الظلام، وبدا وجهه على ضوء الشموع غريبًا عجيبًا أثار فى نفسى مجموعة من الانفعالات الغريبة لا أظن أننى شعرت بها من قبل.

كان شعر رأسه هائشًا ولم تكن ذقنه حليقة، وكانت فى عينيه نظرة زائغة، وكان لا يزال يرتدى نفس الملابس التى ارتكب بها الجريمة، ولمحت آثار ندب قديم.

قلت له: ما هذا؟

قال: كنت أتدرب على ضرب المسدسات فانطلقت رصاصة خاطئة لم تخرج من الفوهة بل خرجت من الوراء وأصابت شظاياها أصابعى، كان يتكلم وقد ترك أصابعه تأخذ وضع الذى يمسك بمسدسه ويصوبه وأحسست بشعور مقبض.

لقد وقفت وجهًا لوجه أمام قتلة كثيرين ولكننى لم أشعر نحو قاتل منهم بالشعور الذى أحسست به وأنا أتأمل وجه محمود عبداللطيف، شىء غريب لفت نظرى، لقد أحسست إننى أستمع إلى أسطوانة معبأة تكرر الذى ألقى عليها حرفًا بحرف.

سألت محمود عبداللطيف: لماذا أطلقت الرصاص على عبدالناصر؟

ومضى فى صوت كأنه الفحيح يردد مجموعة من المعلومات، إذا حصلت حرب فى كوريا الجنوبية- هكذا بالحرف الواحد- فسيعود الإنجليز إلى احتلال مصر من الإسكندرية.

قلت له: فى أى مادة من الاتفاقية قرأت هذا؟

قال بنفس الصوت الذى يشبه الفحيح: فى اتفاقية الجلاء.

قلت: هل قرأت كل موادها بنفسك؟

قال: قرأناها ودرسناها.

قلت: من أنتم؟

قال: الشعبة.

ومضى يتحدث عن الرجل الذى شرح له الاتفاقية، لم يكن يتحدث عنه، وإنما كان يردد كلماته، كان يقول كلامًا لا يمكن أن يكون من عنده أو حتى من وحى أفكاره.

كان ببغاء من نوع يثير الأعصاب، ولم تكن معلوماته عن الاتفاقية هى وحدها صلته بالببغاوات، سمعته يتحدث عن الضرب بالطبنجة، وأستطيع أن أذكر من الطريقة التى سمعته يتحدث بها أنها عبارات محفوظة.

قال بالحرف الواحد: الضرب بالطبنجة تصويب إلى اتجاه وليس نيشانا.

سألته: هل التقيت بالهضيبى؟

قال: نعم فى المركز العام للإخوان المسلمين.

قلت له: هل تذكر موضوع حديثه؟

قال: كان يحدثنا عن اتصاله بالإنجليز وإنه اتصل بهم لمصلحة البلد.

قلت: هل اقتنعت بكلامه؟

قال: بصراحة نعم.

قلت: هل تطيع أى أمر يصدره لك الهضيبى؟

قال: فى حدود.

قلت: هل الدعوة تبيح القتل وترضى عنه؟

لم يرد فقلت له: هل القرآن يبيح القتل؟

قال: لا يبيحه إباحة صريحة.

قلت: لماذا كنت تريد أن تقتل جمال عبدالناصر؟

قال: لم أفكر.. لكننا اتفقنا على هذا بعد الاتفاقية.

قلت: كنت تتدرب من أربعة شهور والاتفاقية وقعت منذ أسبوع؟

قال: كنا نظن أنها لن توقع.

قلت: هل عرفت ماذا صنع جمال عبدالناصر بعد أن أطلقت عليه الرصاص؟

قال: علمت أنه استمر فى إلقاء خطابه.

قلت: ما رأيك فى هذا؟

قال: شجاع.

قلت: هل أحسنت تصويب الرصاص عليه؟

قال: نعم.

قلت: كيف تفسر أنه لم يصب؟

قال: إرادة الله.

قلت: هل ترى فيها دلالة؟

قال: معناها أن الله يحبه.

قلت: هل تعتقد أن الله يحب رجلًا سلم بلاده للإنجليز؟

قال: لا.

قلت: إذن ماذا؟

قال: لا أعرف.

سكت قليلا ثم استطرد: إن الإنسان حينما يفكر فى مثل الذى فكرت فيه لا يحس بما يفعل إلا بعد أن ينتهى من كل شىء.

قلت: هل تحس الآن؟

قال: نعم أحس.

قلت: هل عرفت كيف استقبل الشعب جمال عبدالناصر؟

قال: سمعت.

قلت: ما رأيك؟

قال: يظهر أننى نفعته، ثم استطرد بنفس الصوت الذى يمزقه الفحيح: رب ضارة نافعة.

قلت: هل سمعت الذى يقوله فى الدقائق القليلة التى سبقت الرصاص؟

قال: لا.

قلت: كان يتكلم عن الحرية والعزة والكرامة.

قال: لم أسمع أى شىء.

قلت: فيما كنت تفكر؟

قال: فى الذى كلفت أن أفعله.

قلت: والذى كلفك نفسه لماذا لم يجىء معك؟

قال: لا أعرف.

وبدأ يلتقط أنفاسه بصوت مسموع مبحوح، وحتى فى نهاية هذا أيضًا بدأ صوته كأسطوانة قديمة مجروحة تخرج منها أصوات متحشرجة.

فى نوفمبر 1954 قابلت حسن الهضيبى فى السجن الحربى بثكنات العباسية، كان يعيش تحت تأثير تجربة من نوع جديد، كانت الساعة الواحدة ظهرًا وهى الساعة التى يخرج فيها للنزهة والسير فى فناء السجن الحربى مع غيره من أعضاء جماعة الإخوان المعتقلين، وفى كل يوم فى هذه الساعة يسمع حسن الهضيبى والذين معه تسجيلين، تخرج أصواتهما مجلجلة، من ميكروفون ينقلهما بأعلى صوت ويدفعه إلى فناء السجن الحربى.

أولهما تسجيل للخطبة التى ألقاها جمال عبدالناصر ووجهت إليه الرصاصات الثمانى أثناء إلقائها.

والثانى تسجيل لأغنية أم كلثوم التى تهنئ فيها الرئيس والتى مطلعها: يا جمال يا مثال الوطنية.

راقبت الهضيبى وهو يسمع التسجيل الأول، خطبة جمال عبدالناصر، ثم فجأة الرصاصات الثمانى التى دوت واحدة بعد واحدة، ثم فترة الصمت الرهيب التى قطعها على الفور صوت جمال عبدالناصر ينادى الرجال الأحرار، وكان وجه حسن الهضيبى صامتًا مغلقًا لا تعبر قسماته، وراقبته وهو يسمع التسجيل الذى التقط من إذاعة حفلة نادى ضباط الجيش.

وعندما وصلت أم كلثوم إلى المقطع الذى تطلب فيه من الحاضرين أن يغنوا معها والذى تقول فيه: (يا جمال يا مثال الوطنية.. أجمل أعيادنا الوطنية بنجاتك يوم المنشية.. ردوا ردوا عليا)، تأملت الهضيبى ولم أكن أتوقع بالطبع أنه سيرد عليها، ولكن هذا ما فعله على أى حال.

جلست بعدها أمام حسن الهضيبى فى مكتب قائد السجن الحربى، ومرت لحظات صمت، كنت خلالها أتأمل وجهه وأدقق النظر فيه، ويبدو أنه أحس بالذى فعلته فأطرق برأسه إلى الأرض ثم رفعه وحاول أن يبتسم ولكن أعصابه خذلته، فلم تكمل الابتسامة على شفتيه وإنما مر عليه شبح باهت

لمحاولة ابتسامة، وكان الصمت ثقيلًا على أعصابى.

قلت له: هل يبيح القرآن القتل والإرهاب؟

قال: لا.

قلت: وهذه الرصاصات الثمانى التى سمعتها بأذنيك الآن فى الميكروفون؟

قال الهضيبى: يُسأل عنها الذى أطلقها.

قلت: هل أطلقها من نفسه هكذا بدون تحريض؟

قال: ومن أين لى أن أعلم أن هناك من حرض؟

قلت: ألم يكن النظام السرى تابعًا لك مباشرة؟

قال: أنا كنت مرشدًا عامًا أبحث رءوس المسائل وأقررها ولا أدخل فى التفصيلات، وعلى سبيل المثال أنا أقول مثلًا إن من أهدافنا نشر الدعوة، وهذا رأس مسألة أتركها لمن يبحثون التفاصيل ويشرفون على التنفيذ ولا أذهب أنا مثلًا لكى أنشر الدعوة بنفسى وأحض ملايين الناس على الفضيلة، شأن هذا شأن النظام السرى، كنت أعلم أنه موجود ولكن بالنسبة لى كان رأس مسألة أما التفاصيل فقد كان يشرف عليها اثنان هما خميس وفرغلى.

قلت: إذن أحدد سؤالى.. هل ترى أن الإسلام يبيح إنشاء منظمة سرية مسلحة للإرهاب وهل السياسة فى هذا البلد والحريات التى تتطلع إليها يمكن أن تسمح بقيام منظمات سرية مسلحة؟

سكت الهضيبى فترة أطرق فيها برأسه إلى الأرض، ثم قال: من قال هذا؟

قلت: أنت قلت الآن.. لقد قلت إنك تعرف أن هناك نظامًا سريًا، ولكن الذى نفيته أنك أنت الذى كنت تصدر الأوامر، ولقد قلت لى إنك كنت تعرفه كرأس مسألة ولكنك لم تكن

تعرف الظروف التى يعمل فيها، ألم يكن محققا أن أفهم من كلامك هذا؟

قال الهضيبى: ولكنى لست أنا الذى أنشأ هذا النظام السرى، هذا النظام أنشاه حسن البنا سنة 1946، فلما جئت أنا من ثلاث سنوات وتوليت منصب المرشد العام كان أول ما فعلته أن قلت إننى لا أريد أنظمة سرية، وأخرجت الجماعة فعلًا أولئك الذين عرفت أنهم كانوا يتزعمون الإرهاب المسلح، وأقمت مكان النظام القديم نظامًا جديدًا، حددت له أهدافه وهى أن يقوم أفراده بنشاط رياضى وكشفى.

قلت له: هل التدريب على السلاح والمفرقعات يدخل ضمن الأعمال الكشفية والرياضية؟

قال: لقد أعدت النظام الخاص إلى أصل دعوته لكى يحارب أعداء الإسلام وحاولت أن أبعده عن الإرهاب.

فقلت له: هذا سيقودنا إلى الرصاصات الثمانى.

فقال: ما لها؟

قلت: الذى أطلقها أحد أفراد النظام الخاص المسلح.

فقال والمحاولة التى كان يبذلها ليتمسك بالثبات تتخلى عنه كما تخلت الابتسامة: إذن يكون النظام الخاص قد انحرف مرة أخرى، ولكن ذلك بغير علمى.

ومرت فترة صمت أطرق فيها برأسه مرة أخرى.

قلت له: لماذا اختلفت مع الثورة ولماذا خرجت تحاربها؟

قال: هل أنا حاربتها؟

قلت: إذا تركت جانبًا الرصاصات الثمانى ومخازن السلاح التى ليس لها عدد بقى شىء آخر.

قال: وما هو؟

قلت: المنشورات السرية التى وزعتها.

قال: أنا.. هل أنا وزعت منشورات سرية، ما ذنبى إذا كان الشيوعيون والوفديون لا يملكون الشجاعة لكى يوقعوا بأسمائهم الصريحة على المنشورات التى يوزعونها فينتحلوا لها اسمى، أنا لم أكتب أية منشورات، ولكن الوفديين والشيوعيين طبعوا منشورات ووضعوا اسمى فى ذيلها وأنا لا أعلم من أمرها شيئا.

ومرت فترة صمت وكنت أفكر فى السؤال التالى الذى أوجهه للهضيبى ولكنه رفع رأسه وقال: هل أوجه إليك سؤالًا؟

قلت: تفضل.

قال: لماذا قتلوا أولادى جميعًا؟

قلت: أولادك؟

قال فى إصرار: نعم قتلوهم بطريقة لا أشك فى صحة روايتها أبدًا.

قلت: لا أستطيع أن أصدق.

قال فى إصرار عنيف: يا رجل لقد أقسمت لك بالله العظيم قتلوهم جميعًا وأنت تعرف ولكنهم قتلوهم ولست أريد منهم إلا أن يقتلونى أنا أيضًا.

تدخل فى المناقشة البكباشى أحمد أنور، مدير البوليس الحربى، وقال فى دهشة: نحن قتلنا أولادك؟

قال الهضيبى: نعم أظنك تريد أن تنكر، لا يهمك أن ترانى ثابتًا متجلدًا، رغم أن أولادى كلهم قتلوا وقتلت زوجتى أيضًا، ولكن هكذا الصابرون المجاهدون.

وقال أحمد أنور: ولكن الذى تقوله غير صحيح.

ووقف الهضيبى وتشنجت ملامحه، وقال: والله العظيم والله العظم والله العظيم أن الذى قلته صحيح صحيح صحيح وأن أولادى كلهم وأزواجهم قد قتلوا وزوجتى أيضا قتلت.

قال أحمد أنور على الفور: كيف تطلق يمينًا مقدسة بهذه الطريقة؟

وقال الهضيبى: أنا واثق وأنا أكرر قسمى بالله العظيم.

فقال أحمد أنور: ما هو رقم تليفون بيتك؟

قال الهضيبى: 27024.

بدأ أحمد أنور يدير قرص التليفون والهضيبى ما زال حيث كان واقفًا متشنجًا ينظر إليه نظرة غريبة، وساد الغرفة صمت مفاجئ حتى سمعنا جرس التليفون يدق فى الناحية الأخرى، وقال أحمد أنور: منزل الأستاذ الهضيبى.. هل أستطيع أن أتكلم مع السيدة زوجته، ويبدو أن الذى رد عليه سأل عن شخصية المتكلم؟ وقال أحمد أنور: قل لها صديق للهضيبى يحمل رسالة منه.

مرت فترة صمت وأنظارنا معلقة بالتليفون وآذاننا مسلطة عليه ثم تسرب صوت نسائى، وبدأ أحمد أنور يتحدث إلى زوجة الهضيبى، سألها هل أنت بخير، واقتربنا جميعا برءوسنا من الجهاز نقرب آذاننا منه بقدر ما نستطيع وتسرب منه صوت السيدة تقول إنها بخير، وقال أحمد أنور: وأولادك كلهم بخير؟

نظر الهضيبى إلى أحمد أنور نظرة الذى يرى شيئًا لا يستطيع أن يصدقه، وقال أحمد أنور وهو يناوله السماعة: خذ تحدث إليها وأنت تتأكد أنها زوجتك، وأمسك الهضيبى بسماعة التليفون بحذر واسترابة تمامًا كمن سلموه فى يده لغمًا يمكن أن ينفجر وقال: أنا حسن الهضيبى، واستطرد: اسمعى كيف حال الأولاد؟

هز رأسه فى ذهول وعاد يقول فى التليفون: لم يقتلوهم.. غريبة، وبدأ يهرش رأسه بيده، ومد أحمد أنور يده يأخذ سماعة التليفون ويقول لزوجة الهضيبى كلمة ينهى بها المحادثة ثم يضع السماعة مكانها ويسأل الهضيبى: هل قتلناهم؟

وقال الهضيبى وهو يهز رأسه ويحك شعره: يظهر أنهم لم يقتلوا.

وساد الغرفة صمت وقلت أنا للهضيبى: لقد طلبت أن توجه لى سؤالًا فهل أستطيع أن أوجه إليك سؤالًا أخيرًا؟

قال: أجيبك عليه.

قلت: ما رأيك فى الأيمان التى أقسمتها بالله العظيم ثلاثة مؤكدًا أن أولادك قتلوا؟

قال: كنت أظن.

قلت: هل تقسم بالله العظيم ثلاثًا على الظن؟

قال وهو يضحك: بسيطة.. يمين باطلة أكفر عنها.

قلت: هكذا ببساطة ما أسهل اليمين إذن.

فقال: الدين يسر.

نهضت واقفًا فقد كان الوقت انتهى والتفت هو إلى أحمد أنور، وقال: لقد ضاعت على ساعة الفسحة أمضيت معظمها هنا، فقال أحمد أنور: لا تحمل همًا سوف أعطيك ساعة أخرى، والتفت أحمد أنور إلى أحد الضباط: لا بد أن يتسلى ساعة الفسحة أسمعوه أغنية أم كلثوم مرة أخرى، ومرقت بسيارتى من باب السجن الحربى وصوت أم كلثوم يلعلع تغنى لجمال وتقول: ردوا عليا.

وكان فى خيالى وأنا أندفع بالسيارة خارج السجن، منظر حسن الهضيبى فى فناء السجن يسمع أم كلثوم ولا يرد عليها

بالطبع.

رفيق طريق
سر توفيق الحكيم ..وسرى
1

كان توفيق الحكيم زميلى فى أخبار اليوم، عندما ذهبت أنا كان هو سينضم إليها.

هذا الكلام جرى فيما بين عامى 1946 و1947.

كان توفيق الحكيم موجودًا معنا فى أخبار اليوم، وكان كاتبًا ومفكرًا كبيرًا ودمه خفيف، كانت بيننا علاقة غريبة، كان هو مبهورًا بى من ناحية، وأنا كنت مبهورًا به من ناحية أخرى.

أنا كنت مبهورًا بالأديب والفنان.. وهو كان مبهورًا بالصحفى.

كان مصدر إعجابه بى أننى أتحدث وأعمل وأذهب إلى أكثر من مكان.

كان دائمًا يقول لى الفارق بينى وبينك هو الفارق بين النملة والنحلة.

النمل يحفر تحته.. والنحل يطير ويحلق فى الأجواء.

كان قد قرأ لى بعض التحقيقات من تحقيقاتى الأولى- وكان مهتمًا بها- عندما سافرت إلى الحرب الأهلية فى اليونان وغطيت ثورة مصدق والانقلابات السورية وحرب فلسطين وما جرى فى كوريا، وتحقيقات الكوليرا فى صعيد مصر.

توفيق الحكيم كان يرى ما أقوم به من الأمور التى توشك أن تفوق الخيال، أنا أتحرك كل يوم وهو يميل إلى السكون وعدم الحركة والتأمل.

كنت أقضى حياتى كلها فى أخبار اليوم، ولكن توفيق

الحكيم كان يحضر فى بعض الأيام فقط، وفى هذه الأيام التى كان يحضر فيها، كنا نخرج فى كل يوم من أجل الغداء فى مطاعم وسط القاهرة معًا، ونذهب إلى السينما حفلة من 3 إلى 6 ثم أعود مرة أخرى إلى أخبار اليوم وهو يذهب إلى منزله.

توفيق الحكيم وضع قاعدة جيدة فى العزومات، فى يوم أتحمل أنا تذاكر السينما، وهو فى نفس اليوم يتحمل الغداء، وفى يوم آخر يكون علىّ الغداء ويكون عليه تذاكر السينما وهكذا.

لكن لو كان عليه الغداء، كان يعمل قاعدة ظريفة جدا.

كان يقول لى: إن كنت ستختار المحل الذى نذهب إليه، أنا الذى أختار لك الطبق الذى تأكله، وإن فضلت أنت اختيار الطبق، أنا الذى أختار المحل.

فإن قلت أريد أن آكل فيليه، يختار مطعمًا تركيًا فى حارة صغيرة متفرعة من شارع ثروت، وإن قلت أريد الذهاب إلى سميراميس يشترط أن يكون الطعام سندوتشات.

كان يحتفظ لنفسه بالفرصة الأخيرة فى التحكم فى الأمور.

كانت بيننا صداقة من النوع الجميل، ثم أننى اكتشفت فى توفيق الحكيم فى مثل هذه الظروف أمورًا أكثر من جميلة، وكنت أتصور أنه يمثل على الآخرين فى بعض الأمور والأحيان.

من أكثر المرات التى تصورت أنه ربما كان يمثل فيها- على سبيل المثال- يوم أن مات نجيب الريحانى، يبدو أن على أمين قال لتوفيق الحكيم إن الريحانى مات، وتوفيق كان زعلان جدًا، وأنا وصلت إلى الجريدة ولم أكن أعرف أن على أمين قال للحكيم هذا الخبر، دخلت حجرة الحكيم وكان لحظة دخولى يبحث عن كتاب فى دولاب، كان جالسًا على ركبتيه يبحث عن الكتاب، كان مقرفصًا.

قلت له: عرفت.. نجيب الريحانى مات؟

قال لى: يا نهار أسود.. مات تانى.

وضحكنا على كلمة تانى.

2

مرة واحدة اختلفنا كنا يوم جمعة، وكنا فى أخبار اليوم، وكنت مسئولًا عن الجرنان.

وفى الصحافة قد يكون المسئول عن صحيفة فى موقف صعب عندما يواجه مسألة مهمة، وهى إيجاد صورة الصفحة الأولى، تلك من مفردات العمل الصحفى اليومية المهمة.

إنها صورة الأسبوع التى تنشر فى الصفحة الأولى على الناحية الشمال من جريدة أخبار اليوم، كانت الصورة زمان مسألة أكثر من مهمة، كنا نبدأ من أول الأسبوع نسأل: ما هى صورة الأسبوع التى ستحتل هذا المكان المهم من الصفحة الأولى؟

كان خليل مطران قد مات، ويومها اقترحت أن تكون الصورة الأولى، صورة الأسبوع، صورة لوجه خليل مطران وحوله الزهور وهو فى الكنيسة، وكان توفيق الحكيم معنا فى هذا الاقتراح.

كان حاضرًا الاجتماع الذى تقرر فيه هذا، وكان موافقًا على الاقتراح ومتحمسًا له، وأنا قلت إن هذا يذكرنى بصورة شاعر البنغال الكبير طاغور بعد وفاته، وجه الشاعر والورد حوله ونظرة وداع أخيرة عليه.

قلت لمحمد يوسف إنه يمكنه أن يصور خليل مطران فى بيته قبل نقل الجثمان من البيت إلى الكنيسة، وإنه يمكنه أن يأخذ معه الورد بصورة احتياطية، اتجه محمد يوسف إلى بيت خليل مطران ومن هناك اتصل بى تليفونيًا، وقال لى إن الجثمان نقل إلى الكنيسة فى النعش الخشبى وإنه لا يستطيع

أن يتصرف.

قابلته عند الكنيسة فى الفجالة، كانت هناك صلاة، وفى اليوم التالى كان من المفروض أن يقام القداس، كان خليل مطران فى التابوت، وكان التابوت فى داخل الكنيسة، كان هناك رجل اسمه فرج يعمل فى الكنيسة.

سألته عن التابوت، فقد كنت أعرفه.

قال لى إنهم أغلقوا التابوت ووضعوا المسامير.

كان معنا الورد، دخلنا الكنيسة وفك فرج مسامير الصندوق، ورفع غطاء التابوت عن وجه خليل مطران، ووضع الورد حول وجهه.

شعرت برعشة من رهبة الموقف، وشعرت بتنميل فى أطرافى، وصعد محمد يوسف والتقط الصورة، وأعاد فرج مسمرة غطاء التابوت مرة أخرى كما كان من قبل.

كان ما فى خاطرى يومها هو تكريم الشاعر بصورة وداع تبقى فى ذاكرة الناس.

عدت يومها إلى أخبار اليوم، وكاد على أمين أن يطير فى الجو من الصورة التى كانت أكثر من مذهلة، ولكن كان قد عرف وشاع كيف التقطت الصورة، وأصبحت مشكلة داخل الجريدة.

فى اليوم التالى دخل توفيق الحكيم علىّ فى مكتبى.

قال لى: إيه الحكاية اللى حصلت دى؟

سألته: حكايه إيه؟

قال لى: إنتو فتحتوا البتاع؟

فهمت قصده، وقلت له محمد يوسف كان يريد التقاط صورة لوجه الشاعر بين الورود لأنه كان قد أغلق.

سألنى: وفكيته ليه؟

قلت له: لأننا كنا نريد أن تكون تلك آخر صورة.

أكملت: ثم إن هذا تكريم له، أن يتم تصويره بين الورود وأن ننشر الصورة فى هذا المكان بالذات.

قال لى بصوت عال واندفاع: لا..لا.. لا.. لأه.. هو إيه ده؟

دخلنا فى مناقشة، وكان موقفه الذى لم يتزحزح عنه، أن مثل هذا الكلام لا يقدر عليه إنسان.

3

كان بشارة تقلا أكبر ملاك الأهرام يتمنى أن يكون توفيق الحكيم فى الأهرام، وكان يعرف أن عندى صلة خاصة معه، وكان الحكيم قد بدأ يبتعد عن أخبار اليوم، وجاءنى بشارة تقلا يطلب منى أن أكلمه فى هذه الظروف عن فكرة المجىء إلى الأهرام، لكن توفيق وفر على الجهد، فقد جاءنى ذات يوم مبديًا اهتمامه بما أفعله فى الأهرام، وأجبت الحكيم أنه ينتظره عرض فى الأهرام، وقدمت له العرض بسرعة.

قلت له: لماذا لا تأتى معنا فى الأهرام؟

العرض كان الأول من نوعه فى الصحافة المصرية، أن يحصل على مرتبه بمجرد أن يحضر إلى الأهرام ويجلس فى مكتبه، فإن كتب أى شىء يحاسب عليه بقيمة ما يكتبه.

جاءنى توفيق الحكيم إلى الأهرام بعقد يحصل بموجبه على خمسة آلاف جنيه فى السنة بخلاف أجره عما يكتبه، وعندما وصلنا إلى هذه الصيغة التى لم يطلبها الحكيم، لم يكن قادرًا على تصديقى.

قال لى: يعنى حاخد ماهية كبيرة علشان باقعد فى الأهرام؟

قلت له: فعلًا.

عاد ليسألنى: وأنت تستفيد إيه من الشغلانة دى؟

قلت له: كل ما أريده منك هو البقاء فى الأهرام والحضور إليه والجلوس فيه، تلتقى مع شباب جديد من الممكن أن يستمعوا إليك وأنت تتكلم، ويستفيدوا منك ويتناقشوا معك، وذلك بالدرجة الأولى التى تريدها أنت.

كان الحكيم يتصور أن وراء الأمر قصدًا، وإن القصد ربما كان خفيًا، كان يتصور أننى قد أستخدمه بصورة أو بأخرى، وأستثمر وجوده فى الأهرام.

سألنى توفيق الحكيم عندما عرضت عليه الانضمام للأهرام: لماذا تريدنى فى الأهرام؟

وكان متشككًا باستمرار، فقلت له لا أريد منك شيئًا أبدًا، فسوف تحصل على راتب يساوى خمسة آلاف جنيه فى السنة- وهو نفس الراتب الذى كنت أتقاضاه فى الأهرام- وذلك لمجرد أن تتناول الغداء فى مطعم الأهرام يوميًا.

سألنى: ومن سيدفع حساب الغداء؟

قلت له: الأهرام سيدفع.

فقال متعجبًا: وأحصل على راتبى مقابل ذلك فقط؟

قلت له: نعم بشرط أن تجلس كل يوم مع خمسة أو ستة من شباب الأهرام تدعوهم على الغداء وتتناقش معهم لكى ينهلوا من ثقافتك.

كنت أهدف من وراء ذلك أن ننقل الثقافة للناس، لأن الثقافة مثل السياسة إذا لم تكن لصالح الجماهير فلا قيمة لها.

4

كان الحكيم أول أديب كبير أستعين به فى الأهرام.

ذهبت بعد ذلك إلى طه حسين فى بيته فى رامتان بشارع الهرم، وعرضت عليه الانضمام إلى الأهرام، ولكن خلافاته مع الحكيم جعلته يعتذر.

قال لى: أنت يا سيدى لا تعرف غير صديقنا توفيق الحكيم.. وأدعو الله ألا يفجعك فيه كما فجعنا فيه.

5

عندما نشرنا رواية (بنك القلق) لتوفيق الحكيم فى الأهرام أثارت جدلًا كبيرًا.

كانت بنك القلق نقدًا واضحًا وصريحًا لجهاز المخابرات.

جاء إلى بهذه القصة وقال لى: أنا كاتب حاجة تجريبية.

وأضاف: وهى ليست للنشر.

أخذت القصة وقرأتها واستدعيته وقلت له: توفيق مش عاوزين نلف على بعض، أنا أعتقد أن القصة مادة هائلة للنشر، وهذا ما يحتاج إليه الأهرام وتحتاج إليه البلد، وإذا كان عندك الشجاعة أن تكتب، أنا عندى الشجاعة أن أنشر.

نشرنا الرواية، اتصل بى الرئيس عبدالناصر وقال لى: ماذا كتب توفيق الحكيم؟ أنا لم أقرؤه، إنما اشتكى لى عبدالحكيم عامر بعد شكوى صلاح نصر مدير المخابرات.

طلب عبدالناصر من عبدالحكيم عامر الحضور إليه بعد الظهر، وقال له: إن هيكل حيكون موجود ونشوف الموضوع، وبالفعل اجتمعنا وتكلمنا.

كان من رأى عبدالكيم عامر أن ما نشر هو إساءة كبيرة جدًا لجهاز مهم جدًا فى خدمة الدولة، وأنا لم أكن أختلف على أهمية هذا الجهاز وخدماته للدولة، ولكن فى اعتقادى أن كل جهاز يجب أن يكون معرضًا للنقد، فإذا كان النقد والتقييم بحجم رجل مثل توفيق الحكيم فلا ينبغى أن نحتج بشىء.

كان تعليق جمال عبدالناصر فى ذلك الوقت: إذا كان توفيق الحكيم كتب (يوميات نائب فى الأرياف) فى العصر الملكى، فلا يعقل أنه لا يستطيع أن يكتب نقدًا فى العصر الجمهورى.

وهنا قلت لعبدالحكيم عامر فى وجود جمال عبدالناصر: هؤلاء المثقفون ليسوا عقود زينة أو حلى ذهبية. ثم قلت: فيه ناس فى البلد قالوا إن هناك تجاوزات كثيرة من جهاز المخابرات، فتوفيق الحكيم عبر عن هذه المشاعر ببنك القلق.

فى نهاية المناقشة قال جمال عبدالناصر: أنا لم أقرأ ما نشر من الرواية ولن أقرأ الآن بقية ما سيتم نشره، وكان ذلك تصريحًا للأهرام بإكمال نشر القصة.

ما حدث فى (بنك القلق) وفى غيرها، كان يؤكد معنى لم ينتبه إليه كثيرون.

وهو إذا كانت صداقتى بجمال عبدالناصر كرئيس للدولة تتحول إلى رقابة على أهم عقول مصر، تبقى صدمة مدمرة.

ولكن هذه العلاقة أعتقد أنها فى أحوال كثيرة استطاعت أن تعطى مجالًا كبيرًا للحرية، وأنا على استعداد أن اقول بصراحة: إن هذه كانت مرحلة الخلق الوحيدة فى العقود الأخيرة.

6

قال لى الدكتور عبدالمنعم القيسونى وزير المالية: ألا تريد أن تكتب وصفًا لقبو تضع مصر فيه ما يساوى 68 مليون جنيه من الذهب؟

قلت: إيه.. 68 مليون جنيه من الذهب.. أين هى؟

قال: فى خزائن البنك الأهلى، وهى احتياطى الحكومة الذى لم يمس، بل الذى حاولنا أن نزيد عليه كتلًا من الذهب فوق كتل.

قلت للدكتور عبدالمنعم القيسونى بعد لحظات سكوت:

عندى فكرة أحسن.

ما رأيك لو جعلنا توفيق الحكيم أديب مصر الكبير ومفكرها الأشهر يكتب هذا الموضوع.

إن حب توفيق الحكيم للذهب وحرصه عليه أصبح أسطورة خالدة، ولا أشك أن ملايين القراء سوف يستهويهم منظر توفيق الحكيم واقفًا بين ثمانية وستين مليون جنيه من الذهب.

ستكون التعبيرات على وجهه مشهدًا تاريخيًا، بريق عينيه، خلجات شفتيه، إشارات يديه، بل حتى حركات عصاه، ستكون قصة، ثم المقال الذى سيكتبه، لا أشك أنه سيكون قطعة فنية خالدة، وتحمس وزير المالية للفكرة، ورفعت التليفون أتصل بتوفيق الحكيم، ودار الحديث على الوجه التالى.

قلت للحكيم: ما رأيك فى 68 مليون جنيه ذهب؟

ولم يرد توفيق الحكيم على الفور، وإنما قال بعد لحظة صمت: أين أنت؟

قلت ضاحكًا: أنت تعلم إننى لا أشرب.. وبالتالى أنا أكلمك بكامل وعيى.

قال توفيق الحكيم وأنا أتصوره يهز رأسه بسرعة: لا يا شيخ.

ثم استطرد: ماذا قلت؟

قلت: ما رأيك فى 68 مليون جنيه ذهب؟

قال ضاحكًا: هل هذا كلام.. اسمع صحيح صحيح من أين تتكلم؟

قلت: ليست هذه هى المشكلة.. المهم أن هناك تصريحًا من وزير المالية.

قال توفيق الحكيم: وهل سيصرح لى وزير المالية بأن آخذ هذه الثمانية والستين مليون جنيه من الذهب؟

قلت بسرعة: لا طبعًا.. ولكنه على استعداد لأن يجعلك تراها وتزورها وتقضى يومًا معها.. ما رأيك؟

قال بحيرة: بصراحة لا أفهم شيئًا.. كلمنى جد.

قلت: أنا أكلمك جد.. ما رأيك لو كتبت لآخر ساعة مقالًا عن تجربتك وسط 68 مليون جنيه ذهب، وسمحت لنا أن نلتقط لك مجموعة من الصور وأنت واقف وسطها؟

قال توفيق الحكيم بارتياح: يا نهار أقف وسط 68 مليون جنيه ذهب، شىء لطيف.. شىء لطيف.

وفجأة استدرك توفيق الحكيم، وعلا صوته واختلجت نبراته: لطيف؟ لطيف إيه.. دى مصيبة.. دى كارثة.

قلت له: لماذا غيرت رأيك بهذه السرعة؟

قال: تذكرت ساعة الخروج، كيف أقضى نهارًا بين 68 مليون جنيه ذهب، ثم أتركها آخر النهار وأخرج؟ هذه مؤامرة.. مؤامرة على عقلى.. ليطير عقلى.

وسكت توفيق الحكيم ثم قال: ولّا إيه؟

قلت ضاحكا: إيه.

7

جلست مع توفيق الحكيم نتحدث عن الأبوة التى جاءتنا نحن الاثنين على آخر الزمان، وسألنى توفيق الحكيم: ماذا تصنع مع ابنك؟

قلت: قد يدهشك أن هذا الشىء الذى لا يزيد عمره على شهرين اثنين يرهبنى ويثير الذعر فى قلبى.

مرة واحدة تجرأت فيها واقتربت من فراشه، وإذا هو يصرخ ويرفس بيديه ورجليه فى الهواء، ثم يهبش خديه بأظافره، وتتحول حمرة وجهه إلى زرقة، ويرتعش لسانه داخل فمه المفتوح للصراخ، وأحسست أمامه بعجز يائس.

ماذا أصنع له، كيف أرضيه، ما سبيلى إلى إقناعه بالسكوت؟

ولم أجد فى قدرتى طاقة على شىء من هذا كله، فهربت من غرفته حائرًا مستسلمًا، وأنا أكتفى اليوم بأن ألقى عليه نظرة من بعيد، ولا أحاول أن أقترب منه أبدًا، إنه فى خيالى الآن مخلوق غريب غامض، هبط على من أحد الكواكب البعيدة خلف الفضاء، واقتحم دنياى مزودًا بأسلحة لا قبل لى بمقاومتها، وليس على إلا أن أستسلم وإلا أن أركع على ركبتى أنتظر أوامر مخلوق الفضاء الغريب ورغباته والذنب ذنبى، إذا لم أفهم لغة الصراخ الآمرة المتحكمة، والتى لا يستعمل غيرها.

وقال توفيق الحكيم وهو يثبت عصاه الشهيرة على الأرض ويصنع لها من سبابته وإبهامه حلقة يدفعها إلى الدوران فيها، بينما رأسه يهتز على عادته عندما يتحفز للكلام: تلك مشكلة بسيطة، إن مخلوق الفضاء الذى تخيلته فى طفلك الوليد شىء سهل إذ ما قورن بما سوف تلقاه منه عندما يحبو مع الأيام ويصبح طفلًا فى السادسة أو فى السابعة.

وزادت سرعة دوران العصا داخل الحلقة المصنوعة من إصبعى توفيق الحكيم، وكذلك زادت سرعة اهتزازت رأسه، وقال راهب الفكر الشهير: لقد أصبحت أؤمن أن الجيل القادم شىء لم يخطر بخيالنا قط.

إن العلم الحديث ومظاهر المدنية المحيطة بنا، وأبرزها الردايو والسينما تعطى لأولادنا من وسائل التفكير ما لم يكن متيسرًا لجيلنا.

واستطرد توفيق الحكيم: تصور جلست مع ابنتى منذ أيام، وإذا هى تطلب منى أن أقول لها فوازير، وتذكرت الفوازير

الساذجة التى كنا نسمعها من أمهاتنا وجداتنا، واستنجدت بأول فزورة عثرت عليها فى ذاكرتى وقلتها لابنتى.

قلت لها: عدى البحر ولا اتبلش؟

قالت على الفور: الطيارة.

قلت وفى ذهنى الإجابة القديمة التاريخية عل الفزورة: لا.. العجل فى بطن أمه.

قالت فى إصرار: لا.. الطيارة.

وتنبهت إلى حقيقة خطيرة، إن إجابتها إجابة علمية صحيحة دقيقة، أما الإجابة المتخلفة فى ذاكرتى من أيام طفولتى فإجابة ساذجة بلهاء، لا تستطيع أن تواصل الحياة فى سنة 1956.

وخبطت ابنتى الأرض بقدمها طالبة فزورة ثانية، وحاولت أن أشاغلها لكى أهرب، لست كفؤا لهذه الشيطانة بنت السنوات الخمس.

ومضى توفيق الحكيم: وجاءنى ابنى اسماعيل الذى لا يزيد عمره على سبع سنوات، جاءنى خلال الصيف ونحن فى الإسكندرية يقول لى إنه يريد أن يصطاد السمك من البحر.

وأقنعت نفسى على أى حال أن الدنيا تغيرت، وذهبت فاشتريت لإسماعيل عصا من الغاب وسنارة مدلاة منها، وذهبت أصور لخيالى فرحته عندما أسلمه أدوات الصيد التى جئته بها، وأمسك ابنى قطعة الغاب والسنارة ثم ألقاهما على الأرض باحتقار، ونظر إلىّ قائلًا: إيه ده.

قلت له فى دهشة: إيه.. سنارة صيد سمك.

قال: اخص.

قلت: على إيه؟

قال: هذه لا تصلح لشىء، أنا أريد كمامة أضعها على وجهى وأغطس بها تحت الماء، وأريد حربة أطارد بها السمك فى القاع، وأريد زعانف من المطاط أركبها فى قدمى لكى تساعدنى على الغوص.

قلت فى ذهول: يا نهار أسود.

قال ببساطة: هذا هو الصيد أما السنارة فلعب عيال.

وسكت توفيق الحكيم ثم استطرد بعد قليل: جيل عجيب، إنه يواجهنا بأسلحة لا تخطر على بالنا، إنه يواجهنا بالاندفاع وبالعلم وبالمنطق.

ومضى توفيق الحكيم: أقول لك قصة أخرى وقعت أمس، عدت إلى البيت أرتجف من البرد والمطر، وإذا إسماعيل يقول لى إنه يريد أن يذهب إلى السينما، وقلت له على الفور: سينما إيه.. الدنيا برد ومطر.

لم يغضب ولم يبك ولم يضرب الأرض بقدميه كما كنا نفعل بخيبتنا أيام زمان.

سألنى: إذا ذهبت إلى السينما فكيف أذهب؟

قلت: بالسيارة.

قال: عال والسينما التى سأذهب إليها هل هى سينما شتوى مقفولة أم سينما صيفى مفتوحة؟

قلت: شتوية مقفولة؟

قال: عال.. ماذا إذن إن كان هناك برد ومطر وسوف أركب سيارة مقفولة وستكون السينما شتوى مقفولة؟

قلت له وأنا أضع يدى على خدى: مضبوط.

قال بكبرياء المنتصر وثقته: مضبوط إيه.. هل أذهب إلى السينما إذن؟

قلت باستسلام المهزوم: تفضل.

وسكت توفيق الحكيم وإن ظلت عصاه تدور كالنحلة، وسكت أنا أيضا.

تركت توفيق الحكيم وأسرعت إلى أقرب مكتبة أبحث عن كتاب أستعين به على مواجهة مخلوق الفضاء الغريب الذى هبط على دنياى، والذى سيبدأ غدًا يواجهنى بأفكار عصر متقدم متحرك يسبق الجيل الذى أنتمى إليه بمساحات شاسعة.

اخترت كتابًا اسمه (حقوق الطفل) كتبته السيدة زكية عزيز التى تخرجت فى كلية بدفور للمعلمات بإنجلترا.

وأقنعت نفسى وقتها أننى أستعد لليوم الذى يستعمل فيه مخلوق الفضاء الغريب عقله ليواجهنى بدلًا من حنجرته، إننى أحتمل أن أعجز عن فهمه وهو يصرخ فى وجهى، ولكنى لا أحتمل أن أعجز عن فهمه وهو يناقشنى فكرة بفكرة.

8

اتصل بى أنور السادات وقال لى: توفيق الحكيم الذى تدافع عنه ألا تعرف أنه كتب كتابًا ضد عبدالناصر؟

قلت له: لا أعرف، ثم تساءلت: هل هذا معقول؟

قال لى: سأرسل الكتاب لك، أنا عندى فصلين من الكتاب أبعتهم لك، المباحث بعتت لى الفصلين من الكتاب حابعتهم لك.

قبل أن يصلنى الفصلان، فاتحت توفيق الحكيم فى الأمر.

سألته: هل كتبت كتابًا ضد جمال عبدالناصر؟

وكنا فى مبنى الأهرام الجديد، فقال لى: لا، وهل يمكن أن أفعل ذلك؟

ثم وصلنى الفصلان وقرأتهما، وقتها عندما كنت أريد توفيق الحكيم فى أمر ما، كنت أصعد إليه فى الدور السادس، ولكن لأن الموضوع حساس طلبته إلى مكتبى، ولم أصعد إليه، كلمته فى التليفون.

سألته: هل يمكنك المجىء إلىّ قليلًا فى مكتبى؟

فى اللقاء كان غضبى من الحكيم قد وصل إلى مدى من الصعب وصفه، وقد تكون المرة الوحيدة التى (احتديت) عليه فيها وبدون أى قصد، واجهته بالورق الذى كان معى، وكان عبارة عن الفصلين اللذين وصلانى من كتابه، الذى لم يكن أحد يعرف عنه أى شىء سوى فى بعض الدوائر الضيقة جدًا.

سألته: هذا الورق أنت الذى كتبته؟ هذا الورق لك أنت؟

قال لى: ياه.. أصل أنا كنت باعمل حاجة تجريبية ليست للنشر، وأعطيتها لبعض الأصدقاء فى أضيق الحدود الممكنة لقراءتها، لكنها لا تخرج عن التجريب، الذى يتم فى حدود فنية ولا يتعداها أبدًا.

كان قد لفت نظرى فى الفصلين أمر مكتوب فيهما، رأى شخصى لى قلته للحكيم ذات مرة، وكان الدليل على أنه كاتب الفصول، فإذا بالأمر موجود فى الفصلين، عبارة عن واقعة خاصة كنت قد قلتها له ولم أكن قد كتبتها، وهى لم تكتب سوى بعد هذا، وهى أن تكاليف الحرب كانت تكفى لإنارة أربعة آلاف قرية.

عاد يقول لى إنها عملية تجريبية من أجل أن يقرأها عدد محدود جدًا من الأصدقاء.

قلت له: أنت أحرجتنى أكثر من مرة، وسألتك فى البداية إن كان هناك كتاب كتبته ضد جمال عبدالناصر، قلت لى: لا، وأنكرت هذا.

طلبت أنور السادات وقلت له: كلام المباحث خطأ

ووضعتنى فى وضع وصل إلى أن السادات أرسل لى فصلين من الكتاب وحتى بعد ذلك قلت لى إن معلومات المباحث خطأ.

قلت له وكان صامتًا طول الوقت: لا أريد أن أتخانق معك ولكنى حقيقة زعلان وغاضب.

9

تركت الأهرام ونشر توفيق الحكيم (عودة الوعى).

ووجدتنى أوجه له رسالة نشرتها مجلة الصياد فى بيروت وكان عنوانها: (الشجاعة الحقيقية).

قلت له فى هذه الرسالة: (كل من كتب، وكل من تكلم، كان موجودًا أيام عبدالناصر، ويشهد عليهم جميعًا، وأبسط شىء يمكن أن يقال لهم هو أنهم كانوا أشباحًا خائفة، أشباحًا ضعيفة، من يملك الشجاعة لا ينتظر الموت ليمارس شجاعته، الشجاعة الحقيقية هى أن يقف الإنسان أمام الحياة ويتحدى، لكن كل من لا يستطيع أن يهمس رأيه إلا بعد الوت، وحتى يتأكد أن أحدًا لن يرد عليه، فليس فى موقفه هذا النوع من الشجاعة، فضلًا عن أن الذين كتبوا مذكرات مع الأسف الشديد، وبالرجوع إلى مواقفهم جميعًا، لم يكن هناك أسبق منهم إلى حرق البخور أمام عبدالناصر.

والغريب أن المدافعين عن الناصرية هذه الأيام هم الناس الذين كان عندهم فى وجود عبدالناصر آراء فى بعض جوانب التجربة، والذين يتكلمون عن التجربة ويجعلون من أنفسهم أبطالًا هم الذين لا يملكون إلا أن يقفوا أمام الحياة فى خزى، وأمام الموت فى خزى الموقف نفسه.

وأنا لا أعتقد أن أى شىء يمكن أن يؤثر على عبدالناصر، يبقى عبدالناصر النتاج الطبيعى، والتعبير الحقيقى عن حركة القومية العربية فى القرن العشرين، وتبقى الناصرية منهاجًا لتطور الأمة العربية، منهاجًا قابلًا للتطور، أى ليس جامدًا، ولا أستطيع أن أرى مستقبلًا للعالم العربى، ولكن العالم النامى

دون الناصرية، مجموعة الأفكار والإنجازات والاجتهادات الناصرية التى هى أساس لأى شىء يقوم به، ربما نشر مرة عن «مصر والهزيمة» أى أن عبدالناصر هزم سنة 1967، وهذه ليست قضية، ولكن يبقى أن عبدالناصر تعبير عن مصر وعن العرب فى مرحلة معينة بمقدار ما هو نابليون تعبير معين عن فرنسا، طبعا هناك اختلاف، نابليون فى جزء من الحركة كان انسلاخًا من الثورة، ولو أنها حاولت أن تدعو إلى هذا الجزء على أساس أنه ثورة، لكن عبدالناصر من أول يوم حتى آخر يوم كان اتجاهه صوب التغيير والمستقبل والتاريخ.

هُزم؟ نوافق، ولكن الغريب أن بعض الناس يعتبرون أن السويس مثلًا كانت هزيمته، إلى هذه الدرجة يصل تشويه التاريخ؟

السويس كانت حركة أساسية فى العالم الثالث كله.

إفريقيا والشرق الأوسط، اختلفت كلها بعد السويس، إذا كان العرب يتكلمون عن ثرواتهم هذه الأيام، فجمال عبدالناصر أول من وقف فى وجه الاحتكارات، وأمم قناة السويس، أول من عمل قيمة لكل العرب.

أثناء وجود عبدالناصر، كانت قوته وقوة اندفاعه تمنع حوارًا حقيقيًا مع أفكاره، هذا النهار أنا متحمس لهذه الردة ضد عبدالناصر، لأنها ستنشئ احتكاكًا حقيقيًا مع أفكاره.

عبدالناصر كان فرضية مطروحة، فرضية أعطت نفسها بقوة واكتسحت أشياء كثيرة جدًا، أعتقد أننا سنصل فى النهاية إلى إثبات أن كل ما نادى به عبدالناصر من مبادئ، ومن أفكار هو صحيح.

هناك أخطاء فى الممارسات، ولكن أين فى الدنيا كلها لم تحصل أخطاء فى الممارسات؟

ثم إن الناس يتوقفون عند الأخطاء فى الممارسات وينسون الإنجازات، هذا ليس معقولًا).

على صفحات جريدة أخبار اليوم كتب لى توفيق الحكيم رسالة فى حقيقتها ردًا على ما كتبته له، ورغم أننى لم أشر له اسمًا فى رسالتى، إلا أنه خاطبنى مباشرة.

قال توفيق الحكيم: استلفت نظرى أن الأستاذ هيكل المدافع عن عبدالناصر قد رد على نفسه بنفسه حين وصف من نقدوا اليوم حكم عبدالناصر بأنهم كانوا أشباحًا خائفة ضعيفة، وهذ صحيح، لكن هل توجد الأشباح الخائفة الضعيفة إلا فى جو الفزع والرعب؟

لماذا إذن لا توجد أشباح خائفة ضعيفة فى بلاد مثل فرنسا وإنجلترا وأمريكا والسويد وغيرها من البلدان التى لا يعيش أهلها فى الرعب والهلع والتعذيب والمعتقلات والقتل والنفخ فى البطون والاعتداء على أعراض الزوجات والبنات والأخوات مع تشويه المعارضة بتلطيخها بتهم التآمر والخيانات.

أما عن شجاعة ناقد اليوم الذى ينقد لأنه متأكد أن أحدًا لن يرد عليه، فهذه بالفعل ليست شجاعة، ولكن الواقع غير ذلك، فإن الرد والرد القاسى المملوء بالتجريح الشخصى، إنما يقع اليوم فى أكثر البلاد العربية على كل من يتجرأ على المساس بقداسة عبدالناصر.

إن الكثير من صحف العالم العربى استقبلت كتابى (عودة الوعى) بالتجريح الشنيع لشخصى، فليطمئن إذن الأستاذ هيكل إلى أن من يتعرض لقداسة عبدالناصر فى مصر وغير مصر سوف يجد من يهب للدفاع عنه بالحق والباطل.

ذلك أن الراكبين على جواد عبدالناصر فى كل مكان هم دائمًا أكثر الرابحين.

فليطرح إذن مسألة الشجاعة جانبًا، فالمسألة ليست مسألة شجاعة، خاصة عند بعض الناس، ولكنها مسألة قضية، وهى عندى على الأخص مسألة محبة ومودة، فأنا أحب شخص عبدالناصر وأوده لأسباب كثيرة يعرفها الكثيرون، ربما كان

أهمها أنه كان يحبنى ويحترم آرائى وآراءه، وآمالى وآماله، وكان يعنى ذلك دائمًا، كان من الطبيعى أن أكون أنا المدافع عنه دائمًا.

وقد كنت كذلك.

إلى أن كثر الهمس من حولى باتهامات فظيعة، تتكاثر كل يوم وتصل أحيانا إلى حد الجرائم التى تعاقب القوانين والشرائع على مرتكبيها بأقصى العقوبات.

ما هو إذن الموقف الذى أتخذه ويتخذه كل صديق يرى الاتهامات الفظيعة ضد صديقه؟

هل يكتفى بالتكذيب والتستر والتمويه والتجريح لكل من يمس الصديق؟

أو أن يطالب بالتحقيق النزيه المنصف حتى يخرج برىء الساحة؟

لقد اخترت الأمر الثانى، لأنى بطبعى ووظيفتى الأولى رجل قضاء، لذلك كتبت لنفسى صفحات (عودة الوعى) أسطر فيها رأيى الشخصى فى الموضوع غير قاصد نشرها فى الوقت الحاضر، ولكنها خرجت من يدى بعد ذلك ونشرت.

وهى ليست عريضة اتهام ولا هى حكم من الأحكام، لأن ذلك يقتضى وجود الوثائق وكشف الحقائق، ولكنها مجرد مطالبة بالتحقيق الدقيق فى اتهامات منسوبة إلى شخص أحبه وأوده، ولما كان هذا الشخص رمزا لأمة فإن محاسبته العامة تصبح حقًا من حقوق الأمة.

ولن يكون لأمة من الأمم وعى إذا هى سمحت لستار كثيف يخفى عنها طويلًا الحقائق التى تتصل بمن شكل- ولا يزال حتى بعد موته- مصيرها.

إن تصويرها عبدالناصر بأنه الجثة الهامدة المنسية الضعيفة التى تتكالب عليها مخالب المتظاهرين بالشجاعة هو تصوير

كاذب، فهو على العكس قوة قائمة، تنصب له التماثيل الضخمة فى بعض البلاد العربية، وتمنح باسمه الجوائز فى بلاد أخرى، وصوره شامخة على الجدران فى مصر وفى كل مكان.

فتصويره إذن بأنه مات واندثر هو تصوير مغرض يراد به إبعاد الأظافر عن نبش الحقيقة التى تكشف عما يريد إخفاءه أصحاب الأغراض، كما أن قيام المدافعين عنه بالتجريح الشخصى لكل من يريد التحقيق مما يثير الشكوك، فما من مرة دخل فيها مدافع فى لب القضية، وإنما كان اللف والدوران من حولها بالأساليب المعروفة فى ساحات المحاكم بان تنهال الأسئلة الغامرة: وأين كنت فيما مضى؟ ولماذا لم تقل ذلك من قبل؟ وما الذى أسكتك حتى الآن؟

حيل مألوفة من قديم للتشويش على الاتهام لصرف النظر عن جوهر التهمة وإفلات المتهم، ولكن على الرغم من ذلك، تبقى دائمًا التهم فى صميمها باقية، والجرائم فى حقيقتها قائمة، والتساؤل الدائم هو: هل وقعت أم لم تقع؟ هل ارتكبت أم لم ترتكب؟

هنا جوهر المسألة، وهنا كل القضية، ومن يملك الإجابة الجادة فليتقدم بالوثائق، أما غير ذلك فمهاترات وشعارات، وما أصبو إليه هى الحقائق ليطمئن قلبى على كل من كان عزيزًا على نفسى، فإذا ثبتت براءته فإنى أكون أسعد السعداء، وإذا أدين فإنى أتحمل المسئولية معه، وأكون بذلك فخورًا لأنى أكون قد نفذت الحكم الذى يعيد إلى الأمة وعيها؟

إن من يحب عبدالناصر حقًا هو الذى يطالب بفتح ملفه، ليطمئن قلبه بأن له صفحات بيضاء، أما الذين يركبون جواد عبدالناصر فلا يريدون أى اقتراب من الجواد، ويطعنون برماحهم شخص من يمسه، لأن كل ما يهمهم هو ركوب الجواد.

إن كثيرين من أصدقاء نيكسون ورجال حزبه كانوا يريدون

له المحاكمة ولا يتسترون على أى اتهامات تثير الريب والشكوك حول اسمه، لأنهم يعلمون أن قطع الشك باليقين هو فى مصلحته ومصلحة الوعى الوطنى، ومهما يكن قدره وقدر خدماته فهو مخلوق ومواطن لا ينبغى أن تكون له قداسة لا تُمس وحصانة أبدية تستعصى على كشف الحقيقة.

هذا هو المعنى الذى يجب أن يستقر فى ذهن كل من يحب عبدالناصر حبًا حقيقيًا وليس حبًا نفعيًا وكل من يعزه ويقدره حق قدره.

10

لم أندهش مما فعله توفيق الحكيم وحدى، ولكن الغريب أن زوجة الحكيم نفسها اندهشت ووقعت أزمة بين الاثنين، الحكيم هو الذى قال لى عندما حضر إلى، قال لى بنفسه، إن زوجته زعلت، قالت له زوجته أنت أسأت إلى جمال عبدالناصر الذى وقف معك، وقدم لك الكثير ورفعك فوق رءوس الناس جميعًا.

بعدها اتصل بى حسين فوزى وقال لى إن توفيق الحكيم يريد الحضور إليك ليسوى بعض الأمور، وأنا عارف إنك زعلان منه.

قلت له: ييجى أهلًا وسهلًا.. هذا بيت توفيق الحكيم.

جاءا إلىّ ومعهما لطفى الخولى.

توفيق الحكيم قال لى: أنت تعرف أنا أقدرك إلى أى مدى.

قلت له: هذا ما لم أختلف معك فيه أو حوله.

قال لى: تعرف مين اللى نكد علىّ عيشتى؟

قلت له: لا.

قال: مراتى.

قلت له أنا سأقول لك شيئًا، وحكيت له أن كمال الملاخ كان قد نشر فى الصفحة الأخيرة من الأهرام خبرًا يقول: إن طه حسين يملى جزءًا جديدًا من الأيام، فأخذت معى سيد أبوالنجا وقلت له لماذا لا تأخذ دار المعارف كتاب طه حسين، ونحن ننشره فى الأهرام؟

سيد أبوالنجا كان يعرف طه حسين، وسبق له التعامل معه، أبوالنجا اتصل به، وذهبنا إليه فى فيلا رامتان فى الهرم، دخلنا وجلسنا وطه حسين رحب بنا، وجلس يتكلم معنا.

قلت له: قرأت خبرًا فى صفحة كمال الملاخ يقول إنك تملى الجزء الثالث من الأيام، ونحن نريد أن ننشره.

فإذا بطه حسين يقول: آه.. آه.. وكاتت له ضحكة تمثيلية، ثم قال بلغة عربية فصحى وبصوت له إيقاع: أخشى أن أقول إنك نشرت هذا الكتاب فى دار المعارف، هذا هو الجزء الثالث من الأيام الذى صدر من دار المعارف.

اتضح فعلًا أنه كتاب نشرناه نحن فى دار المعارف، وإن كنت أنا قد صدقت الخبر المنشور، لأنه أولًا نشر فى الأهرام، وثانيًا منشور فى صفحة كمال الملاخ، وسيد أبوالنجا حدث له ما جرى معى.

شعرت بالخجل من الموقف، فعرضت على الدكتور طه حسين أن ننشر له أى شىء آخر فى الأهرام، فقال لى: أنت يا سيدى لا تعرف إلا صديقك وصديقنا الحكيم، وأدعو الله أن يمتحنك فيه كما امتحننا، ثم ضحك وانتهى الأمر عند هذا الحد.

بعدها عدت إلى الأهرام، وكان الحكيم يتغدى معى، وكان معنا الدكتور حسين فوزى على نفس الغداء.

قلت للحكيم: أنت وضعتنى فى موقف حرج مع طه حسين، وحكيت له ما جرى معه، إلى أن قال لى (أدعو الله أن يمتحنك فيه كما امتحننا نحن فيه).

قال الحكيم مهونًا من الأمر: امتحان إيه بقى.

وحكى لنا حكاية القصر المسحور وهو العمل المشترك بينهما، ومن الذى حصل على مكافأة من وراء الآخر، ومن عمل مع الناشر من وراء الآخر؟

سألنى الحكيم: هل أنت زعلان منى؟

قلت له: لست زعلان.

فقط ذكرته بما قاله طه حسين، وكان الحكيم محرجًا وهو يسمعنى لأننى كانت حريصًا جدًا.

11

جاءنى توفيق الحكيم ومعه قصة وطلب رأيى فيها، وبعد أن قرأتها وبدت علىّ علامات عدم الانبساط، أخذها ومزقها.

كنت سأجن.

قلت له: توفيق الحكيم يمزق قصة من 12 صفحة.

فرد على: يا أخى لا مانع من أن نمزق ما لا يعجبنا لأن العقل يراجع بعد القراءة والفرز.

أهل الفن
أن تخترق دون أن تحترق
1

لم أكن أعتبر نفسى حكمًا على الحياة الفنية فى مصر فى أى وقت من الأوقات.

كان هناك غيرى من الصحفيين عندهم الحظ والفرصة أن يقتربوا من أبواب الفن، أنا اقتربت أكثر من تبات السياسة، وكل من عرفتهم من الفنانين كانوا أصدقاء أكثر منهم فنانين فى واقع الأمر.

لكن رسخ فى يقينى مبكرًا جدًا أن الفن لا يعنى الفوضى، فالفن يعنى الالتزام بقواعد وقانون ونظام، وهذا لا يزيل البهجة من الحياة، ولا يجعل منك إنسانًا آليًا، الفوضى مع الهواية لا تنتج عملًا عظيمًا ولا تبقى على الإبداع متواصلًا.

أم كلثوم أحبها وكانت صديقة، وأنا واحد من الناس كنت أسمع أم كلثوم ربع ساعة فقط.

يوم زواجى أرادت أن تحيى فرحنا، والمشكلة أنه لم يكن هناك احتفال، لأننا نحن الاثنين لا نحب حكاية الأفراح، واقترحت هدايت أنه إذا أرادت أم كلثوم أن تهدينا حفلًا، فليكن لصالح جمعية، وهى جمعية النور والأمل، التى كانت هدايت عضوة نشيطة فيها، وكانت تهتم بالفتيات الكفيفات، أقيمت الحفلة التى أحيتها أم كلثوم فى سينما راديو، جلسنا فى الصف الأول، كنا أصحاب الحفل طبعًا، أخذت هدايت وذهبنا إليها بعد الوصلة الأولى فى الاستراحة.

قالت لى: اسمع بقى أنت قعدت الوصلة بحالها، أنا عارفاك بتتعذب يا ولد.

قلت لها: أنا مستمتع جدًا.

فقالت لى: معلشى علشان خاطرى روّح بقى، كفاية عليك الوصلة الأولانية.

قلت لها: حاضر.

كنت قد سمعت بما فيه الكفاية فى هذه الوصلة، وكانت تعرف صعوبة الاستمرار بالنسبة لى، خاصة عندما تكون الأغنية الواحدة ساعة ونصف ساعة أو ربما ساعتين.

من بين ما أذكره عنها أننى زرتها بعد عودتها من زيارة إلى الأراضى المقدسة.

قلت لها: هيه.. ماذا قلت وأنت واقفة أمام الروضة الشريفة، قبر الرسول صلى الله عليه وسلم؟ هل همست فى نجواك بإحدى أغنياتك العابدة الخاشعة، التى تغنيها له وأنت هنا فى القاهرة؟

قالت أم كلثوم: اسكت.. لم أستطع أن أفتح فمى بكلمة واحدة.

قلت فى دهشة: أنت! أنت التى تغنى فى مدحه وفى سيرته أروع ما قيل فى مدحه وفى سيرته من قصائد كالهمزية النبوية ونهج البردة وإلى عرفات الله.

قالت أم كلثوم: نعم.. نعم.. أنا التى أجد نفسى فى مدحه وسيرته، هنا من على البعد، مثل البلبل، وجدت نفسى فى رحاب قبره وليس على لسانى كلمة واحدة.

واستطردت أم كلثوم: العجيب إننى عندما وجدت المدينة المنورة تبدو أمامى قابعة فى أحضان الرمال، ورأيت المآذن والقباب الخضراء، فوق الروضة الشريفة، أحسست بفيض جياش من المشاعر والأحاسيس، وأخذت أتحدث وأعبر عنها فى طلاقة، فلما وصلت إلى الروضة نفسها، ووقفت أمام القبر الطاهر، ران على الصمت وتملكنى السكون.

وقلت لأم كلثوم ضاحكًا: لم تستطيعى أن تذكرى ولا

قصيدة واحدة من أغانيك.

قالت أم كلثوم ضاحكة: تذكرت أغنية واحدة ولكن بعد أن خرجت؟

قلت لأم كلثوم: أيها؟

قالت: الأغنية التى أقول فيها (ولما أشوفك يروح منى الكلام وأنساه).

ومرة جلست بجوارها أسمع التجربة الأخيرة، لنشيدها الجديد الذى كتبه بيرم التونسى ووضع لحنه السنباطى.

أحسست عندما وصلت أم كلثوم إلى الفقرة التى يقول فيها النشيد: ثلاث دول يا بورسعيد متقدمة/ بدبابات وطيارات تملا السما/ الأولة داخلة البلاد مستعمرة/ والتانية بعد الانكسار متجبرة/ والتالتة على العرب متأجرة.

أحسست عندما وصلت أم كلثوم إلى هذه الفقرة، أن روح مصر كلها تقمصت كيان هذه السيدة الجالسة بجانبى، أحسست أن مصر نفسها متجسدة فى كيان هذه الفلاحة العظيمة من السنبلاوين، واقفة على شاطئها المنتصر، ترقب موجة البغى تنحسر عن رماله الطاهرة، تشيع غزاتها المندحرين بضحكة ساخرة، أقسى على أسماعهم من صراخ المدافع.

2

فى يوم كنت فى بيت محمد عبدالوهاب، وفوجئت بوجود صلاح نصر وشمس بدران عنده، أبديت استغرابى من أن محمد عبدالوهاب يعزم الاثنين عنده بالذات، وأن يكونا معًا عنده فى بيته.

عبدالوهاب كان شديد الذكاء، لمح استغرابى ودهشتى، بعدها قمت من أجل الكلام فى التليفون، فجاء عبدالوهاب ورائى.

سألنى: هل استغربت من وجودهما؟

قلت له: لا.

فسألنى: قولى يا خويا مش الاتنين دول همه بالضبط الشديد والقوى؟

ثم استدرك شارحًا: أنت تعرف أنهم بالبلدى يقولون عن إنسان الشديد أو القوى، وأنا أقول عنهما الاثنين معًا: الشديد القوى.

ضحكت جدًا من كلامه، وفى اليوم التالى حكيت الحكاية لجمال عبدالناصر فضحك منها وعليها.

وعندما اختلفت مع الرئيس أنور السادات، وعرف الكل ما جرى، فى اليوم التالى لخروجى من الأهرام اتصلت بى أم كلثوم قاصدة إشعارى بالوقوف معى، وبأنها تريد أن تعبر عن ذلك، وقد وصلتنى رسالتها غير المباشرة فعلًا.

عبدالوهاب مثلًا لم يفعل ما فعلته أم كلثوم، عبدالوهاب اختفى، لم أسمع صوته، وظل صمته مستمرًا إلى أن نشر فى الصحف أننى معروض علىّ منصب نائب رئيس الوزراء ووزير الإعلام، وكان ذلك فى وزارة ممدوح سالم، التى اعتذرت عن دخولها.

كلمنى محمد عبدالوهاب فى ذلك الصباح.

قال فورًا، بعد السلام والتحيات والأشواق: أهلًا يا ألف مبروك.. بقيت وزيرنا.

قلت له: أنا اعتذرت.

قال لى: إيه يا خويا؟

قلت له: أنا اعتذرت عن الوزارة.

قال لى: يعنى إيه اعتذرت عن الوزارة؟

قلت له: مش داخل الوزارة؟

سألنى: فعلًا.. فعلًا؟

قلت له: فعلًا.

قال لى: غريبة قوى إزاى كده؟

قلت له: اللى حصل.

قال لى: طيب.

ولم أسمع صوته بعد ذلك.

بعد سنوات التقينا فى عيادة طبيب أسنان مشهور، فوجدته يقول لى: إنت ورئيس الجمهورية بتتخانقوا أنا دخلى إيه بقى؟

ومن بين ما أذكره لعبدالوهاب ولا أستطيع أن أنساه أننى عندما كنت فى السجن كنت أتذكر أغنيته التى كتب كلماتها أحمد شوقى وفيها يقول: الفجر شقشق ولاح على سواد الخميلة.

3

ذات يوم عام 1946 جاءنى كامل الشناوى، وكنا أصدقاء وقال: منيرة المهدية حتغنى تانى، فاندهشنا، وذهبنا لسينما أوبرا والست ليس ذنبها، فالذوق العام تجاوزها، لأن الزمن لا يقف، الإيقاع العام تجاوزها، والكلمة تجاوزتها واللحن تجاوزها، يعنى أنت جئت بلحظة من الزمن مضت وتريد أن تلصقها بزمن جديد كأنه رقعة.

لما سألنى كامل الشناوى بعد الحفل، قلت له: يا راجل حرام عليك.. حرام ترجع.

أنا واحد من الذين فهموا اعتزال محمد عبدالوهاب واعتبرته أذكى قرار اتخذه، فإذا كنت تحترم قيمة الزمن،

فجزء من احترامك له أن تكون مدركا لحركته ومعدل هذه الحركة، وإذا تخيلت أنك قادر على وقف حركة الزمن وتتعلق به كأنه ترماى أو قطار وتقفز فيه، كل هذا ليس أكثر من لعب، فالماضى لا يستعاد.

من الممكن أن تكون هناك مشاعر حنين، هذه مشاعر إنسانية ولكن أنا أجدها مخالفة جدًا لتصوراتى ولفكرتى عن الزمن.

4

عندما كتب كامل الشناوى أغنية لأم كلثوم وقال فيها (عندى جمال)، اعترض عبدالناصر عليها، كان ذلك سنة 1960، وبعد وضع حجر الأساس للسد العالى وحرب السويس والوحدة مع سوريا، تحولت الأغانى الوطنية إلى طوفان، وتحدث عبدالناصر بنفسه مع أم كلثوم وقال لها: أنا ضد ذكر اسمى، فجرى تغيير المقطع.

عبدالحليم حافظ كان شيئًا مختلفًا، منحناه كل الحب الذى فى صدورنا، وظللت طوال عمرى أشعر بحنين لصوته وللزمن الذى غنى فيه، كان عبدالناصر يعتبره نتاجًا لثورة يوليو، صوت الثورة ومطربها.

مرة عمل عبدالحليم حافظ حاجة غريبة، لم يعرف كيف يتصرف فيها، وقد واجهها بحيرة كاملة.

كان قد بدأ يسافر للخارج وأصبح نجمًا، وكان يسمع أن الرئيس يحب أربطة العنق، جاء حليم مرة لبيت عبدالناصر، وأنا كنت موجودًا، كان من عادته أن يصل إلى البيت ويجلس مع أولاد الرئيس الذين كانوا فى سن الصبا، ويثير حالة من الفرح الإنسانى النادر فى كل مكان فى البيت، كان يزيط ويهرج مع الأولاد، وكان الرئيس يحبه جدًا.

دخل حليم على الرئيس وفى يده شىء ما، دستة من الكرافتات، وعبدالناصر قال له: شوف يا حليم أنا حاخد واحدة فقط، بس ما تعملهاش تانى أبدًا.

قال له حليم: طيب سيادتك اختار.

رد عبدالناصر: أنا حاخد واحدة بالبخت دون اختيار.

ذات مساء وبينما الكل فى انتظار الغزو- فى يونيو 1956 بعد انتخاب عبدالناصر رئيسًا لمصر- كنت مع الرئيس فى مقر قيادة الثورة، فوجدت عبدالناصر يزرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، بمزاج معتكر، بعد سماعه أغنية إحنا الشعب، كلمات صلاح جاهين وألحان كمال الطويل، والتى يغنى عبدالحليم فى بدايتها: إحنا الشعب.. اخترناك من قلب الشعب.. يا فاتح باب الحرية يا ريس يا كبير القلب.. يا حلاوة الشعب وهو بيهتف باسم حبيبه.. مبروك ع الشعب خلاص السعد حيبقى نصيبه.. وإحنا اخترناك وهنمشى وراك.. يا فاتح باب الحرية يا ريس يا كبير القلب.

ألهبت الأغنية خيال الجماهير، وغنوا والفرحة الغامرة وحرارة التفاؤل تملأ قلوبهم مع حليم، وأخذ كل إنسان يرددها وينشدها مؤمنا بالمستقبل الواعد الذى سوف يتحقق على يدىّ عبدالناصر، وكان حليم قد أصبح أوسع المطربين شهرة.

توقف عبدالناصر أمام المقطع الذى يغنى فيه: ياللى بتسهر لجل ما تظهر شمس هنانا.. إحنا جنودك سيبنا فى إيدك مصر أمانة.

قال لى: إن مصر فعلًا فى ظرف خطر وهى فعلًا مرهونة على حسن تصرفنا وعلى شجاعتنا فى المواجهة، لهذا لا بد أن نبذل كل ما فى وسعنا لحمايتها وإنقاذها.

4

قالت لى شادية: اسمع هذه الأغنية، وقل لى ماذا فيها لكى تمنعها محطة الإذاعة؟

وبدأت شادية تغنى أغنية عن الحب تقول (أوله دردشة..

وآخره وشوشة)، وانتهت شادية وتطلعت إلى تسألنى: هل فيها شىء يجب أن تمنع من أجله.

قلت على الفور: أجل فيها.

قالت: ماذا فيها؟

قلت: فيها خربشة.

5

أحب فيروز فى القصائد، وهى تعلم بإعجابى، والرحبانية يعرفون أيضًا، أنا أحب الكلمة المغناة الواصلة بالنسبة لى.

6

جمال عبدالناصر كانت تلفت نظره أى موهبة تظهر فى أى مكان من العالم غير مصر، ولم تكن عنده شوفينية ولا أحاسيس أو مشاعر أو مواقف موجهة ضد الوطن العربى، فعروبة جمال عبدالناصر وقوميته لا يرقى إليهما الشك، ووقوفه ضد دعاوى الفرعونية فى مصر، أيضًا مسألة مؤكدة.

وموقفه من المواهب التى قد تظهر فى الوطن العربى لم يكن غيرة، تلك الغيرة الإنسانية التى قد نفهمها نحن، عبدالناصر كان عنده إعجاب حقيقى بفيروز، لم يكن يستطيع أن يخفى إعجابه بفيروز ووديع الصافى، كانت هناك أصوات يسمعها ويحبها بلا حدود.

كان من أمنياته أن يكون عندنا هنا فى مصر لون من الغناء، الذى هو لون فيروز ووديع الصافى حيث صوت الجبل، كان يحلم بوجود هذا الصوت فى مصر.

وقد حدث أن سمع جمال عبدالناصر بالصدفة البحتة عفاف راضى وهى تغنى.

كان من عادته عندما يسافر إلى خارج مصر، أن يفتح الراديو على القاهرة دائمًا وأبدًا، ويستمر هكذا طوال الوقت،

مهما كان المكان الذى نكون فيه، وكان يستمع إلى أى مواد من راديو القاهرة، بصرف النظر عن كونها أعجبته أم لا.

حتى عندما يكون فى عمل أو يتناول الطعام أو فى فسحة، تكون إذاعة القاهرة فى الخلفية، سواء كان فيها غناء أو دراما، أو مواد سياسية، المهم أن يكون مع القاهرة والسلام.

يومها لفت جمال عبدالناصر نظرى إلى صوت عفاف راضى.

قال لى إنها موهبة، صوتها فيه حاجة وعينة فيروز، ولو أن أحدًا اهتم بها فى الإذاعة، ووفروا لها ملحنين كويسيين يمكن تصبح عفاف راضى فيروز أخرى، فأرجوك تهتموا بها، ثم عدنا وحدثت أمور أخرى وجدت ظروف مغايرة.

7

قابلت كمال الطويل الذى أعطى عبدالحليم حافظ بعضًا من أفضل ألحانه.

سألته: إنت فين؟

أجابنى: أنا أعمل فى مناخ كامل ولا يوجد الفنان الذى يعمل بمفرده.

وكان ما قاله صحيحًا.

8

حين مات أنور وجدى فى مايو 1955 نشرت مجلة (آخر ساعة) وكنت رئيسًا لتحريرها صورة للصندوق الذى وضعت فيه جثته، ويومها جاءنى من قال لى على لسان السيدة ليلى فوزى أرملة أنور وجدى: أليس هذا استغلالًا لمأساة إنسانية حزينة.

ويومها قلت من غير لف ولا دوران: أجل. بيدها الحق وأنا آسف.

ثم استطردت قائلا: مسكينة.

فى فبراير 1956 قرأت إعلانًا عن فيلم تقوم ببطولته السيدة ليلى فوزى اسمه (الأرملة الطروب)، وسألت نفسى: أليس هذا استغلالًا لمأساة إنسانية حزينة؟

وهززت رأسى واستطردت مسكين.

9

بعد الثورة بشهور كان هناك فيلم يعرض اسمه (فيفا زاباطا) عن الثورة المكسيكية، أو عن محاولة إصلاح أحوالها، وفى النهاية فشلت هذه الثورة وانتهت إلى لا شىء، وكنت قد ذهبت إلى السينما، وشاهدت الفيلم وسعدت به وأعجبنى.

اقترحت على جمال عبدالناصر أن يذهب معى إلى السينما، فذهب ومعه عبدالحكيم عامر، وفى الأسبوع التالى طلب منى دعوته ومعه عبدالحكيم وعبداللطيف البغدادى، وكان معنا إما زكريا محيى الدين أو كمال الدين حسين وكانوا يشاهدون الفيلم للمرة الثانية.

دفعت ثمن التذاكر كلها، وفى السينما كنا نجلس على شكل صف واحد، وعندما جلسنا وأذكر هذا جيدًا، كانت الناس تنظر إلينا، وقبل أن يبدأ العرض سمعنا نشيد: (على الإله القوى الاعتماد بالنظام والاتحاد والعمل)، وقد كان النشيد الخاص بالثورة، ووقف الجميع لحظة سماع النشيد، والناس كلها كانت تردد هذا النشيد بحماس منقطع النظير.

وفى فبراير 1956 شاهدت فيلم (صراع فى الميناء)، ورأيت فاتن حمامة بعد أن كبرت، آخر مرة رأيتها فيها على الشاشة كانت عندما ظهرت مع عبدالوهاب طفلة فى فيلمه القديم (دموع الحب) فى عام 1941.

دخلت الفيلم مصادفة، وخرجت منه وفى عزمى ألا أنكر الشهادة، وأن أقول كلمة الحق، وأنا لم أر فاتن حمامة شخصيًا فى حياتى حتى هذا الوقت، وكذلك لم أر زوجها وبطل فيلمها

عمر الشريف.

كان رأيى فى عمر الشريف من مجرد رؤية صورته فى الصحف لا يرضيه كثيرًا، ولو كان لى أمر عليه لأخذته من يده إلى أقرب حلاق وطلبت منه أن يحلق له (شوشته) التى ينكشها على مقدمة رأسه فتوة وشبابًا.

ورغم أننى لم أكن أعرف كاتب القصة أو واضع السيناريو أو مخرج الفيلم، لكننى وللحق خرجت معجبًا بكل هؤلاء.

بفاتن حمامة التى أدت دورها ممثلة رائعة.

وبعمر الشريف برغم (شوشته) المنكوشة على رأسه.

وبكاتب القصة وواضع السيناريو.

وقبل هؤلاء جميعًا بمخرج الفيلم.

لم يكن الفيلم كما تعودنا أن نرى دائمًا قصة بنت الباشا الهاربة مع سائق سيارته، ولم يكن فى الفيلم رقص بطن، ولم تكن فيه أغان تحشر بين المشاهد والسلام.

كان الفيلم قطعة من صميم الحياة، قطعة فيها فكرة، ولها روح ووراءها هدف، ولقد خرجت من الفيلم وأنا مؤمن أن الدولة يجب أن تغير سياستها تجاه السينما المصرية، ما دامت السينما المصرية قد بدأت تغير اتجاهها أيضًا.

لقد كنت حزينًا لمأساة السينما المصرية، وأنا أكره أن تضمحل السينما المصرية كفن وصناعة.

فى يناير 1957، رأيت فيلم (بنات اليوم) الذى يمثله عبدالحليم حافظ وأمامه ماجدة، والذى أخرجه بركات، إذا لم أقل أنه جهد رائع من جميع نواحيه، لكنت بذلك أكتم شهادة حق لابد أن أؤديها، لقد أثار الفيلم أمامى أزمة السينما المصرية، مع أن السينما المصرية موضوع بعيد عما أتعرض للكتابة فيه عادة.

ينبغى ألا تموت السينما فى مصر، وينبغى ألا تترك بين الموت والحياة تحت أعباء الأنقاض التى خلفتها لها التجارب التى مرت بها، لست خبيرًا ولا أنا أحاول ادعاء الخبرة، إن الذى تحتاج إليه السينما المصرية هو: فهم من الدولة لرسالتها، إعطاء درس للرقباء يضع لمحات من النور فى رءوسهم، إبعاد العناصر الدخيلة التى تشبه فى هجومها على السينما المصرية غارات التتار، فى نفس الوقت الذى تبعد فيه العناصر التى تريد انتهاز فرصة ربح سريع بأى شكل وأى ثمن.

10

فى أبريل 1957 وكنت جالسًا فى أحد نوادى القاهرة الكبرى، سألتنى إحدى السيدات دون مقدمات: ألا تعجبك رقصة (روك أند رول)؟ إن الدنيا كلها مجنونة بها، إنها آخر حركة فى فن الرقص.

قلت لها وأنا أتابع عن قرب راقصى (روك أند رول) بالقرب منى: الحقيقة أنها لا تعجبنى.

قالت: إذن أنت رجعى.. لا تستطيع تقبل الأشياء الجديدة.

وقالت: هذه الرقصة ليست شيئًا جديدًا، كان أجدادنا فى الغابة يرقصونها عندما يجرى رجل منهم يطارد امرأة ثم يمسك بها، وتقاوم فيشدها، وتجرى فيخبطها فى الأرض، والفرق بين عهد الغابة وعهدنا أنهم لم يكونوا يسمونها (روك أند رول) وإنما كانوا أكثر صراحة، فسموا الأشياء بأسمائها.

تطلعت إلى فتى وفتاة يرقصان (روك أند رول) وكان يشدها ويدفعها، ثم يحملها فيضعها على صدره، وإحدى ساقيها فى ناحية من صدره والساق الأخرى فى الناحية الثانية، ثم قلت لسائلتى وأنا أهز رأسى متحسرًا: لو كانت ابنتى لكنت قطعت رقبتها.

قالت: يا ساتر.. الحمد لله أنه ليس لك بنت.

قلت: أجل.. الحمد لله. مع أننى كنت أتمنى أن تكون لى

بنت، لكنى غيرت رأيى بعد رقصة (روك أند رول).

11

تشدنى موسيقى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وأنا مدين فى تعلقى بالموسيقى العالمية لعقلية الدكتور محمود عزمى، كنا نجتمع فى بيته كل يوم خميس نتحدث ونتحاور، ثم نصغى إلى قطعة موسيقية مما هيأ لى إمكانية تذوق تلك الموسيقى.

وظللت لسنوات زائرًا دائمًا تقريبًا لمهرجان موزارت الذى يقام فى مسقط رأسه فى مدينة سالزبورج بالنمسا، وظنى بأن كارايان هو أفضل قائد أوركسترا لموسيقى موزارت، وبعد كارايان الذى توفى فى العام 1989، تلاشى جزء كبير من مذاقه.

فى عام 1985 كان كارايان فى قمة توقده، وقد باغتنى اثنان- ابنى الأصغر حسن ورئيسة وزراء بريطانيا مارجريت تاتشر- لم يتمكنا من كتم مشاعرهما عندما كان يقود الأوركسترا، فإذا الدموع تسيل من شدة التأثر وتتحول إلى بكاء مكبوت.

أما عن الموسيقى العربية، فكنت أعتبر طوال الوقت أنه لم يتبق من النغم الشرقى الأصيل سوى التواشيح الدينية والموشحات الأندلسية والمدائح الدينية والنبوية والصوفية والمواويل.

ظللت طوال حياتى مولعًا بالتواشيح (الشيخ سيد النقشبندى مثلًا).

ومفتون بالموشحات (المطربة الكبيرة فيروز مثلًا).

المدائح تحرك مشاعرى (أحمد التونى مثلًا).

وتأخذنى المواويل (كان وديع الصافى بظنى آخر نجوم فن الموال).

ينسى البعض أحيانًا أن فن تلاوة القرآن (تجويد ومقامات وغيرهما من فنون التلاوة) كان جزءًا منه موسيقى، وأعتقد أن أنغام محمد عبدالوهاب وكمال الطويل ورياض السنباطى ومحمد القصبجى والأخوين رحبانى استطاعت أن تجدد الموسيقى العربية وتواكب العصر.

لقد حاولت أن أفهم موسيقى العصر.

من موسيقى الجاز، وهى خفيفة راقصة بإيقاعات متنوعة تعبيرًا عن الحياة السلسة فى تناولها والرشيقة فى إيقاعها.

إلى موسيقى الروك، وهى تعبير عن سرعة القرن العشرين ووسائل مواصلاته من السيارة والطائرة حتى المكوك والصاروخ، مستوحية إيقاعاتها من صيحات الغرائز الأولى للإنسان وأنفاسها المتتابعة وعرقها المتدفق تعبيرًا عن عصر الريبة والهذيان والتخبط، وأبرز نجومه ألفيس بريسلى.

وقد وصلت إلى موسيقى الراى، وهى صيحة الفن فى المغرب العربى والمدوية فى العالم فى تسعينيات القرن العشرين، وأبرز نجومها مجموعة من الشباب كخالد ومامى.

لم أستوعب أيًا من الموسيقات الثلاث، لكننى أفضل أغانى فرانك سيناترا بصوته العميق، وخوليو إجليسياس، صوته سر تفوقه، وله طريقته الإبداعية عن غيره، لكننى بطبيعتى أنحاز للموسيقى على الغناء.

فى السنوات الأخيرة جرت أشياء لا أتصور نفسى مندمجًا فيها مثل الأغنية الشبابية، لقد رأيت فى برنامج تليفزيونى أغنية تسمى (بابا أوبح) لم أستطع الاندماج فيها.

هناك فرق بين أن تندمج أو تتابع ما يجرى، عندما تشعر بالاغتراب معناها أن المشكلة فيك وليس فى الآخرين.

وفى الحقيقة لم أكن أعرف أحدًا من نجوم الغناء الجدد فى عالمنا العربى، كان آخر عهدى بالغناء هو عبدالوهاب وأم كلثوم وعبدالحليم وفيروز ومن واكب عصرهم من نجوم

المغنى والطرب.

فى العهد الملكى هناك من كان يغنى لوديان المشرق (يا شراعا وراء دجلة يجرى) و(سلاما من صبا بردى أرق).

وفى عهد ناصر بكل ما يمثله من عنفوان ثورى وامتلاك الإرادة غنى حليم (لا حسلم بالمكتوب ولا حرضى أبات مغلوب).

لكن فى السنوات الأخيرة كنت أجد طبلًا وزمرًا وهز خصور على إيقاعات بدائية وأنغام صحراوية بجلجلة صاخبة وحائرة ومترددة أخفقت فى ابتكار لحن وعجزت عن استيحاء نغم.

12

ذهبت إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإجراء ثلاثة تحقيقات عن الرأسمالية الكبيرة التى تحكم أمريكا، وعن التمييز العنصرى ضد السود، والجريمة المنظمة ودور عصابات المافيا فى الحياة الأمريكية.

كانت الملكة نازلى تسكن فى مدينة لوس أنجلوس شارع (تاور رود) والبيت كان مزودًا بحمام سباحة، وهناك تعرفت هى على كثيرين من نجوم هوليوود، وقد تحولوا ضيوفًا لبيتها ومتواجدين فى حفلاتها.

كانت قصة غرام الأميرة فتحية مع رياض غالى، موظف السلك الدبلوماسى فى قنصلية مصر فى سان فرانسيسكو، قد بدأت بالتصاعد، وهكذا كان موضوعى الرابع الذى أغطيه، وذهبت لمقابلة الملكة نازلى، وكان ضمن ما سألتنى فيه عن مكان إقامتى؟

قلت لها: فى فندق هوليوود بلازا.

قالت: تعال الليلة وأسهر معنا، سيكون معنا على العشاء الفنانة (ماريون ديفيز).

قلت لها: ياه دى من زمن السينما الصامتة.

قالت الملكة: إذن، مَن يعجبك من نجمات هوليوود وترغب بمقابلتها؟

فقلت لها: لانا تيرنر.

قالت الملكة: إذن موعدنا فى السادسة مساء، انتظر فى ردهة الفندق، سأرسل لك سيارة كاديلاك تأتى بك.

فى الساعة السادسة تقريبًا، كنت جالسًا فى الردهة، وأصداء جلبة وصخب فى الخارج، ثم ناس مجتمعون حول نجمة سينمائية شهيرة، والمفاجأة كانت (لانا تيرنر) بنفسها، وقد اتجهت لموظف الاستقبال تطلبنى بالاسم، وعلمت أن الملكة نازلى التمست منها أن تمر علىّ لتأخذنى معها، وهكذا رافقت نجمتى المفضلة، وأنا فى شدة الحياء وفى مأزق مؤلم.

لم أنظر إليها على طول الطريق، فقد أغاظنى منظر الناس وهم يروننى بجوارها، ونحن نهبط سلم الفندق، وروت لانا تيرنر للملكة نازلى كل ما حدث وقالت لها إننى لم ألتفت إليها على طول الطريق، فقالت لها الملكة نازلى: هو فلاح مصرى، والفلاحون لا يمكنهم رفع أعينهم فى النساء.

فى أكتوبر 1956 كنت عائدًا مع مصطفى أمين على الطائرة العائدة من نيويورك فى طريقها إلى باريس بعد مهمة صحفية، جاءتنا مضيفة الطائرة الجميلة تقول: هش، وتطلعنا إليها فى فضول.

قالت: هل تعرفون من سيركب معنا الآن قبل أن تقوم الطائرة؟

قلنا: من؟

قالت: مارلين ديتريتش نجمة السينما الشهيرة، وصاحبة أجمل ساقين فى الدنيا.

تراجعت المضيفة الجميلة تفسح الطريق لمارلين، ودخلت

نجمة السينما المشهورة فألقت علينا جميعا نظرة خاطفة، ثم اتجهت على الفور إلى السرير المحجوز لها على الطائرة.

بدأ مصطفى أمين يهمس فى أذنى كيف أن مارلين ديتريتش كانت بطلة أحلامه أيام المراهقة، وكانت بطلة أحلام شباب الدنيا كلها فى ذلك الوقت منذ ما يقرب من ثلاثين سنة.

أقبلت مضيفة الطائرة تقول لمصطفى أمين: ألا تريد أن تنام؟

وسألها مصطفى عن موضع سريره، فإذا هى تشير إلى السرير الذى يعلو سرير مارلين ديتريتش مباشرة.

سألته المضيفة: هل أضع لك السلم لتصعد عليه إلى فراشك؟

تلفت مصطفى حوله كمن وقع فى ورطة ثم قال للمضيفة: ألا تريننى رجلًا طويلًا عريضًا، ماذا لو صعدت إلى هذا السرير العلوى فلم يتحمل وزنى وسقط بى على مارلين ديتريتش؟

استدار مصطفى أمين يسألنى: ما رأيك لو أخذت سريرى فوق مارلين وأخذت أنا سريرك؟

قلت له بسرعة: أبدًا وما ذنبى أنا ولم تكن هى فى يوم من الأيام حلمى؟.. اذهب أنت لقد كانت فى يوم من الأيام حلمك على أى حال.

ضحك مصطفى وقال: لقد كبرت.. إننى أفضل الآن أن أحلم وأنا جالس على مقعدى هنا.

عرفت كذلك النجمة (لويز رينر)، وقد تحولت إلى صديقة، فقد كانت مقترنة من روبرت كنتيل مدير نشر فى ويليام كولينز وهى أكبر دار نشر بريطانية والتى تملك حقوق نشر كتبى، وكان زوجها الثانى وهو للمفارقة مولود فى مصر، وكانت أسرته تعمل فى تجارة القطن فى مدينة الإسكندرية.

لم أكن أرى مارلين مونرو رمزًا للإغراء الأنثوى، لا شك أنها كانت تملك مسحة من سحر ولمسة من جاذبية، خاصة أنها ومضت بغتة كشعلة فى هوليوود، وكذلك خبت فجأة، وقد رحلت وهى فى حدود السادسة والثلاثين، بمعنى أن جمالها أدرك غايته، ورغم أن الإعلام أطلق عليها فى البداية (الشقراء الغبية) إلا أن زواجها من المسرحى آرثر ميلر، ثم دخولها بعلاقات مع الأخوين كيندى (جون وروبرت) وعملها كعارضة أزياء ثم ممثلة فى هوليوود أعطاها تجربة بطريقة أو بأخرى.

لم أنجذي إلى مارلين مونرو أبدًا، ولكنها كانت بلا شك تكوين أنثوى مثير.

فى السنوات الأخيرة لم أعرف أحدًا من نجمات هوليوود، أصبح ما يلفت نظرى هو دقة الأداء، أكثر من لمسة الجمال.

13

لم أكن من هواة المسلسلات الدرامية، لكننى كنت قد رأيت بعض حلقات مسلسل (ليالى الحلمية) وعندما غبت لظروف عمل طلبت أن تسجل لى الحلقات التى لم أتابعها، وعندما عدت شاهدتها كاملة، وأعتقد أن ليالى الحلمية تخرج عن نطاق العمل الفنى لتصبح حدثًا ثقافيًا وسياسيًا.

وفى بداية عرضها وعندما عرض إلى جوارها مسلسل (رأفت الهجان) شعرت أن المسلسلين قد قاما بعمل يقظة فى الضمير المصرى الذى استيقظ للصراع العربى الإسرائيلى مرة واحدة، واستيقظت فيه خلجة التنبه، لقد نجحت ليالى الحلمية لقربها الإنسانى من الناس، إلى جوار فكرة ممتازة وحوار ممتاز وسيناريو رائع.

أعجبنى فى ليالى الحلمية العمدة صلاح السعدنى ويحيى الفخرانى اللذين كانا عملاقين، وصفية العمرى فى الأجزاء الأخيرة كانت فنانة حقيقية عندما أصبح الدور يعتمد على أدائها أكثر مما يعتمد على شكلها.

14

فى أحد معارض الفنانة التشكيلية تحية حليم سألت نفسى: لماذا أنا هنا الآن داخل إطار يبدو بعيدًا عن موطنى الطبيعى باعتبارى كائنًا عاش عمره ومارس عمله وسط مواقع الصحافة وقرب مواقع السياسة.

ولاختصار الطريق إلى إجابة واضحة قلت إننى من البداية واحد من الذين يعتقدون أن الفن هو الأب الحقيقى للثقافة فى جميع مجالاتها، ثم إن الفنون التشكيلية هى الحلقة الرئيسية فى قصة الصعود المدهش على سلم الحضارة الإنسانية.

كثيرًا ما كانت تحية حليم تأتى إلى مكتبى، تحدثنى عن خواطرها وأحوالها.

وكثيرًا ما ذهبت إلى مرسمها أتابع ما تفعل، وأحثها على زيادته.

ومن سوء الحظ أنها فى السنوات الأخيرة من عمرها توقفت عن الرسم لأن أعصاب يديها لحقها التهاب جمّد أصابعها معظم الوقت، وسواء جاءت تحية إلى مكتبى أو ذهبت إلى مرسمها، فقد كانت فى كل الأحوال نفس المخلوقة المندهشة بكل شىء، والمطمئنة الخائفة فى نفس واحد، والمتوجسة بالمفاجآت حتى حين لا تكون هناك مفاجأة، وكنت أرحب بها حين ألقاها بوصفها الفنانة الحائرة بين القطط المقيمة والعصافير.

لى وحدى
حياتى بعيدًا عن الآخرين
1

فى حياتى خسرت أشياء كثيرة، لكنى أعرف أننى عشت أيضًا حياة رائعة.

بهذه النظرة كانت فى حياتى ثلاث مستويات من الفرح، عام ومهنى وشخصى.

على المستوى العام يأتى يوم الخميس 26 يوليو 1956 عندما اتخذ جمال عبدالناصر قرار تأميم قناة السويس تصحيحًا لجريمة تاريخية وسعيًا وراء ربح مصرى مشروع، وإذا الدنيا تقوم كلها على أطراف أصابعها، تحبس أنفاسها المبهورة وهو لم يفرغ بعد من قراءة باقى مواد القانون.

ويأتى يوم 6 أكتوبر 1973 فى الساعة الثانية ظهرًا، عندما اتخذ أنور السادات وحافظ الأسد قرارًا مصيريًا بقبول التحدى، والقرار كان يعنى وقتها امتلاك الإرادة، وقيام الجيشين المصرى والسورى باجتياز حائط الخوف، عبر عبور قناة السويس واقتحام خط بارليف، بينما القوات السورية تتخطى جميع تحصينات العدو فى الجولان، وتتقدم بسرعة نحو مدينة القنيطرة.

كانت عاصفة برق ورعد، وكانت ملحمة شجاعة وتضحية، وكان الجندى العربى قد حقق بالعبور ما يشبه المعجزة، ودون تجاوز فقد تغيرت خرائط واهتزت عواصم وتلاشت صور وتصحح خلل الموازين، وتبدى تماسك الأمة العربية وتناسقها، بغض النظر عن الصور النهائية المتباينة مع البدايات.

فى الساعات الثلاث بعد ظهر السادس من أكتوبر 1973، كانت مصر وسوريا والأمة العربية كلها، قد اجتازت حائط الخوف كاسرة فى كل ساعة أسطورة.

فى الساعة الأولى انكسرت أسطورة العجز العربى عن اتخاذ قرار الحرب، وفى الساعة الثانية انكسرت أسطورة الخوف من العدو، وفى الساعة الثالثة انكسرت أسطورة قوة الردع الإسرائيلية التى لا تقهر.

وعلى المستوى المهنى فرحت أول مرة عندما طالعت اسمى مطبوعًا فى مطبوعة آخر ساعة.

وعندما انطلقت مع المقادير والتاريخ لتغطية الحرب والأحداث (1947- 1952).

وعندما عينت رئيس تحرير.

كنت أصغر رئيس تحرير (29 سنة) فى مصر يوم السبت 14 يونيو 1952 رئيسًا لتحرير آخر ساعة.

وعلى المستوى الشخصى أسعد لحظاتى تكون فى وجود أبنائى الثلاثة حولى، بالرغم من أن أحدهم يناقشنى والثانى يحاسبنى والثالث يجادلنى، لكننى أشعر بفرح غامر معهم ومع أحفادى.

2

لعلى لا أبكى، لكن فى بعض الأحيان النادرة جدًا بكيت لأسباب عامة.

كانت المرة الأولى يوم الأربعاء 20 أكتوبر سنة 1948 وأنا أرى الجيش المصرى يستعد للانسحاب من مدينة المجدل، وقفت على سفح الهضبة العالية التى تقبع فوقها غزة، ولم أشعر إلا وأنا أغطى عينى بيدى باكيًا أنهنه وأذرف الدموع كأنها جمرات نار.

المرة الثانية كانت يوم السبت 2 يناير 1952، يوم أحرقت القاهرة، كنت فى مكتبى فى جريدة أخبار اليوم، وخرجت فور سماعى خبر اشتعال القاهرة بالنار، إلى شارع فؤاد وإلى شارع سليمان باشا وإلى شارع قصر النيل وإلى

شارع إبراهيم باشا، كانت ألسنة اللهب فى كل مكان، وكانت الفوضى هى التى تحكم وتملك.

كانت الشوارع مغطاة بالرماد وبقطع الخشب التى ما زالت تشتعل والنار تسرى فيها بعد أن أحالتها إلى فحم، وعاد إلىّ نفس الشعور الذى أحسست به فى غزة.

المرة الثالة كانت يوم الجمعة 9 يونيو 1967.

كان يومًا طويلًا مع الرئيس جمال عبدالناصر، بدأ من السابعة صباحًا حتى السادسة مساء، وكان الهدف الأساسى من المقابلة هو مشروع خطاب التنحى الذى سيقدمه للأمة بعد الأحداث المروعة التى غطت وجه منطقة الشرق الأوسط كلها بالنار والدم من 5 يونيو ولأيام عصيبة تالية.

فى الدقيقة الأخيرة من اليوم كان سؤال ناصر الأخير عن علاقتى بزكريا محيى الدين.

قلت له إننى لا أنوى تكرار ما قمت به معه، ولكننى قابلًا تكليفه لى لمعرفتى بدقة الظروف حتى يتمكن زكريا من تسلم مسئولياته.

نهصنا نحن الاثنين وتصافحنا.

لمحت دمعة فى عينيه لأول مرة فى حياتى، واستدرت خارجًا من غرفة مكتبه، فلم أكن أريده أن يرى دمعة أخرى فى عينى.

لقد كنت متماسكًا على عكس الجميع.

الرئيس ناصر وزوجتى هدايت كانا فى حالة استغراب من تماسكى وصلابتى، أنا وقتها كان فى ذهنى فيلم شاهدته ربما سنة 1956 بعنوان (سوف أبكى غدا)، وقصة الفيلم ليس لها علاقة بالحرب أو الصراع لكن العنوان جذبنى.

فى هذه الحرب كان لى موقف معلن، وقد استشهد به وزير خارجية إسرائيل وقتها، آبا إيبان، فى مجلس الأمن، وهو

أننى قلت إن قرار قفل خليج العقبة يعنى الحرب، وقتها أيضًا الاتحاد الاشتراكى قلب الدنيا واتهمنى كالعادة بأننى أثبط الروح المعنوية.

ومع ذلك فإننى كنت كالباقى أصبت بحالة اكتئاب، لكن وأنت تحتل منصب رئيس تحرير صحيفة، وأنت مسئول عن ركن الفكرة فيما تمثله ثورة 23 يوليو، وتنشر جريدة صباح كل يوم، وتكتب مقالًا أسبوعيًا.

نعم فوجئت بما جرى وحجمه، ولكن هل تنكمش وتقع وتنهار؟ بينما ترى الناس تخرج وتتحدى وترقص وترفض نتيجة الصراع لحظتها، فلا بد حينها أن تقف معها وتبشر بأمل جديد، خصوصًا لأن هناك أسبابًا حقيقية لهذا الأمل الجديد.

ربما أننى كنت من الداخل ممزقًا، ما يثير حيرتى كان كمية الجلد للذات وللضمير المصرى والقوة المصرية والإرادة المصرية لا لزوم له، فكل أمة من الأمم واجهت كارثة ومحنة من فرنسا إلى اليابان، لكن فى وقت الأزمات التى تتحدد فيها مصائر أمم وشعوب لا تملك أن تترك نفسك للانفعالات، نعم كنت متماسكا لأن هناك مقادير.

وكانت المرة الرابعة فى أثناء اللحظة الرهيبة التى وقفت فيها بجوار فراش جمال عبدالناصر وهو يجود بالنفس الأخير.

لم أبكه لحظتها، بل بكيته يوم تشييعه.

يوم الخميس 1 أكتوبر 1970، لأنه كان رفيقًا حميمًا، وكان ظنى به دائمًا أنه ليس فقط إنسانًا عظيمًا وإنما تاريخ عظيم أيضًا، وأتممت أيامًا بعد الرحيل لا أقدر على التصديق، وأيامًا أخرى أعقبتها لم أتمكن من التخيل، فقد كانت هذه هى سفرته الأولى التى يذهب فيها ولا أكون رفقته.

ثلاثة أيام انقضوا بين لحظة الرحيل حتى هجع فى مثواه الأخير، كفنًا أبيض طاهرًا فوق فرشة من الرمال فى قبر أقيم

على عجل خلف مسجد بناه بنفسه.

بدأت الجنازة من مجلس قيادة الثورة القديم على النيل، وما إن طالعت النعش ولاحت لى حقيقة أن جمال عبدالناصر فى جوف هذا الصندوق لم أتمكن من مغالبة نفسى، وأجهشت بالبكاء نأيًا بنفسى خارج الصفوف رغم أننى كنت المرافق الرسمى لرئيس وزراء الاتحاد السوفيتى أليكسى كوسيجين.

المرة الخامسة كانت يوم السبت 19 نوفمبر 1977، يوم وصول الرئيس أنور السادات إلى القدس مساء، كنت قد غادرت القاهرة إلى الإسكندرية، لأبتعد عن مركز الحوادث منتهزًا فرصة إجازة عيد الأضحى، لكن ما كان يجرى له تأثير المغناطيس فى قوة جذبه مهما حاولت الابتعاد، وهكذ وجدتنى على شاطئ ستانلى فى الإسكندرية وأمامى طوال الوقت جهاز راديو أنتقل بمؤشره بين إذاعات العالم.

وأعترف على استحياء أننى لم أتمالك نفسى حين سمعت إذاعة القاهرة تتحدث عن ترتيبات، وتقول أول ما تقول إن سربًا من مقاتلات سلاح الجو الإسرائيلى سوف يخرج للقاء طائرة الرئيس السادات.

لم أتمالك نفسى ولا أعرف لماذا لحظتها، فإذا أنا أغطى عينى بكفى وأجهش فى بكاء، ولم أستطع ضبط مشاعرى إلا عندما أحسست بيد تمس كتفى فى رفق والتفت لأجد طفلى الصغير حسن يرقبنى بعينين تملؤهما الدموع والدهشة شاعرًا أن شيئًا ألم بى، ولكن مداركه لا تسعفه بتفسير هذا الذى لم يعهده فى من قبل.

أنبته والدته ملتمسة منه أن يعود إلى الكابينة.

المرة السادسة كانت يوم الإثنين 28 سبتمبر 1981 كنت فى سجن طرة.

جميعنا تقريبًا عزم على أن نحيى ذكرى ارتحال الرئيس جمال عبدالناصر كنوع من التصدى لكل ما كان جاريًا، كان الرئيس السادات أيامها فى بداية النهاية، فى الصباح سرت

شائعة بأنهم يجهزون معتقل جبل الطور فى صحراء سيناء لترحيلنا إليه قبل المغيب.

فى المساء تزاحم الخطباء يرثون الرئيس ناصر من خلال قضبان سجن السادات.

كنت منذ بداية اليوم أشعر أن هناك دمعة مترددة تغشى باب العين، لكنى لم أذرفها، ربما لأننا كنا نحيى الذكرى كنوع من التصدى لا من الألم، فى لحظة من لحظات هذا اليوم تذكرت تفاصيل اليوم الأخير من حياة ناصر، وتذكرت آخر كلماته فى آخر مكالمة تليفونية سمعت فيها صوته: أنا بحاجة إلى استراحة طويلة، وآخر لمحة ألقيتها على جثمانه، هى كلها تفاصيل لم تكن تفارق الذاكرة ولا القلب لا فى أيام الراحة ولا فى أيام الأسى.

كانت المرة السابعة يوم الثلاثاء 6 أكتوبر 1981، ساعة أن أبلغنى العقيد محمود غنام مأمور سجن طرة والعقيد صلاح شلبى ضابط المباحث نبأ اغتيال الرئيس أنور السادات.

تأكدت من الخبر، وعندها لم أستطع أن أذكر إلا أنه كان صديقًا، وإذا بالدموع فى عينى تجرى.

لقد عشت معه عشرين عامًا كأصدقاء، وكنت أعرف كيف كان ضعف السادات تجاه أصغر أبنائى حسن.

المرة الثامنة كانت بعد نشر مقالى (الاستئذان فى الانصراف) يوم الثلاثاء 30 سبتمبر والأربعاء 1 أكتوبر 2003.

حاولت جاهدًا أن أحبس دموعى طيلة الأيام التى تلت النشر، حيث فوجئت بتدفق المقالات فى الأعمدة والزوايا الصحفية داخل مصر وخارجها من أصدقاء وزملاء مهنة وغيرهم، ممن أعرفهم وممن لم أتشرف بلقائهم ومعرفتهم، كالسيل المنهمر من فيضان المشاعر تطالبنى بالعدول عن قرار الانصراف، وسأظل وفيًا لجميلهم ما بقيت.

المرة الأخيرة وربما الأكثر وجعًا، عندما وجدت ابنى أحمد يصارحنى بإصابته بورم خبيث من النوع العدوانى، فقد فاضت الأحاسيس الإنسانية والحنان الأبوى وتحررت جميعًا من كل عقل، وإذا بعينى فى حالة انهيار كهبوب العواصف، ودموعى تنافس الأمطار فى انسكابها.

3

من بين كل الطيور أحب النسر.

النسر له سبع مزايا.

رؤية ثاقبة ومركزة قادرة على قيادة الآخرين.

لا يعترف بالخوف بل يواجه الخطر وجهًا لوجه.

يمتاز بالعناد الإيجابى لا السلبى، فهو على سبيل المثال لا يحنى رأسه للعاصفة، بل يرتفع ويرتقى فوقها.

مغامر، فعلى سبيل التقريب له طموح الملوك لا دسائس القصر، كما الحمام على سبيل المثال، بعكس ما هو شائع فهو لا يأكل اللحوم الميتة (جثث خامدة جامدة) بل النيئة والطازجة (متعة الخروج للبحث عنها ورصدها) بمعنى قضاء وقت مع المتحررين فكريًا والمالكين لحيوية الحياة لا الموت.

رغم حيويته ولكنه فى سن الثلاثين تقريبًا يعيد صياغة نفسه (ليجدد ويعيد إنتاج نفسه) بمعنى تقييم الماضى.

على أى أرضية يقف وقفة مع النفس إذا جاز التعبير.

المشهور عنه شراسته، لكن ليس مع صغار النسور وشبابها، بل معروف برعايتهم وتوجيههم.

ظللت طوال حياتى أتذكر نصيحة وجهها الزعيم البريطانى ونستون تشرشل لصديقه أنتونى ناتنج، وهى النصيحة التى رواها لى ناتنج بنفسه، وكنت أستدعيها كثيرًا إلى مسرح حياتى فى مواجهة حملات الحقد والكراهية.

قال تشرشل لـ«ناتنج»: استغل كل طاقتك وإرادتك حتى تقوى جناحك ليحملك إلى الفضاء العالى، حيث تحلق النسور- هناك الحرية وهناك الخطر- إذا لم تستطع فلا تسمح لنفسك تحت أى ظرف بطلب الأمان فى قفص ببغاء تنطق برطانة يدربونك عليها فى الحزب، ثم يكون دورك أن تكررها وتعيدها كلما مروا عليك، ويطلبوا منك أن ترقص وتغنى حتى يراك السيد زعيم الحزب ورفاقه، وربما أبناؤه أيضًا، وقد يصفقون لك ويضحكون ثم يتركونك حيث أنت ويذهبون ومعهم بسمة من تسل وتله.

ثم نظر تشرشل إلى عينى ناتنج بعد أن أنهى درسه، ثم صاح فيه: نسر إذا استطعت.. ببغاء أبدًا مهما تحملت.

4

أنا شربت القهوة لأنى وجدت الأستاذ التابعى يشرب قهوة.

فى البداية فكرت أنها من ضرورات المهنة، وبعد ذلك تعودت على الحالة التى يخلقها فنجان القهوة أمامى لكن عمرى ما شربت فنجانًا كاملًا.

5

لا شىء أبدًا يدلل على أى حضارة أكثر من مطبخها، فالمطبخ هو المكان النهائى الذى تنتقل إليه رقة وأناقة ورقى الحياة.

لقد وجدت نفسى وسط مطابخ العالم بتنويعاتها.

فى المطبخ الصينى يتحرك الفرد الصينى بمنطق حب الحياة، قيمة الأكل الصينى أنه يمزج المتناقضات، قائم على التباين، وقائم على التماسك بين متناقضات وعلى نظام مكتف بذاته، عندما تتناول الطعام الصينى لا تستطيع أن تمزج معه طعامًا من مطبخ آخر.

نحن هنا يمكن أن نمزج شرقى بأوروبى، فطبق ورق عنب

محشى وهو طبق شرقى تستطيع أن تتناول بعده طبق إسكالوب، وهو طبق أوروبى (فرنسى)، لكن فى المطبخ الصينى لا تستطيع إلا أن تبدأ وتنتهى به، فهو بداية ونهاية وإحساس باللذة متكاملة ومكتف بذاته.

وعندما دعانى (وولين شى) المسئول عن تحرير جريدة (الشعب)، وهى كبرى الصحف الصينية، إلى عشاء ذات ليلة من شهر يناير 1973 فى مطعم بط بكين الشهير، كان العشاء سبعة أطباق من بطة واحدة.

كان الطبق مكون من خمس قطع مختارة باردة من البطة فى أول طبق، كبد البطة فى طبق ثان، أضلاع البطة بالصلصة فى طبق ثالث، قلب البطة فى قطع صغيرة محمرة فى طبق رابع، لسان البطة وأمعاؤها والبنكرياس مطبوخة مع الخضروات فى طبق خامس، جسم البطة نفسه أخيرًا، وهو الطبق الرئيسى، مشويًا فى طبق سادس، عظام البطة مسلوقة فى طبق حساء فى النهاية، وهو الطبق السابع، فالمطبخ لا يوجد به شىء اسمه ضائع.

فى المطبخ الفرنسى كنت أميل إلى حساء (البوياببيس) وهو حساء السمك الشهير فى مارسيليا.

وفى المطبخ الإسبانى لم أكن أقاوم وجبة (paella) وهى من الأرز والزعفران والمأكولات البحرية المتنوعة.

وكنت أتوقف فى المطبخ اليونانى عند سلطاته المميزة عبر إضافة زيتون كالاماتا وجبنة فيتا والتوابل وفلفل فلورينا المشوى والخرشوف (أرضى شوكى) بزيت الزيتون وغيرها.

فى مارس 1951 فى بيت شقيقة الشاه محمد رضا بهلوى (التوأم للأميرة أشرف) وقعت فى مأزق شخصى على مائدة الطعام، فقد كان طبق الكافيار هو فاتحة الغداء، ولم أكن قد ذقته من قبل، لكنى جاريت الباقين وأخذت فى طبقى بعضًا منه، وفعلت مثلما فعلوا وتناولت معلقة صغيرة منه على قطعة من الخبز المجفف وضعتها فى فمى، ثم لم أستطع أن

أمضغ أو أبلع، فقد فوجئت بزفارة بحرية مركزة وأحسست إننى أختنق، وكان الشاه هو الذى أحس على الفور بما جرى لى واقترح برقة أن أذهب إلى الحمام، وأتخلص مما هو غير قابل للمضغ أو البلع فى فمى، وأسرعت وعدت، وكان هو الذى قال بأدب: إن كل الذين يجربون الكافيار لأول مرة يحدث لهم ما حدث لك.

وفى يناير 1961 كنت برفقة الرئيس ناصر لحضور مؤتمر الدول الإفريقية المنعقد فى مدينة الدار البيضاء، وقد دعيت على طبق وطنى من غينيا، الطبق اسمه (فونيا) وهو مصنوع من الموز والأناناس والفول السودانى والدجاج وفوق ذلك كله صلصة من الشطة الحمراء.

كان السياسى الفلسطينى المقيم فى لندن الأستاذ باسل أمين عقل والسيدة قرينته، مها القدومى، وجها الدعوة لى ولمجموعة من المثقفين والصحفيين، وكان طبق المقلوبة متقدمًا المعروض من الطعام، أقبلت على الطبق أتناوله بنهم ورائحة الهال(الحبهان) تفوح منه.

بعد أن عدت إلى مكان إقامتى اتصلت هاتفيًا بالأستاذ عقل، سألته عن اسم الطبق الخرافى الذى يحوى لحمًا وأرزًا وباذنجانًا؟

قال لى: إنه طبق فلسطينى يدعى مقلوبة.

فقلت له: دى مقلوبة وطعمها بالشكل ده.. أمال لو معدولة كانت هاتبقى إزاى؟

وفى 23 سبتمبر 1956 (ذكرى ميلادى الـ33) سافرت مع الرئيس عبدالناصر إلى السعودية، بعد اقتراح الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود أن يكون الاجتماع فى مدينة الدمام.

لم أحضر الجلسات الرسمية بين الرئيس والملك، وتصادف أننى تواجدت فى إحدى مآدب الغداء قبالة الأمير فيصل شقيق الملك وولى العهد، وكان هناك على طاولة الطعام بيننا جمل صغير (مفطح قعود) جاثمًا على أقدامه، وتطوع الأمير

فيصل أن قدم لى قطعة لحم من الجمل، وأنا بدورى وضعتها فى طبقى ولكنى لم أستطع أكلها لعدم استساغتى لها، رغم أننى تناولت أطباق عجيبة وغريبة فى الدول العديدة التى زرتها، مثل قدم فيل فى الكونغو وثعابين فى تايلاند.

فى المؤتمر الأخير لعبدالناصر فى سبتمبر 1970- كان الرئيس ينزل فى الطابق الحادى عشر فى فندق النيل هيلتون، وفى ظهر أحد الأيام، وكانت فترة هادئة نسبيًا من فترات المؤتمر، حيث كان غيرى فى عمان، وليس هناك الكثير نفعله إلى حين عودته، أجلس معه نتبادل الحديث.

قلت له إنه لجميل أن يقيم الإنسان فى الفندق بين الحين والحين كنوع من التغيير.

فقال: أنا لا أجد ذلك جميلًا.. إنه كالقشلاق.

ثم قال إنه جائع، وسأل: هيكل أتظن أن الطعام هنا فى الهيلتون مختلف عن الطعام الذى آكله فى البيت؟

قلت: المسألة تتوقف ما الذى ستطلبه.

قال إنه يريد بعض السندويتشات، وأرسل فى استدعاء سفرجى عاد بنوع سندويتشات الجبن الأبيض نفسه الموجود دائمًا فى بيت عبدالناصر، وكان التفسير لذلك أن دواعى الأمن استدعت إحلال طهاة فندق هيلتون بعمال مطبخه.

قلت لعبدالناصر إن هذا ليس نوع الطلب الذى كان يحب أن يطلب فى فندق هيلتون.

فقال: وماذا يطلب الناس فى الهيلتون عادة؟

فقلت: عادة فى منتصف النهار لا يطلبون سندويتشات جبن، ربما طلبوا كانبيه بالسالمون المدخن.

وأضفت ضاحكًا ومداعبًا: وربما بعض المارتينى.

فقال: المارتينى؟ ألا يخشون أن يكون ذلك سببًا فى

دخولهم النار فى الآخرة؟

قلت: إنهم يعتقدون أن الله غفور رحيم.. والمهم هو تصرفات الإنسان وسلوكه.

سكت عبدالناصر لحظة ثم سأل فجأة سؤالًا غريبًا عدت إلى تذكره كثيرًا فيما بعد: هل أنت مؤمن؟

فقلت: أجل.. بالقطع أنا مؤمن.

فسأل: إذن قل لى.. ماذا بعد الموت؟

فقلت: ذلك سؤال بالغ الصعوبة، وأعتقد أن الجنة والنار هما هنا فوق هذه الأرض، وربما كان القصد من ذكرهما هو الرمز للخير والشر، وفى إمكاننا نحن أنفسنا أن نجعل من حياتنا جنة أو نارًا، أما بعد الموت فربما كانت النهاية.

فقال عبدالناصر: أتعنى أن من يفعل خيرًا على هذه الأرض لا يدخل الجنة؟

قلت: لا أدرى.. وإنما أظن أن الجنة والنار رموز.

قال: هذا ليس مطمئنًا.

وبعد ثلاثة أيام كان عبدالناصر قد انتقل إلى رحاب الله.

6

السيجار يخلق حالة دخان أتأملها، وتتصاعد ثم تختفى تشمها وتشوف أجواء تسرح معها، وممكن ينطفىء أولعه تانى وتالت، فهو حالة لزوم القعدة، وليس مثل السجائر أحتاج لشفطها باستمرار، فأنا لا أستنشق من دخانه شيئًا، ويمكن الاستغناء عنه، وفى فترة السجن لم أكن أشعر بالرغبة فيه.

بدأت حكاية السيجار معى مبكرًا جدًا.

كان نجيب الهلالى باشا يدعو عددًا من المقربين إليه مساء كل يوم جمعة على العشاء فى مطعم (سان جيمس) لكنه

بعد حريق القاهرة جرى على ذلك المطعم ما جرى على غيره فى وسط العاصمة، وهكذا فإن دعوة العشاء تقدم موعدها لتصبح على الغداء، كما تغير مكانها فى بيته على الشارع الرئيسى لضاحية المعادى.

كان نجيب الهلالى فى أغلب الأحيان يعرض لكل المدعوين على مأدبته سيجارًا من النوع الجديد الذى يدخنه (ارتورو فونت)، وعنده أدركت طريقى إلى تدخين السيجار، وأصبح الهلالى يمنحنى بعد كل لقاء معه سبعة من سيجاره الخاص لأدخنه خلال الأسبوع.

الأمر تكرر من فؤاد سراج الدين باشا، الذى كان يقدم لى ولغيرى من ضيوفه سيجار، وكنت أقبل الدعوة للتدخين من باب التجربة، إلى أن وقعت فى فخ العادة.

وبعد ذلك عندما كان الرئيس الكوبى كاسترو يرسل للرئيس جمال عبدالناصر صناديق السيجار، كان بدوره يحولها لى، لأنه لم يدخن فى حياته إلا السجائر.

وفى نوفمبر 1957 كنت على موعد مع زعيم الاتحاد السوفيتى نيكيتا خروشوف، لأجرى معه حوارًا، وقبل بداية اللقاء طلبت الإذن بالتدخين، وسمح لى بذلك، فأخرجت السيجار وبدأت التدخين، وفجأة استدار خروشوف نحوى وسألنى: هل أنت رأسمالى؟ لماذا تدخن سيجار؟

قلت له: لأننى أحب السيجار.

أخذ خروشوف منى السيجار وسحقه فى المطفأة، حاولت الاحتجاج، لكنه قال: السيجار سلعة رأسمالية، وأنت لست رأسماليًا لأنك صديق ناصر، حسنًا لنكمل حديثنا الآن.

وعندما التقيت به فى يوليو من العام 1958، تركت علبة سيجارى فى الخارج، ولاحظ ذلك خروشوف، فسألنى: أين سيجارك؟.. أريد أن أسحقه ثانية.

لكن فى مايو من العام 1964 عندما كنت فى موسكو،

وجدت خروشوف يهدينى علبة من السيجار الممتاز، فقلت له: سيادة الرئيس لقد أصبت بصدمة، ألا تذكر ما فعلته بسيجارى؟ لماذا تغيرت؟

أجابنى خروشوف: أنا لم أتغير، لكن السيجار هو الذى تغير، فمنذ ثورة كوبا أصبح هذا السيجار ماركسيًا لينينًا.

وأتذكر أن جمال عبدالناصر عندما أعلن بيانًا معلقًا على غزو كوبا، وهى محاولة فاشلة، تضايق منه كينيدى، وتبادل الإثنان خطابات، وكان لا بد من تصفية الموقف، وكنت أعرف جورج باندى مستشار الأمن القومى وسالينجر، فكان السفر سهلا ولقاء هذه المصادر لأوضح لهم ما لا يقال رسميًا.

كنت فى جنيف وتوجهت إلى أمريكا واشتريت سيجارًا كوبيًا، وعندما هبطت الطائرة ونزلت فى مطار نيويورك، وكان ينتظرنى مراسل الأهرام هناك، وقال لى من وراء الحاجز الجمركى: اوعى تكون جايب معاك سيجار، فقلت له: معايا، فانزعج، ولحسن الحظ فتحوا كل الحقائب ما عدا حقيبة السيجار.

ذهبت إلى البيت الأبيض، وفى مكتب جورج باندى قدم لى سيجارًا فليبينيًا، فقدمت له سيجارًا كوبيًا، استهول أن يدخنه فى البيت الأبيض.

قال لى: لا أحد معتاد على رائحته وبالتالى سأنكشف، ووقتها يمكن أن يقوم الكونجرس بعزلى.

دخل علينا الرئيس كينيدى، فوجدت باندى يقول له مازحًا: سيدى الرئيس لا بد أن تحقق معه كيف أدخل سيجارًا كوبيًا إلى الولايات المتحدة ومن ثم إلى البيت الأبيض؟

دخلت المكتب البيضاوى عند الرئيس كينيدى.

بادرنى قائلا: أنا عارف إنك بتحب السيجار.

أعطانى سيجارًا فلبينيًا، فاعتذرت عنه.

سألنى: ما السيجار الذى تفضله؟

فأخرجت واحدًا وقلت له: ده.

فقال كينيدى عندما رآه: ده جريمة فى أمريكا وفى البيت الأبيض مشكلة أكبر.

ثم كان رقيقًا عندما قال: ومع ذلك لن أحرمك منه.

أشعلت السيجار وعندما وصلت رائحته لأنف كينيدى، قال إنه جميل، وطلب واحدة وأضاف: أنا ممكن أطرد من منصبى بسبب هذا السيجار.

فقلت له: سيدى الرئيس سأترك كل ما معى من سيجار.

فى بدايات الثمانينيات وبعد صدور كتاب (خريف الغضب) بدأت عمليات الترجمة إلى عشرات اللغات الأخرى ومن ضمنها بطبيعة الأحوال اللغة العربية، أوكلت دار النشر فى بيروت (شركة المطبوعات للنشر وصاحبها هو الأستاذ تحسين خياط) إلى أستاذ جامعى بترجمة الكتاب.

اطلعت على الترجمة للفصول الأولى والتى بذل فيها مجهودًا يستحق التقدير، ولكن لحساسية الكتاب آثرت القيام بنفسى بترجمة الكتاب، متفرغًا لمدة شهرين من العمل، ولم أتقاضى جزاء عملى هذا وحرصى وتدقيقى قرشًا واحدًا، ولكن الأستاذ تحسين خياط أهدانى ستة صناديق من السيجار، فقبلتها مع الشكر، ومعتبرًا أن الأمر قد انتهى.

فى لقائى مع الرئيس مبارك فى ديسمبر 1981 بعد خروجى من السجن مباشرة، سألنى: ألا تريد أن تدخن سيجارًا.. أنا أعرف أنك من مدخنى السيجار وأنا مثلك.

أبديت الدهشة، فقال إنه لا يظهر فى الصور بالسيجار لكى يتجنب (القرشنة)، لكنه يدخن سيجارًا واحدًا كل يوم، ثم ضغط على جرس يطلب صندوق السيجار.

جاء الصندوق مع أحد الضباط، وطلب مبارك تقديمه إلى

بالإشارة، وأخذت منه سيجارًا وأخذ هو سيجارًا.

سألنى وهو يرانى أشعل عود كبريت: سيجار كويس؟

لم أقل شيئًا ويظهر أنه أحس أننى لا أشاركه الرأى، وقلت: الحقيقة أنه مقبول.

قال باستنكار: إيه؟.. هذا روميو وجوليت.

قلت: الشركة التى تنتج سيجار روميو وجوليت تنتج أكثر من 75 نوعا بعلامتها، وكل نوع منها مختلف عن الآخر.

وسأل مبارك باهتمام: أمال إيه بقى السيجار الكويس؟

قلت: بإذنك فى سيارتى علبة صغيرة فيها سيجار، ولم أدخل بها لأنى لم أتصور أنك تدخن، وإذا وافقت نطلبه.

وجاءت العلبة، وعرضت على الرئيس مبارك أن يتفضل، فأخذ واحدًا منها أشعله، وكانت ملاحظته: والله أحسن فعلًا.. غريبة جدًا.

قال وهو يستعيد الذكريات: عندما كنا نتدرب فى الاتحاد السوفيتى كطيارين، كنا نشترى هذا السيجار الذى لم يعجبك، ونبعث به إلى قادة السلاح، وكانوا يعتبرون ذلك فخفخة.

جذب نفسًا من السيجار الذى قدمته له، وقال: فعلًا لك حق هذا أحسن جدًا، ولكن القادة الذين كنا نرسل لهم السيجار كانوا يعتقدون أن الاتحاد السوفيتى يأخذ سيجار كوبا مقابل السلاح.

قلت: ذلك صحيح إلى حد ما، لكن أفضل أنواع السيجار الذى تنتجه كوبا كان للتصدير بالعملة الصعبة إلى الغرب، وما تبقى من الدرجتين الثالثة والرابعة يذهب إلى الاتحاد السوفيتى ويشتريه الزوار بحسن نية.

مد الرئيس مبارك يده إلى جرس، فدعى أحد الضباط ثم التفت وقال: محمد بيه ملى عليه كل أنواع السيجار الكويس.

قلت ما مؤداه إن لكل نوع من السيجار مذاقًا، وإن كل مذاق مسألة اختيار، ولذلك فإنه من الصعب على مدخن أن يوصى غيره بنوع معين.

قال: معلش.. مليه الأنواع الأبهة دى.

كان الضابط قد أسرع وجاء بورقة وقلم مستعدًا لكى أمليه، وعاد إلى تجربة السيجار الذى قدمته له، وقال: فعلًا كويس جدًا.

ثم أضاف ضاحكًا: يا أخى عايزين نتعلم العز.

لفت تعبير العز نظرى، وقلت: إنها ليست مسألة عز، ولكنها ظروف.

قال مبارك: لاحظت إن كل الرؤساء الأمريكان يدخنون سيجارًا ويمارسون لعبة الجولف وأنت أيضًا تلعب الجولف.

قلت بسرعة: صحيح ولكن بدون رئاسة.

بادر معلقا: والله أحسن يا أخى.. الناس تتصور أن الرئاسة شىء عظيم، والحقيقة أنها بلوة.

لسنوات طويلة كنت أعتبر مكتبى فى جريدة الأهرام من أجل العمل فقط، مقابلات حوارات استشارات، فهو ليس دوار عمدة لمضيعة الوقت وتمضية النهار فى النميمة والدسائس.

لم يكن أحد يدخل علىّ دون موعد مسبق، كان هناك استثناء واحد من نصيب السفير الكوبى، الذى كان نقيب صيادى الأسماك فى بلاده، قبل أن تسند له مهمة دبلوماسية ويتم ترفيعه لمنصب سفير كوبا فى القاهرة.

كان لقائى معه من أقصر المقابلات.

يدخل على، يسألنى عن حالتى وحال الأوضاع فى مصر؟

أرد عليه: نحن الاثنين بخير.

يسلمنى علبة من السيجار الكوبى ويستأذن منصرفًا.. وكان هذا كل شىء.

لم أفكر أبدًا فى الإقلاع عن تدخين السيجار رغم مطاردة الأطباء لى.

كنت أقول للجميع ما الذى يجعلنى أقلع عنه ما دمت معتدلا فى تدخينه، ميزته أنه يمكث طويلا فى يدى خاصة إذا ما انشغلت عنه.

7

لعبة الطاولة تحتاج إلى براعة، ولكنها فى الأساس تعتمد على ضربة حظ يتمناها اللاعب وقد تقع له أو لا تقع، ولعبة الشطرنج مسألة أخرى تمامًا، أساسها قانون للعبة، وحساب، ثم حركة.

فى تصرفاتنا باستمرار انتظار واعتماد على ذلك المجهول الغامض، ضربة الحظ التى تقع أو لا تقع، وبعدها نسعد أو نحزن، يتوقف الأمر على مهارة اللاعب أو خيبته، على يمن طالعه أو نحس ذلك الطالع.

8

عشت باعتقاد واضح أن جسم الإنسان هو الوعاء الذى يضم كل الحواس وكل الملكات، وإذا لم تكن تقوم بجزء من الجهد البدنى العضلى المتمثل فى الرياضة بالدرجة الأولى، فإنك ستفقد شيئًا ضروريًا للياقة الإنسان، ولهذ السبب كنت دائمًا أمارس الرياضة، وإن اختلفت وسائل ممارستى لها.

فى وقت من الأوقات كنت أؤدى فقط تمرينات سويدى، وفى مرحلة أخرى كنت ألعب التنس، وفى مرحلة أخرى كنت أعوم بانتظام، حتى وصلت فى النهاية إلى أن أمارس الجولف.

مراحل حياة الإنسان عادة لا تشكلها إرادتنا، لأن إرادتنا

متفاعلة مع ظروف كثيرة مختلفة، ولا أتصور أن تخصص مرحلة معينة من حياتك للتنس، وتخطط مرحلة بعدها للجولف.

لا.. هذا لا يحدث، لأن الحياة تنساب انسيابًا طبيعيًا، وقد تشعر بأنك تريد المجهود البدنى، وتشعر بأن الرياضة تعطيك شيئًا مختلفًا، وأنا أعتقد أن كل رياضة تعطيك شيئين.

الشىء الأول: المجهود البدنى المطلوب للياقة الجسم وتعلم التصارع أو المنافسة مع الأشياء بطريقة طبيعية.

الشىء الثانى: إنها ودون أن تحس أو تخطط تعبر عن احتياجاتك فى مراحل مختلفة من عمرك.

أنا فى مرحلة معينة كنت ألعب التنس، وهو يعلمك رد الفعل السريع، يعلمك التنبه وأنت ترى الكرة وهى قادمة إليك بسرعة، يعلمك سرعة اتخاذ القرار أين ستقف؟ وكيف سترد الضربة؟

الجولف فى اعتقادى فيه مزايا عديدة.

من أولها أنك تبدأ يومك بين الخضرة وهى بداية صحية فى جو نقى، وأنا أمارس الجولف مبكرًا، لأننى أبدا عملى فى تمام الثامنة والنصف صباحًا، فطبيعة عملى تقتضى- وكان هذا صحيحًا طوال الوقت- أن أكون موجودًا فى مكتبى أو إطار مكتبى لمدة ثمانى ساعات دون انقطاع أو إزعاج، سواء كنت أكتب أو ألتقى مع بعض الناس، أو أى شىء آخر.

وهناك مسألة مهمة وهى أننى لا أريد للرياضة أن تتعارض مع مواعيد عملى، وقد حدث أن قال لى بعض الناس لماذا لا تذهب فى العاشرة صباحًا بدلًا من هذا الوقت المبكر؟

وبالطبع لا أستطيع أن أفعل.

أولًا لأنك لو ذهبت إلى مكتبك مباشرة بعد الخروج من فراشك فسوف تكون نصف نائم.

وثانيًا لأن عدم البدء بالرياضة سوف يبدد ساعات اليوم وسأقطع عملى إذا تركت ممارستها فى وقت غير محدد، والكتابة تحتاج إلى أوقات محددة واستمرارية فى العمل.

كثير من الناس فى السياسة يلعبون الجولف، لأن هناك علاقة قوية بين السياسة والجولف، وفى اعتقادى أن الجولف قائم على سيناريو معين، يبدأ من نقطة بداية، وينتهى فى نقطة نهاية، وهناك بداية محددة ونهاية محددة، وبين الاثنين فى الغالب مسافات متفاوتة.

أنت تقف فى مكان تمسك كرة وعصا، الكرة لها مساحة فى النهاية سوف تضعها فى حفرة- فيها وعاء معدنى أشبه بالكوب غائر فيها- تتسع بالكاد، وإذا حدث وبدأت فى التصويب على الحفرة من الضربة الأولى مباشرة فلن تصل أبدًا، فأنت لديك عدد محدد من الضربات فى كل حفرة، وهذا يعطيك:

أولًا: أن تتعلم كيف تصل من نقطة بداية إلى نقطة نهاية بعدد معين من الضربات، وعليك أن تحسب طاقتك وقدرتك.

ثانيًا: لا بد أن تنتقى العصا المناسبة للمساحة التى تريد أن تقطعها.

ثالثًا: أن تختار اتجاهك فى الضربة بما فيه تصور اتجاه الريح، وما يمكن أن تفعله فى العصا.

كل هذا لا تستطيع أن تفعله واعيًا، فأنت تختار العصا وتحدد اتجاه الريح وتأخذ زاوية الضربة بطريقة أوتوماتيكية تقريبًا، وكما نعرف أن كل الأشياء التلقائية التى نقوم بها فى حياتنا هى وليدة اعتياد، والاعتياد ناشئ عن تدريب، والتدريب قائم على فكرة معينة.

وعندما تبدأ فى الضرب فإنك تأخذ الاتجاه العام للهدف، محاولاً الوصول إلى قدر ما تستطيع الوصول إلى أقرب نقطة له، وطوال الوقت الذى تفعل فيه ذلك هناك عملية شحن لملكاتك كلها، ملكات تحديد ومرحلة وصول إلى هدف، وكل

هذا له علاقة وثيقة بالسياسة.

من زاوية أوسع وطوال الوقت كنت ألاحظ شبهًا بين ممارسة السياسة وممارسة لعبة الجولف، ملخصه كلمة واحدة التكتيك، بمعنى أن من يحاول أن يستخدم عصا واحدة، ومن ضربة واحدة، ليدخل الكرة فى الحفرة، لن يقدر ولا يستطيع.

هناك عدة ضربات محددة.

الوصول للهدف بحده الأعلى أو الأدنى من المطالب الشعبية مستندًا على جهدك وحيويتك.

التنبه إلى مكان ومكانة وتاريخ وهوية وقدرة وهمة وعلى اختيار العصا المناسبة للضربة القادمة.

دفع الإمكانيات والإرادة واختيار اتجاه الضربة بما يتناسب مع حركة الرياح.

حشد وإدارة ما يملكه الشعب من موارد طبيعية وإنسانية وتاريخية واستراتيجية واقتصادية وثقافية.

لعبة الجولف تجعلك تمشى طوال الوقت ولمسافات طويلة، والمشى أحسن وأرخص وأجمل رياضة فى الدنيا.

ومن فوائد الجولف أيضًا أنك تستطيع أن تلعبه بمفردك، لأنه من الممكن أن تلعبه بمقاييسك ضد الأرض، كما أنه يعطيك فرصة للتفكير والتأمل.

بعد أن كنت ألعب التنس بدأت أشعر بأنه يتعبنى، وربما أن هذا الأمر له علاقة بالسن، وعندما كنت فى الأهرام كان التنس أفضل لى لأنه لا يتطلب وقتًا أقل، وكان من الممكن أن تلعب التنس وتذهب إلى عملك مباشرة، إذ يكفى منه نصف ساعة أو 35 دقيقة.

وبعد أن تركت الأهرام بدأت ألعب الجولف، ربما لأننى شعرت بأن التنس أصبح لا يناسبنى، أو ربما أننى شعرت بأننى لا أحتاج السرعة أو سرعة رد الفعل، وربما أنه أصبح

لدى وقت أطول، ولم أعد أسهر كثيرًا فى حين أننى كنت أضطر للسهر وأنا فى الأهرام، وكان مديرو التحرير لهم الحق فى إيقاظى فى أى وقت لأمر يرونه ضروريًا.

ولهذا كنت ألعب الرياضة دائما مبكرًا، فأنا أشعر بأنه لا ينبغى أن يقتطع ما يخصنى شخصيًا من وقت عملى.

الرياضة ضرورة ولازمة للإنسان لزوم الأكل والنوم، وقد حاولت أن أجعلها خارج وقت التزامى العام لا تطغى عليه، ولا تأخذ منه، ولا تخصم، وأذكر أننى فى كل مكان اشتغلت فيه كان الناس يضبطون ساعتهم على موعد دخولى فى الثامنة صباحًا.

الجولف ليس رياضة أثرياء كما يتصورها الناس، ورغم أننى أعرف أنها مصنفة هكذا فإنها ليست كذلك، ولا أرى أن تكاليفها فى النهاية كبيرة جدًا، وأنا عندما أحسب مصروفاتى الشخصية ما هى؟ أجدها لا شىء سوى الجولف تقريبًا.

ويكاد يكون الجولف هو الشىء الوحيد الذى أفعله لنفسى، وقد أشترى قميص جولف، بلوفر، حذاء، ومع هذا فأنت فى أى رياضة أخرى تشترى نفس الأشياء، صحيح أن تجهيزات الجولف أغلى من الباقين لكن أرقامها ليست خيالية.

لست ساذجًا حتى أتصور أن أى رجل فى أى قرية مصرية يمكن أن يلعب الجولف، تمامًا مثل أن أى رجل فى أى قرية مصرية يمكن أن يقرأ كتابًا.

هناك بالقطع تفاوتات بين الناس فى درجة الاستعداد، وفى درجة الكفاءة وليس التفاوت بالميلاد، أو بالملكية إطلاقًا، وقد يكفى أن أقول إن أكبر أغنياء مصر لا يلعبون الجولف، بل لا يلعبون الرياضة ولا يقتربون منها، وهم مشغولون جدًا بجمع المال، ولهذا ربط الرياضة بأثرياء وفقراء تصنيف غير صحيح.

أفضل مكان لعبت فيه الجولف فى سويسرا، قرية كرانس مونتانا، وهى منتجع للتزلج فى قلب جبال الألب السويسرية،

وهناك نادى فى كرانس سورسيير، وهو على هضبة مطلة على وادى الرون، وفى مواجهته مرتفعات مون بلان، وعادة ما كنت أقيم بفندق صغير هناك.

وفى لقائى الممتد مع الرئيس مبارك الذى استمر ست ساعات، قلت له شيئًا عن لعبة الجولف، وكيف أنها خير معلم للسياسة، وسألنى: كيف؟

شرحت على قدر ما أستطيع لعبة الجولف، وعلاقتها الوثيقة بالعلوم الاستراتيجية، واستمع إلى باهتمام، ثم كان تعليقه: لكنها لعبة تأخذ وقتًا، وأنا أفضل السرعة ولذلك ألعب الإسكواش، وهى لعبة موصوفة للطيارين لشحن قدرتهم على الاستجابة السريعة.

9

لم أنتم كرويًا أبدًا، كنت عضوًا قديمًا فى النادى الأهلى، ومع ذلك فلم أكن أهلاويًا ولا زملكاويًا.

أولادى فقط لهم اهتمامات عميقة بالكرة وجمعيهم أهلاوية، وكان بعض أحفادى زملكاوية، ولم أكن أعرف أحدًا من نجوم كرة القدم اللهم إلا صالح سليم لأنه صديقى، وتربطنى به صلة قرابة.

10

هناك أشياء أنا على المستوى الشخصى أخاف منها جدًا، على سبيل المثال أخاف من الهزات الأرضية، فحيال الظواهر الطبيعية لا يمكنك أن تقوم بشىء، وهذا ما كان يثير خوفى دائمًا.

هناك الخوف الذى أدركته فى تجربة الحرب، عندما عملت مراسلًا من أرض الحروب فى بداية حياتى المهنية.

لا تصدق من يتباهى بأنه لا يخاف، فعندما يواجه أول دفعة من الانفجارات فى أرض القتال، فمن الأكيد أنه سيخاف،

لكن هناك فرقًا بين الخوف والهلع، أسوأ ما يمكن أن ينال من الإنسان هو الهلع، الهلع معناه أن تتصرف بمسلك أحمق، قد يجعلك تضيع روحك.

من الفطرة أن تخاف، ولكن من المهم أن تبقى هادئًا.

هناك نوع من الخوف لا آلفه، بل أظنه ترفًا بالنسبة لصاحب رأى، وهو الخوف الأخلاقى، أى تخاف معنويًا، أو تخاف من هيلمان، إذا خفته فابتعد عنه، لا يليق أن تخاف من التزام طالما اقتنعت به، أو أن تخاف من سلطان طالما قبلت بمعارضته.

الخوف الأدبى أعده عارًا مهما كانت الأسباب، بل شاهدًا على الخلل العقلى، لأن صاحبه لم يتيقن من قياس شجاعته وصرامة الآخرين، الخوف ترف وحيد ليس ممكنًا أن أتجرأ به على نفسى، كما لا يقدر على ذلك أى صاحب رأى وإلا كان الأجدر به أن يغلق فمه ويصمت.

والحرية لا تكون حرية إلا فى زمانها وفى أوانها.

والشجاعة لا تكون بأثر رجعى أمام القبور وإنما أمام القصور.

ولكنى أؤكد أننى لم أشعر بخوف فى أية لحظة، يوم أن أتوا ليقبضوا على طلبت منهم بأدب فسحة من الوقت لتجهيز حقيبتى، حتى أستوضحهم عن المكان الذى سنقصده، لعل ما كان يؤرقنى عندها إذا كانوا سيبقون معى كتبًا أم لا؟

11

كان من سوء حظى أو من حسن حظى- لا أدرى- أننى زرت فى يوم من أيام يناير سنة 1953 مدينة هيروشيما التى كان من نصيبها أن تكون أول بقعة على الأرض تلتقى وجهًا لوجه بالقنبلة الذرية.

وكانت القنبلة الذرية فى بداية عمرها، ولم تكن قد وصلت

إلى الذى وصلت إليه بعد ذلك، والذى يقدره العلماء بأنه أشد تدميرًا مما كانت عليه أيام هيروشيما بألف مرة على الأقل، ولقد قتل فى هيروشيما 168000 شخص من تأثير هذه القنبلة التى كانت يومها فى بداية عمرها وأصبحت الآن أقوى مما كانت ألف مرة على الأقل.

تقدم إلىّ وأنا واقف أتفرج على بؤرة الانفجار فى هيروشيما، شاب يابانى يحمل مجموعة من تذكارات انفجار القنبلة الذرية يبيعها للزوار.

وعرض علىّ اليابانى أنواعًا من التذكارات رأى أنها لم تثر حماستى، فإذا هو يقدم لى زجاجة صغيرة فيها حفنة رماد، ثم يقول لى: هذه بقايا طفلة لم يبق منها إلا هذا الرماد، هل تحب أن تشتريها وتحتفظ بها فى بيتك وتقول إن لديك رمادًا ذريًا لطفلة من هيروشيما، إن الثمن رخيص. ألف ين فقط.

وتأملت الرماد الحزين، ثم هززت رأسى وقلت: شكرًا إن ثمنه غال بالنسبة لى.

لم يفهم بائع التذكارات اليابانى فى هيروشيما فعاد يقول: خذها بخمسمائة ين فقط، ها هى.

ومرة ثانية هززت رأسى وقلت: شكرًا ما زال الثمن غاليًا، لست أقصد الثمن بالين اليابانى، حتى لو أعطيتنى الرماد من غير ين واحد، سأظل أرى أن الثمن غال، هل فهمتنى.

ولم يبد عليه أنه فهم، ولكنه مضى إلى حال سبيله على أى حال.

12

لا بد أن تدرك أن الحياة كأى كائن فيها فترة نمو وفترة صبا وفترة شباب، ثم فترة نزول وانحدار فى كيانك كلحم ودم.

عندما تجاوزت بعمرى إلى سنواتى السبعين كنت أعرف أننى فى سن متأهل جدًا للمرض، وعندما جاءتنى آلام الكلى

لم أكن قلقًا لأن هذا هو الطبيعى، فهذه سن الأمراض التى تتواعد معى.

كنت سعيدًا أن الأمراض تركتنى فترات طويلة أعمل، فإذا جاءت بعد ذلك فلعله موعد الاستحقاق الضرورى لزيارة الأمراض، ولما ذهبت لإجراء العملية لم يكن الطبيب يعلم عنى شيئًا، وتدخل البعض للموعد الفورى واستجاب الطبيب دون أن يفهم سر الاهتمام بى.

كل الذى كان يعرفه الطبيب إننى صحفى فقط.

قال لى إنه قبل إجراء الجراحة كانت هناك حالتان لرئيسى دولتين عربيتين.

وقلت للطبيب الجراح: لا تقلق على، أنا أعتبر نفسى محظوظًا لأنى عشت زمنًا معقولًا دون أمراض، والحمد لله أنك ستجرى العملية وتزيل كيس جوار الكلى، لا بد أن أعترف أنه كان هناك وربما يكون هناك خطر على.

إننى من الذين يعتقدون أن الموت جزء من الحياة.

وحياتى هى استمرار فى أولادى وأحفادى.

هناك أيضًا فرق بين العمر والحياة، فنحن ربما لا نحب العمر ولكننا نحب الحياة أكثر، لقد كنت مستعدًا للعملية ولم تكن صغيرة.

بعد العملية أفقت من البنج ناولنى الجراح سماعة التليفون، لأن رئيس دولة عربية كان معه على التليفون ليتأكد أننى بخير، وقد قلت لنفسى: إن الأمراض رفيقة بى وجاءت متأخرة، وقد أمهلت بأكثر مما ينبغى.

13

لم يكن فى الموت أبدًا ما يخيفنى.

ولم يكن فى الفكرة نفسها ما يفزعنى.

لقد كتبت ظرفًا مقفولًا إلى زوجتى، وفيه نعيى، ورسمت فيه جنازتى، هذا لا يخيفنى.

إن ما فعلته فى حياتى يجعلنى لا أنظر ورائى فى غضب، بل أشعر بالرضا، وأقول إننى نسبيًا عملت الكثير فى حياتى، بقدر ما استطعت جريت، وبقدر ما جريت نجحت.. وربما لم أنجح.

ألبوم صور وذكريات



هيكل



الأستاذ في المرآة



مع الرئيس القذافي



مع علي ومصطفى أمين



هيكل يلعب مع أبناء عبد الناصر



أثناء زيارة عبد الناصر لجريدة الأهرام



لقاء السحاب.. أم كلثوم ونجيب محفوظ وهيكل



هيكل خلف الزجاج



في مكتبه مع عبد الناصر



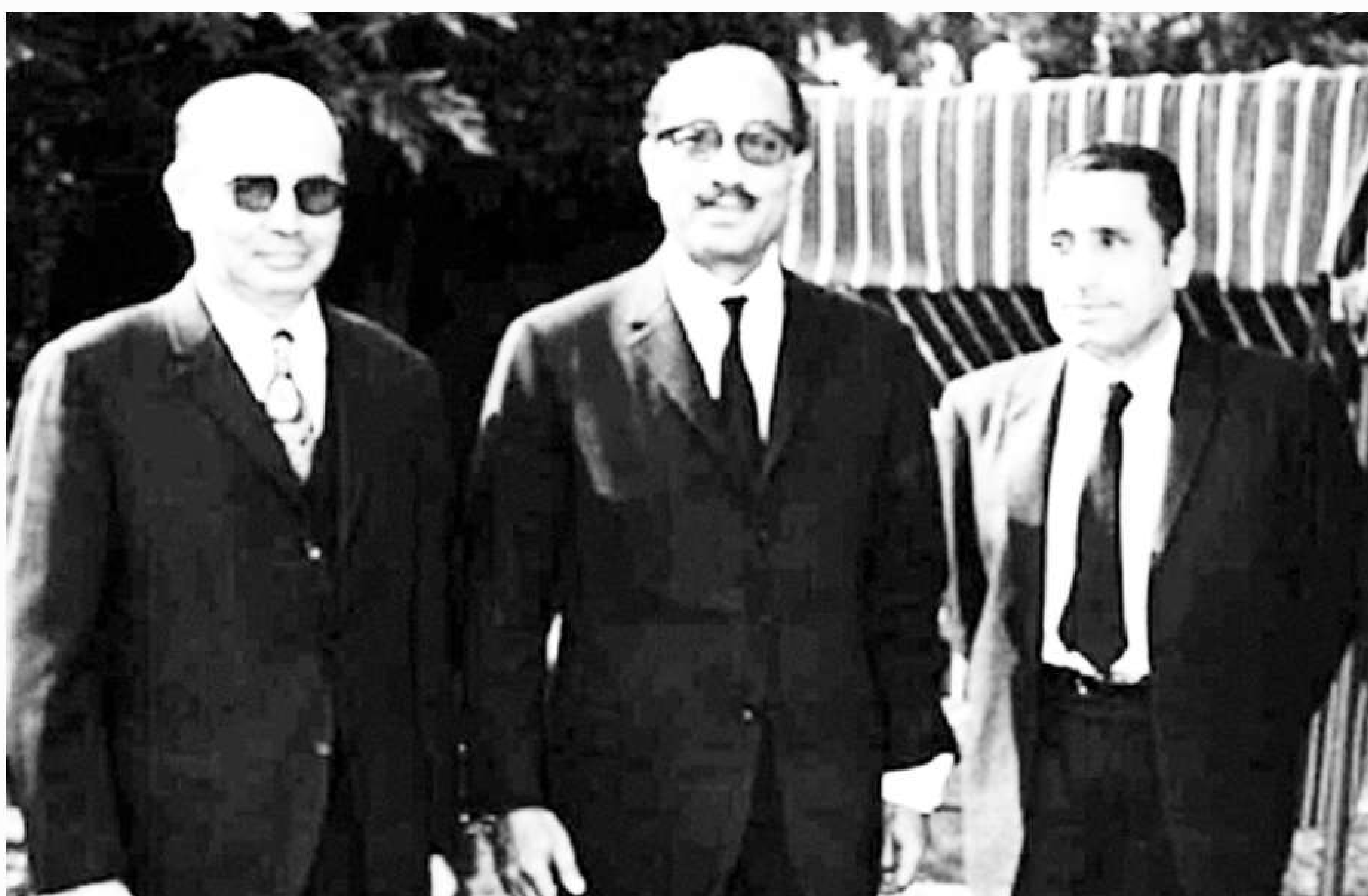
في مكتبه بالأهرام



مع الخميني



مع عبد الناصر والسادات



بصحبة الرئيس السادات



مع جيفارا



بعد خروج هيكل من السجن



مع مبارك



مع إبراهيم نافع



الأستاذ



بصحبة عادل إمام وفاروق حسني



هيكل ونجيب



في برقاش



الأبنودي يقرأ وهيكل يسمع



مع عادل إمام وعادل حمودة وصلاح منتصر



الأستاذ هيكل يصافح الدكتور محمد الباز